رواية

إيلينا فيرّانتي

الهاربون والباقون

صديقتي المذهلة III

ترجمة: مُعاوية عبد المجيد

مكتبة 175

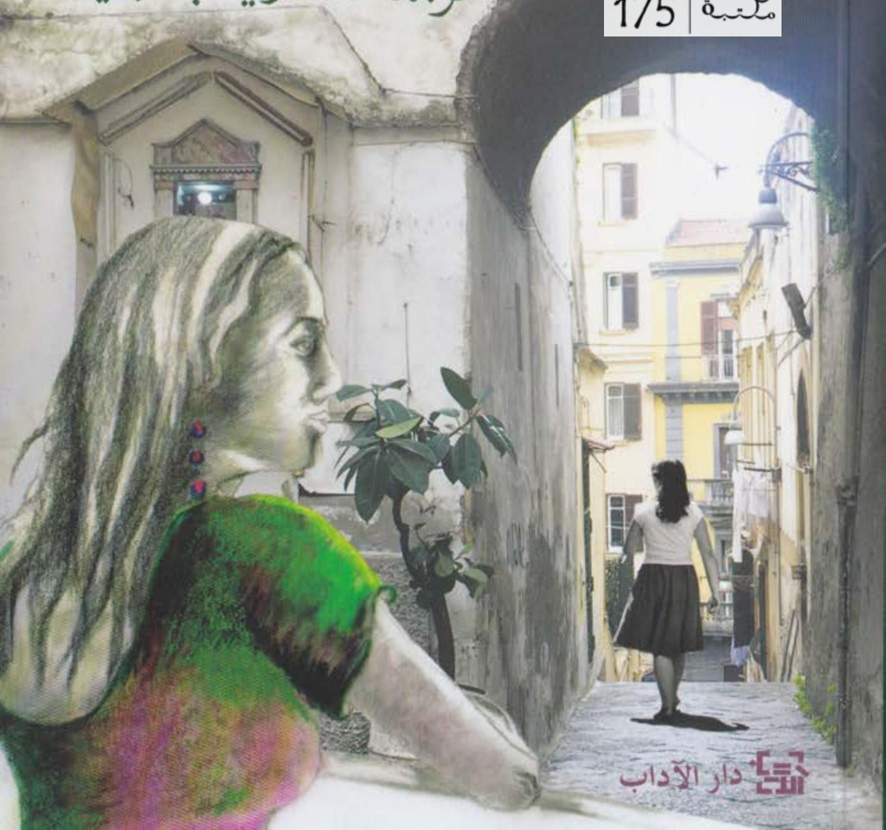

دار الآداب

الهاربون والباقون

الجزء الثالث من «صديقتي المذهلة»

أواسط العمر

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

إيلينا فيرّانتي

الهاربون والباقون

أواسط العمر

ترجمة: معاوية عبد المجيد

رواية

للمزيد والجديد من الكتب والروايات

زوروا صفحتنا على فيسبوك

مكتبة الرمحي أحمد

دار الآداب ـ بيروت

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

الهاربون والباقون

إيلينا فرّانتي / كاتبة إيطاليَّة

الطبعة الأولى عام 2018

ISBN 978-9953-560-4

Storia Di Chi Fugge E Di Chi Resta

Elena Ferrante

Copyright © 2013 Edizioni e/o

telegram @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

كلُّ الشخصيّات والأحداث في هذا العمل الأدبيّ، وما يحويه من أسماءٍ وحوارات، هي من نسج خيال الكاتبة وتعبيرها الحرّ وأيُّ تشابهٍ، أو إشارةٍ، أو تطابقٍ مع الأحداث الواقعيَّة والأشخاص الحقيقيِّين والأسماء والأماكن الحقيقيَّة، هو صدفةٌ محضٌ، وغيرُ مقصود.

وحتى عندما تذكر الكاتبة مؤسَّساتٍ موجودةً في الواقع، فإنَّ هذا محصورٌ بما تقتضيه تقنيَّات التخييل الأدبيّ في معالجة الشخصيّات والأحداث.

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

فهرس الشخصيَّات وأهمّ الأحداث التي وقعت في الجزأين السابقَين

عائلة شيرولّو (عائلة الإسكافيّ):

فرناندو شيرولُّو، إسكافيّ. والد ليلا يُرغمها على عدم إكمال دراستها بعد المرحلة الابتدائيَّة.

نونتسيا شيرولُّو، والدة ليلا قريبة من ابنتها، لكنّها لا تملك سلطة كافيَّة لتساندها في وجه أبيها.

رافايلا شيرولُّو، تُدعى لينا أو ليلا وُلدت في آب/ أغسطس ١٩٤٤ وكان عمرها ستَّة وستِّين عامًا حين اختفت من نابولي من دون أن تترك أثرًا. تلميذة ذكيَّة ومتألِّقة. تؤلِّف قصَّةً بعنوان «الساحرة الزرقاء» في سنِّ العاشرة. تنقطع عن الدراسة بعد حصولها على الشهادة الابتدائيَّة، وتتعلَّم مهنة الإسكافيّ. تتزوَّج ستيفانو كارّاتشي في سنٍّ مبكِّرة، وتنجح في إدارة الملحمة في الحيِّ الجديد أوَّلًا، ثم محلِّ الأحذية في ساحة الشهداء. خلال إجازةٍ في إيسكيا، تقع في غرام نينو

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

سارّاتوري، وتهجر زوجها من أجله. وبعد فشل المساكنة مع نينو، وولادة ابنها جينّارو، تهجر ليلا زوجَها ستيفانو نهائيًّا، حين تكتشف أنّه ينتظر مولودًا من آدا كابوتشو. تنتقل للعيش مع إنتسو سكانّو في سان جوڤاني آتيدوتشو، وتُباشر العمل في معمل برونو سوكافو لتصنيع اللحوم.

رينو شيرولُّو، شقيق ليلا الأكبر، إسكافيٌّ أيضًا بالتعاون مع أبيه فرناندو، وبفضل ليلا وأموال ستيفانو كارّاتشي، يفتتح ورشة شيرولُّو لصناعة الأحذية. يتزوَّج شقيقة ستيفانو، بينوتشا كارّاتشي. وتنجب له ولدًا يسمِّيه فرديناندو، ويُدعى دينو. كما أنَّ ليلا تُسمِّي ابنها الأوَّل على اسمه جينّارو، وتناديه رينو أيضًا

أبناءٌ آخرون.

عائلة غريكو (عائلة البوّاب):

إيلينا غريكو، تُدعى لينوتشا، أو لينو. وُلدت في آب/أغسطس ١٩٤٤، وهي مؤلِّفة هذه الرواية الطويلة. تشرع إيلينا في كتابتها حين يبلغها خبر اختفاء صديقة الطفولة، لينا شيرولّو، التي تنفرد إيلينا في تسميتها «ليلا». بعد المرحلة الابتدائيَّة، تواصل إيلينا الدراسة بنجاح متصاعد. وفي المرحلة الثانويَّة، تنجو من صدامٍ مع أستاذ التربية الدينيَّة، بشأن دور الروح القدس؛ وذلك بفضل مثابرتها ووساطة الأستاذة غالياني. فيدعوها نينو سارّاتوري ـ الذي تحبُّه سرًّا منذ طفولتها المبكِّرة ـ إلى كتابة مقال عن ذلك الصدام، بمساعدةٍ ثمينة من ليلا لكنّ المقال، في النهاية، لا يُنشَر في المجلَّة التي يتعاون معها نينو. تحظى مسيرة إيلينا الدراسيَّة بالنجاح، وتُكلَّل بالشهادة الجامعيَّة من جامعة نورمالي في بيزا، هناك حيث تتعرَّف إلى بييترو آيروتا وترتبط

telegram @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

به؛ ثم بإصدار رواية من تأليفها، تتطرَّق فيها إلى الحياة في الحيِّ، وإلى تجاربها الشبابيَّة التي مرَّت بها في إيسكيا

بيبّي، جانّي وإيليزا، أشقّاء إيلينا الصغار.

الأب، بوّابٌ في البلديَّة.

الأمّ، ربَّة منزل. مشيتها العرجاء تشكِّل هاجسًا مقلقًا لإيلينا

عائلة كارّاتشي (عائلة الدون آخيل):

الدون آخيل كارّاتشي، غول الحكايات. مُرَابٍ وتاجرٌ في السوق السوداء/ الحقيبة السوداء. يلقى مصرعه ذبحًا.

ماريّا كارّاتشي، زوجة الدون آخيل ووالدة ستيفانو وبينوتشا وألفونسو. تعمل في ملحمة العائلة.

ستيفانو كارّاتشي، نجل الراحل الدون آخيل، وزوج ليلا يُدير الأملاك التي كدَّسها والده، ويصبح، مع الوقت، تاجرًا ناجحًا، بفضل الأرباح التي تدرّها الملحمتان، ومحلّ الأحذية في ساحة الشهداء الذي يفتتحه بالشراكة مع الأخوين سولارا يُقيم علاقةً غير شرعيّة بآدا كابوتشو، بعد أن خاب أمله في زواجه المضطرب من ليلا ثم يساكن آدا بعد حملها منه وانتقال ليلا إلى سان جوفاني آتيدوتشو.

بينوتشا، ابنة الدون آخيل. تعمل في ملحمة العائلة أوَّلًا، ثم في محلِّ الأحذية. تتزوَّج رينو شقيق ليلا، وتنجب منه ولدًا، فرديناندو، الملقَّب دينو.

ألفونسو، ابن الدون آخيل. رفيق إيلينا على مقعد الدراسة. مرتبط بماريزا سارّاتوري. يصبح المسؤول عن محلِّ الأحذية في ساحة الشهداء.

مكتبة الرمحي أحمد

telegram @ktabpdf

عائلة بيلوزو (عائلة النجّار):

ألفريدو بيلوزو، نجّار. شيوعيّ. متَّهَم بقتل الدون آخيل. حُكم عليه بالسجن، حيث توافيه المنيّة.

جوزيبينا بيلوزو، زوجة ألفريدو. عاملة في مصنع التبغ. تتفرَّغ كلّيًا لرعاية أبنائها وزوجها المسجون. وبعد وفاته، تنتحر

باسكوالي بيلوزو، نجل ألفريدو وجوزيبينا عاملُ بناءٍ ومناضلٌ شيوعيّ. كان أوّل مَن انتبه إلى جمال ليلا واعترف لها بحبّه. يحقد على آل سولارا. وكان مرتبطًا بآدا كابوتشو.

كارميلا بيلوزو، تُدعى كارمن أيضًا شقيقة باسكوالي. تعمل بائعةً في محلّ خياطة، إلى أن تعيِّنها ليلا في ملحمة ستيفانو الجديدة فور افتتاحها كانت مرتبطة بإنتسو سكانو لوقت طويل، لكنَّه بعد عودته من الخدمة العسكريّة، يهجرها بلا مبرِّرات، فترتبط بعامل محطَّة الوقود في الشارع العامّ.

أبناء آخرون.

عائلة كابوتشو (عائلة الأرملة المجنونة):

ميلينا، من أقرباء نونتسيا شيرولّو. أرملة. تنظِّف سلالم البنايات في الحيِّ القديم، وكانت عشيقة دوناتو سارّاتوري، والد نينو. وبسبب هذه العلاقة تحديدًا، هجرتْ عائلةُ سارّاتوري الحيَّ، وفقدت ميلينا صوابها تقريبًا.

زوج ميلينا، كان حمّالاً للصناديق في سوق الخضار والفاكهة. توفِّي في ظروف غامضة.

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

آدا كابوتشو، ابنة ميلينا ساعدتْ والدتها في تنظيف السلالم في طفولتها وبفضل ليلا، تُعيَّن بائعةً في ملحمة الحيّ القديم. مرتبطة بباسكوالي بيلوزو منذ وقت طويل، إلى أن تصبح عشيقة ستيفانو كارّاتشي. وحين تحمل منه، تنتقل إلى العيش معه. تلد طفلةً من علاقتهما، تُدعى ماريّا

أنطونيو كابوتشو، شقيقها ميكانيكيّ. كان مرتبطًا بإيلينا وشديد الغيرة عليها من نينو سارّاتوري. يتملّكه هاجسٌ مقلق من فكرة التحاقه بالخدمة العسكريَّة، ما يجعل إيلينا تتوجَّه إلى الأَخَوين سولارا، لعلَّهما يستغلَّان نفوذهما للحيلولة دون التحاقه. لكن هذه الخطوة تجرح أنطونيو، فيشعر بالمذلَّة ويقرِّر فسخ الارتباط بينهما في أثناء الخدمة العسكريَّة، يتعرَّض لنوبات خطيرة من الانهيار العصبيّ، فيتمّ تسريحه قبل الأوان. وعندما يعود إلى الحيّ، يضع نفسه في خدمة ميكيلي سولارا، نظرًا إلى سوء أوضاعه الماديَّة، فيأمره ميكيلي، ذات مرَّة، بالسفر إلى ألمانيا، ليقوم بمَهمَّة طويلة وغامضة.

أبناءٌ آخرون.

عائلة سارّاتوري (عائلة الموظَّف في السكك الحديديَّة/شاعر):

دوناتو سارّاتوري، مُراقب تذاكر، شاعر، وصحافيّ. زير نساء كبير، وكان عشيق ميلينا كابوتشو. حين تذهب إيلينا إلى إيسكيا لقضاء الإجازة، وتنزل في البيت ذاته الذي تُقيم به عائلة سارّاتوري، تُرغَم إيلينا على مغادرة الجزيرة هربًا من تحرّشات دوناتو الجنسيَّة. لكنَّها، في الصيف اللاحق، تستسلم لإغوائه على الشاطئ، بسبب الألم الذي تسبَّبت لها به علاقة ليلا بنينو. وكي تتخلَّص إيلينا من آثار هذه التجربة المخزية مع دوناتو، تكتب عنها في الرواية التي تصدر لاحقًا

مكتبة الرمحي أحمد telegram @ktabpdf

ليديا سارّاتوري، زوجة دوناتو.

نينو *سارّاتوري*، أكبر أبناء دوناتو وليديا الخمسة. تلميذ متألِّق للغاية. يكره والده. يُقيم علاقة طويلة وغير شرعيَّة بليلا، سرعان ما تبوء بالفشل بعد مساكنة وجيزة، واكتشاف ليلا أنّها حامل.

ماريزا سارّاتوري، شقيقة نينو. مرتبطة بألفونسو كارّاتشي.

بينو، *كليليا*، *شيرو سارّاتوري*، أبناء دوناتو وليديا الأصغرُ سنًّا.

عائلة سكانو (عائلة بائع الفواكه):

نيكولا *سكانو*، بائع فواكه. يموت بذات الرئة.

آسونتا سكانو، زوجة نيكولا تموت بالسرطان.

إنتسو سكانو، ابن نيكولا وآسونتا، بائع فواكه أيضًا تكنّ له ليلا مودّةً منذ الطفولة. كان مرتبطًا بكارمن بيلوزو منذ وقت طويل، لكنَّه يهجرها بلا مبرِّرات بعد عودته من الخدمة العسكريَّة. في أثناء تأدية الخدمة، يعاود الدراسة، وينال شهادةً في الخبرة الصناعيّة، من دون التردُّد إلى المعهد. وحين تقرِّر ليلا أن تهجر ستيفانو نهائيًّا، يتولّى إنتسو أمرها وأمر ابنها جينّارو، ويأخذهما إلى العيش معه في سان جوفاني آتيدوتشو.

أبناءٌ آخرون.

عائلة سولارا (العائلة المالكة للمقهى/محلّ الحلويّات الذي يحمل اسم العائلة):

سيلفيو سولارا، صاحب المقهى/محلّ الحلويّات، من أنصار

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

الفاشيَّة والملكيَّة، وأحد رجالات مافيا الكامورا. يُدير التجارة غير المشروعة في الحيّ. وكان مناهضًا لافتتاح ورشة شيرولُّو لصنع الأحذية.

مانويلَّا سولارا، زوجة سيلفيو. مُرابية، يهاب الحيُّ كتابَها الأحمر.

مارتشيلو وميكيلي سولارا، ابنا سيلفيو ومانويلَّا متغطرسان ومتجبران، لكنَّهما محطُّ إعجاب فتيات الحيّ، ما عدا ليلا طبعًا يُغرَم مارتشيلو بليلا لكنَّها تصدُّه. ميكيلي، أصغر من مارتشيلُّو بقليل، لكنّه يتفوَّق عليه بالذكاء والعنف وبرودة الأعصاب. مرتبط بجيليولا ابنة صانع الحلويّات. ويشكِّل لليلا هاجسًا مقلقًا على مرّ السنوات.

عائلة سبانيولو (عائلة صانع الحلويّات):

السيِّد سبانيولو، صانع الحلويّات في مقهى سولارا.

روزا سبانيولو، زوجته.

جيليولا *سبانيولو*، ابنة صانع الحلويات. مرتبطة بميكيلي سولارا

أبناءٌ آخرون.

عائلة غويدو آيروتا:

آيروتا، بروفسور في الأدب الإغريقيّ.

آديلي، زوجته. تتعاون مع دار النشر في ميلانو، الدار نفسها التي أصدرت رواية إيلينا

ماريَّا روزا آيروتا، الابنة الكبرى، وأستاذة تاريخ الفنّ في جامعة ميلانو

بييترو آيروتا، كان زميل إيلينا في الجامعة، ثم ارتبط بها يُباشر مسيرته الجامعيَّة الزاهرة.

المعلِّمون:

فيرارو، معلِّم وأمين مكتبة. وهو الذي كرَّم ليلا وإيلينا، في طفولتيهما، لدأبهما على القراءة.

أوليفييرو، معلِّمة. وهي أوّل من فطن إلى قدرات ليلا وإيلينا ألَّفت ليلا قصَّة «الساحرة الزرقاء» في سنِّ العاشرة. وأُعجبت إيلينا بها كثيرًا، فأعطتها للمعلِّمة أوليفييرو كي تقرأها لكنّ المعلِّمة لم تُبدِ أيّ رأي فيها، إذ كانت مستاءة من والدَيْ ليلا لأنّهما قرَّرا عدم السماح لابنتهما بالالتحاق بالمرحلة المتوسِّطة، بل أهملت ليلا لتركِّز في نجاحات إيلينا فقط. تُتوفّى بعد مرض طويل، وبعد أن تتخرَّج إيلينا من الجامعة بقليل.

جيراتشي، أستاذٌ في المرحلة الأولى من المدرسة الثانويَّة.

السيدة غالياني، أستاذةٌ في المرحلة الثانية من المدرسة الثانويَّة. أستاذة مثقَّفة للغاية. شيوعيَّة. أُعجبت على الفور بذكاء إيلينا، فأعارتها الكتب، ودافعت عنها في صِدامها مع أستاذ التربية الدينيَّة. تدعوها إلى بيتها، لتشارك ابنيها في حفلةٍ ما ثم تفتر العلاقة بينها وبين إيلينا، بعد أن يقع نينو في غرام ليلا ويهجر ابنتها ناديا

شخصيّات أخرى:

جينو، ابن الصيدلانيّ. أوَّل عشيق لإيلينا

نيلا إنكاردو، ابنة عمّ المعلِّمة أوليفييرو. تُقيم ببارانو في جزيرة

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

إيسكيا، وتؤجِّر عائلة سارّاتوري بعضَ غرف بيتها في الصيف. وقد استضافت إيلينا في إجازتها البحريَّة.

أرماندو، طالبٌ في كلِّيَّة الطبّ، ابن الأستاذة غالياني.

ناديا، طالبة، ابنة الأستاذة غالياني، وكانت مرتبطة بنينو، الذي يهجرها برسالةٍ من إيسكيا، حين يُغرَم بليلا

برونو سوكافو، صديق نينو سارّاتوري، وابن أحد رجال الصناعة الأثرياء في بلدة سان جوڤاني آتيدوتشو. يمنح ليلا فرصةَ عمل في مصنع اللحوم المجفَّفة الذي تملكه العائلة.

فرانكو ماري، طالبٌ جامعيّ، وقد ارتبط بإيلينا خلال العامين الأوَّلَين في الجامعة.

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

أواسط العمر

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

١

التقيتُ ليلا، للمرَّة الأخيرة، منذ خمسة أعوام، في شتاء العام ٢٠٠٥. كنّا نتمشَّى في الصباح الباكر في الشارع العامّ. والحال أنَّنا، منذ سنوات، لم نكن ننعم براحة البال. أذكر أنّي كنتُ أتكلَّم بمفردي، بينما تدمدم ليلا أغنيةً ما، أو تحيّي بعض المارَّة الذين لا يبادلونها التحيَّةَ حتى. ونادرًا ما قطعتْ عليَّ حديثي، مكتفيةً بترديد عباراتٍ تدلّ على التعجُّب، وليست لها أيُّ صلةٍ منطقيَّة بما كنت أقوله. كم وقعتْ أشياء مريعة، على مرِّ تلك الأعوام، وقد بلغ بعضُها حدودَ الفظاعة أيضًا. لم نكن لنستعيد الثقة سوى بأن تبوح كلٌّ منّا بأسرارها للأخرى، لكنّي لم أكن أقوى على إيجاد الكلمات المناسبة. أمَّا ليلا، التي لا شكَّ في أنَّها تتمتَّع بتلك القوَّة، فلم تكن راغبةً في ذلك، بل لا تجد له أيَّ ضرورةٍ أساسًا

كنت أكنُّ لها الودّ، في أيِّ حال، وأسعى إلى لقائها دومًا كلَّما زرتُ ناپولي، مع أنّي أعترف بأنَّها كانت تُثير مخاوفي. لقد تغيَّرتْ كثيرًا فعلى الرَّغم من أنَّ الشيخوخة نالت منِّي ومنها على حدٍّ سواء، فإن ليلا بقيتْ جِلدًا على عظم، بينما كنت أبذل كلّ جهدي للحيلولة

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

دون البدانة. كان شعرها قصيرًا، تقصّه بمفردها؛ ويهيمن عليه الشَّيْبُ الناصع، ليس لأنّها اختارت ذلك، بل لأنّها لم تكن تُعير هذا الأمر اهتمامًا نَقَشَ الإرهاقُ معالمَه على وجهها، وبانت عليه ملامح وجه أبيها صارت ضحكتها عصبيّة، أقرب إلى الزعيق؛ وتتكلّم بصوت جهير جدًّا. تحرِّك يديها باستمرار، وكلّ حركة يدٍ موسومةٌ بتصميمٍ عنيفٍ، لكأنَّها تريد أن تشطر الأبنيةَ، والشارعَ، والمارَّةَ، وأنا

كنَّا قبالةَ المدرسة الابتدائيَّة، حين اجتازنا شابٌّ لا أعرفه. كان هَلِعًا، وصاح قائلًا لليلا إنّهم وجدوا جثّة امرأة في إحدى الفُسح الخضراء قرب الكنيسة. هرعنا نحو الحديقة الصغرى، وراحت ليلا تجرّني وسط حشد الفضوليّين، فتدفع هذا وذاك بعصبيَّة، كي تفتح منفذًا وجدنا المرأة راقدةً على أحد جانبيها، وكانت مفرطةً في بدانتها، ترتدي واقيًا مطريًّا، غامقَ الخضرة، قديم الطراز. لم أتمكَّن من التعرُّف إليها للوهلة الأولى، لكنّ ليلا عرفتها فورًا: صديقة طفولتنا، جيليولا سبانيولو، زوجة ميكيلي سولارا السابقة.

لم ألتقِها منذ أكثر من عشرة أعوام. انطفأ جمال وجهها، وتضخَّم كاحلا قدميها وشعرُها، الذي كان كستنائيَّ اللون في الماضي، بات أحمر قانيًا؛ ما زال طويلًا كما عهدناه في صباها، على الرَّغم من التآكل بين ثناياه، وكان حينها منثورًا على التراب المبعثر. في إحدى قدميها، ثمَّة فردة حذاء بالٍ خفيضِ الكعب؛ وفي القدم الأخرى، ثمة جوربٌ صوفيٌّ رماديّ اللون، مثقوبٌ عند الإبهام. فردة الحذاء الأخرى على بُعد مترٍ عنها، كأنّها سقطت منها وهي تتعثَّر بألمٍ أو فزعٍ ما. انفجرتُ باكيةً، فنظرتْ إليّ ليلا باستياء.

جلسنا على أحد المقاعد بالقرب من هناك، وانتظرنا بصمتٍ أن يحملوا جثمان جيليولا لم تتوافر المعلومات حتى تلك الساعة عمَّا

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

حدث لها، وكيف لَقِيَتْ حتفَها اتَّجهنا إلى بيت ليلا، إلى شقَّة أهلها، القديمة والصغيرة، والتي كانت تعيش فيها مع ابنها رينو آنئذٍ. تحدَّثنا عن صديقتنا، وراحت ليلا تتكلَّم عليها بسوء: على حياتها التي عاشتها، وعلى أطماعها ومكرها لكنِّي فقدتُ القدرة، بدوري، على الإصغاء، إذ ما برحتُ أهجس بذلك الوجه المُلقى على التراب، وبالصَّلَع الذي غزا شعرها الطويل، مُحْدِثًا بقعًا بيضاء تكشف عن قحف رأسها كم مات من الأشخاص الذين رافقونا في طفولتنا، واختفوا عن وجه الأرض. قضى بعضهم بمرضٍ ما، وآخرون لم تحتمل أعصابُهم المرهفةُ نوباتِ العذاب، وآخرون سُفكِتْ دماؤهم. بقينا فترةً قصيرة في المطبخ خاملتين، من دون أن تقرِّر أيٌّ منّا تنظيفَ الطاولة، ثم خرجنا من جديد.

كانت الشمس، في ذلك النهار الشتويّ الجميل، تُضفي على الأشياء مظهرًا صافيًا ظلّ الحيّ القديم على حاله، خلافًا لحالنا صمدت البيوتُ المنخفضة والمغبَّرة. صمد فِناء ألعابنا صمد الشارع العامّ، ومنافذُ النفق المظلمة. صمد العنف. لكنَّ بعض التغيّرات طرأت على محيط الحيّ. اختفت فسحة المستنقعات المائلة إلى الخُضرة، وفُكِّك هيكل مصنع الكونسروة القديم. ونابت عنهما ناطحاتُ السحاب، ذات الزجاج البرَّاق، والتي كانت مؤشِّرًا على مستقبلٍ مشعٍّ لم يؤمن به أحد أبدًا. لقد سجّلتُ كلّ التغيّرات، على مرّ الأعوام، باهتمام أحيانًا، وبشرودٍ في أغلب الأحيان. حين كنت صبيَّة، كنت أتخيَّل أنَّ نابولي، خارج الحيّ، زاخرة بالأعاجيب. ناطحة سحاب المحطَّة المركزيَّة، على سبيل المثال، أذهلتني كثيرًا، منذ عقود مضت، لشدَّة ارتقائها طابقًا فوق طابق. كان هيكلها يبدو لنا مفرطًا في علوِّه، إلى جانب المحطَّة المهيبة. وكم كانت الدهشة

مكتبة الرمحي أحمد
telegram @ktabpdf

تستفحل بي، كلّما مررتُ بساحة غاريبالدي: انظروا ما أعلاها، كنت أقول لليلا وكارمن وباسكوالي وآدا وأنطونيو، وكلِّ الأصحاب حينذاك، الذين كنت أرافقهم نحو البحر، وتخوم الأحياء الثريَّة. كنت أظنّ أنَّ الملائكة تسكن قمَّة ذلك المبنى الشاهق، ولا بدّ من أنَّها تستمتع بالإطلالة على جميع أرجاء المدينة. كانت ناطحة السحاب تلك «لنا»، على الرَّغم من أنّها خارج الحيّ، وكانت شيئًا نراه يكبر يومًا بعد يوم. إلّا أنَّ الأعمال توقَّفتْ. وعندما بتُّ أعود من بيزا، لم تعد ناطحة سحاب المحطَّة تبدو لي رمزًا لمجتمعٍ يسعى إلى التحديث، بل أضحتْ دليلًا إضافيًّا على التعطيل والفشل.

تبيَّنتُ في تلك الفترة، أنَّ ما من فارقٍ كبير بين الحيّ ونابولي، فسوء الأوضاع يتنقَّل بينهما بأريحيَّة مطلقة. وفي كلِّ عودة، كنت أجد مدينةً رخوةً كالعجين، لا تصمد أمام تعاقب الفصول؛ لا تُقاوم القيظ ولا البرد، ولا تقاوم العواصف، بصورة خاصَّةً. فها قد فاضت السيول في المحطَّة في ساحة غاريبالدي؛ وها قد انهار الرواق قبالة المتحف؛ وها قد تدحرجت الصخور؛ وها قد انقطعت الكهرباء. كانت ذاكرتي تحتوي على شوارع مظلمة وموبوءة بشتَّى أنواع المخاطر، تزدهر فيها الأعمال غير المشروعة أكثر فأكثر، ويتشقَّق بلاط طرقاتها، وتجتاحها بُرَك المياه المكدَّرة. كانت مجاري الصرف المضغوطة تتفجَّر، فتتدفَّق القذارة إلى السطح، وتنفث المياه الآسنة كالحمم، فتنحدر الأمراض إلى البحر، آتيةً من الهضاب المثقلة بالأبنية الحديثة هشَّة الأساسات، أو تبقى في الأسفل تنخر الأرض. فكان الناس يموتون من الإهمال؛ من الفساد؛ من القهر. وعلى الرَّغم من هذا، وكلّما عاد موسم الانتخابات، كانوا يتحمَّسون لمبايعة الساسة الذين يجعلون حياتهم لا تُطاق. كنتُ، ما إن أنزل من القطار، حتى أتحرَّك بحذرٍ في الأماكن

مكتبة الرمحي أحمد
telegram @ktabpdf

التي ترعرعتُ فيها، وأبالغ في التحدُّث بالعامِّيّة، كأنّي أرسل إشارةً: «أنا واحدةٌ منكم، لا تُؤذوني!»

وعندما تخرَّجتُ، وانكببتُ على تأليف حكايةٍ غَدَتْ كتابًا، بشكلٍ مفاجئ وفي غضون شهور قصيرة، تدهورتْ أحوال مدينتي، التي أنحدر منها ولئن كنت في بيزا وميلانو أشعر بالراحة، بل بالسعادة أحيانًا، كنت أخاف العودة إلى مدينتي، فيعترضني عائقٌ يحول دون هروبي منها، أو يجرِّدني من كلّ المكاسب التي حصلتُ عليها. لن يكون في مقدوري بلوغُ بييترو، الذي كنت سأتزوَّجه قريبًا؛ وقد يوصَدُ في وجهي بابُ دار النشر وأوساطها الرفيعة؛ سأُحرم لطفَ آديلي، حماتي مستقبلًا، التي كنتُ أرى فيها أمًّا لا تشبه أمّي قطعًا وإذا كنتُ في السابق أعتبر المدينة مزدحمة ومكتظَّة بالناس، من ساحة غاريبالدي إلى منطقة فورتشيلا، إلى قصر دوكيسكا، إلى حيّ لافينايو وشارع ريتيفيلو، فإنَّ الزحام بدا لي، في أواخر الستّينيّات، يتفاقم إلى حدٍّ مَهُول، وإنَّ التوتُّر والعدائيَّة يتمدَّدان ليصبحا خارج السيطرة. اتَّجهتُ ذات صباح، إلى شارع موتسيكانوني، حيث عملتُ بائعةً في مكتبة منذ عدَّة أعوام. ذهبتُ بدافع الفضول، كي أزور المكان الذي شقيتُ فيه، ولاسيّما لإلقاء نظرة على الجامعة، التي لم أكن قد دخلتُها يومًا كنت أريد أن أقارنها بجامعة نورمالي في بيزا، وتمنَّيتُ أن أصادف ابنَي الأستاذة غالياني ـ أرماندو ونادي ـ لأتفاخر عليهما بما استطعتُ تحقيقه. لكنَّ الشارع، وأماكن الجامعة، سبَّبت لي الكآبة. كانت تغصُّ بالطلبة الآتين من نابولي وضواحيها وسائر الجنوب؛ كانوا شبّانًا ذوي هندام أنيق، صاخبين، وواثقين بأنفسهم، وفتْيةً ذوي طباع جلفة وخانعة في الآن ذاته. يحتشدون عند المداخل وفي القاعات وأمام المكاتب الإداريَّة، حيث توجد طوابيرُ طويلة غالبًا ما يتخلَّلها العراك. تشاجر

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

ثلاثة شبّان أو أربعة، بلا مقدِّمات، على مقربة منّي، كما لو أنَّهم اكتفوا بالمصادفة كي يندلع العنف بينهم وتدوي الشتائم. هيجانٌ ذكوريٌّ، يكشف عن توقه الجيَّاش إلى إراقة الدماء، من خلال تلك الصيحات الهوجاء، بعاميَّةٍ وَضِيعةٍ عصيّةٍ على الفهم حتى بالنسبة إليَّ. فانصرفتُ على عَجَلٍ، كأنّي أتعرَّض لتهديد خطيرٍ في مكانٍ كنت أتخيَّله آمنًا ولا تسكنه سوى العقول الواعية.

بعبارةٍ أخرى، كلُّ عام كان يبدو لي أسوأَ من سابقه. نُكِبَتِ المدينةُ مرَّةً ثانية، خلال تلك الأعوام التي اشتدَّت فيها الأمطار؛ وانحنت بنايةٌ بأكملها على أحد جوانبها، لتبدو مثل رجُلٍ يتّكئ على مسند أريكةٍ، قديمةٍ وبالية، فيتهاوى المسند. ضحايا، وجرحى. صيحاتٌ غاضبة، واشتباكات، وتراشقٌ بالزجاجات الحارقة. كأنَّ المدينة تبيِّت في أحشائها حقدًا مكبوتًا، تعجز عن التخلُّص منه على مراحل، فتعمد إلى نفثه بغتةً، وإلَّا نَتَأَ على سطحها كالبثور المحتقنة بالسمّ الذي لا يوفِّر أحدًا، ولا يميِّز بين الناس، سواء كانوا أطفالاً يافعين أو شيوخًا، أو وافدين من مدن أخرى، أو أميركيّين عاملين في قواعد الناتو، أو سُيّاحًا متنوِّعي الجنسيّات، أو أهالي نابولي نفسِها كيف يمكن الصمود في ذلك المكان الخطير القائم على العشوائيَّة والغوغائيَّة، في وسط المدينة، أو في ضواحيها؛ فوق الهضاب، أو تحت بركان الفيزوف؟ بِئْس الانطباعُ الذي تولَّد لديَّ من زيارة سان جوڤاني آتيدوتشو، ومن الرحلة التي أوصلتني إلى هناك! بئس الانطباعُ الذي راودني من دخول مصنع اللحوم حيث تعمل ليلا، ومن ليلا ذاتها؛ من ليلا وابنها الصغير؛ ليلا التي كانت تسكن في بناية قميئة مع إنتسو على الرَّغم من أنّهما لا يتشاركان في السرير. قالت لي حينها إنّه ينوي دراسة آليّة الحواسيب الإلكترونيّة، وإنَّها كانت تسعى لمساعدته.

نُقِش صوتُها في ذهني وهي تحاول أن تمحو أثر سان جوڤاني فيها، ورائحةَ المصنع المقزِّزة، ووضعَها المتردِّي، من خلال ذكر بعض المصطلحات، متظاهرةً بالإلمام بمعانيها: «مركز المنظومات في جامعة الدراسات العليا في ميلانو»؛ «المركز السوڤياتي لتطبيقات الحواسيب في العلوم الاجتماعيَّة». كانت عازمةً على إقناعي بأنَّ مركزًا من ذلك النوع سيُفتتَح في ناپولي قريبًا ففكَّرتُ في أنَّهم قد يفتتحون شيئًا كهذا في ميلانو، كما لا بدّ من وجوده في الاتِّحاد السوڤياتيّ أيضًا أمّا هنا في ناپولي، فمستحيل، وما هي سوى أوهامٍ جنونيَّة تحوم في رأسكِ الجامح، تستغلِّينها لاستدراج إنتسو، الدؤوب المسكين، إلى عبثكِ أيضًا. سأهرب من هنا، فكَّرتُ. سأهجر هذا المكان نهائيًّا، سأبتعد عن تلك الحياة التي خضنا مصاعبها منذ الولادة. سأستقرّ في أماكن أكثر تنظيمًا، حيث كلّ شيء يبدو ممكنًا فعلًا وانتصرتُ عليها بالفعل، لكن لا لشيءٍ سوى لأكتشف، بعد عقودٍ قادمة، أنّي كنتُ مخطئة؛ لأكتشف أنّي وسط طوقٍ من خواتم تزداد حلقاته اتِّساعًا الحيّ يُحيل على المدينة، والمدينة تُحيل على إيطاليا ومن إيطاليا إلى أوروپا، ومن أوروپا إلى الكوكب بأسره. واليومَ، أرى الأمر هكذا ليس الحيّ وحده موسومًا بالبلاء؛ ليست ناپولي وحدها، بل كوكب الأرض برمّته. الكون مريضٌ، أو ربّما الأكوان كلُّها مريضة. والبراعة إنَّما تكمن في التواري عن الأنظار، وفي إخفاء الحالة الحقيقيَّة للأشياء.

تحدَّثتُ بهذا الشأن مع ليلا في ذلك المساء، شتاء العام ٢٠٠٥، بمبالغةٍ كأنّي أطلب الصفح منها كنت أريد أن أُقِرَّ بأنَّها فهمتْ كلّ شيء منذ أن كانت يافعة، من دون أن تخرج من ناپولي أبدًا لكنّي سرعان ما شعرتُ بالخزي، إذ أحسستُ بأنَّ كلماتي تحوي شؤمًا وغيظًا

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

يليقان بمن يبلغ أرذل العمر. كانت ليلا تمقت تلك النبرة، وكنت أعلم بذلك. وفعلاً، أظهرتْ لي أسنانَها الهرمة، بابتسامةٍ أَشبه بتكشيرةٍ عصبيَّة، وقالت:

«تدَّعين المعرفة، وتتحذلقين في الحِكَم والآراء؟ علامَ تنوين؟ هل تريدين أن تكتبي عنَّا؟ هل تريدين أن تكتبي عنِّي؟»

«لا».

«قولي الحقيقة».

«الأمر معقَّدٌ للغاية».

«لكنَّكِ فكَّرتِ في الموضوع، وما زلتِ تفكِّرين».

«نوعًا ما».

«عليكِ أن تتركيني وشأني يا لينو. عليكِ أن تنسي أمرَنا جميعًا فنحن مآلنا أن نختفي، لأنَّنا لا نستحقّ شيئًا، لا أنا ولا جيليولا، ولا أيّ أحدٍ آخر».

«هذا ليس صحيحًا»

أدلتْ بتعبيرٍ قبيحٍ ينمّ عن التعاسة، وزمّتْ شفتيها واستحالت عيناها إلى ثقبين غائرين.

«حسنًا» قالت، «اكتبي، إن كان هذا ما تشائين. اكتبي عن جيليولا، أو عمَّن يطيب لكِ. ولكنْ، إيّاكِ أن تكتبي عنِّي. عِديني بهذا».

«لن أكتب عن أحد، ولا حتى عنكِ»

«حذارِ، سوف أراقبكِ».

«حقًّا؟»

«سآتي للنبش في حاسوبكِ، وسأقرأ ملفَّاتِكِ، وأحذفها».

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

«يا إلٰهي».

«ألا تعتقدين أنِّي قادرةٌ على ذلك؟»

«أعلم بأنّك قادرة. لكنِّي أعرف كيف أحمي نفسي».

ضحكتْ بأسلوبها اللئيم المعهود:

«ليس منِّي».

٢

لم أنس مطلقًا تينك الكلمتين: «ليس منّي»، وكانتا آخر ما قالته لي. منذ أسابيع وأنا أكتب بطلاقة، من دون أن أهدر الوقت في المراجعة. وبينما أحتسي القهوة، وأرنو إلى نهر الپو ومياهه ترتطم بدعائم جسر الأميرة إيزابيلا، أتخيَّل أنَّ ليلا لن تقاوم ـ إن كانت لا تزال حيَّة ـ. ستأتي لتُشْبع فضولها في حاسوبي، ستقرأ؛ وبما أنَّها غريبة الأطوار، فلا شكَّ في أنَّها ستغضب من مخالفتي تحذيراتها ستحاول أن تتدخَّل، ستصحِّح، ستضيف، وستنسى هوسها بأن تتبخَّر ثم أغسل الفنجان، وأتَّجه إلى المنضدة، وأستأنف الكتابة انطلاقًا من ذلك الربيع البارد في ميلانو؛ من أمسيةٍ تعود إلى أكثر من أربعين عامًا، في إحدى المكتبات، حيث استهزأ الرجل ذو النظّارة المقعَّرة بي، وبكتابي، في حضور الجميع، وأجبتُه بارتباك، وأنا أرتعش. حتى نهض نينو سارّاتوري فجأة، وقد عرفتُه بالكاد من لحيته الكثَّة، الموغلة في اسودادها، وهاجم مَن هاجمني، بقسوة. وحينذاك، راح كلّ ما فيَّ ينادي اسمه بصمتٍ ـ منذ متى لم ألتقِه: أربعة أعوام أم خمسة ـ وعلى الرَّغم من أنّ التوتُّر كاد يجمِّدني، فلقد شعرتُ بأنِّي أضطرم وَلَهًا.

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

ما إن أنهى نينو مداخلته، حتى استأذن الرجل بالردِّ، مغتاظًا من الواضح أنَّه لم يتلقَّ كلام نينو برحابة صدر، لكنِّي كنتُ أهتاج بعواطف متلاطمة منعتني من إدراك السبب على الفور. إلَّا أنِّي فهمتُ، بطبيعة الحال، أنَّ نينو حَرَفَ النقاشَ من الأدب إلى السياسة، بنبرةٍ تصعيديَّة، تكاد تخلو من الذوق العامّ. ومع هذا، لم أعطِ الموضوع حجمه، إذ كنت ألوم نفسي على عجزي عن خوض ذلك النِّزال، على نحو جعلني أبدو عديمة القيمة أمام جمهورٍ مثقَّفٍ للغاية، مع أنّي كنتُ مثابرة. ففي المرحلة الثانويَّة، استطعتُ أن أجاري وضعًا صعبًا، وحاولتُ أن أصبح مثل الأستاذة غالياني، فاكتسبتُ لغتها ونبراتها. وفي بيزا، لم يعد ذلك النموذج النسائيّ كافيًا، إذ كنتُ أواجه أُناسًا ذوي كفاءة عالية: فرانكو، وبييترو، وجميع الطلبة اللامعين، إضافةً إلى أساتذة النورمالي المرموقين طبعًا، كانوا يعبِّرون عن أنفسهم بأسلوب معقَّد، ويكتبون بحِرَفيَّةٍ متقَنةٍ وبلاغةٍ وبيان، ويتَّسمون بمؤهِّلاتٍ معتَبَرة تَنقص الأستاذة غالياني. لكنِّي بذلتُ قصارى جهدي في التمرّن لأصبح مثلهم؛ وغالبًا ما نجحتُ في ذلك، فشعرتُ بأنّي أتحكَّم في الكلمات حتى القضاء على كلّ تناقضات الوجود في الحياة، وإخماد ثورة العواطف والأفكار السلبيَّة. في المحصِّلة، بتّ خبيرةً باللجوء إلى حيلةٍ في الخطابة والكتابة تسحق مَن يخاطبني، وتجرِّده من قدرته على الردِّ، وتُبطِل محاولاته في الاعتراض، وذلك بانتقاء مفرداتٍ رفيعة، وانتهاج سلوكٍ متأنٍّ ونبرةٍ متروِّية، ترتِّب المواضيع بعنايةٍ فائقة، ورسميَّةٍ منضبطةٍ لا تعرف التلكُّؤ لكنَّ الرياح، في تلك الأمسية، لم تأتِ كما أشتهي. تخوَّفتُ من آديلي وأصدقائها، الذين كنتُ أتخيَّلهم قرّاءً لا يُغفلون شاردةً أو واردة، ناهيك بالرهبة من ذلك الرجل ذي النظَّارة السميكة. بَدَوْتُ، مرَّةً أخرى، كما كنتُ في الماضي، فتاةً مذعورةً وطموحةً،

تنحدر من أحد أحياء الضواحي، ابنةَ بوّابٍ، لكنتُها العامِّيَّة تفضح أصلها الجنوبيّ، مصدومةً هي نفسها بالقدَر الذي جاء بها إلى ذلك المكان، لتؤدّي دور الكاتبة الشابَّة والمثقَّفة. وهكذا، فقدتُ ثقتي بنفسي، وعبَّرتُ دونما اقتناعٍ بما أقول، وبفوضويَّة عارمة. وأُضيف إلى ذلك كلِّه، وجودُ نينو هناكَ؛ إذ أفقدني ظهوره المفاجئ السيطرةَ، كما أنَّ جودة مداخلته، دفاعًا عنِّي، أكّدت لي أنَّ جميع إمكانيَّاتي كانت تستحيل هباءً. فنحن، الاثنين، كنَّا قد أتينا من بيئةٍ واحدة تقريبًا، وذقنا الأمرَّين لنكتسب تلك الطريقة في التعبير. لكنّ نينو لم يستخدمها بأريحيَّة وطلاقةٍ ضدّ مُناظِره فحسب، بل استطاع في بعض الأحيان، عندما رأى ضرورةً، أن يُغرِق إيطاليَّته الموزونة بالفوضى، بشكلٍ مقصود ومدروس، وبازدراء وسفاهة، ليفضح نبرة ذلك الرجل المتحذلق، ويثبت بُطلانها، ويجعله أضحوكة. وبالتالي، حين رأيتُ أنَّ الأخير ينوي معاودة الكلام، قلت لنفسي: لا بدّ من أنَّه غاضب جدًّا؛ ولئن انتقد كتابي في البداية، فسيُجهِز عليه بنقدٍ أشدَّ وطأةً، الآن وقد أراد الانتقام من نينو الذي دافع عن الكتاب.

غير أنّ الرجل بدا كأنَّه يهجس بشيء آخر لم يَعُدْ إلى مهاجمة كتابي، ولم يشأ إقحامي في موضوع النقاش، بل راح يركِّز في بعض العبارات التي كرَّرها نينو أكثر من مرَّة، على الرَّغم من أنَّها هامشيَّة، مثل: «*الغطرسة البارونيَّة*» و«*الأدب المناهض للسلطويَّة*». ففهمتُ حينذاك أنّ ما أثار حفيظته كان انعطاف النقاش نحو السياسة. لم ترُقْه تلك المصطلحاتُ، وقد شدَّد عليها برفع نبرة صوته العميق ليغدو زعيقًا مباغتًا وساخرًا (*هل نفهم من ذلك أنَّ كبرياء المعرفة باتت تعرَّف اليوم بأنها غطرسة؟ حتى الأدب أصبح مناهضًا للسلطويَّة؟*). ثم أخذ يمتدح تلك الكلمة: «السلطة»، والحمد لله ـ قال ـ سدٌّ منيع في وجوه الصِّبْية

المشاكسين الذين يُدلون بآرائهم في أيِّ موضوع، بلا تبصُّر، وينهلون من السخف الذي توفِّره تلك الحلقات الطلّابيَّة في الجامعة. وأسهب في الحديث عن هذا الجانب، متوجِّهًا إلى الجمهور، من دون أن ينظر صوب نينو أو صوبي. لكنّه في الختام، ركَّز أوّلًا في الناقد العجوز الذي كان جالسًا قربي، ثم في آديلي مباشرة، التي من الوارد أنَّها كانت غايةَ جداله منذ البداية. لا أؤاخِذ الشبّانَ ـ قال بإيجاز ـ وإنَّما ألوم الناضجين المتعلِّمين، والمستعدِّين دومًا لمواكبة آخر صيحات الغباء، إرضاءً لمصالحهم الضيِّقة. ثم سكت أخيرًا، وعزم على المغادرة بنبرةٍ مؤدَّبة وناقمة في آن واحد: عذرًا، لو سمحت، شكرًا

نهض الحاضرون، بنفورٍ واحترام معًا، ليفسحوا له المجال للمرور. فاتَّضح لي حينها أنَّه يحظى بمكانةٍ رفيعة؛ حتى إنّه، عندما أومأ إلى آديلي بتحيَّةٍ رعناء، ردَّتْ عليه بمودَّة خالصة: «شكرًا، إلى اللقاء». وربّما هذا ما أذهل الجميع من نينو، حين تقدَّم بخطوةٍ حازمة وغير مبالية، في الوقت نفسه، مُظِهرًا معرفته بمنزلة مُناظِره، فناداه: «أيّها البروفسور، إلى أين تذهب، هل تنوي الهرب». ثم قطع عليه الطريق، مستعينًا برشاقة ساقيه الطويلتين، وواجهَه، وقال له بعض العبارات بلغته الجديدة. لم أسمع ما تفوَّه به جيِّدًا، ولم أفهمه بالمجمل، لأنِّي كنتُ بعيدةً، لكنِّي لم أشكّ في أنَّ عباراتِه كانت مثل أسلاك الفولاذ تحت الشمس الحارقة. أصغى الرجل مراوِحًا مكانه، من دون أن يُظِهر نفادَ صبره، ثم حرَّك يده بما يعني: ابتعدْ عن طريقي؛ واتَّجه نحو المَخرج.

٣

تركتُ مكاني مشتَّتة الفكر، بالكاد أصدِّق أنَّ نينو هناك حقًّا، في ميلانو، داخل تلك الصالة الصغيرة. فإذا هو يتَّجه نحوي، على رِسْلِه، بابتسامة مشرقة وخطوة واثقة. تصافحنا، كانت يده في منتهى الدفء، ويدي متجمِّدةً. عبَّر كلٌّ منَّا عن سعادته بلقاء الآخر بعد طول غياب. صفا مزاجي حين تبيَّنتُ أنَّ أصعب لحظات الأمسية قد انقضتْ، وأنَّه حيٌّ يُرزَق أمامي، لكنّ هذا لم يخفِّف توتُّري. قدَّمتُه إلى الناقد الذي أثنى على كتابي بأطيب ما لديه. قلت له إنّه صديقٌ من ناپولي، وإنّنا ارتدنا المدرسة الثانويَّة معًا ومع أنّ الأستاذ تلقَّى بعض التجريح من جانب نينو، فقد استقبله بمودَّة، وأثنى على حسن بلائه بذلك الرجل، وأشار إلى ناپولي مستحسنًا، وتكلَّم معه على أنَّه طالبٌ مثابرٌ يجب تشجيعه. فصَّل نينو بأنَّه كان مقيمًا بميلانو منذ سنوات، يتخصَّص بالجغرافيا الاقتصاديَّة، وأضاف متبسِّمًا أنَّه ينتمي إلى الطبقة المسحوقة في الهرميَّة الأكاديميَّة، أي المعيدين المساعِدين. تحدَّث بلهجةٍ مرنة، من دون الرجوع إلى نبرته الضبابيَّة التي امتاز بها حين كان يافعًا، وبدا لي أنَّه يرتدي درعًا أخفّ من ذاك الذي أبهرني في المدرسة، كأنَّه

مكتبة الرمحي أحمد telegram @ktabpdf

تخلَّص من أثقالٍ إضافيَّة كي يبارز برشاقةٍ ولباقة أكثر وانتشيتُ حين لاحظتُ أنَّه لا يضع خاتم خطوبة في يده.

اقتربت إحدى صديقات آديلي، في أثناء ذلك، وطلبت منِّي أن أوقِّع على الكتاب، فارتبكتُ كثيرًا كانت المرَّة الأولى التي أجرِّب فيها أمرًا كهذا تردَّدتُ؛ لم أكن أريد أن أغفل عن نينو، ولا لحظةً واحدة، كما كان لزامًا عليّ أن أقلِّص انطباعه بأنِّي صبيَّة مرتبكة، فتركتُه مع الأستاذ العجوز ـ كان اسمه تارّاتانو ـ ورحَّبتُ بقارئاتي. فكَّرتُ في أن أوقِّع الكتب على عَجَل، لكنَّها كانت نسخًا حديثة، طازجةً، تشذو بعبير خروجها للتوّ من المطبعة، بعيدةً كلّ البعد عن الكتب البالية كريهة الرائحة، والتي كنَّا نستعيرها، أنا وليلا، من مكتبة الحيّ؛ فلم أشأ أن أُفسدها سريعًا بقلم الحبر الجافّ. أَمْضيتُ بخطِّي الأمثل، والذي تعلَّمتُه على يد المعلِّمة أوليفييرو، وابتكرتُ إهداءاتٍ منمَّقة، فكاد صبر السيِّدات ينفد في الانتظار. أَمْضيتُ بقلبٍ خافق، أسترق النظر إلى نينو. كنتُ أخشى أن يغادر الصالة.

لكنَّه لم يغادر. اقتربت آديلي إليه وإلى تارّاتانو، فتوجَّه إليها صديقي بمودَّةٍ وأريحيَّة. تذكَّرتُ كيف كان يتكلَّم مع الأستاذة غالياني في ممرَّات المدرسة، وكان من السهل عليّ أن أربط بين ذلك التلميذ الثانويّ المتفوِّق وهذا الشابّ الناضج. إلَّا أنّي صمَّمتُ على محو ذكرى الطالب الجامعيّ الذي التقيتُه في إيسكيا، كأنَّها لحظة ضلالٍ لا معنى لها، أَشْرَبَتْنا من كأس مرّها جميعًا؛ ذاك الذي صار عشيقَ صديقتي المتزوِّجة، الفتى الضالّ الذي اختبأ مرارًا في مرحاض المحلّ في ساحة الشهداء، وكان والدَ جينّارو أيضًا؛ الطفلِ الذي لم يره يومًا. لا شكّ في أنَّ ليلا اقتحمت حياته فتوّهتْه عن دربه، ومن الواضح في تلك المناسبة أنَّه تخطَّى الأزمة. بل بدا كأنَّه اجتاز التجربة، على الرَّغم من صعوبتها، وعلى الرَّغم ممَّا خلّفتْه من جراح عميقة في قلبه.

كان نينو قد عثر على نفسه ثانيةً، وكنتُ سعيدة من أجله. قلت لنفسي: ينبغي لي أن أُخبر ليلا بأنّي التقيتُه، وأنّي وجدتُه في أفضل حال. ثم غيَّرتُ رأيي: كلَّا، لن أخبرها بشيء.

كانت الصالة خالية تمامًا عندما أنهيتُ الإهداءات. أمسكتْ آديلي يدي بنعومة، وأثنتْ على طريقتي في الحديث عن كتابي، وعلى إجابتي عن تلك المداخلة السيِّئة ـ هكذا عرّفَتْها ـ لذلك الرجل صاحب النظَّارة السميكة. وبما أنّي أنكرتُ جدارتي (على الرَّغم من يقيني بعكس ذلك)، طلبتْ آديلي من نينو وتارّاتانو أن يقولا شيئًا، فتهافت كلاهما عليَّ بالمديح والتهاني. حتى إنَّ نينو قال، مركِّزًا نظرة فيَّ: *ليس لديكما فكرةٌ عمّا كانت عليه هذه الفتاة في المرحلة الثانويّة، كانت خارقةَ الذكاء، ملمَّةً ومثقَّفة، شجاعةً للغاية، وفي منتهى الجمال*. وبينما كان وجهي يتضرَّج نارًا، راح يروي عليهما، بمرحٍ ودعابة، عن صِدامي مع أستاذ التربية الدينيَّة منذ أعوام. ظلَّت آديلي آذانًا صاغية، وغالبًا ما ضحكتْ. في العائلة ـ قالت ـ سرعان ما فطنّا إلى قدرات إيلينا، ثم صرَّحتْ بأنَّها حجزتْ لنا طاولة للعشاء في مطعم قريب من هناك. فتوجَّستُ حينذاك، وغمغمتُ بحياءٍ بأنِّي مرهقة ولاً أشعر بالجوع، مُلمِّحةً إلى رغبتي في المشي قليلًا مع نينو قبل أن أنام، إذ كنَّا لم نلتقِ منذ زمن. كنتُ أعرف أنّ من السماجة رفْضَ الدعوة، فالعشاءُ كان للاحتفاء بي وليشكر تارّاتانو على اهتمامه بالكتاب، لكنِّي لم أشأ العدول عن قراري. ركَّزتْ آديلي فيَّ ناظريها برهةً، بتعبيرٍ هزليّ، وردّتْ بأنَّ صديقي مدعوٌّ إلى العشاء معنا بالطبع، وأضافت بلهجةٍ غامضة، كتعويضٍ عن التضحية التي سأقوم بها لقد حضَّرتُ لك مفاجأةً مذهلة. رنوتُ إلى نينو بقلق. هل سيقبل الدعوة؟ قال إنّه لا يريد إحراجنا. ونظر إلى الساعة، فوافق.

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

٤

غادرنا المكتبة. مشت آديلي إلى جانب تارّاتانو، احترامًا، فتبعناهما أنا ونينو وسرعان ما اكتشفتُ أنّي لم أكن أعرف ماذا أقول له، وخشيتُ أن أُخطئ في اختيار أيّ كلمة. فبادر بنفسه إلى تجنُّب الصمت؛ وعاد يُثني على كتابي، وانتقل بالكلام ليتحدَّث عن عائلة آيروتا، بإعجابٍ كبير (عرَّفهم بأنَّهم «أكثر العائلات تحضُّرًا بين كلّ الأُسَر المرموقة في إيطاليا»)، وقال إنَّه كان يعرف ماريّاروزا («إنّها دومًا على الجبهات، منذ أسبوعين خضنا شجارًا شرسًا»)، وهنّأني على خطوبتي، إذ عرف بالأمر للتوّ من آديلي، وأذهلني حين أظهر معرفته بكتاب بييترو عن الطقوس الباخوسيَّة. وتكلَّم بتقديرٍ على ربِّ الأسرة، على وجه الخصوص، البروفسورِ غويدو آيروتا، «يا له من رجلٍ استثنائيّ حقًّا». تضايقتُ قليلًا لأنَّه عرف بأمر خطوبتي، وانزعجتُ لأنَّ الثناء على كتابي كان مقدِّمة لثناءٍ أكثر دفئًا موجَّهٍ إلى جميع أفراد أسرة بييترو، وكتاب بييترو، فقاطعتُ حديثه، وسألتُ عن أحواله، لكنَّه أجاب بغموض. بالكاد أشار إلى كتيِّب صغير قد صدر مؤخَّرًا، ووصفه بالمملّ على الرَّغم من أهمِّيَّة موضوعه. فألححتُ عليه، وسألته

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

عمّا إذا كان قد وجد صعوبةً عند وصوله إلى ميلانو. فأجابني بكلام عامّ ومقتضَبٍ على المشاكل التي يصادفها كلُّ القادمين من الجنوب، من دون أيّ قرشٍ في جيوبهم. ثم باغتني بسؤال:

«هل عدتِ للعيش في ناپولي؟»

«حتى هذا الحين، أجل».

«في الحيّ؟»

«أجل».

«لقد قطعتُ صلتي بوالدي نهائيًّا، ولم أعد ألتقي أيَّ أحد من أفراد عائلتي».

«خسارة».

«هكذا أفضل. ليس لديّ ما آسَف عليه سوى انقطاع أخبار لينا عنّي».

لقد أخطأتُ ـ فكّرتُ في سرّي ـ ليلا لم تخرج من حياته بعد، ولم يأتِ إلى المكتبة من أجلي، بل ليسألني عنها. ثم قلتُ لنفسي: لو أراد ذلك حقًّا، لوجد الطريقة ليستعلم عن ليلا خلال كلّ تلك السنوات. فأجبتُه بصرامة، بنبرةٍ حازمة لمن ينوي أن يُغلق الموضوع بسرعة:

«هجرتْ زوجها، وتساكن شخصًا آخر».

«هل أنجبت ذكرًا أم أنثى؟»

«ذكَرًا».

عبّر بتكشيرةٍ متشائمة، قائلًا:

«لينا شجاعة جدًّا، لكنَّها لا تستطيع التأقلم مع الواقع، بل إنّها عاجزة عن تقبُّل نفسها والآخرين. الحبّ معها كان تجربةً صعبة»

«ماذا تقصد؟»

«لا تعرف معنى التفاني».

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

«ربَّما أنت تبالغ».

«إطلاقًا لينا تعاني خللًا، في رأسها، وفي كلِّ تصرُّفاتها، حتى في ممارسة الجنس».

صُدمتُ بالكلمات الأخيرة، أكثر من سابقاتها: «*حتى في ممارسة الجنس*»! هل هذا يعني أنَّ نينو كان لديه حُكمٌ سلبيٌّ على علاقته بليلا؟ هل كان يخبرني، ويُربكني، بأنَّ حُكمه هذا يشمل الجانب الجنسيّ أيضًا؟ حدَّقتُ بضع ثوانٍ في آديلي وصديقها، اللذين يمشيان أمامنا، والظلام يغمرهما تحوَّل الإرباك إلى قلق. تلقَّيتُ تلك العبارة «حتى في ممارسة *الجنس*»، على أنَّها تمهيد، كأنَّه كان يريد أن يتعمَّق في الموضوع. منذ أعوام خلت، حدث أنَّ ستيفانو، بعد الزواج، أطلعني على علاقته بزوجته، وروى لي عن بعض مشاكلهما، لكنَّه لم يلمِّح إلى الجنس. لا أحد في الحيِّ كان ليقدِّم تلميحًا كهذا وهو يتكلَّم على المرأة التي يحبِّها كان من غير الوارد، مثلًا، أن يحدِّثني باسكوالي عن شؤون آدا الجنسيَّة، أو ـ وهذا الأسوأ ـ أن يتحدَّث أنطونيو مع كارمن أو جيليولا عن شؤوني الجنسيَّة. كانت تلك الأحاديث تدور بين الذكور حصرًا ـ وبأسلوب أشدَّ وضاعةً وسُوقيَّة، حين لا يكونون مرتبطين، أو بعد أن يفسخوا ارتباطهم بواحدةٍ منّا ـ لكنَّها لا تدور بين الذكور والإناث مطلقًا إلَّا أنّي رأيتُ نينو، نينو الجديدَ، يرى أنَّ من الطبيعيّ أنْ يناقشني عن علاقته الجنسيَّة التي كانت تربطه بصديقتي. شعرتُ بالحياء، وآثرتُ التراجع، وفكَّرتُ في أنّي لن أخبر ليلا حتى بهذا التفصيل أيضًا، ثم قلت بخفَّة مصطنعة: «ماضٍ وانقضى، لن نكتئب الآن، فلنَعُدْ إلى أخبارك. على ماذا تعمل؟ وما هي تطلُّعاتك في الجامعة؟ وأين تسكن؟ وهل تعيش بمفردك؟» لا شكَّ في أنّي تسرَّعتُ، ولا بدَّ من أنّه أدرك أنِّي أنوي الإفلات على عَجَل. ابتسم هازئًا، وأراد أن يجيبني، لكنّنا كنّا قد وصلنا إلى المطعم، فدخلنا.

٥

وزّعت آديلي جلوسنا أنا إلى جانب نينو وقبالة تارّاتانو، وهي إلى جانب تارّاتانو وقبالة نينو. طلبنا الطعام، بينما انحرفت المحادثة عن الرجل ذي النظّارة السميكة، ففهمتُ أنّه بروفسور في الأدب الإيطاليّ، وكاتبٌ مثابرٌ في جريدة «كورييري ديلّا سيرا»، ومؤيِّدٌ للحزب الديموقراطيّ المسيحيّ. لم تتمالك آديلي نفسها، فحذا صديقها حذوَها وراحا يغتابان ذلك الرجلَ بكلِّ سوء، خارج المكتبة، بعيدًا عن الرسميّات، وشكرا نينو على تصميمه على مواجهة خصمه وإرباكه. ثم ضحكا، خصوصًا عندما تذكّرا الكلمات التي انهال بها على البروفسور وهو يغادر الصالة، والتي لم أتمكّن من سماعها، وطلبا منه أن يُعيد ما قاله بدقّة، فتحفّظ نينو، مدّعيًا أنّه لم يعد يذكر لكنّ الكلام تدفّق من تلقاء نفسه، وربّما أعاد نينو ابتكاره بما يتلاءم مع المناسبة، مثل: «*حضرتُك تدافع عن السلطة بأيِّ وسيلة، حتى إنّك مستعدٌّ للإطاحة بالديموقراطيّة*». ومنذ تلك اللحظة، أخذ ثلاثتهم يتكلّمون، في معزلٍ عنّي، باهتمام متزايد، على المخابرات؛ على اليونان؛ على التعذيب في معتقلات ذلك البلد؛ على ڤيتنام؛ على

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

الصعود المباغت للحركة الطلّابيّة، ليس في إيطاليا وحدها، بل في أوروبا والعالم برمّته؛ على مشاركة البروفسور آيروتا في فصليّة «إل بونتي/ الجسر» ـ التي قال نينو إنّه يتّفق مع ما ورد فيها جملةً وتفصيلًا ـ بشأن ظروف الأبحاث والتدريس في الجامعات.

«سأُخبر ابنتي بأنَّها نالت إعجابك»، قالت آديلي، «ماريّاروزا اعتبرتها فارغةً».

«ماريّاروزا تتحمّس فقط لِما يصعب توفُّره في هذه الحياة».

«أحسنت؛ إنّها هكذا فعلًا»

لم أكن أعرف شيئًا عن تلك المشاركة لوالد خطيبي، فشعرتُ بالاستياء؛ وبقيتُ أُنصت بصمتٍ إلى نقاشهم. لقد فقدتُ معظم وقتي في التحضير للامتحانات أوّلًا، ثم لأطروحة التخرُّج، فالروايةِ وصدورها المتسرِّع. وكانت معلوماتي عمّا يحدث في العالم سطحيَّة للغاية؛ وكنتُ قد سمعتُ بعض الأنباء عن الطلّاب، والمظاهرات، والصدامات، والجرحى، والاعتقالات، ونزف الدماء. وبما أنّي بتُّ خارج الجامعة، اقتصرتْ معارفي، في تلك الفوضى العارمة، على آراء بيترو الشحيحة. كان يتذمَّر ويشتكي ممّا وصفه حرفيًا بـ «مزبلة الأغبياء في بيزا». وبالتالي، شعرتُ بأنَّ ما يُحيط بي مُجرّدُ اضطراباتٍ منفصلة وعابرة. فإذا هي تلقى اهتمام الجالسين معي، والقادرين على تحليلها بدقَّة منقطعة النظير، ونينو أكثر من الآخرَين. كنت جالسة إلى جواره، أصغي إليه، وأهتاج من ملمس كمّ ذراعي بذراعه. كان قد حافظ على شغفه بالأرقام: أحصى أعداد المسجّلين في الجامعة. أضحوا كتلةً بشريَّةً هائلة، لا تتناسب مع السعة الحقيقيَّة للقاعات والأبنية. تحدَّث عن عمداء الكلّيّات، مُشيرًا إلى قلَّة تفرُّغ بعضهم للعمل الجامعيّ، والأبحاث والتدريس، إذ كانوا يشاركون في دورات البرلمان أو في

المجالس الإداريَّة، أو ينشغلون باستشاراتٍ أخرى، وينالون عليها أجرًا باهظًا، إضافةً إلى مهنهم الخاصَّة. كانت آديلي توافقه في الرأي، وصديقها كذلك، وأحيانًا يشاركانه في الحديث عن أشخاصٍ لم أسمع بهم من قبل. شعرتُ بأنِّي معزولةٌ تمامًا. فالاحتفاء بكتابي لم يكن من أولويَّاتهم، بل كانت حماتي تبدو كأنَّها قد نسيتْ أمر المفاجأة التي كلَّمتني بشأنها. فهمستُ قائلةً إنّي سأبتعد برهةً، فأدلتْ آديلي بإيماءةٍ شاردة، وتابع نينو كلامه بشغف. ولا بدّ من أنَّ تارّاتانو أحسّ بأنّي أشعر بالملل، فقال متحمِّسًا، بنبرةٍ هامسة تقريبًا:

«عودي بسرعة، يهمّني رأيكِ كثيرًا».

«ليس لديّ رأي»، أجبتُ بشبه ابتسامة.

فابتسم بدوره:

«ما من كاتبةٍ إلّا وهي قادرةٌ على ابتكار رأيٍ ما».

«ربّما لستُ بكاتبة».

«بل أنتِ كذلك طبعًا».

ذهبتُ إلى الحمَّام. كلَّما فتح نينو فمه، أثبت لي أنّي متخلِّفة. عليَّ أن أعاود الدراسة، فكَّرتُ. كيف سمحتُ بأن تصل الأمور إلى هذا الحدِّ؟ بالتأكيد، أراوغ بالكلمات بمهارة، كيفما أشاء، أمزج بعضًا من إمكانيَّاتي ببعضٍ من شغفي. ولكنْ، لا ينبغي لي أن أستمرّ على هذا النحو. لقد تعلَّمتُ الكثير من الأشياء السطحيَّة، والقليلَ من الأشياء المهمَّة. بعد نهاية قصّتي مع فرانكو، فقدتُ فضولي ـ المحدود أساسًا ـ بما يجري حول العالم، وكان هو مَن أمدَّني بذلك الفضول. ولم أعوِّض تلك الخسارة حينما ارتبطتُ ببييترو، لأنَّه أفقدني الاهتمام بأيّ شيءٍ لا يُثير اهتمامه. كم يختلف بييترو عن أمِّه وأبيه وأخته! وكم يختلف عن نينو خصوصًا! لو كان أمر روايتي متعلِّقًا به، فلم أكن حتى

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

لِأُقْدِمَ على كتابتها تقبَّلهَا على مضض، كأنَّها خرقٌ للسموّ الأكاديميّ. لعلّي أبالغ، فاللوم يقع على عاتقي في النهاية. إنّي مجرَّد فتاة محدودة الأفق، أستطيع التركيز في شيء واحد كلّ مرَّة، فأهمل كلَّ أمر سواه. لكنّي سأغيِّر طريقتي، من الآن فصاعدًا. ما إن ينتهي هذا العشاء المملّ، حتى أسحب نينو معي. سأجبره على التنزُّه طوال الليل. سأسأله عن الكتب التي يتوجَّب عليَّ قراءتها، والأفلام التي ينبغي لي أن أشاهدها، والموسيقى التي يجدر بي أن أسمعها. سأشبك ذراعه، سأقول له: أشعر بالبرد. وهكذا، بين النيّات المتضاربة، والقرارات المتسرِّعة، أخفيتُ القلق الذي اجتاحني، وقلتُ لنفسي: لعلَّها المناسبة الوحيدة التي تتسنّى لنا سأسافر غدًا، ولن أراه بعدئذ.

كنت أنظر إلى نفسي في المرآة بغيظ. كان وجهي عنوانًا للإرهاق، والبثورُ الصغيرة نبتت على ذقني، وظلَّل اللون البنفسجيّ حدقتَيَّ، إيذانًا باقتراب الحيض. إنّي قبيحة، قصيرةُ القامة، ضخمةُ الصدر. كان عليّ أن أُدرك منذ زمنٍ أنّي لم أنل إعجابه أبدًا، وأنَّ تفضيله ليلا عليّ لم يأتِ من قبيل الصدفة. لكنْ، بأيّ نتيجة؟ لقد قال للتوّ: «*إنَّها تعاني خللاً ما، حتى في ممارسة الجنس*». لقد أخطأتُ في التهرُّب. كان عليّ أن أُظْهِر له فضولي، وأدَعه يكمل بَوْحَه. إن عاد وفتح الموضوع، فسأكون سفيهة ما استطعتُ. سأقول له: وكيف يظهر خلل الفتاة في الجنس؟ سأشرح له ضاحكةً: إنّي أسألك عن هذا كي أتلافى عيوبي أنا أيضًا، عند الضرورة. ومن يدري، ربّما ما من طريقةٍ لتلافي تلك العيوب وذلك الخلل. تداركَني الاشمئزازُ حين تذكَّرتُ ما وقع لي مع أبيه على شاطئ مارونتي. فكَّرتُ في الحبّ مع فرانكو على سريره الضيِّق داخل غرفته الصغيرة في بيزا هل ارتكبتُ خطأً ما، في أثناء تلك المناسبات، ولاحظاه ولم يرغبا في الإفصاح عنه، لباقةً

منهما؟ ولنفترضْ أنّي ذهبتُ إلى السرير مع نينو، في تلك السهرة نفسها، فهل كنت سأرتكب تلك الأخطاء؟ هل كان سيفكّر في أنّي لا أختلف عن ليلا واختلالها في الجنس؟ هل كان سيغتابني ويفضحني أمام صديقاته في الجامعة؛ أمام ماريّاروزا مثلًا؟

انتابني المقتُ من كلماته. كان عليّ أن أؤنّبه على ما قاله. كان عليّ أن أقول له إنّ تلك الممارسة الجنسيَّة المختلَّة، وتلك التجربةَ التي تُطلق عليها الآن حُكمًا سلبيًا، جاءتا بطفلٍ إلى هذه الحياة، جينّارو الصغير، حادّ الذكاء. ومن المعيب أن تتكلَّم بهذه الطريقة. لا يمكن اختزال المسألة فيمن يُخفق في الجنس وفيمن يبرع فيه. فليلا دمَّرت حياتها من أجلك. وقرَّرتُ: ما إن أتخلَّص من آديلي وصديقها، ويرافقني نينو إلى الفندق، حتى أفتح النقاش معه ثانيةً، وأخبرَه برأيي هذا

خرجتُ من الحمَّام. عدتُ إلى الصالة، فاكتشفتُ أنّ الحالة قد تغيّرتْ في أثناء غيابي. وعندما رأتني حماتي، حرَّكتْ يدها وقالت بمرح، مضرَّجة الوجنتين: ها قد وصلت المفاجأة أخيرًا. المفاجأة كانت بييترو، كان يجلس إلى جانبها

٦

انتفض خطيبي واقفًا، وعانقني. لم أكن قد حدَّثته عن نينو أبدًا. أخبرته عن أنطونيو بإيجاز، وحدَّثته بشيءٍ ما عن علاقتي بفرانكو، وكانت معروفة نسبيًّا ضمن الأوساط الجامعيَّة في بيزا. أمّا بشأن نينو، فلم أكن قد ذكرتُ اسمه حتى، لأنَّ تلك القصَّة تؤلمني، وفيها من المواقف ما يعذّبني ويُشعرني بالخزي. لو أقدمتُ على البوح بها، لكان ذلك بمثابة اعترافٍ بأنّي أُكِنّ لنينو من الحبِّ ما لا يسعني مبادلته مع بييترو أبدًا وكان يعني أن أمنحَها معنًى، وأن أضعَها في سياق الأحداث، على نحو يُرغمني على الإحالة على ليلا، وما جرى في إيسكيا، وربّما أُجبر على الإقرار بأنّ مشهد الجنس مع الرجل الناضج، والذي ورد هكذا في كتابي، كان مستمَدًّا من تجربة حقيقيَّة خضتُها فعلًا على شاطئ مارونتي، بملء إرادة الفتاة المحبَطة التي كنتُ عليها، وهو أمرٌ كنت أعتبره حينئذٍ مثيرًا للتقزُّز. هذه شؤوني الخاصَّة. كنت قد قرّرتُ أن أحتفظ بأسراري لي وحدي. ولو كان بييترو يعرف ذلك، لأدرك حالًا سبب استقبالي له بتلك الصورة الكئيبة.

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

جلس على رأس الطاولة، بين أمّه ونينو، والتهم شريحةً من اللحم، وازدرد من النبيذ، لكنّه كان ينظر إليّ متوجِّسًا، وفهم أنَّ مزاجي كان مكدَّرًا كان يشعر بالذنب حتمًا، لأنَّه لم يصل في الوقت المحدَّد، وتغيَّب عن حَدَثٍ مهمٍّ في حياتي؛ ولأنّي قد أؤوِّل استهتاره بأنَّه لا يحبّني، فقد تركني وسط أغرابٍ في حين كنتُ في أمسّ الحاجة إلى وقوفه إلى جانبي. كم من الصعب أن أخبره بأنَّ وجهي المكفهرّ، وسكوتي الطويل، كانا بسبب أنَّه لم يتغيّب حتى النهاية حقًّا، ولأنَّه أقحم نفسه بيني وبين نينو.

أمَّا هذا الأخير، فكان يضرم حسرتي أيضًا، إذ كان جالسًا قربي، لكنَّه لم يتوجَّه إليَّ بالكلام إطلاقًا كان يتحدث بسعادة عن وصول بييترو، ويسكب له النبيذ، ويُعطيه من سجائره، ويشعلها له بولّاعته؛ وراحا، معًا، ينفثان الدخان من شفاههما المواربة، ويتكلّمان على الرحلة الطويلة من بيزا إلى ميلانو، على الطريق السريع، وعلى متعة القيادة. أدهشني الفارق الكبير بينهما نينو هزيل، طليق الحركة، صوته جهير ووِدِّيّ؛ أمّا بييترو، فجلف الطباع، جبينه ضخمٌ ومتوَّج بشعرٍ منفوش وغير مسرَّح، يبعث على الضحك، ووجنتاه محمرَّتان كأنَّه كاد يجزّهما بموسى الحلاقة، وصوته خفيضٌ على الدوام. كانا يبدوان سعيدين بالتعارف، وهو شيءٌ مستغرَب من جانب بييترو، المنعزل دومًا في شؤونه الخاصَّة. كان نينو يضغط عليه، مظهِرًا اهتمامًا حقيقيًّا بدراساته (*«قرأتُ في مكانٍ ما مقالًا لك، تُفضِّل فيه العسل والحليب على الخمر وكلّ مظاهر الثمالة»*)، وكان يدفعه إلى التحدُّث في هذا الشأن، بينما يتفاعل خطيبي، وهو الذي يتحفَّظ عادةً عن الحديث عن هذه المواضيع، فيصحِّح عن طيب خاطر، ويفتح صدره. ولكن، ما إن أخذ بييترو يشعر بالارتياح، حتى تدخَّلتْ آديلي:

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

«كفَّ عن الثرثرة»، قالت لابنها «ماذا عن مفاجأة إيلينا؟»

نظرتُ إليها بارتباك. هل لا تزال هناك مفاجآت أخرى؟ ألا يكفي أنّ بييترو قاد السيّارةَ ساعاتٍ، بلا توقُّف، كي يشارك، على الأقلّ، في العشاء المُقام على شرفي؟ التفتُّ إلى خطيبي بنظرة فضول. تجهَّم وجهه بملامح أعرفها عنه جيّدًا، فهو يلجأ إليها كلَّما أرغمتْه المناسباتُ على امتداح نفسه على الملأ أعلن، متوجِّهًا إليَّ، بنبرةٍ ضعيفة جدًّا، أنَّه أصبح أستاذًا مشاركًا. شابٌّ في مقتبل العمر يغدو أستاذًا مشاركًا، له منصَّةٌ خاصَّةٌ به في جامعة فلورنسا هكذا، بسحر ساحر، كما عهدتُه دومًا لم يكن يزهو بجدارته مطلقًا، وكان بالكاد يعرف مدى التقدير الذي لاقته أبحاثه، ولم يكن يُطلعني على الامتحانات القاسية التي يخضع لها وها هو آنئذٍ، يذيع ذلك النبأ باستخفاف، كما لو أنَّه فعلها تلبيةً لإلحاح والدته؛ كما لو أنَّ الأمر لا يعني له شيئًا. إلَّا أنَّ الأمر كان يعني أنَّه وصل إلى منزلة رفيعة، وهو في ريعان شبابه؛ كان يعني أنَّه أمَّن لنفسه وضعًا اقتصاديًّا مستتبًّا؛ كان يعني أنَّه سيترك بيزا، ليبتعد عن ذينك المناخين السياسيّ والثقافيّ اللذين أثارا غيظه شهورًا، لا أعلم لماذا لكن أهمّ الدلالات كانت أنّنا سنتزوّج في الخريف، أو مطلع العام المقبل حدًّا أقصى؛ أيْ أنّي سأهجر نابولي قريبًا. لم يشِر أحدٌ إلى هذه النقطة، بل راحوا جميعًا يقدِّمون التهاني إلى بييترو، وإليّ أيضًا، بمن فيهم نينو، الذي سرعان ما نظر إلى ساعته، وانتقد الارتقاء في السلك الجامعيّ بشكل عامّ، ثم اعتذر عن المتابعة لأنَّه مضطرٌّ إلى الانصراف.

نهضنا جميعًا احترتُ في ما ينبغي لي فعله. بحثتُ عن عينيه، لكن عبثًا فاستعر في صدري ألمٌ كبير: نهاية الأمسية، وضياع الفرصة، ورغبات مجهَضة. حين خرجنا إلى الشارع، تمنَّيتُ أن يُعطيني

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

رقم هاتفه أو عنوانَه، لكنّه اكتفى بمصافحتي، آملًا لي كلَّ الخير ومنذ تلك اللحظة، بدا لي أنَّه يتعمَّد القضاء عليّ بأيّ حركة يفعلها رمقتُه بشبه ابتسامة، على سبيل الوداع، ملوِّحةً بيدي في الهواء كأنّي أشدّ القلم بقبضتي. كأنِّي أستجديه: «تعرف أين أسكن، ابعث لي رسالة، أرجوك»، لكنّه كان قد ولّى لي ظهره.

٧

شكرتُ آديلي وصديقَها على كلّ الجهود التي بذلاها لأجلي ولأجل كتابي. امتدح كلاهما نينو بصدقٍ، كأنَّهما ينسبان إليّ تنشئتَه وتربيته على كلِّ هذا اللطف والذكاء اللذين يتحلّى بهما. لم يقل بييترو شيئًا، واكتفى بإيماءةٍ عصبيَّة نوعًا ما حين أوصته والدته بالعودة مبكرًا، إذ كانا ضيفين عند ماريّاروزا، فسارعتُ إلى القول: ما من داعٍ لأن ترافقني، اذهب مع أمّك. ولم يخطر في بال أحدٍ أنّي كنت أتكلّم جدِّيًا، وأنّي كنت حزينة وأفضِّل البقاء وحيدةً.

كنت حادَّة الطباع طوال الطريق. صحتُ بأنّ فلورنسا لا تعجبني، ولم يكن هذا صحيحًا صحتُ بأنّي لم أعد أرغب في الكتابة، بل في مزاولة التعليم، ولم يكن هذا صحيحًا صحتُ بأنّي متعبة، وأنّي أشعر بالنعاس، ولم يكن هذا صحيحًا وليس هذا فحسب: فعندما صرّح بييترو، بلا مقدِّمات، بأنَّه ينوي التعرُّف إلى أهلي، صرختُ في وجهه: «أنت مجنون، عليك أن تنسى أمر عائلتي، فأنت لا تناسب أهلي وهم لا يناسبونك»، فسأل مذعورًا

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

«ألا تريدين الزواج بي؟»

كنت أوشك على الإجابة: *أجل، لا أريد*، لكنّي تمالكتُ أعصابي قبل فوات الأوان، لأنّي كنت متيقّنة من عدم صحَّة هذه الفكرة، فقلتُ بنبرة ضعيفة: «اعذرني، إنّي محبَطة، أرغب بالتأكيد في الزواج بك». وأمسكتُ بيده، وشبكتُ أناملي بأصابعه. كان شابًّا ذكيًّا، ملمًّا بثقافة واسعة، وطيِّبَ القلب. وكنت أودّه ولم أشأ أن أعذِّبه. إلَّا أنّي ـ وأنا أمسك بيده تمامًا، وأنا أؤكِّد له نيَّتي في الزواج به ـ كنت متأكِّدة من رغبتي في نينو ذلك المساء، لولا ظهورُ بييترو المفاجئ.

استصعبتُ مصارحته باعترافٍ كهذا كان سيبدو مجرَّد حركةٍ تعسُّفيَّة وناقمة، لا يستحقّها بييترو حتمًا ومع هذا، كدت أرتكبها بسرور، وربّما بلا أدنى شعورٍ بالندم. كنت سأجد الطريقة لجذب نينو، على الرَّغم من كلّ السنوات المنقضية، من الابتدائيَّة إلى الثانويَّة، حتى زمن إيسكيا وساحة الشهداء. كنت سأحظى به، على الرَّغم من أنّ تلك الجملة التي انتقد بها ليلا لم تُعجبني، بل أحزنتني. كنت سأحصل عليه، من دون أن أقول شيئًا لبييترو. لعلّي كنت سأخبر ليلا بذلك، ومن يدري متى، ربَّما حين نبلغ أرذل العمر؛ حين يفقد أيّ شيءٍ أهمِّيَّتَه في نظر كلٍّ منّا، كما كنت أتخيَّل. فلطالما كان الزمن حاسمًا باتًّا، في أيّ مسألة. ربّما كانت علاقتي بنينو ستستغرق ليلة واحدة فقط، وكان سيتركني في الصباح. كنت أعرف طباعه جيِّدًا هو غريبُ الأطوار، ومن المستحيل أن أهنأ به مدى الحياة. لقد شبّ للتوّ، مؤسِّسًا تطلُّعاته على رغباتٍ صبيانيَّة. كان حالمًا، ولا يصبو إلى المستقبل. أمّا بييترو، فكان ابن زمانه، رابطَ الجأش، كالنُّصب الذي يرسم الحدود الفاصلة. كان يُشرف على أرضٍ جديدة كلّيًا بالنسبة إليّ؛

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

أرضِ الدوافع المنطقيَّة، المحكومةِ بقواعدَ ورثها عن عائلته، تمنح أيَّ شيء معناه المناسب؛ أرضٍ لا تزال خصبة بالأفكار العظمى، ووَقار الاسم الكريم، والثوابت والمبادئ. لا شيء يقوم على الافتراض، في أجواء عائلة آيروتا. فالزواج، مثلًا، والمشاركة في معركةٍ مدنيَّة، سيّان. كان والدا بييترو قد عقدا قرانهما بزواجٍ مدنيّ حصرًا، وبييترو ـ على الرَّغم من معرفتي بإلمامه بثقافةٍ دينيَّة واسعة، بل ربّما بسبب هذا تحديدًا ـ لم يكن ليتزوَّج في الكنيسة، وقد يفضِّل التخلِّي عنِّي من دون ذلك. والأمر ذاته ينطبق على المعموديَّة. لم يخضع بييترو للمعموديَّة في صِغَره، ولا ماريّاروزا، لذا فإنّ أبناءنا القادمين أيضًا لن يخضعوا لهذا الطقس. كان يسلك هذا المسار في أيّ شيء، بل كأنَّه يستجيب طوعًا لأوامر عليا، ليست لها جذورٌ دينيَّة، بل عائليَّة. وعلى الرَّغم من هذا، فإنَّه يستمدّ منها يقينه بأنَّه يقف إلى جانب العدل والحقيقة. أمَّا بخصوص الجنس، فلا أدري. كان متحفِّظًا كان يعرف بشأن علاقتي بفرانكو ماري ما يكفي ليستنتج أنّي لستُ عذراء، ومع ذلك لم يُشر يومًا إلى هذه النقطة، ولا حتى بعبارةٍ اتّهاميَّة، أو نكتة ثقيلة، أو دعابةٍ خفيفة. ولم يبدُ لي أنَّه كان يصاحب عشيقات أخريات، ومن الصعب تصوّرُه في أحضان عاهرة، وأستبعد أنَّه أهدر دقيقة واحدة من حياته ليتكلَّم على النساء مع ذكور آخرين. كان يكره النكات المتهتِّكة. ويكره الثرثرة، والزعيق، والحفلات، وكلَّ أشكال التبذير. وعلى الرَّغم من حالته المادِّيَّة الميسورة، كان يؤمن بما يشبه الاعتدال في الثراء، كما أشار ذات مرَّةٍ مجادلًا أبويه وأختَه. وكان يؤمن إيمانًا جليًّا بالواجب. لم يكن ليقصِّر في واجباته تجاهي، ولم يكن ليخونني.

أجل، إذن، لم أشأ أن أخسره. وصبرًا إن كان مستواي السوقيُّ،

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

على الرَّغم من كلّ الدراسات التي أجريتها، بعيدًا كلَّ البعد عن رزانته ودقّته. صبرًا إن كنتُ لا أعلم بصراحةٍ كم من الوقت سأصمد أمام كلّ هذا الانضباط. كان يمنحني الثقة بالقدرة على الهروب من الخنوع الانتهازيّ الذي اتَّسم به والدي، ومن فظاظة والدتي. لذا، عدلتُ عن التفكير في نينو، وشبكتُ ذراع بييترو، وغمغمتُ: «أجل، فلنتزوّجْ في أقرب وقت. أريد الرحيل عن بيتي. أريد الحصول على رخصة القيادة. أريد أن أسافر. أريد الحصول على هاتف، وتلفاز، لم أحصل على أيٍّ من هذه الأشياء يومًا». فابتسم حينئذ، وضحك، ووافق على ذلك السيل من المتطلّبات. توقَّف على بُعد خطواتٍ عن الفندق، وغمغم بصوت أجشّ: «هل في وسعي النومُ معكِ؟» كانت تلك آخر مفاجأة تجود بها السهرة. نظرتُ إليه مرتبكة: لطالما دعوتُه غير مرَّةٍ إلى ممارسة الحبّ وكان هو الممانع، لكنَّه لم يَرُقْ لي حينها، على ذاك السرير، في ميلانو، في الفندق، بعد النقاش المتوتِّر في المكتبة، وبعد لقائي نينو. فأجبته: «لقد انتظرنا طويلًا، ألا يمكننا الانتظارُ بعضَ الوقت؟» قبّلتُه في زاوية مظلمة، ونظرتُ إليه من عتبة الفندق بينما كان يبتعد نحو شارع غاريبالدي، ويلتفت بين الفينة والأخرى، ويودِّعني بحياء. كم رقّ قلبي لرؤية مشيته المترنِّحة، وقدميه المسطَّحتين، وشَعره المنفوش.

٨

راحت الحياة، بعد تلك اللحظة، تُريني من عجائبها بلا هوادة. توالت الشهور على عَجَلٍ، شهرًا في إثر شهر، وما مرّ يوم إلّا وحدث فيه أمرٌ، سواءً أكان جيِّدًا أم سيِّئًا عدت إلى ناپولي وأنا أفكِّر في نينو، ولقائنا الذي لم يترتَّب عليه شيء. وددتُ الذهاب إلى ليلا، وانتظار عودتها من العمل، لأسرد عليها ما كان صالحًا للسرد، من دون أن أَجرحها ثم أقنعتُ نفسي بأنّي سأجرحها بمجرَّد ذِكر اسم نينو، فعدلتُ عن هذا كانت ليلا منشغلة بمشاغلها، ونينو بمشاغله، وأنا لديَّ أمورٌ طارئة عليَّ أن أجد لها حلًّا على سبيل المثال، في مساء عودتي بالضبط من ميلانو، قلت لذويَّ إنَّ بييترو سيأتي قريبًا ليتعرَّف إليهما، ومن الوارد أن نتزوَّج خلال العام نفسه، وأن أنتقل للعيش في فلورنسا

لم يُعربا عن فرحةٍ أو تهنئة، فظننتُ أنَّهما اعتادا على حرِّيَّتي في الذهاب والمجيء كما يحلو لي، لأزداد اغترابًا وحياديَّة عن العائلة وهمومها وبدا لي أنَّ والدي، بحكم العادة، وحده مَن يتفاعل قليلًا، وغالبًا بعصبيَّةٍ، إزاء المواقف التي لم يكن قد تهيَّأ لها

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

«وهل الأستاذ الجامعيّ مضطرٌّ إلى المجيء إلى بيتنا؟» سأل مستاءً.

«وأين يذهب، إذن؟» غضبت أمّي، «كيف يطلب منك يد لينوتشا إن لم يأت إلى هنا؟»

بدت لي أمّي، كالعادة، أكثرَ يقظةً منه، وأكثرَ واقعيَّة وحزمًا وتماسكًا. ولكن، ما إن أخرستْه، فذهب لينام، وما إن حضَّر بيبّي وجانّي وإيليزا أسرَّتهم في صالة الطعام، حتى غيَّرتُ فكرتي عنها انهالت عليّ، بصوتٍ خفيضٍ وزاعق في آن واحد، وهي تغمز بعينيها المحتقنتين: «نحن لا نساوي شيئًا بالنسبة إليك، تخبريننا بالأمور في آخر لحظة. السيِّدة الشابَّة تظنّ نفسها ملكةً لأنَّها درستْ؛ لأنَّها تؤلِّف الكتب؛ لأنَّها ستتزوَّج أستاذًا جامعيًّا كلَّا، ثم كلَّا يا عزيزتي، فأنتِ قد وُلدتِ من هذا البطن، وخُلقتِ من هذه الدماء، فإيَّاكِ أن تتكبَّري، وحذارِ أن تنسي أنَّكِ ذكيَّة لأنّي أنا من حبلَتْ بكِ، فأنا ذكيَّة مثلكِ وأكثر، ولو هُيِّئت لي الظروف لفعلتُ هذه الأشياء التي تفعلينها، أفهمتِ؟» وهكذا، بموجة غضبها العاتية، أنزلتْ عليَّ اللائمة بتردِّي مستوى إخوتي في المدرسة، لأنِّي تركتهم وفكَّرتُ في نفسي فقط. ثم طلبتْ منِّي النقود، بل طالبتني بها، متذرِّعةً باحتياجاتها إلى شراء فستانٍ يليق بإيليزا، وإلى ترتيب البيت أيضًا، بما أنّي كنت أُجبرها على استقبال خطيبي.

تجاهلتُ إخفاقات إخوتي في المدرسة، لكنّي أعطيتُها النقود حالًا، مع أنَّها لم تكن صادقة باحتياجاتها من أجل المنزل، إذ كانت تطلب منِّي النقود دومًا، وكلُّ حجّةٍ لها كانت دامغةً. لم يكن في وسعها تقبُّلُ أنّي أحتفظ بالنقود في مصرف البريد، على الرَّغم من أنَّها لم تقل هذا، بشكلٍ واضح، وأنّي لم أسلِّمها المال كما كنت أفعل

دومًا، منذ أن كنت أصطحب بنات بائعة القرطاسيَّة إلى البحر، إلى أن عملتُ في مكتبة موتسيكانوني. ففكَّرتُ في أنَّها أرادت أن تقنعني بأنِّي مُلكٌ لها، كما كانت تتعامل مع أموالي، وأنّي سأظلّ مُلكًا لها، حتى بعدما أتزوَّج.

ضبطتُ نفسي، وبادرتُ بما يشبه مكافأةَ التسريح، بأنّي أتعهَّد بوصل الهاتف إلى البيت، وبشراء جهاز تلفاز بالتقسيط. نظرتْ إليّ باستغراب، بإعجاب مفاجئ يتناقض مع ما أسمعتني إيّاه منذ قليل.

«الهاتف والتلفاز في بيتنا هذا، هنا؟»

«طبعًا».

«تدفعين ثمنَهما بنفسكِ؟»

«أجل».

«دائمًا؟ أي حتى بعد أن تتزوَّجي؟»

«أجل».

«وهل يعرف الأستاذ أنَّه ليس لدينا قرشٌ واحد لدفع تكاليف الزفاف، بما فيها الحفل؟»

«يعرف. ثم إنّنا لن نحيي أيّ حفل».

تبدَّل مزاجها مرَّة أخرى، وعاودت عيناها احتقانًا:

«كيف لا نحيي الحفل؟ دعيه يدفع التكاليف».

«لا، في إمكاننا الاستغناء عن الحفل».

غضبت أمِّي من جديد، واستفزَّتني بكلِّ الطرائق. كانت تريد أن أُجيبها كي يستشيط غيظها أكثر.

«ألا تذكرين زفاف لينا؛ ألا تذكرين حفلتها؟»

«بلى».

«ولا تريدين أن تفعلي مثلها، وأنتِ أفضل منها كثيرًا؟»

مكتبة الرمحي أحمد telegram @ktabpdf

«لا».

وبقينا هكذا، بين صَدٍّ وردٍّ، حتى قرّرتُ أن أتجرَّع كأس سخطها كلَّها، على أن أظلّ أرتشف منها قطرةً قطرة. فقلت:

«لن نحيي الحفل. وليس هذا فحسب، بل لن أتزوَّج في الكنيسة أيضًا سأتزوَّج في البلديَّة».

جاء كلامي كما تهبّ ريحٌ عاصفةٌ فتصفق الأبواب والنوافذ. على الرَّغم من تديُّنها المتواضع، فإنَّ أمِّي فقدتِ السيطرة على أعصابها وأخذتْ تصيح، مضرَّجةَ الوجه، بشتائم مريعة، وهي منحنيةٌ في اتِّجاهي. صرختْ قائلةً إنَّ الزواج لا يساوي شيئًا ما لم يؤكِّد الخوري صلاحيَّتَه، وإنّي إن لم أتزوَّج أمام الربّ فلن أصبح زوجة، بل عاهرة. ثم حلَّقتْ وهي تركض، على الرَّغم من ساقها العرجاء، لتُوقظ أبي وإخوتي، لتُعلمهم بما كانت تخشاه دومًا، وهو أنَّ الإسراف في الدراسة يدمِّر العقل، وأنّي، على الرَّغم من حصولي على النجاح وحُسن الحظّ، أُعامل نفسي كمومس، وأنَّها لن تخرج من البيت أبدًا كي لا تجرّ أذيال العار ما دامت أُمًّا لابنةٍ لا تؤمن بالربِّ.

هرع والدي، بسرواله، وإخوتي الذين أرادوا أن يفهموا ما الذي عليهم أن يعانوه بسببي حينها، وحاولوا جميعًا أن يهدِّئوا روعها، بلا جدوى. كانت تصيح بأنَّها تريد أن تطردني من البيت فورًا، قبل أن أُرغمها على ذلك العار: أي أن يكون عندها، هي أيضًا، ابنةٌ جاريةٌ مثل ليلا وآدا وعلى الرَّغم من أنَّها لم تفعل شيئًا لتصفعني حقًّا، فإنَّها كانت تضرب الهواء بيديها كما لو كنتُ شبحًا، وكما لو أنَّها قبضت عليَّ حقًّا وانهالتْ عليَّ بأقسى اللَّكمات. ومضى بعض الوقت قبل أن تهدأ، وقد حدث هذا بفضل إيليزا، إذ سألتني بحذر:

«هل أنتِ من يريد الزواج في البلديَّة، أم خطيبُكِ؟»

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

فشرحتُ لها، متوجّهةً بالكلام إلى الجميع، بأنَّ الكنيسة لم تعد تعني لي شيئًا منذ أمد، ولا فرق عندي إن تزوَّجتُ في البلديَّة أم على المذبح؛ بينما يشدِّد خطيبي على أهمِّيَّة الزواج بصورة مدنيَّةٍ لا غير، فهو يعرف كلّ شيء عن المسائل الدينيَّة، ويعتقد أنّ الدين يفقد عظمته وجلاله حين يُقحمونه في شؤون الدولة. في المحصِّلة، ختمتُ: إن لم نتزوَّج في البلديَّة، فلن يتزوَّجني.

حينذاك، كفّ والدي عن ترديد شتائم والدتي ونحيبها، بعد أن كان قد وقف في صفّها

«لن يتزوَّجك؟»

«لا».

«وماذا يفعل، يهجركِ؟»

«نذهب إلى العيش معًا في فلورنسا، من دون أن نتزوَّج».

اعتبرت أمِّي الجملة الأخيرة أكثرَ الأخبار كارثيَّةً. نفد صبرها كلِّيًّا، وتوعَّدتْني، بالقتل ذبحًا بالسكِّين، إذا ما فعلتُها. لكنّ والدي حكَّ شعره بعصبيَّة، وقال لها

«اخرسي قليلًا لا تُغضبيني. دعينا نفكِّر نعرف جيِّدًا أنَّ في الإمكان الزواجَ أمام الخوري، وإقامةَ حفلة خياليَّة، ثم تنتهي بنا الأمور في أسوأ حال».

كان يلمِّح، بشكل لا لبس فيه، إلى ليلا، هو أيضًا، كونها الفضيحةَ المجلجلة في الحيّ دومًا ففهمتْ أمِّي أخيرًا. الخوري ليس ضامنًا، ولا وجودَ لأيِّ ضمانات في هذه الدنيا القاسية التي نعيش فيها لذا كفَّت عن الصياح، وأوكلتْ إلى والدي مَهمَّةَ تحليل الوضع، لعلَّه يتغلَّب عليَّ. لكنّها لم تكفّ عن الطواف طُولًا وعرضًا، بخطواتها العرجاء، تحرِّك رأسها، وتغمغم بالشتائم ضدَّ زوجي مستقبلًا: «من

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

هو، هذا الأستاذ؟ شيوعيٌّ، أليس كذلك؟ شيوعيٌّ وأستاذ؟ أستاذٌ لعين. أيّ أستاذ هذا الذي يفكِّر بهذه الطريقة؟ هذه طبائعُ وغد». «كلّا»، ردَّ عليها والدي، «أيّ وغد، إنَّه دارسٌ ويعرف سفالة الخوارنة أكثر من الجميع، ولهذا يفضِّل أن يقول نعم للبلديَّة حصرًا حسنًا، أنتِ محقَّة، فالكثير من الشيوعيّين يفعلون مثله. أنتِ محقَّة، بهذا الشكل يبدو أنّ ابنتنا ليست متزوِّجة. لكنّي أثق بهذا الأستاذ الجامعيّ؛ إنّه يكنّ لها الودّ، ولا أصدِّق أنَّه يريد أن تظهر لينوتشا كعاهرة. وفي أيِّ حال، إن كنّا لا نريد أن نثق به ـ أنا شخصيًّا أثق به، مع أنّي لم أعرفه بعد، لكنَّه شخصٌ مهمّ، تحلم به الفتياتُ هنا ـ فلنثق بالبلديَّة على الأقلّ. إنّي أعمل في البلديَّة، وفي وسعي أن أؤكِّد لكِ أنَّ الزواج فيها يساوي ما يساويه الزواج في الكنيسة، وربَّما أكثر بكثير».

وراح يسهب في الحديث لساعات. استسلم إخوتي في وقتٍ متأخِّر، وخلدوا إلى النوم. وبقيتُ أطيِّب خاطر أبوَيّ وأُقنعهما بالموافقة على أمرٍ أعتبره، في تلك الآونة، دلالةً دامغةً على دخولي عالمَ بييترو. أكثر من ذلك، كنت أشعر بأنّي، بتلك الطريقة، أبدو أشدّ جسارةً من ليلا نفسها، وخصوصًا إذا التقيتُ نينو مرَّة أخرى. كان يسعدني لو قلت له ضمنيًّا: أرأيت أين أوصلني ذاك الصِدامُ مع أستاذ التربية الدينيَّة؛ لكلٍّ خيارٍ حكايتُه، والكثير من لحظات حياتنا تبقى مخبَّأة في إحدى الزوايا، تنتظر الفرصة للظهور مجدَّدًا، وفي النهاية، لا بدّ من أن تتسنّى لها الفرصة. وربَّما كنت أبالغ، فالموضوع في الحقيقة كان بسيطًا للغاية: لقد انكفأ ربّ الطفولة في حُجرةٍ، كأيّ مريضٍ عجوز، منذ عشر سنواتٍ على الأقلّ، وقد كان ضعيفًا بما فيه الكفاية أساسًا؛ ولم أكن أشعر بأيّ حاجةٍ إلى تقديس الزواج. أمّا السبب الجوهريّ، فيكمن في ضرورة هروبي من نابولي.

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

٩

لم ينجلِ الرعبُ عن عائلتي، من فكرة الزواج المدنيّ، خلال تلك الليلة طبعًا، لكنّ مستواه انخفض كثيرًا في اليوم اللاحق، تصرَّفتْ أمّي مع أيِّ غَرَضٍ تمسّه ـ كآلة القهوة، وكوبِ الحليب، وعلبة السكَّر، وسلَّة الخبز الطازج ـ على أنَّها أدواتٌ قد ترميني بإحداها ومع هذا، لم تستأنف صياحَها أمَّا أنا، فعمدتُ إلى تجاهلها، وخرجتُ في الصباح الباكر، وذهبتُ لبدء معاملات توصيل الهاتف. وبعد أن أنهيتُ ذلك، مررتُ بباب الفجر، ورحت أجوب المكتبات. كنت عازمة على إحراق المراحل للتعبير عن نفسي بلا خجلٍ أو مخاوف، كلَّما واجهتُ نقاشًا واسعًا كذاك الذي حدث في ميلانو. فاخترتُ بعض المجلَّات والكتب، معتمدةً على الحدس قدر الإمكان، وأنفقتُ الكثير من النقود. وبعد تردُّدٍ وحيرة، دفعتني عبارة نينو، التي غالبًا ما خطرت في ذهني، إلى الحصول على «ثلاثة مباحث في نظريَّة الجنس» ـ لم أكن أعلم سوى القليل عن فرويد، وضحالة معلوماتي كانت بالنسبة إليّ مصدرًا حقيقيًّا للقلق ـ إضافة إلى كتابين صغيرين معنيَّين بالجنس. كنت أنوي أن أفعل ما فعلتُه في الماضي بالموادّ

مكتبة الرمحي أحمد telegram @ktabpdf

المدرسيَّة، وبالامتحانات، وبرسالة التخرُّج، وما فعلتُه بالجرائد التي كانت غالياني تُعطيني إيّاها، وبالنصوص الماركسيَّة التي نصحني فرانكو بقراءتها منذ عدّة أعوام. كنت أريد «أن أدرس» العالَم المعاصر من الصعب تحديد العناصر التي كدَّستُها في دماغي خلال تلك الفترة. كنت أذكر النقاشات مع باسكوالي، والنقاشات مع نينو أيضًا وكان لديّ بعض الاهتمام بكوبا وأميركا اللاتينيَّة؛ الحيِّ الذي لا يُشفى من البؤس والشقاء؛ معركةِ ليلا الخاسرة؛ المدرسةِ التي أقصتْ إخوتي، لا لشيء، سوى لكونهم أقلّ عنادًا وإقدامًا على التضحيات منِّي؛ المحادثاتِ الطويلة مع فرانكو، وتلك العابرةِ مع ماريّاروزا وقد تشابكت الأفكار في بوتقة واحدة لتنتج منها أفكارٌ متضاربة وواهية كالبخار: («*لا حدود للظلم في هذا العالم، وينبغي لنا أن نتصدّى لهذا الظلم. لكنَّ التعايش السلميّ بين الإمبرياليَّة الأميركيَّة والبيروقراطيَّة الستالينيَّة، من جهة، والسياسات الإصلاحيَّة التي انتهجتْها الأحزابُ العمَّاليَّة الأوروبيَّة ـ ولاسيّما الإيطاليَّة ـ من جهة أخرى، تسعى جميعًا إلى إبقاء الطبقة البروليتاريَّة في حالة كمونٍ وتبعيَّة، لإخماد أيّ ثورةٍ محتملة، وهو أمر سوف يؤدِّي إلى انتصارٍ ساحقٍ وأبديٍّ لرأس المال، إذا استمرّ التراخي العالميّ الراهن، وإذا سادت هيمنة يمين الوسط على السوق والإنتاج، وبالتالي، ستخضع الطبقةُ العاملة مُرغَمةً لثقافة الاستهلاك*). لا شكَّ في أنّ هذه العناصر حثَّتني على النشاط، ومن المؤكَّد أنَّها تتفاعل في رأسي منذ وقت بعيد، وتُثير مشاعري أحيانًا لكنّي أرجِّح أنَّ طموحي الدائم إلى تحقيق نجاحٍ باهر، كان السبب الحقيقيّ في اختيار ذلك المسير الشاقّ، في البداية على الأقلّ. فلطالما اعتبرتُ أنَّ التربية تساعد على اكتساب أيّ شيء، بما في ذلك الشغفُ السياسيّ.

وقعتْ عيناي، وأنا أدفع ثمن الكتب، على روايتي، ساكنةً في أحد الرفوف، فأزحتُ نظري إلى الجانب الآخر في الحال. كنت أشعر بمزيجٍ من الفخر والخوف، كلَّما صادفتُ كتابي في إحدى الواجهات، بين روايات أخرى صدرت للتوّ. تنتابني موجة سعادةٍ، سرعان ما تتحوَّل إلى قلقٍ وتوتُّر حتمًا، القصّة وُلدت عن طريق الصُّدفة، في غضون عشرين يومًا، بلا جهد يُذكَر، كأنَّها مهدِّئٌ يخفِّف وطأة الإحباط. كما أنّي كنت أعرف جيِّدًا ما هو الأدب العظيم، فقد دأبتُ على دراسة الكلاسيكيَّات؛ ولم يخطر في بالي، وأنا أكتب، أنّي سأنجز شيئًا ذا قيمة. لكنّي شعرتُ بضرورة الاجتهاد لإيجاد شكلٍ ما فأصبح هذا الشعورُ *ذاكَ الكتابَ*، وغدا غرضًا قائمًا، في حدّ ذاته، غرضًا يحتويني. كنت *أنا* هناك، معروضةً هناك، وكلَّما رأيتُ نفسي هناك اهتاجَ القلقُ في صدري. كنت أشعر بأنّ ثمّة شيئًا ما يُثير توتُّري، ليس في كتابي فحسب، بل في الروايات بشكلٍ عامّ؛ شيئًا ما يُشعرني بأنَّ قلبي الخفّاق يتعرّى، تمامًا كما وثب من بين جوانحي في أثناء تلك اللحظة البعيدة، حين اقترحتْ عليّ ليلا أن نؤلِّف حكايةً معًا. فشاء القدر أن أكتبها بمفردي حقًّا ولكن، أهذا ما كنت أريد؟ أن أكتب، ليس عن طريق الصُّدفة، بل أفضل ممّا فعلتُ؟ أن أدرس حكايات الماضي والحاضر، لأفهم آليّاتها، وأن أتعلَّم، أتعلَّمَ كلّ شيء عن العالم، لا لشيءٍ سوى لتكوين قلوبٍ مفعمةٍ بالحيويَّة، لن يكون في مقدور أحدٍ أن يكوِّنها أفضلَ منّي، حتى ليلا لو سنحت لها الفرصة؟

خرجتُ من المكتبة، وتوقَّفتُ في ساحة كافور. كان النهار هنيئًا، وشارع فوريا يبدو نظيفًا وهادئًا، خلافًا للمألوف، على الرَّغم من الستائر التي تُحيط بالرواق الكبير طبّقتُ طريقتي المعتادة: أخرجتُ دفترًا صغيرًا، اشتريته للتوّ؛ كنت أرغب في أن أتصرَّف كالأدباء

telegram @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

الحقيقيّين؛ أن أسجّل الأفكار والملاحظات والمعلومات المفيدة. قرأتُ جريدة «الاتّحاد» من أوّلها إلى آخرها، ودوّنتُ المفاهيم التي أجهلها. وجدتُ مشاركة والد بييترو، على صفحات «الجسر»، وتفحّصتُها باهتمام، لكنّها لم تبدُ لي بتلك الأهمّيّة التي وصفها نينو، بل فُجعتُ بها لسببين على الأقلّ: الأوّل، أنّ غويدو آيروتا كان يستخدم لغة الأساتذة المتحذلقين، بنبرةٍ أقسى كثيرًا من نبرة الرجل ذي النظّارات المقعّرة. والثاني، أنّ آيروتا بدا كأنّه يلمّح إليّ، سواءٌ بملء إرادته أم عن غير قصد، في إحدى الفقرات التي يتطرّق فيها إلى الطالبات («زمرةٌ جديدة» كان يقول «ويتّضح جليًّا من مظهرهنّ أنّهنّ لا ينحدرن من الطبقة الميسورة، وإنّما آنساتٌ صبيّات بملابس متواضعة، وبتربية متواضعة، وهكذا ينتظرن من الجهد المَهُول في الدراسة مستقبلًا لا يقتصر على الأعمال المنزليّة»). دوّنتُ هذا في دفتري أيضًا (*ما الذي أعنيه لأفراد عائلة آيروتا: وسامٌ فخريٌّ لرحابة صدورهم وانفتاح أذهانهم؟*). ورحتُ أتصفّح «كورييري ديلا سيرا»، على مضض، بل بمزاج مكدّر.

أذكر أنّ الطقس كان دافئًا، وقد بقي في ذاكرتي الأنفيّة ـ المصطنعة أو الحقيقيّة ـ مزيجٌ من رائحة الورق المطبوع والبيتزا المقليّة. ألقيتُ نظرةً إلى العناوين، صفحة خلف صفحة، حتى انقطعت أنفاسي فجأة. وجدتُ صورةً شخصيّة لي، حبيسةً داخل مربّع من أضلاع رصاصيّة ثخينة. وفي الخلفيّة، تظهر تخوم الحيّ، ثم النفق. العنوان يقول: «*فتاةٌ طموحةٌ تسرد ذكرياتها الوقحة. الرواية الأولى لإيلينا غريكو*». المقالة بإمضاء الرجل ذي النظّارة المقعّرة.

١٠

تصبّبتُ عرقًا باردًا، بينما كنت أقرأ، وشعرتُ بأنّي مقبلة على الإغماء. كان كتابي يبدو فرصةً لإثبات ما تعرَّض له العالم بأسره من انحطاط في العقد الأخير، على أيدي شبيبةٍ مستهترة ومعدومة القيم، يشمل كلّ الأصعدة الإنتاجيَّة والاجتماعيَّة والثقافيَّة، بدءًا من المصانع، مرورًا بالمديريَّات، فالجامعات، ومجال النشر، والسينما. وكان غالبًا ما يستشهد ببعضٍ من عباراتي، يضعها بين هلالين، ليثبت أنّي حالةٌ نموذجيَّة عن جيلي الذي نشأ على تربيةٍ معطوبة. وفي الختام، وصفني بأنّي «فتاةٌ مهووسة بإخفاء انعدام موهبتها، بين سطورٍ ركيكة تعبِّر عن الشهوانيَّة بأسلوبٍ مبتذلٍ وسفيه».

انفجرتُ باكيةً. كانت تلك أقسى مقالة قرأتُها منذ أن صدر الكتاب، والأدهى أنَّها لم تُنشَر في جريدةٍ ضيِّقة النطاق، بل على صفحات أكثر الجرائد انتشارًا في إيطاليا، وخصوصًا أنّ صورة وجهي الضاحك بدت لي لا تُطاق وسط مقالةٍ مُهينة إلى ذلك الحدّ. عدتُ إلى البيت سيرًا على قدمَيَّ، بعد أن تخلَّصتُ من جريدة «كورييري ديلا سيرا»، إذ كنت أخشى أن تقرأ أمِّي تلك المراجعة وتستخدمها ضدِّي.

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

تخيَّلتُ أنَّها ستضعها في الألبوم عنوةً، كي تذكِّرني بها كلَّما سبَّبتُ لها الإزعاج.

وجدتُ الطعام لي وحدي على المائدة. أبي كان في العمل، وأمِّي ذهبت لتطلب من جارتها شيئًا ما، وإخوتي قد تناولوا غداءهم. أخذتُ ألتهم الپاستا والبطاطا، وأنا أقرأ سطورًا منفصلة من روايتي. وفكَّرتُ، في خيبة أمل: لعلَّها لا تساوي شيئًا بالفعل. ربَّما نشروها إرضاءً لآديلي ليس إلّا كيف استطعتُ أن أفكِّر في عباراتٍ سخيفة، واعتباراتٍ تافهة، كهذه؟ يا للإهمال، كم من الفواصل لا لزوم لها؛ لن أكتب بعد الآن. كان التقزُّز من الطعام والنفور من الكتاب يتقاذفانني، حين جاءتني إيليزا بورقة صغيرة. سلَّمتها إليها السيِّدة سبانيولو، ووضعتُ رقمَ هاتفها، بموافقة كريمة منها، لكلّ من أراد التواصل معي في الحالات الطارئة. تقول الورقة إنّي تلقَّيتُ ثلاث مكالمات، إحداها من جينا ميدوتي، المسؤولة عن القسم الصحافيّ لدار النشر، وثانيتُها من آديلي، والثالثة من بييترو.

كانت تلك الأسماء الثلاثة، كما كتبتها السيِّدة سبانيولو بخطِّها الفاشل، تُعطي شكلًا ملموسًا لأفكاري التي بقيت في العمق حتى لحظةٍ سابقة. لا بدّ من أنّ الكلمات الشرِّيرة لذلك الرجل ذي النظَّارة السميكة قد انتشرت كالنار في الهشيم، وستصل إلى كلّ مكان في غضون النهار ذاته. لا شكّ في أنّ بييترو قرأها، وعائلته، والمدراء في دار النشر أيضًا. وربَّما وصلت إلى نينو أيضًا ولعلّ أساتذتي في بيزا يقرأونها الآن. وكانت بالتأكيد ستحظى باهتمام غالياني وابنيها. ومن يدري، قد تكون ليلا أيضًا قد قرأتها انفجرتُ باكيةً من جديد، ففزعت إيليزا:

«ما بكِ يا لينو؟»

«لستُ على ما يرام».

مكتبة الرمحي أحمد
telegram @ktabpdf

«هل أحضِّر لك كوبًا من البابونج؟»

«أجل».

غير أنِّي لم أهنأ بالشراب. طَرَقَ أحدهم على الباب. السيِّدة سبانيولو كانت منهكة من صعود السلالم على عَجَل، قالت لي مبتهجة إنَّ خطيبي يبحث عنِّي، وينتظرني على الهاتف، يا لجمال صوته، ورُقِيّ لكنته الشماليَّة. هرعتُ إلى بيتها، وأنا أقدِّم الاعتذار تلو الآخر على الإزعاج. حاول بييترو طمأنتي قائلًا إنَّ أمّه توصيني بعدم الاكتراث، فالمهمّ أن يصبح الكتاب موضعَ نقاش. لكنّي زعقتُ، ففوجئتْ بي السيِّدة سبانيولو التي لطالما عرفتني لَبِقَةَ، وقلت له: لا يهمّني إن بات موضع نقاش، ويهاجمونه بأقسى الانتقادات. فأوصاني ثانيةً بالحفاظ على هدوئي، وأضاف: غدًا، سيصدر مقالٌ في جريدة «الاتِّحاد» أنهيتُ المكالمة بجلافة، قلت: من الأفضل ألّا يلتفت أحدٌ إليّ بعد الآن.

وفي الليل، لم يغمض لي جفن. ولم أتمالك نفسي في الصباح، وهرعتُ للحصول على نسخة من الجريدة. تصفّحتُها على عَجَل، وأنا ما أزال قبالة الكشك، على مرمى حجر من المدرسة الابتدائيَّة. فوجدتُ الصورة ذاتُها، التي ظهرتْ في صحيفة «كورييري»، لكنَّها لم تكن في وسط المقال، بل فوقه، إلى جانب العنوان: «*شبّانٌ متمرِّدون، وكهولٌ رجعيُّون: عن رواية إيلينا غريكو*». لم أكن قد سمعتُ باسم كاتب المقال من قبل، بيد أنَّه ما من شكٍّ في حسن أسلوبه في الكتابة، حتى إنّ كلماته كانت كالبلسم الشافي. كان يمتدح روايتي بتصميم، ويهاجم الأستاذ المرموق صاحب النظّارة السميكة. عدت إلى البيت ٍراضية، ولعلَّ مزاجي تحسَّن أيضًا تصفَّحتُ كتابي، فبدا لي هذه المرَّة بالغ الانسجام، ومكتوبًا بمهارة عالية. قالت أمّي، متجهِّمة: هل ربحتِ قطارًا في اليانصيب؟ فتركتُ الجريدة على طاولة المطبخ،

من دون أن أردّ عليها

ظهرت السيِّدة سبانيولو ثانيةً، في آخر العصر كان أحدهم ينتظرني على الهاتف. تقبَّلتْ سبانيولو حيائي وأعذاري، وقالت إنَّها فخورة بأن تكون مفيدة لفتاة مثلي، وأمطرتني بالثناء. «جيليولا عاثرة الحظّ»، تنهَّدتْ عند السلالم، «والدها أجبرها على العمل في مصنع حلويّات سولارا وهي في سنِّ الثالثة عشرة، ولحسن حظِّها أنَّها ارتبطت بميكيلي، وإلاَّ لكان عليها أن تشقى إلى آخر يوم في عمرها». فتحتْ باب البيت، وأدخلتني إلى الممر، ثم إلى الهاتف المعلَّق على الجدار. لاحظتُ أنَّها خصَّصت لي كرسيًّا كي أستريح عليه: يا للتبجيل الذي يناله مَن عزم على الدراسة. كانت الدراسة بمثابة حيلةٍ يلجأ إليها أكثرُ الصغار فطنةً لينأوا بأنفسهم عن شَظَف العيش. كيف لي أن أشرح لهذه المرأة ـ تساءلتُ ـ أنّي كنت رهينةً للحروف والأرقام منذ سنِّ السادسة، وأنّ راحة بالي متعلِّقة بنتيجة التفاعلات التي تطرأ على دراستي، وأنَّ هذه الفرحة بالإنجاز نادرة، ولا تدوم أكثر من ساعة، أو عصريَّة، أو ليلة واحدة؟

«هل قرأتِ المقال؟» سألتني آديلي.

«أجل».

«وهل أسعدكِ؟»

«أجل».

«سأزفّ إليكِ نبأً سارًّا آخر الكتاب يُباع بكثرة، إذا استمرّ على هذا النحو، طبعناه مجدَّدًا».

«ما المقصود؟»

«المقصود أنّ صديقنا في «كوريبيري» ظنَّ أنَّه سحقنا، لكنَّه قدَّم إلينا خدمةً سخيَّة. وداعًا يا إيلينا، استمتعي بالنجاح!»

١١

كان الكتاب يُباع حقًّا، أدركتُ ذلك سريعًا في الأيَّام القليلة اللاحقة. أكثر المؤشّرات دلالةً كان كثافة المكالمات من جانب جينا، التي كانت تُحيطني بالمراجعات على الجرائد تارةً، وتقدِّم إليَّ دعواتٍ إلى المكتبات والمنتديات الثقافيَّة تارةً أخرى، من دون أن تنسى أبدًا أن تودِّعني بتلك العبارة الودودة: «الرواية تُحْرز تقدُّمًا ملحوظًا يا أستاذة غريكو، تهانينا». «شكرًا»، أردُّ عليها، لكنّي لم أكن سعيدة. فمقالات الجرائد بدت لي سطحيَّة، وكانت تكتفي بتقليد مقالة «الاتِّحاد» المشجِّعة، أو مقالة «كورييري» الهدّامة. وعلى الرَّغم من أنّ جينا كرَّرت على مسمعي مرارًا أنّ الآراء السلبيَّة تساعد الكتاب أيضًا، فإنّ تلك الآراء كانت تُغضبني، في أيِّ حال، فأظلّ أترقَّب صدَقةً من مراجعةٍ إيجابيَّة كي تُعادل تلك المراجعات السلبيَّة، فيتحسَّن مزاجي. وهكذا، أعطيتُ أمّي كلّ المقالات، الناقمة والطيِّبة، ولم أعد أُخفي عنها شيئًا. كانت تحاول قراءتها، تُهَجّي السطور الخمسة الأولى، مقطّبةَ الوجه، ولا تذهب أبعد من ذلك؛ فكانت إمّا أن تجد سببًا يمهِّد حالًا للشجار، وإمّا أن تنكفئ على هوسها بالتجميع. كانت تهدف إلى

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

ملء الألبوم برمَّته، فتشتكي حين لا أعطيها من قصاصات الجرائد، خشية أن تظلّ أوراق الألبوم فارغةً.

بيد أنَّ أكثر مقالة آلمتني حقًّا، كانت تلك التي ظهرت على صفحات «روما»، لأنَّها كُتِبَت بأسلوبٍ منمَّقٍ، مستحضرةً مقالة «كورييري»، فقرةً في إثر فقرة؛ وتتكرَّر في الختام الفكرة ذاتها بطريقةٍ متزمِّتةٍ للغاية، كالتالي: لم يعد في الإمكان كبحُ جماح النسوة، يكفي أن نقرأ الرواية المشينة لإيلينا غريكو كي نُدرك ذلك؛ إنَّها امتدادٌ للرواية الكارثيَّة «صباح الخير أيُّها الحزن». لكن ما جرحني فعلًا ليس محتوى المقالة، بل مؤلِّفها. كانت بإمضاء والد نينو، دوناتو سارّاتوري. تذكَّرتُ كم أُعجبتُ بذاك الرجل، في صباي، لأنَّه كان صاحب ديوان شعر؛ تذكَّرتُ هالة المجد التي أحطتُه بها حين اكتشفتُ أنَّه يكتب في الصحف. تُرى، ما سبب هذه المراجعة؟ هل أراد أن ينتقم لأنَّه تعرَّف إلى نفسه في رجل العائلة المقرف الذي يُغوي بطلة الرواية؟ رغبتُ في أن أتَّصل به، وأصرخ في أذنه أقذع الشتائم بأشدّ النبرات العامِّيَّة سوقيَّةً. وما عدلتُ عن هذا إلّا حين خطر نينو في بالي، وبدا لي أنّي اكتشفتُ شيئًا مهمًّا كانت تجربته وتجربتي متشابهتين. كِلانا رفض انتهاج عائلتينا، إذ لطالما كنتُ مهووسة بوضع المسافات بيني وبين أمِّي، بينما حطَّم نينو كلّ الجسور مع أبيه نهائيًّا طمأنني هذا التشابه، وأخمد غضبي شيئًا فشيئًا

لكنِّي لم آخذ في الحسبان أنّ سكان حيّنا كانوا يتابعون جريدة «روما» أكثر من أيِّ جريدة أخرى. وفطنتُ لهذا في المساء. جينو، ابنُ الصيدلانيّ، والذي بات شابًّا مفتولَ العضلات بفضل رفع الأثقال، أطلّ على عتبة الصيدليَّة حين كنت أمرّ من هناك تمامًا؛ كان يرتدي مئزر الأطبّاء مع أنَّه لم يحصل على الشهادة بعد. ناداني، وهو يلوِّح

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

بالجريدة، قائلًا، بنبرةٍ جدِّيَّة، إذ كان قد بدأ مسيرته في «الحركة الوطنيَّة الإيطاليَّة» ذاتِ الاتِّجاه اليمينيّ المتطرِّف، مؤخَّرًا: هل قرأتِ ما يكتبونه عنكِ؟ فأجبتُه كي أغيظه: يكتبون الكثير، وتابعتُ طريقي بشبه تحيَّة. فارتبك وغمغم بشيءٍ ما، ثم صاح بلؤم مفضوح: هلّا قرأتِ كتابكِ على مسمعي؟ يبدو لي مهمًّا جدًّا جدًّا

ولم تكن تلك سوى البداية. اقترب منّي ميكيلي سولارا في الطريق، في اليوم التالي، وألحَّ على أن يدعوني إلى فنجان قهوة. فذهبنا إلى مقهاه. وبينما كانت جيليولا تقدِّم إلينا القهوة من دون أن تفتح فمها، بل كان من الواضح أنَّها مستاءة من حضوري، وربَّما من حضور خطيبها أيضًا، بادرني قائلًا: «ها يا لينو، أطلعني جينو على مقالٍ يتحدّث عن أنّكِ ألَّفتِ كتابًا محظورًا على مَن هم دون الثامنة عشرة. يا إلٰهي، انظري، مَن كان يتوقَّع ذلك؟ هل هذا ما درستِه في بيزا؟ هل هذا ما تتعلَّمونه في الجامعة؟ لا أصدّق! أعتقد أنّكِ أبرمتِ اتِّفاقًا سرِّيًّا مع لينا هي ترتكب الآثام وأنتِ تكتبينها. أليس كذلك؟ قولي الحقيقة». احمرّ وجهي، ولم أنتظر القهوة، ودَّعتُ جيليولا وانصرفتُ. فصرخ بي من الخلف مبتهجًا: ما بكِ؟ هل شعرتِ بالإهانة؟ عودي إلى هنا، كنتُ أمزح.

التقيتُ كارمن بيلوزو، بعد مدَّة قصيرة. أجبرتني أمِّي على الذهاب إلى ملحمة كارّاتشي الجديدة لأنَّهم يبيعون الزيت هناك بسعر زهيد. كان الوقت بعد الظهيرة، وما من زبائن. غمرتني كارمن بالكثير من التهاني: «كم أنت جميلة»، غمغمتْ، «يشرِّفني أن أكون صديقتكِ، بل هذه علامة السعد الوحيدة في حياتي». ثم قالت لي إنَّها قرأت مقال سارَّاتوي، بالصُّدفة، بعد أن ترك أحد الموزِّعين جريدة «روما» في المحلّ. ووصفت المقال بالدنيء، وبدا لي استياؤها حقيقيًّا. أمّا

شقيقها، باسكوالي، فأطلعها على مقالة «الاتِّحاد»، فوجدتْها في منتهى الروعة، كما مدحت الصورة أيضًا: «كلّك جميلة يا لينو»، قالت، «كلّ ما تفعلينه جميل». كانت قد علمتْ من أمّي بأنّي سأتزوَّج قريبًا بأستاذ جامعيّ، وأنّي سأنتقل إلى العيش معه في فلورنسا في منزلٍ يليق بالسيِّدات النبيلات. ستتزوَّج هي أيضًا، ستتزوَّج العامل في محطَّة الوقود في الشارع العامّ، ولكن من يدري متى. كانا في حاجةٍ إلى المال. ثم راحت تشتكي من آدا، بلا مقدِّمات. منذ أن سيطرت آدا على مكان ليلا إلى جانب ستيفانو، تدهور كلّ شيء من سيّئ إلى أسوأ كانت تتصرَّف على أنها ربّة العمل في الملحمتين أيضًا، وتزعج كارمن كثيرًا: تتّهمها بالسرقة، وتحكمها بالعصا، وتراقبها ضاقت كارمن ذرعًا بكلِّ هذا، وكانت تفكّر في الاستقالة لتعمل في محطّة الوقود مع خطيبها.

أصغيتُ إليها باهتمام، وتذكَّرتُ حالي حين أردتُ الزواج بأنطونيو، وكيف كنّا نخطِّط للعمل في محطة لتزويد الوقود أيضًا فقصصتُ عليها ذلك كي أؤاسيها، لكنَّها غمغمتْ متجهِّمةً: «طبعًا، وكيف لا، تخيَّلي أن تعمل واحدة مثلك في محطَّة الوقود، هنيئًا لكِ لأنَّك استطعتِ الخروج من هذا الشقاء». ثم تمتمت بعبارات غامضة: «ثمَّة ظلم لا يُطاق يا لينو، ينبغي لهذه المأساة أن تنتهي، لم نعد نحتمل». وبينما كانت تتكلَّم، أخرجتْ كتابي من أحد الأدراج، وكان الغلاف مهترئًا ومتَّسخًا وهي النسخة الأولى التي رأيتُها في يد قارئٍ من سكَّان الحيّ، فذُهلتُ من الانتفاخ والاسوداد اللذين استفحلا بالصفحات الأولى، بينما بقيت الصفحات الأخرى مضغوطة وناصعة البياض. «أقرأ منه قليلًا في المساء»، قالت لي، «أو حين يخلو المحلّ من الزبائن، لكنّي لا أزال عند الصفحة ٣٢، ووقت فراغي محدود

جدًّا، عليَّ أن أقوم بكلّ شيء، فعائلة كارّاتشي تُبقي عليّ هنا من السادسة صباحًا حتى التاسعة مساءً». ثم سألتني فجأة، وبنبرةٍ ماكرة: **هل لا يزال أمامي الكثير كي أصل إلى الصفحات الجسورة؟ كم ينبغي لي أن أقرأ؟**

«الصفحات الجسورة»!

صادفتُ آدا، بعد مدّة تحمل ماريًّا بين ذراعيها، ابنتَها التي أنجبتها من ستيفانو. حاولتُ جاهدةً أن أبدو لَبِقةً، بعد كلّ ما أسرَّته إليَّ كارمن. امتدحتُ الطفلة، وقلت لها ما أجمل فستانها وما أبهى قيراطيها لكنَّ آدا كانت نافرةً. كلَّمتني على أنطونينو، قالت إنّهما يتراسلان. وكذّبتْ خبر زواجه وإنجابه، لأنَّه لم يعد قادرًا على المحبّة بعد أن أحرقتُ عقله وفؤاده. وسرعان ما هاجمت كتابي. أوضحت لي أنَّها لم تقرأه، لكنَّها سمعتْ بأنَّه يحوي من المحظورات ما لا يجعله مُرحَّبًا به في البيوت. ورفعتْ صوتها فجأة: «تخيَّلي أن تكبر الطفلة وتجده أمامها، فماذا أفعل؟ أنا آسفة، لن أشتريه». وأضافت: لكنِّي سعيدة لأنَّكِ تجنين الأموال، تهانينا.

١٢

ولَّدتْ لديَّ تلك الأحداثُ المتتالية شكوكًا في أنّ الكتاب كان يُباع تحديدًا بسبب إشارة الصحف ـ سواء أكانت تلك المؤيِّدة أم المناهضة ـ إلى وجود صفحاتٍ إباحيَّة. حتى إنّي فكَّرتُ في أنّ نينو تحدَّث عن ممارسة ليلا الجنسيَّة، لا لشيءٍ، سوى لاعتقاده بإمكانيَّة فتح هذه المواضيع بأريحيَّةٍ مع فتاةٍ تكتب ما كتبتُ. وهذا ما أشعل فيَّ الرغبة مجدَّدًا في ملاقاة صديقتي. من يدري، قلتُ لنفسي، لعلّ ليلا قد حصلت على الكتاب كما فعلت كارمن. تخيَّلتُ أنَّها في المساء، بعد العودة من المصنع ـ بينما ينطوي إنتسو على نفسه في غرفته، وابنها إلى جانبها في غرفتها ـ وهي عازمةٌ على قراءة روايتي، على الرَّغم من قواها الخائرة، تزمّ شفتيها، ويتجعّد جبينُها مثلما يحدث لها عادةً حين تركِّز في أمرٍ ما. تُرى، كيف ستقوِّم الكتاب؟ هل ستختزله في «*صفحات جسورة*» هي أيضًا؟ وربَّما لم تكن تقرأه البتّة، إذ كنت أشكّ في توافُر النقود لديها لتشتري نسخةً، بل يجدر بي أن أهديها الكتاب بنفسي. بدت لي فكرةً صائبة للوهلة الأولى، ثم سرعان ما عدلتُ عنها كنت ما أزال أعتبر نفسي متعلِّقة بليلا، أكثر من أيِّ شخصٍ آخر، لكنِّي لم أعتزم

مكتبة الرمحي أحمد
telegram @ktabpdf

البحث عنها لم يكن لديّ وقت، فثمة الكثير من الأشياء ينبغي لي أن أدرسها وأتعلَّمها بأسرع ما يمكن. ثم إنّ نهاية لقائنا الأخير ـ وليلا في ذلك المئزر القبيح فوق معطفها، في باحة المصنع، قرب النار الموقدة التي رمت في سعيرها صفحاتِ «الساحرة الزرقاء» ـ كانت وداعًا نهائيًّا لمخلّفات الطفولة، وبرهانًا ساطعًا على افتراق دربينا لعلّها كانت ستقول لي: ليس لديَّ وقت لقراءة ما تكتبين، ألا ترين أيَّ حياةٍ أعيش؟ وهكذا، قرّرتُ المضيَّ في دربي.

كان الكتاب، في أثناء ذلك، يحقّق نجاحًا حقيقيًّا، أيًّا يكن سبب هذا النجاح. اتَّصلت آديلي، ذات مرة وقالت لي، بمزجها المعهود بين الدعابة والحنان: إن استمرَّت الأمور هكذا، فستصبحين ثريَّة، وستضيقين ذرعًا ببييترو المسكين. ثم مرَّرت السمَّاعة إلى زوجها، دفعةً واحدة. قالت: غويد يودّ التكلُّم إليكِ. ارتبكتُ كثيرًا، إذ كنت دائمًا ما أشعر بالحياء في إثر محادثاتي ـ النادرة أساسًا ـ مع البروفسور آيروتا غير أنَّ والد بييترو كان ودودًا معي، وأثنى على نجاحي، واستهزأ بالمشهِّرين بي وبحشمتهم المفرطة، ثم تحدَّث عن العصور الوسطى الطويلة التي خضعتْ لها إيطاليا، وأشاد بمساهمتي في تحديث البلد، وهلمّ جرًّا بعباراتٍ من هذا القبيل. لم يقل شيئًا عما يخصّ الرواية. لم يقرأها بالتأكيد. كان رجلًا منشغلًا بأمور كثيرة. لكنَّه أسعدني بأنَّه شدّ من أزري في أيّ حال، مُظهِرًا تقديرَه وتحفيزه.

ماريّاروزا كانت مثله ودودةً للغاية، غمرتني بأسمى عبارات الثناء هي أيضًا في البدء، كانت على وشك أن تتحدَّث معي عن الكتاب بتفصيل، ثم غيَّرت الموضوع بطريقة مفاجئة، وقالت إنّها تودّ أن تدعوني إلى جامعة ستاتالي في ميلانو يبدو لها من الأهمِّيَّة أن أشارك فيما وصفته بـ «التدفُّق الجارف للأحداث». «تعالي غدًا»، شجّعتْني، «هل رأيتِ ما يحدث في فرنسا؟» كنتُ أعرف كلّ شيء، أُمضي الوقت

مجاورةً راديو صغيرًا وقديمًا، سماويَّ اللون، تعلوه الشحوم، وضعتْه والدتي في المطبخ؛ فأجبتُها بـ «نعم، مذهلٌ حقًّا، انتفاضة ضاحية نانتير، والحواجز التي نُصبت في الحيّ اللاتينيّ». لكنّها بدت أكثر إلمامًا واطّلاعًا منّي. كانت تخطّط للذهاب إلى باريس مع رفاقها الآخرين، فدعتني إلى الذهاب معها بالسيَّارة. أغوتني الفكرة. قلتُ: حسنًا سأفكّر في الأمر. الصعودُ إلى ميلانو؛ التوجُّهُ إلى فرنسا؛ بلوغُ باريس في أوج تمرُّدها؛ مواجهةُ رجال الشرطة وهمجيَّتِهم؛ الانصهارُ بكلٍّ ما حقَّقتُه على المستوى الشخصيّ في أكثر البواتق تأجُّجًا خلال تلك الفترة على مستوى العالم؛ رحلةٌ أخرى خارج إيطاليا كتلك التي خضتُها عدّة أعوام خلت مع فرانكو. كم سيكون رائعًا أن أسافر مع ماريَّاروزا؛ الفتاةِ الوحيدة التي أعرفها متحرِّرةً وحداثيَّةً إلى أبعد الحدود، ومنفتحةً على كلٍّ مجريات العالم، وصاحبةَ قاموسٍ غنيٍّ بالمصطلحات السياسيَّة، تُجيد استخدامه كالرجال تقريبًا كنت معجبةً بها لم يكن هنالك فتيات من اللواتي يذيع صيتُهنّ بالتخلّي عن كلّ شيء أدراج الرياح فالشبَّانُ الأبطال، الذين يجازفون في مواجهة الارتدادات العنيفة، بكلّ ما تحمله من مصاعب ومخاطر، كانوا رودي دوتشكه، دانيال كون بندي؛ ومثلما يقعِ في أفلام الحرب، حيث لا وجود لغير الرجال، من الصعب أن تتقمَّصي شخصيَّاتهم. في إمكانكِ أن تقعي في غرامهم فقط، وأن تعدِّلي أفكارهم في رأسكِ كيفما يناسبكِ، وأن تتألّمي لسوء مصائرهم. خطر في ذهني أنَّ نينو قد يكون من بين رفاق ماريَّاروزا هذا وارد، فكلاهما يعرف الآخر آهٍ، ما أحلى أن ألتقيه، وأن أندفع إلى تلك المغامرة، وأن أكون قربه في خضمّ تلك العواقب. انقضى النهار هكذا ساد الهدوء في المطبخ. والداي نائمان، وإخوتي ما زالوا يتسكّعون في الشوارع، وإيليزا تستحمّ في المرحاض. سأنطلق، صباح الغد.

١٣

انطلقتُ، لكن ليس إلى باريس. أرسلتني جينا للطواف تعريفًا بالكتاب، عقب الانتخابات السياسيَّة في ذلك العام المضطرب. بدأتُ من فلورنسا. كنت مدعوَّةً من قِبل إحدى البروفسورات في الدراسات العليا، من أصدقاء آل آيروتا، وانتهى بي المطاف إلى إحدى تلك الحلقات الطلّابيَّة، المنتشرة على نطاقٍ واسع في كلِّ جامعةٍ تشهد حراكًا طلّابيًّا، لأتحدَّث عن كتابي أمام نحو ثلاثين طالبًا وطالبة. وصُدمتُ في الحال بأنّ الكثير من الطالبات كُنّ أسوأ ممَّا وصفهنَّ والد خطيبي على صفحات «الجسر»: ملابسهنّ تخلو من الأناقة، وزينتهنّ تفتقر إلى الذوق؛ فوضويّاتٍ في استعراض آرائهنّ بانفعالٍ مفرط؛ غاضباتٍ من الامتحانات وناقماتٍ على الأساتذة. دفعتني البروفسورة إلى التطرُّق إلى الاحتجاجات الطلّابيَّة، فاندفعتُ، بحماسةٍ ظاهرةٍ، إلى الحديث عن الموضوع، وخصوصًا تلك التي كانت تشهدها فرنسا حينئذٍ. تدفَّق كلّ ما كنت أتعلَّمه، وكنت سعيدة بأدائي. شعرتُ بأنّي أعبِّر عن نفسي ببلاغةٍ وبيانٍ، وأنّ الفتيات، بصورة خاصة، معجباتٌ بطريقتي في الكلام، وبالأشياء التي أعرفها، وبأسلوبي السَّلِس في

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

التعاطي مع أزمات العالم المعقّدة، وترتيبِها في إطارٍ متناسق. لكنّي أدركتُ فورًا أنّي أميل إلى تجنُّب الإشارة إلى الكتاب، فالحديث عنه كان يُشعرني بالارتباك. كنت أخشى ردّةَ فعلٍ تشبه تلك التي عانيتُها في الحيّ، فآثرتُ التعبير بكلماتي عن أفكارٍ، كنت قد صادفتُها في مجلّات ثقافيّة، مثل فصليّة «كرّاسات بياتشينسا» أو شهريّة «مونثلي ريڤيو». من جهةٍ أخرى، كنتُ مدعوّة من أجل هذا السبب بالتحديد. طلب أحدهم الإذن بالمداخلة. كانت الأسئلة الأولى تركّز، جميعها، في معاناة الشخصيّة النسائيّة في الهروب من الوسط الذي وُلدتْ فيه. غير أنّ إحدى الفتيات، في نهاية الندوة تقريبًا، أذكر أنّها كانت طويلة القامة وهزيلة البنية، طلبتْ منّي، بسؤالٍ تخلّلته ضحكاتُها الانفعاليّة، أن أوضّح السبب الذي جعلني أرى ضرورةً كتابة «*مشهد إباحيّ*»، في قصّة مصقولة بعناية.

ارتبكتُ، وربّما احمرّ وجهي، وعزوتُ السبب إلى حيثيّاتٍ اجتماعيّة. وتكلّمتُ، في الختام فقط، على ضرورة التمتّع بأسلوبٍ جريء في سرد أيّ تجربةٍ إنسانيّة، بما فيها تلك التي نستصعب البوح بها ــ شدّدتُ على ذلك ــ، الأمر الذي يجعلنا عاجزاتٍ عن البوح بها لأنفسنا أيضًا. نالت تلك الكلمات الأخيرة التقدير، فصعدت أسهمي مجدّدًا. وأثنت عليها البروفسورة التي دعتني، قائلةً إنّها ستتمعّن فيها مليًّا، وستراسلني بعد ذلك.

وهكذا، رسخَتْ تلك المفاهيمُ القليلة في رأسي، بعد أن حظيتْ بإعجاب الأستاذة، وباتت لازمةً أختم بها كلامي. وغالبًا ما استخدمتُها على الملأ، بنبرةٍ ساخرةٍ تارةً، ونبرةٍ حزينة تارةً أخرى؛ وبإيجازٍ أحيانًا، وبتعمُّقٍ مطرّزٍ بأشدّ المصطلحات تعقيدًا أحيانًا أخرى. شعرتُ بالارتياح كثيرًا ذات مساء، في إحدى مكتبات تورينو، قبالة

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

جمهورٍ غفيرٍ نوعًا ما، أتوجَّه إليه بطلاقةٍ ملحوظة. صار يبدو لي من الطبيعيّ أن يستجوبني أحدهم ـ بلطفٍ أو استفزاز ـ بسبب مشهد الجنس على الشاطئ. حتى إنَّ إجابتي الجاهزة تلك، ذات الأسلوب الرفيع دومًا، كانت تحصد نجاحًا لافتًا

رافقني تارّاتانو، صديق آديلي العجوز، إلى تورينو، بإيفادٍ من دار النشر قال إنّه فخورٌ بنفسه، إذ كان من أوّل المتنبِّئين بمؤهِّلاتي الأدبيَّة، وقوّة روايتي. وقدَّمني إلى الجمهور بالعبارات الحماسيَّة نفسها التي استخدمها منذ وقتٍ مضى في ميلانو. وفي نهاية الأمسية، أثنى على الأشواط الكبيرة التي قطعتُها في زمنٍ قصير. ثم سألني بنبرته الطيِّبة المعهودة: لماذا تقبلين حضرتُكِ، بكلّ سرور، أن توصف صفحات الشبق في روايتك بأنَّها إباحيَّة؟ لماذا تعرِّفينها بنفسكِ هكذا أمام الجمهور؟ قال لي إنّه لا ينبغي لي القيام بذلك، مفسِّرًا: قبل كلّ شيء، روايتكِ لا تقتصر على مشهد الشاطئ، بل تحتوي على فقراتٍ أشدَّ أهمِّيَّة وجمالًا، ثم إذا كانت تبدو لبعضهم مشحونةً بالجرأة هنا وهناك، فمردّ ذلك إلى أنّ مَن ألَّفها فتاةٌ على وجه الخصوص. فالخلاعة ليست عنصرًا غريبًا عن الأدب الرفيع وفنّ السرد الحقيقيّ. ولئن تعدَّت حدود الحشمة في نصٍّ ما، فهذا لا يعني أنَّها إباحيَّة إطلاقًا

أثار كلامه اضطرابي. هذا الرجل، واسع الثقافة، كان يشرح لي، بحسٍّ مرهف، أنّ ذنوب روايتي كانت مغتفَرة، وأنّي أُخطئ حين أتكلَّم بشأنها كما لو كانت ذنوبًا مميتة. كنت أبالغ، إذن. كنت أرضخ لانسداد الأفق عند الجمهور، وأخضع لسطحيَّته. قلتُ لنفسي: كفى، عليّ ألّا أرتضي الهوان. عليَّ أن أتعلَّم كيف أرفض النزول عند أهواء قُرَّائي. لا يجدر بي الهبوط إلى مستواهم. وقرَّرتُ أن أكون أكثر حزمًا

telegram @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

في أوَّل مناسبة مع مَن ينتقد تلك الصفحات.

في العشاء، في مطعم الفندق الذي نزلنا فيه على نفقة الدار، كنت أتقلَّب بين الحياء والمتعة بإصغائي إلى تارّاتانو؛ الذي كان يذكر هنري ميلر، دليلًا على أنّي كاتبةٌ عفيفةٌ في العمق. وفصَّل لي، وهو يناديني بطفلتي العزيزة، أنّ عدد الأديبات الموهوبات، في عشرينيّات القرن العشرين وثلاثينياته، واللواتي يعرفن الجنس ويكتبن عنه، أكبر كثيرًا ممّا كنت أتخيَّل، حتى تلك اللحظة. رحتُ أدوِّن تلك الأسماء في دفتري الصغير، لكنِّي بتّ أفكِّر في أثناء ذلك: هذا الرجل، على الرَّغم من تهانيه، لا يعتبر موهبتي فذّة؛ بل أبدو في عينيه مجرَّد صبيَّة صغيرة حالفها الحظّ في نجاحٍ لا تستحقّه. حتى الصفحات التي جذبت القرّاء لا يعتبرها مهمَّة، فهي قد تُبهر مَن بالكاد يعلم شيئًا ما، لكنَّها لن تضيف شيئًا إلى رجلٍ مثله.

قلتُ إنّي متعبة، وساعدتُ جليسي في النهوض، بعد أن أسرف في الشرب. كان قصير القامة، لكنّ كرشَه المترهِّل يليق بذوّاقةٍ أكول، وخصلاتِ شعره الأشيبِ تتدلّى على أذنيه الكبيرتين، ووجهَه شديدَ الحمرة مهشَّمٌ بفمٍ صغير، وأنف كبير، وعينين برّاقتين، وأصابعَه مصفرّةٌ لشراهته في التدخين. حاول أن يعانقني ويقبِّلني في المصعد. وعلى الرَّغم من تملُّصي، فإنَّني كابدتُ في إبعاده عنّي. لم يكن يستسلم. وظلّت ملامسةُ بطنه، وزفيرُه المخمور، عالقين في ذاكرتي. لم أكن أتصوَّر، في تلك الفترة، أنَّ رجلًا عجوزًا، يمتاز برقيِّه واتِّساع ثقافته، وبكونه من أعزّ أصدقاء والدة خطيبي، قد يجنح إلى ذلك التصرُّف المنحطّ. ما إن دخلنا الممرّ، حتى سارع إلى طلب المعذرة، وعزا فقدان صوابه إلى الكحول، وتعجَّل في الانكفاء على نفسه في غرفته.

١٤

تكلَّم بشغفٍ، في اليوم التالي، خلال الفطور وطوال الرحلة التي أرجعتنا بالسيّارة إلى ميلانو، عمّا كان يعتبرها الفترة الأكثر عنفوانًا في حياته، ما بين العامين ١٩٤٥ و١٩٤٨. لمستُ في صوته كآبةً حقيقيَّة، لكنّها تبدَّدت عندما انتقل إلى وصف المناخ الثوريّ الجديدِ، بحماسةٍ حقيقيّةٍ أيضًا، والحيويَّةِ التي كانت تحفِّز الشبّانَ والشيوخ، على حدِّ قوله. وظَلْلتُ أهزّ رأسي قبولًا طوال الوقت، مصدومةً بسعيه إلى إقناعي بأنّ حاضري كان في الواقع ماضيه المتألِّق الذي عاد من جديد. شعرتُ بما يشبه الأسف. ودفعني أحد تنويهاته الذاتيَّة العامَّة، في لحظةٍ ما، إلى إجراء حسابات سريعة: الرجلُ الذي يرافقني يناهز عامه الثامن والخمسين.

طلبتُ منه، حين وصلنا إلى ميلانو، أن يُنزلني على مقربةٍ من دار النشر، وودّعته. كنت أشعر بالإنهاك، إذ لم أوفَّق بليلةٍ هانئة. وحاولتُ، في الطريق، أن أتخلَّص من اشمئزازي من ملامسة جسد تارّاتانو، التي تثقل ذاكرتي. وعلى الرَّغم من هذا، فإنني ما زلتُ أشعر بدَنَسِه، وبأنّ الفحش المتفشّي في الحيّ ينجرف نحوي.

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

استقبلوني، في دار النشر باحتفاء عارم. لم يكن يشبه الترحيب اللائق منذ أشهر خلت، بل كأنَّه مجاملةٌ معمَّمة تعني كم أحسنّا صنعًا حين فطنّا لمؤهّلاتك. حتى موظَّفةُ الاتِّصالات، الوحيدةُ التي كانت قد حافظت على الرسميّات بيننا، خرجت من مكتبها وعانقتني. والمدير الذي ألزمني بإجراء تحريرٍ دقيقٍ ومضنٍ في الماضي، دعاني إلى الغداء للمرَّة الأولى.

عاد يشدِّد على أنَّ كتابتي تحتوي على سرٍّ مدهش، بعد أن استرحنا في مطعم صغير شبه مقفر، في الجوار. وراح، بين طبق وآخر يقترح عليّ أن أباشر التجهيز لروايةٍ جديدة، ولكن بلا عجالة، شرط ألَّا أتكاسل مكتفيةً بأكاليل الغار. ذكَّرني، بعد ذلك، بأنَّ لديَّ موعدًا في ستاتالي، عند الثالثة ظهرًا لم يكن له شأن بدعوة ماريَّاروزا كانت دار النشر نفسها هي التي نظَّمت لي، عبْر قنواتها الخاصَّة، اجتماعًا مع عددٍ من الطلبة. فسألتُه: إلى من أتَّجه حين أصل إلى هناك؟ فقال جليسي المحترم بفخر سيكون ابني في انتظارِكِ عند المدخل.

استعدتُ الحقيبة من دار النشر، وذهبتُ إلى الفندق. بقيتُ فيه دقائقَ قليلة لأخرج ثانيةً نحو الجامعة. كان الحَرّ حينها لا يُطاق، ووجدتُ نفسي أمام جدرانٍ معبّأةٍ بالبيانات المكتوبة بكثافة، والرايات الحمراء وصور للشعوب المناضلة؛ ثمّة لافتاتٌ تعلن بعض المبادرات، وهمهماتٌ صاخبة وضحكاتٌ واستنفارٌ واسع على وجه الخصوص. تجوَّلتُ قليلًا بحثًا عن إشاراتٍ تدلُّ عليَّ. أذكر أنّ شابًّا أسمر البشرة اصطدم بي بقوَّة وهو يركض، فَقَدَ توازنه ثم استعاده وهرب بعيدًا في الطريق كما لو أنَّه ملاحَق، مع أنْ لا أحد خلفه. أذكر طنينًا رتيبًا لبوق ما، نقيًّا جدًّا، يثقب الجوّ الخانق. أذكر شابّة شقراء، صغيرة البنية،

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

تُحدِث ضوضاءً وهي تجرّ سلسلةً، في آخرها متراسٌ ضخمٌ، وتصرخ مناديةِ أحدًا ما وهي منتشية: ها أنذا سأصل. أذكر هذه التفاصيل لأنّي أخرجتُ دفتري الصغير، كي أتكيَّفَ معَ المكان ريثما يتعرَّف إليَّ أحدُهم ويقترب منّي، ودوَّنتُ فيه هذه الرؤى. لكنَّ ساعةً مرَّت ولمّا يأتِ أحد. رحتُ أتفحَّص الأوراق واللافتاتِ بعناية أكثر، آملة أن أجد اسميَ فيها، أو عنوانَ روايتي، بلا جدوى. غضبتُ بعض الشيء، ولم أسأل أحدًا من الطلّاب، إذ كنت أخجل من التنويه إلى ندوةٍ تناقش كتابي، في مكانٍ يناقشون فيه مواضيعَ أكثرَ أهمِّيَّة، كما تُشير الأوراق الملصقة على الجدران. وانتابني استياءٌ حين اكتشفتُ أنّي أسيرةُ مشاعرْ متناقضة: استلطفتُ هؤلاء الشبَّانَ والشابَّات الذين يملأون ذلك الوسط حراكًا وصخبًا، بما لا ينمّ عن انضباطهم بأيٍّ شيء. وذُعرتُ من جهةٍ أخرى من أنّ الفوضى ـ التي كنت أهرب منها منذ الصغر ـ كانت حينذاك تأخذ بناصيتي مجدّدًا، هناك تحديدًا، لتودي بي في خضمّ ذلك السعار المحموم، إذ سيظهر أحد المخوَّلين ـ آذنٌ أو بروفسورٌ أو عميدُ الجامعة أو أحد رجال الشرطة ـ ليقبض عليّ متلبّسةً بجرم ما ـ أنا، أنا التي لطالما كنت مسالمة ـ ويعاقبني.

فكَّرتُ في التملُّص من ذاك الموعد. ما همّني إن التقيتُ ثلّةٍ من الفتية، ممّن هم أصغرُ منّي سنًّا، لأُلقي على مسامعهم الهراءَ المعتاد؟ كنت أودّ العودة إلى الفندق، لأستمتع بظروفي الجديدة ككاتبةٍ دائمة التنقُّل، تحقّق نجاحًا ما، وتأكل في المطاعم، وتنام في الفنادق. فإذا بخمس شابّات أو ستّ يمررن إلى جانبي، كأنَّهنّ منشغلاتٌ بأمر معيّن، يجررن الحقائب. فتبعتهنّ لاإراديًّا إلى مصدر الجلبة والصياح وطنين البوق. وهكذا سرتُ خلفهنّ حتى وصلتُ إلى قاعة مكتظّة، انبثقت عنها صيحةٌ غاضبة في تلك اللحظة تمامًا دخلت الشابّاتُ اللواتي

تبعتُهنّ، فدخلتُ خلفهنّ، بحذرٍ شديد.

ثمّة نزاعٌ حامي الوطيس بين فِرَقٍ متعددة، سواءً في القاعة المزدحمة أو عند تلك الجوقة الصغيرة الرابضة على المنصّة. بقيتُ واقفةً قرب الباب، مستعدَّةً للفرار بعيدًا، وكنتُ مشمئزَّةً من ذلك الضباب المستعر بالدخان والأنفاس، ومن الرائحة الكثيفة، ومن الاهتياج.

حاولتُ أن أفهم ما الذي يحدث. كانوا يتناقشون في مسائل تنظيميَّة، على ما أعتقد، لكنّ المناخ العام لا يُشير إلى وثوق أحدٍ بالتوصُّل إلى اتِّفاقٍ ما ثمّة من يصرخ، ومن يلتزم الصمت، ومن يسخر، ومن يضحك، ومن يتحرَّك بسرعة، كما لو أنَّه يحمل الأوامر إلى ميدان المعركة، ومن لا يُبالي، ومن يتابع دراسته. أملتُ أن أعثر على ماريّاروزا في زاويةٍ ما. وكنت، في هذه الأثناء، أحاول التأقلم مع الضجَّة والروائح. يا لهذا الكمّ من الناس: كان الذكور أكثرَ عددًا من الإناث، يتفاوتون بين وسامةٍ وقبحٍ وأناقةٍ وإهمالٍ وانفعالٍ وبهجةٍ وارتعاد. رحت أراقب الإناث بفضول، تولَّد لديَّ انطباع بأنِّي الوحيدة التي جاءت بمفردها بعضهنّ - كاللواتي تبعتهنّ إلى هناك مثلًا - كنّ متراصّاتٍ حتى الساعة، يوزِّعن المناشير في القاعة المكتظَّة: كنّ يصرخن معًا ويضحكن معًا، وإن تباعدن بأمتارٍ قليلة يبقين على تواصلٍ بنظرات العيون، كي لا تغفلَ إحداهنّ عن الأخرى. ربَّما كنّ صديقاتٍ منذ زمن، وربَّما تعارفن منذ قليل. كان يبدو أنَّهنّ تعاهدن على البقاء في ذلك المكان الفوضويّ، لأنَّهن يَهوين غوغائيَّة ذلك المناخ، لكنّهنّ ماضياتٌ في خوض تلك التجربة شرط ألّا يفترقن؛ كأنَّهنّ قرَّرن مسبقًا، في ميادينَ أكثر أمنًا، أن يدخلن معًا ويخرجن معًا. وهنالك فئةٌ أخرى من الإناث، بمفردهنَّ أو برفقة أحدٍ ما كحدٍّ أقصى، كنّ قد ولجن في

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

الفِرَق الذكوريَّة، ويُبدين حميميَّةً مستفزّة، مبتهجاتٍ بانحلال مسافة الأمان بينهنّ وبين الذكور، على نحو أشعرني بأنَّهنَّ أكثرُ البنات سعادةً وعدائيَّةً وكبرياءً.

شعرتُ بأنّي مختلفة، وأنَّ وجودي هناك حالةٌ شاذّة، وليس لديّ المقوِّماتُ لأصرخ بشيءٍ ما مثلهم، فأبقى تحت رحمة تلك الأبخرة والروائح التي ذكَّرتني حينها بروائح جسد أنطونيو وزفيره حين كنّا نتعانق قرب المستنقعات. كم كنتُ مثقلة بالهموم، وكم عذَّبتني ضرورة التفوُّق في الدراسة. فنادرًا ما ذهبتُ إلى السينما ولم أشترِ أيّ قرصٍ موسيقيٍّ أبدًا، كما كنت أتمنّى. لم أولَعْ بأيٍّ من المطربين، ولم أهرع إلى الحفلات، ولم أجمع التواقيع، ولم أجرِّب نشوة السُّكْر. وكانت تجاربي الجنسيَّة محدودةً، وخضتُ أكثرَها باستياءٍ ورعدةٍ وألفِ ذريعة للتملُّص. أمّا هؤلاء الفتيات، فلا بدَّ من أنَّهنَّ نشأن برهافة، على الرَّغم من التفاوت الجليّ بينهنّ، فبتنَ أكثر مرونةً منّي في تغيير جلدهنَّ كما كان يحدث حينذاك. ولعلَّهنّ يشعرن فعليًّا بوجودهنَّ في ذلك المكان، وفي ذلك الوسط، ليس كانحرافٍ عن السكَّة، بل كخيار صائب وضروريّ. الآن، وفي حوزتي ما يكفي من المال، ومن يدري كم سأجني فيما بعد، فكَّرتُ: سيكون في مقدوري تعويض ما فاتني من تلك الأمور. وقد لا أتمكَّن من ذلك، فكنتُ حينها مثقَّفة جدًّا، وجاهلةً للغاية، تحت وصايةٍ ومراقبة، وقد تعوَّدتُ على تجميد الحياة بتكديس الأفكار والتواريخ. كنت مقبلةً على الزواج والاستقرار النهائيّ. باختصار، كنت، بكلِّ بلاهةٍ، أشكِّل جزءًا من نظام ولّى زمانه، كما بدا لي هناك. أرعبتني تلك الفكرة الأخيرة. فلأخرجْ من هذا المكان حالًا، قلت لنفسي، فأيُّ خطوةٍ أو كلمةٍ ستكون بمثابة إهدارٍ للجهود التي بذلتها فإذا بي أدخل القاعة المزدحمة.

مكتبة الرمحي أحمد telegram @ktabpdf

سرعان ما صُدمتُ بفتاةٍ في منتهى الحسن، ناعمةِ الملامح، شعرُها شديد السواد، طويلٌ ومنثورٌ على كتفيها، وأصغرَ منّي سنًّا بالتأكيد. وقعتْ عيناي عليها، وما عدتُ أحيد نظري عنها أبدًا كانت واقفةً وسط شبّانٍ منفعلين للغاية، وثمّة رجلٌ أسمر البشرة، يقف خلف ظهرها مثل حارس شخصيٍّ، يشارف على الثلاثينيّات ويدخّن سيجارًا إلّا أنّ ما يميّزها في ذلك الجوّ، إضافةً إلى جمالها، أنّها كانت تحمل طفلًا حديثَ الولادة بين ذراعيها وكانت تُرضعه، وهي تتابع الصراع الحاصل بانتباهٍ شديد، وأحيانًا تبادر أيضًا إلى الصياح بشيءٍ ما وكان الطفل يبدو بقعةً زرقاء، مكشوفَ الأطراف، محمرَّ الساقين والقدمين. وإذا نزع فمه عن الحلمة، لم تكن أمّه تُرجِع ثديها إلى حمّالة صدرها المنتفخ، بل تُبقيه مكشوفًا، من خلال قميصها الأبيض مفكوك الأزرار، وتظلّ متجهّمةً، بفم مفتوح، حتى تُدرك أنَّ الطفل كفَّ عن الرضاعة، فتُعيد إليه الحلمةَ تلقائيًّا

أربكتني تلك الفتاة. كانت تبدو، داخل القاعة الصاخبة والمليئة بدخان السجائر، كأنَّها أيقونةٌ عن الأمومة، خارج السياق. كانت أصغر منّي سنًّا، ناعمة المظهر، تحمل مسؤوليَّة طفلٍ على عاتقها وفي المقابل، تعمد إلى عدم الرضوخ لمظهر المرأة الشابَّة المكبَّلة برعاية طفلها فكانت تزعق، وتحرِّك يديها، وتطالب بالمداخلة، وتضحك بانفعال، وتشير إلى أحدٍ باحتقار. ومع ذلك، ظلَّ الطفل جزءًا منها، يبحث عن صدرها ثم يتركه. كانا يشكِّلان صورةً مرتجفة، في موقفٍ حرجٍ، توشك على التهشُّم، كأنَّها مرسومةٌ على البلَّور قد يسقط الطفل من بين ذراعيها، أو قد ينكزه أحدهم بمرفقه عن غير قصد. باغتتني السعادة حين ظهرت ماريّاروزا قربها فجأة. وأخيرًا، ها هي هناك. كم كانت متّقدة بالحيويّة. كم كانت متّقدة الألوان. كم كانت

telegram @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

ودودة. بدت لي أنَّها صديقةٌ قريبةٌ إلى الأم الشابَّة. لوَّحتُ بيدي لكنَّها لم تنتبه إليّ. همستْ بشيءٍ ما في أذن الشابَّة، ثم اختفت، فظهرت ثانيةً بين أولئك المتسمِّرين حول المنصَّة. دخلتْ، في هذه الأثناء، مجموعةٌ صغيرةٌ من أحد الأبواب الجانبيَّة، فهدأت النفوس قليلًا بمجرَّد ظهورهم. أدلت مارياَّروزا بإشارةٍ، وانتظرت ردًّا من أحدهم، ثم أمسكت مضخِّم الصوت ولفظتْ بضع كلماتٍ كانت كافيةً لإخماد التوتُّر كلِّيًّا في القاعة الممتلئة. انتابني، حينذاك، شعورٌ خاطفٌ بأنّ ميلانو، إضافةً إلى فوران تلك الحقبة، واهتياجي شخصيًّا، قادرةٌ على إخراج كلّ الظلال المكدَّسة في رأسي. فكم تذكَّرتُ تربيتي السياسيَّة الأولى طوال تلك الأيّام؟ أعطت مارياَّروزا شابًّا كان في جوارها، مضخِّم الصوت، فعرفتُه فورًا فرانكو ماري، صاحبي خلال السنوات الأولى في بيزا

١٥

ظلّ على حاله تمامًا حافظ على النبرة الدافئة والمغوية في صوته، وما زال قادرًا على ترتيب كلامه وتسلسل أفكاره بسلاسة، منطلقًا من فرضيَّاتٍ عامَّة بهدف الوصول إلى تطبيقاتٍ يوميَّة، فيكشف معناها على مرأى الجميع. وأنا أكتب، أُدرك أنّي أذكر القليل من شكله وملامحه، لا شيء سوى وجهِه الشاحب والأملس، وشعرِه القصير؛ على الرَّغم من أنّي لم أهب نفسي بالمطلق، حتى تلك اللحظة، إلَّا بجسده، كما لو كنّا متزوِّجَين.

اتَّجهتُ إليه بعد أن أنهى مداخلته، فلمعت عيناه من هول المفاجأة، وعانقني. لكنَّنا لم ننعم بمحادثة صافية، فقد شدّ أحدهم ذراعَه، وهاجمه آخرُ بنبرة غاضبة، ملوِّحًا يده بعصبيَّة وإلحاح، كما لو كان يحثّه على الاعتراف بآثام رهيبة. بقيتُ بين هؤلاء الشبَّان إلى جانب المنصَّة مستاءةً، وفقدتُ أثر ماريَّاروزا في غمرة الشجار. ثم انتبهتْ إليّ بنفسها، وشدَّت ذراعي.

«ما الذي تفعلينه هنا؟» سألتني مبتهجةً.

مكتبة الرمحي أحمد
telegram @ktabpdf

تجنَّبتُ أن أوضِّح لها أنِّي تغيَّبتُ عن موعد ما، وأنّي وصلتُ إلى هنا عن طريق الصدفة، فقلت مشيرةً إلى فرانكو

«أعرف هذا الشابّ».

«ماري؟»

«أجل».

حدّثتني عنه بكلماتٍ متحمِّسة، ثم همست في أذني: «سيجعلونني أدفع الثمن، فأنا التي دعوته، انظري إلى اهتياج هؤلاء الدبابير». وبما أنَّه سينام في بيتها، وينطلق في اليوم اللاحق إلى تورينو، دعتني إلى المبيت عندها أيضًا، فوافقتُ، وتحسّرتُ على الفندق.

استمرّ الاجتماع ساعاتٍ طويلةً، تخلّلته لحظاتُ توتُّر شديدٍ، فبدت حالة استنفار طويل الأمد. وغادرنا الجامعة عند الغروب. وانضمَّت إلينا، بدعوةٍ من ماريّاروزا، إضافةً إلى فرانكو، الأمُّ الشابَّة التي تُدعى سيلڤيا، ومعها الرجلُ الثلاثينيُّ الذي كان خلفها في القاعة؛ ذاك الذي يدخِّن السيجار. وهو رسّام فنزويليّ، يُدعى خوان. ذهبنا جميعًا إلى مطعم متواضعٍ كانت تعرفه أخت خطيبي. دردشتُ مع فرانكو بما فيه الكفاية لأُدرِك أنّي كنت مخطئة. لم يكن قد ظلّ على حاله. توارى وجهه خلف قناعٍ يتناسب مع ملامحه السابقة، أو لعلَّه ارتدى ذلك القناع بملء إرادته؛ يمحو خصلة الكرم التي كان يتميَّز بها. وأمسى حينذاك متشنِّجًا، متحفِّظًا، ويحسب حسابًا لأيّ كلمةٍ يلفظها. لم ينوِّه البتَّة إلى علاقتنا القديمة، في أثناء محادثتنا الوجيزة، التي تصنَّعنا الحميميَّة خلالها، وحين بادرتُ إلى التطرق إلى الحديث عنها، معاتبةً إيّاه على انقطاعه عن مراسلتي، غمغم باقتضاب: «كان ينبغي للأمور أن تسير على هذا النحو». وكان غامضًا في إجابته عن وضعه الجامعيّ أيضًا. فهمتُ أنَّه لم يتخرّج بعد.

مكتبة الرمحي أحمد telegram @ktabpdf

«هناك أشياء أخرى علينا أن نقوم بها»

«مثل ماذا؟»

توجَّه إلى ماريَّاروزا، شبهَ مستاءٍ من محادثتنا التي أفرطنا في انفرادنا بها:

«إيلينا تسأل ما الذي علينا القيام به».

فأجابت ماريَّاروزا بمرح:

«الثورة».

فارتجلتُ بنبرة ساخرة:

«وفي وقت الفراغ؟»

تدخَّل خوان بجدِّيَّة، مداعبًا قبضة صغير سيلڤيا التي كانت تجلس إلى جانبه:

«في وقت الفراغ، نعدّ العدّة للثورة»

استقلَلْنا بعد العشاء جميعًا سيّارة ماريّاروزا، التي كانت تقطن في سان أمبروجو، في شقَّة قديمة وواسعة جدًّا اكتشفتُ أنّ لدى الفنزويليّ ما يشبه المكتب هناك: غرفةً غارقة في الفوضى، حيث دعاني أنا وفرانكو ليُرينا أعماله: لوحاتٍ ضخمةً تظهر فيها مشاهِدُ من أماكن مُدنيَّة مكتظَّة بالناس، وقد رسمها بمهارةٍ لتبدو كأنَّها مصوَّرة بعدسة الكاميرا، لكنَّه علَّق عليها أوعية الألوان وريشات الرسم ومفارش الألوان وأواني الزيوت العطريَّة والأقمشة البالية، فتكدَّر صفاؤها أثنت ماريَّاروزا على عمله كثيرًا، متوجِّهةً بكلامها إلى فرانكو، إذ كانت تعوِّل على رأيه بشكل خاصّ.

كنت أراقبهم، ولا أفهم. يعيش خوان هناك بلا شكّ، وتعيش سيلڤيا أيضًا هناك، فكانت تتحرَّك في البيت بخفّة مع صغيرها ميركو

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

وكنتُ قد ظننتُ للوهلة الأولى أنّ الرسَّام والأمّ الشابَّة مرتبطان، ويسكنان بإيجار إضافيّ في إحدى الغرف في تلك الشقَّة، ثم بدا لي عكس ذلك. في الواقع، أظهر الفنزويليّ طوال الأمسية احترامًا مجرّدًا لسيلڤيا، بينما كان غالبًا ما يُرخي ذراعه فوق كتف ماريّاروزا، بل قبّل عنقَها مرّة أيضًا.

تحدَّثوا في البدء عن أعمال خوان كثيرًا كان لفرانكو إلمامٌ بالفنون المرئيَّة يُحسد عليه، وحساسيَّةٌ نقديَّة بارزة للغاية. بقينا جميعًا نصغي إليه بكلِّ سرور، ما عدا سيلڤيا التي انفجر ابنها في البكاء فجأةً، وفَقَدَ سكينته بعد أن ظلَّ محافظًا عليها حتى اللحظة. تمنَّيتُ أن يتطرَّق فرانكو قليلًا إلى كتابي أيضًا كنت واثقة بأنَّه سيقول فيه أفكارًا ذكيَّة كتلك التي كان يقولها عن لوحات خوان، على الرَّغم من أنَّها لا تخلو من النقد. لكنَّه لم يُدلِ بأيّ شيءٍ عن روايتي. وبعد نفاد صبر الفنزويليّ الذي لم يوافق فرانكو في حديثه عن الفنّ والمجتمع، راح الأخير يتحدَّث عن التخلُّف الثقافيّ الإيطاليّ، والكادرِ السياسيّ الذي جاءت به الانتخابات، وتدهورِ الديموقراطيَّة الاشتراكيَّة، واحتجاجاتِ الطلبة وقمعِ الشرطة، وما بات يُعرف بـ «*الدرس الفرنسيّ*». وسرعان ما أصبح النقاش بين الرجلين جدليًّا استغربت سيلڤيا ما حلّ بابنها، ووبّخته بقسوةٍ كما لو كان يافعًا؛ وكانت ترمي بعباراتٍ مختصَرة تنمّ عن رأيٍ مخالِف، وهي تَقْصو وتدنو بميركو على طول الممرّ، أو من داخل الغرفة التي ذهبتْ إليها لتغيِّر ثياب الطفل. أما ماريّاروزا، فبعد أن روت لنا عن رياض الأطفال التي نظَّمها المحتجُّون في جامعة السوربون، لرعاية أطفال الطالبات المشاركات في الإضراب، استحضرت أحوال باريس في أوائل يونيو، وسط برودة الطقس وغزارة الأمطار، وكانت مقطَّعةً أوصالُها بسبب الإضراب العامّ، لكنَّها لم

تشهد على ذلك بعينيها (وتحسَّرتْ لأنَّها لم تتمكَّن من الذهاب)، بل كما وصفتها لها إحدى صديقاتها في رسالة. أصغى فرانكو وخوان بشرود، ولم يفقدا خيط النقاش بينهما، بل تواجها بانفعالٍ متأجِّج.

وجدنا أنفسنا، في النتيجة، نحن النساءَ الثلاثَ، في حالةٍ تشبه انتظار البقرات الناعسة أن يَفرَغَ الثوران من تفحُّص فحولتيهما حتى العمق. أزعجتني هذه الحالةُ. انتظرتُ أن تعود ماريّاروزا إلى المشاركة في النقاش، وكنت أفكِّر في مداخلة لي أيضًا لكنّ فرانكو وخوان لم يفسحا لنا المجال، ناهيك بالطفل الذي كان يصرخ، وأمّه التي تعامله بعصبيَّة متصاعدة. ليلا ـ فكّرتُ ـ كانت أصغر سنًّا منها حين ولدت جينّارو. فانتبهتُ إلى أنَّ شيئًا مجهولًا يدفعني إلى تكوين رابطٍ بينهما، منذ أن كنّا في الاجتماع. لعلَّ ليلا كابَدَتِ الوحدةَ التي تعانيها الأمّ، بعد اختفاء نينو وقطيعتها مع ستيفانو، أو بعد أن بهتَ جمالها: لو كانت في ذلك الاجتماع مع جينّارو لبدت أمًّا أكثر جاذبيَّةً وإغواءً من سيلڤيا، بل أكثر حزمًا وثباتًا. لكنّ ليلا قد اعتزلت. ربَّما كانت الموجة العاتية، التي شهدتُ عليها في القاعة، ستجد طريقها إلى سان جوفاني آتيدوتشو، غير أنّ ليلا كانت تتهاوى في ذلك المكان، ولم تكن لتنتبه لوصول تلك الموجة. للأسف. شعرتُ بأنّي مذنبة. كان عليّ أن أحملها بعيدًا؛ أن أخطفها؛ أن أجعلها تجرِّب السفر معي؛ أو أن أرسِّخ وجودها في كينونتي على الأقلّ؛ أن أمزج صوتها في صوتي، كما في تلك اللحظة. سمعتُها تقول: إن بقيتِ صامتة، وتركتِ هذين الرجلين يتكلّمان، فستبدين جامدةً كنبتةٍ منزليَّة؛ اذهبي وساعدي تلك الفتاة على الأقلّ، جرِّبي ماذا يعني أن يكون لديكِ طفلٌ صغير. تلاطمت الأزمنة والأماكن في ذهني، وتقاذفتني الأهواء المتباعدة. انتفضتُ واقفةً، أخذتُ الطفل من سيلڤيا، في رقّة وحذر، فتركته لي بسرور.

١٦

كم كان الصغير رقيقًا. كانت لحظة خالدة. جذبني ميركو إليه على الفور. كانت ثنايا لحمه زهريَّة اللون، عند معصميه، وحول ساقيه. كم كان وسيمًا، وما أجمل شكلَ عينيه، وشعرَه الغزير، وقدميه الطويلتين والناعمتين. ما ألذ رائحتَه. همستُ ذلك المديحَ كلَّه في أذنه، بصوتٍ عذب، بينما كنت أحمله وأجوب المنزل. ابتعدتُ عن صوتَي الرجلين، والأفكارِ التي يعرضانها، وشجارهما وحدث لي أمرٌ جديد كلِّيًّا انتابتني البهجة، ولم أتمالك نفسي إزاء الشعور بدفء الطفل. كان جسمه يختلج بين يديّ، وبدا لي أنّ حواسِّي تتأهَّب أكثر فأكثر كأنّ تلك الحياة الصغيرة، والتي بين ذراعيّ، تشحذ إدراكي حتى الألم، فتذوَّقتُ حلاوة هذا الشعور، وتحمَّلتُ مسؤوليَّة الذود عن الطفل في وجه كلّ الظلال المفترسة والمتربِّصة في أركان البيت المظلمة. لا بدّ من أنَّه شعر بذلك فاستعاد سكينته، فاستمتعتُ بهذا أيضًا، وافتخرتُ بأنّي وهبتُه الطمأنينة.

حين عدت إلى الغرفة، التفتت إليّ سيلڤيا، وكانت مضطجعة، تسند رأسها إلى حضن ماريَّاروزا، وتصغي إلى نقاش الرجلين،

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

وتشارك بعباراتٍ تعجُّبيَّة وانفعاليَّة. لا بدّ من أنَّها رأت البهجة التي غمرتُ فيها الطفل. فوثبتْ وانتشلته من بين يديّ، بكلمة شكر حادّة، وذهبت لتضعه على السرير. انتابني انطباعٌ سيِّئ من فقدان ميركو، وما زال دفئه يراودني، فعدتُ لأجلس على مضض تراودني أفكارٌ متضاربة. كنت أريد الطفل مجدّدًا تمنّيتُ أن يعاود البكاء وأن تطلب منِّي سيلفيا المساعدة. ما الذي دهاني؟ هل كنت أرغب في الإنجاب؟ هل كنت أودّ أن أصبح أمًّا كي أُرضِع وأهدهد؟ الزواج والحمل؟ وماذا لو انبثقت والدتي من بطني في حين ظننتُ أنّي في مأمنٍ منها؟

١٧

تأخَّرتُ في التركيز في الدرس الآتي من فرنسا، وفي المواجهة المحتدمة بين الرجلين. لكنّي لم أشأ البقاء ساكتة. كنت أودّ المشاركة في شيءٍ ممّا قرأتُه واستنتجتُه عن أحداث پاريس، وكان النقاش يتراكم بعباراتٍ تُثقل ذهني. وتعجّبتُ من أنّ ماريّاروزا، الفتاة البارعة والمتحرِّرة، تستمرّ في سكوتها وتكتفي بإيماءاتٍ تستحسن كلام فرانكو فقط، وتزيدها بابتساماتٍ جميلة، على نحو أثار نقمة خوان وحيرته بين الفينة والأخرى. قلتُ لنفسي: إن لم تتكلَّم هي، فسأُبادر أنا بالكلام، وإلّا فلماذا قبلتُ المجيء إلى هنا، لماذا لم أعد إلى الفندق؟ ثمّة إجابات عن هذه التساؤلات. كنت أريد أن أستعرض نجاحي على من كان يعرفني في السابق. أردتُ أن ألفت انتباه فرانكو إلى أنّي لم أعد صغيرةً كما كنت في الماضي، بل بتُّ شخصًا مختلفًا كلّيًا؛ ولا بدّ من أن يعي ضرورة تغيير سلوكه معي. أردتُ أن يقول، بحضور ماريّاروزا، إنّ هذه الفتاة المختلفة لها ما يميِّزها وهكذا، وبعد أن هدأ الطفل، واختفت سيلڤيا معه، ما يعني عدم حاجتهما إليّ، انتظرتُ قليلًا حتى وجدتُ فرصةً سانحةً لإبداء اختلافي في الرؤى مع عشيقي السابق. لم

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

أنطلق من قناعات راسخة. كانت غايتي الوحيدة أن أعبِّر ضدّ *فرانكو*. وفعلتها. راودتْ ذهنيَ اصطلاحاتٌ مختلفة، فمزجتُها بثقةٍ مصطنعة. قلت إنّي لستُ مطمئنَّةً إلى مستوى النضج الذي بلغه النضال الطبقيّ في فرنسا، وإنّ اتّحاد الطلبة والعمَّال لا يبدو لي ملموسًا بما فيه الكفاية حتى تلك اللحظة. تكلَّمتُ بدقَّة، وكنتُ أخشى أن يقاطعني أحد الرجلين، فيُعيد النقاش إلى ملعبهما حصرًا إلّا أنّهما أصغيا إليّ باهتمام، وسيلفيا أيضًا، التي عادت تمشي على رؤوس أصابعها من دون الطِّفل. لم يعبر فرانكو أو خوان عن نفاد الصبر وأنا أتحدَّث؛ بل إنّ الفنزويليّ أومأ موافقًا حين لفظتُ كلمة «*الشعب*» مرّتين أو ثلاثًا وهذا ما أغاظ ماري. «مغزى كلامكِ أنّ الحالة ليست ثوريَّة من الجانب الموضوعيّ»، أشار ساخرًا بنبرةٍ أعرفها عنه جيّدًا، يلجأ إليها ليدافع عن نفسه بهجومٍ هازئ. فاستدرجني إلى نزالٍ فكريّ، تتباطح فيه أقوالنا: «لا أفهم قصدك بـ «الجانب الموضوعيّ»»؛ «أقصد أنّه لا مفرّ من الحراك»؛ «وإن كان ثمَّة ما يعوِّق الحراك تقف مكتوف اليدين»؛ «كلّا، وظيفة الثوريّ أن يفعل الممكن دومًا»؛ «في فرنسا، فعل الطلّاب المستحيل، تعطّلت عجلة التدريس، ومن الصعب إصلاحها ثانيةً»؛ «عليكِ أن تعترفي بأنّ الأمور تغيَّرت وستتغيَّر»؛ «أجل، لكنّ أحدًا لم يطلب شهادةً مصدَّقة منك أو من أيّ أحدٍ آخر، تؤكِّد ثوريَّة الحالة «من *الجانب الموضوعيّ*»، فالطلّاب قاموا بالحراك وكفى»؛ «ليس صحيحًا»؛ «بل صحيح». وهكذا دواليك. إلى أن سكتنا في اللحظة نفسها

كانت المحادثة جامحةً، لا من جهة المضامين، بل في النبرات المشتعلة، ولم نكترث للذوق السليم. لاحظتُ حماسة وبهجة تلوحان في نظرات ماريّاروزا لعلّ طريقتنا في النقاش بيّنت لها أنَّ ما كان

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

يربطني بفرانكو يتعدّى حدود العلاقة العاديَّة بين الزملاء الجامعيِّين.

«تعالا ساعداني»، قالت لسيلفيا وخوان. عليها أن تركِّب السلّم لتبحث عن أغطيةٍ لي ولفرانكو. تبعها الاثنان، وهمس خوان شيئًا في أذنها

حدَّق فرانكو في الأرض برهةً. زمّ شفتيه ليكبت ابتسامته، وقال بلهجةٍ وديَّة:

«ما زلتِ بورجوازيَّةً صغيرةً، كما كنت دومًا».

كان يستخدم هذا الوصف مرارًا ليسخر منِّي، حين كنت أخشى أن يراني أحدٌ ما في غرفته. اغتنمتُ فرصة أنّنا على انفراد، وجازفتُ في القول:

«بل أنت البورجوازيّ الصغير. أصلُكَ يثبت هذا، وثقافتك، وتصرُّفاتك».

«لم أقصد إهانتك».

«لم أشعر بالإهانة».

«لقد تغيَّرتِ. صرتِ انفعاليَّة».

«ما زلتُ كما كنتُ دومًا».

«كيف حال أهلكِ؟»

«بخير».

«وكيف حال صديقتكِ التي كنتِ متعلِّقة بها كثيرًا؟»

تلقَّيتُ السؤال بفجوةٍ في الذاكرة، شوَّشَتْني. هل كنت قد حدَّثته عن ليلا في الماضي؟ وما السياق؟ ولماذا تخطر في ذهنه الآن؟ ما الرابط الذي وجده في خلال حديثنا، وعميتُ عنه؟

«إنَّها بخير»، قلت.

«ماذا تفعل؟»

مكتبة الرمحي أحمد telegram @ktabpdf

«تعمل في مصنع للحوم المجفَّفة في إحدى ضواحي ناپولي».

«ألم تكن قد تزوَّجت بصاحب أحد المتاجر؟»

«لم ينجح الزواج بينهما».

«حين آتي إلى ناپولي، حبّذا لو عرّفتِني إليها».

«بالتأكيد».

«اتركي لي رقمًا أو عنوانًا».

«حسنًا».

نظر إليّ ليختار من الكلام ما يجرحني بشكل أقلّ. سأل:

«هل قرأتْ كتابكِ؟»

«لا أدري. هل قرأته أنت؟»

«طبعًا».

«وما رأيك فيه؟»

«جيِّد».

«ماذا تقصد؟»

«ثمَّة صفحات جيِّدة».

«إلى أيٍّ منها تشير؟»

«تلك التي تعطين فيها البطلةَ القدرة على الربط بين تفاصيل الأشياء، على طريقتها».

«هذا كلّ شيء؟»

«ألا يكفي؟»

«لا، من الواضح أنَّه لم ينل إعجابك».

«قلت لك إنَّه جيِّد».

كنت أعرف طباعه حقّ المعرفة. كان يتجنَّب أن يجرحني،

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

فانزعجتُ وقلت:

«لقد أحدث الكتاب ضجّة، وبيعت منه نسخٌ كثيرة».

«هذا جيِّد، إذن، أليس كذلك؟»

«أجل، لكنَّك لا تراه هكذا. ما الخلل فيه؟»

زمّ شفتيه، وقال صارمًا

«ليس فيه ما يمكن اعتباره مهمًّا يا إيلينا إنّك تخفين ما يستحقّ عناء السرد خلف أقاصيص حبٍّ مبتذلة وهوس بالصعود الاجتماعيّ»

«إلَام ترمي؟»

«انسي الأمر لقد تأخَّر الوقت وعلينا أن نستريح».

حاول أن يتقنَّع بهزليَّةٍ ودودة، لكنَّه حافظ على تلك النبرة الجديدة، لمن لديه مَهمَّةٌ رفيعة، ويقتصد الإدلاء برأيه في الأمور الأخرى. «لقد فعلتِ الممكن، أليس كذلك؟ لكنّ كتابة الروايات، من *الجانب الموضوعيّ*، ليست أولويَّةً في هذه المرحلة».

١٨

عادت ماريّاروزا، مع خوان وسيلڤيا، في تلك اللحظة تمامًا، يحملون المناشف النظيفة وألبسة النوم. لقد سمعتْ تلك الجملة الأخيرة حتمًا، وفهمتْ أنَّ كتابي هو المقصود، لكنَّها لم تنبس ببنت شفة. كان في إمكانها أن تقول شيئًا ما: أنَّ الرواية أعجبتها مثلًا، أو إنَّ من الممكن تأليف الروايات في أيٍّ ظرف، لكنَّها لم تفعل. فاستنتجتُ أنَّ كتابي، بصرف النظر عن التصريحات اللطيفة والودودة، كان يُعَدّ شيئًا تافهًا لا طائل فيه، في تلك البيئة عالية الثقافة والمتشرِّبة بالشغف السياسيّ؛ وأنّ الصفحات التي ساعدت على انتشاره كانت تُعتبَر روافدَ لنصوصٍ تافهة، لم أكن قد قرأتُ منها لأتأثّر بها، وتستحقّ ذلك الوصفَ الساخر الذي قاله فرانكو: *أقاصيص حبّ مبتذلة*.

دلَّتني أخت خطيبي على الحمّام، والغرفة التي سأنام فيها، بلباقةٍ كبيرة. ودَّعتُ فرانكو، لأنَّه سينطلق في الفجر اكتفيتُ بمصافحته، وهو بدوره لم يبادر إلى معانقتي. رأيته يختفي في إحدى الغرف مع ماريّاروزا، وفهمتُ ـ من تجهُّم وجه خوان، وتعاسة نظرة سيلڤيا ـ أنَّ الضيف سيشارك صاحبة البيت في سريرها

مكتبة الرمحي أحمد telegram @ktabpdf

انسحبتُ إلى الغرفة. شممتُ فيها رائحةً كثيفةً من الدخان، وفيها سرير صغير ليس مرتَّبًا، ولا وجود لدُرج أو مصباح، سوى ذلك الضوء الخافت المعلّق في السقف. ثمَّة جرائدُ مكدَّسة على الأرض، وبعضُ الأعداد من مجلَّاتٍ تُعنى بالأدب والثقافة، مثل «مونابو» و«الواجب الجديد» و«ماركاتري»، وكتبٌ عن الفنِّ باهظةُ الثمن، بعضُها مستعمَلٌ وبعضُها من الواضح أنه لم يتصفَّحه أحد. عثرتُ تحت السرير، على منفضة رماد مليئة بأعقاب السجائر، ففتحتُ النافذة وتركتُ المنفضة على الحافَّة. نزعتُ ملابسي. كان ثوب النوم، الذي أعطتني إيّاه ماريّاروزا، طويلًا وضيِّقًا عليّ. ذهبتُ إلى الحمّام، أمشي بقدمين حافيتين في الممرّ المعتم. لم أكترث لغياب فرشاة الأسنان: لم يوصني أحدٌ بغسل الأسنان في الصِّغَر، وإنَّما اكتسبتُ هذه العادة في بيزا مؤخَّرًا

حاولتُ، حين عدت إلى السرير، أن أمحوَ ذكرى فرانكو الذي قابلتُه في تلك المناسبة، باستحضار فرانكو الذي عرفتُه منذ أعوام خلت؛ الشابّ الثريّ والكريم والذي أحبَّني وساعدني واشترى لي كلَّ شيء، وثقّفني، واصطحبني إلى باريس لمشاهدته في أحد لقاءاته السياسيَّة، ثم إلى بيت أهله في فيرسيليا خلال الإجازة. لكنِّي لم أنجح. انتصر الحاضرُ بكلِّ تقلُّباته: الصرخاتُ في القاعة المكتظَّة؛ الجدالُ السياسيّ الذي ظلّ يطنّ في أذنيّ، فانقلب على كتابي ليجرِّده من معناه. هل كنت أتوهَّم بأنَّ لي مستقبلًا أدبيًّا حافلًا؟ هل كان فرانكو محقًّا ثمَّة ما هو أهمّ من كتابة الروايات؟ أيّ انطباعٍ أخذه عنِّي؟ أيّ ذكرى كان يحتفظ بها عن حبّنا، إن كان يحتفظ بها؟ هل كان يشكو إلى ماريّاروزا عنِّي كما شكا إليّ نينو عن ليلا؟ كنت أغصّ بالآلام والخيبة والإحباط. بالتأكيد، السهرةُ التي تخيّلتُها هانئةً، وربَّما

كئيبةً بعض الشيء، بدت لي في منتهى الحزن. لم أكن أتمنّى سوى أن تنقضي تلك الليلةُ كي أعود إلى نابولي. نهضتُ لأطفئ الضوء، وعدت إلى السرير في جنح الظلام.

لم يغلبني النعاس. أتقلَّب ذات اليمين وذات الشمال. فالسرير والغرفة يختنقان بروائح أجسادٍ أخرى، وممارساتٍ حميميَّةٍ، تشبه ما كان يحدث في بيتي، لكنَّها، في هذه الحالة، يقوم بها غرباءُ يُثيرون الاشمئزاز. وما إن غفوتُ حتى استيقظتُ على حين غرّة: كان أحدهم قد دخل الغرفة. غمغمتُ: من هناك؟ أجابني خوان، قال بلا مقدِّمات، وبصوت متضرِّع كما لو أنَّه يطلب منِّي معروفًا ضروريًّا، وبما يشبه استغاثة النجدة أو الإسعاف:

«هل أستطيع أن أنام معك؟»

بدا لي الطلب غريبًا، حتى إنّي سألتُه، كي أستوعب الأمر وأستيقظ كلِّيًّا

«تنام؟»

«أجل، أنام إلى جوارك. لن أزعجكِ، إنّما أردتُ أن أتجنَّب البقاء وحيدًا».

«كلّا، حتمًا».

«لماذا؟»

احترتُ في الجواب، فغمغمتُ:

«إنّي مخطوبة».

«وما المشكلة؟ ننام معًا، ليس إلّا».

«اخرج من هنا، أرجوك. إنّي حتى لا أعرفك».

«أنا خوان، أريتُكِ أعمالي منذ قليل. ماذا تريدين أكثر من ذلك؟»

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

شعرتُ بأنَّه يجلس على السرير تراءى لي جسده في الظلام، وأحسستُ بزفيره الممزوج بنكهة السيجار.

«أرجوك»، غمغمت، «أشعر بالنعاس».

«أنتِ كاتبة، وتكتبين عن الحبّ. كلّ الوقائع التي تحدث لنا تغذّي مخيِّلتنا، وتساعدنا على الإبداع. اتركيني أَنَم قربكِ. سيكون في مقدورك الكتابة عن هذه التجربة».

لمس قدمي برؤوس أصابعه. لم أحتمله، فانتفضتُ نحو قاطع النور وأضأتُ الغرفة. كان لا يزال قابعًا على السرير، بسرواله وقميصه الداخليّ.

«اخرج، هيّا»، همستُ، ولكن بنبرةٍ حاسمة، ملوِّحةً بلجوئي إلى الصياح، وعازمةً على مهاجمته قبل أن يهاجمني، ومصارعته بكلِّ قواي. فإذا به ينهض ببطء، ويقول متقزِّزًا

«أنتِ منافقةٌ، تدّعين العفّة».

خرج. أغلقتُ الباب خلفه، وأردتُ أن أقفله، لكنِّي لم أجد المفتاح.

كنت مذهولة وساخطة ومذعورة، ورأسي يلهج بشتائم دمويَّةٍ بالعامِّيَّة. انتظرتُ قليلًا قبل أن أعود إلى السرير، لكنِّي لم أُطفئ الضوء. ما الصورة التي أظهر فيها؟ مَن هو الشخص الذي أبدو عليه؟ ما الذي يشرّع طلب خوان؟ هل كان للأمر صلة بشهرة المرأة الحرَّة التي يؤمِّنها لي الكتاب؟ هل له صلة بالكلمات السياسيَّة التي نطقتُها، والتي من البديهيّ أنَّها لم تكن مجرَّد مبارزةٍ جدليَّة، أو حيلةٍ لإظهار تفوُّقي على الرجال، إنّما تحدّد مفهوم شخصيَّتي بأكملها، وقابليّتي للجنس؟ هل كان خطابي السياسيّ يُشير إلى تحيُّزي لفرقة ذلك الرجل، الذي دخل غرفتي من دون وازع، أو لماريّاروزا التي حملتْ معها

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

فرانكو إلى غرفتها، من دون وازع هي أيضًا؟ هل أصِبتُ بعدوى الهيجان الإباحيّ الذي رأيتُه في قاعة الجامعة، ورحتُ أنشره من دون أن أنتبه؟ في ميلانو نفسها، شعرتُ بأنّي على استعدادٍ لممارسة الحبِّ مع نينو، كي أخون بييترو. لكنَّ شغفي بنينو قديمٌ جدًّا، وقد يبرِّر الشهوةَ الجنسيَّة والخيانة. أمّا الجنس، في حدّ ذاته، فلا؛ ذلك الطلب المباشر ببلوغ الرعشة، لا لم أكن قادرةً على التجاوب هكذا، لم أكن مستعدَّة؛ بل كنت أشمئزّ من هذه الطريقة. لماذا يتحرَّش بي صديق آديلي في تورينو، ويتحرَّش بي خوان في هذا المنزل؟ ما الذي عليَّ أن أثبته، ما الذي أرادوا «هم» أن يثبتوه؟ تذكَّرتُ قصَّتي مع دوناتو سارّاتوري فجأةً. ليست الحادثة في المساء على الشاطئ في إيسكيا، تلك التي حوَّلتها إلى مشهدٍ روائيّ؛ بل حين ظهر في مطبخ نيلا وكنتُ قد هجعتُ إلى السرير للتوّ، وراح يقبّلني ويلمسني ويغزوني بسيلٍ من المتعة كاد يجرف إرادتي نفسها هل ثمَّة ما يربط بين المراهِقة، المصدومة والخائفة حينذاك، بالشابّة التي خضعت للتحرُّش في المصعد، وفي الغرفة الآن؟ هل كان تارّاتانو، صديقُ آديلي؛ المثقَّف الكبير، وهذا الفنَّانُ الفنزويليّ، خوان، هل كانا من طينة والد نينو نفسها؛ مراقبِ التذاكر في القطارات، شبهِ الشاعر، وصاحب القلم المأجور؟

١٩

لم أتمكَّن من النوم. كأنَّ توتُّر الأعصاب وتناقض الأفكار لا يكفيان، فإذا بميركو يعاود البكاء أيضًا تذكَّرتُ العاطفة القويَّة التي اجتاحتني عندما حملته بين ذراعيّ. وبما أنَّه لم يكن يهدأ، لم أتمالك نفسي. نهضتُ، وتبعتُ صدى نحيبه، فوصلتُ إلى بابٍ ينسلّ منه الضوء. طرقتُ فأجابت سيلڤيا بجفاء. كانت غرفتها أوسع من غرفتي، وفيها خزانة قديمة، ودُرجٌ، وسريرٌ زوجيّ، كانت الفتاة جالسة عليه في ثوب النوم الناعم زهريّ اللون، متربِّعةً، مكفهرَّة الوجه. ذراعاها مفرودتان، ويداها على الغطاء، وميركو العاري على فخذيها العاريتين، كأنَّه قربان، وجهه محمرٌّ، وجوف فمه المفتوح قاتم السواد، وعيناه غائرتان، وأطرافه مهتزّة. استقبلتني على مضض في البداية، ثم لانت. قالت إنّها محبطةٌ، وتشعر بعجزها عن تأدية واجبات الأمّ، وكانت في حيرةٍ من أمرها وغمغمتْ في النهاية: يفعل هكذا دومًا إن كان جائعًا، لعلّه مريض، سيموت هنا أمامي على السرير. بدت لي بعيدةً كلَّ البعد عن ليلا، بينما كانت تكلِّمني، قبيحةً ومشوَّهةً بتكشيرةٍ عابسةٍ تلو الأخرى على فمها وعينيها الجاحظتين. ثم انفجرت باكيةً.

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

رقَّ قلبي على بكاء الأمِّ وابنها. وودتُ أن أعانق كليهما، وأحضنهما وأهدهدهما. همستُ: هل في وسعي أن أحمله قليلًا؟ أومأتْ بنعم بين شهقاتها فأخذتُ الطفل من حضنها، وحملتُه إلى صدري، وعاد ذلك السيل من الروائح والأصوات والدفء يغمرني، كما لو أنَّ طاقته الحيويَّة تتلهَّف إلى العودة إليّ بعد الفراق. رحتُ أمشي جيئة وذهابًا في الغرفة، وأنا أدمدم ما يشبه الترنيمة الخالية من أيّ منطقٍ وقد ابتكرتها للتوّ، كاعترافٍ بالحبِّ لا ينتهي، وخالٍ من أيّ معنى. فهدأ ميركو بأعجوبة، وغفا فوضعتُه، في رفقٍ، إلى جانب أمّه، من دون رغبةٍ في الافتراق عنه. خشيتُ أن أعود إلى غرفتي، كان جزءٌ منّي على يقين بأنّ خوان يتربَّص بي، وآثرتُ البقاء هناك.

شكرتني سيلڤيا من دون امتنان. «شكرًا»، أضافت إليها مجموعةً باهتة من ميزاتي: «كم أنت ذكيَّة، تعرفين كلّ شيء، وتجبرين الآخرين على احترامك، أنت أمٌّ حقيقيَّة، هنيئًا للأطفال الذين ستنجبينهم». تحفَّظتُ على الردِّ، وقلتُ إنّي ذاهبة، فانتابتها موجة فزعٍ. أمسكت بيدي، وتوسَّلت إليّ البقاء معها «إنّه يسمعكِ»، قالت، «ابقي من أجله، سينام قرير العين». فوافقتُ على الفور. تمدَّدنا على السرير والطفل بيننا، وأطفأنا الضوء. لكنّنا لم ننم، بل شرعنا في الحديث.

بدت سيلڤيا أقلّ قسوة تحت الظلام. روت لي عن الاشمئزاز الذي راودها حين اكتشفت حملها أخفت النبأ عن الرجل الذي كانت تحبّه، وعن نفسها أيضًا كانت متيقِّنةً بأنّ حملها سيزول كأيّ مرض عابر. لكنّ جسدها أخذ يتفاعل، وينتفخ. اضطرَّت إلى إطلاع والديها، اللذين كانا صاحبَي مهنةٍ تدرّ عليهما الأموال في مونتسا فتشاجرتْ معهما ورحلت عن المنزل. وبدلاً من أن تنتظر معجزةً مع مرور الوقت؛ وبدلاً من أن تتغلَّب على مخاوفها وتأخذ الإجهاض في عين

الاعتبار، راحت تدّعي أنَّها ترغب في الطفل، حبًّا بالرجل الذي حبلت منه. قال لها إن كنت تريدينه، فأنا أريده أيضًا حبًّا بكِ. حبًّا به، حبًّا بها: في تلك الآونة، كان كلاهما يتحدَّث بجدِّيَّة. ولكن، بعد مضيّ أشهر، وقبل أن يكتمل الحمل، هجر الحبّ قلبه وقلبها؛ ألحّت سيلفيا على هذه النقطة مرارًا، بألم. لم يبقَ أيّ شيء، سوى النقمة. وهكذا، وجدت نفسها وحيدةً. وإن استطاعت حتى اللحظة أن تتدبَّر أمرها، فإنّ الفضل يعود إلى ماريّاروزا مدحتْها كثيرًا وتكلَّمتْ عليها بمودّة كبيرة: أستاذةٌ بارعةٌ فعلًا، تصطفّ إلى جانب الطلبة حقًّا؛ رفيقةٌ لا تُهزَم.

قلت لها إنَّ كلّ أفراد عائلة آيروتا كانوا محطّ تقدير الجميع، وإنّي مخطوبةٌ لبييترو وسنتزوَّج في الخريف. فقالت مضطربة: الزواج يرهبني، والعائلة أيضًا، إنَّهما عادتان قديمتان. ثم تحوَّلتْ إلى نبرةٍ تعيسةٍ فجأة.

«والد ميركو أيضًا يعمل في الجامعة».

«حقًّا؟»

«بدأ كلّ شيء بيننا لأنّي تردَّدتُ إلى دروسه. كان واثقًا بنفسه، ماهرًا في عمله، خارق الذكاء، ووسيمًا إلى أبعد حدّ. كامل الأوصاف. وكان يقول دومًا، من قبل أن يندلع النضال: أعيدوا تربية أساتذتكم، لا تسمحوا لهم بأن يعاملوكم كما لو كنتم حيوانات».

«وهل يهتمّ لشؤون الطفل؟»

ضحكت سيلفيا تحت الظلام، وغمغمت بقسوة:

«إنّه ذَكَرٌ في النهاية. وبغضّ النظر عن لحظات الجنون التي تحبّين فيها الذَّكَر، ثم يلجكِ، فإنّه يبقى خارج جسمكِ دومًا وهكذا، حين يذبل حبّكِ له، تكتئبين لمجرَّد التفكير بأنّكِ رغبتِ فيه ذات مرَّة. أُعجب بي، وأُعجبتُ به؛ نقطة انتهى. يحدث لي مرَّات عديدةً خلال

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

النهار أن أُعجب بأحدهم. ماذا عنكِ؟ حالةٌ تدوم وقتًا قصيرًا، ثم تنقضي. لكنّ الطفل يبقى، لأنَّه جزءٌ منكِ؛ أمّا والده، فهو دخيلٌ عليكِ، وبعد الحبّ يعود غريبًا مثلما كان. حتى اسمه فَقَدَ رنينه المحبَّب. نينو، كنتُ أقول، وأُعيد اسمه مرارًا وتكرارًا في رأسي من الصباح إلى المساء. كان اسمه كلمة سحريَّة. أمَّا الآن، فأشعر بالإزعاج كلَّما لفظتُه».

التزمتُ الصمت قليلًا، ثم همستُ:

«والد ميركو يُدعى نينو؟»

«أجل، يعرفه الجميع، حضوره لافتٌ في الجامعة».

«نينو، وبعد؟»

«نينو سارّاتوري».

مكتبة الرمحي أحمد
telegram @ktabpdf

٢٠

خرجتُ في الصباح الباكر. تركتُ سيلڤيا نائمةً وطفلها على صدرها. لم أعثر على أيّ أثرٍ للرسّام. لم أتمكَّن سوى من توديع ماريّاروزا، التي استيقظت باكرًا جدًّا كي تصطحب فرانكو إلى المحطَّة، وعادت توًّا إلى المنزل. كانت تبدو ناعسة، وأحسستُ بأنَّها في مزاجٍ عكر. سألتني:

«هل نمتِ جيّدًا؟»

«تكلَّمتُ مع سيلڤيا طويلًا».

«هل حدّثتكِ عن سارّاتوري؟»

«أجل».

«أعرف أنّكما صديقان».

«هل أخبركِ هو بذلك؟»

«أجل. ثرثرنا عنكِ قليلًا».

«هل صحيحٌ أنّ ميركو ابنه؟»

«أجل»، كتمتْ تثاؤبها، وابتسمت. «نينو جذّابٌ للغاية، وكلّ

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

الفتيات يَتُقن إليه، يتعلَّقن به من هنا ومن هناك. ولحسن الحظّ أنّنا نعيش في حقبةٍ سعيدة، تحصلين فيها على ما تشائين، ناهيك بعنفوانه المتأجِّج وقدرته على بثِّ المرح والرغبة في فعل الأشياء».

قالت إنّ الحركة في حاجةٍ ماسَّة إلى أشخاص مثله. لكنَّها أضافت: لا بدّ من الاعتناء به، ومساعدته على النضج، وتوجيهه. وقالت إنّ الأفذاذ تجب قيادتهم، فمن المحتمل دومًا أن يستيقظ في داخلهم شبحُ البرجوازيّ الديموقراطيّ، أو التقنيّ المولع بالشركات والتحديث. تحسّرت كلٌّ منّا على عدم كفاية الوقت للبقاء معًا، واتّفقنا على أن نُطيل لقاءنا المقبل. أخذتُ حقيبتي من الفندق وغادرتُ.

لم أتمعّن في أبوّة نينو الثانية إلّا على متن القطار، خلال الرحلة الطويلة نحو نابولي. تخيَّلتُ أنّه كينونةٌ رماديَّةٌ قاتمة، تمتدّ من سيلڤيا إلى ليلا، ومن ميركو إلى جينّارو. بدا لي أنَّ الغرام في إيسكيا، وليلةَ الحبِّ في فوريو، والعلاقةَ السرِّيَّة في ساحة الشهداء، والحملَ، تفاصيلُ تفقد ألوانها، لتتحوَّل إلى آليَّةٍ ميكانيكيَّة، نشَّطها نينو بعد أن غادر نابولي، مع سيلڤيا وربَّما مع غيرها أيضًا. أزعجني الأمر، كما لو أنّي أخفيتُ ليلا في إحدى زوايا رأسي فجرَّبتُ مشاعرها شعرتُ بالمرارة كما شعرت بها ليلا، أغلب الظنّ، واستفحل بي الغيظ كما لو أنّي عانيتُ ما عانته. خان نينو ليلا وخانني. كنّا أنا وهي نذوق الذلّ نفسه؛ أحببناه من دون أن يبادلنا قَدْر المحبَّة ذاتَه. كان رجلًا طائشًا، إذن، على الرَّغم من مؤهِّلاته، وسطحيًّا، له جسدٌ حيوانيٌّ ينسكب منه العرق والسوائل القذرة، ويترك خلف ظهره ـ كفضلاتِ متعةٍ عابرة ـ مادّةً حيَّة، بذرةً منه، تأخذ شكل جنين في أرحام الإناث. تذكَّرتُ حين جاء لزيارتي في الحيّ، منذ سنوات، وبقينا نتحادث في الفناء، فرأته ميلينا المجنونة من النافذة وظنَّت أنَّه أبوه. عشيقة دوناتو السابقة حدّدت

telegram @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

فيهما نقاط التشابه التي لم يكن لها وجود بالنسبة إليّ. لكنّ الأمور اتَّضحتْ حينذاك، لقد أصابت ميلينا فيما أخطأتُ فيه. لم يكن نينو يهرب من أبيه خشية أن يصبح مثله، لأنّ نينو «*كان قد أصبح*» مثل أبيه، ولم يشأ الإقرار بذلك.

وعلى الرَّغم من هذا كلِّه، فإنني لم أستطع أن أكرهه. في القطار الذي سخنت حدائده من القيظ الشديد، لم أتذكَّر حين رأيتُه ثانيةً في المكتبة فحسب، بل أدخلتُه في سياق أحداث تلك الأيّام وكلماتها وعباراتها كان الجنس يطاردني، ويُنشب مخالبه فيّ؛ كان قبيحًا ومغريًا، وحاضرًا بقوَّة في حركات اليدين والنقاشات والكتب. كانت الجدران الفاصلة تتهاوى، وقواعد حسن السلوك تتفكّك. وكان نينو يعيش ذلك الفصل قلبًا وقالبًا. كان جزءًا من الاجتماع الضوضائيّ في جامعة ستاتالي، حاضرًا بكلّ رائحته الكثيفة، متلائمًا مع الفوضى العارمة في بيت ماريّاروزا، وأكاد أجزم أنَّه صاحبها لفترةٍ من الوقت. كان يتحرَّك بثقةٍ هائلة، بذكائه، ورغباته، وقدرته على الإغواء، ويتقصّى ذلك الزمان. ربَّما أخطأتُ في إضفاء شهوانيَّة والده عليه؛ ربَّما كانت تصرُّفاته تنتمي إلى ثقافةٍ مختلفة، والدليل أنّ سيلڤيا وماريّاروزا شدّدتا على هذه النقطة: الفتيات يرغبن فيه، وهو يحظى بهنّ، لا وجود للغَلَبة، ولا وجود للخطايا، ولا وجود إلَّا للحقّ في الرغبة. ومن يدري، لعلَّ نينو وصف ليلا بالمختلَّة جنسيًّا ليلمِّح إليّ بأنَّ زمن التطلُّب قد ولَّى، وأنَّ إثقال المتعة بالمسؤوليَّة كان خطأً فادحًا ولئن كان على طبيعة والده، فمن المؤكَّد أنَّ ولعه بالنساء مختلفٌ كلِّيًّا.

وصلتُ إلى ناپولي، متعجِّبةً ومستاءةً من قدرة نينو على مبادلة المحبَّة، في حين كان جزءٌ فيَّ يستسلم ويقرّ: ما المانع، إنّه يستمتع

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

بحياته مع مَن يستمتع بحياته. وبينما كنت أعود إلى الحيّ، أيقنتُ أنّي لا أزال أرغب فيه، تمامًا لأنّ كلّ الفتيات يرغبن فيه وهو يحظى بهنّ جميعًا. ولهذا السبب، قرّرتُ أن أتلافى لقاءه ثانيةً بشتّى الطرق. أمّا ليلا، فاحترتُ في شأنها فعلًا هل أُخفي عنها كلّ شيء، أم أصارحها بكلّ شيء؟ سأترك الأمر معلّقًا إلى أن ألتقيها

٢١

لم أشأ ولم يتسنّ لي الوقت في البيت، للتفكير مجدَّدًا في تلك المسألة. اتّصل بي بييترو، وقال إنه سيأتي للتعرُّف إلى أهلي في الأسبوع اللاحق. تلقَّيتُ الأمر على أنَّه مصيبة لا مفرّ منها، وبذلتُ قصارى جهدي في البحث عن فندق يؤويه، وفي تلميع البيت، وخفضِ التوتُّر الذي استبدَّ بعائلتي. وراح هذا الجهد هباءً، وتدهور الوضع. كثر الحديث في الحيّ عن كتابي، وازدادت النميمة عن شخصيّتي وترحالي الدائم بمفردي. دافعتْ أمّي عن نفسها، وتفاخرتْ بأنَّ ابنتها توشك على الزواج؛ إلّا أنَّها ابتدعتْ أنّي لن أتزوَّج في نابولي، بل في جنوا، تجنُّبًا لأن تتعقَّد الحالة بسبب خياري الذي سيُغضب الربّ. فكثرت الأقاويل، وشعرتُ بالإنهاك.

واجهتني ذات مساء، بقسوة مفرطة؛ قالت إنَّ الناس يقرأون كتابي، فيُصدمون به ويغتابونني. وصرختْ قائلةً إنَّ إخوتي اضطروا إلى المشاجرة مع أبناء الجزّار، الذين وصفوني بالعاهرة. ليس هذا فحسب، بل هشَّموا أيضًا وجه رفيق إيليزا في المدرسة، لأنَّه طلب منها أن تفعل معه الأشياء القذرة مثلما تفعل أختها الكبرى.

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

«ماذا كتبتِ في الرواية؟» زعقت في وجهي.

«لا شيء يا أمّاه».

«كتبتِ عن تلك الفواحش التي تفعلينها هنا وهناك؟»

«أيّ فواحش؟ اقرئي الكتاب بنفسك».

«لن أضيّع وقتي في قراءة ذلك الهراء».

«دعيني وشأني، إذن».

«إن عرف أبوك بما يقول الناس عنكِ، لطردكِ من المنزل».

«ما من داعٍ، سأغادر بملء إرادتي».

خرجتُ في المساء، لأتمشّى كي لا أصرخ في وجهها كلماتٍ قد أندم عليها لاحقًا وفي الطريق نحو الحديقة الصغرى، في الشارع العامّ، تولّد لديَّ انطباعٌ بأنَّ الناس تنظر إليَّ بإلحاح، كأنَّهم ظلال حانقة في عالمٍ لم أعد أسكن فيه. فإذا بي أصادف جيليولا في أثناء عودتها من العمل. كنّا نسكن في البناية نفسها، فمشينا الطريق معًا، وأنا أخشى من أن تجد طريقةً للنيل منّي، عاجلًا أم آجلًا لكنّها فاجأتني بأنَّها عبّرت بحياء، هي التي لطالما كانت عصبيَّة، إن لم تكن غدّارة:

«قرأت كتابكِ، كم هو جميل. أعجبتني شجاعتكِ في الكتابة عن تلك الأمور».

تجهَّم وجهي:

«أيّ أمور؟»

«تلك التي قمتِ بها على الشاطئ».

«لم أقم بها أنا، بل بطلة الرواية».

«أجل، لكنّكِ كتبتِها بطريقةٍ ممتازةٍ يا لينو، بالواقعيَّة والقذارة

telegram @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

نفسيهما إنّها أسرارٌ لا تعرفها إلّا الإناث». ثم أمسكت بذراعي وأرغمتني على التوقُّف، وغمغمت: «أخبري لينا ـ إن التقيتِها ـ بأنَّها كانت محقَّة؛ أعترف لها بذلك. لقد أحسنتْ صنعًا في عدم الاكتراث لزوجها وأمّها وأبيها وأخيها ومارتشيلو وميكيلي وكلّ هذا الخراء. كان عليّ أن أقتدي بكما، وأهرب من هنا مثلما فعلتُما أنتما ذكيَّتان؛ لكنِّي وُلدتُ غبيَّةً، وليس في إمكاني فعل أيّ شيء».

لم نتحدَّث في أمور مهمَّة، توقَّفتُ عند عتبة بيتي واتَّجهت جيليولا إلى بيتها. لكن تلك العبارات ظلّت عالقةً في ذهني. صُدمتُ بأنَّها ساوت بين سقوط ليلا وصعود نجمي، كما لو أنّنا في الدرجة نفسها من النجاح مقارنةً بحالها لكن أكثر ما علق في رأسي أنَّها عثرت على تجربتها القذرة بين القذارة الموجودة في روايتي. كان شيئًا حديثًا بالنسبة إليّ، ولم أعرف كيف أقوِّمه. ثم نسيتُ هذه النقطة لوقتٍ طويل، ما إن وصل بييترو.

٢٢

ذهبتُ إلى المحطّة لاستقباله، ورافقتُه إلى شارع فلورنسا حيث الفندق الذي نصحني والدي به، وقد حجزتُ فيه غرفةً بعد بحثٍ طويل. بدا لي بييترو أشدّ توتُّرًا من عائلتي. نزل من القطار مهملًا لباسه كالعادة، ووجهه منهَكٌ وقد احمرّ من الحرِّ الخانق، ويجرّ حقيبة كبيرة. أراد أن يشتري باقةً من الأزهار لوالدتي، وخلافًا لعادته لم يرض إلَّا بباقةٍ كبيرة وباهظة الثمن نوعًا ما وتركني في البهو مع الأزهار فور وصولنا إلى الفندق، وأقسم إنَّه سيعود في أسرع وقت، ثم ظهر بعد نصف ساعة، ببذلة كاملة زرقاء وقميص أبيض وربطة عنق سماويَّة وحذاء ملمّع. انفجرتُ ضاحكةً، فسألني: ألا أبدو بمظهرٍ لائق؟ فطمأنته: كان مظهره لائقًا جدًّا. لكنِّي شعرتُ في الطريق بنظرات الذكور تحاصرني، وبسخريَّتهم وازدرائهم، كما لو كنت بمفردي، بل ربَّما كانوا يلحُّون على ذلك، منوِّهين إلى أنّ صاحبي لا يستحقّ الاحترام. كان بييترو لا يناسب مدينتي، بعنايته بأدقّ التفاصيل، وبتلك الباقة الضخمة من الأزهار التي لم يسمح لي بحملها وعلى الرَّغم من أنَّه شبك كتفيّ بذراعه، فقد شعرتُ بأنِّي أنا

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

مَن عليها أن تحميه.

فتحت لنا إيليزا، ثم وصل والدي، ثم إخوتي، يرتدون جميعًا ثياب الحفلات، وكانوا مفرطين في لباقتهم جميعًا. وظهرت في النهاية والدتي. سمعنا خطواتها العرجاء بعد تصريف المياه في المرحاض تمامًا كانت قد سرَّحت شعرها بعناية ووضعت أحمر الشفاه وبعض المساحيق على خدَّيها، ففكَّرتُ في أنَّها كانت جميلةً في شبابها. قبلت الأزهار باستعلاء، وجلسنا في صالة الطعام، بعد أن أزلنا أيّ أثرٍ للأسرّة التي نركِّبها في المساء ونفكِّكها في الصباح. كانت كلّ الأغراض تشعّ بريقًا، والمائدةُ مجهّزةً باهتمام بالغ، إذ عملت أمِّي وإيليزا على الطبخ أيّامًا طوالًا، ما جعل طقسَ العشاء لا ينتهي. أدهشني بييترو بانفتاح أساريره. سأل والدي عن عمله في البلديَّة، وأعطاه حرِّيَّةً تامَّة حتى تخلَّى أبي عن إيطاليّته الفصيحة المشوَّهة، وانطلق يقصّ عليه بالعامِّيَّة حكاياتٍ مضحكةً عن الموظَّفين في البلديَّة، وأظهر خطيبي جلّ اهتمامه، مع أنَّه فهم القليل. ثم أدهشني بأنَّه أكل كما لم أره يأكل من قبل، ولم يمتدح أمِّي وأختي على كلّ حملة طعام فحسب، بل استعلم عن مكوّنات كلّ طبقٍ، كما لو كان يفكِّر في العمل في المطابخ قريبًا، على الرَّغم من أنَّه في الحقيقة ليس قادرًا على سلق بيضة. ثم أظهر ولعه التامّ بوجبة البطاطس بالفرن، حتى أمدَّته أمِّي بقطعةٍ أخرى كبيرة الحجم، ووعدته بنبرتها النزقة المعتادة بأنَّها ستحضِّرها مرَّة أخرى قبل أن يغادر. تحسَّنت الأجواء خلال وقت قصير، إلى درجة أنَّ بيبّي وجانّي رفضا الذهاب إلى اللعب مع أصدقائهما

وصلنا، بعد العشاء، إلى الموضوع المهمّ. تحلّى بييترو بالجدِّيَّة وطلب يدي من والدي. استخدم هذه الصيغة تحديدًا، بنبرةٍ عاطفيَّة،

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

جعلت عينَيْ أختي تلمعان، وأضحكت إخوتي. ارتبك والدي، وانهمر بآيات الثناء على الأستاذ المثابر والدؤوب والذي يشرِّفه بهذا الطلب. وبدت السهرة تنحو إلى خواتيمها، حين تدخَّلت والدتي، وقالت بصوت حانق:

«نحن هنا لسنا موافقين على عدم زواجكما في الكنيسة. زواجٌ بلا خوريّ، لا يُعَدّ زواجًا»

ساد الصمت. لا بدّ من أنّ أبوَيّ توصّلا إلى اتِّفاقٍ سرِّيٍّ، عزمتْ والدتي بمفردها على طرحه في العلن. لكنّ والدي لم يصمد، توجَّه إلى بييترو بشبه ابتسامةٍ كأنَّه يلفت انتباهه إلى استعداده للخوض في الأخذ والردّ، على الرَّغم من كونه جزءًا من الـ «نحن» التي لفظتها زوجته. بادله بييترو الابتسامة، لكنَّه لم يعتبره محاورًا مناسبًا حينذاك، فتوجَّه إلى أمّي فقط. كنت قد أعلمتُه بالقسوة التي تحكم عائلتي، وكان متأهِّبًا لها بادر بكلامٍ بسيطٍ ولبقٍ، بطريقته الواضحة كالعادة. قال إنَّه يتفهَّم رأيها، ويودّ أن تتفهَّم رأيه في المقابل، وإنَّه يبجِّل كلّ أولئك الذين يصرِّحون عن إيمانهم بإلٰهٍ ما، لكنَّه لا يرى ضرورةً ليفعل مثلهم. قال إنَّ عدم اتِّباع الدين لا يعني عدم الإيمان بالمطلق، إذ كانت لديه قناعاته وإيمانٌ عميقٌ بمحبّته تجاهي. واعتبر أنَّ هذا الحبّ هو الذي سيرسِّخ زواجنا، وليس مذبح الكنيسة ولا الخوريّ ولا الموظَّف في البلديَّة. وإنّ رفض الطقس الدينيّ مسألة مبدأ بالنسبة إليه، وهو واثق بأنِّي سأكفّ عن حبِّه، أو أُنقِص منه، إذا بدا لي رجلًا بلا ثوابت. وقال في النهاية إنّ أمِّي نفسها كانت لترفض أن تهب ابنتها لشخصٍ يزعزع أحد الأساسات التي بَنى عليها وجوده.

كان أبي يومئ بعلامات القبول على تلك الكلمات، بلا انقطاع، بينما ذُهل إخوتي، وتأثَّرت مشاعر إيليزا ثانيةً. لكنَّ أمِّي ظلَّت ثابتة.

telegram @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

راحت تلاعب خاتم زفافها بضع ثوانٍ، ثم ركَّزت ناظريها في وجه بييترو. وبدلاً من أن تعود إلى الموضوع كي تُعرب عن قناعتها أو تعاود النقاش، أخذتْ تمدحني بحزم صارم. قالت إنِّي كنت طفلةً خارقة الذكاء منذ الصغر، وقادرةً على القيام بأمور عجزتْ عنها كلّ فتيات الحيّ. وأضافت أنني كنت وما زلت مصدر فخرها، ومحلّ اعتزاز العائلة أجمعها لم أخيِّب ظنَّها يومًا، واكتسبتُ بنفسي الحقّ في السعادة؛ ولو حاول أحدهم إيذائي كانت ستؤذيه ألفَ مرَّة وأكثر.

أصغيتُ إليها بارتباك شديد. حاولتُ أن أفهم إن كانت تتكلَّم جدِّيًا، أم تريد كعادتها أن توضّح لبييترو أنَّها لا تُعير اهتمامًا لنجاحه وأستذته في الجامعة، كي يفهم أنَّه لا يقدِّم معروفًا إلى آل غريكو، بل إنّ آل غريكو هم الذين يُسدون إليه المعروف. لم أتمكَّن من فهم هذه النقطة، إلَّا أنَّ خطيبي وافقها بالمطلق، ولم يفعل شيئًا سوى الإيماء بـ «نعم» طوال فترة كلامها وحين أنهت ما عندها أخيرًا، ردَّ بأنَّه يعلم مدى قدراتي جيّدًا، وأنَّه يحيّيها على تنشئتي على ذلك النحو. ثم أدخل يده في أحد جيوب السترة وأخرج علبةً مخمليَّة صغيرة، عرضها عليّ بحركةٍ خجولة. ما هذا، قلت لنفسي، لقد سبق وأهداني خاتمًا، هل سيعطيني خاتمًا آخر؟ وفتحتُ العلبة. ثمَّة خاتمٌ بالفعل، لكنَّه في منتهى الروعة، من الذهب الأحمر، وفي فصّه حجرُ أرجوانٍ كريم مطرَّز بالماس البرَّاق. غمغم بييترو: هذا خاتم جدَّتي، والدة أمِّي، ونحن في البيت سعداء جميعًا بأن تحتفظي به.

كانت تلك الهبة علامةً على انتهاء الطقس. عدنا إلى الشرب، واستأنف والدي سرد أحداثٍ مسلِّية من حياته الخاصَّة ومن العمل. سأل جانّي خطيبي أيَّ الأندية يشجِّع، بينما تحدَّاه بيبّي في المكاسرة. ورحتُ أنا، في أثناء ذلك، أساعد أختي على تنظيف المائدة.

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

وارتكبتُ في المطبخ خطأ فادحًا حين سألت أمّي:

«ما رأيك فيه؟»

«في الخاتم؟»

«بييترو».

«إنّه قبيح، وقدماه ليستا متوازنتين».

«والدي لم يكن أفضل منه».

«ما الذي يجعلكِ تسيئين إلى والدك؟»

«لا شيء».

«اخرسي إذن، تتكبَّرين وتتجبَّرين علينا فقط».

«ليس صحيحًا».

«حقًّا؟ ولماذا تجعلينه يحكمك؟ إن كانت لديه مبادئ، فلماذا لا تكون لديك مبادئكِ أيضًا؟ أرغميه على احترامك».

تدخّلت إيليزا

«يا أمّاه، بييترو سيّدٌ، وأنت لا تعرفين كيف يكون السادة».

«وهل أنت من يعرف ذلك؟ حذارِ، فأنت لا تزالين صغيرة، وإن لم تلزمي حدودكِ هشَّمتُ وجهكِ. هل رأيت تسريحة شعره؟ هل يسرِّح السادة شُعورهم بهذا الشكل؟»

«لا يتقيَّد السيِّد الحقيقيّ بمعايير الوسامة المعروفة يا أمّي. السيِّد يلفت الانتباه، إنَّه محطّ اهتمام».

تظاهرت أمّي بأنَّها ستصفعها، فضحكت أختي وسحبتني من المطبخ، وقالت مبتهجةً:

«هنيئًا لك يا لينو. ما ألطف بييترو. كم يودّكِ. أهداك خاتم جدَّته العتيق، هلَّا أريتنيه؟»

عدنا إلى صالة الطعام. أراد جميع الذكور أن ينافسوا خطيبي في المكاسرة، وأن يُظهروا تفوُّقهم على الأستاذ في القدرة على التحمُّل، على الأقلِّ. لم يتراخَ. نزع سترته وشمَّر عن ساعده وجلس إلى الطاولة. خسر مع بيبّي، وخسر مع جانّي، وخسر مع والدي أيضًا لكنَّه أدهشني كيف صمد حتى النهاية. تضرَّج وجهه وانتفخت عروق جبينه، واعترض على عدم احترام منافسيه قواعدَ اللعبة. قاوم بيبّي وجانّي بصلابة، على الرَّغم من أنَّهما يرفعان الأثقال، وقاوم والدي الذي كان قادرًا على فكّ المسامير الغليظة مستخدمًا قوَّة أصابعه فقط. خشيتُ طوال الوقت أن يكسروا ذراعه، مع أنِّي لم أكن أصدِّق.

مكتبة الرمحي أحمد

٢٣

ظلّ بييترو في بيتنا ثلاثة أيّام. انجذب إليه والدي بسرعة، وأُسْعِد به أخوايَ، وخصوصًا لأنَّه لم يكن متعجرفًا، ويهتمُّ بأحاديثهم، مع أنَّ المدرسة اعتبرتهما فاشلين. أمَّا والدتي، فما لبثت تعامله بجفاء، حتى رقّ أسلوبها قبل مغادرته بيوم واحد فقط. كان يوم أحد، وقال أبي إنّه يودّ أن يُطلع صهره على جمال ناپولي، فوافق الصهر، واقترح علينا أن نتناول الغداء في الخارج.

«في المطعم؟» قالت والدتي مذهولةً.

«أجل يا سيِّدتي، علينا أن نحتفل».

«من الأفضل أن أطبخ بنفسي، فقد اتَّفقنا على أن أحضِّر لك البطاطس بالفرن»

«لا، شكرًا؛ فقد بذلتِ جهدًا كبيرًا يا سيِّدتي».

وبينما كنّا نتجهَّز، أخذتني أمِّي على انفراد وسألتني:

«هل سيتكفَّل بنفقات الغداء؟»

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

«أجل»

«متأكِّدة؟»

«متأكِّدة يا أمّاه؛ فهو الذي دعانا».

اتَّجهنا إلى وسط المدينة، في صباح صافٍ، متأنِّقين كأنَّنا في حفلة. وحدث شيءٌ أذهلني قبل الجميع. كان والدي قد تولَّى مَهمَّة الدليل السياحيّ، فأَطْلع الضيفَ على قلعة أنجو الفحل، والقصر الملكيّ، وتماثيل الملوك، وكاستل دل أوفو، وشارع كاراتشولو والبحر ظلَّ بييترو يُنصت باهتمام بالغٍ يتَّضح على تعابير وجهه، لكنَّه في لحظةٍ معيَّنة فصاعدًا، راح يقصُّ لناً عن مدينتنا، ويجعلنا نكتشفها، وهو الذي كان يزورها للمرَّة الأولى. كم كان ذلك جميلًا لم أكن قد أبديتُ اهتمامًا خاصًّا بخلفيَّة طفولتي ومراهَقتي؛ وتعجَّبتُ من أنَّ بييترو يستطيع التكلُّم عليها بمعرفةٍ واسعة. أثبت أنَّه يعرف تاريخ ناپولي، وآدابها، وخرافاتِها، وأساطيرَها، والكثير عن أقاصيصها، وآثارها الظاهرة وتلك التي أخفى الإهمالُ معالمَها تصوَّرتُ أنه يعرف المدينة جيِّدًا لأنَّه رجلٌ يعرف كلّ شيء من جهة، ولأنَّه من جهةٍ أخرى تعمَّق في دراستها، بدأبه المعتاد، لأنَّها مدينتي، ولأنَّ أثرها واضحٌ جدًّا في صوتي وحركات يدَيّ وجسدي كلّه. شعر والدي، بالطبع، بأنَّ البساط يُسحَب من تحت قدميه؛ وانتاب إخوتي المللُ. أدركتُ ذلك، فأشرتُ إلى بييترو أن يكفَّ عن شروحاته. احمرَّ خجلًا، وسكت مباشرةً. أمَّا والدتي، في إحدى انعطافاتها المباغتة، فاتَّكأت على ذراعه، وقالت له:

«أكملْ، هذا يعجبني، لم يقصّ عليّ أحدٌ هذه الأشياء أبدًا».

ذهبنا إلى الغداء في أحد مطاعم سانتا لوتشيا، إذ كان، في رأي والدي، مطعمًا ممتازًا (مع أنَّه لم يدخله في حياته، لكنّ أحد معارفه أخبره بذلك).

telegram @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

«هل في وسعي أن أطلب ما أريد؟» سألتني إيليزا هامسةً في أذني.

«أجل».

طار الوقت سريعًا بهناء. شربت أمّي كثيرًا، وتفوّهت بإحدى جملها السفيهة، وعاد والدي وإخوتي يتمازحون مع بييترو. لم تغفل عيناي عن خطيبي لحظةً واحدة، كنتُ على يقينٍ بأنّي أكنّ له الودّ. فعلى الرَّغم من أنَّه يعرف قيمة نفسه، فإنه لم يكن يتوانى عن التعامل بعفويَّة إذا رأى ضرورةً لذلك. ولاحظتُ، للمرَّة الأولى، ميوله إلى الإصغاء، ونبرته المتفهِّمة كما لو كان كاهنَ اعترافٍ بلبوسٍ علمانيّ؛ وسُررتُ بملاحظاتي هذه. ربَّما كان عليّ إقناعه بأن يبقى يومًا آخر كي أصطحبه إلى ليلا، لأقول لها سأتزوَّج هذا الرجل، سأترك ناپولي لأبقى قربه، ما رأيك، أُحسِن صنعًا، أليس كذلك؟ وبينما كنت لأقوِّم هذا الاحتمال، حَدَثَ أنَّ خمسة أو ستَّة طلاَّب، كانوا يجلسون إلى طاولة مجاورة، يتناولون البيتزا احتفالًا بشيءٍ ما، وأخذوا يمعنون أنظارهم إلى طاولتنا ويتضاحكون. ففهمتُ في الحال، أنَّهم وجدوا مظهر بييترو مثيرًا للسخرية، بسبب حاجبيه الكثيفين، وكومة الشعر العالية فوق جبينه. وفي غضون دقائق قليلة، نهض أخواي في الوقت ذاته، واتَّجها إلى طاولة الطلبة وراحا يتشاجران معهم بعنفٍ كالعادة، على نحو ولَّد مشاحنةً وصياحًا وتبادلًا للَّكمات. صاحت أمّي بالشتائم مساندةً ابنيها، بينما هرع والدي وبييترو ليفرِّقا بينهم. وقد استمتع بييترو بالحالة، ويبدو أنَّه لم يفهم السبب الحقيقيّ للمشاجرة. فعندما خرجنا إلى الشارع، قال متهكِّمًا: هل هذه تقاليدُ محلِّيَّة، أن تنهضوا فجأة وتذهبوا إلى العراك مع من يجلس إلى الطاولة المجاورة؟ وهكذا زاد المرح والانسجام بينه وبين إخوتي أكثر من قبل. لكنّ والدي، ما إن

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

سنحت له الفرصة، حتى انفرد بجانّي وبيبّي ووبَّخهما على الخزي والرعونة اللذين ولَّدا انطباعًا سيِّئًا لدى الأستاذ الجامعيّ. فسمعتُ أنّ بيبّي كان يبرِّر هامسًا في أذن أبيه: كانوا يسخرون من بييترو، يا أبي، هل كان علينا أن نقف مكتوفي الأيدي؟ سُررتُ لأنَّه أسماه «بييترو» وليس «الأستاذ»، بمعنى أنَّه بات يعتبره جزءًا من العائلة، أحد أفراد البيت، صديقًا رفيع الطباع؛ وأنّه ـ ما دام موجودًا ـ لن يسمح لأحدٍ بازدراء مظهره، على الرَّغم من خروجه عن المألوف بعض الشيء. لكنِّي اقتنعتُ آنئذ، بفضل هذا الحادث، بأنّ من الأفضل ألّا أصطحب بييترو إلى ليلا كنت أعرفها جيّدًا: شرِّيرة، لعلَّها ستراه مثيرًا للسخرية، وربَّما تزدريه كما فعل الشبَّان في المطعم.

تناولنا شيئًا ما في البيت، في المساء، بعد أن أنهكنا التجوُّل طوال النهار، ثم خرجنا مجدَّدًا لنصطحب خطيبي إلى باب الفندق الذي ينزل فيه. وفي لحظة الوداع، تحمَّست والدتي وخالفت التوقُّعات، إذ طبعت على وجنتيه قبلتين رنَّانتين. لكنَّها، في طريق عودتنا إلى الحيّ، وبينما كنّا نمتدح بييترو كثيرًا، ظلَّت متكتِّمة من دون حتى أن تتنفَّس. وقبل أن تهجع إلى غرفتها، فتحت فمها وقالت لي ناقمةً:

«أنت محظوظةٌ أكثر ممّا يجب. لا تستحقِّين هذا الفتى المسكين».

٢٤

حقَّق الكتاب مبيعات كبيرة في أثناء الصيف، وواظبتُ على الحديث عنه في أرجاء إيطاليا. وبدأتُ، منذئذٍ، أحرص على الدفاع عنه بنبرةٍ رصينةٍ، غالبًا ما تصدم الجمهور إذا تجاوز حدوده أكثر من اللازم. وكانت كلمات جيليولا تخطر في ذهني، بين الفينة والفينة، فأمزجها بكلماتي، محاولةً أن أمنحها صيغةً مناسبة.

انتقل بييترو إلى فلورنسا، مطلع سپتمبر، خلال تلك الآونة، ونزل في فندقٍ صغير في جوار المحطَّة، وهمَّ في البحث عن منزل. وجد شقَّة صغيرة للإيجار، في منطقة سانتا ماريًّا دل كارميني، فرحتُ لأُلقي نظرةً عليها في الحال. كانت مكوَّنةً من غرفتين مظلمتين، وبناؤها متهالك، والمطبخ صغير، والحمَّام بلا نافذة. حين كنت أذهب في الماضي للدراسة في شقَّة ليلا الجديدة والبهيَّة، كانت تسمح لي، في معظم الأحيان، بأن أتمدَّد في حوض حمَّامها الرائع، فأتمتَّع بالدفء والرغوة الكثيفة. أمَّا حوض الحمَّام في فلورنسا فكان مهترئًا، ملطَّخًا ببقعٍ صفراء، وضيِّقًا بحيث لا يمكن إلَّا الجلوس فيه. غير أنِّي كظمتُ غيظي، وقلت إنَّ الشقَّة جيِّدة؛ لأنَّ حصص بييترو ستبدأ، وكان عليه

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

أن يعمل، ولن يجد الوقت للبحث عن خيار أفضل. وكانت الشقة، في كل حال، مقامًا مَلَكيًّا بالمقارنة مع شقّة أهلي في نابولي.

بيد أنّ آديلي ظهرت فجأة، تمامًا عندما كان بييترو يستعدّ لتوقيع عقد الإيجار، ولم تُبدِ ما أبديتُ من استحياء. اعتبرت الشقَّة جُحرًا لا يناسب شخصين يعتزمان قضاء معظم وقتيهما منكفئين للعمل في المنزل، على الإطلاق. لذا أقدمت على فعل ما لم يفعله ابنها، على الرَّغم من أنَّه كان قادرًا على ذلك. رفعت الهاتف وراحت تستنهض همم بعض المعارف الفلورنسيّين، من ذوي الشأن الرفيع، من دون اكتراث لاعتراض بييترو وعناده. ووجدت، في غضون وقت قصير، شقَّة رخيصة الإيجار بفضل الوساطات، في منطقة سان نيكولو: خمس غرف مضيئة، ومطبخ كبير، وحمَّام لائق. ولم تكتفِ بذلك، بل أمرت بتحسين بعض الأشياء على نفقتها الخاصَّة، وساعدتني في تأثيث المنزل. كانت تقدِّم إليّ الحجج، وتعطيني النصائح، وتوجِّهني. على أنِّي تبيَّنتُ مرارًا أنَّها لا تثق بطاعتي ولا بذوقي. فإذا قلت نعم، أصرَّت على التأكُّد من أنِّي موافقة حقًّا، وإذا قلت لا، تظلّ تحاجّني حتى أغيِّر رأيي. وبشكلٍ عامّ، كنّا نفعل دائمًا كما تقول هي. ومن جهة أخرى، قلَّما اعترضتُ، وكنت أَجري خلفها من دون هواجس، بل أبذل جهدًا في التعلُّم منها. كنت مفتونةً بإيقاع جُمَلها، وحركاتها، وتسريحات شعرها، وملابسها، وأحذيتها، وأزرارها الثمينة، وأطواق عنقها، وأقراطها المثيرة للإعجاب دومًا. وكان يطيب لها أدائي دورَ التلميذة النجيبة. أقنعتني بأن أقصّ شعري قصيرًا قصيرًا، ودفعتني إلى شراء فساتين على ذوقها من محلٍّ باهظ الأثمان، كان يخصّها بتخفيضات كبرى، وأهدتني حذاءً يعجبها، كانت ستشتريه لها بكلِّ سرور لولا أنَّه لا يناسب عمرها، على حدِّ رأيها، واصطحبتني إلى

صديقها طبيب الأسنان أيضًا

وهكذا، تأجَّل موعد الزواج من الخريف إلى الربيع، بسبب الشقَّة التي كانت في حاجة إلى مزيد من التصليحات، بحسب آديلي، وبسبب انشغال بييترو في عمله كثيرًا، وهذا ما سمح لوالدتي بإطالة أمد معركتها ضدِّي لتسحب منِّي مزيدًا من النقود. حاولتُ أن أتوخَّى الانجرار إلى نزاعات قاسية، من خلال إظهار اهتمامي الكامل بأسرتي الأولى. وأتيتُ بالدهّانين ليطلوا الممرّ والمطبخ، تزامنًا مع وصول الهاتف، وأمرتُهم بإلصاق ورق الجدران المزيّن بالأزهار الخمريَّة في صالة الطعام، واشتريتُ معطفًا لإيليزا، وجهاز تلفاز بالتقسيط. وقدَّمتُ إلى نفسي هديَّةً أنا أيضًا في أثناء ذلك، تسجَّلتُ في مدرسة تعليم قيادة السيّارات، واجتزتُ الامتحان بسهولة، وحصلتُ على رخصة القيادة. لكنّ والدتي امتعضت:

«هل يروق لك هدر النقود هكذا؟ فيمَ تفيدك رخصة القيادة ما دام ليس لديكِ سيّارة؟»

«سوف نرى لاحقًا».

«تريدين شراء سيّارة، ها؟ كم لا يزال لديك من نقود تحتفظين بها؟»

«ليس من شأنكِ».

كان بييترو مَن لديه السيّارة، وكنت أفكِّر في استخدامها حالما أتزوَّج. فحينما عاد إلى نابولي، بالسيَّارة، ليصطحب أبويه كي يعرِّفهما إلى أبوَيّ، سمح لي بقيادتها بعض الوقت في الحيّ القديم والحيّ الجديد. سرتُ في الشارع العامّ وأنا أُدير الدفّة، ومررتُ قبالة المدرسة الثانويَّة، والمكتبة، وصعدتُ حتى الشارع الذي كانت تسكن فيه ليلا أيّامَ كانت متزوِّجة، وعدتُ إلى الخلف، مرورًا بالحديقة الصغرى.

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

كانت تجربة القيادة تلك، الشيءَ الوحيد الممتع الذي أذكره. أمَّا ما تبقّى، فكان نهارًا مملًّا، أعقبه عشاءٌ لا ينتهي. بذلنا أنا وبييترو الكثير كي نُخرِج العائلتين من ذلك الجوّ المُحرِج. كانت كلّ عائلةٍ تنتمي إلى عالم بعيد عن عالم الأخرى، على نحو جعل لحظات الصمت تدوم طويلًا وحين غادرت عائلة آيروتا، محمَّلة بكمِّيَّة هائلةٍ من بقايا الطعام الذي أعدَّته والدتي، بدا لي فجأةً أنّي كنتُ مخطئةً في كلِّ شيء. فأنا كنت أتحدَّر من هذه الأسرة، وبييترو من تلك، وكلٌّ منّا يحمل طباع أجداده في سريرته. كيف ستجري أمور الزواج، إذن؟ ما الذي ينتظرني؟ هل سترجح كفَّة التشابه على كفَّة الفوارق؟ هل سيكون في وسعي تأليف كتاب جديد؟ متى، وعمَّ تحديدًا؟ هل سيقف بييترو إلى جانبي؟ وآديلي؟ وماريّاروزا؟

سمعتُ مَن يناديني من الطريق، ذات مساء، بينما كان رأسي يلهج بخواطر من هذا النوع. ركضتُ إلى النافذة، وسرعان ما عرفتُ صوت باسكوالي بيلوزو. اكتشفتُ أنَّه لم يكن وحيدًا، كان برفقة إنتسو. اضطربتُ. ألا يجدر، في تلك الساعة، أن يكون إنتسو في بيته، في سان جوفاني آتيدوتشو، مع ليلا وجينّارو؟

«هلّا نزلتِ؟» هتف باسكوالي.

«ما الأمر؟»

«لينا ليست بخير، وتودّ أن تراكِ».

«سأنزل حالًا»، قلتُ، وانطلقتُ نحو السلالم، متجاهلةً صياح أمّي من ورائي: أين تذهبين في هذه الساعة، عودي إلى هنا

٢٥

لم أكن قد التقيتُ باسكوالي وإنتسو منذ زمن طويل. وعلى الرَّغم من هذا، فلم يكن ثمَّة مقدِّمات. لقد جاءا من أجل ليلا، وكلَّماني عليها فورًا كان باسكوالي قد أطلق لحيته على طريقة تشي غيفارا، وبدا لي أنَّ هذا الخيار قد حسَّن محيّاه. وبدت عيناه أكثر اتِّساعًا وتألُّقًا، وشارباه الكثيفان يغطِّيان أسنانه المنخورة، حتى عندما يضحك. أمَّا إنتسو، فلم يتغيَّر ما زال صموتًا وشديد الانتباه. ولم أُدرك قدْر الغرابة من رؤيتهما معًا، إلّا حينما ركبنا سيّارة باسكوالي القديمة، إذ كنت على قناعة بأنَّ ما من أحدٍ من سكَّان الحيّ يرجو أيّ تواصل مع ليلا وإنتسو. وها آنذا أجد الأمور تجري بشكلٍ مختلف: يتردَّد باسكوالي إلى منزلهما، وقد رافق إنتسو في البحث عنِّي، بعد أن طلبت ليلا ذلك من كليهما معًا

كان إنتسو هو مَن أخبرني بمجريات الأمور، بوضوحٍ واقتضاب، كما اعتاد دومًا باسكوالي، بعد الانتهاء من عمله في إحدى ورشات البناء بالقرب من سان جوفاني آتيدوتشو، كان مدعوًّا إلى تناول العشاء في بيتهما لكنّ ليلا، التي تعود من المصنع في الرابعة والنصف

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

عادةً، لم تصل بعد. كانت الشقَّة خالية، وجينّارو عند الجارة. بدأ الشابّان بالطبخ، وقدَّم إنتسو الطعام إلى الطفل. ولم تظهر ليلا إلّا عند التاسعة، تقريبًا كانت مصفرَّة الوجه، ومتوتِّرة للغاية. لم تُجِب عن أيٍّ من أسئلة إنتسو وباسكوالي. لم تلفظ إلّا جملةً واحدة، بنبرةٍ مذعورة جدًّا أظفاري تُقتَلَع من مكانها لم يكن هذا صحيحًا أمسك إنتسو بيديها وتفحَّصهما جيِّدًا، أظفارها كانت بخير. غضبتْ عندئذٍ. حملتْ جينّارو، وذهبتْ لتغلق على نفسها باب غرفتها وراحت، بعد قليل، تصيح بهما أن يذهبا إلى الحيّ للبحث عنّي، كانت في حاجةٍ ماسَّةٍ إلى التحدُّث معي.

سألتُ إنتسو

«هل تشاجرتما؟»

«لا».

«هل تأذّتْ في العمل؟ أجرحتْ يدها؟»

«لا يبدو لي ذلك، لا أدري».

قال لي باسكوالي:

«فلندع عنّا القلق الآن. أتراهنانني على أنَّ لينا ستهدأ حالما تراكِ؟ ما أسعد حظّنا لأنّنا عثرنا عليكِ، فأنتِ الآن بتِّ شخصيَّةً مهمَّة، ولديكِ الكثير من الانشغالات».

لم أنبس ببنت شَفة، ما جعله يؤكِّد كلامه باقتباسٍ من المقال القديم في جريدة «الاتِّحاد»، وراح إنتسو يومئ موافقًا، إذ قرأ المقال هو أيضًا.

«حتى ليلا قرأتْه»، قال.

«وما رأيُها؟»

«أسعدتْها صورتُكِ كثيرًا».

«لكنّهم»، تذمَّر باسكوالي، «تركوا بذلك انطباعًا بأنّكِ ما زلتِ طالبة. ينبغي لك أن تكتبي رسالةً إلى محرِّري الجريدة وتُعْلِميهم بأنَّكِ متخرِّجة».

ثم راح ينتقد المجال الذي تسمح به «الاتِّحاد» للطلبة. وافقه إنتسو في الرأي، ودخلا في نقاشٍ ليس مختلفًا عن ذاك الذي حضرتُه في ميلانو، سوى أنَّ التعابير كانت أكثر خشونةً. كان من الواضح أنَّ باسكوالي يحاول، بصورة خاصَّة، أن يدفعني إلى مواضيع من مستوى فتاةٍ، يُكتَب عنها في صحيفة «الاتِّحاد»، وتُنشَر صورتها أيضًا، مع أنّها لا تزال صديقةً لهم. ومن المحتمل أنَّهما خاضا في هذه النقاشات لتخفيف التوتُّر، عنِّي وعنهما

بقيتُ أصغي إليهما وسرعان ما لاحظتُ أنَّ علاقتهما رسخت بفضل الشغف السياسيّ تحديدًا كانا غالبًا ما يلتقيان بعد العمل، في اجتماعات حزبيَّة، أو في إحدى اللجان التي لا أعرف عنها شيئًا أصغيتُ إليهما، وشاركتهما في النقاش لطفًا، فردّا على تساؤلاتي، إلَّا أنّي لم أستطع أن أنزع من رأسي ليلا التي يستبدّ بها القلق، وهي التي لطالما كانت صلبةً صامدة. وشعرت حين وصلنا إلى سان جوفاني، بأنَّهما كانا فخورَين بي، ولاسيَّما باسكوالي الذي أبدى اهتمامه بأيّ كلمةٍ ألفظها، وما انفكّ ينظر إليَّ في المرآة العاكسة. ومع أنَّه حافظ على نبرته الواثقة في الكلام ـ إذ كان أمين سرّ مكتب الحزب الشيوعيّ في الحيّ ـ فإنَّه، في الحقيقة، كان يشعر بصواب موقفه السياسيّ بفضل موافقتي على ما يقول. حتى إنّه حين شعر بأنَّه مدعومٌ بقوّة، راح يشرح لي، بلهجةٍ متعَبةٍ نوعًا ما، أنّه كان منشغلًا مع إنتسو ورفاقٍ آخرين بصراعٍ حامي الوطيس «*داخل*» الحزب. قال باستياءٍ، وهو

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

يضرب دقَّة القيادة بكلتا يديه: يفضِّل هذا الحزب أن يبقى رهن إشارةٍ من ألدو مورو، كأيِّ كلبٍ مطيع، على أن يتجاهل التريُّث وينطلق نحو المواجهة.

«ما رأيكِ؟» سأل.

«هذه هي الحال»، قلتُ.

«أنت شاطرة»، أثنى عليّ بإجلال، بينما كنَّا نصعد السلالم المتَّسخة، «ولطالما كنتِ شاطرة. أليس كذلك يا إنتسو؟»

أومأ إنتسو بـ«نعم»، لكنِّي شعرتُ بأنَّ اضطرابه بشأن ليلا كان يستفحل به كلَّما صعدنا درجةً نحو البيت، كما كان يستفحل بي أيضًا؛ وبأنَّه كان يشعر بالذنب لأنَّه سها عنها في أثناء تلك الدردشة. فتح الباب، وقال بصوت عالٍ: لقد وصلنا وأشار لي نحو بابٍ، نصفه من زجاجٍ مصقول، يتراءى من خلاله نورٌ ذاوٍ. طرقتُ عليه بخفّةٍ، ودخلتُ.

٢٦

كانت ليلا مستلقيةً، بكامل ثيابها، في سرير قابلٍ للطيّ؛ وكان جينّارو نائمًا إلى جوارها. «ادخلي»، قالت لي، «كنت أعلم بأنّكِ ستأتين، أعطيني قبلة». قبّلتُ جبينها، وجلستُ على السرير الصغير الفارغ، والذي لا بدّ من أنَّه كان مخصَّصًا لطفلها. كم مضى من الوقت على آخر مرَّة تلاقينا فيها؟ وجدتُها آنئذٍ أكثر هُزلًا، ووجهها أكثر شحوبًا كانت عيناها محمرَّتين، وحوافُّ منخاريها متشقِّقةً، والجروحُ كثيرةً على يديها الطويلتين. تابعتْ من دون أيّ سكتةٍ تُذكَر، بصوت منخفض كي لا توقظ الطفل: رأيتكِ على صفحات الجرائد، كم تبدين جميلة، ما أحلى شعرك. أعرف كلّ شيءٍ عنكِ، أعرف أنّكِ ستتزوَّجين، وأنَّ خطيبكِ أستاذٌ جامعيٌّ، أحسنتِ، ستنتقلين إلى العيش في فلورنسا، اعذريني لأنّي أرسلتُ في طلبكِ في هذه الساعة، رأسي لا يساعدني، أشعر به ينسلخ مثل ورق الجدران، لحسن الحظّ أنَّكِ هنا.

«ما الذي يحدث؟» سألتها، ودنوتُ بيدي كي ألامس يدها.

مكتبة الرمحي أحمد telegram @ktabpdf

وكان ذلك السؤال وتلك الحركة كافيين. جحظت عيناها، ثم تحسَّستْ وأبعدت يدها بحدَّة.

«لستُ على ما يرام» قالت، «انتظري. إيّاكِ أن تفزعي. سأهدأ حالًا».

وهدأت. قالت ببطء، كأنَّها تهجّي كلماتها:

«قد أزعجكِ يا لينو، أطلب منكِ وعدًا، فأنا لا أثق إلّا بكِ: إن حدث لي مكروه، إن نُقلتُ إلى المستشفى، إن زجُّوا بي في المصحّ النفسيّ، إن لم يعثروا عليّ، فستتعهَّدين بأن تتكفَّلي بجينّارو، عليكِ أن تعتني به، عليه أن ينشأ في بيتكِ. إنتسو طيِّب القلب، وماهرٌ فيما يقوم به، وإنّي أثق به، لكنَّه غير قادر على منح الطفل ما في إمكانكِ أنتِ أن تمنحيه».

«لماذا تقولين هذا؟ ما بكِ؟ لن أفهم شيئًا ما لم تشرحي لي الوضع».

«عديني أوَّلًا».

«حسنًا».

اهتاجت ثانيةً، فأرعبتني.

«كلَّا إيّاكِ أن تقولي لي: حسنًا. عليكِ أن تقولي لي هنا، والآن، إنّك ستتكفّلين بأمر الطفل. وإن كنتِ في حاجةٍ إلى المال، فابحثي عن نينو، قولي له إنَّه لا بدّ من أن يساعدكِ. ولكنْ، عديني: *أنا من سيربّي الطفل*».

نظرتُ إليها بارتباك، ووعدتُها وعدتُها وبقيتُ أُصغي إليها طوال تلك الليلة.

٢٧

ربَّما تكون هذه آخِر مرَّةٍ أروي فيها عن ليلا بتفاصيل غزيرة. فقد أضحت أكثر غموضًا في ما بعد، على نحو سيُنقص حجم الموادّ التي تحت تصرُّفي. وهذا بسبب افتراق حياتي عن حياتها، هذا ذنب البُعاد. وعلى الرَّغم من أنّي انتقَّلتُ إلى العيش في مدنٍ عدّة، ولم نكن بالكاد نلتقي، وظلَّت هي تُخفي عنّي أخبارها كالعادة، بينما أجاهد في عدم السؤال عنها، فإنَّ ظلَّها ما انفكَّ يلسعني، يعذّبني، يملأني بالاعتزاز ثم يفرّغني، ويمنع عنّي راحة البال.

اليومَ وأنا أكتب، ما زلتُ أشعر بضرورة هذه اللَّسعة. أريد أن تكون موجودةً بين هذه الصفحات فعلًا، بل إنّي أكتب في سبيل ذلك. أريد منها أن تمحو، وأن تضيف، وأن تتعاون في نسج حكايتنا، وأن تسكب فيها من قريحتها كلَّ الأشياء التي تعرفها، والتي قالتها أو التي فكَّرت فيها على الأقلّ: اللحظة التي وجدت نفسها فيها قبالة جينو الفاشيّ؛ اللحظة التي قابلت فيها ناديا ابنة الأستاذة غالياني؛ اللحظة التي عادت فيها إلى ذلك البيت في شارع ڤيتوريو إيمانويلي، حيث

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

شعرتْ ـ منذ وقتٍ خلا ـ بأنَّها خارج السياق؛ اللحظة التي تأمَّلتْ فيها تجربتها الجنسيَّة بعين القسوة. سأفكِّر لاحقًا في مشاعر الارتباك، والآلام، والأشياء البسيطة التي تفوَّهتُ بها، بينما كنت أَصغي إلى حكايتها الطويلة؛ سأفكِّر في هذا لاحقًا

٢٨

حالما صارت «الساحرة الزرقاء» رمادًا منثورًا في نار الباحة، عادت ليلا إلى عملها لا أعلم كم أثَّر فيها لقاؤنا؛ شعرتْ بالتعاسة لأيَّام، بالتأكيد، لكنَّها لم تتجرَّأ على التساؤل عن السبب. كانت قد تعلَّمتْ أنَّ البحث عن الأسباب أمرٌ مضرٌّ، لذا انتظرت أن تصبح التعاسةُ كدرًا مبهمًا يُصيب المزاج، ثم تغدو حالةً من الكآبة، إلى أن تمسي ضِيقًا طبيعيًّا ويوميًّا: كالعناية بشؤون جينَّارو، وترتيبِ الأسِرَّة، والحفاظِ على نظافة البيت، وغسلِ ملابس الصغير وكيِّها، وثيابِ إنتسو، وثيابها، وتحضيرِ الغداء لثلاثتهم، ووضعِ الطفل عند الجارة مع ألف توصيةٍ وتوصية، والركضِ إلى المصنع لتذوق أنواع الشقاء والإجحاف، ثم العودةِ إلى البيت لتلتفت إلى ابنها وبقيَّة الصغار الذين يلعبون معه أيضًا، وإعدادِ العشاء، كي يأكل الثلاثة معًا ثانيةً، ثم تنوِّم جينّارو على السرير بينما ينظِّف إنتسو الطاولة ويغسل الأطباق، فتعود إلى المطبخ كي تساعده على الدراسة، الأمر الذي يتلهَّف إليه إنتسو كثيرًا، ويعزّ عليها أن تحرمه إيَّاه حتى لو كانت متعبة.

ماذا كانت ترى في إنستو؟ أعتقد أنَّها، في المحصِّلة، كانت ترى

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

فيه الشيءَ ذاته الذي أرادت أن تراه في ستيفانو، وفي نينو: وسيلة إلى النهوض بكلّ شيء ثانيةً بطريقةٍ حبَّذا لو كانت سليمة. ولكن، في حين سقط قناع المال وانكشف ستيفانو عن شخصيَّة مريعةٍ لا جوهر لها، وفي حين سقط قناع الذكاء واستحال نينو إلى دخانٍ أسود يسبِّب الآلام، ظلَّ إنتسو، إلى ذلك الحين، يبدو لها عاجزًا عن القيام بمفاجآت شنيعة. كان هو الصغير، الذي درس في الابتدائيَّة، والذي كانت تحترمه دومًا لأسباب غامضة؛ وكان عندئذٍ رجلًا متماسكًا وحازمًا بكلِّ خطوة، ذا عزيمةٍ إزاء ما يجري في العالم، وليِّنًا معها، إلى درجة أنَّها تستثنيه من أن يتحوَّل إلى مسخٍ على حين غرّة.

لم يتقاسما السرير نفسه طبعًا، لم تكن ليلا قادرة على ذلك. كان كلٌّ منهما يُغلق على نفسه في غرفته، وكانت هي تسمع حركاته من خلف الجدار حتى تتلاشى أيّ جلبةٍ يقوم بها، فلا تبقى إلَّا أصوات البيت، والبناية، والطريق. كان النعاس ينال منها بصعوبة بالغة، على الرَّغم من أنَّها متعبَة للغاية. في جنح الظلام، تمتزج كلّ أسباب التعاسة ـ لم تسمِّها، احترازًا ـ وتتركَّز على جينَّارو. كانت تتساءل: ما الذي سيصبح عليه هذا الطفل؟ كانت تفكِّر لا ينبغي لي أن أسمِّيه رينوتشو، فهكذا أرغمه على الانزلاق في اللهجة العامِّيَّة. كانت تفكِّر: عليّ أن أساعد الأولاد الذين يلعبون معه أيضًا، كي لا يفسده بقاؤه معهم. كانت تفكِّر ليس لديَّ وقت. أنا نفسي لم أعد كما كنتُ في الماضي. لم أعد أمسك القلم بيدي. لم أعد أقرأ أيّ كتاب.

كانت تشعر أحيانًا بثقلٍ على صدرها. كانت تتوجَّس، فتنتفض لإشعال الضوء في قلب الليل، تنظر إلى ابنها النائم. لم تكن تجد في تقاسيمه الكثير من نينو، بل كان يذكِّرها بشقيقها بالأحرى. كان يتبعها دومًا حين كان أصغر سنًّا، لكنَّه بات يملّ بسرعة، فيزعق طالبًا الذهاب

telegram @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

إلى اللعب، ويرميها بشتائم نابية. إنّي أكنّ له الكثير من المحبّة ـ كانت ليلا تحدِّث نفسها ـ ولكن، هل أحبّه هكذا كما هو؟ يا له من تساؤلٍ مقيت. كلَّما تمعَّنتْ في الطفل، ازدادت يقينًا بأنَّه لا ينشأ كما كانت تصبو، مع أنَّ الجارة تراه خارق الذكاء. كانت تشعر بأنَّ الأعوام التي كرَّستها مليًّا للعناية به، من دون سواه، ذهبت سدًى؛ فتستنتج زيف اعتقادها: تتعلَّق جودة الشخص بجودة مراحل تكوينه الأولى. ينبغي للمرء أن يتَّسم بالثبات، لكنّ جينّارو كان لا يمتّ إلى الثبات بِصلة، ثم إنَّها باتت تفتقد ثباتها هي أيضًا يتشتَّت رأسي باستمرار، تقول لنفسها، ثمَّة خللٌ في تكويني، وابني كذلك أيضًا. ثم ينتابها الخزي من هذه الخواطر، فتهمس في أذن الصغير الغافي: أنت شاطر، تعرف القراءة والكتابة وأنت في هذه السنّ، تعرف الجمع والطرح. أمّك غبيَّة، ولا يسعد قلبَها شيءٌ. ثم تقبِّل جبينه، وتطفئ الضوء.

إلَّا أنَّ النعاس لا يطرق بابها، وخصوصًا حين كان إنتسو يعود في ساعة متأخِّرة، ويُسرع إلى النوم ولا يدعوها إلى الدراسة. كانت ليلا، في هذه الحالة، تتصوَّر أنَّه التقى عاهرةً ما، أو ربَّما لديه عشيقة، إحدى العاملات في المصنع الذي يعمل فيه، أو ناشطة من تلك الخليَّة الشيوعيَّة التي انضمَّ إليها إنَّ الذكور هكذا، كانت تفكِّر، أولئك الذين عرفتُهم على الأقلّ: لا بدّ من أن يمارسوا الجنس باستمرار، وإلَّا قتلتْهم التعاسة. ولا أعتقد أنَّ إنتسو مختلفٌ عن الآخرين، ولماذا عليه أن يكون مختلفًا عنهم؟ ثم إنِّي صددتُ عنه، وتركتْه ينام في سريره بمفرده، فليس من حقِّي أن أتطلَّع إلى أيِّ شيء. كانت ليلا لا تخشى سوى أمرٍ واحدٍ: أن يقع في غرام إحداهنّ ويطردها من البيت. لم تكن تخاف أن تجد نفسها بلا مأوى، كانت

telegram @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

تشعر بالقوَّة لأنَّها تعمل في مصنع اللحوم، بل حتى إنَّها تشعر بقوَّة أكبر ممَّا كانت عليه في إبَّان زواجها بستيفانو، إذ كانت مقهورةً وخاضعةً لإرادته على الرَّغم من تمتُّعها بالأموال الفائضة تحت تصرُّفها إنَّما كانت تخشى أن تفقد شهامة إنتسو، والاهتمامَ الذي يُبديه في مواجهة كلّ مسبِّبات قلقها، وتلك القوّةَ الهادئة التي تنبعث منه، وقد استخدمها عندما أنقذها من غياب نينو أوَّلًا، ومن وجود ستيفانو لاحقًا ثم إنَّه كان الوحيد الذي يُغرقها بالامتنان، ويعزو إليها قدراتٍ هائلة، في ظرف حياتها الراهن آنذاك.

«هل تعلمين ما معنى هذا؟»

«لا».

«انظري جيّدًا».

«إنَّه مكتوب بالألمانيَّة، يا إنتسو، وأنا لا أعرف الألمانيَّة».

«لكنَّك، إن ركَّزتِ قليلًا، تفهمي المقصود»، يقول لها، ممازحًا من جهة، وجادًّا من جهةٍ أخرى.

إنتسو، الذي بذل جهودًا جبَّارةً للحصول على الشهادة، وقد أفلح في ذلك، كان يعتبر ليلا، التي توقَّفت عن الدراسة في الخامس الابتدائيّ، أكثرَ فطنةً وذكاءً منه، وينسِب إليها مَلَكَاتٍ عجائبيَّة تمكِّنها من الإلمام بأيِّ مادَّة بسرعةٍ فائقة. وبالفعل، ما إن اقتنع ـ وفقًا لمبادئ شحيحةٍ ـ بأنَّ لغويَّات برمجة الحواسيب الإلكترونيَّة لن ترسم مستقبل البشريَّة وحسب، بل سيكون للنخبة التي سبقتِ الجميع إلى إتقانها دورٌ بارزٌ في تاريخ العالم، اتَّجه إلى ليلا فورًا

«ساعديني».

«إنّي متعَبة».

«نحن نعيش حياة مقرفة يا لينا، وعلينا أن نغيِّر هذه الحال».

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

«بالنسبة إليّ، الأمور على ما يرام هكذا».

«الطفل يبقى مع غرباء طوال النهار».

«لم يعد طفلًا، ولا يمكن له أن يظلّ في العشّ».

«انظري ماذا فعلتِ بيديكِ».

«هاتان يداي، وأفعل بهما ما يحلو لي».

«أُريد أن أتقاضى راتبًا أعلى، من أجلك ومن أجل جينّارو».

«فكِّرْ في شؤونك، وأنا أفكِّر في شؤوني».

ردّات فعل غاضبة، كالعادة. كان إنتسو قد تسجَّل في دورةٍ خاصَّة ـ مكلفةٍ جدًّا بالنسبة إلى وضعه، يجريها مركزٌ دوليٌّ لبرمجة المعطيات عن بعد، ومقرّه في زوريخ: يرسل المركزُ الدروس بالبريد شهريًّا، ويستلم أوراق الامتحانات الفصليَّة، ثم يُعيدها إلى المرسِل مصحَّحة ـ وشيئًا فشيئًا جرّ ليلا إليها، وراحت تبذل قصارى جهدها لتتابع دراسته هذه. لكنَّها تعاملت بطريقةٍ مختلفة عن تلك التي عاملت بها نينو من قبل، حين أصرَّت على هوسها في إظهار إمكانيَّاتها على مساعدته في كلّ شيء. عندما كانت تدرس مع إنتسو، كانت مطمئنَّة إلى أنَّها لا تحاول أن تغلبه. فهو كان يرى في تلك الساعات المسائيَّة، التي يكرِّسانها لهذه الدروس، جهدًا كبيرًا، بينما تراها ليلا مهدِّئًا من التوتُّرات الأخرى. ولهذا السبب ربَّما، حين كان يعود متأخِّرًا، ويبدو أنَّه قادرٌ على الدراسة من دونها، لم يكن يغمض لها جفن، وينتابها التوتُّر، وهي تسمع صوت المياه تنساب في المرحاض، وتتخيَّل أنَّ إنتسو يطهِّر جسده من أيّ أثرٍ لملامسة عشيقاته.

٢٩

كان العمل المضني في المصنع ـ أدركتُ هذا الأمر حالًا ـ يدفع الناس إلى الرغبة الجنسيَّة، ليس في بيوتهم مع زوجاتهم أو أزواجهنّ، إذ يعودون منهكين ولا شهوة لديهم، بل هناك، في أثناء العمل، في الصباح أو بعد الظهر كان الرجال يمدُّون أياديهم في كلِّ مناسبة، ويُدلون باقتراحات من هذا القبيل ما إن يمرّوا إلى جانبكِ. والنساء، ولاسيّما المتقدِّمات في السنّ، كنَّ يضحكن، ويدعكن أثداءهنَّ الكبيرة، ويقعن في الغرام، فيصبح الحبّ ملهاةً تخفِّف عبء الشقاء والملل، ويمنح شعورًا بحياةٍ حقيقيَّة.

كان الذكور يحاولون تقليص المسافة مع ليلا، منذ أوَّل يوم جاءت فيه إلى العمل. وهي كانت تصدُّهم، فيضحكون أو يبتعدونَ وهم يدمدمون أغنياتٍ ملأى بتلميحاتٍ مشينة. وقررت بجزم، ذات صباح، أن تضع النقاط على الحروف، وكادت تقتلع أذن أحد العمَّال، الذي مرّ إلى جانبها، وقال لها جملةً ثقيلة وطبع قبلةً على عنقها كان الرجل فظًّا، ولا بأس في وسامته، يناهز الأربعين من عمره، ويُدعى إيدو، ويتَّخذ من الإغواء أسلوبًا إلى التحدُّث مع جميع الإناث. كما

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

كان بارعًا في قصّ النكات القذرة. أمسكت ليلا صيوان أذنه بيدها، وراحت تشدّه وتفركه بكلّ ما أوتيت من قوّة، وغرست أظفارها في الغشاء الطبليّ، من دون تراخٍ، على الرَّغم من أنَّ الرجل كان يصيح ويحاول صدَّ ركلاتها في الوقت ذاته. واتَّجهت بعد ذلك، غاضبةً إلى برونو سوكافو كي تحتجّ.

لم تَرَ برونو إلّا نادرًا. منذ أن عيَّنها في العمل تراه على عجلٍ، ومن دون أن تُعيره أدنى اهتمام. لكنَّها استطاعت في تلك اللحظة أن تتمعَّن فيه جيِّدًا. كان واقفًا على قدميه خلف المنضدة، إذ نهض متعمّدًا، كما يفعل السادة حين تدخل سيِّدةٌ مكاتبهم. تعجَّبت ليلا: كان منتفخ الوجه، وغائر العينين من شدَّة البدانة، ومكتنز الصدر، ومتأجِّج البشرة، كلون الصَّهارة الذي يتباين مع لون شعره قاتم السواد، ولمعان أسنانه البيضاء كأنياب الذئب. فتساءلت: ما الذي يربط هذا الرجل بالشابّ صديق نينو، الذي كان يدرس الحقوق؟ شعرتْ بأنَّه ما من رابطٍ بين زمان إيسكيا ومصنع اللحوم: يتمدَّد الفراغ، بين هاتين المرحلتين، ولا بدَّ من أنَّ برونو قد تشوَّه في أثناء تلك القفزة بين مرحلة وأخرى، وربَّما لأنَّه تحمَّل أعباء المؤسَّسة (الديون، كما روَّج بعضهم) على كاهله فجأة، بعد أن توعَّكت صحَّة والده مؤخَّرًا

كشفت له عن أسباب مجيئها، فأخذ يضحك.

«يا لينا» أنَّبها، «لقد أسديتُ إليك معروفًا، فلا يجدر بك أن تسبِّبي لي المشاكل. نحن هنا نشقى جميعًا، فلا ينبغي لكِ أن تُشهري سلاحك في وجه الجميع. الناس يودُّون الترويح عن أنفسهم أحيانًا، وإلَّا نغَّصوا عليَّ حياتي عند كلّ صغيرة وكبيرة».

«فلتروِّحوا عن أنفسكم فيما بينكم».

رمقها بنظرة مبتهجة:

«كنت أظنّ أنّك تحبِّين المزاح».

«يعجبني المزاح حين أقرِّر ذلك».

غيَّرت نبرتُها اللئيمة نبرتَه. فبات جادًّا، وقال لها من دون أن ينظر إليها لم تتغيَّري أبدًا، كم كنتِ جميلةً في إيسكيا ثم أشار إلى الباب، ونهرها انصرفي إلى عملكِ، هيّا

إلّا أنَّه منذ تلك اللحظة، كلَّما التقاها داخل المصنع، لم يدَّخر مناسبةً للتكلُّم معها أمام الجميع، وغمْرها بالتهاني الودِّيَّة. فأدّى رفع الكلفة بهذه الطريقة إلى تقوية وضعها في المصنع: كانت مدلَّلة عند الشابّ سوكافو، لذا من الأفضل أن يتركوها وشأنها. الأمر الذي حصل على البرهان حين جاءتها امرأة سمينة، تُدعى تيريزا، عصر يوم ما، بعد استراحة الغداء مباشرةً، اعترضتْ طريقها وقالت لها بنبرةٍ ساخرة: يرغبون فيك في قسم التعتيق. ذهبت ليلا إلى تلك الغرفة الضخمة حيث يجفِّفون اللحوم، كانت عبارةً عن مثلَّثٍ يغصّ باللحوم المعبَّأة بالأكياس المعلَّقة في السقف تحت إضاءة صفراء كئيبة. وجدت برونو هناك، يتظاهر بأنَّه في جولة تفقُّديَّة، لكنَّه في الحقيقة كان يرغب في الدردشة.

سألها عن أخبار بينوتشا، نسيبتها، بينما كان يتجوَّل في الغرفة، ويتلمَّس ويشمّ كأنَّه خبير، وقال ما أزعج ليلا، من دون أن ينظر نحوها، بل وهو يتفحَّص أحد المنتجات المقدَّدة: لم تكن راضيةً عن أخيكِ أبدًا، لقد أحبَّتني في ذلك الصيف، كما أحببتِ نينو. ثم قلَّب منتجًا آخر، وأضاف موليًا ظهره لها بفضلها عرفتُ كم تتوق النسوة الحوامل إلى ممارسة الحبّ. ثم توقَّف في وسط الغرفة، من دون أن يعطيها الوقت للتعليق أو الضحك أو الغضب، وقال إنَّه في قسم التجفيف هذا، خلافًا للمصنع كلّه الذي سبَّب له الغثيان منذ أن كان صغيرًا، لطالما حصل على ما يُرضي النفس، وما يمنح شعورًا بالوفرة، حيث يصل المنتج إلى مرحلة الإنجاز، والنقاء، وينتشر عبقه في المكان، ويصبح

جاهزًا للتصدير إلى الأسواق. «انظري ـ قال لها ـ، تلمَّسي، إنَّها قطعة متماسكة، صلبة، شمِّي عطرها الفوَّاح، كم يشبه رائحة العناق والوصال بين الذكر والأنثى، أيعجبكِ؟ لو تعلمين كم من الفتيات اختليتُ بهنّ في هذا المكان منذ أن كنت صغيرًا». وأمسك بخصرها حينئذٍ، وانزلقت شفتاه على عنقها الطويل، وشدَّ بيده الأخرى على مؤخِّرتها، بل كان يبدو أنَّ له ألف يد تدعك جسمها من فوق المئزر، ومن تحته، بسرعةٍ عصبيَّةٍ هوجاء، كانفجارٍ بلا متعة، وولعٍ محض بالتطفُّل.

أمَّا ليلا، وقد استحضرت ذاكرتُها عنفَ ستيفانو، بسبب كلّ شيء، بدءًا من روائح اللحوم، فقد شعرتْ برهةً بأنَّها عرضةً للسحق والتمزُّق، وخشيتْ أن تموت مقتولة. حتى إذا استفحل بها السخط، ضربت برونو على وجهه وما بين ساقيه، وصاحت به: يا لك من رجلٍ خرائيّ، ليس لديك أيّ شيء هنا في الأسفل، تعالَ وأخرِجْ قضيبك، إن كنتَ رجلًا، كي أسلخه أيُّها الأرعن.

ابتعد برونو عنها متراجعًا إلى الخلف. تلمَّس شفتيه الداميتين، وقهقه مضطربًا، ثم غمغم قائلًا: اعذريني، ظننتُ أنّكِ قد تُبدين عرفانًا على الأقلّ. فصرخت ليلا في وجهه: تقصد أنَّه يتوجَّب عليَّ دفع الثمن وإلَّا طردتني من العمل، أليس كذلك؟ ضحك مرَّة أخرى، وهزّ رأسه نافيًا لا، إن كنت لا ترغبين قُضي الأمر، كفى، لقد اعتذرتُ إليكِ، ماذا تريدين أكثر من ذلك؟ لكنّ ليلا فقدت صوابها، وبدأت حينذاك تشعر بآثار يديه على جسمها، وكانت تعرف أنَّ هذا الشعور سيمتدّ لوقت طويل، إذ لا تزول آثارٌ كهذه بالصابون. تراجعت نحو الباب وقالت له: حالفك الحظّ هذه المرَّة ونجوتَ، ولكن، سواء أطردتني أم لا، أقسم لك بأنَّك ستلعن اللحظة التي لمستني فيها وخرجتْ بينما ظلّ برونو يغمغم: ماذا فعلتُ لكِ، لم أفعل شيئًا، عودي إلى هنا، ليت كلّ المشاكل صغيرة هكذا، تعالي كي نتصالح.

عادت ليلا إلى مكانها كانت تعمل آنئذٍ بين الأبخرة المتصاعدة من الأحواض، بمثابة مُستخَدمةٍ من شأنها أن تحافظ على الأرض جافَّةً. عملٌ شاقّ لا جدوى منه. نظر إليها إيدو مستغربًا، الرجل الذي كادت تقتلع أذنه. كلّ العمَّال والعاملات كانوا يمعنون النظر إليها بينما عادت حانقةً من قسم التعتيق. لم تبادل نظراتِ أيٍّ منهم. أمسكتْ بإحدى الخِرَق، رمتها على البِلاط، وراحت تمسح الأرض المليئة بالطين، وهي تتكلَّم بصوت مرتفع، متوعّدةً: سنرى إن أراد ابن قحبة غيره أن يجرِّب معي. فالتفت زملاؤها كلٌّ إلى عمله.

انتظرت قرار الطرد لأيّام، لكنَّه لم يصل. وكلَّما صادفت برونو، كان يستقبلها بابتسامة لطيفة، فتردّ عليها بإيماءةٍ فاترة. لا عواقب لما وقع إذن، عدا اشمئزازها من تينك اليدين القصيرتين، المجبولتين على الحقد. ثم عاد مدراؤها فجأةً يعذِّبونها، بما أنَّها ما زالت تستخفّ بالجميع وتعاملهم بكبريائها المعهودة؛ فراحوا ينقلونها من وظيفة إلى أخرى باستمرار، ويُثقلون عليها المَهمّات حتى تذوي قواها، ويُسمِعونها بعض الألفاظ النابية، إشارةً إلى أنَّهم قد حصلوا على الإذن بفعل ذلك.

لم تروِ على مسامع إنتسو شيئًا عن أذن الرجل التي كادت تقتلعها، وعن تحرُّش برونو، وعن الإهانات والعذابات اليوميَّة. وإن حدث وسألها عن مجريات عملها في مصنع اللحوم، ردّت عليه بلهجةٍ ساخرة: ولماذا لا تُطلعني على المجريات حيث تعمل أنت؟ وبما أنَّه يلتزم الصمت، تمازحه ليلا ثم ينكبّان معًا على تمارين دورة زوريخ. كانا يلجآن إلى هذه التمارين لعدَّة أسباب، أهمَّها لتجنُّب التَسْاؤل عن المستقبل: ما الذي كان يعنيه أحدهما بالنسبة إلى الآخر، ولماذا يعيشان في بيتٍ واحد منذ مدّة طويلة؟ وكم انتظرها إنتسو أن تتهيَّأ له في كلّ ليلة، ولكن عبثًا، فيظلّ يتقلَّب في سريره، يُمنةً ويُسرةً، ثم يتَّجه

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

إلى المطبخ متذرِّعًا بشرب الماء، فيرمي نظرة إلى بابها الزجاجيّ، ويتحقَّق من أنَّها لم تطفئ الضوء بعد، ليسترق النظر إلى خيالها توتُّرٌ أبكم ـ هل أطرق الباب؟ هل أسمح له بالدخول؟ ـ ما بين هواجسه وشكوكها. وفي النهاية، آثرا تناسي الموضوع، وذلك بالتنافس في تمارين الرسم البيانيّ التخطيطيّ، كما لو كانت معدّاتٍ رياضيَّة.

«فلنجدول الباب حين يُفتَح»، كانت ليلا تقول.

«فلنجدول ربطة العنق وهي تُعقَد»، كان إنتسو يقول.

«فلنجدول شكلي وأنا أحزم حذاء جينّارو»، تقول ليلا

«فلنجدول تحضير القهوة بالآلة النابوليتانيَّة»، يقول إنتسو.

من الدروس البسيطة إلى أكثرها تعقيدًا، كانا يسرحان في رسم جداول بيانيَّة للحياة اليوميَّة، مع أنَّ اختبارات زوريخ لم تكن توجبها عليهما. وليس لأنّ إنتسو أراد ذلك، بل لأنَّ ليلا كالعادة، اشتعلت حماستها، في السرِّ، وازدادت تأجُّجًا من مساءٍ إلى آخر، وكانت حينذاك ـ على الرَّغم من برودة البيت في الليل ـ يتملّكها الشغف في تحويل العالم البائس بأسره، الذي يعيشان فيه، إلى حقيقة الصفر والواحد. كان يبدو أنَّها تصبو إلى تجريدٍ مستقيم ـ تجريدٍ يفرّخ بقيَّةَ التجريدات ـ وتأمل أن يؤمِّن لها هذا الشرودُ صفاءً مريحًا.

«فلنجدول. .» اقترحت عليه ذات مساء، «. المصنع».

«نجدول كلّ ما يجري في المصنع؟» سألها مذهولًا

«أجل».

نظر إليها، وقال لها:

«حسنًا، فلنبدأ من المصنع الذي تعملين فيه أنتِ».

كشَّرت ليلا مستاءةً، تمنَّت له ليلةً سعيدة وانصرفت إلى غرفتها

٣٠

تغيّرت هذه التوازنات، المختلَّة بما فيه الكفاية أصلًا، حين ظهر باسكوالي مجدّدًا. كان يعمل في ورشة بناء في المنطقة نفسها، وقد جاء إلى سان جوفاني آتيدوتشو ليحضر اجتماعًا في مكتب القسم المحليِّ للحزب الشيوعيّ. التقى إنتسو في الطريق، بالصدفة، وسرعان ما تأصَّلت صداقتهما القديمة ثانيةً، وانتهى بهما المطاف إلى الحديث في السياسة، وأعرب كلٌّ منهما عن الاستياء ذاته. في البدء، كان إنتسو يعبر عن موقفه بحذر، لكنَّ باسكوالي ـ للمفاجأة ـ وعلى الرَّغم من تولِّيه وظيفةً مهمَّة في الحيّ (أمين سرّ مكتب الحزب هناك)، لم يبالِ بالحذر، وشرع يهاجم الحزب، لأنَّه ينتهج سياسة إعادة النظر في المواقف. وأخذ ينتقد النقابة، لأنَّها غالبًا ما تبالغ في إغماض عينيها. أيَّد الرفيق رفيقه، حتى عادت ليلا ووجدت باسكوالي في المنزل ساعة العشاء، واضطرَّت إلى تدبير شيء ما له أيضًا.

بدأت السهرةُ عاثرةً. شعرت ليلا بأنَّها تحت المراقبة، وكابرت على كتم غضبها ما الذي يريده باسكوالي؟ هل ينوي التجسُّس عليها، لينقل مجريات حياتها إلى سكَّان الحيّ؟ بأيِّ حقٍّ جاء إلى هناك كي

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

يُقيِّم وضعها؟ لم يوجِّه إليها أيّ كلمةٍ تنمّ عن الصداقة. لم يُعلمها بأخبار أسرتها، أمِّها نونتسيا، وشقيقِها رينو، وأبيها فرناندو، إنّما كان يُمطرها بنظرات ذَكَرٍ، كنظرات الذكور في المصنع، نظراتٍ انتقاديَّة. وكلَّما انتبهتْ لذلك، أشاحت بعينيها إلى الجهة الأخرى. لا شكَّ في أنَّه كان يراها تصبح قبيحة، ولا بدّ من أنَّه كان يقول في سره: كم كنتُ مغفَّلًا في صباي حين أُغرمتُ بهذه الدميمة. ومن دون أدنى شكّ، كان يعتبرها أُمًّا فاشلة، إذ كان في مقدورها أن تربِّي ابنها على البحبوحة التي تؤمِّنها ملحمتا كارّاتشي، فإذا هي تجرّ الصغير إلى ذلك الضِّيق. في لحظة معيَّنة، تأفَّفت ليلا، وقالت لإنتسو نظِّف الطاولة أنت، سأخلد إلى النوم. لكنّ باسكوالي، للمفاجأة، استخدم نبرة المناسبات الكبرى، وقال لها، متأثِّرًا بعض الشيء: لينا، قبل أن تذهبي، عليّ أن أخبركِ بأمرٍ ما لا وجود لامرأةٍ مثلكِ، أنت تقذفين بنفسكِ في مجاهل الحياة بعزيمةٍ لو امتلكنا مثلها لتغيَّر العالم منذ وقتٍ طويل. وبعد أن حطَّم الجليد بهذه الطريقة، أخبرها بأن فرناندو عاد إلى تصليح الأحذية، وأنَّ رينو أصبح عبئًا ثقيلًا على كاهل ستيفانو، لا يكفّ عن تسوّل المال، وأنّ نونتسيا كانت متقوقعة على نفسها في المنزل، وقلّما تخرج. «لكنَّكِ خيرًا فعلتِ»، كرَّر ثناءه: لم يجرؤ أحدٌ في الحيِّ كلّه على تلقين آل كارّاتشي وآل سولارا درسًا قاسيًا كما فعلتِ أنت، وإنّي أصطفّ إلى جانبكِ.

بات يتردَّد إلى المنزل كثيرًا، بعد تلك الأمسية، وهذا ما أثَّر سلبًا في دروس دورة المراسلات. كان يصل في ساعة العشاء، محمَّلًا بأربع قطع بيتزا ساخنة، ثم يستعرض أداءه المعتاد لمن يعرف كلّ شيء عن آليَّة العالم الرأسماليّ والعالم المناهض للرأسماليَّة. تمتَّنت الصداقة القديمة. كان من الواضح أنَّه يعيش بلا ألفةٍ تحيط به، فأخته كارمن

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

كانت مرتبطة ولم يكن لديها كثيرٌ من الوقت لتلتفت إليه. لكنَّه يقاوم العزلة بنشاطاته السياسيَّة الطاحنة، التي تروق لليلا وتثير فضولها. وعلى الرَّغم من الإنهاك الذي يصيبه من العمل في ورشات البناء، فإنه كان يجد الطاقة ليهتمّ بأمور النقابة، ويتعمّد الذهاب ليطلي جدران القنصليَّة الأميركيَّة بالأحمر الفاقع، وكان في الخطوط الأولى حالما يشتبك رفاقه بالأيدي مع الفاشيِّين، ويشارك في جلسات «الطلبة العمّال»، ويتشاجر معهم باستمرار. هذا كي لا نتحدّث عن الحزب الشيوعيّ: كان يتوقّع أن يخسر منصبه كأمين سرِّ المكتب، بين لحظةٍ وأخرى، بسبب مواقفه الصريحة والمحرجة. وما إن يجالس إنتسو وليلا، حتى يطلق العنان لنفسه، مازجًا بين ضغائنه الشخصيَّة وأفكاره السياسيَّة. يقولون عنِّي «أنا» إنِّي عدوٌّ للحزب ـ كان يشتكي ـ يقولون عنِّي «أنا» إنّي أسبِّب الكثير من المشاكل، وإنّه ينبغي لي ضبط النفس. لكنَّهم «هم» أنفسهم من يدمِّرون الحزب. «هم» أنفسهم من يحوِّلونه إلى عجلةٍ في آلة النظام. «هم» أنفسهم من يجعلون محاربة الفاشيَّة مجرَّد دفاع عن مكتسبات الديموقراطيَّة. هل تعرفان مَن عُيِّن على رأس مكتب «الحركة الاجتماعيَّة اليمينيَّة» في الحيّ؟ جينو، ابن الصيدلانيّ، الخادم الأحمق لميكيلي سولارا وهل عليّ أن أحتمل أن يُبعَث الفاشيُّون في الحيِّ الذي أعيش فيه؟ لقد منح والدي نفسه ـ يقول متأثِّرًا ـ جسدًا وروحًا للحزب، ولماذا، من أجل هذه المقاومة الخجولة للفاشيَّة؛ من أجل هذا الخراء الذي فاض في أيّامنا هذه؟ حين دخل ذاك الرجل المسكين السجن، وهو بريء، بريء، بريء ـ كان يغضب، ليس والده بقاتل الدون آخيل ـ تخلَّى عنه الحزب، علمًا بأنَّه كان رفيقًا عظيمًا؛ علمًا بأنَّه شارك في أحداث «الأيّام الأربعة» وناضل عند «جسر الشفاء»؛ علمًا بأنَّه بعد الحرب صرَّح

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

بانتمائه إلى الحزب جهرًا أكثر من أيّ أحد آخر في الحيّ. وماذا عن جوزيبّينا، والدته؟ هل ساعدها أحدٌ منهم؟ كان باسكوالي حين يذكر أمّه، يضع جينّارو في حضنه ويسأله: أرأيتَ كم أن والدتك جميلة، هل تحبّها؟

كانت ليلا تُصغي إليه. ويخطر في بالها أحيانًا أنَّه كان عليها أن توافق على ذلك الفتى، أوّل الشبَّان الذين انتبهوا إليها، لا أن تضع ستيفانو وأمواله غايةً لها، ولا أن تقع في مغبّات نينو. كان عليها أن تبقى في مكانها، من دون أن تشطح في كبريائها، ليهدأ رأسها لكنّها، في أحيانٍ أخرى، بسبب شكاوى باسكوالي، كانت تشعر بأنَّها عادت أسيرةً لطفولتها، وضراوة الحيّ، والدون آخيل، ومقتله الذي باتت تشعر كأنَّها شهدته، لكثرة ما روته في صغرها، وأغنته بالتفاصيل التي ابتكرتها وهكذا، يعود إلى ذهنها مشهدُ اعتقال والد باسكوالي: كم صاح ذلك النجَّار حينها، وكم صاحت زوجته وابنتهما كارمن، وكم أحزنها المشهد. راحت الذكريات الحقيقيَّة تمتزج بتلك الزائفة، فيتراءى لها العنف وسفك الدماء. حتى تجفل مرتعدةً، وتحاول الإفلات من فيضان مواجع باسكوالي، والتهدئة من روعه، فتدفعه إلى تذكُّر بعض الأشياء، كأعياد الميلاد والفصح مع الأسرة، والوجبات الشهيَّة التي كانت تعدّها والدته جوزيبّينا ولا بدّ من أنَّه فطن إلى هذه النقطة فورًا، وربَّما فكَّر في أنَّ ليلا تفتقد المودَّة العائليَّة، كما يفتقدها هو. وهكذا، وصل ذات مرَّة من دون سابق إنذار، وقال لها بكلٍّ سعادة: انظري بمن أتيتكِ. لقد أتى لها بأمِّها نونتسيا.

عانقت البنت أمّها، وانطوت نونتسيا على نحيب طويل، وأهدت جينّارو دميةً بينوكيو قماشيَّة. ولكن، ما إن حاولت انتقاد خيارات ابنتها، حتّى قالت لها ليلا، بعد أن أظهرت كامل فرحتها بلقائها:

أمّاه، إمّا أن نتظاهر بأنَّ شيئًا لم يحدث، وإمّا من الأفضل أن تنصرفي. امتعضت نونتسيا، وراحت تلاعب الصغير، وتقول، كأنَّها تخاطب الطفل: عندما تذهب والدتك للعمل، لمن تتركك أيُّها الطفل المسكين؟ أدرك باسكوالي حينها أنَّه أخطأ، فقال إنَّ الوقت تأخَّر، وعليهما المغادرة. نهضت نونتسيا وتوجَّهت إلى ابنتها، تتوعَّدها من جهة وتتوسَّل إليها من جهة أخرى. أنتِ ـ احتجَّت ـ في البدء رفعتِ من شأننا لنعيش كالسادة ثم دمَّرتِ حياتنا: شقيقكِ شعر بأنَّه منسيّ ولم يعد يودّ رؤيتك، ووالدك مَحاكِ من رأسه وذاكرته؛ لينا أرجوكِ، لا أطلب منكِ أن تتصالحي مع زوجكِ، فهذا غير ممكن، لكنَّك تستطيعين توضيح الأمور مع الأخوين سولارا على الأقلّ، فقد استحوذ هذان بسببكِ على كلّ شيء. ورينو وأبوكِ، وكل عائلة شيرولُّو، ونحن، عدنا نكراتٍ كما كنّا

ظلَّت ليلا تنصت إليها ثم راحت تدفعها برفقٍ إلى الخارج وتقول لها أمّاه، من الأفضل ألَّا تعودي إلى هنا أبدًا وصرخت بالجملة نفسها في وجه باسكوالي.

٣١

تهافتت عليها المشاكل كثيرة دفعةً واحدة: كانت تلقي باللائمة على نفسها في ما يتعلَّق بجينّارو، وما يتعلَّق بإنتسو، وظروفِ العمل القاسية، بما فيها الساعاتُ الإضافيَّة المتعِبة، وقذارات برونو، وأسرتها التي كانت تريد أن تثقل على كاهلها من جديد، وحضور باسكوالي الذي كان من غير المجدي تجاهله. لم يكن باسكوالي يتضايق أبدًا، كان يظهر فجأة ليبثّ البهجة، فتارةً يدفع بليلا وابنها وإنتسو إلى مطعم البيتزا، وتارة أخرى يصطحبهم بالسيّارة إلى أجيرولا عسى أن تنفرج أسارير الصغير زِدْ على ذلك أنَّه كان يحاول أن يُقحمها في أنشطته. أقنعها بالانتساب إلى نقابة العمَّال، مع أنَّها لم تكن راغبةً؛ وما أقدمتْ على هذه الخطوة إلَّا لتحرج سوكافو، الذي لم يكن ليرى الأمر بعين الارتياح. حمل إليها باسكوالي نشراتٍ من شتَّى الأنواع، نشراتٍ في غاية الوضوح وشديدة الجوهريَّة، تتناول مواضيع مثل كشوف الرواتب، والمباحثات بشأن عقود العمل، وتوحيد أجور العمّال في أرجاء البلاد، متيقِّنًا من أنّ ليلا ستقرأها عاجلًا أم آجلًا، وهو الذي بالكاد تصفَّحها. دفعها ذات مرَّة، بصحبة إنتسو والطفل، إلى ريڤييرا دي

مكتبة الرمحي أحمد telegram @ktabpdf

كيايا، حيث تجمَّعت الحشود في مسيرةٍ من أجل السلام في فيتنام، وسرعان ما انقلبت إلى اشتباكات متوتِّرة: تراشقٍ بالحجارة؛ تحريضٍ من قِبل الفاشيّين؛ تعبئةٍ من قِبل رجال الشرطة. وباسكوالي يكيل اللكمات هنا وهناك، وليلا تزعق بالشتائم، وإنتسو يلعن الساعة التي قرَّروا فيها اصطحاب جينّارو إلى خضمّ هذه البلبلة.

إلّا أنَّ هناك أمرين، على وجه الخصوص، وقعا في تلك الفترة، واعتبرتهما ليلا في غاية الأهمِّيَّة. أصرَّ عليها باسكوالي كثيرًا ذات مرَّة، من أجل حضور اجتماعٍ ستداخل فيه رفيقةٌ عظيمة. قبلت ليلا الدعوة، يبتزّها الفضول. لكنَّها لم تعر كثيرًا من انتباهها للتقرير ـ خطابٍ عامّ عن الحزب والطبقة العاملة ـ لأنَّ الرفيقة العظيمة وصلت متأخِّرة. وحين بدأ الاجتماع أخيرًا، راح جينّارو يتململ، فأُرغمت على الانشغال به، وأخذت تخرج به إلى الطريق كي تلاعبه تارةً، ثم تعود به إلى الداخل تارةً أخرى، فتخرج به ثانيةً وهكذا دواليك. وعلى الرَّغم من هذا، اكتفت بإصغائها إلى القليل كي تعي مهابة تلك المرأة، وتميُّزها في كلِّ شيء عن الجماهير الكادحة والمتحدِّرين من البرجوازيَّة الصغيرة، الموجودين هناك. لذا، حين لاحظت أنَّ باسكوالي وإنتسو وآخرين لم يكونوا راضين عمّا كانت تقوله المتحدِّثة، فكّرتْ في أنَّهم مخطئون، وعليهم أن يبرزوا امتنانهم لهذه السيِّدة المثقَّفة التي جاءت لتخسر وقتها الثمين مع هؤلاء. وفي حين تقدَّم باسكوالي بمداخلته الجدليَّة، إلى درجة أنَّ الرفيقة المنتدبة غضبت وصرخت بانفعالٍ وصوت متشرِّخ: «كفى، سأنهض الآن وأنصرف حالّا»، أُعجبت ليلا بردَّة الفعل تلك، وشعرت بأنَّها تقف إلى جانبها. إلّا أنَّ مشاعرها المتضاربة اختلطت في ذهنها، كالعادة. حينما صرخ إنتسو، دعمًا لموقف باسكوالي: «أنتِ يا رفيقة، «من دوننا» ليس لكِ وجود حتى،

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

لذا عليكِ أن تبقي هنا قدْر ما نريد «نحن»، وتنصرفين ساعةَ نأذن لك «نحن»». غيّرت ليلا رأيها، وانقلبت فجأةً لتؤيِّد سطوة تلك الكلمة: «نحن»، وبدا لها أنّ تلك المرأة تستحقّ ما تعرَّضت له. عادت إلى البيت غاضبةً من ابنها الذي أفسد عليها السهرة.

وكان هناك اجتماع آخر، أكثر غليانًا، عقدته الهيئة العامَّة، وقد أدخل باسكوالي نفسه فيه، وهو المولَع بهذه الالتزامات. لكنّ ليلا ذهبت إلى الاجتماع، ليس تلبيةً لدعوة باسكوالي الذي يعوِّل على حضورها كثيرًا فحسب، بل لأنَّ هواجسه التي تدفعه إلى البحث والفهم بدت لها مثمرة. كانت الهيئة تجتمع في نابولي، في بيت قديم يقع في شارع المحاكم. وصلوا إلى هناك ذات مساء بسيَّارة باسكوالي، وتسلَّقوا سلالم بالية في بناية تُعتبر أثريَّة. كان المكان واسعًا، والحضور قلَّة. أدركت ليلا سهولة التمييز بين وجوه الطلبة ووجوه العمَّال، وبين طلاقة المدراء وتلعثم التابعين. وسرعان ما أثار شيءٌ ما حفيظتها. كان الطلبة يُلقون خطاباتٍ بدت لها في قمَّة النفاق، كانت تعابير وجوههم مشوبةً بالمذلَّة، تفرقع بها عباراتهم المطروقة. إضافةً إلى أنَّ ختام كلامهم كان يتكرَّر دومًا: لقد جئنا إلى هنا كي نتعلَّم منكم، يقصدون العمّال. لكنّهم في الحقيقة يتفاخرون بأفكار بديهيَّة جدًّا عن رأس المال، والاستغلال، وغدر أحزاب يمين الوسط، وطرائق نضال الطبقة العاملة. ثم إنّها اكتشفتْ أنّ الفتيات، وهنّ قليلاتُ العدد، وصامتاتٌ معظم الوقت، كنّ يهذرن متغنِّجاتٍ مع إنتسو وباسكوالي. وباسكوالي، بصورة خاصّةٍ، شديد الميول إلى المخالطة، وكان محور استلطاف كبير وكانوا يعتبرونه عاملًا آثر أن يحمل تجربته البروليتاريَّة إلى ذلك الوسط الثوريّ، على الرَّغم من أنّ بطاقة الحزب الشيوعيّ في جيبه، وعلى الرَّغم من أنَّه يُدير مكتب الحزب في الحيّ.

وما إن حان دوره، ودور إنستو أيضًا، في الكلام، حتى أظهر الطلبة كامل موافقتهم، بينما كانوا يتشاجرون في ما بينهم قبل قليل. كانت كلمات إنتسو، كالعادة، مقتضبة ومكثَّفة. أمَّا باسكوالي، فأسهب في الحديث، بأسلوب سلس لا ينضب، يتراوح بين العاميَّة والفصحى، عن التطوُّرات التي يشهدها العمل السياسيّ في ورش البناء في الضاحية، ورمى بعض سهامه اللاذعة نحو الطلبة، لقلّة نشاطهم. ونادى على ليلا، في النهاية، ومن دون مقدِّمات. قدَّمها بالاسم والكنية، ووصفها بالرفيقة العاملة، إذ تعمل في مصنعٍ غذائيّ صغير، وأثنى عليها كثيرًا.

قطَّبت ليلا جبينها، وزمَّت عينيها، لم يعجبها أن ينظر إليها جميع الحاضرين كما لو كانت حيوانًا نادرًا لكنَّها غضبت أكثر حينما أعقبتْ باسكوالي فتاةٌ ما، وكانت أوَّل فتاةٍ تُلقي كلمتها. غضبت منها لأنَّها كانت تعبِّر عن رأيها كأنَّها كتابٌ مطبوع، ثانيًا لأنَّها أشارت إليها غير مرَّة وأسمتها بالرفيقة شيرولُّو، وثالثًا لأنَّها كانت تعرفها مسبقًا: إنّها ناديا، ابنة الأستاذة غالياني، عشيقة نينو والتي كانت تبعث إليه رسائل الغرام إلى إيسكيا

خشيت ليلا بادئ الأمر أن تكون ناديا قد عرفتها، لكنَّها لم تُظهِر أيّ دليل على ذلك، على الرَّغم من أنَّها كانت تنظر إليها مرارًا في أثناء خطابها ثم لماذا قد تتذكَّرها؟ من يدري عدد حفلات الأثرياء التي شاركت فيها ناديا، وكم من حشود تلك الظلال استقرَّ في ذاكرتها؟ أمَّا ليلا، فلم تكن قد سنحت لها سوى تلك المناسبة منذ سنوات مضت، فنُقشِت في ذهنها كانت تذكر البيت في شارع فيتوريو إيمانويلي بدقّة؛ تذكر نينو وجميع أولئك الشبَّان المتحدِّرين من أُسرٍ مرموقة؛ تذكر الكتب واللوحات؛ تذكر تلك التجربة على أنَّها سيِّئة

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

جدًّا؛ تذكر المرارة التي اكتسحتها آنئذٍ. لم تحتمل الأمر، فنهضت قبل أن تنتهي ناديا من الكلام، وذهبت لتنزِّه جيّنارو، تكبت في صدرها قوّةً شرِّيرةً، تتخبَّط في بطنها إذ لم تجد منفذًا مناسبًا

لكنَّها عادت إلى المكان بعد قليل، وقد عقدت العزم على أن تقول كلمتها، كي لا تشعر بأنَّها أقلّ شأنًا. كان ثمَّة شابٌّ مجعَّد الشعر يتكلَّم بكفاءة عالية عن «إيتالسايدر»/ «شركة إنتاج الحديد الصلب»، وعن شروط الأَجر المقطوع. انتظرت ليلا أن يفرغ الشابّ من كلمته، وطلبت المشاركة، متجاهلةً نظرةً مرتبكة من إنتسو. تحدَّثت طويلًا، بالإيطاليَّة الفصحى، بينما كان جينّارو يتحيَّر بين ذراعيها استهلَّت كلامها بصوت منخفض، ثم رفعت نبرتها وسط الصمت العامّ الذي ساد القاعة. قالت باستخفافٍ إنّها لا تعرف شيئًا عن الطبقة العاملة، ولا تعرف سوى العاملات والعمَّال في المصنع الذي تشقى فيه، وهم أُناس لا يمكنكِ أن تتعلَّمي منهم شيئًا عدا البؤس الحقيقيّ. «هل تتخيَّلون ـ سألتْ ـ ما يعني أن تمضوا ثماني ساعات في اليوم وأنتم غارقون حتى أحزمتكم بمياه طهو المرتديلا؟ أتتخيَّلون ما يعني أن تُصاب أصابعكم بجروح وندوب لكثرة ما تجزُّون عظام الحيوانات؟ هل تتخيَّلون ما معنى أن تدخلوا الحاويات المجمَّدة بعشرين درجة تحت الصفر، وتخرجوا منها، لتحصلوا على عشر ليرات إضافيَّة في الساعة ـ عشر ليرات فقط ـ تعويضًا عن البرد؟ إن كان في وسعكم أن تتخيَّلوا هذا كلَّه فما الذي تتوقَّعون أن تتعلَّموه من أناسٍ مرغَمين على العيش بهذه الطريقة؟ تضطرّ العاملات إلى السماح للمدراء والزملاء بأن يطبطبوا على مؤخِّراتهنّ، من دون أيّ اعتراض. وإن أحسّ صاحب العمل بدافعٍ كهذا، فعلى إحداهنّ أن تتبعه إلى قسم التعتيق، الأمر الذي كان والده يفعله من قبل، وربَّما جدّه أيضًا، وهناك، قبل أن

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

ينقضّ عليكِ، هو نفسه، يتحفكِ بخطبةٍ عصماء يصف فيها كيف تهيّج روائحُ اللحوم المقدَّدة شهوتَه. يخضع الرجال والنساء لتفتيشٍ جسديّ، هناك شيء عند المخرج يُسمّى «الجزئيّ»، فإذا أضاء اللون الأحمر بدلًا عن الأخضر، فهذا يعني أنَّك اختلست السالامي والمرتديلا والحارس هو الذي يتحكّم في «الجزئيّ»، وهو جاسوس لصاحب المصنع، فيضيء الأحمر عمدًا، ليس لشكّ منه في سرقةٍ ما، بل لتأديب الفتيات الجميلات العنيدات، والعمّال المشاكسين. هذه هي الحال في المصنع الذي أعمل فيه. لم تدخله النقابة أبدًا، والعمَّال فيه ليسوا سوى أُناسٍ فقراء يرزحون تحت الابتزاز، خاضعين لقوانين صاحب المصنع، أي: أنا أدفع لك أجرك، إذن أنا أملك أمرك، وأتحكَّم في حياتك، وحياة عائلتك وكلّ من يحيط بك، فنفِّذْ ما أُمْليه عليك، وإلَّا سحقتُك».

لم ينبس أحد منهم بكلمة في البدء، ثم تلتها مداخلاتٌ أخرى، أشار فيها الجميع إلى ليلا بإخلاص شديد. وفي النهاية، اتَّجهت إليها ناديا وعانقتها، وأمطرتها بالتهاني: ما أجملكِ، كم أنت شاطرة، كم تتحدَّثين بطلاقة. شكرتها وقالت لها بجدِّيَّة: لقد جعلتِنا ندرك أنّنا لم ننجز إلّا القليل حتى الآن. وعلى الرَّغم من نبرتها الرفيعة، والسامية نوعًا ما، فإن ليلا رأتها أكثر صبيانيَّة ممّا كانت تذكره عنها، حين رأتها مع نينو، في تلك السهرة منذ أعوام خلت. ماذا كانت تفعله مع ابن سارّاتوري، أكانا يرقصان، يثرثران، يتعانقان، يتلاثمان؟ لم تعد تذكر كان للفتاة بهاءٌ لا يُنسى، هذا أكيد. وحينذاك، عندما كانت تراها عن قرب، بدت لها أكثر نظافةً من ذلك الوقت، وأكثر رهافةً وغيريَّة بالفطرة لمشاركة الآخرين في همومهم، ويبدو أنَّها تشعر بعذاب مآسيهم في جسمها إلى حدٍّ لا يُطاق.

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

«هلّا عدتِ؟»

«لديّ طفل».

«عليك أن تعودي، فنحن في حاجةٍ إليكِ».

غير أنّ ليلا هزّت رأسها باستياء، وكرّرت لناديا لديّ طفل. وأشارت إليه بحركةٍ من يدها، وقالت لجينّارو سلّم على الآنسة، وقل لها إنَّك تتقن القراءة والكتابة، أسمعْها كيف تتحدَّث جيِّدًا وبما أنَّ جينّارو أخفى وجهه خلف عنق أمّه، وبما أنَّ ناديا ابتسمت له لكنَّها بدت أنَّها لم تنتبه لوجوده، قالت لها مرَّة أخرى: لديّ الطفل، أعمل ثماني ساعات في اليوم، عدا الساعات الإضافيَّة، وكلّ مَن يجد نفسه في حالٍ كحالي لا يرغب إلّا في أن يأتي المساء كي ينعم بالنوم. ثم ذهبتْ بعيدًا، بأعصاب متوترة. تولَّد لديها انطباعٌ بأنَّها باحت بالكثير لأشخاص، طيّبين لا ريب في هذا، لكنّهم ـ على الرَّغم من أنَّهم فهموا كلّ شيء بالمجرّد ـ لن يستطيعوا أن يفهموها بالمعنى الملموس. أنا أعرف ـ بقيت هذه الكلمات في رأسها من دون أن تتحوَّل إلى صوت ـ أنا أعرف ماذا تعني الحياة الرغيدة الملأى بالغايات الحميدة، بينما أنتِ لا يمكنكِ حتى أن تتخيّلي البؤس الحقيقيّ.

ازداد استياؤها حالما خرجت إلى الشارع. شعرت بأنّ باسكوالي وإنتسو عابسان، بينما كانوا متوجِّهين نحو السيّارة، ففهمتْ أنّ مداخلتها جرحتهما أمسك باسكوالي ذراعها برفقٍ، متجاوزًا تلك المسافة الجسديَّة التي لم يجرِّب أن يتجاوزها أبدًا قبل تلك اللحظة، وسألها:

«هل تعملين في هذه الظروف حقًّا؟»

أزعجتها قبضته، فسحبت ذراعها، وانتفضت:

«وأنت كيف تعمل؟ أنتما الاثنان كيف تعملان؟»

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

لم يُجيبا كان عملهما قاسيًا، هذا معروف. ولا شكّ في أنّ إنتسو على الأقلّ، توجد في المصنع، تحت عينيه، بعضُ العاملات المرهَقات من الكدّ والمذلَّة والالتزامات المنزليَّة، مثل ليلا ومع هذا، كان كلاهما حينذاك حانقًا على الأوضاع التي تعمل فيها «هي»، وليس في مقدورهما التساهلُ في الأمر. يجب إخفاء كلّ شيء عن الرجال. يفضّلون عدم معرفة كيف تجري الأمور، ويقنعون أنفسهم بأنَّ ما يحدث من ابتزاز من صاحب العمل، لا ينال ـ لحسن الحظّ ـ من المرأة التي يودُّونها، والملتزمين بحمايتها حتى لو كلَّفهم الثمن حياتهم. هذه هي الفكرة التي نشأوا عليها وإزاء ذلك الصمت، انفجر غضب ليلا

«فلتغرقا في الخراء» قالت، «أنتما والطبقة العاملة أيضًا».

ركبوا السيّارة، تبادلوا جملًا عامَّة طوال المشوار إلى سان جوفاني آتيدوتشو. لكنّ باسكوالي، حين تركهما عند باب البناية، قال لها بجدِّيَّة: «ليس في إمكاننا فعل شيء، لطالما كنتِ الأذكى». ثم انطلق صوب الحيّ. أمّا إنتسو، فغمغم حانقًا، وهو يحمل الصغير الغافي بين ذراعيه:

«لماذا لم تخبريني بأيِّ شيء؟ هل تحرَّش أحدٌ بكِ في المصنع؟»

كانا متعَبين، فأرادت أن تطمئنه. قالت له:

«لا يجرؤون على التحرّش بي»

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

٣٢

بدأت المصائب بعد أيّام قليلة. وصلت ليلا إلى العمل صباحًا، مهمومةً من كثرة الالتزامات، ولم تكن مهيَّأة نفسيًّا لِما هو آتٍ. كان الطقس شديد البرودة، وقد داهمها السعال منذ بضعة أيَّام، وتشعر بأنَّها مقبلة على الإنفلونزا صادفت صبيَّين عند مدخل المصنع، بدا أنَّهما قرَّرا التغيّب عن المدرسة. سلَّم عليها أحدهما بثقة عالية، ولم يعطها منشورًا كما يحدث أحيانًا، بل كُتَيِّبًا منسوخًا يحوي عددًا أكبر من الصفحات. أجابت على التحيَّة بنظرةٍ متردِّدة. لقد رأت ذلك الفتى في اجتماع الهيئة في شارع المحاكم. أدخلت الكُتَيِّب في جيب معطفها ومرَّت بجانب فيليبو، الحارس، من دون أن تشرِّفه بنظرة، حتى إنَّه صرخ بها أوصيكِ بهذا، ها، لا نتبادل صباح الخير أبدًا

عملت بدأب كالعادة ـ في تلك الفترة، كانت تعمل في قسم التقطيع ـ ونسيت أمر الفتى. وفي ساعة الغداء، ذهبت إلى الباحة، حاملةً معها القصعة، تبحث عن زاوية مشمسة كي تتناول طعامها. لكنّ فيليبو ترك ركن الحراسة حالما رآها واتَّجه إليها. كان رجلًا في الخمسينيَّات من عمره، قصير القامة، مكتنز البدن، يميل إلى استخدام

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

أكثر العبارات شناعة، لكنَّه في الآونة الأخيرة كان يتصنَّع نبرةً عاطفيَّة لزجة أيضًا لقد وُلد ابنه السادس مؤخّرًا، فبات سريع التأثُّر عاطفيًّا، يُخرِج محفظته ويُرغم الجميع على رؤية صورة ابنه. ظنَّت ليلا أنَّه أراد أن يُريها الصورة، لكنّه جاء لشأنٍ آخر. أخرج الكُتَيِّب المنسوخ من جبّه الثقيل، وقال لها بلهجةٍ عدائيَّة:

«شيرولُّو، اسمعي جيّدًا ما سأقوله لك: إن كنتِ أنتِ من تفوَّه بهذه الكلمات المكتوبة هنا لأولئك السفلة، فقد أدخلتِ نفسك في ورطة كبيرة، أتعلمين ذلك؟»

أجابته بفتور:

«لا أعلم عن أيّ هراءٍ تتحدّث، دعني أكمل طعامي».

رمى فيليبو الكُتَيِّب في وجهها غاضبًا، وفرّغ ما كان يكبته:

«لا تعلمين، ها؟ اقرئي إذن. نحن هنا في هذا المصنع لطالما كنَّا أصدقاء متحابِّين، وليس إلَّا لقحبة مثلكِ أن تروِّج هذه الأباطيل في كلِّ مكان. أنا أشعل الجزئيّ كما يحلو لي؟ أنا أمدُّ يديّ على الإناث؟ كيف، وأنا ربّ أسرة؟ انظري، إمَّا أن يجعلكِ برونو تدفعين الثمن، غاليًا، وإمّا وحقّ الربّ هشَّمتُ وجهكِ بيديّ هاتين».

أولى لها ظهره وعاد إلى ركن الحراسة.

أنهت ليلا طعامها بهدوء، ثم لملمت أوراق الكُتَيِّب.

كان العنوان فخمًا «تحقيق بشأن ظروف العمّال في ناپولي وضواحيها». قلَّبت الصفحات، فوجدت بينها صفحة كاملة مخصَّصة لمصنع اللحوم لصاحبه سوكافو. وقرأتْ ما قالته كلمةً كلمة في الاجتماع في شارع المحاكم.

تصرَّفتْ كأنَّ شيئًا لم يحدث. تركت الكُتَيِّب أرضًا، ودخلت ثانيةً من دون أن تنظر إلى ركن الحراسة، وعادت إلى العمل. لكنَّها كانت

مكتبة الرمحي أحمد telegram @ktabpdf

تغلي غاضبةً ممَّن زجَّها في هذا المأزق من دون حتى أن يحذرها ناديا على وجه التحديد، القدِّيسة المتصابية؛ ومَن غيرها ليكتب هذا المقال، بكلِّ ذلك التكلُّف المفرط في عاطفيَّته. وبينما كانت تقطع اللحوم الباردة بالسكِّين، والروائح تسبِّب لها الغثيان، والنقمة تستفحل في صدرها، شعرتْ بغيظ زملائها يتزايد حولها، ذكورًا وإناثًا. كان يعرف بعضُهم بعضًا منذ زمن طويل، ويعلمون بأنَّهم ضحايا ومتسترِّون، ولم يكن لديهم أدنى شكّ فيمن تجسَّس عليهم: هي، الوحيدة التي تصرَّفت منذ البدء على أنّ ضرورة العمل لا تتوافق مع ضرورة التذلُّل.

جاء برونو في الظهيرة، وسرعان ما أرسل في طلبها كان وجهه محمرًّا أكثر من المعتاد، ويحمل في يده الكُتيِّب.

«هل أنتِ من فعلها؟»

«لا».

«قولي الحقيقة يا لينا يوجد في الخارج الكثير ممَّن يسعون إلى خلق الفوضى، هل انضممتِ إليهم؟»

«قلتُ لا».

«لا، حقًّا؟ لكنّ في هذا المصنع لا يوجد بين العمَّال من لديه القدرة والجرأة على ابتداع هذه الأكاذيب».

«ربَّما كان أحد الموظَّفين»

«من المستحيل أن يكون أحد الموظَّفين».

«فماذا تريد منّي إذن؟ العصافير لا تكفّ عن الزقزقة. اذهب وحاسبهم».

تأفَّف برونو. كان يبدو منهارَ الأعصاب بالفعل. قال:

«لقد منحتكِ فرصة عمل. والتزمتُ الصمت حين انتسبتِ إلى نقابة

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

العمّال. لو كان والدي في مكاني، لطردكِ على الفور. حسنًا، أعترف بأنّي ارتكبتُ خطأً في قسم التجفيف، لكنِّي التمستُ منك العذر، لا يمكنكِ أن تدَّعي أنِّي عنَّفتكِ. وأنتِ، كيف تردِّين الجميل؟ تنتقمين بتسليط أبشع الأضواء على مصنعي، وتجهرين على الملأ بأنّي أَسُوق العاملات إلى قسم التجفيف؟ متى مارستُ الجنس مع العاملات؟ هل جُننتِ؟ لقد جعلتِني أندم على المعروف الذي أسديته إليكِ».

«المعروف؟ إنّي أكدّ وأعمل كثيرًا وأتقاضى أجرًا زهيدًا. فما أسديه إليك من معروف يفوق ما أسديته إليّ».

«أترين؟ ها أنت تتكلَّمين مثل أولئك الحقراء. كوني شجاعة واعترفي بأنّك أنت من كتب هذه الترّهات».

«لم أكتب شيئًا».

لوى برونو فمه، نظر إلى الصفحات التي أمامه، ففهمتْ ليلا أنَّه كان يتأرجح في حيرةٍ من أمره: هل ينتقل إلى نبرة أعلى، هل يهدِّدها بفصلها، أم يتراجع ويحاول أن يفهم إن كان ثمَّة مَن يحضِّر له مبادراتٍ أخرى من هذا القبيل؟ فحسمت الأمر بنفسها، وقالت بصوت خفيض ـ على مضضٍ لا يخلو من غنجٍ مخفَّفٍ ومغوٍ يناقض ذكرى عنفه التي ما زالت حيَّة في جسدها ـ ثلاثَ جُمَل مسالمة:

«صدِّقني، فأنا لديّ طفل صغير، ولا أنوي ارتكاب شيء كهذا حقًّا».

أشار بنعم، لكنّه غمغم بتعاسة أيضًا

«أتعلمين على ماذا ترغمينني الآن؟»

«لا، ولا أريد أن أعرف».

«سأقوله لك بكلِّ الأحوال. إن كان أولئك أصدقاءك فحذريهم: إذا عادوا إلى إحداث البلبلة هنا، فسأرسل من يلقِّنهم درسًا قاسيًا حتى

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

يفقدوا الرغبة. أمّا أنتِ، فاحذري: إن شَدَدْتِ الحبل أكثر، فسينقطع حتمًا».

لكنّ النهار لم ينتهِ عند ذلك الحدّ. حينما مرَّت ليلا عند المخرج، أومض الضوء الأحمر الطقس المعتاد: يختار الحارس لنفسه كلّ يوم، ثلاثَ ضحايا أو أربعًا، بكلّ سرور. الفتيات الخجولات يَدَعنه يتلمّسهنَّ وعيونهنَّ في الأرض، والنساء الخبيرات يضحكن ويقلن له: هيَّا يا فيليبو العزيز، تلمَّس إن أردت، ولكن استعجلْ فعليَّ الذهاب إلى الطبخ. في تلك المرَّة، أوقف فيليبو ليلا كان الطقس باردًا، والرياح شديدة الهبوب. خرج الحارس من ركنه. ارتجفت ليلا وقالت:

«إن فكَّرتَ في لمسي مجرَّد تفكير، قتلتكَ قسمًا بالربِّ، أو ناديتُ من يقتلك».

أشار فيليبو متجهِّمًا إلى طاولة صغيرة كانت هناك دومًا قرب ركن الحراسة.

«أفرغي جيوبكِ جيبًا جيبًا، وضعي الأغراض هنا».

وجدت ليلا في معطفها قطعة من النقانق الطازجة، شعرت بالاشمئزاز من طراوة اللحم المعبّأ في المصران. فأخرجته وانفجرت ضاحكةً، وقالت:

«يا لكم من أُناسٍ خرائيّين جميعًا».

٣٣

تهديدات ببلاغ عن سرقة؛ حسومات من الراتب، وغرامات أخرى؛ تبادُل شتائم بينها وبين فيليبو. لم يظهر برونو، مع أنَّه كان في المصنع حتمًا، فسيَّارته في الباحة دومًا   أدركت ليلا أنَّ الأمور ستتدهور عندئذٍ أكثر فأكثر

عادت إلى البيت منهكَة أكثر من المعتاد، غضبت من جينّارو لأنَّه أراد البقاء عند الجارة، وحضّرت العشاء. قالت لإنتسو إنَّ عليه أن يدرس بمفرده، وخلدت إلى النوم باكرًا. نهضت وارتدت كنزة صوفيَّة فوق ثياب النوم، لأنها لم تشعر بالدفء تحت الأغطية، وعادت تستلقي، فإذا قلبها ينبض في حلقها، بلا سبب مفهوم، ويبدأ بالخفقان بشدّة حتى بدا لها قلب شخصٍ آخر

كانت تعرف هذه الأعراض مسبقًا، لأنَّها ترافق تلك الحالة التي أسمتها لاحقًا ـ بعد إحدى عشرة سنة، عام ١٩٨٠ ـ «انحلال الهوامش». ولكن، لم يحدث من قبل أنْ ظهرت هذه الأعراض بهذا الشكل الموغل في العنف، ولاسيّما أنَّها كانت المرَّة الأولى التي

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

تحدث لها حين تكون بمفردها، من دون أن يُثيرها أحدٌ ما من حولها لسببٍ أو لآخر. وسرعان ما تلبّسها رعبٌ هائج عندما انتبهت إلى أنّها لم تكن بمفردها البتّة. ذاب رأسها فخرج منه الأصوات والأشخاص الذين صادفتهم خلال النهار، وراحوا يتموّجون في أرجاء الغرفة: الفتَيان المبعوثان من الهيئة، الحارس، زملاء العمل، برونو في قسم التجفيف، ناديا، كلّهم يتحرَّكون بسرعةٍ فائقة كما لو أنَّهم في فيلم صامت. حتى وميضُ الضوء الأحمر في الجزئيّ أخذ يبرق أمام عينيها بدفقات خاطفة. وحتى فيليبو، وهو ينزع من يدها مصران النقانق، ويتوعّدها. كلّ ذلك عبارةٌ عن خدعةٍ ذهنيَّة: لم يكن هناك أحدٌ في الغرفة، ولا وجود لأصوات حقيقيَّة، ما عدا جينّارو النائم في سريره الصغير إلى جانبها، يزفر بأنفاسٍ منتظمة. لكنّ هذا لم يهدِّئ روعها، بل ضاعف رعبها وبات خفقان القلب جيّاشًا إلى درجة أنَّه بدا قادرًا على تمزيق حوافّ الأشياء. كأنّ صلابة الروابط، التي ترصّ الجدران بعضها على بعض، بدأت تتهاوى؛ وكأنَّ تلك الضربات العنيفة في الحلق تزعزع السرير، وتصدِّع الملاط وتُحدِث فيه الشقوق، وتفكِّك عظام جمجمتها، وقد تسحق طفلها أجل، قد تسحقه كأنَّه دمية من السيلوليد، وتهشِّم صدره وتبقر بطنه وتحطِّم رأسه لتتهافت أحشاؤه. عليَّ أن أُبعده من هناك، قالت لنفسها كلَّما أبقيته قربي، زاد احتمال أن يتحطَّم. لكنَّها تذكَّرت طفلًا آخر كانت قد أبعدته؛ الطفلَ الذي أخفقت في تكوينه داخل رحمها، ابنَ ستيفانو. لقد أقصيتُه عنّي، أو هذا ما تناقلته بينوتشا وجيليولا خلف ظهري على الأقلّ. أو ربَّما فعلتُ ذلك حقًّا، طردتُه من جسديَ عنوةً. لماذا لم أنجح في أيِّ شيء فعلًا حتى هذه اللحظة؟ ولماذا مفروضٌ عليّ الحفاظ على ما لم أنجح في فعله؟ تسارع خفقان القلب دونما مؤشِّراتٍ على عودة الهدوء،

telegram @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

وكانت تلك الصور الدخّانيّة تضغط عليها بهمهمة أصواتها؛ نهضت عن السرير ثانية، جلست على حافّته. كانت تتصبّب عرقًا لزجًا، بدا لها زيتًا مجمّدًا أسندت قدميها على سرير جينّارو، ودفعته برفق، كي تبعده عنها ولو قليلًا، إذ كانت تخشى أن تسحقه إذا ظلّ قريبًا منها، كما تخشى أن تفقده إذا أبعدته عنها. ذهبت إلى المطبخ بخطًى ناعمة، تستعين بالاستناد إلى الأثاث والجدران، لكنّها ما برحت تنظر إلى الخلف خشية أن تُخسف الأرض وراءها فيغرق جينّارو في غورها شربت من ماء الصنبور، وغسلت وجهها توقّف قلبها فجأة، فخضّها إلى الأمام كأنّها هزّة فرامل حادّة.

انتهى كلّ شيء. عاد التماسك بين الأشياء إلى لُحمته الأصيلة. عاد جسدها إلى إيقاعه المنتظم، وجفّ عَرَقها شيئًا فشيئًا كانت ترتجف بشدّة حينها، كانت منهَكةً حتى أحست بأن الجدران دارت حولها، فخشيت الإغماء. عليّ أن أذهب إلى إنتسو، فكّرتْ، لأستعيد بعض الدفء: أتمدّد في سريره الآن، وأشبك ظهره وهو نائم، لعلّي أنعم بالنوم أنا أيضًا لكنّها عدلتْ عن هذا. أحسّت بأنّ وجهها يرتسم بتلك التكشيرة الغَنِجَة التي قامت بها حين قالت لبرونو: «صدِّقني، فأنا لديّ طفل صغير، ولا أنوي ارتكاب شيء كهذا حقًّا». كانت الحركة تنمّ عن دلال وإثارة، وربّما عن إغواء أيضًا. حركةٌ يقوم بها جسد الأنثى تلقائيًّا على الرَّغم من اشمئزازها منها. شعرت بالخزي من نفسها كيف استطاعت أن تتصرّف بتلك الطريقة، وهي التي تذكر جيّدًا ما الذي فعله بها سوكافو في قسم التجفيف؟ وعلى الرَّغم من هذا، فعلتْها. يا لذاك الأسلوب الذي يدفع الذكور ويسوقهم كبهائم مطيعة نحو غاياتٍ ليست بغاياتهم. لا، لا، هذا يكفي، لقد فعلتْها في الماضي، لأسباب مختلفة، من دون أن تنتبه في معظم الأحيان، مع

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

ستيفانو، مع نينو، مع الأخوين سولارا، وحتى مع إنتسو. أمَّا الآن، فلم تعد تريد اتِّباع الطريقة نفسها، ستتدبَّر حلّ مشاكلها بنفسها مع الحارس، مع زملائها في العمل، مع التلميذين، مع سوكافو، مع رأسها بالتحديد، رأسها المليء بالطموحات التي لا تقوى على وضع حدٍّ لجموحها. كانت تستسلم، وقد أرَّقها الاصطدام بالأشخاص والأشياء.

٣٤

اكتشفت أنَّها أُصيبت بالحمّى، حين استيقظت. تناولت حبّة أسبيرين وذهبت إلى العمل على الرَّغم من مرضها كانت معالم الليل لا تزال في السماء، والنور كان خفيفًا وذاويا، ومائلاً إلى الزرقة، يُضيء الأبنية المنخفضة، والحشائشَ الناتئة من بين الوحل والهشيم. هناك، عند مدخل الدرب الوعر الذي يُفضي إلى المصنع، أدركت، بينما كانت تقفز بين بِركة مياهٍ وأخرى، أنَّ التلميذين صارا أربعة: اثنين من اليوم السابق، وثالثًا من عمرهما، ورابعًا مكتنزًا وسمينًا للغاية، في العشرينيَّات من عمره. كانوا يلصقون بيانات، على السور الحجريّ، تدعو إلى النضال، وقد بدأوا للتوّ بتوزيع مناشير لها المضمون نفسه. ولكن، إن كان العمَّال والعاملات، في اليوم الماضي، قد استلموا الكُتَيِّب المنسوخ، بدافع الفضول أو اللباقة، فقد كان معظمهم يومذاك يتابعون طريقهم مطأطئي الرؤوس، أو يأخذون الورقة ثم يكوِّرونها بقبضاتهم ليقذفوها بعيدًا في الحال.

انزعجت ليلا ما إن رأت الفتية هناك، منضبطين في مواعيدهم، كأنَّ ما يسمُّونه العمل السياسيّ يفرض انتظامًا في المواعيد أكثر من

مكتبة الرمحي أحمد
telegram @ktabpdf

عملها. تحوَّل الانزعاج إلى قسوة حين عرفها فتى اليوم السابق، فاتَّجه إليها راكضًا، بصفةٍ ودودة، يحمل في يديه عددًا كبيرًا من المناشير.

«كلّ شيء على ما يرام، يا رفيقة؟»

لم تجبْه، كان حلقها ملتهبًا، وصدغاها ينبضان بقوَّة. تبع الفتى خطاها، وقال مرتبكًا:

«أنا داريو، ربّما لا تذكرينني، التقينا في شارع المحاكم».

«أعرف أيّ أحمق تكون» احتدَّت، «لكنِّي لا أريد أيّ علاقة بك ولا بأصدقائك كلّهم».

انعقد لسان داريو، فأبطأ مشيته، وقال بصوت خفيض جدًّا، كأنَّه يخاطب نفسه:

«ألا تريدين المنشور؟»

لم تجبْه. عزّ عليها أن تصيح في وجهه ألفاظًا نابية، لكنّ وجه الفتى الموسوم بالضياع نُقِش في ذهنها؛ ذلك التعبير الذي يلجأ إليه الناس حين يشعرون بأنَّهم في جانب الحقّ ولا يستوعبون لماذا يعارض الآخرون وجهة نظرهم. فكَّرتْ في أنَّه كان عليها أن تشرح له بطريقة لبقة ما الذي دفعها إلى التفوه بتلك الأمور في أثناء الاجتماع، وكيف أنَّها ترى نقل تلك الأحاديث إلى الكُتَيِّب شيئًا لا يُحتمل، وما السبب الذي يجعلها تصف عملهم بالغبيّ وغير المجدي: فتيةٌ صغار، بدلاً من أن يكونوا في أسرَّتهم أو مقبلين على دخول قاعة مدرسيَّة، تراهم هناك في ذلك البرد القارس، يوزِّعون المناشير المكتوبة بلغةٍ رفيعة لأُناسٍ بالكاد يعرفون القراءة، ولا يجدون، بصورة خاصَّةٍ، ضرورةً لبذل الجهد في قراءة تلك الأشياء، فهم يعرفونها جيّدًا، ويعيشون تفاصيلها كلّ يوم، وفي إمكانهم قصّ ما هو أسوأ من المكتوب أيضًا. أشياءَ لا تُقال، وليس في وسع أحد أن يتفوَّه بها، أو يكتبها، أو يقرأها، ومع

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

ذلك كانوا يشدِّدون على كتمان الأسباب الحقيقيَّة لرضوخهم. لكنّها كانت مُصابة بالحمَّى، ومَلولةً من كلّ شيء، وسيكلِّفها ذلك الشرح جهدًا كبيرًا في كلِّ الأحوال، ها قد وصلت إلى بوَّابة المصنع، هناك حيث الأوضاع كانت تتعقَّد.

كان الحارس يتلاسن غاضبًا مع أكبر الفتية، ذاك البدين، ويصرخ في وجهه بالعاميَّة: اعبر هذا الخطّ، اعبره أيُّها السافل، تكُن بذلك قد دخلتَ مُلكيَّة خاصَّة من دون إذن، فأطلق عليك النار. كان الطالب، مهتاجًا بدوره، يردّ مقهقهًا بضحكة مجلجلة، عدائيَّة، ويُرفق بها الإهانات. كان يناديه بالعبد الذليل، ويصرخ فيه بالفصحى: هيًّا، أطلق النار، أرني كيف تطلق النار، هذه ليست مُلكيَّة خاصَّة، وكلّ ما يوجد في الداخل مُلكٌ للشعب. مرَّت ليلا إلى جانبهما ـ كم مرَّةً شهدت على عنتريّاتٍ كهذه: رينو، أنطونيو، باسكوالي، إنتسو أيضًا، كانوا معلِّمين بارعين في مثل هذه الأمور ـ وقالت لفيليبو بجدِّيَّة: اروِ ظمأه، لا تضيِّعْ وقتك في الثرثرة معه. فتًى يجدر به أن يكون إمّا في السرير وإمّا في المدرسة، فإذا به يأتي إلى هنا لإثارة القلاقل، يستحقّ أن تُطلَق عليه النار. رآها الحارس، وسمعها، وبقي مشدوهًا، محاولًا أن يفهم جيِّدًا إن كانت تحرِّضه على الإقدام على فعلةٍ طائشة، أم كانت تسخر به. أمّا التلميذ، فلم يُبدِ أيّ شكوك. ركَّز نظراته الغاضبة إليها، وصرخ فيها: ادخلي، هيّا، اذهبي وقبِّلي مؤخّرة سيِّدك. وتراجع عدَّة خطوات وهو يهزّ برأسه حانقًا، ثم واصل توزيع المناشير على مقربةٍ من البوّابة.

اتَّجهت ليلا نحو الباحة. كانت متعبَة منذ السابعة صباحًا. شعرت بأنّ عينيها تحترقان، وبدت لها ثماني ساعات من العمل أبديَّةً لا تنتهي. وخلف ظهرها، في تلك الأثناء، سمعت تفحيط سيّارات

telegram @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

وصيحات ذكوريَّة، فاستدارت. وصلت إلى المكان سيّارتان، إحداهما رماديَّة والأخرى زرقاء. نزل أحدهم من الأولى، وشرع في تمزيق البيانات الملصَقة على السور. يزداد الوضع سوءًا، قالت لنفسها، وعادت إلى الخلف بشكلٍ لاإراديّ، على الرَّغم من علمها بوجوب التصرُّف كالآخرين، أي أن تتعجَّل في الدخول ومباشرة العمل.

تقدَّمت بضع خطوات، على قَدْر يكفيها ليتَّضح لها الشابّ الذي يقود السيَّارة الرماديَّة: جينو. رأته يفتح باب السيَّارة، وقد باتَ طويل القامة، مفتولَ العضلات، ويخرج من السيَّارة حاملًا عصًا غليظة. الآخرون، أولئك الذين كانوا يمزِّقون الملصقات، وأولئك الذين ينزلقون ببطء من السيَّارة، سبعة رجال أو ثمانية بالمجمل، كانوا يحملون الهراوات والعوارض. فاشيُّون، جميعهم من الحيّ تقريبًا، عرفت ليلا بعضهم. فاشيُّون مثل والد ستيفانو، الدون آخيل، ومثل ستيفانو نفسه بعد أن انكشفت حقيقته لاحقًا، ومثل سولارا الجدّ، وسولارا الأب، وابنيه، حتى لو كانوا يناصرون المَلَكِيَّة تارةً، والحزب الديموقراطيّ المسيحيّ تارةً أخرى، بحسب ما تقتضيه الحاجة. كانت تكرههم منذ أن كانت فتاةً صغيرة حين تخيَّلت كلّ تفاصيل أعمالهم القذرة، ومنذ أن اكتشفت أنَّ ما من سبيلٍ للتخلُّص منهم وتصفية كلّ شيء. فالرابط الراسخ بين الأمس والحاضر لم يتفتَّت حقًّا، وأكثريَّة سكَّان الحيّ تحبهم، وتدلِّلهم، وتؤازر شرورهم في كلٍّ مناسبة عنف.

داريو، فتى شارع المحاكم، كان أوَّل المتأهِّبين. ركض مسرعًا ليحتجّ بشأن الملصقات الممزَّقة. وكان يحمل في يده رزمة المناشير، ففكَّرتْ ليلا: ارمِها أيّها المغفَّل، لكنَّه لم يفعلها سمعته يقول بالإيطاليَّة ما لا جدوى منه، مثل: كفّوا عمَّا تقومون به؛ ليس لديكم الحقّ في ذلك. ورأته، في هذه الأثناء، يستدير نحو رفاقه طلبًا

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

للمساعدة. إنّه لا يعرف شيئًا عن فنون المشاجرات: عليك ألَّا تُولي ظهرك لخصمك، ففي الحيّ لا يكتفون بالمهاترات. قد يتصايحون بنظراتٍ تقدح شررًا لبثّ الرعب كحدٍّ أقصى، ويتسابقون على توجيه اللَّكمة الأولى، وإلحاق الأذى قدر الإمكان، بلا هوادة. ينبغي للخصم أن يوقفك عند حدّك إن كان قادرًا على هذا وقد تصرَّف أحد الذين مزَّقوا الملصقات على هذا النحو تمامًا ضرب وجه داريو، بلا مقدِّمات، بلكمة قويَّة، رمته أرضًا بين مناشيره التي تساقطت، ثم جثم فوقه وألحق اللَّكمة بالأخرى، بينما تتطاير الأوراق حولهما كأنَّ الأشياء نفسها تثور بغليانٍ أهوج. انتبه الفتى البدين حينذاك، لرفيقه الذي على الأرض، وهبّ مسرعًا لنجدته بيدين عاريتين، لكنّ أحد المسلَّحين بالهراوات أوقفه عند منتصف الطريق، وضربه على ذراعه. فأمسك الفتى بالهراوة غاضبًا، وراح يشدّها إليه كي ينتزعها من المعتدي، ودخل الاثنان في مماحكة قصيرة، يتراشقان بالشتائم. حتى جاء جينو من خلف الطالب البدين، وصرعه بضربة بعصاه.

نسيت ليلا الحمَّى والإرهاق، وهرعت نحو البوَّابة، بلا هدف معيَّن. لم تكن متأكِّدة ممّا إذا كانت تريد زاوية أوضح للمشاهدة، أم إنَّها تودُّ مساعدة التلاميذ، أم إنَّها ببساطة تحرَّكت بوازعٍ فطريٍّ لطالما اتَّسمت به، فحصَّنها من مهابة الشجار، بل كان يؤلِّب عدوانيَّتها أيضًا. ولم يتسنَّ لها الوقت، لأنَّها تنحَّت جانبًا كي لا تصطدم بعددٍ قليل من العمَّال الذين كانوا يعبرون البوَّابة راكضين. حاول أحدهم أن يصدّ المعتدين، إيدو بالتأكيد، مع بعض الآخرين، لكنَّهم أخفقوا في ذلك وها هم يهربون. كان الرجال والنساء يهربون، يلاحقهما شابّان بالعوارض الحديديَّة. وكانت إحدى الموظَّفات، وتُدعى إيزا، تركض وتصيح متَّجهة إلى فيليبو: تدخَّلْ، افعلْ شيئًا، اتّصلْ بالأمن. أمّا

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

إيدو، نازف اليد، فقال بصوت مرتفع، مكلِّمًا نفسه: سأذهب لأحمل الفأس، ثم نرى. في المحصّلة، حين وصلت ليلا إلى الدرب الوعر، كانت السيّارة الزرقاء قد انطلقت، وكان جينو يستقل تلك الرماديَّة، فإذا به يعرفها، ويتوقَّف مذهولًا ويقول: لينا، هل أودى بكِ المطاف إلى هنا؟ ثم شدَّه أعوانه إلى الداخل، فشغَّل المحرِّك وانطلق، لكنّه ما فتئ يصرخ من نافذة السيّارة: كنتِ سيّدة، أيّتها القذرة، فانظري أيَّ ذليلةٍ صرتِ؟

٣٥

قضت ليلا نهار العمل وهي تُخفي قلقها، كالعادة، خلف سلوكٍ يتماهى بين الاستخفاف والعداء. أفهمها جميع من حولها أنَّ اللائمة تقع عليها بشأن ذلك الجوِّ المتوتِّر، الذي انفجر فجأة في مصنعٍ لطالما اتَّسم بالهدوء. لكنَّهم سرعان ما انقسموا إلى حزبين: الأوَّل، وكان أقلِّيَّة، أراد أفراده أن يجتمعوا في مكانٍ ما خلال ساعة الغداء، ليغتنموا المستجدّات كي يدفعوا ليلا إلى الذهاب إلى ربّ العمل محمَّلةً بمطالب اقتصاديَّة حذرة. والثاني، وكان أعضاؤه الأكثريَّة، فلم يوجِّهوا إلى ليلا كلمة واحدة، وكانوا معارضين لأيِّ مبادرةٍ قد تعقِّد أوضاعهم في العمل، شديدة التعقيد أساسًا ولم يتوصَّل الطرفان إلى أيِّ اتِّفاق. بل إنَّ إيدو، الذي انتمى إلى الطرف الأوّل، وكان في الأصل فاقدًا رشده ممّا حلّ بيده التي آلمته كثيرًا، قال لأحد المنتمين إلى الطرف الثاني: إذا تضرَّرت يدي، أو بُترِتْ، فسآتي إلى بيتك، وأصبّ فيه برميلًا من البنزين، فأحرقك أنت وأهلك. أمَّا ليلا، فتجاهلت كِلا الطرفين، وانزوت لتعمل مطأطئة الرأس، بالوتيرة نفسها، غير آبهةٍ بالزكام، ولا بالثرثرة والشتائم من خلفها لكنَّها راحت تتأمَّل ما كان ينتظرها، فانبرتْ

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

زوبعةٌ من هواجس متضاربة في رأسها المحموم: ما الذي حدث للتلاميذ المعتدى عليهم، إلى أين هربوا، وأيّ مخاطر تنتظرها بسببهم. قد يغتابها جينو في الحيِّ كلّه، وقد يروي كلّ شيء لميكيلي سولارا يا للمذلَّة من التوسُّل إلى برونو معروفًا، إلّا أنَّه ما من خيار آخَر. كانت تخشى أن تُفصَل من العمل، كانت تخشى أن تخسر راتبها، الذي على الرَّغم من شحّه، يضمن لها أن تكون ودودةً مع إنتسو من دون اعتباره أساسيًّا في بقائها، وبقاء ابنها، في قيد الحياة.

ثم عاد إلى ذهنها ما عانته في الليلة الماضية. ما الذي دهاها، هل عليها الذهاب إلى الطبيب؟ وماذا لو كشف الطبيب عن مرضٍ ما، كيف ستدبِّر أمرها في العمل، ومع الطفل؟ مهلًا، لا داعي للتوتُّر، يجدر بها ترتيب الأشياء فقط. لذا، خلال ساعة الغداء، وبسبب الاضطراب الضاغط، سلّمت أمرها بالذهاب إلى برونو. كانت تريد أن تروي له عن مزحة النقانق الثقيلة، عن الفاشيِّين أتباع جينو، وأن تعلن عدم مسؤوليَّتها عمَّا يحدث. لكنَّها، أغلقت على نفسها في المرحاض، قبل ذلك، وسرَّحت شعرها ومرَّرت القليل من الأحمر على شفتيها، وهي تحتقر نفسها على ما تفعل. قالت لها السكرتيرة بجفاء إنَّ برونو ليس هناك، وقد يتغيَّب عن المصنع طوال الأسبوع. فعاد الفزع يُحكِم قبضته عليها. وفكَّرتْ، على وقع العصبيَّة المتزايدة، في أن تطلب من باسكوالي أن يمنع التلاميذ من العودة إلى بوّابة المصنع قالت لنفسها إذا اختفى فتيان الهيئة، فقد يختفي الفاشيُّون أيضًا، ويستردّ المصنع سكينته منكفئًا على عاداته القديمة. ولكن، كيف لها أن تعثر على بيلوزو؟ لم تكن تعرف مكان الورشة التي يعمل فيها، وقد استبعدت فكرة أن تبحث عنه في الحيِّ، خشية أن تصادف أمّها أو أباها، أو شقيقها، بصورة خاصَّة، إذ لم تشأ الاصطدام به. وهكذا، وقد غلبها الإعياء، استجمعت كلّ مآسيها وقرَّرت التوجُّه إلى ناديا مباشرةً. أنهت

مناوبتها، وركضت إلى البيت، تركت لإنتسو رسالةً تقول له فيها أنْ يحضِّر العشاء. غطَّت جينّارو جيِّدًا بالمعطف والقبَّعة، واستقلَّت حافلةً بعد حافلةٍ إلى أن وصلت إلى شارع ڤيتوريو إيمانويلي.

كانت السماء صافية الألوان، لا وجود لأيِّ نفحة غيوم، لكنَّ الغروب كان يحلّ شيئًا فشيئًا، والريحَ عاتيةٌ، والهواءَ بلون البنفسج. تذكَّرت العنوان بدقَّة، البوَّابةَ، وكلَّ شيء، بل حتى الذلّ الذي تعرَّضت له منذ أعوام فألهب نقمتها حينها كم كان الماضي غُبارًا منثورًا، يتفتَّت باستمرار، ثم يتكوَّن ويعود يُثقل على كاهلها فمِن هذا البيت، الذي تسلَّقتْ إليه معي للمشاركة في حفلةٍ عانت بسببها كثيرًا، كانت ناديا تتدحرج منه الآن، وهي حبيبة نينو سابقًا، كي تجعلها تُعاني أكثر وأكثر لكنَّ ليلا لم تكن امرأةً تسكت على ضيمها، فها هي تصعد حاملةً معها جينّارو. كان هدفها أن تقول لتلك المراهِقة: أنتِ ورفاقكِ تُعرِّضون ابني للمخاطر؛ قد يبدو الأمر مجرَّد تسلية بالنسبة إليكِ، فلن يقع لكِ أيّ مكروه. أمَّا بالنسبة إليّ وإليه، فلا الموضوع خطير وجدِّيٌّ، فإمّا أن تفعلي شيئًا يصلِّح الوضع برمَّته وإمَّا هشَّمتُ وجهكِ. هذا تمامًا ما كانت تريد قوله، وكانت تسعل، وغضبها يتصاعد، وكانت متلهِّفةً لتفرِّغ ما يضيق بصدرها

وجدت البوَّابة مفتوحةً. صعدت السلالم. تذكَّرتني وتذكَّرت نفسها، وستيفانو الذي أوصلنا إلى الحفلة. تذكَّرت ملابسنا، وأحذيتنا، وكلّ كلمة تقوَّلناها خلال ذهابنا وخلال عودتنا قرعت الجرس، ففتحت لها الباب الأستاذة غالياني شخصيًّا، مطابقةً تلك الصورة التي ظلَّت في ذاكرة ليلا، لطيفةً، وأنيقة الهندام حتى داخل بيتها شعرت ليلا بأنَّها قذرة بالمقارنة معها، فرائحة اللحوم النيئة لا تزال عالقةً في ثيابها، والزكام يسدّ مجاري رئتيها، والحمَّى تُربك مشاعرها، والطفل

telegram @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

يُضايقها لكثرة تذمُّره بالعامِّيَّة. سألتْ بنبرةٍ حادَّة:

«هل ناديا موجودة؟»

«لا؛ إنَّها في الخارج».

«ومتى تعود؟»

«متأسِّفة، لا أعرف، ربَّما بعد عشر دقائق، ربَّما بعد ساعة، تفعل كما يحلو لها».

«هلَّا أخبرتِها بأنَّ لينا جاءت تبحث عنها؟»

«هل الأمر طارئ؟»

«أجل».

«هل تريدين أن تتحدَّثي إليَّ؟»

بِمَ تتحدَّث إليها؟ تشتَّت ذهن ليلا، شعرت بأنَّها تنظر إلى ما وراء غاليانى. تراءت لها الأصالة الأرستقراطيَّة المتمثِّلة في الأثاث والمصابيح واللوحات النفيسة على الجدران، والمكتبة التي سحرتْها بامتلائها بالكتب. ففكَّرت: هذا هو العالم الذي كان نينو يروم إليه قبل أن يتعثَّر بي. فكَّرت: ما الذي أعرفه عن هذا الجانب من نابولي، لا شيء؛ لن أعيش فيه أبدًا ولا حتى جينّارو سيعيش فيه؛ فليُسحَق هذا الجانب من نابولي إذن. فلتلتهمْه النار فيستحِيلَ رمادًا، فلتصل حمم البركان حتى ذروة الهضبة. ثم أجابت أخيرًا: لا، شكرًا، عليَّ أن أتحدَّث إلى ناديا وكانت تتهيَّأ للانصراف، فالرحلة الطويلة لم تؤتِ أكلها. لكنَّها أُعجبت بجفاء النبرة التي استخدمتها غاليانى في الحديث عن ابنتها؛ فهتفت بغتةً، بنبرةٍ نزقة:

«هل تعلمين بأنّي دخلتُ هذا البيت لحضور إحدى الحفلات؟ كنت أتوقَّع أن أجد شيئًا عظيمًا، لكنِّي مللتُ باكرًا، وكنت متلهِّفةً إلى الانصراف في أسرع وقت».

٣٦

لا بدَّ من أنَّ غالياني أيضًا أحسَّت بشيء ما أعجبها، ربَّما الجرأة التي تبلغ حدود الوقاحة. بدت الأستاذة سعيدة حين أشارت ليلا إلى صداقتنا، وهتفت: آه، أجل، إيلينا غريكو، لم نعد نراها بعد ما حقَّقتْه من نجاح. ثم رحَّبت بالأمّ وابنها في الصالون، حيث كانت قد تركت حفيدها، الأشقر الصغير، يلعب. أمرتْه قائلة: تعال يا ماركو، سلِّم على صديقنا الجديد. فدفعت ليلا ابنها وقالت له: اذهب يا جينّارو، والعب مع ماركو ثم جلست على أريكة خضراء، قديمة ومريحة، وهي لا تزال تتكلَّم على تلك الحفلة. تأسَّفت الأستاذة لأنَّها لم تذكر من الحفلة شيئًا، أمَّا ليلا فكانت تذكر كلّ شيء. قالت إنَّها أبشع حفلةٍ ذهبتْ إليها في حياتها وروت على مسمعها كم كانت تشعر بأنَّها خارج السياق، وتهكَّمت كثيرًا على الأحاديث التي سمعتها من دون أن تفهم منها حرفًا واحدًا «كنت جاهلةً للغاية»، صاحت ببهجةٍ مفرطة، «واليوم أرى نفسي أكثر جهلًا من ذلك الوقت».

ظلَّت غالياني تُصغي إليها، وقد أدهشتها صراحتها، وطولُ

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

لسانها، وعباراتُها التي تصوغها بإيطاليَّةٍ رفيعةٍ فُصحى، وسخريَّتُها التي تُتقن التحكُّم في إيقاعها أتخيَّل أنَّها استشعرت في ليلا شيئًا غامضًا، جذَّابًا ومُثيرًا للهواجس في الآن ذاته: عنفوان حوريَّة؛ هذا ما يحس به أيّ شخص يلتقيها، وها هي غالياني تقع في تلك الفتنة أيضًا لم تنقطع المحادثة بينهما إلَّا عندما وجَّه جينّارو صفعةً إلى ماركو، وأرفقها بشتيمةٍ بالعاميَّة، وانتزع من بين يديه لعبةَ سيَّارةٍ خضراء. نهضت ليلا غاضبة، أمسكت بذراع ابنها، وهزَّت يده مرارًا، تلك التي صفع بها الطفل الآخر، وأنَّبته بشدَّة وأمرتْه بإعادة اللعبة إلى ماركو، على الرَّغم من أنَّ غالياني قالت بصوتٍ واهن: دعيهما وشأنهما، إنَّهما طفلان. كان ماركو يبكي، وجينّارو لم يذرف دمعةً واحدة، بل قذف اللعبة إلى ماركو باحتقار. فضربته ليلا مرَّة أخرى، ضربةً قويَّة على رأسه.

«نحن سنغادر»، قالت بانفعال، في ما بعد.

«لا، أرجوكِ؛ ابقي قليلًا».

فجلست ليلا ثانيةً.

«إنَّه لا يتصرَّف هكذا دومًا».

«إنَّه طفل جميل جدًّا أليس كذلك يا جينّارو؟ ألست وسيمًا وطيِّبًا؟»

«ليس طيِّبًا، ليس طيِّبًا أبدًا. لكنَّه شاطر. يُجيد قراءة كلّ الحروف، ويكتبها بكلِّ الأشكال، على الرَّغم من صِغَر سنِّه. ما رأيك يا جينّارو، هلَّا قرأتَ شيئًا للأستاذة؟»

أخذت مجلَّة من على إحدى الطاولات الزجاجيَّة النفيسة، وأشارت إلى كلمةٍ على الغلاف، وقالت: اقرأ، هيَّا رفض جينّارو،

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

فوجَّهت ليلا ضربة طفيفة على كتفه، وكرَّرت بنبرة متوعِّدة: اقرأ، جينّارو. هجَّى الصغير على مضض: *ا ـ لـ ـ و ـ جـ* ثم صمت وهو يحدِّق ناقمًا إلى سيَّارة ماركو. شدَّ ماركو لعبته إلى صدره، وارتسمت ابتسامةٌ على وجهه الناعم، وقرأ بطلاقة: *الوجهة*.

اكتأبت ليلا، واكفهرَّ وجهها، ونظرت إلى حفيد غالياني باستياء.

«إنَّه يقرأ جيِّدًا»

«هذا لأنِّي أُكرِّس له الكثير من وقتي. فأبواه يسرحان عنه دائمًا».

«كم عمره؟»

«ثلاثة أعوام ونصف عام».

«يبدو أكبر من عمره».

«أجل، إنَّه يتغذَّى جيِّدًا وابنك، كم عمره؟»

«سيتمّ عامه الخامس عمَّا قريب»، أقرَّت ليلا بامتعاض.

داعبت الأستاذة جينّارو وقالت له:

«أمّك اختارت لك كلمةً صعبة، لكنَّك شاطر، ومن الواضح جدًّا أنَّك تعرف القراءة».

صدرت جلبةٌ عند السلالم، في تلك اللحظة، ثم فُتِح الباب وأُغلِق، وسُمعت قرقعةٌ داخل البيت، وغمغماتٌ لذكورٍ وإناث. ها قد عاد ابناي، قالت غالياني ونادت: ناديا فأطلَّت فتاةٌ رقيقةٌ، سخيَّة البهجة، صافية الوجه، وشعرها أشقر للغاية، وزُرقةُ عينيها يحسبها الناظر اصطناعيَّة. لم تكن ناديا، في أيٍّ حال. فردتِ الفتاةُ ذراعيها وهتفت لماركو مَن يُعطي أمّه قبلة؟ ركض الصغير إليها فعانقته، وغمرته بقبلاتٍ ناعمة، بينما دخل أرماندو، نجل غالياني. تذكَّرته ليلا هو أيضًا، على الفور، ونظرت إليه وهو يحاول خطف ماركو من

ذراعَيْ والدته صائحًا أعطِ أباك ثلاثين قبلة على الأقلّ، بسرعة، هيًّا أخذ ماركو يُقبّل خدَّ أبيه وهو يُحصي: واحد، اثنان، ثلاثة، أربعة.

«ناديا»، نادت الأستاذة على ابنتها ثانيةً، بنبرةٍ باغتها الانفعال، «هل أنتِ صمَّاء؟ تعالي، ثمّة زيارة لكِ».

أطلَّت ناديا رأسَها إلى الصالون أخيرًا. ومن خلفها، ظهر باسكوالي.

٣٧

استعرت نقمةُ ليلا مرَّة أخرى. هل كان باسكوالي، بعد أن ينتهي من عمله، يُسرع لاهثًا إلى بيت هؤلاء الناس، بين أمَّهاتٍ وآباء، وجدَّاتٍ وعمَّات، وأطفال سعداء، ملءُ قلوبهم حنانٌ، وأصحاب شهادات عُليا، ولدى جميعهم تطلُّعاتٌ عريضة إلى درجة أنَّهم يرحِّبون به كواحدٍ منهم، على الرَّغم من أنَّه يعمل في ورش البناء، ولا يزال وجهه ينضح بكلِّ معالم الشقاء؟

عانقت ناديا ليلا على طريقتها العاطفيَّة المعتادة. من حُسن حظِّنا أنَّك هنا، ـ قالت لها ـ، اتركي الطفل لأمِّي، علينا أن نتكلَّم. وردَّت ليلا بعصبيَّة: «موافقة» لا بُدَّ من أن تتحدَّث معها بالفعل، وبأقصى سرعة، لقد تعمَّدت المجيء إلى هناك لهذا القصد تمامًا. وحين نوَّهت إلى ضيق الوقت المتبقِّي لديها، عرض باسكوالي نفسه ليرافقها بسيَّارته إلى منزلها وهكذا غادروا الصالون، وأوكلوا الطفلين للجدَّة، وولجوا جميعًا إلى غرفة ناديا ـ بمن فيهم أرماندو والفتاة الشقراء، وتُدعى إيزابيلَّا ـ وكانت الغرفة رحيبة وفيها سريرٌ صغير ومنضدةٌ ورفوفٌ تغصُّ بالكتب، إلى جانب صور المطربين وملصقات الأفلام والنضالات

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

الثوريَّة التي بالكاد تعلم عنها ليلا شيئًا هناك، كان يُوجد ثلاثة شبَّان آخرين، اثنان منهم لم تَرَهما من قبل، أمَّا الثالث، داريو، فما زالت الكدمات التي تعرَّض لها في الصباح واضحةً على وجهه، وكان مستلقيًا في سرير ناديا بحذائه فوق الغطاء الأحمر المطرَّز. كان الثلاثة يدخِّنون، والغرفة تختنق بالدخان. لم تنتظر ليلا طويلًا، حتى إنَّها لم تردّ التحيَّة على داريو. قالت لهم إنَّهم أنزلوا بها المصائب، وقد تتعرَّض للطرد من العمل بسبب سوء تقديرهم الأمور، وقد أحدث ذلك الكُتَيِّبُ الشجارَ والعراك، ثم حذَّرتهم من الرجوع إلى النشاط عند بوَّابة المصنع، فبسببهم جاء الفاشيُّون، وجميع العُمَّال الآن ناقمون، سواء على المناضلين الحُمر (الشيوعيّين)، أو على أصحاب القمصان السود (الفاشيّين). ثم فَحَّتْ لداريو أمَّا أنت، فإن لم تكن قادرًا على المشاجرة فالزمْ منزلك. هل تعلم بأنَّهم كانوا يوشكون على قتلك؟ حاول باسكوالي أن يقاطعها مرَّتين، لكنَّها قمعتْه باحتقار، كما لو أنَّ مجرَّد وجوده في ذلك البيت يُعَدّ خيانة. أمَّا الآخرون، فأنصتوا إليها ولم يفتحوا أفواههم بكلمة واحدة. تدخَّل أرماندو، حين أفرغت ليلا غلّها لقد ورث ملامحه الرقيقة من أمّه، وكان حاجباه الأسودان كثيفين للغاية، وآثارُ حلاقة ذقنه غامقةً وتمتدّ حتى عظام وجنتيه، كان يتكلَّم بصوت رخيم ودافئ. عرَّف عن نفسه، وقال إنَّه سعيد جدًّا بالتعرُّف إليها، وتأسَّف لغيابه عن الاجتماع الذي شاركت فيه، لكنَّهم تناقشوا مرارًا في كلٍّ ما روته، وبما أنَّهم اعتبروا مضمونه في منتهى الأهمِّيَّة، قرَّروا حينذاك أن يكتبوا كلّ تفاصيله. «لا تقلقي سنؤازركِ أنتِ ورفاقكِ أجمعين بكلِّ الطرق»، ختم بهدوء.

سعلت ليلا كان الدخان في الغرفة يلهب حلقها أكثر.

«كان عليكم أن تُخبروني».

«هذا صحيح، ولكن لم يتسنَّ لنا ما يكفي من الوقت».

«كان في إمكانكم إيجاد الوقت لو أردتم».

«نحن قلَّة، والمبادرات تكثر علينا يومًا بعد يوم».

«ما هو عملك؟»

«ماذا تقصدين؟»

«ماذا تعمل كي تعيش؟»

«طبيب».

«مثل والدك؟»

«أجل».

«وهل أنت في هذه اللحظة تواجه خطرًا قد تخسر عملك بسببه؟ هل من الممكن أن تجد نفسك على قارعة الطريق، بين لحظةٍ وأخرى، أنت وابنك؟»

نفى أرماندو بهزَّةٍ من رأسه، وقال مكتئبًا:

«مِن غير الصواب أن نتنافس على مَن يخاطر بوضعه أكثر من رفاقه يا لينا»

تدخَّل باسكوالي: «لقد اعتقلوه مرَّتين، وسجَّلوا في حقِّي ثماني شكاوى. لا يوجد بيننا من يخاطر أكثر ومن يخاطر أقلّ».

«لا، حقًّا؟»

«لا» قالت ناديا، «نحن جميعًا على الخطوط الأولى، ومستعدُّون لتحمُّل مسؤوليَّاتنا».

نسيت ليلا، حينذاك، أنَّها ضيفةٌ في بيت أُناسٍ آخرين، فصرخت:

«وإذا حَدَثَ وخسرتُ عملي، فهل آتي إلى العيش هنا؟ هل توفِّرون لي الطعام؟ هل تتحمَّلون مسؤوليَّة حياتي؟»

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

أجابت ناديا بوداعة:

«طبعًا، إن شئتِ».

ثلاث كلمات فقط. فهمت ليلا أنّ الجملة لم تكن على سبيل المزاح، وأنَّ ناديا كانت تتحدَّث بجدِّيَّة، بل كانت ستُجيب بهذا الصوت المنتعش نفسه، وهذه الإجابة الخالية من أيِّ معنى، لو أقدم برونو سوكافو على طرد جيمع عمَّاله. كانت تدَّعي أنَّها في خدمة الكادحين، وفي الوقت نفسه، تعيش في بيت يغصّ بالكتب، وله إطلالة على البحر. تسعى إلى التحكُّم فيك، تريد أن تُملي عليك ما الذي يجدر بك أن تفعله في عملك، وتقرِّر نيابة عنك، ولديها حلولٌ جاهزة حتى لو أرغمتك المصائب على التشرُّد في الشوارع. كاد جوابها يطير من رأس لسانها: أنا إن شئتُ، حطَّمتُ كلّ شيء أفضل منكِ أيَّتها القطَّة الميِّتة؛ لا أحتاج لتقولي لي، بصوتك هذا الشبيه بصوت قدِّيسة متصابية، كيف عليّ أن أفكِّر، وماذا عليَّ أن أفعل. لكنَّها ضبطت نفسها، وقالت بحدَّة لباسكوالي:

«إنِّي مستعجلة، سأنصرف حالًا ماذا عنك؟ هل ترافقني، أم تبقى هنا؟»

ساد الصمت. رمق باسكوالي ناديا بنظرة، وغمغم: أرافقكِ. وتهيَّأت ليلا للخروج من الغرفة من دون أن تحيّي أحدًا تنحَّت الفتاة لتُفسح لها الطريق، وهي تقول لها إنَّ من غير المقبول العملَ في الظروف التي أجادت ليلا في وصفها، وإنَّ من الضروريّ أن تنطلق شرارة النضال في أسرع وقت. وقالت جُملًا أخرى من هذا القبيل. «لا تتراجعي»، حرَّضتها في الختام قبل أن تصل إلى الصالون، لكنَّها لم تتلقَّ أيّ جواب.

كانت غاليياني جالسة على الأريكة، تقرأ عابسةً. وحين رفعت

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

نظرها، توجَّهت إلى ليلا متجاهلةً ابنَها، ومتجاهلةً باسكوالي الذي التحق بهما للتوّ مضطربًا

«هل ستنصرفين؟»

«أجل، لقد تأخَّر الوقت. اتركِ اللعبة لماركو يا جينّارو، وارتدِ معطفك».

ابتسمت غالياني في وجه حفيدها، الذي كان يتجهَّم:

«ماركو أهداه اللعبة».

زمَّت ليلا عينيها، وأحالتهما ثقبين غائرين:

«كلُّكم كرامٌ أسخياء في هذا المنزل، شكرًا».

كانت الأستاذة تتأمَّلها وهي تصارع طفلها كي تُلْبسه المعطف:

«هل لي أن أطرح عليكِ سؤالًا».

«تفضَّلي».

«ماذا درستِ؟»

بدا السؤال محرجًا لناديا، فتدخّلت:

«ماما، لينا يجب أن تنصرف».

لاحظت ليلا لأوّل مرّةٍ توتُّرًا يتفشَّى في صوت ناديا الطفوليّ، فأعجبها ذلك.

«ألا تسمحين لي بالكلام؟» زعقت غالياني بنبرةٍ تفوق نبرة ابنتها توتُّرًا ثم أعادت السؤال على ليلا، برفقٍ هذه المرَّة: «ماذا درستِ؟»

«لا شيء».

«من يسمعك تتكلَّمين ـ وتصرخين ـ لا يصدِّق ذلك».

«بل إنَّه كذلك، لقد توقَّفتُ عن الدراسة بعد الخامس الابتدائيّ».

«ولماذا؟»

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

«لم تكن لديّ المؤهِّلات».

«وكيف عرفتِ ذلك؟»

«كانت غريكو هي صاحبة المؤهِّلات؛ أمَّا أنا فلا».

هزَّت الأستاذة رأسها تعبيرًا عن عدم موافقتها على الرأي، وقالت:

«لو أنّكِ تابعتِ الدراسة، لنجحتِ بامتياز، مثل غريكو».

«وكيف عرفتِ ذلك؟»

«هذه مهنتي».

«أنتم الأساتذة تُصرُّون دومًا على وجوب الدراسة، لأنَّكم تحصلون من التعليم على قُوت يومكم، لكنَّ الدراسة لا جدوى منها، ولا تحسِّن سلوك صاحبها، بل تجعله شرِّيرًا أكثر».

«وهل أصبحت إيلينا شرِّيرة؟»

«لا، هي لا».

«فكيف، إذن؟»

ضغطت ليلا القبَّعة الصوفيَّة على رأس ابنها، وقالت:

«لقد تقاسمنا الأدوار باتِّفاقٍ أبرمناه منذ الطفولة: الشرِّيرة هي أنا».

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

٣٨

تحاملت، في السيَّارة، على باسكوالي: «*هل أصبحتَ عبدًا لهؤلاء الناس؟*» وتركها تفرِّغ غلّها وحين شعر بأنَّها وصلت إلى قاع اتِّهاماتها، هاجمها بخطابه السياسيّ الجاهز ظروف العمَّال في الجنوب؛ حالة العبوديَّة التي يرزحون تحتها؛ والابتزاز الدائم؛ خمول النقابات أو غيابها بالأجرى؛ ضرورة تفجير الأوضاع واندلاع النضال. «لينا»، قال لها بالعامِّيَّة بنبرة متألِّمة، «أنت تخافين فقدان تلك الفلوس الشحيحة التي يعطونكِ إيَّاها، ومعك حقّ في هذا، فجينّارو يحتاج إلى العناية كي يكبر لكنِّي متيقِّن من أنَّكِ رفيقةٌ حقيقيَّة، وأعلم بأنَّكِ تفهمين ما نعانيه: نحن العمَّال هنا لم نستطع حتى تحسين الأجور والمعاشات؛ نحن خارج كلّ القوانين؛ نحن تحت الصفر لذا فمن الإجحاف أن تقولي: دعوني وشأني، لديَّ ما يكفيني من أهوال، وأريد الالتفات إلى شؤوني الخاصَّة. على كلٍّ واحدٍ منَّا، في المكان الذي يشغله، أن يقوم بما يستطيع».

كانت ليلا منهارة، ومن حسن الحظّ أنَّ جينّارو نائمٌ في المقعد الخلفيّ، ممسكًا تلك السيَّارة الخضراء بيمينه. سمعتْ خطاب

telegram @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

باسكوالي متدفِّقًا كأمواج. وكان يخطر في ذهنها، بين الحين والآخر، البيتُ الجميل في شارع ڤيتوريو إيمانويلي، والأستاذة، وأرماندو، وإيزابيلَّا، ونينو الذي فرّ بجلده ليجد لنفسه في مكانٍ ما زوجةً من نوع ناديا، وماركو ذو السنوات الثلاث يُجيد القراءة أفضل من ابنها بمراحل. لا فائدة من الجهد الذي تحرص على بذله كي تصنع من جينّارو طفلًا لامعًا كان طفلها يضيع، متخلِّفًا عن الركب، ولم يكن في قدرتها أن تدفع به إلى الأمام. وحين وصلوا تحت البيت، ورأت أنَّها مضطرَّة إلى دعوة باسكوالي إلى الصعود، قالت له: لا أعلم ما الذي طبخ إنتسو، إنَّه طبَّاخٌ سيِّئ، ربَّما لا يناسبك ما أعدّه على العشاء. وهكذا أملت أن يمضي في طريقه؛ لكنَّه أجابها سأبقى عشر دقائق ثم أذهب، فلمست ذراعه بأطراف أصابعها، وغمغمت:

«لا تخبرْ صديقك بشيء».

«بخصوص ماذا؟»

«بخصوص الفاشيِّين. فإن عرف بالأمر، ذهب هذا المساء ليهشِّم وجه جينو».

«هل تودِّينه؟»

«لا أريد أن يحدث له مكروه».

«آه».

«إنَّه كذلك».

«تعرفين أنَّ إنتسو يعلم أفضل منِّي ومنك ما الذي عليه فعله».

«أجل، ولكن لا تخبرْه بشيء عمومًا».

عبَّر باسكوالي عن موافقته بإيماءة عابسة. أخرج جينّارو الذي كان يغطّ في نومه، وحمله بين ذراعيه على السلالم، تتبعه ليلا التي كانت

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

تتمتم باستياء: أيّ يومٍ تعيس هذا، إنّي متعَبة حتى الموت، لقد ابتليتني أنت ورفاقك بمصيبةٍ عسيرة. قالا لإنتسو إنّهما كانا في اجتماعٍ في بيت ناديا، وحرص باسكوالي على عدم إفساح المجال لإنتسو في طرح الأسئلة، فثرثر من دون توقُّف حتى منتصف الليل. قال إنَّ ناپولي، كبقيّة أرجاء العالم، كانت تعيش غليانًا سيولِّد حياةً حقيقيّة، وأثنى على أرماندو كثيرًا، فهو يطبِّب مجّانًا مَن ليس لديه نقود، بدلاً من أن يفكِّر في مسيرته المهنيَّة. وكان يعتني بأطفال الضواحي، ويتعاون مع ناديا وإيزابيلّا في ألف مشروع لخدمة الشعب: حضانة أطفال، وعيادة طبِّيَّة. قال إنَّه لن يُترَك أيّ شخص يواجه شقاءه بمفرده، وإنَّ الرفاق يساعدون الرفاق، والمدينة تعيش لحظات رائعة. «وأنتما»، قال، «لا ينبغي لكما التقوقع في البيت، عليكما أن تخرجا، لا بدّ لنا من أن نبقى معًا دائمًا». وصرَّح في الختام، عن قطيعته مع الحزب الشيوعيّ: كثير من الأشياء المقيتة تحدث، وثمَّة مخاطر لا يُستهان بها على الصعيدين الوطنيّ والدوليّ. لم يعد يُحتمل البقاء على الحياد. انزعج إنتسو كثيرًا من هذا الخيار، واحتدم النقاش بينهما ودام طويلًا الحزب هو الحزب، لا، بلى، لا، فليكفُّوا عن انتهاج التهدئة في سياساتهم، يجب مهاجمة مؤسَّسات النظام. وسرعان ما ملّت ليلا، فذهبت لتُودِع ابنها السرير، بعد أن تعشّى متباكيًا، ولم تعد إليهما

لكنَّها ظلّت مستيقظة حتى بعدما انصرف باسكوالي، واختفت أيّ دلالةٍ على وجود إنتسو في البيت. قاست حرارتها، فوجدتها ثمانيَ وثلاثين درجة. عادت تفكِّر في تلك اللحظة التي استصعب فيها جينّارو القراءة. أيّ كلمةٍ صعبة انتقتها له: الوجهة. لم يسمع جينّارو بهذه الكلمة حتمًا لا يكفي أن يعرف الطفل الأبجديَّة، فكَّرتْ، فالمصاعب أكبر بكثير ممَّا نتخيَّل. لو أنّ ناديا أنجبت هذا الطفل من نينو، لكان له

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

مصير مختلفٌ كلِّيًا. شعرتْ بأنَّها أمّ خاطئة. مع أنّي أنا التي أردتُه، قالت لنفسها لم أكن أرغب في الإنجاب من ستيفانو تحديدًا، أمَّا من نينو فنعم. لقد أحبَّت نينو حبًّا حقيقيًا، ورغبت في أن يحبّها، ومن أجل حبّه، فعلت بسرورٍ كلّ ما كانت تفعله لزوجها مرغمةً ومكرهة، وهي تصارع اشمئزازها منه، إذ كانت تخشى أن يقتلها لكنَّها لم تجرِّب ذلك الشعور، الذي يُقال إنّه من المحتوم على المرأة الإحساس به في أثناء الإيلاج. كانت متأكِّدة من أنَّها لم تجربه، ليس مع ستيفانو فحسب، بل مع نينو أيضًا إنَّ الرجل مولَع كثيرًا بذَكَره، إلى درجةٍ تصل به إلى الافتخار به؛ ومقتنع بأنَّكِ أنتِ أيّتها الأنثى مولَعة به مثله، بل أكثر منه بكثير. حتى جينّارو الصغير لا يكفّ عن مداعبة عصفوره، وقد شعرت بالحياء أحيانًا من كثرة إمساكه وتدويره بين يديه. كانت ليلا تخشى أن يُلحِق الأذى بنفسه، وحتى عندما كانت تحمِّمه أو تبوّله، اضطرّت إلى الاعتياد على الأمر رغمًا عنها أمَّا إنتسو فكان محتشمًا للغاية، لم يكن يظهر في البيت بسرواله الداخليّ أبدًا، ولم يكن يتلفَّظ بعباراتٍ سُوقيَّة قطُّ. وهذا هو سبب كثافة الألفة التي تكنّها له. كانت ممتنَّة له، لانتظاره بإخلاص في الغرفة الأخرى. لم يقم بحركة طائشةٍ تنمّ عن نفاد صبره أبدًا وقد بدا لها أنَّ عزاءها الوحيد يكمن في تلك الرقابة التي كان يجريها على نفسه وعلى الأشياء معًا ثم نبت الإحساس بالذنب: فما كان يعزِّيها كان يعذِّبه. فاجتاحها إحساسٌ بأنَّ إنتسو يتعذَّب بسببها، وتصدَّر كلّ متاعب ذلك اليوم. أخذت الأحداث والأقوال تتخبَّط في رأسها طويلًا نبرات الأصوات، وكلماتٌ بعينها كيف ستتصرَّف في المصنع في اليوم التالي؟ هل صحيحٌ أنّ تلك الحماسة كانت توقد نابولي والعالم بأسره؛ أم إنّ باسكوالي وناديا وأرماندو يتوهَّمون ذلك ليقضوا على مخاوفهم، وعلى

telegram @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

ضجرهم، أو ليتشجَّعوا فحسب؟ هل ينبغي لها أن تثق بأفكارهم، على الرَّغم من خطورة الوقوع أسيرةً في الأوهام؟ أم من الأفضل أن تعود باحثةً عن برونو لينجّيها من المِحَن؟ ولكن، هل ستُجدي محاولاتها في تطييب خاطره، وماذا لو انقضّ عليها مجدَّدًا؟ هل سيُجدي رضوخها لبغي فيليبو وسائر المدراء؟ لم تصل إلى نتائج متقدِّمة. وفي النهاية، تبنَّت بين النوم واليقظة، مبدأً قديمًا كنّا قد استوعبناه، أنا وهي، منذ أن كنَّا صغيرتين. إذ بدا لها أنَّه، كي تنقذ نفسها، وتنقذ جينّارو، عليها أن تستعبد مَن يسعى إلى إخضاعها، وأن تُرهب مَن يحاول إخافتها. غلبها النعاس وهي تنوي أن تُلحق الضرر بناديا، كي تُثبت لها أنَّها كانت مجرَّد فتاة صغيرة تنتمي إلى عائلة رفيعة لم تُورثها سوى الهذر المعسول؛ وبسوكافو كي تُفسِد عليه متعته في شمّ روائح اللحوم والإناث في قسم التعتيق.

٣٩

استيقظتْ في الخامسة فجرًا، تسبح في عرقها، وقد زالت عنها الحمّى. لم تجد التلاميذ، عند بوّابة المصنع، إنَّما رأت الفاشيِّين. السيَّارتان ذاتاهما، والوجوه نفسها، التي ظهرت في اليوم السابق. كانوا يردِّدون بعض الهتافات، ويوزِّعون المناشير. شعرت ليلا بأنَّهم يحضِّرون لجولة عنف أخرى، فتقدَّمت في طريقها مطأطئة الرأس، ويداها موغلتان في جيبيها، متمنِّيةً دخول المصنع قبل بداية المعركة. فإذا جينو يظهر أمامها

«أما زلتِ تعرفين القراءة؟» سألها بالعامِّيَّة، مقدِّمًا إليها أحدَ المناشير. ظلَّت يداها في جيبيها، وردّت:

«أجل، أنا أعرف القراءة. أمّا أنت، فمتى تعلَّمت؟»

وحاولت أن تتخطّاه، ولكن عبثًا اعترض جينو سبيلها، وأدخل المنشور بالقوَّة في جيبها، بحركة عنيفةٍ حتى إنَّ أظفاره خدشت يدها. كوَّرت ليلا المنشور بهدوء.

«ليس نظيفًا حتى لمسح المؤخِّرات»، قالت ورمته بعيدًا.

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

«خذيه عن الأرض»، أمرها ابن الصيدلانيّ وهو يشدّ قبضته على ذراعها، «خذيه حالًا، وكوني حذرة. طلبتُ عصر البارحة، من زوجك الديُّوث الإذنَ بتهشيم وجهكِ، وقد وافق على ذلك».

صوَّبت ليلا سهام عينيها إلى عينيه:

«وأنت، كي تهشِّم وجهي، رحتَ تستأذن زوجي؟ دع ذراعي حالًا أيُّها الوضيع».

وصل إيدو، في تلك اللحظة، وتوقَّف هناك، بدلاً من أن يتظاهر بأنَّه لم ير شيئًا كما كان متوقَّعًا من شخصٍ مثله.

«هل يزعجكِ هذا الفتى يا شيرولُّو؟»

وما هي إلَّا لحظة خاطفة، حتى سدَّد جينو لكمةً قويَّة إلى وجه إيدو، أردتْه أرضًا انتفض قلب ليلا، وراح كلّ شيء يجري بسرعة فائقة، حملتْ حجرًا وأحكمتْه بقبضتها ثم رمت به صدر ابن الصيدلانيّ بقوَّة شديدة. كم كانت تلك اللحظة طويلة. فبينما كان جينو يدفعها إلى أحد عواميد الإنارة، وبينما يحاول إيدو النهوض ثانيةً، دخلت سيَّارةٌ أخرى ذلك الدرب الوعر فأحدثت زوبعةً من غبار. عرفت ليلا السيَّارة. إنَّها سيَّارة باسكوالي المهترئة. ففكَّرتْ: هكذا إذن، استوعب أرماندو كلامي، وربَّما ناديا أيضًا، لأنَّهما خلوقان، أمَّا باسكوالي فلم يحتمل، وجاء يخوض الحرب. وبالفعل، فُتِحت أبواب السيَّارة، وخرج منها خمسة رجال، بينهم باسكوالي. كان من الواضح أنَّهم عمَّال بناء، يحملون بلطاتٍ معقودةً، انهالوا بها على الفاشيّين بضراوة مدروسة، من دون أن يُحدثوا جروحًا، ضربة واحدة فقط لكنَّها دقيقة وحازمة. وسرعان ما لاحظت ليلا أنّ باسكوالي يركِّز في جينو وبما أنَّها كانت على مقربة من الأخير، أحكمت قبضة كلتا يديها على إحدى

ذراعيه، وقالت له وهي تضحك: ربّما من الأفضل أن تفرّ بجلدك، وإلّا أردوك صريعًا لكنَّه لم يفرّ، بل دفعها ثانيةً وانقضّ لمقاتلة باسكوالي. فراحت ليلا تساعد إيدو على النهوض، وحاولت أن تسحبه إلى الباحة. وكم كان الأمر صعبًا، فإيدو ثقيل الوزن ولا يلبث يتلوّى من الألم وينزف، ويصرخ بالشتائم. ولم يهدأ قليلًا إلَّا حين رأى باسكوالي يضرب جينو بالبلطة ليبطحه أرضًا وازداد حجم البلبلة: كانت الأغراض القديمة، المرميَّة على حافَّتي الطريق، تتطاير كالقذائف المحطَّمة، مترافقة مع البصاق والمسبّات. ترك باسكوالي جينو مغميًّا عليه، واقتحم باحة المصنع، بصحبة رجل لم يكن يرتدي سوى قميصٍ داخليٍّ فوق بنطال أزرق عريض مبقَّع بالجصّ. وأخذ كلاهما ينهال على ركن الحراسة، بالبلطات، حيث اختبأ فيليبو مذعورًا هشَّما الزجاج، وصاحا بالشتائم النابية، بينما انبرى بوق سيَّارة الشرطة وبات يدنو شيئًا فشيئًا تذوَّقت ليلا مرَّة ثانية المتعةَ المثيرة التي يبثّها العنف في أساريرها أجل، قالت في سرِّها، من أراد إخافتك فعليك أن ترهبه، ما من خيار آخر: اللكمة باللكمة. وما تنتزعه منِّي سوف أستعيده، وما تسبِّبه لي أردّه وبالًا عليك. ولكن، بينما كان باسكوالي وأتباعه يركبون السيَّارة، وبينما كان الفاشيُّون يلوذون بالفرار أيضًا، وهم يحملون جينو على أكفّهم، وبينما كانت سيَّارة الشرطة تقترب أكثر فأكثر، ذُعِرَت ليلا حين شعرت بأنَّ قلبها يغدو مشحونًا للغاية، كمحرِّك لعبة، وأدركت أنَّه ينبغي لها البحث عن مكانٍ تجلس فيه. وتراخت في البهو، حالما دخلت مبنى المصنع، وانزلق ظهرها على أحد الجدران، وحاولت أن تهدِّئ روعها واعتنت بإيدو، تيريزا، المرأةُ البدينة في الأربعينيَّات من عمرها والعاملةُ في قسم السلخ والتقطيع، ومسحت دماءه عن وجهه، وسخرت بليلا:

«كدتِ في الماضي تقتلعين أذنه، واليوم تُسعفينه؟ كان عليك أن تتركيه في الخارج».

«لقد ساعدني فساعدتُه».

توجَّهت تيريزا إلى إيدو، تكاد لا تصدِّق:

«أنت، أنت ساعدتها؟»

غمغم قائلًا: «عزَّ عليَّ أن يهشِّم أحد الغرباء وجهها، أريد أن أهشِّمه بنفسي».

فقالت المرأة: «هل رأيتما كيف كاد فيليبو يتغوَّط في ثيابه؟»

«كم يليق به ذلك»، غمغم إيدو، «من المؤسف أنَّهما حطَّما ركن الحراسة فقط».

توجّهت تيريزا إلى ليلا، وسألتها بنبرة خبيثة بعض الشيء:

«هل أنتِ من استدعى الشيوعيّين؟ قولي الحقيقة».

هل تمزح فقط ـ تساءلت ليلا ـ أم إنَّها جاسوسة ستخبر صاحب المصنع فورًا؟

«لا» أجابت، «لكنِّي أعرف من استدعى الفاشيّين».

«من؟»

«سوكافو».

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

٤٠

ظهر باسكوالي في المساء، بعد العشاء، متجهِّم الوجه. ودعا إنتسو إلى اجتماع في مكتب قسم سان جوفاني آتيدوتشو. انفردت به ليلا بضع دقائق، وقالت له:

«ما حدث صباح اليوم كان حماقة».

«أفعل ما أجده ضروريًّا».

«وهل صديقاك كانا موافقين؟»

«من تقصدين بصديقيّ؟»

«ناديا وشقيقها».

«بالطبع كانا موافقين».

«لكنَّهما بقيا في بيتهما»

فغمغم باسكوالي: «ومن قال لك إنَّهما بقيا في بيتهما؟»

لم يكن مزاجه صافيًا، بل بدا كأنَّه خائر القوى، كما لو أنَّ التمرُّن على العنف سلب منه وَلَعَه بفعل الأشياء. وعلاوة على هذا، لم يطلب منها المجيء إلى الاجتماع، بل توجَّه بدعوته إلى إنتسو حصرًا،

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

وهذا ما لم يكن يحدث من قبل أبدًا، حتى لو كانت الساعة متأخِّرة، أو الطقس باردًا، بحيث من الصعب أن تُخرِج جينّارو. ربَّما كان لديهما معارك أخرى تنحصر على الذكور. ربَّما كان غاضبًا منها لأنَّ إصرارها على عدم النضال يجعل مظهره سيِّئًا عند ناديا وأرماندو. وما لا شكَّ فيه أنَّه كان مستاءً من نبرتها اللاذعة التي انتقدت بها حملته الصباحيَّة. قالت لنفسها إنَّه مقتنعٌ بأنِّي لم أفهم لماذا ضرب جينو بتلك القسوة، ولماذا أراد أن يفلق رأس حارس المصنع. وسواء أكانوا طيِّبين أم أشرارًا، يعتقد جميع الرجال أنَّه يجدر بكِ أن تمجِّديهم جرَّاء أيّ أمرٍ يقومون به، وتعتبريهم كالقدِّيس جرجس وهو يصرع التنِّين. إنَّه يراني ناكرةً للجميل، فقد فعلها لينتقم لي، ويرغب في أن يسمع منِّي كلمة شكر على الأقلّ.

هجعت ليلا، بعد أن خرج الرفيقان. ظلَّت لوقتٍ متأخِّرٍ تقرأ النشرات التي تتناول العمل والنقابة، والتي أعطاها إيَّاها باسكوالي منذ وقت مضى. وكان الهدف من القراءة أن تبقى في منأى عن الأمور البشعة التي تحدث خلال النهار. كانت تخشى صمت البيت، والنوم، وانتفاضات قلبها الخافق، والأشكال التي توشك على الانحلال في كلِّ لحظة. قرأت كثيرًا على الرَّغم من الإرهاق، وانتابها الشغف كما يحدث لها في العادة. تعلَّمت كثيرًا من الأشياء في وقت قصير جدًّا وكي تبقى مطمئنَّة، أرغمت نفسها على انتظار عودة إنتسو لكنَّه لم يعد، بينما صارت أنفاس جينّارو المنتظمة ترنيمة مخدِّرة، فاستسلمت للنوم.

في صباح اليوم التالي، بدأ إيدو والعاملة في قسم التقطيع، تيريزا، يبرمان حولها بكلماتٍ حذرة وسلوكٍ ودِّيّ. لكنَّ ليلا لم تعاملهما بلطف فحسب، بل رقَّت أيضًا مع غيرهما من العمَّال. وكانت

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

وديعةً مع مَن جاء يمازحها، ومتفهّمةً مع مَن كان غاضبًا، ومتعاونةً مع مَن يتذمَّر من صعوبة العمل. متَّنت كرب هذا بقهر ذاك، فوقفت بين الجميع بكلماتها العذبة. ثم إنّها، في الأيّام اللاحقة، راحت تشجّع إيدو وتيريزا وحزبهما الصغير، محوِّلةً استراحة الغداء إلى ما يشبه لقاءات جماعة سرِّيَّة. وبما أنَّها كانت قادرةً، وقتما تريد، على منح انطباعٍ بأنَّها ليست هي من يقف وراء المقترحات والتدابير، بل الآخرون، التفّ حولها مزيدٌ من الأشخاص التوَّاقين إلى سماع من يقول إنّ استياءهم العامّ ليس ناجمًا إلّا عن ضرورات ملحَّة وطارئة. جمعت مطالب قسم التقطيع ومطالب العاملين في الحاويات المثلَّجة، ومطالب العاملين في الأحواض، وذُهِلت هي نفسها باكتشاف أنَّ مشاكل قسم ما كانت متعلِّقة بمشاكل قسم آخر، وأنَّ جميع العاملين كانوا يشكِّلون معًا خواتم في طَوق الاستغلال نفسه. أقامت جدولًا مفصَّلًا يتضمَّن البلايا الناتجة من ظروف العمل القاسية: أضرارَ اليدين، آلامَ العظام، وأوجاعَ القصبات. وحصدتْ ما يكفي من المعلومات كي تثبت أنَّ المبنى بأكمله كان في حالٍ متردِّية، وأنَّ شروط النظافة في وضعٍ يرثى له، وأنَّهم يعملون بأدوات تالفة، وغالبًا ما تكون مجهولة المصدر. وحين استطاعت التكلُّم مع باسكوالي، وجهًا لوجه، وشرحت له ما استطاعت فعله في ذلك الحيِّز الضيِّق من الوقت، فتح فمه مشدوهًا كما يليق بأيّ غريب أطوار مثله، متعجِّبًا لدقَّتها، ثم قال مبتهجًا: كدتُ أقسم إنَّكِ ستفعلينها ثم حدَّد لها موعدًا مع كابوني، المشرف على غرفة العمل التابعة لنقابة العمَّال.

أعادت ليلا نسخ كلّ ما توصَّلت إليه بخطٍّ مهذَّب، وحملت النسخة إلى كابوني. تفحَّص المشرف الأوراق، وتحمَّس هو أيضًا. وقال لها أشياءَ مثل: من أين أتيتِ؟ أين كنتِ خافية عنَّا، يا رفيقة،

لقد قمتِ بعمل عظيم، أحسنتِ. ثم: نحن لم نستطع دخول مصنع سوكافو أبدًا، فكلّهم فاشيُّون هناك، لكنَّ الأمور ستتغيَّر الآن ما دمتِ هناك.

«كيف علينا أن نتحرَّك؟» سألته.

«عليكم أن تشكِّلوا لجنة»

«لقد شكَّلنا لجنة»

«ممتاز. إذن، عليكم أوَّلًا أن تضعوا ترتيبًا لهذه الأشياء».

«نضع ترتيبًا؟ ماذا تقصد بذلك؟»

نظر كابوني إلى باسكوالي، فلم يقل الأخير شيئًا.

«إنَّكم تطالبون بالكثير من الأمور في وقتٍ واحد، ومن ضمنها أمور لم يطالب بها أحد في أيِّ مكان آخر عليكم أن تحدِّدوا الأولويّات».

«هناك في الداخل، كلّ الأشياء أولويّات».

«أعلم، لكنَّها مسألة تكتيك: إن أردتم تغيير كلّ شيء دفعةً واحدة، فقد تعرِّضون أنفسكم للهزيمة».

زمّت ليلا عينيها كنقطتين غائرتين، وازداد خفقان قلبها قليلًا فعلاوة على ذلك، نتج أنَّه لم يكن في إمكان اللجنة أن تذهب إلى التفاوض مع صاحب المصنع مباشرةً، وأنَّها في حاجة إلى وساطة النقابة.

«وأنا، ألستُ منتسبةً إلى النقابة؟» اعترضت ليلا

«بالتأكيد، ولكن ثمَّة أوقاتًا وأساليب».

خاضوا جولة أخرى من النقاش المحتدم. قال كابوني: في إمكانكم أن تقيِّموا الأمر بأنفسكم. افتحوا نقاشًا بشأن المناوبات:

telegram @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

مثلًا، بشأن العُطَل، والساعات الإضافيَّة، ثم تقدَّموا إلى الأمام. بكلِّ حال ـ ختم كلامه ـ لا تعلمين مدى سعادتي برفيقة مثلك. إنَّه أمر نادر، فلنتعاونْ. سنقطع أشواطًا كبيرة في مجال الصناعة الغذائيَّة، فعدد النساء المناضلات في تناقصٍ مستمرّ. ووضع يده حينذاك على محفظته، في جيب بنطاله من الخلف، وسألها:

«هل يلزمك بعض المال لشراء الحاجات؟»

«أيّ حاجات؟»

«الكُتَيِّب المنسوخ، الورق، الوقت الذي ستخسرينه، إلى ما هنالك من هذا القبيل».

«لا».

أعاد المحفظة إلى جيبه.

«ولكن، احذري أن تفتر عزيمتك وتختفي، يا لينا، فلنبقَ على تواصل. سأكتب اسمك وكنيتك هنا، أودّ الحديث عنكِ في النقابة، علينا أن نَفيد منكِ».

انصرفت ليلا ممتعضة، وقالت لباسكوالي: من هذا الذي اصطحبتَني إليه؟ لكنَّه طمأنها، وأكَّد لها أنّ كابوني شخص رائع، وقال إنَّه كان محقًّا، وينبغي لها أن تُدرك هذه الأمور. هنالك إستراتيجيَّات وتكتيكات. ثم تملَّكته الحماسة، وهاجت عواطفه تقريبًا، فكاد يعانقها، لكنَّه عدل عن ذلك وقال: امضي قُدُمًا يا لينا، فلتذهب البيروقراطيَّة إلى الجحيم، سأخبر الهيئة بالمجريات.

لم تقم ليلا بأيّ عمليَّة انتقاء للأهداف. اقتصرت على تلخيص النسخة الأولى، التي كانت مسهبة للغاية، على ورقة صغيرة جدًّا وسلَّمتها إلى إيدو: قائمةٌ بالمطالب التي تحدِّد تنظيم العمل، ووتيرته، وحالة المبنى بشكل عامّ، وجودة المنتجات، والخطر الدائم بالتعرُّض

للأمراض والجروح، وتعويض الكوارث، وزيادة الرواتب. وظهرت، في تلك اللحظة، مشكلةٌ أخرى: من يذهب لتسليم هذه القائمة إلى برونو.

«ستذهب أنت» قالت ليلا لإيدو.

«إنِّي سريع الغضب».

«هذا أفضل».

«لست صالحًا لهذه المَهمَّة».

«بل أنت بالتحديد مناسبٌ لها».

«لا، اذهبي إليه أنتِ، فقد سبق وانتسبتِ إلى النقابة. ثم إنَّك بارعة في الكلام بأسلوب جيِّد، ستجري الأمور معكِ على خير وجه».

٤١

كانت ليلا تعلم، منذ البداية، بأنّ العبء الثقيل سيقع على عاتقها. أخذت وقتها تركت جينّارو عند الجارة، وذهبت مع باسكوالي إلى اجتماع الهيئة في شارع المحاكم، بهدف مناقشة عدد من الملفَّات، ومن ضمنها مسألة مصنع سوكافو. كانوا اثني عشر شخصًا، هذه المرَّة، بمن فيهم ناديا وأرماندو وإيزابيلّا وباسكوالي. مرَّرت ليلا إلى الجميع النسخةَ التي حضَّرتها لكابوني، بطبعتها الأولى، حيث تستفيض في شرح كلّ مطلب بالتفصيل. قرأتها ناديا باهتمام. وقالت في النهاية: كان باسكوالي محقًّا، أنتِ من أولئك اللواتي لا يستسلمن، لقد قمت بعمل جبّار في غضون زمن قصير جدًّا ثم أثنت، بإعجابٍ صادق، ليس على ما تتضمَّنه الوثيقة من موقف سياسيّ ونقابيّ فحسب، بل على الأسلوب الذي كُتبِت فيه أيضًا، وقالت: كم أنت بارعة حقًّا، متى رأينا أحدًا يستطيع الكتابة عن هذا الموضوع بهذه الطريقة؟ ومع ذلك، نصحتها بعد تلك المقدِّمة، بعدم الانجرار سريعًا إلى نزالٍ مباشر مع سوكافو. وكان لأرماندو الرأي نفسه.

«فلننتظرْ أن نقوى ونكثر»، قال، «الواقع في مصنع سوكافو يحتاج

telegram @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

إلى النضوج. لقد وطأته أقدامنا، وهذا نجاحٌ في حدِّ ذاته، لا ينبغيّ لنا أن نخسره لمجرَّد التهوُّر».

طرح داريو سؤالًا: «ماذا تقترحون؟»

أجابت ناديا، متوجِّهة بالكلام إلى ليلا:

«فلنُجرِ اجتماعًا موسَّعًا سنلتقي رفاقكِ في أقرب وقت، نعزِّز بنيانكم، وإذا اقتضت الضرورة، نحضِّر كُتَيِّبًا جديدًا بالاعتماد على ما كتبتِه».

اجتاح ليلا شعورٌ غامر بالرضا، إزاء هذه التحفُّظات المفاجئة، فقالت بلامبالاة:

«هل ترون أنِّي بذلتُ هذا المجهود، وقد أخسر مكاني في العمل، كي أسمح لكم «أنتم» بعقد اجتماع موسَّع وتحضير كُتَيِّب جديد؟»

لكنَّها لم تستمتع بشعور الانتقام هذا أخذت ترى ناديا ترتجف فجأة، وكانت جالسةً قبالتها تمامًا، كأنَّها زجاج هشّ، وتتفسَّخ صورتها. وأحسَّت ليلا، بلا سبب واضح، بغصَّة في حلقها، وراحت ترى أنَّ حركات الحاضرين الطفيفة - بل حتى رفيف رموشهم - تتسارع بشكل عجيب. أغمضت عينيها، وأسندت ظهرها إلى ظهر الكرسيِّ المتراقص التي تجلس عليه، وشعرت بأنَّها تختنق.

«هل أنتِ على ما يرام؟» سألها أرماندو.

ارتبك باسكوالي.

«إنَّها تتعب كثيرًا» قال، «ما بكِ يا لينا، هل تريدين كأس ماء؟»

هرع داريو لجلب الماء، بينما تفحَّص أرماندو معصمها، وباسكوالي يلحّ عليها متوتِّرًا

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

«بمَ تشعرين، مُدّي ساقيكِ، تنفَّسي».

همست ليلا بأنَّها بخير، وسحبت معصمها بغتة من يد أرماندو، وقالت إنَّها تريد أن تبقى عدَّة دقائق بسلام. ولكن بما أنّ داريو جلب الماء، شربت من الكأس رشفةً، وغمغمت بأنّه ما من شيء خطير، مجرَّد إنفلوانزا

«هل ارتفعت حرارتك؟» سألها أرماندو بنبرة هادئة.

«ليس اليوم».

«هل من سعال، أو ضِيق في التنفُّس؟»

«بعض الشيء، أشعر بأنَّ قلبي ينبض في حلقي».

«هل تشعرين بحال أفضل الآن؟»

«أجل».

«تعالي إلى الغرفة الأخرى».

لم تكن تريد، ومع ذلك كانت تشعر في داخلها بكآبة كبيرة، فأطاعته، ونهضت رغمًا عنها، ولحقت بأرماندو الذي حمل حقيبة جلد سوداء بربطاتٍ مذهّبة. ذهبا إلى غرفةٍ لم ترها ليلا من قبل، كانت كبيرة وباردة، وفيها ثلاثة أسرَّة مزوّدة بأفرشة قديمة يبدو أنَّها عفنة، وخزانة بمرآة بالية، ودُرج كبير. جلست منهكةً على أحد الأسرَّة. لم تكن قد خضعت لفحص في عيادة طبِّيَّة منذ أيَّام حملها. وأخفت عنه كلّ شيء، حين استجوبها عن الأعراض، ولم تخبره سوى عن ثقل في الصدر، لكنَّها أضافت: مسألة تافهة.

كشف عليها أرماندو صامتًا، وسرعان ما نفرت ليلا من هذا الصمت. كان يبدو لها صمتًا غدّارًا. هذا الرجل الرزين، والنظيف، يطرح الأسئلة، ولا يبدو واثقًا بالإجابات مطلقًا. كان يُخضِعها لفحوص كأنَّ جسده مزوَّدٌ بأجهزةٍ وقدراتٍ تجعل منه أداةً موثوقةً

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

للغاية. كان يتسمَّع إلى دقّات قلبها، يجسّ نبضها، يتفحَّصها بعناية، ويفرض عليها، في الوقت نفسه، انتظارَ كلماتٍ حاسمة عما يحدث في صدرها، وبطنها، وحلقها، وأنحاء ملحوظة ظاهريًّا، وقد بدت لها حينذاك مجهولة بالمطلق. سألها أرماندو أخيرًا:

«هل تنامين بشكلٍ جيِّد؟»

«جيِّد جدًّا».

«كم ساعة؟»

«بحسب».

«بحسب ماذا؟»

«بحسب الانشغال بالخواطر».

«هل تأكلين بما فيه الكفاية؟»

«حين يروق لي».

«هل تتعرَّضين لمصاعب في التنفُّس أحيانًا؟»

«لا».

«آلام في الصدر؟»

«أشعر بثقل في الصدر، لكنَّه خفيف»

«عرق بارد؟»

«لا».

«هل حدث أن أُغمي عليكِ أو شعرتِ بإغماء وشيك؟»

«لا».

«هل أنت منتظمة؟»

«بمَ؟»

«بالحيض».

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

«لا».

«متى جاءتك الدورة آخر مرَّة؟»

«لا أدري».

«ألا تسجِّلين ذلك؟»

«هل ينبغي لي أن أسجِّله؟»

«هذا أفضل. هل تستخدمين مضادَّات للحمل؟»

«ماذا تقصد؟»

«الواقي الذكريّ، اللولب، الحبَّة».

«أيّ حبَّة؟»

«دواءٌ جديد: تأخذين الحبَّة فلا تحملين».

«هل هذا صحيح؟»

«طبعًا صحيح. لم يستخدم زوجك الواقي أبدًا؟»

«لم يعد لديّ زوج».

«هل هجركِ؟»

«أنا هجرته».

«هل استخدمه حين كنتما معًا؟»

«إنّي لا أعرف حتى ما شكل هذا الواقي»

«هل تعيشين حياة جنسيَّة منتظمة؟»

«ما الضرورة للتحدُّث بهذه الأمور؟»

«لا نتحدَّث عنها إن أردتِ».

«لا أريد».

أعاد أرماندو عدَّته إلى الحقيبة، وجلس على كرسيٍّ صغير شبه محطَّم، والتقط نَفَسًا

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

«عليكِ أن تخفِّفي من الوتيرة يا لينا؛ لقد دفعتِ جسمكِ إلى حدٍّ بعيد».

«ماذا تعني بهذا؟»

«أنتِ متوتِّرةٌ جدًّا، وتغذيتك ضعيفة؛ لقد أهملتِ نفسكِ كثيرًا».

«وبعد؟»

«لديك بعض القشع، سأعطيكِ شرابًا».

«وبعد؟»

«يجدر بك القيام بسلسلةٍ من الفحوصات. كبدكِ متضخِّمٌ قليلًا».

«ليس لديّ وقت لإجراء الفحوصات، أَعطني دواءً».

هزّ أرماندو رأسه متضايقًا

«اسمعي» قال، «أنتِ من المرضى الذين من الأفضل مصارحتهم بحقائق الأمور: لديكِ النفخة القلبيَّة».

«وما هذه؟»

«مشكلة في القلب، وقد لا تكون أمرًا حميدًا».

عبَّرت ليلا بتكشيرةٍ عن قلقها

«إلامَ ترمي؟ هل سأموت؟»

ابتسم أرماندو، قال:

«لا، ما عليكِ سوى القيام ببعض الفحوصات عند اختصاصيٍّ بأمراض القلب. تعالي إليّ غدًا في المستشفى، كي أرسلكِ إلى اختصاصيٍّ ماهر».

قطَّبت ليلا جبينها، ونهضت وقالت بفتور

«لديّ ما أقوم به في الغد. سأذهب إلى سوكافو».

٤٢

استفزَّتها نبرة باسكوالي المضطربة. بينما كان يقود السيَّارة نحو البيت، سألها:

«ماذا قال أرماندو؟ كيف حالك؟»

«بخير، عليَّ أن آكل أكثر ليس إلَّا».

«أرأيتِ؟ أنت تُهملين نفسكِ».

انفجرت ليلا: «باسكوالي، أنت لست أبي ولا أخي. أنت لا أحد. دعني وشأني، واضح؟»

«ألا يمكنني أن أقلق عليك؟»

«لا، وحذارِ ممّا تقوله وتفعله، وخصوصًا مع إنتسو إن قصصتَ عليه أنِّي توعَّكتُ ـ وهذا ليس صحيحًا في كلٍّ حال، لقد راودتني دوخة عابرة ـ عرَّضتَ صداقتنا للخطر».

«خذي يومين استراحة، ولا تذهبي إلى سوكافو: نصحكِ كابوني بالعدول عن هذه الخطوة، والهيئةُ أيضًا إنَّها مسألة فرصة سياسيَّة»

«وما شأني أنا بالفرصة السياسيَّة؟ أنتم من أدخلني في هذه

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

الورطة، والآن سأفعل ما يحلو لي».

لم تدعُه إلى الصعود، فانصرف غاضبًا. وفي البيت، دلَّلت ابنها كثيرًا، وأعدَّت العشاء، وانتظرت إنتسو. وقد بدا لها حينذاك أنَّ تنفُّسها قصير بشكل ثابت. تأخَّر إنتسو في العودة، فأطعمتْ جينّارو، وخشيت أن تكون الأمسية كتلك الأمسيات التي يذهب فيها للقاء النساء ثم يعود في ساعة متأخِّرة من الليل. وحين قلب الصغير كأسًا مليئة بالماء، كفَّت ليلا عن حنانها، وصرخت في وجهه كما لو كان راشدًا، بالعامِّيَّة: هلَّا توقَّفت قليلًا عن الحركة، هل يجب عليَّ أن أصفع وجهك، لماذا تريد أن تنغِّض حياتي هكذا؟

عاد إنتسو في تلك اللحظة، فحاولت أن تكون لطيفة. تناولا العشاء، لكنَّ ليلا أحسَّت بأنَّها لا تستمرئ اللقمة إلى بطنها، فتظلّ عالقةً في حلقها وما إن غفا جينّارو، حتى تفرَّغا لدروس دورة زوريخ، لكنَّ إنتسو ضجر سريعًا، وحاول بلباقة، أكثر من مرَّة، أن يذهب إلى النوم. لكنَّ محاولاته باءت بالفشل، فليلا تودُّ أن تُطيل السهرة. كانت تخاف أن تُغلق باب غرفتها على نفسها؛ تهاب أن تظهر تلك الأعراض، التي أخفتها عن أرماندو، إذا وجدت نفسها وحيدة في جنح الظلام، فتظهر جميعها معًا، لتفتك بها سألها إنتسو برفق:

«ألا تخبرينني ما بك؟»

«لا شيء».

«تذهبين وتجيئين مع باسكوالي. لماذا؟ ما الأسرار التي بينكما؟»

«إنَّها أمور متعلِّقة بالنقابة. الآن وقد انتسبتُ إلى النقابة، ثمَّة التزامات لا بدَّ من أن أهبها بعض الوقت».

عبَّر إنتسو عمّا ينمّ عن إحباطه، فسألته:

«ما بك؟»

«حدَّثني باسكوالي عمَّا تفعلينه في المصنع. تخبرين باسكوالي بالأمر، وتخبرين أعضاء الهيئة أيضًا، فلماذا أنا الوحيد الذي لا يستحقّ أن يعرف أيّ شيء؟»

توتَّرت ليلا ساخطةً، ونهضت واتَّجهت نحو المرحاض. باسكوالي لم يقاوم. بمَ أخبرَه يا تُرى؟ هل أخبرَه فقط بالمسائل النقابيَّة التي أرادت أن تُرغم عليها سوكافو، أم أخبرَه عن جينو أيضًا، وعن وعكتها في شارع المحاكم؟ لقد عجز عن البقاء ساكتًا. للصداقة بين الذكور مواثيقها، ليست هذه المواثيق مكتوبةً، إلَّا أنَّها ثابتةٌ جدًّا، ولا ترتقي الصداقة بين الإناث إلى مستواها فرَّغت المياه، ثم عادت إلى إنتسو وقالت:

«باسكوالي مُفسِد».

«باسكوالي صديقي. أمَّا أنت، فمن تكونين؟»

تحسَّست ليلا من نبرته، فتراخت فجأة، وبشكل غير متوقَّع. اغرورقت عيناها بالدموع، حاولت حبسها، بلا جدوى، ورضخت للهوان الذي استبدَّ بها.

«لا أريد أن أُحدِث لك المتاعب أكثر ممَّا احتملتُه بسببي حتى الآن»، شهقتْ باكية، «أخاف أن تطردني بعيدًا». ومسحت مخاط أنفها وأضافت هامسةً: «هل في إمكاني أن أنام معك؟»

حدَّق إليها إنتسو، يكاد لا يُصدِّق:

«تنامين معي، كيف؟»

«كما تريد أنت».

«وهل أنتِ تبتغين ذلك؟»

غمغمت ليلا، وهي تُحدِّق في إبريق الماء وسط الطاولة، وتفكِّر

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

في أنّ شكل الإبريق كان مضحكًا، يحبّه جينّارو كثيرًا، لأنَّ رأسه كمنقار الدجاجة:

«ما يهمّ هو أن تُبقيني في جوارك».

هزَّ إنتسو رأسه مكتئبًا

«أنتِ لا ترغبين فيَّ».

«أرغب فيك، لكنّي لا أشعر بشيء».

«لا تشعرين بشيء «تجاهي»؟»

«ماذا تقول؟ إنّي أُكِنُّ لك خالص المودَّة، وأرغب في كلٍّ مساء في أن تناديني وتغمرني في حضنك. لكنّي لا أرغب في أيٍّ شيء آخر أكثر من ذلك».

شحب وجهه الجميل، واكفهرَّ كما لو أنَّه يذوق عذابًا لا يُطاق، فسأل متبيِّنًا

«هل تشمئزّين منّي؟»

«لا، لا، لا فلنفعلْ ما تريد، وحالًا، فأنا جاهزة».

لاحت على ثغره ابتسامة يائسة، واكتفى بالصمت لبعض الوقت. حتى إذا لم يعد يحتمل اضطرابها، تمتم قائلًا:

«فلنذهب للنوم».

«كلٌّ في غرفته؟»

«لا، في غرفتي».

انتشت ليلا، وذهبت لتغيِّر ثيابها ارتدت لباس النوم، وقصدتْ غرفته، وهي ترتجف بردًا ووجدت إنتسو في السرير

«هل أنام في هذا الجانب؟»

«حسنًا».

مكتبة الرمحي أحمد telegram @ktabpdf

غطست تحت الغطاء، وأسندت رأسها إلى كتفيه، ومرَّرت ذراعيها على صدره. ظلّ إنتسو ثابتًا، بلا حراك، وسرعان ما شعرت ليلا بأنَّ جسمه يضخّ دفئًا متوقِّدًا

«قدماي متجمِّدتان» همست في أذنه، «هل لي أن أضعهما على قدميك؟»

«نعم».

«هل لي أن أداعبك قليلًا؟»

«دعيني وشأني».

تداعى شعورها بالبرد شيئًا فشيئًا وخمدت آلام صدرها، وانجلت الغصَّة عن حلقها، وامتثلت لهدنة الدفء تلك.

«هل في إمكاني أن أنام؟» سألته، وقد أذواها التعب.

«نامي».

٤٣

انتفضت عند الفجر ذكَّرها جسدُها بوجوب استيقاظها. وعاودتها، في لحظة واحدة، الخواطر البشعة كلُّها، بكامل وضوحها قلبها المعتلّ؛ تخلّف جينّارو؛ فاشيُّو الحيّ؛ تذاكي ناديا؛ فقدانها الثقة بباسكوالي؛ قائمة المطالب. ولم تفطن إلى أنَّها نامت مع إنتسو إلَّا بعد حين، لكنَّه لم يعد في السرير نهضت على عجل، لتسمع باب البيت يُغلَق فقط. هل نهض حالًا بعد استيقاظها؟ أم إنَّه ظلّ ساهرًا طوال الليل؟ هل ذهب لينام في الغرفة الأخرى مع الصغير؟ أم إنَّه نام إلى جانبها غير مكترث لأيّ رغبة؟ لا شكَّ في أنَّه تناول فطوره وحيدًا، وقد ترك الطعام لها ولجينّارو أيضًا خرج إلى عمله، من دون أن يُنطق بكلمة واحدة، محتفظًا بأفكاره في رأسه.

وليلا أيضًا، أسرعت إلى المصنع، بعد أن سلَّمت ابنها للجارة.

«هل قرَّرتِ، إذن؟» سألها إيدو متجهِّمًا.

«أُقرِّر متى يطيب لي»، أجابته ليلا مستعيدةً نبرتَها القديمة.

«نحن في لجنة واحدة، عليكِ أن تُعْلمينا».

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

«هل تناقلتم القائمة؟»

«أجل».

«وماذا قال الآخرون؟»

«سكوتهم علامة الرضا».

«لا»، قالت، «سكوتهم يعني أنَّهم يتغوَّطون في سراويلهم خوفًا».

كابوني على حقّ، إذن، ونادیا وأرماندو أيضًا. كانت المبادرة هزيلة، مبنيَّة على الإكراه. عملت على تقطيع اللحوم بضراوة. كانت لديها رغبةٌ في إلحاق الأذى بنفسها وبمن حولها؛ أن تغرس السكِّين في يدها؛ أن تنتقل من تقطيع اللحوم الميِّتة إلى تمزيق لحمها الحيّ؛ أن تصرخ؛ أن تهاجم الآخرين، وتجعلهم يدفعون ثمن عجزها عن إيجاد توازنٍ مقبول. آهٍ، يا لينا شيرولُّو، كم أنتِ متمرِّدة. لماذا أعددتِ تلك القائمة؟ تريدين ألَّا يستغلّك أحد؟ تريدين تحسين ظروفك وظروف هؤلاء الناس؟ هل أنتِ مقتنعةٌ حقًّا بأنَّكِ، وهؤلاء، ستبدأون من هنا، ممَّا أنتم عليه الآن، ثم تتكاتفون في مسيرة نضاليَّة ظافرةٍ تتَّحد فيها بروليتاريا العالم بأسره؟ إيَّاكِ أن تحلمي بهذا مسيرة نضاليَّة، وما الغاية منها؟ كي نبقى عُمَّالًا دومًا كما كنَّا؛ عمَّالاً يشقون من الصباح حتى المساء، لكنَّهم في سدَّة الحكم؟ تُرَّهات. كلامٌ فارغٌ، بريقه يُخفي لبّ الشقاء. تعلمين جيِّدًا بأنَّها ظروف عسيرة، لا يصلح تحسينها بل يجب القضاء عليها، تعلمين ذلك منذ أن كنتِ طفلة. التحسين؟ التحسين الذاتيّ؟ أنتِ، على سبيل المثال، هل تحسَّنت أوضاعكِ، هل بِتِّ مثل نادیا أو إيزابيلَّا؟ هل تحسَّنت أحوال شقيقكِ، هل أصبح مثل أرماندو؟ وهل ابنك في مستوى ماركو؟ كلَّا، نحن سنبقى على حالنا، وهم سيبقون على ما هم عليه. فلماذا لا

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

تستسلمين، إذن؟ كلّ ما تعانينه بسبب رأسكِ الذي لا يعرف السكينة، لا يكلّ ولا يملّ بحثًا عن طريقةٍ يشتغل على أساسها. تارةً يُصمِّم أحذية، وتارةً يَهِمّ لإنشاء ورشة لصنع الأحذية، وتارةً يكتب لنينو مقالاته، ويضغط عليه كي يتصرَّف كما تشائين. تستخدمين دورات زوريخ، مع إنتسو، وفقًا لأهوائكِ. والآن تريدين أن تُثبتي لناديا أنَّكِ بارعة أكثر منها في صنع الثورات وتوجيهها. تبًّا لرأسكِ. داؤكِ قائمٌ هناك، في رأسكِ. أجل، فكلَّما اكتوى الرأس بخيباته، اعتلَّ الجسد. لقد ضقتُ ذرعًا بنفسي، وبكلِّ شيء. ضقتُ ذرعًا بجينّارو أيضًا: مصيره، في أحسن الأحوال، أن ينتهي في مكان قميء كهذا، يستجدي رحمة ربّ عمل من أجل بضع ليرات. فماذا إذن؟ إذن، يا شيرولُّو، تحمَّلي مسؤوليَّاتِكِ، وافعلي ما كان يجول في رأسكِ دائمًا: أَفزعي سوكافو، اجعليه يكفَّ عن ممارسة عادته الحقيرة بجرٍّ العاملات لينكحهنَّ في قسم التجفيف. أري ذلك الطالبَ، صاحب الوجه الذئبيّ، ما الذي استطعتِ تحضيره. ذلك الصيف في إيسكيا المشروبات، والمنزل في فوريو، والسرير الفاخر الذي نمتِ فيه مع نينو. تلك الأموال كانت تأتي من هذا المصنع؛ من هذه الرائحة المقيتة؛ من هذه الأيَّام الصعبة بين القرف والنفور؛ من هذا التعب الذي يقاضونكِ عليه بضعة قروش. وماذا قطعتُ الآن؟ اللعنة، انبثقت مادَّة رخوة مصفرَّة، يا للاشمئزاز. هذه الأرض تدور، لكنَّها، لحسن الحظّ، لا تسقط، وإلَّا تحطَّمت.

حسمتْ قرارها قبل استراحة الغداء بقليل. قالت لإيدو: سأذهب. وكانت تنزع عنها المئزر، حين ظهرت سكرتيرة برونو في قسم التقطيع لتقول لها

«الأستاذ سوكافو يريدكِ في مكتبه لأمرٍ طارئ».

telegram @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

ظنَّت ليلا أنَّ أحد الجواسيس أعلم سوكافو بما كانت تحضِّره.
تركت عملها، وأخرجت ورقة المطالب من الدُّرج الصغير، وصعدت. طرقت باب مكتبه ودخلت. لم يكن برونو بمفرده في الغرفة. وجدتْ ميكيلي سولارا هناك، مسترخيًا على الأريكة، والسيجارة تتدلَّى من فمه.

٤٤

على الرَّغم من يقينها بأنَّ ميكيلي لن يتركها وشأنها، وأنَّه سيظهر في حياتها عاجلًا أم آجلًا، فإنَّها قد فزعت بسبب وجوده أمامها في مكتب سوكافو، تمامًا كما كانت في طفولتها تخشى الأشباح المتربِّصة في زوايا البيت المظلمة. ما الذي يفعله هنا، تساءلت، عليّ أن أنصرف حالًا لكنَّ سولارا نهض واقفًا، بمجرَّد أن رآها، وبسط ذراعيه تجاهها، وكان يبدو متأثِّرًا بلقائها حقًّا. قال بالإيطاليَّة: لينا، يا للروعة، كم أنا سعيد برؤيتكِ. كان يريد أن يعانقها، وكان سيفعلها لولا أنَّها صدَّته تلقائيًّا بما ينمّ عن تقزُّزها ظلَّ ميكيلي باسط الذراعين للحظات، ثم تخبَّطت حركاته، فراح يتحسَّس وجنته ورقبته بيدٍ، ويشير بالأخرى لسوكافو إليها، قائلًا بأسلوب مصطنعٍ هذه المرَّة:

«انظر، انظر! أكاد لا أصدِّق. هل كنتَ حقًّا تخفي السيِّدة كارّاتشي بين لحوم السالامي؟»

توجَّهت ليلا إلى برونو، باستياء:

«سأعود في وقت لاحق».

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

«اجلسي»، قال لها عابسًا

«أفضِّل البقاء واقفة».

«اجلسي وإلَّا تعبتِ».

هزَّت رأسها نافيةً، وظلَّت على قدميها، فرمق ميكيلي سوكافو بابتسامة متواطئة:

«إنَّها وُلِدَت هكذا، سلِّمْ أمرك، فهي عنيدة ولا تُطيع الأوامر مطلقًا»

شعرت ليلا بأنَّ صوت سولارا اكتسب نبرة مستعلية، أكثر ممَّا كان عليه في الماضي، إذ كان يشدِّد على الحروف الأخيرة في كلِّ كلمة، كأنَّه خضع لتمارين اللفظ خلال الفترة السابقة. فإذا هي تغيِّر فكرتها وتجلس. ربَّما أرادت ادِّخار القوى، أو لأنَّها أرادت أن تعارضه ليس إلَّا عاد ميكيلي إلى الجلوس أيضًا، وبرم إلى جهتها كلِّيًّا، كما لو أنَّ برونو لم يعد موجودًا في المكتب منذ تلك اللحظة. ركَّز نظراته فيها جيِّدًا، باستلطاف، وقال مُظهِرًا حزنه وأساه: خسارة! لقد أتلفتِ يديكِ، كم كانتا جميلتين حينما كنتِ صغيرة. وأخذ يثرثر عن المحلّ في ساحة الشهداء، بأسلوب توضيحيّ، كأنَّ ليلا لا تزال موظَّفة عنده، يتحدَّث معها في جلسة عمل. نوَّه إلى الرفوف الجديدة، والإضاءة الجديدة، وكيف أنَّه أعاد تشييد الحائط بديلًا عن باب المرحاض المؤدِّي إلى الفناء. تذكَّرت ليلا ذلك الباب، وقالت بهدوء، بالعامِّيَّة:

«لا يهمّني محلّك».

«تقصدين أنَّه «محلَّنا»، فقد أنشأناه معًا»

«أنا لم أُنشئ أيّ شيء معك».

ابتسم ميكيلي ثانيةً، محرِّكًا رأسه دلالةً على مجاملته وموافقته.

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

«مَن يموِّل المشروع»، قال، «ينجح ويفشل تمامًا كمن يعمل فيه بيديه ورأسه. الأموال تبني الرؤى والأوضاع وحياة البشر. أنتِ لا تعلمين مدى قدرتي على إسعاد الناس أو إتعاسهم، بمجرَّد إمضاء على «شيك» واحد». ثم استعاد ثرثرته بهدوئه المعتاد، وبدا مسرورًا بإحاطتها بآخر الأخبار، كما يحدث بين الأصدقاء بصورة عامَّة. استهلَّ حديثه بألفونسو، الذي أثبت جدارته في العمل في ساحة الشهداء، حتى بات يتقاضى ما يكفيه لتكوين أسرة. لكنَّه لم يكن راغبًا في الزواج. كان يفضِّل أن يُبقي ماريزا المسكينة في خطوبةٍ مؤبَّدة، ليتابع حياته كما يطيب له. فما كان منه، وهو صاحب العمل، إلَّا أن شجَّعه، فالحياة المنتظمة تناسب الموظَّفين. عرض أن يتبرَّع له بتكاليف حفل الزفاف. وهكذا، وأخيرًا، سيتزوَّجان في يونيو القادم. «أترين»؟ قال لها، «لو أنَّكِ تابعتِ العمل عندي، لطردتُ ألفونسو، ومنحتُكِ كلّ ما تطلبين منِّي، وأصبحتِ مَلكة». وألقى رماد سيجارته في منفضة برونزيَّة عتيقة، ومن دون أن يعطيها الوقت للردِّ، صرَّح لها بأنَّه سيتزوَّج هو الآخر، في يونيو أيضًا سيتزوَّج جيليولا، في طبيعة الحال، أعظم حبٍّ في حياته. «يؤسفني أنِّي لن أتمكَّن من دعوتكِ ـ تذمَّر ـ كان وجودكِ سيسعدني، لكنِّي لا أريد إحراج زوجكِ». وشرع يتحدَّث عن ستيفانو، وآدا وابنتيهما، مادحًا الثلاثة تارةً، ومشدِّدًا على تدهور أوضاع الملحمتين تارةً أخرى. وفسَّر الأمر قائلًا: «استطاع كارّاتشي الصمود إلى أن نفدت أموال والده، فالتجارة بحرٌ هائج، ومنذ مدَّة والمياه تتسرَّب إلى سفينة ستيفانو، فلم يعد يقوى. لأنَّ المنافسة احتدمت ـ قال ـ والمتاجر الجديدة تُفتتح يومًا بعد يوم. مارتشيلُّو نفسه، على سبيل المثال، عزم على توسيع المستودع القديم، لصاحبه السابق المرحوم الدون كارلو، وأراد أن يحوِّله إلى أحد تلك المحالّ الكبرى، حيث

يُباع كلّ شيء، من قِطع الصابون الصغيرة إلى المصابيح والمرتديلَّا والحلوى. وقد فعلها، وها هو المشروع يُثمر بنجاح، وأطلق على المتجر اسم «كلّ شيء في متناول الجميع».

«هل تقصد أنّك، بمساعدة أخيك، استطعتما القضاء على ستيفانو أيضًا؟»

«القضاء عليه؟ ما بالك يا لينا؟ نحن نقوم بعملنا فقط، لا بل إنّنا على استعداد لمساعدة الأصدقاء بكلِّ سرور بقدر استطاعتنا خمِّني من عيَّن مارتشيلّو للعمل عنده، في المتجر الجديد؟»

«لا أعرف».

«شقيقك».

«هل انحدرت رتبة رينو عندكما إلى مجرَّد بائع؟»

«حسنًا، أنتِ تخلَّيتِ عنه، وهو مسكين يحمل همّ أبيك وأمّك وولده على عاتقه. ثم إنَّ بينوتشا حملتْ مرَّة أخرى. ما الذي في وسعه أن يفعله؟ قصد مارتشيلّو للمساعدة، فساعده مارتشيلو. ألا يسعدكِ هذا؟»

ردَّت ليلا بفتور: «لا، لا يسعدني. لا يسعدني أيّ شيء تفعلانه».

عبَّر ميكيلي عن خيبة أمله؛ وتذكَّر وجود برونو

«أتراها؟ كما قلت لك، مشكلتها أنَّ لديها طباعًا لئيمة»

افتعل برونو ابتسامة مرتبكة، أراد لها أن تكون متواطئة:

«هذا صحيح».

«هل تسبّبت لك بالأذى أنتَ أيضًا»

«نوعًا ما».

مكتبة الرمحي أحمد telegram @ktabpdf

«أتعلم بأنَّها في طفولتها المبكِّرة استلَّت سكّينًا وكادت تجزّ بها عنق أخي، على الرَّغم من أنَّه كان أطول منها ضِعفًا؟ ولم تفعلها ممازحةً، بل كان من الواضح أنَّها مستعدَّة لاستعمالها».

«هل أنت جادٌّ في ما تقول؟»

«طبعًا إنَّها شجاعة، ورابطة الجأش».

أحكمت ليلا قبضة يديها، كانت تكره الوهن الذي تشعر به يتملَّك جسمها. الغرفة تتماوج، أشكال الأشياء الجامدة وجسدا الشخصين الحيّين تتمدَّد. نظرت إلى ميكيلي وهو يطفئ عقب سيجارته في المنفضة. كان يستعمل من العنف في هذه الحركة أكثر ممّا يجب، كما لو كان بدوره، على الرَّغم من نبرته الهادئة، يحاول تفريغ نقمةٍ تستفحل به. ركَّزت ليلا أنظارها في أصابعه التي لا تنفكّ تطحن عقب السيجارة، وكانت أظفارُه ناصعةَ البياض. وجال في ذهنها أنَّه طلب منها ذات مرَّة أن تصبح عشيقته. لكنَّه لم يأتِ لهذا الأمر في الحقيقة. ثمَّة شيء آخر، شيء لا علاقة له بالنكاح، حتى هو كان عاجزًا عن تفسيره. يعاند عليه، مثلما يؤمن الناس بمعتقدٍ خرافيّ. لعلَّه يظنّ أنّي أخزِّن طاقةً لا غنًى له عنها يسعى إلى الاستحواذ عليها ولا يقوى على تملُّكِها يتعذَّب لهفةً للحصول عليها. إنَّه شيءٌ لا يستطيع أن ينزعه منّي بالقوَّة. أجل، ربَّما الأمر كذلك. وإلَّا لكان سحقني منذ زمن. ولكن، لماذا أنا بالتحديد؟ ما الذي رآه فيّ مفيدًا بالنسبة إليه؟ لا ينبغي لي أن أبقى هنا، تحت عينيه، لا ينبغي لي أن أصغي إليه، فإنَّه يخيفني في ما يرى وما يبتغي. قالت ليلا لسوكافو:

«سأترك لك شيئًا وأنصرف».

نهضت واقفةً، وعلى وشك إعطائه قائمة المطالب. خطوةٌ رأتها تفقد أيّ معنًى على الرَّغم من ضرورتها. كانت تريد وضع الورقة على

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

الطاولة، إلى جانب المنفضة، لتخرج من المكتب. لكنَّ صوت ميكيلي أوقفها كان صوته حينذاك مليئًا بالحنان كلّيًّا، كأنَّه يُداعبها، كأنَّه فهم أنَّها تحاول الإفلات منه، فعليه أن يسخِّر كلّ إمكانيَّاته ليسحرها ويجذبها. تابع كلامه لسوكافو:

«أرأيت؟ إنَّ لها طباعًا لئيمة بالفعل. أنا أتكلَّم وهي لا تُعير اهتمامًا. تُخرِج ورقة، وتقول إنَّها تريد الانصراف. لكنَّك ستعذرها، فصاحب الطبع اللئيم غنيٌّ بما لا يُحصى من المؤهِّلات. هل تظنّ أنَّك وظَّفت عندك عاملة؟ أنت مخطئ إذن. هذه السيِّدة أكثر من ذلك بكثير إن تركتْها تعمل على راحتها لقلبت لك البراز ذهبًا، إنَّها قادرة على إعادة ترتيب كوخك هذا، لتمضي به إلى مستويات ليس في وسعك حتى أن تتخيَّلها لماذا؟ ليس لأنَّها تمتلك رأسًا لا تجده عند كلِّ الإناث فحسب، بل لأنّ رؤوسنا نحن الذكور أيضًا لا تضاهي رأسها. كنت أراقبها منذ أن كانت طفلة صغيرة، وإنَّها كذلك فعلًا لقد صمَّمت لي أحذيةً ما زلت أبيعها حتى اليوم في نابولي وخارجها، وتدرّ لي أرباحًا طائلة. وقد رمّمتْ لي المحلّ في ساحة الشهداء بخيالٍ جامح حتى بات صالونًا يقصده السادة الأكابر القاطنون في شارع كيايا وبوزيليبو وفوميرو. وثمَّة الكثير، الكثير من الأشياء الأخرى، قادرة على تحقيقها. إلّا أنَّها مجنونة أيضًا، تعتقد أنَّ في إمكانها فعلَ كلّ شيء كما يحلو لها. تروح، تجيء، تصلِّح، تحطِّم. هل تظنّ أنِّي سرَّحتُها؟ أبدًا ذات يوم، كما لو أنَّ شيئًا لم يكن، كفَّت عن المجيء إلى العمل. اختفت، هكذا وكلَّما أمسكتَ بها، فلتت من بين يديك مجدَّدًا، مثل الأنقليس. مشكلتها تكمن في ما يلي: على الرَّغم من ذكائها الخارق، فإنها تظلّ عاجزة عن فهم ما الذي في وسعها فعله وما الذي لا تستطيع فعله. وهذا لأنَّها لم تجد الرجل الحقيقيّ إلى الآن.

فالرجل الحقيقيّ يسوق المرأة إلى الطريق القويمة. لا تتقن الطبخ؟ تتعلّم. بيتها قذر؟ تنظّفه. الرجل الحقيقيّ هو الذي يجبر المرأة على فعل كلّ شيء. وأضرب لك مثلًا، تعرَّفتُ منذ فترة قصيرة إلى إحدى الفتيات، لم تكن تُجيد التصفير حسنًا، ما رأيك في أنّي جالستُها ساعتين فقط ـ ساعتين متأجّجتين ـ ثم قلتُ لها: والآن صفِّري؛ فراحت تصفِّر ما رأيك؟ لن تصدِّق، لكنَّها الحقيقة. إن عرفتَ كيف تربِّي الأنثى، فهذا خير. وإن كنتَ لا تعرف كيف تربِّيها، فاتركها تمضِ في سبيلها، قبل أن تتأذَّى منها». لفظ تلك الجُمَل الأخيرة بنبرة جادَّة للغاية، كأنَّه يمْلي أوامر إجباريَّة. لكنَّه فطن، خصوصًا وهو يتكلَّم، إلى أنَّه هو نفسه لم يكن قادرًا، لا حينذاك ولا قبل ذاك، على احترام قوانينه نفسها. فإذا به يغيِّر قناع وجهه، ويغيِّر نبرته فجأة، إذ شعر بضرورة إذلالها. التفت نحو ليلا، نافدَ الصَّبر، وشدَّد بسوقيَّةٍ عامِّيَّة متصاعدة: «لكنَّ الأمر يصعب مع هذه، ليس من السهل إرسالها إلى الجحيم. على الرَّغم من أنّك تراها كيف هي: عيناها غائرتان، ثدياها صغيران، مؤخّرتها مسطَّحة، باتت أشبه بمكنسة، فليس في إمكانك أن تفعل الكثير مع امرأة كهذه، لا تساعدك حتى على الانتصاب. ولكن، تكفي لحظة واحدة، لحظة واحدة فقط: تنظر إليها، فترغب في نكحها».

شعرت ليلا، عند ذلك الحدّ، بصدمة عنيفة في رأسها، كما لو أنَّ قلبها، بدلاً من أن ينبض كالمطرقة في حلقها، انفجر في جمجمتها. صرخت في وجهه بشتيمة لا تقلّ سفاهة عن الكلمات التي تلفّظها للتوّ، وحملت المنفضة البرونزيَّة من على المنضدة، فانقلب الرماد وأعقاب السجائر حولها، وحاولت أن ترميها نحوه. لكنَّ الحركة، على الرَّغم من السخط الذي سبَّبها، جاءت بطيئة جدًّا، وبلا

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

قوّة. حتى صوت برونو ـ لينا، أرجوكِ، ماذا تفعلين ـ اجتازها متهافتًا. ولهذا السبب ربَّما، أوقفها سولارا بسهولة، ونزع المنفضة من بين يديها، بسهولة أيضًا، وهو يقول لها غاضبًا:

«هل تظنِّين أنَّك موظَّفة عند الأستاذ سوكافو؟ هل تظنِّين أنِّي لا أحد هنا؟ أنت مخطئة إذن. فالأستاذ سوكافو حلَّ ضيفًا في كتاب أمِّي الأحمر، منذ مدَّة، وهذا الكتاب أكثر أهمِّيَّة من كُتَيِّب ماو تسي تونغ الأحمر. لذا، فأنتِ لا تخضعين له، بل تخضعين لي، تخضعين لي أنا فقط، ودائمًا. ولقد تركتكِ تعبثين حتى الساعة، أردتُ أن أرى إلى أيّ لعنةٍ سينتهي بكما المطاف، أنتِ وذاك القميء الذي ينكحكِ. ولكن، من الآن فصاعدًا، تذكَّري دومًا أنَّك تحت عينَيّ، وإن طلبتُكِ تستجيبي على الفور، هل هذا واضح؟»

انتفض برونو حينذاك فقط، وهتف بعصبيَّة شديدة:

«دعها يا ميكيلي، فأنت الآن تبالغ».

ترك سولارا معصم ليلا شيئًا فشيئًا، ثم غمغم متوجِّهًا إلى سوكافو، بالإيطاليَّة مجدَّدًا:

«أنت على حقّ، اعذرني. لكنَّ السيِّدة كارّاتشي تمتلك هذه القدرة: تُرغمك دومًا، بطريقة أو بأخرى، على المبالغة».

كتمت ليلا نقمتها، تحسَّست معصمها بعناية، ونفضت برؤوس أصابعها القليل من الرماد الذي انهال عليها. ثم فردت ورقة المطالب، ووضعتها قبالة برونو، وبينما كانت متَّجهة نحو الباب التفتت إلى سولارا، وقالت له:

«أعرف التصفير منذ كان عمري خمسة أعوام».

٤٥

سألها إيدو عن المجريات، حين عادت إلى الأسفل، شاحبةَ الوجه، فلم تُجِبه، بل أبعدتْه بيدها عن طريقها واتَّجهت لتقفل على نفسها في المرحاض. كانت تخشى أن يستدعيها برونو مرَّة ثانية مباشرةً. كانت تخشى من الهوان الذي حلَّ بجسدها على غير العادة، ولم تكن قادرةً على الاعتياد عليه. أبقت عينها على الباحة، من خلال النافذة الصغيرة، وتنفَّست الصعداء حين رأت ميكيلي، طويل القامة، ذا الخطوة العصبيَّة، والجبين الناصع، والوجه الجميل والذقن الحليق بعناية، مرتديًا معطفًا أسودَ جلديًّا فوق بنطال غامق اللون، يستقلّ سيَّارته، وينطلق. وعادت حينذاك إلى قسم التقطيع، فسألها إيدو مجدَّدًا:

«كيف سارت الأمور؟»

«على ما يرام. ولكن، ستتدبَّرون أمركم منذ الآن».

«ماذا تقصدين؟»

لم تستطع أن تجيبه، لأنَّ سكرتيرة برونو وصلت مقطوعة

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

الأنفاس، لأن صاحب المصنع يريدها حالًا فذهبت إليه كتلك القدِّيسة التي تحمل رأسها بين يديها، كما لو أنَّهم فصلوه عن جسدها، على الرَّغم من أنَّه لا يزال على عنقها. وما إن رآها برونو قبالته، حتى رفع صوته على وشك الصراخ:

«هل تريدون أن أقدِّم إليكم القهوة صباحًا وأنتم في أسرَّتكم؟ ما هذه الصرعة الجديدة يا لينا؟ ألا تُدركين؟ اجلسي واشرحي لي الأمر، أكاد لا أصدِّق».

راحت ليلا تشرح له الطلبات، واحدًا تلو الآخر، بنبرةٍ كانت تستخدمها مع جينّارو حين يصعب عليه إدراك الأمور. وشدَّدت على أنّ التعامل بجدِّيَّة مع هذه الورقة سيكون من مصلحته، وأنَّه من الخير له أن يواجه تلك النقاط المتعدِّدة بروحٍ بنَّاءة. وإن لم يتصرَّف بعقلانيَّة، فعاجلًا سيقتحم المفتِّشون عليه المصنع. سألته ختامًا، عن نوع اللعنة التي نزلت عليه ليجد نفسه تحت رحمة آل سولارا الأشرار. نفد صبر برونو حينذاك. وراح لون وجهه المحمرّ يستحيل بنفسجيًّا، وعيناه تحتدمان شررًا، وزعق بأنَّه سيسحقها، وأنَّه يكفيه أن يدفع بضعة فلسات، إضافة إلى الراتب، إلى أولئك السفلة التي دفعوها لمواجهته، فيُصلِح كلّ شيء. وصرخ بأنَّ والده يرشو مكتب الرقابة والتفتيش منذ أمد، فتخيَّلوا أن يهاب جانبهم الآن. وصاح بأنَّ الأخوين سولارا سيجعلانها تنسى رغبتها في أن تصير نقابيَّة؛ ثم ختم بصوت مشرَّخ: اخرجي من هنا، هيَّا، اخرجي حالًا

اتَّجهت ليلا إلى الباب. وما إن وصلت إلى العتبة، حتى قالت له:

«هذه آخر مرَّة تراني فيها لن أعمل هنا، منذ هذه اللحظة».

telegram @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

استعاد سوكافو هدوءه، على مضض، حين سمع هذه الكلمات. وعبَّر بتكشيرةٍ تنمّ عن توجُّسه. لا بدَّ من أنَّه وعد ميكيلي بأنَّه لن يُسرِّحها قال لها

«هل تشعرين بالإهانة الآن؟ هل تتصرَّفين بناءً على نزواتكِ؟ ماذا تقولين؟ عودي إلى هنا، فلنقلِّب الأمر معًا أنا الوحيد الذي أقرِّر إن كنتُ سأسرِّحكِ من العمل أم لا قلتُ عودي إلى هنا، أيَّتها الساقطة»

عادت إلى ذهنها خلال جزء من الثانية، أزمانُ إيسكيا، والصباحاتُ التي كنَّا ننتظر فيها وصولَ نينو وصديقه الثريّ، الذي يملك بيتًا في فوريو، وذلك الشابّ الصبور دومًا، والمكثر من عبارات التبجيل. خرجتْ وأغلقت الباب خلفها وسرعان ما ألمَّت بها رجفة عنيفة، وغطَّتها مثل عرق سيَّال. لم تتَّجه إلى قسم التقطيع، لم تودِّع إيدو وتيريزا، بل مرَّت إلى جانب فيليبو الذي نظر إليها مستغربًا، فصاح بها: أين تذهبين يا شيرولُّو، عودي إلى الداخل. لكنَّها أخذت تركض في ذلك الدرب الوعر استقلَّت أوَّل حافلة متَّجهة إلى منطقة مارينا، ووصلت إلى البحر. تسكَّعت طوال الوقت. كانت الريح شديدة البرودة، صعدت حتى ڤوميرو بخطوط النقل الهوائيّ، وتمشَّت في ساحة ڤانڤيتيلي، وشارع سكارلاتي، وشارع شيماروزا، وركبت النقل الهوائيّ ثانيةً لتعود إلى الأسفل. تذكَّرت أمر جينّارو متأخِّرةً، فعادت إلى البيت في التاسعة ليلًا، وأغرقها إنتسو وباسكوالي بأسئلةٍ قلقة ليفهما ما الذي جرى لها، فطلبت منهما أن يذهبا إلى الحيّ ويبحثا عنِّي.

وها نحن الآن هنا، في قلب الليل، داخل تلك الغرفة البائسة في سان جوفاني آتيدوتشو. جينّارو نائم، وليلا لا تكفّ عن الكلام بصوت

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

منخفض، وإنتسو وباسكوالي ينتظران في المطبخ. أمَّا أنا، فأشعر بأنِّي كالفارس في إحدى الروايات القديمة، المتدثِّر بدرعه الساطعة، بعد أن خاض ألف مغامرة خارقة حول العالم، يجد نفسه أمام راعٍ هزيل البنية، رثّ الثياب، لم يفارق المرعى أبدًا، منشغلًا بترويض وحوشٍ ضارية، ولجمها بيدين عاريتين، وشجاعةٍ عجيبة.

٤٦

كنتُ آذانًا صاغية، تركتها تتحدَّث على رسلها. وقد جزعتُ كثيرًا في بعض لحظات السرد، وخصوصًا حين يخضع تعبير وجهها وأسلوب عباراتها لتشنُّجٍ مباغتٍ، فتَّاكٍ وانفعاليّ. اجتاحني شعور قويٌّ بالذنب، وفكَّرتُ: هذه هي الحياة التي كادت تكون من نصيبي، ولئن لم يحدث هذا، فإنَّ الفضل يعود إليها كنت أوشك على ضمِّها بين ذراعيّ أحيانًا، وغالبًا ما راودتني الرغبة في التعليق على كلامها أو طرح الأسئلة عليها، إلَّا أنّي التزمتُ الصمت بشكل عامّ، ولم أقاطعها إلَّا مرَّةً أو اثنتين، كحدٍّ أقصى.

لا شكّ في أنّي تدخَّلتُ، على سبيل المثال، حين تحدَّثتْ عن غالياني وابنيها. وددتُ لو أنَّها تشرح بشكلٍ مفصَّل عمَّا قالته أستاذتي، وأيّ كلماتٍ استخدمتْها بدقَّة، وإن لفظ أرماندو أو ناديا اسمي مرَّةً واحدة على الأقلّ. بيد أنّي شعرتُ بدناءة أسئلتي قبل فوات الأوان، فسكتُّ عنها. فعلى الرَّغم من أنَّ جزءًا منّي يعتبر فضولي مشروعًا، فإنَّ أولئك الأشخاص كانوا من بين معارفي عمومًا، وأكنّ لهم المودَّة أيضًا. فاقتصرتُ على القول:

مكتبة الرمحي أحمد telegram @ktabpdf

«قبل أن أذهب من هنا نهائيًّا إلى فلورنسا، عليّ أن أمرّ لأودّع غالياني. وقد ترافقينني أنتِ، هل يروق لكِ ذلك؟» ثم أضفتُ: «لقد فترت العلاقة بيننا بعض الشيء، لأنَّها بعد رجوعنا من إيسكيا ألقت اللائمة عليَّ بتخلِّي نينو عن ابنتها ناديا». وبما أنَّ ليلا كانت تنظر إليَّ كما لو أنَّها لا تراني، أضفتُ مجدَّدًا «أسرة غالياني أُناس طيِّبون، على الرَّغم من أنَّهم متفاخرون نوعًا ما وعلينا أن نتحقَّق من مسألة النفخة القلبيَّة أيضًا».

ردَّت عليَّ في هذه المرَّة: «النفخة موجودة»

«حسنًا»، أجبتُها، «لكنَّ أرماندو بنفسه قال إنَّه ينبغي لك استشارة اختصاصيّ».

فردَّت: «لكنَّه استشعرها في كلِّ حال».

لكنِّي لم أشعر بالاضطراب فعلًا إلَّا عندما حدّثتني عن الأمور الجنسيَّة. حين تكلَّمت عمَّا وقع في قسم التجفيف، كدتُ أقول لها وأنا، في تورينو، تحرَّش بي مفكِّرٌ عجوز؛ وفي ميلانو، دخل رسَّامٌ فنزويليّ ـ عرفتُه قبل سويعات ـ غرفتي، وأراد أن يضطجع على سريري كما لو كان لزامًا عليّ أن أُسدي إليه هذا المعروف. لكنِّي التزمتُ الصمت في هذه الحالة أيضًا فما معنى أن أتحدَّث عن شؤوني في تلك اللحظة؟ ثم، هل كان ما أردتُ أن أقصّه عليها يشبه ما كانت تقصّه عليّ حقًّا؟

تمثَّل هذا السؤال جليًّا في خاطري، حين كفَّت ليلا عن توضيح الأحداث ـ مجرَّد أحداث همجيَّة كنَّا قد تحدَّثنا بها، منذ أعوام، حين روت عليَّ ليلة زفافها ـ وتطرَّقت إلى شؤونها الجنسيَّة بشكلٍ عامّ. وكان الخوض في موضوع كهذا أمرًا حديثًا بالنسبة إلينا، إذ إنَّ سفاهة البيئة التي نتحدَّر منها، كانت مُجديةً للاعتداء أو للدفاع عن النفس،

telegram @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

لكنَّها لا تسهِّل البوح بالشؤون الحميميَّة، بل ربَّما لأنَّها لغة العنف، كانت تعيق بوحًا كهذا تحديدًا. لذا، شعرتُ بالحياء، وأخفضتُ نظري إلى الأرض، حين قالت بعاميَّة فجَّةٍ ومتداولةٍ في حيِّنا، إنَّ النكاح لم يؤمِّن لها اللذَّة التي انتظرتها منذ الصغر أبدًا، بل بالكاد شعرتْ بشيءٍ يُذكَر؛ وإنَّ الجنس، بعد ستيفانو وبعد نينو، كان يضايقها أيضًا، والدليل أنَّها لم تستطع حتى أن تتقبَّل رجلًا لطيفًا كإنتسو. أكثر من ذلك: أضافت بمفردات، أشدّ سوقيَّة، أنَّها جرَّبت كلّ ما قد يطلبه ذكرٌ من أنثى، تارةً بالإكراه، وتارةً بدافع الفضول، وفي سبيل المتعة أحيانًا، لكنَّها حتى حين ابتغت أن تحمل بولدٍ من نينو، وحملتْ فعلًا، لم تتذوَّق تلك اللذَّة التي يُقال إنَّها موجودةٌ بلا ريب في حالة الحبّ العظيم.

أدركتُ أنَّه لا يسعني البقاء صامتةً، إزاء كلّ هذا الوضوح، وأنَّه لا بدَّ من أن أُشعرها بوجودي إلى جانبها، وأنَّه يجب أن أردَّ الثقة التي تخصُّني بها، بثقةٍ مماثلةٍ، فتفاقم الإزعاج حين اضطررتُ إلى الحديث عن نفسي ـ كانت العاميَّة تُشعرني بالنفور، وعلى الرَّغم من أنِّي صرت كاتبةَ صفحاتٍ جسورةٍ، فإنَّ الإيطاليَّة الفُصحى بدت لي أرفع من أن تتمرَّغ في المادَّة اللزجة التي تُجترَح منها التجاربُ الجنسيَّة ـ ونسيتُ أنَّها كانت تقوم باعترافٍ شاقّ، وأنَّ كلّ كلماتها، بما فيها البذيئة، كانت مرصَّعةً بالإعياء الذي يتجلَّى على وجهها، وفي ارتعاش يديها، فقلتُ باختصار:

«الأمر ليس كذلك بالنسبة إليّ».

لم أكذب، لكنَّها لم تكن الحقيقة. فالحقيقة كانت أكثر تعقيدًا، وكنت سأحتاج إلى كلمات مخبريَّة لأحدِّدها في شكلٍ معيَّن. كان سيتوجَّب عليَّ أن أشرح لها أنِّي لطالما نلتُ المتعة في أيَّام أنطونيو،

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

كلَّما دَعَكْتُ جسدي بجسده، وتركتُه يتلمَّسني، وما زلتُ أشتهي تجريبها. وكان عليّ أن أُقرّ أنا أيضًا بخيبتي حين فضّ سارّاتوري بكارتي، كانت تجربةً أفسدها الشعور بالذنب، والظروفُ العسيرة التي مرَّ بها الوصلُ، والخشيةُ من أن يكتشفوا أمرنا، والعجالةُ التي نتجت من ذلك، والرعبُ من الحمل. ولكن، كان في وسعي أن أضيف إنّ فرانكو ـ القليل الذي تعلَّمتُه عن الجنس كان في أكثره بفضل فرانكو ـ قبل أن يلجني، وبعد الإيلاج أيضًا، كان يسمح لي بأن أفاخذ بطنه أو إحدى ساقيه، وكانت هذه الممارسة شيِّقةً، وأحيانًا تجعل الإيلاج شيِّقًا أيضًا. وفي المحصِّلة ـ كان عليَّ أن أختم ـ أنا أنتظر الزواج، وبييترو رجلٌ لطيف للغاية، وآمل أن أجد الوقت والرفاه اللذين توفِّرهما السكينة وشرعيَّةُ السرير الزوجيّ لأكتشف لذَّة الجماع، تمامًا! لو عبَّرتُ بهذه الطريقة لكنتُ صادقة. لكنَّنا، نحن الاثنتين، في سن الخامسة والعشرين تقريبًا، لم نكن قد اكتسبنا عادة البوح بانسجام واتِّزانٍ إلى تلك الدرجة. ولم يكن ما تداولناه في هذا الخصوص سوى إشاراتٍ بسيطة وعامَّة، في أثناء فترة خطوبتها بستيفانو وارتباطي بأنطونيو، وكانت تلميحاتٍ وعبارات متحفِّظة محصنة. ولم أكن قد تحدَّثتُ أبدًا عمَّا وقع لي مع دوناتو سارّاتوري، ولا مع فرانكو. لذا، اكتفيتُ بتلك الكلمات القليلة ـ الأمر ليس كذلك بالنسبة إليّ ـ ولعلّها تلقَّفتها كما لو أنِّي أقول لها: ربَّما أنتِ لستِ طبيعيَّة. وبالفعل، نظرت إليّ بحيرةٍ وذهول، فأجابت كأنَّها تدافع عن نفسها:

«لكنَّكِ في الرواية كتبتِ شيئًا آخر»

كانت قد قرأتها إذن، فغمغمتُ كأنِّي أردّ عن نفسي تهمةً ما:

«حتى أنا لم أعد أعرف ما الذي جاء في هذه الرواية».

«لقد جاءت فيها أشياءُ قذرة» قالت، «أشياءُ لا يفضِّل الذكور

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

سماعها، وتعرفها الإناث لكنّهنّ يَخفن الإفصاح عنها. والآن ماذا تفعلين؟ تتنكَّرين؟»

استعملتْ هذه الكلمات تقريبًا، ومن المؤكَّد أنَّها قالت «أشياء قذرة». هي أيضًا كانت تُشير إلى الصفحات الإباحيَّة، وبأسلوب مماثلٍ إلى أسلوب جيليولا، التي كانت قد استخدمتْ في وصفها «*صفحات قذرة*». انتظرتُ أن تُعطي تقويمًا إجماليًّا للكتاب، لكنَّ هذا لم يحدث، وما أتت على ذكره إلَّا لاستخدامه كجسرٍ يُعيدها إلى ترديد ما سمَّته أكثر من مرَّة، وبإلحاح شديد، «*ضجر النكاح*». إنَّ هذا موجود في رواياتك ـ هتفتْ ـ وإن كنتِ قد رويتِه فأنتِ تعرفينه جيِّدًا، فمن غير المجدي أن تقولي: الأمر ليس كذلك بالنسبة إليّ. فغمغمتُ بـ«نعم، ربَّما هذا صحيح، لكنِّي لا أعلم». وبينما كانت تستعيد عليّ البوح عن شؤونها ببذاءةٍ وألم ـ هياج مفرط، قناعة معدومة، إحساس بالقرف ـ عاد نينو إلى ذهني، وهلَّت الأسئلة ثانيةً بعد أن دوَّرتُها في رأسي مرارًا. هل كانت ليلة الحكايات الطويلة تلك لحظةً مناسبةً لأخبرها بأنِّي التقيتُه من جديد؟ هل كان عليَّ أن أحذِّرها من التعويل على نينو، فيما يخصّ جينّارو، فقد أنجب ولدًا آخر، وكان يترك أولاده خلف ظهره من دون أن يحفل بهم؟ هل كان عليَّ انتهاز تلك اللحظة، واعترافاتها تلك، لأخبرها بأنَّ نينو قال في حقِّها شيئًا مؤسفًا، مفاده «*ليلا تعاني خللاً حتى في الجنس*»؟ هل كان عليّ أن أتجرَّأ على أن أقول لها إنَّها ـ في اعترافاتها المتوتِّرة، بل حتى في تأويلها للصفحات القذرة التي يحويها كتابي ـ كانت تقدِّم إليّ إثباتًا على صحَّة كلام نينو؟ ما الذي كان يقصده ابن سارّاتوري سوى ما كانت تقرّ به بنفسها فعلًا؟ هل فطن إلى أنَّ ليلا تعتبر النكاح مجرَّدَ واجب، وأنَّها عاجزة عن الاستمتاع بالجماع؟ نينو خبير، قلتُ لنفسي. لقد عرف الكثير من

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

النساء، ويعلم ماذا يعني السلوك الجنسيّ السليم عند الأنثى، وهو، بالتالي، قادرٌ على تمييز السلوك المختلّ. «أن تكون مختلّة في الجنس» يعني بالطبع أنَّها لا تستطيع بلوغ اللذَّة إثر ضربات الذكر؛ يعني أن تتلظّى بالرغبة فتسعى إلى مفاخذةٍ سريعة لتُخمد نيران شهوتها؛ يعني أن تمسك يديه، وتحملهما إلى عانتها، كما فعلتُ أحيانًا مع فرانكو، متجاهلةً انزعاجه، وضجره بعد أن يبلغ الرعشة ويرغب في الاسترخاء. تفاقم الضيق عندي، فتساءلتُ: هل «هذا» ما كتبتُه في الرواية؟ هل «هذا» ما أدركته كلٌّ من جيليولا وليلا؟ هل «هذا» ما يُفترض أنَّ نينو قد أدركه، لذا أراد أن يحدِّثني عنه؟ استبعدتُ كلّ شيء، وغمغمتُ من دون اكتراث:

«يؤسفني؟»

«ما الذي يؤسفكِ؟»

«أنَّكِ حملتِ بلا متعة».

فأجابت بتهكُّمٍ مباغت: «فتخيَّلي كم يؤسفني إذن».

قاطعتُ كلامها للمرَّة الأخيرة حين كان الفجر يبزغ، وكانت قد انتهت للتوّ من قصّ صدامها بميكيلي. قلت لها: هذا يكفي، اهدئي، قيسي حرارتكِ. كانت حرارتها تبلغ ثماني وثلاثين درجة. فضممتُها إلى صدري، وهمستُ في أذنها سأهتمّ من الآن بأمركِ بنفسي، وسنبقى معًا ريثما تستردِّين عافيتكِ، وإن توجَّب عليّ الذهاب إلى فلورنسا، فستأتين معي أنتِ والطفل. رفضتْ بشدّة، وأفصحت لي عن آخر اعترافاتها في تلك الليلة الطويلة. قالت إنَّها قد أخطأت في اللحاق بإنتسو إلى سان جوفاني آتيدوتشو، وإنَّها تريد العودة إلى الحي:

«إلى الحيّ؟»

«أجل».

«هل جُننتِ؟»

«سأفعلها ما إن يتحسَّن وضعي الصحّيّ».

فأنّبتُها، وقلت لها إنَّ الفكرة ناجمة عن تخاريف الحمّى، وإنّ الحيّ كان سيُضعف موقفها، ومن الحماقة أن تطأه قدماها ثانيةً.

«إنّي متلهّفة إلى مغادرته»، هتفتُ.

«أنتِ قويّة»، أدهشتني في إجابتها، «أمّا أنا، فلم أكن قويّة يومًا أنتِ كلّما ابتعدتِ عنه عرفتِ حقيقة نفسكِ وشعرتِ بخير. أمّا أنا، فيُصيبني الذعر ما إن أتقدَّم خطوةً خارج نفق الشارع العامّ. أتذكرين عندما حاولنا الوصول إلى البحر فأمطرت السماء؟ مَن منَّا أرادت المضيّ قُدُمًا ومَن أرادت العودة إلى الخلف، أنا أم أنتِ؟»

«لا أذكر ولن ترجعي إلى الحيّ في أيٍّ حال.»

حاولتُ عبثًا أن أغيّر فكرتها، وتناقشنا كثيرًا

«هيَّا»، قالت في النهاية، «اذهبي إلى ذينك الاثنين وتحدَّثي إليهما، فهما ينتظران منذ ساعات. لم تغمض لهما عينٌ وعليهما الذهاب إلى العمل».مكتبة الرمحي أحمد

«وماذا أقول لهما؟»

«ما يبدو لكِ».

دثَّرتُها بالأغطية، وغطَّيتُ جينّارو أيضًا، إذ كان قد تخبَّط في أثناء نومه طوال الليل. وانتبهتُ إلى أنَّ ليلا كادت تغفو، فغمغمتُ:

«سأعود فورًا»

فقالت: «تذكَّري ما وعدتِني به»

«بمَ وعدتُكِ؟»

«هل نسيتِ بهذه السرعة؟ إن حدث لي شيءٌ ما، فعليك أن تعتني بجينّارو».

«لن يحدث لك أيّ شيء».

وبينما كنت أخرج من الغرفة، جفلت ليلا في غفوتها، وتمتمت:

«انظري إليّ حتى أنام. انظري إليّ دائمًا، حتى بعد أن تغادري ناپولي. هكذا أعرف أنَّكِ ترينني، فيطمئنّ بالي»

٤٧

حرصتُ على أن أقدِّم إلى ليلا أقصى ما أستطيع، في أثناء الفترة التي بدأت منذ تلك الليلة حتى يوم زفافي ـ تزوَّجتُ في ١٧ مايو ١٩٦٩ في فلورنسا، ودخلتُ مرحلة الزواج بمعنويَّاتٍ عالية، بعد ثلاثة أيّامٍ فقط كرحلة زفاف أمضيناها في البندقيَّة ـ. وفي الحقيقة، فكَّرتُ في البداية في أن أبقى قربها حتى تزول عنها الحمّى، إذ كان لديَّ ما يشغلني في البيت في فلورنسا، إضافةً إلى التزاماتٍ عديدة بشأن الكتاب ـ كان الهاتف لا ينقطع عن الرنين، فامتعضت والدتي من ذلك، وهي التي أعطت الرقم لنصف سكَّان الحيّ، ولم يكن أيٌّ منهم يتَّصل بها، فكانت تقول: إنّ وجود هذا الشيء في المنزل يسبِّب الإزعاج حقًّا، لأنَّ المكالمات كانت كلّها لي تقريبًا، وكنت منشغلةً بتدوين الملاحظات لرواياتٍ جديدة مفترضة، وأحاول أن أسدّ الثغرات في ثقافتي الأدبيَّة والسياسيَّة. إلّا أنَّ حالة الهوان التي كانت صديقتي تمرّ فيها دفعتني عاجلًا إلى إهمال شؤوني والتفرُّغ كلّيًّا لشؤونها. وسرعان ما فطنت والدتي إلى أنّ علاقتي بليلا عادت إلى سابق عهدها، فوجدت الأمر مشينًا، وقدحتْ نارًا سعيرًا، وأمطرتْ كلًّا منَّا

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

بالإهانات. كانت لا تزال تظنّ أنَّ لها الحقّ في أن تُمْلي عليَّ ما ينبغي لي فعله وما لا ينبغي لي فعله. كانت تعرج خلف ظهري وهي تلسعني بانتقاداتها، حتى إنَّها بدت في بعض الأحيان عازمةً على أن تندسّ في جسدي للحيلولة دون امتلاكي السلطة على نفسي. «ما الذي لا زال يجمعكِ مع تلك؟» كانت تضغط عليّ، بقولها ذلك، وتضيف: «قارني بين ما وصلتِ إليه الآن وما بقيتْ هي عليه، ألا يكفيك تأليف ذلك الكتاب المخزي، ألا تزالين راغبةً في صداقة تلك العاهرة»؟ لكنِّي كنت أتصرَّف كما لو أنِّي صمَّاء، فأقابل ليلا كلّ يوم، ورحت أكرّس نفسي لإعادة تنظيم حياتها منذ اللحظة التي تركتُها فيها نائمةً في غرفتها، وخرجتُ لأصارح الرجلين اللذين انتظرا طوال الليل في المطبخ.

قلت لإنتسو وباسكوالي إنّ ليلا في أسوأ حال، فصلت نفسها بنفسها لأنَّها لم تعد قادرةً على العمل عند سوكافو. ووفَّر عليَّ إنتسو الإسهاب في الكلام. لقد أدرك منذ أمدٍ أنَّها لم تكن لتستمرّ في ذلك المصنع، وأنَّها قد أدخلت نفسها في ورطة، وأنَّ شيئًا ما في داخلها كان يلين. أمَّا باسكوالي فأبدى مقاومةً، وهو يقود السيَّارة في اتِّجاه الحيّ في صباحٍ باكرٍ لم تعكّره زحمة السير بعد. «لا تبالغي»، قال، «صحيحٌ أنَّ ليلا تعيش حياةً مأساويَّة، لكنَّ هذا الوضع يكابده كلّ المستضعَفين في العالم». وهكذا، وفقًا لطريقته التي اعتاد عليها منذ أن كان فتًى، راح يحدِّثني عن الفلَّاحين في الجنوب، والعمَّالِ في الشمال، وشعوب أميركا اللاتينيَّة، وعن المنطقة الشماليَّة الشرقيَّة في البرازيل، وعن أفريقيا، والأفارقة الأميركان، والڤيتناميّين، والإمبرياليَّة الأميركيَّة. لكنِّي سرعان ما قاطعتُه، فقلت: باسكوالي، إن استمرَّت لينا على هذا النحو، فإنَّها ستموت. لم يستسلم، وتابع معارضته

telegram @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

لرأيي، ليس لأنَّه لا يهتمّ بأمرها، بل لأنّ النضال في مصنع سوكافو كان يبدو له ضروريًا، وكان يعتبر دور صديقتنا فيه أساسيًا، وكان في قرارة نفسه مقتنعًا بأن صغائر الأمور التي أعقبت الحمَّى لم تكن نابعةً من ليلا بقدر ما كنتُ أنا سببها، فكان يراني مثقَّفةً تنتمي إلى الطبقة البرجوازيَّة الصغيرة تخشى أعراض حمًّى عابرة أكثر من هزيمة الطبقة العاملة وما ينتج منها من عواقب سياسيَّة وخيمة. وبما أنَّه كان يراوغ في شأن هذه الفكرة، ويلمِّح إليها ولا يفصح عنها بالفم الملآن، قرَّرتُ أن أوجزها له بوضوحٍ ولباقة، كي أُظهِر له أنِّي فهمتُ. فغضب أكثر، وقال لي عند بوَّابة البناية: عليّ الذهاب إلى العمل الآن يا لينو، ولكن سنتحدّث في الموضوع لاحقًا وحالما عدتُ إلى البيت في سان جوفاني آتيدوتشو، أخذتُ إنتسو على انفراد، وقلت له: أَبقِ باسكوالي بعيدًا عن لينا إن كنت تريد لها خيرًا، لا يجب عليها أن تصغي إلى من يكلِّمها على المصنع بعد اليوم.

في تلك الفترة، كنت عادة ما أحمل في حقيبة يدي كتابًا ودفتر الملاحظات الصغير كنت أقرأ في الحافلة أو عندما تغفو ليلا، وأكتشف أحيانًا أنَّها ترمقني بعينيها، لعلَّها تسترق النظر لتعرف ما الذي كنت أقرأه، إلَّا أنَّها لم تسألني عن عنوان الكتاب أبدًا وإذا حاولتُ أن أقرأ عليها بعض الصفحات ـ من مشاهد نُزل أوبتون، على ما أذكر ـ تغمض عينيها إشارةً إلى الملل الذي راودها زالت حرارتها في غضون أيَّام، لكنَّ السعال ما زال يلازمها، لذا فرضتُ عليها البقاء في السرير مزيدًا من الوقت. وتكفَّلتُ أنا بأمور البيت، فطبختُ وانشغلتُ بجينّارو. ووجدتُه يفتقد ذلك الإغواء الأعزل المنبعث من ميركو، ابن نينو الثاني، ربَّما لأنَّ الطفل كان قد كبر قليلًا، وبات عدائيًّا ونزقًا بعض الشيء. لكنَّه كان ينتقل أحيانًا من الألعاب العنيفة إلى لحظات

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

كآبة مباغتة، فيغفو على الأرض، وهذا ما رقّ قلبي تجاهه، فأشفقتُ عليه، وما إن اتَّضحت له عواطفي، حتى أخذ يتعلَّق بي دومًا، فيُعيق عملي المنزليّ ويعكِّر عليّ صفو القراءة.

حاولتُ، في هذه الأثناء، أن أفهم وضع ليلا بشكل أفضل. هل لديها نقود؟ لا فأعطيتُها المال ولم تقبله إلّا بعد أن حلفت ألف يمين بأنَّها ستوفيني إيَّاه. كم تستحقّ من برونو؟ راتب شهرين. ومكافأة نهاية العمل؟ لا تعرف. ما العمل الذي يقوم به إنتسو، وكم أجره؟ لا تعرف. ودورات زوريخ، هل لها آفاق ملموسة؟ ليست متأكِّدة. كانت لا تكفّ عن السعال، وتشعر بألمٍ في صدرها، وغصَّة في حلقها، وعرقها يسيل، وقلبها يخفق بجنون على حين غرّة. سجَّلتُ كلّ الأعراض بدقَّة، وحاولتُ أن أُقنعها بضرورة الخضوع لفحص طبيّ، أكثرَ جدِّيَّة من ذلك الذي أجراه أرماندو عليها. لم تقل نعم، لكنَّها لم تعارض أيضًا. ذات مساء زارنا باسكوالي، وإنتسو لم يعد بعد، وقال بأسلوب مهذَّب إنَّه والرفاق في الهيئة وبعض العمَّال في مصنع سوكافو، يودُّون الاطمئنان على صحَّتها فأجبتُه بأنَّها ليست بخير، وأنَّها في حاجةٍ إلى مزيد من الراحة، لكنَّه طلب أن يراها عمومًا، ويلقي عليها مجرَّد تحيَّة. تركتُه في المطبخ وذهبتُ إلى ليلا، ونصحتُها بألَّا تلتقيه. فعبَّرتْ بإيماءةٍ تعني: افعلي ما ترينه مناسبًا فتأثَّرتُ لأنَّها تستسلم لي ـ وهي التي لطالما حكمتْ وشيّدتْ وهدمت ـ من دون أن تناقش.

٤٨

أجريتُ مكالمةً طويلةً مع بييترو، في ذلك المساء نفسه، من منزل أهلي، ورويتُ له بالتفصيل، كلّ المصائب التي نزلت بليلا وشرحتُ له مدى عزمي على مساعدتها. كان كلّه آذانًا صاغية. وأظهر في لحظة ما، كامل استعداده لمدّ يد العون، وخطر في باله أحد أصدقائه البيزاويّين، وهو شابٌّ مختصٌّ باللغة الإغريقيّة وآدابها، كان مولعًا بالحواسيب، ويتخيَّل أنَّها ستُحدِث ثورةً في فقه اللغات. تحرَّكت عواطفي لأنَّ بييترو، على الرَّغم من انشغاله بعمله قلبًا وقالبًا، كان في تلك المناسبة يسعى جاهدًا ليكون مفيدًا، وذلك لأنّه يحبّني.

«ابحثْ عنه» توسَّلتُ إليه، «كلِّمْه على إنتسو. ومن يدري، فقد تُفتَح أمامه آفاقُ عمل ما».

وعدني بأنَّه سيفعلها، وأضاف أنَّ ماريّاروزا، على ما يذكر، كانت لها قصَّة حبٍّ قصيرة مع محامٍ ناپوليتانيٍّ شابّ؛ ربَّما يقفو أثره أيضًا ويسأله إن كان قادرًا على مساعدتي.

«بخصوص ماذا؟»

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

«كي يستردّ رواتب صديقتكِ».

تحمّستُ.

«اتَّصلْ بماريّاروزا».

«حسنًا».

ازددتُ إلحاحًا: «لا تعدْني فقط، اتَّصلْ بها فعلًا، أرجوك».

سكت برهةً، ثم قال:

«أنتِ تتكلَّمين بنبرة والدتي الآن».

«ماذا تقصد؟»

«تبدين كأنَّكِ هي حين تتلهَّف إلى شيءٍ ما»

«مع أنّي مختلفة عنها كثيرًا، لسوء الحظّ».

صمتَ مجدَّدًا.

«لحسن الحظّ أنَّك مختلفة. في أيِّ حال، والدتي في هذه الأمور ليس لها مثيل. اروي لها عن تلك الفتاة وسترين أنَّها ستساعدكِ».

اتَّصلتُ بآديلي. ارتبكتُ كثيرًا، لكنِّي حسمتُ المسألة، إذ تذكَّرتُ كم مرَّةً رأيتُها تتكفَّل بأمر كتابي، وبأمر البحث عن بيت في فلورنسا كانت امرأةً تحبّ أن تأخذ زمام المبادرة. إن احتاجت إلى شيء ما، رفعت السمّاعة، وحاكت الطوق الذي يؤدِّي إلى غايتها، خاتَمًا في إثر خاتم. كانت بارعةً في طلب الخدمات بطريقةٍ من المستحيل أن يعتذر أحدٌ عنها. تجتاز الحدود الأيديولوجيّة بخفَّة ورشاقة، لا تحترم الهرميَّات، وتطرق باب عاملات التنظيف، والموظَّفين الصغار، وأصحاب المصانع، والمثقَّفين، والوزراء، وتتوجَّه إليهم، جميعهم، بلهجةٍ رسميّةٍ هادئة، كما لو أنّ الخدمة التي تطلبها منهم ليست سوى خدمة تُسديها إليهم في الواقع. قصصتُ حكاية صديقتي على مسمع

آديلي أيضًا، بكلِّ تفاصيلها، مشفوعةً بألف اعتذارٍ واعتذار على الإزعاج الذي أسبِّبه لها فاستغربتْ وتعاطفت واستاءت. وقالت لي في النهاية:

«دعيني أفكِّر».

«بالتأكيد».

«هل لي أن أعطيكِ نصيحة؟»

«بالتأكيد».

«لا تكوني خجولة. أنتِ كاتبة، استخدمي دوركِ، ضعيه على المحكِّ، قدِّميه. نحن في مرحلةٍ حاسمة، وكلّ شيء يضيع في مهبِّ الريح. شاركي، وأثبتي وجودكِ. وابدئي بفضح هؤلاء المتكبِّرين من أبناء منطقتكِ. حاصريهم في الزاوية».

«كيف؟»

«بالكتابة. أفزعي سوكاڤو وأمثاله وأرهبيهم. هل تعدينني بأنَّك ستفعلينها؟»

«سأحاول».

وأعطتني رقم أحد المحرِّرين في جريدة «الاتِّحاد».

٤٩

حرَّرتْ مكالمةُ بييترو، ومكالمةُ حماتي بصورة خاصَّة، شعورًا كنتُ أحرص حتى تلك اللحظة على إخفائه، بل على قمعه، إلّا أنّه كان حيًّا وقابلًا للتمدُّد. شعورٌ له صلةٌ بالتحوُّل الذي كان يطرأ على نفسيَّتي. من الوارد أنَّ عائلة آيروتا، ولاسيّما غويدو، وربَّما آديلي ذاتها أيضًا، كانوا يعتبرونني، على الرَّغم من كوني طموحةً للغاية، فتاةً بعيدةً كلّ البعد عن المرأة التي رغبوا في أن تكون زوجةً لابنهم. ومن الوارد أكثر أنَّ أصلي، ولكنتي العامِّيَّة، وانعدامَ الذوق عندي إزاء أيّ شيء، تضع انفتاح أذهانهم قيدَ اختبارٍ عسير ولو بالغتُ قليلًا، لافترضتُ أنّ حتى إصدار كتابي كان من أحد بنود الخطَّة الطارئة التي سعوا من ورائها لإظهاري بمظهرٍ لائقٍ في عالمهم. وما لا شكَّ فيه أنَّهم قبلوني، وأنّي كنت أُقبِل على الزواج من بييترو بموافقتهم، وأنّي على وشك دخول عائلةٍ صلدة، أشبهَ بقلعةٍ محصَّنة جدًّا، بحيث يمكنني التقدُّم بلا خوف، أو يمكنني التوقُّف إذا شعرتُ بالخطر. كان الاعتياد على انتمائي الجديد أمرًا طارئًا، ولاسيَّما أنَّه من الضروريّ أن أكون على درايةٍ بهذا الانتماء الجديد. لم أعد بائعة كبريتٍ صغيرةً، توشك

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

أعواد الثقاب على النفاد دومًا من بين يديها. بتُّ صاحبة احتياطيٍّ هائلٍ من الكبريت. وهكذا أدركتُ فجأةً أنِّي قادرة على مساعدة ليلا أكثر ممّا كنتُ أظنّ بكثير.

طلبتُ من صديقتي، بناءً على هذا الأساس، ذلك التوثيقَ الذي أعدّتْه ضدّ سوكافو، فأعطتني إيَّاه بمعنويَّاتٍ هابطة، من دون حتى أن تسألني ما الذي أنوي أن أفعل به. رحتُ أقرأه باهتمام متزايد. كم من أشياء فظيعةٍ استطاعت أن تسردها بدقَّة ونجاعة. كم من تجارب مؤلمةٍ تتبدَّى من وصفها لمبنى المصنع. قلّبتُ الصفحات بين يديّ مرارًا، ومطوَّلًا، فإذا بي فجأةً، وبشكلٍ لاإراديّ، أتّجه إلى الهاتف، وأبحث في جدول الأرقام، وأتّصل بمصنع سوكافو عدّلتُ صوتي على النبرة المناسبة، وقلتُ باستعلاءٍ مناسب: «مرحبًا، أنا إيلينا غريكو». طلبتُ التكلُّم إلى برونو كان محترمًا ـ «ما أسعدني بسماع صوتكِ» ـ بينما حافظتُ على الفتور. قال: «لقد قمتِ بأشياء رائعة يا إيلينا، رأيتُ إحدى صوركِ في جريدة «روما»، أحسنتِ، ما أجمل تلك الأوقات التي أمضيناها في إيسكيا». فأجبتُه بأنّي سعيدة أنا الأخرى بسماع صوته، لكنّ إيسكيا غدت بعيدة المنال، وأنَّنا تغيَّرنا جميعًا، سواء نحو الأفضل أم نحو الأسوأ، وأنّي سمعتُ عنه إشاعات مريعة وأتمنَّى ألَّا تكون حقيقيَّة. فأدرك مرادي على الفور، وانتفض حالًا تحدَّث عن ليلا بأسوأ ما عنده، تحدَّث عن عدم امتنانها وعن المشاكل التي سبَّبتها له. غيَّرتُ نبرتي، وأجبتُه بأنّي أصدِّق ليلا أكثر ممَّا أصدِّقه. «خذ ورقةً وقلمًا» ـ قلت ـ «وسجِّلْ رقمي، فعلتَ؟ والآن أعطِ أوامرك بأن يدفعوا ما يتوجّب عليك لها حتى آخر ليرة، ثم أخبرْني متى يمكنني المرور لسحب النقود، فأنا لا أرغب في أن تظهر صورتك أيضًا على صفحات الجرائد».

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

أغلقتُ السمّاعة قبل أن يعترض، وشعرتُ بأنّي فخورة بنفسي. لم أُظهِر أدنى علامات المشاعر كنتُ جامدة، وكان كلامي مقتضبًا، وبالإيطاليّة الفصحى. وبدأتُ أوّل الحديث بلباقةٍ وانتقلتُ إلى الحزم في ما بعد. وتمنّيتُ أن يكون بييترو على صواب: هل كنت أكتسب نبرة آديلي حقًّا، هل كنتُ أتعلّم أسلوبها في التعامل من دون أن أدري؟ عزمتُ على التأكّد من أنّي قادرةٌ، إذا أردتُ، على المضيّ في التهديد الذي أنهيتُ به المكالمة. اتّصلتُ بجريدة «الاتّحاد»، بقلقٍ لم يراودني في أثناء اتّصالي ببرونو، إذ كان هو نفسه الفتى المملّ الذي حاول التحرُّش بي على شاطئ شيتارا وبينما كان الهاتف يرنّ، أملتُ ألّا يسمع أحدٌ من الجانب الآخر صوت أمّي وهي تصيح على إيليزا شيئًا ما بالعامّيّة. «اسمي إيلينا غريكو»، قلتُ لموظّفة الاتّصالات، ولم يتسنَّ لي الوقت لأُفصح عمّا أريد حتى هتفت المرأة: «إيلينا غريكو، الكاتبة؟» كانت قد قرأت كتابي، فغمرتني بالتهاني. شكرتُها، وشعرتُ بالبهجة والقوّة. وعلى الرّغم من عدم الضرورة، فقد شرحتُ لها أنّي أفكِّر في كتابة مقال عن مصنع صغير يقع في إحدى الضواحي، وقلتُ لها اسم المحرِّر التي نصحتني به آديلي. هنّأتني الموظّفة ثانيةً، ثم استعادت نبرتها المهنيّة: «انتظري على الخطّ لو سمحتِ»، وانبثق بعد دقيقة، صوتٌ ذكوريٌّ رخيمٌ جدًّا، وسألني بنبرةٍ عابثة: «منذ متى قرَّر الأدباء هنا أن يلطِّخوا أقلامهم بالكتابة عن العمل بالمشارطة، والمناوبات، والساعات الإضافيّة؟ فهذه مواضيع مملّة يسعى الجميع لتحاشيها، ولاسيّما الأديبات الشابّات الناجحات».

«عمَّ يتحدّث المقال؟» سألني، «إسكان، مرافئ، مناجم؟»

«عن مصنع صغير للحوم» غمغمتُ، «لا شيء يُثير الاهتمام».

واصل الرجل سخريّته منّي:

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

«لا ينبغي لكِ أن تعتذري. ممتاز جدًّا. وهل لنا نحن المحررين المساكين أن نعبِّر عن عدم اهتمامنا إذا قرَّرت إيلينا غريكو أن تكتب عن النقانق، وهي التي فرَّغت لها هذه الجريدةُ ما لا يقلّ عن نصف صفحةٍ مليئة بالثناءات الرنّانة؟ ثلاثون سطرًا، هل تناسبكِ؟ أم إنّها قليلة؟ فلنبالغْ: ستُّون سطرًا. ماذا ستفعلين حضرتك حين تنتهين، هل تجلبين المقال شخصيًّا أم تلقّنينني إيّاه على الهاتف؟»

انكببتُ على كتابة المقال حالًا كان عليّ أن أستخلص من صفحات ليلا ستّين سطرًا، وعزمتُ من أجلها على القيام بعمل رائع. لكنِّي لم أكن ذات خبرة بصوغ الملخّصات الصحافية، ما عدا تلك المرَّة حين حاولتُ، في عمر الخامسة عشرة، وبنتائج مروِّعة، أن أكتب عن صدامي مع أستاذ التربية الدينيَّة، لنشره في مجلَّة نينو. لا أدري، لعلّ هذه الذكرى هي التي عقَّدت الأمور. أو لعلّي توتَّرتُ بسبب تهكُّم المحرِّر الذي ظلَّ عالقًا في أذنيّ، وخصوصًا عندما أنهى المكالمة، وطلب منِّي أن أبلغ تحيّاته لحماتي. استنفدتُ وقتًا طويلًا بلا شكّ، وأنا أكتب وأكتب بدأب. لكنِّي لم أشعر بالرضا حين بدا لي أنِّي أنهيتُ المقال، فلم أحمله إلى الجريدة. عليّ أن أتحدَّث مع ليلا أوّلًا، قلت لنفسي، فهذا شيءٌ لا بدّ من أن نقرِّره معًا، سأسلِّم المقال في الغد.

ذهبتُ إلى ليلا، في اليوم التالي. بدا لي أنّها لم تكن بخير. غمغمتْ بأنّ بعض الأشكال استغلّت غيابي، وظهرت من بين الأغراض لتعذّبها هي وجينّارو. انتبهتْ إلى توجُّسي فتنكَّرت باللهو، وقالت إنّها ترَّهات، كانت ترغب في أن أمضي وقتًا أطول إلى جانبها تحدَّثنا كثيرًا هدَّأتُ خاطرها، لكنِّي لم أجعلها تقرأ المقال، لأنِّي فكَّرتُ في أنَّ الجريدة قد ترفضه، ما سيرغمني على أن أقول لليلا إنّه لم ينل

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

إعجاب القيِّمين على الجريدة، فأشعر بالخزي. وهكذا، إلى أن اتَّصلت آديلي في المساء، وأمدَّتني بجرعةٍ معتبَرة من التفاؤل، فحسمتُ الأمر. كانت قد تداولت الموضوع مع زوجها وماريَّاروزا أيضًا وحرَّكت نصف العالم في غضون ساعات قليلة: اتَّصلت بأطبَّاء جهابذة، وأساتذة اشتراكيّين لهم صلات بنقابة العمّال، وأحد المنتسبين إلى الحزب الديموقراطيّ المسيحيّ، والذي وصفتْه بالبليد، لكنّه طيِّبٌ وخبيرٌ بحقوق العمّال. وكان لديّ، في المحصّلة، موعدٌ في اليوم التالي مع أفضل اختصاصيّي القلب في نابولي ـ صديقٍ لأحد الأصدقاء، لن يطلب منّي أجره ـ إضافةً إلى أنّ المفتِّش العامّ سيباغت مصنع سوكافو؛ وأنّي مخوَّلةٌ بالتوجُّه إلى صديق ماريَّاروزا الذي أشار إليه بييترو، لاسترداد مستحقَّات ليلا، وهو محام اشتراكيٌّ شابٌّ، يقع مكتبه في ساحة نيكولا أموري، وقد أحاطوه علمًا بجوانب المسألة.

«هل أنتِ سعيدة؟»

«أجل».

«هل كتبتِ المقال؟»

«أجل».

«أترين؟ كنت أشكّ في أنّكِ ستفعلينها».

«إلّا أنّ المقال جاهز، سأسلّمه إلى «الاتحاد» غدًا»

«أحسنتِ. كدتُ أخاطر في الاستخفاف بكِ».

«وهل هذه مخاطرة؟»

«لطالما كان الاستخفاف بالآخرين مخاطرة. كيف الحال مع ابني، المغفّل المسكين؟»

٥٠

أصبح كلّ شيء سلسًا منذ تلك اللحظة، لكأنّي أتقن فنَّ انسياب الأحداث كماء النبع. حتى بييترو تعاون من أجل ليلا بدا أنَّ صديقه المختصّ باللغة الإغريقيّة أديبٌ ثرثارٌ، لكنَّه كان مفيدًا عمومًا: كان يعرف فعلاً خبيرًا بالحواسيب من مدينة بولونيا ـ اكتشفنا أنَّه المصدر الموثوق الذي يستند إليه الفقيهُ اللغويّ في تخريفاته ـ أعطاه رقم أحد معارفه في نابولي، واصفًا إيّاه بالموثوق مثله وأكثر. لقَّنني اسم ذاك السيِّد النابوليتانيّ، وكنيتَه وعنوانَه ورقمَ هاتفه، فاستحقَّ منّي أسمى كلمات الشكر، وسخرتُ ودّيًا بمبادراته الحثيثة، وأرسلتُ إليه قبلةً عبْر الهاتف.

ذهبتُ إلى ليلا فورًا كانت متوتِّرةً، عميقة السعال، شاحبة الوجه، جاحظة النظرات إلى أبعد الحدود. لكنّي كنت أحمل أخبارًا رائعة، وكنت سعيدة. هززتُها وعانقتُها وشددتُ يديها بيديّ، وأخبرتها عن اتّصالي ببرونو، وقرأتُ عليها المقال الذي حضّرتُه، وعدَّدتُ النتائج التي وصلنا إليها بفضل اهتمام بييترو، ومساعي حماتي وعون نسيبتي. أنصتت إليَّ كما لو أنّي أخاطبها من عالمٍ بعيد ـ عالمٍ آخر

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

دفعتُ نفسي إليه ـ وكأنَّها لا تسمع بوضوح إلّا أنصافَ الأشياء التي أتحدَّث بشانها. ثمّ إنّ جينّارو ما برح يناشدها أن تلاعبه، بينما كنت أتكلَّم، وكانت تستجيب له على مضض. شعرتُ بالسعادة، في كلّ حال. فتحت ليلا، في الماضي، الصندوقَ العجيب في الملحمة، واشترت لي كلّ شيء، والكتب على وجه الخصوص. وها أنا الآن أفتح صناديقي وأردّ إليها المعروف، آملةً أن تشعر بالأمان بقدر ما كنتُ أشعر به.

«إذن»، قلت لها في النهاية، «هل تذهبين صباح الغد إلى الطبيب الاختصاصيّ بالقلب؟»

أجابت عن السؤال بطريقة غريبة، إذ قالت بضحكة خفيفة:

«لن يعجب ناديا هذا الأسلوب في مواجهة الأمور، ولا أخاها».

«أيّ أسلوب؟ لم أفهم».

«لا شيء».

«ليلا»، قلت، «أرجوكِ، ما شأن ناديا، لا تعيريها من الاهتمام أكثرَ ممّا تظنّ أنّها تستحقّه. وانسي أمر أرماندو، فلطالما كان شابًّا سطحيًّا».

فوجئتُ أنا نفسي بهذه الأحكام، إذ لم أكن أعرف سوى القليل عن ابنَي الأستاذة غالياني. ولوهلةٍ تولَّد لديَّ انطباعٌ بأنّ ليلا لا تتذكَّرني، وإنّما ترى قبالتها شبحًا ينتهز تردِّي أوضاعها وفي الواقع، لم أكن أقصد اغتياب ناديا وأرماندو، وإنّما أردتُ أن ألمِّح إليها بأنَّ هرميَّات السلطة كانت مختلفةً عمّا تراه، وأنّ آل غالياني لا يساوون شيئًا مقارنةً بآل آيروتا، فلتتخيّل ما الذي يساويه شخصٌ كبرونو سوكافو، أو ذلك العنتريّ ميكيلي. أردتُ منها أن تطمئنّ وتفعل ما أقوله لها بالتالي. لكنّي شعرتُ، قبل أن أُنهي كلامي، بأنّي أكاد أبدو

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

متعجرفةً، لذا داعبتُ خدَّها، وقلتُ إنّي معجبة، في أيّ حال، بالأخوين غالياني من حيث نشاطُهما السياسيّ، وارتجلتُ ضاحكة: ولكن عليك أن تثقي بي. فغمغمتْ:

«حسنًا، فلنذهب إلى طبيب القلب».

ألححتُ عليها «وبخصوص إنتسو، أيّ موعدٍ أحدّد له؟ أيّ ساعة، وأيّ يوم يناسبه؟»

«متى تريدين، ولكن بعد الخامسة عصرًا».

اتَّجهتُ إلى الهاتف حالما عدتُ إلى البيت. اتَّصلتُ بالمحامي، وشرحتُ له وضع ليلا بالتفصيل. واتّصلتُ بطبيب القلب، وأكّدتُ الموعد. واتّصلتُ بخبير الحواسيب، وكان يعمل في مؤسَّسة التطوير الزراعيّ. قال لي إنَّ دورة زوريخ لا طائل من ورائها، لكنَّه سيستقبل إنتسو عمومًا يوم كذا في ساعة كذا على العنوان كذا واتّصلتُ بجريدة «الاتِّحاد»، فقال لي المحرِّر حضرتكِ تتباطئين على راحتكِ، هل ستأتينني بالمقال، أم إنّنا سننتظر حتى أعياد الميلاد؟ واتّصلتُ بسكرتيرة برونو، وطلبتُ منها أن تنقل إلى مديرها أنّ مقالًا لي سيُنشَر في «الاتِّحاد» قريبًا، ما لم أحصل منه على أيّ ردّ.

وكان للمكالمة الأخيرة ردّة فعلٍ سريعة وعنيفة. اتَّصل بي سوكافو بعد دقيقتين، ولم يكن لبقًا هذه المرّة، هدّدني. فأجبته بأنَّ عليه توقُّع دخول المفتِّش لمصلحة العمَّال في أيٍّ لحظة، إضافةً إلى محامٍ سيشرف على مستحقّات ليلا وهرعتُ بعدئذٍ، في المساء، إلى مقرِّ الجريدة لتسليم المقال، وأنا سعيدة بموجة الهياج التي تغمرني، إذ كنت فخورة بمواجهة الظلم، عن اقتناعٍ ومودّة، نكايةً بباسكوالي وفرانكو اللذين يظنّان أنَّهما ما زالا قادرين على تلقيني الدروس.

كان المحرِّر، الذي تكلَّمتُ معه، سمينًا، قصير القامة، في

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

أواسط العمر، وعيناه الغائرتان تتَّقدان بتهكُّم ودودٍ على الدوام. دعاني إلى الجلوس على كرسيٍّ شبه مخلوع، وقرأ المقال بتركيز. وفي النهاية، طرح الأوراق على المنضدة، وقال:

«وهل هذه ستّون سطرًا؟ تبدو لي مئة وخمسين».

شعرتُ بالحياء، وغمغمتُ:

«لقد أحصيتُها أكثر من مرّة، إنّها ستُّون سطرًا».

«أجل، لكنَّها مكتوبةٌ بخطّ اليد، وبإملاءٍ لا يُقرَأ حتى بالمجهر. إلّا أنّ القطعة ممتازةٌ حقًّا، يا رفيقة. ابحثي عن آلةٍ كاتبةٍ في مكانٍ ما، واشطبي ما يمكنكِ شطبه».

«الآن؟»

«متى إذن؟ هل تريدين منّي أن أنتظر إلى الأبد، في حين لديّ مقالٌ ممتازٌ كهذا يلفت الانتباه؟»

٥١

كم كنت أشعر بالعنفوان في تلك الأيَّام. ذهبنا إلى طبيب القلب، كان برفسورًا جليلًا، عيادته في منزله الواقع في شارع كريسبي. اعتنيتُ بمظهري كثيرًا من أجل تلك المناسبة. فالطبيب، على الرَّغم من كونه من نابولي، لديه ارتباطات بعالم آديلي، ولم أشأ أن أؤثِّر سلبًا في سمعة حماتي. سرَّحتُ شعري، وارتديتُ فستانًا أهدتني إيَّاه آديلي، ووضعتُ عطرًا شذيًّا يشبه عطورها، واستخدمتُ من مساحيق الوجه أرفعَها أردتُ أن يمدحني البروفسور عند حماتي، إذا التقاها صدفةً أو اتَّصل بها هاتفيًّا أمّا ليلا فظهرتْ كما كنت أراها كلّ يومٍ في البيت، من دون أدنى عناية بطلعتها استرحنا في صالة انتظار كبيرة، تزدان جدرانها بلوحات تعود إلى القرن التاسع عشر لوحةٌ لسيِّدةٍ نبيلة جالسةٍ على الديوان، وخادمتها السوداء من خلفها؛ لوحةٌ لسيِّدةٍ عجوز، ولوحةٌ ضخمةٌ لمشهد صيدٍ في الهواء الطلق. ثمَّة شخصان آخران في الانتظار، رجلٌ وامرأة، كلاهما في سنٍّ متقدِّمة، وكلاهما في مظهرٍ أنيق وكيّسٍ يليق بأصحاب النِّعَم. انتظرنا صامتتين. قطعت ليلا الصمت لمرَّة واحدة، بعد أن كانت في الطريق تهنّئني على أناقة

telegram @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

هندامي، قالت حينذاك بصوتٍ هامس: تبدين كأنَّكِ خارجةٌ من إحدى هذه اللوحات، أنتِ المولاة وأنا الجارية.

انتظرنا بضع دقائق، حتى نادت علينا الممرِّضة، فتجاوزنا المريضين اللذين ينتظران، من دون أسباب وجيهة. ارتبكت ليلا عندئذٍ وتوتَّرت، أرادت أن أشرف على المعاينة، وحلفت بأنَّها لن تدخل بمفردها، ثم دفعتني أمامها كما لو كنتُ أنا المضطرَّة إلى المعاينة. كان الطبيب هزيلًا للغاية، في الستّينيَّات من عمره، شعرُه رماديٌّ وكثيفٌ جدًّا استقبلني باحترام، كان يعرف كلّ شيء عنِّي، ودردش معي عشر دقائق كأنّ ليلا ليست موجودة معنا قال إنَّ ابنه أيضًا درس في نورمالي في بيزا، لكنَّه تخرَّج بفترة ستّ سنواتٍ قبلي. وشدَّد على أنَّ شقيقه كان كاتبًا، وله حضور لافتٌ نوعًا ما، لا يتعدَّى حدود ناپولي. وأشاد بعائلة آيروتا، وكان يعرف أحد أقرباء آديلي، وهو عالم فيزياء مشهور. سألني:

«متى الزفاف؟»

«في ١٧ مايو».

«السابع عشر؟ إنّه رقمٌ يجلب سوء الحظّ. غيِّري التاريخ، أرجوكِ».

«لم يعد هذا ممكنًا».

ظلَّت ليلا صامتة طوال الوقت. لم تُعر البروفسور أيَّ انتباه، وشعرتُ باستغرابها يُثقل على كاهلي، إذ بدت تتعجَّب من أيّ كلمةٍ أقولها وأيّ حركةٍ أفعلها. وحين ركَّز الطبيب فيها أخيرًا، واستجوبها مطوَّلًا، كانت تجيبه على مضض، بالعامِّيَّة أو بإيطاليَّة متدنِّية تتخلَّلها صياغاتٌ عامِّيَّة. وغالبًا ما اضطررتُ إلى التدخُّل كي أذكِّرها ببعض

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

الأعراض التي كلَّمتني عليها، أو كي أهوِّل من أعراض أخرى كانت تصفها باستخفاف. خضعت بعد ذلك، لمعاينة شديدة الدقَّة وفحوصات جدِّيَّة، وكانت حانقةً كما لو كنّا أنا والطبيب نُهينها نظرتُ إلى جسدها النحيف، تحت لباسها الداخليّ الأزرق الفاتح، كان فضفاضًا عليها، وباليًا جدًّا وعنقها يبدو منهكًا من تحمُّل رأسها، وجلدها كان مشدودًا عند عظامها، كمنديل ورقيّ يوشك على التشقُّق. وانتبهتُ إلى أنّ إبهام يدها اليسرى يتعرَّض لرعشةٍ تلقائيّة طفيفة بين الحين والآخر مرَّت نصف ساعة قبل أن يسمح لها الطبيب بارتداء ثيابها فارتدت الثياب وهي تراقبه بنظراتها، فشعرتُ بأنَّها كانت جزعةً. اتَّجه الطبيب إلى منضدته، وجلس وصرّح أخيرًا بأنَّ كلّ شيء على ما يرام، لم يعثر على أيّ أثرٍ لنفخةٍ قلبيَّة. «لديكِ قلبٌ ممتاز يا سيِّدتي»، قال لها إلَّا أنَّ تأثير جوابه في ليلا كان هشًّا للوهلة الأولى. لم تظهرْ عليها ملامحُ السعادة، بل بدت منزعجة. فكنت أنا مَن أعرب عن السعادة، كما لو أنَّ ذاك القلب قلبي. وكنت أنا من توجَّس حين أضاف الطبيب متجهّمًا، ومتوجِّهًا إليّ بالحديث مجدَّدًا، متجاوزًا ليلا، كأنَّه شعر بالإهانة من تجاوبها الفاتر، أضاف مستدركًا أنَّه لا بدّ من تدخّلٍ طارئ لمداراة وضعها العامّ. قال إنّ المشكلة لا تكمن في السعال، «فالسيّدة تعرَّضتْ لنزلة برد، فأصابتها الإنفلونزا قليلًا، سأعطيها شرابًا». المشكلة بالنسبة إليه هي الإرهاق الناجم عن تدهورٍ خطيرٍ ألمّ بالجسد. ويتوجَّب على ليلا أن تريح نفسها أكثر، وأن تتناول طعامها بانتظام، وتباشر بعلاجٍ منشِّط، وتنام ثماني ساعاتٍ على الأقلّ. «إنّ معظم أعراض صديقتِكِ»، قال لي «ستزول حالما تستعيد قواها في أيِّ حال ـ ختم كلامه ـ أنصحها بزيارة طبيب أمراض عصبيَّة».

فما كان من ليلا إلَّا انفجرت عند سماعها تلك الكلمة الأخيرة.

قطَّبت جبينها، واندفعت بجذعها إلى الأمام، وتكلَّمت بالإيطاليّة:

«حضرتك تقول إنّي مريضة أعصاب؟»

نظر إليها الطبيب مذهولًا، كما لو أنَّ المريضة، التي انتهى من معاينتها للتوّ، تحوَّلتْ إلى شخص آخر بسحر ساحر.

«على العكس. لستُ سوى ناصحٍ بإجراء الفحوصات».

«هل تلفّظتُ، أو فعلتُ، ما لا ينبغي لي؟»

«لا، اطمئنِّي، لا هدف من تلك المعاينة سوى الحصول على صورةٍ كاملة عن وضعكِ».

«إحدى قريباتي»، قالت ليلا، «من أقرباء أمِّي، كانت تعيسة، ظلَّت تعيسةً طوال حياتها. في الصيف، حينما كنتُ صغيرة، كنت أسمع صراخها وقهقهاتها من النافذة المفتوحة، أو كنتُ أراها على قارعة الطريق تتصرَّف كالمجانين تقريبًا. لكنَّ السبب هو التعاسة، ولهذا لم تذهب إلى أيِّ طبيب أمراض عصبيَّة أبدًا، بل لم تذهب إلى أيِّ طبيب أصلاً».

«كانت ستُحسن صنعًا لو أنَّها ذهبت إلى الطبيب»

«الأمراض العصبيّة تنحصر في الأكابر».

«وهل كانت قريبة أمّك من الأكابر؟»

«لا».

«وحضرتكِ؟»

«إنّي أقلّ شأنًا منها».

«وهل تشعرين بالتعاسة؟»

«إنِّي في أحسن حال».

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

التفت إليّ الطبيب مرَّةً أخرى، مكفهرًّا

«نقاهةٌ تامَّة. حاولي أن تشجِّعيها على البدء بهذا العلاج بانتظام. وإن كان في وسعكِ أن تصطحبيها إلى الريف، فهذا أفضل».

انفجرت ليلا ضاحكةً، وعادت إلى العامِّيَّة:

«في آخر مرّةٍ زرتُ فيها طبيبًا، نصحني بالذهاب إلى البحر، وهناك كابدتُ العديد من المصائب».

تظاهر البروفسور بأنَّه لم يسمع شيئًا، وابتسم في وجهي كي يحصل على ابتسامةٍ متواطئة منِّي. أعطاني اسم صديقه، أحد أطبَّاء الأعصاب، والذي اتَّصل به بنفسه كي يستقبلنا في أقرب وقت. ولم يكن من السهل جرُّ ليلا إلى العيادة الجديدة. قالت إنَّ لا وقت لديها تضيِّعه، وقد ملَّت بما فيه الكفاية عند طبيب القلب، وعليها أن تعتني بجينّارو، وخصوصًا أنَّها لا تملك من المال ما تبذِّره، ولم تكن تريد أن أبذِّر نقودي أنا أيضًا. فطمأنتُها إلى أنّ المعاينة مجّانيَّة. وأطاعتني في النهاية، ولكن بامتعاض.

كان طبيب الأعصاب قصير القامة، نشطًا، أصلع الرأس، وتقع عيادته في إحدى البنايات القديمة من شارع طليطلة، وصالة الانتظار تزدهي بنصوص فلسفيّة حصرًا، وفي أبهى تنظيم. كان يحبّ أن يُصغي الآخرون إلى كلامه، وقد تحدَّث كثيرًا إلى درجة بدا لي أنه يركِّز انتباهه في سياق خطابه أكثر من اهتمامه بالمريض. كان يعاينها ويتحدَّث معي، ويطرح عليها أسئلةً ثم يقدِّم إليَّ تأمُّلاته العميقة، غير مكترثٍ لإجاباتها وخلُص، عمومًا، إلى أنّ جملة ليلا العصبيّة كانت بخير بقدر ما كانت عضلتها القلبيّة كذلك. ولكن ـ قال متوجِّهًا إليّ دومًا ـ «زميلي على صواب، يا أستاذة غريكو العزيزة، جسدها تعرَّض

telegram @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

لوهن مفرط، وبالتالي فإنّ النَّفْس الغاضبة والنَّفْس الغريزيّة، على حدٍّ سواء، تنتهزان الفرصة للتغلَّب على النَّفْس العاقلة. فإذا أعدنا إلى الجسد رخاءَه ارتاح العقل». ثم ملأ الوصفة بإشاراتٍ غير مفهومة، وراح في الوقت نفسه يذيع أسماء الأدوية وعدد الجرعات بصوت عالٍ. وانتقل، بعدئذ، إلى النصائح. نصح بنزهاتٍ طويلة لاستعادة الراحة، متجنِّبًا البحر: يُفضَّل الذهابُ إلى غاب كابوديمونتي أو كامالدولي. نصح بالإكثار من القراءة، خلال النهار فقط، وليس في المساء أبدًا، وبإشغال اليدين بشيء ما دومًا، مع أنّه اكتفى بنظرةٍ حقيقيّةٍ إلى يدي ليلا ليفهم أنّها أشغلتْهما أكثر ممّا ينبغي لها وعندما غالى في تعداد فوائد الحياكة بالمشبكين على الجهاز العصبيّ، توتَّرت ليلا على كرسيِّها، ولم تنتظر أن يُنهي الطبيب كلامه، فسألته عمّا يثور في صميم أفكارها السرِّيَّة:

«بما أنَّنا هنا، فهلاَّ أعطيتني الحبَّة التي لا تنجب الأطفال؟»

عبس الطبيب، وأنا أيضًا على ما أعتقد. بدا لي الطلب خارج السياق.

«حضرتكِ متزوِّجة؟»

«كنتُ متزوِّجة، أمّا الآن فلا».

«ماذا تقصدين بالآن لا؟»

«لقد انفصلتُ عن زوجي».

«ما زلتِ متزوِّجة إذن».

«لا أدري».

«هل لديكِ أولاد؟»

«ولدٌ واحد».

«ولد واحد قليل»

«يكفيني واحد».

«إنّ الحمل في حالتك قد يكون مفيدًا، ما من دواءٍ للنساء أفضل من الحمل».

«عرفتُ نساءً دمَّرهنَّ الحملُ. حبوب المنع أفضل».

«من الأفضل أن تستشيري طبيب أمراضِ نسائيّة بخصوص مشكلتكِ هذه».

«حضرتكَ تفهم في الأعصاب حصرًا، ألا تعرف شيئًا عن حبوب المنع؟»

تضايق الطبيب. ثرثر قليلًا ثم أعطاني، عند العتبة، عنوان طبيبة تعمل في مختبر تحاليل عند جسر تابيا، ورقم هاتفها. اذهبي إليها، قال لي كما لو كنتُ أنا من طلب منه حبوب منع الحمل، وودَّعنا وعند الخروج، طالبتنا السكرتيرة بدفع أَجر المعاينة. ففهمتُ أنَّ طبيب الأمراض العصبيّة كان غريبًا عن شبكة المعارف التي نسجتْها آديلي، فدفعتُ.

وما إن صرنا في الطريق، حتى كادت ليلا تصرخ غاضبةً: لن آخذ أيّ دواء ممّا أعطاني إيّاه هذا الحقير رأسي يذوب في أيّ حال، أعرف هذا مسبقًا فأجبتُ: لا أوافقك الرأي، ولكن افعلي ما يحلو لكِ. ارتبكتْ حينئذ وغمغمت: لستُ غاضبة منكِ، بل من الأطبَّاء. تمشّينا في اتِّجاه جسر تابيا، من دون أن نقرِّر ذلك، كأنَّنا نتنزَّه لنحرِّك ساقينا ليس إلَّا تصمت تارةً، وتقلِّد ثرثرة طبيب الأمراض العصبيَّة بحنقٍ تارةً أخرى. ورأيتُ أنَّ ضجرها ذاك ينبئ بعودة حيويّتها سألتُها:

«هل الأمور مع إنتسو تجري بخير نوعًا ما؟»

«على حالها دومًا».

«فبمَ تفيدك حبوب المنع؟»

«هل تعرفين هذه الحبوب؟»

«أجل».

«وهل تجرّبينها؟»

«لا، لكنّي سأفعلها ما إن أتزوّج».

«ألا تريدين أبناءً؟»

«أريد، ولكن عليّ أن أؤلّف كتابًا آخر أوّلًا».

«وهل يعرف زوجكِ أنَّك لا تريدين الإنجاب فورًا؟»

«سأخبره بذلك».

«ألا نذهب إلى تلك الطبيبة، لعلَّها تُعطينا الحبوب لي ولكِ؟»

«لا، هذه ليست سكاكر تتناولينها كما يروق لكِ. إذا كنتِ لا تفعلين شيئًا مع إنتسو، فانسي أمرها».

نظرتْ إليَّ بعينين غائرتين، كثقبين بالكاد يظهر منهما البؤبؤ

«لا أفعل معه شيئًا الآن، ولكن من يدري في المستقبل؟»

«هل أنتِ جادّة؟»

«لا يجدر بي ذلك، في رأيكِ؟»

«بلى، طبعًا».

بحثنا، عند جسر تابيا، عن كابينة عموميّة، واتَّصلنا بالطبيبة، قالت إنَّها مستعدَّة للقائنا فورًا. وخلال طريقنا نحو المخبر، أظهرتُ سروري أكثر فأكثر بسبب الوئام الحاصل بينها وبين إنتسو، وبدت

telegram @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

مباركتي ترفع معنويّاتها فعدنا تينك الفتاتين الصغيرتين، ورحنا نتضاحك، وبين الجدّ والمزاح، أخذت إحدانا تردّد على الأخرى: تكلّمي معها بنفسكِ في هذا الخصوص فأنتِ أوقح منّي، لا بل ستتحدّثين إليها أنتِ فهندامكِ يليق بالسيّدات، أنا لستُ مضطرّة، ولا أنا، فلماذا نذهب إليها إذن.

كانت الطبيبة تنتظرنا عند البوّابة، بمئزرها الأبيض. كانت امرأةً عفويّة، وصوتها كان صدّاحًا دعتنا إلى مقهًى في الجوار، وعاملتنا كما لو كنّا صديقتين قديمتين لها وكرّرت أكثر من مرّة أنّها ليست طبيبةَ أمراضٍ نسائيَّة، إلّا أنّها كانت سخيَّةً في مدِّنا بالنصائح والشروح، حتى إنّي تحفَّظتُ وانتابني الملل قليلًا، بينما انبرت ليلا بأسئلة تزداد صراحةً، واعتراضاتٍ، وأسئلة جديدة، وملاحظات ساخرة. باتا على درجة عالية من الانسجام. وحصلت كلٌّ منا، في النهاية، على وصفة طبّيَّة، إضافة إلى الكثير من الإرشادات. رفضت الطبيبة أن تأخذ أجرًا لأنّها كانت في مَهمَّةٍ طوعيّةٍ بصحبة أصدقاء آخرين، على حدّ قولها كان عليها أن تعود إلى العمل، وحين الوداع عانقتنا بدلًا من أن تصافحنا وإذ خرجنا إلى الشارع، قالت ليلا جادّةً: وأخيرًا، حظينا بمصادفة شخصٍ لبق. كانت مبتهجة حينذاك، لم أَرَها مبتهجةً إلى ذلك الحدّ منذ زمن طويل.

٥٢

تأخَّرت جريدة «الاتِّحاد» في نشر مقالي، على الرَّغم من رضا المحرِّر وتحمُّسه. كنت مضطربة، وخشيتُ ألَّا يصدر أبدًا ولكن، تمامًا في اليوم التالي لزيارتنا طبيب الأعصاب، ذهبتُ إلى الكشك في الصباح الباكر، وألقيتُ نظرةً خاطفة على الجريدة، بالقفز من صفحةٍ إلى أخرى، حتى عثرتُ عليه أخيرًا كنت أتوقَّع أن ينشروه موجزًا بين ترّهات الأخبار المحلِّيَّة، غير أنّي وجدتُه بين صفحات الأخبار الوطنيَّة، كاملًا غير منقوص، وإمضائي الذي - إذ رأيتُه مطبوعًا - وخزني كأنَّه دبُّوسٌ طويل. اتَّصل بي بييترو سعيدًا، وآديلي كانت مبتهجة أيضًا قالت إنّ المقال أعجب زوجها كثيرًا، بل حتى أعجب ماريَّاروزا لكنّي فوجئتُ كثيرًا باتّصال مدير دار النشر لتهنئتي، ومن بعده اتّصلت بي شخصيَّتان مهمَّتان كانتا تتعاونان مع الدار نفسها، وفرانكو ماري، فرانكو ماري، طلب رقمي من ماريَّاروزا تحدَّث إليَّ بلهجة محترمة، وقال إنَّه سعيدٌ بي، لأنِّي قدَّمتُ أنموذجًا للتحقيق المثاليّ عن وضع العمّال، وكان يأمل اللقاء بي قريبًا كي نتداول في الأمر. وهكذا، انتظرتُ أن يصل استحسان نينو، من خلال قناةٍ غير متوقَّعة،

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

ولكن عبثًا أسفتُ لذلك. حتى باسكوالي لم يظهر، لكنَّه كان قد توقَّف عن متابعة جريدة الحزب منذ مدَّة، لأسباب نفورٍ سياسيّة. واستني مكالمة المحرِّر في الجريدة، في أيِّ حال، وقد بحث عنِّي لينقل إليّ مدى الإعجاب الذي حصده المقال، ودعاني، بأسلوبه المتهكِّم كالعادة، إلى شراء آلة كاتبة وتنضيد أشياء أخرى مفيدة.

عليَّ أن أقول إنَّ أكثر المكالمات إرباكًا كانت مكالمة برونو سوكافو. طلبني من سكرتيرته، ثم ساد صوته فوق صوتها تحدَّث بنبرةٍ كئيبة، كما لو أنَّ المقال ـ الذي لم يُشِر إليه في البداية ـ جرحه كثيرًا حتى نزع منه كلّ حيويَّته. قال إنَّه خلال النهارات في إيسكيا، وفي أثناء نزهاتنا الرائعة على الشاطئ، أُغرِم بي كما لم يحدث له من بعد. وأعرب عن كامل تقديره للنجاح الذي حقَّقتُه في حياتي مع أنّي ما زلت في ريعان الشباب. وأقسم بأنَّ والده سلَّمه مؤسَّسةً تُعاني صعوباتٍ جسيمةً، منكفئةً على عاداتٍ سيِّئة، وأنَّه كان الوارث الوحيد، والبريء، لوضعٍ يراه مُزريًا للغاية. وأكَّد أنَّ مقالي ـ أشار إليه أخيرًا ـ كان نافعًا بالنسبة إليه، فهو إنّما يريد تقويم كلِّ الاعوجاجات التي ورثها من الماضي في أقرب وقت ممكن. وتأسَّف بشأن سوء الفهم الذي أفسد علاقته بليلا، وأوضح لي أنَّ إدارته تسوِّي الوضع حاليًّا مع المحامي «الخاصّ بي». وختم بهدوء: أنتِ تعرفين الأخوين سولارا، إنّهما يساعدانني في هذا الوضع الصعب على إعطاء وجهٍ جديد لمصنع سوكافو. وأضاف: يبلِّغكِ ميكيلي تحيَّاته الحارَّة. وَرَدَدْتُ على التحيَّات بمثلها، وعوّلتُ على قراراته الطيِّبة وأغلقتُ السمَّاعة. اتّصلتُ بالمحامي صديق ماريَّاروزا في الحال، كي أُعْلِمه بتلك المكالمة. فأكَّد لي أنَّ مسألة المال قد حُلَّت، والتقيتُه بعد أيّام في المكتب حيث يعمل. كان أكبر منّي ببضعة أعوام، ويعتني بأناقة لباسه، ولطيفًا،

بمعزلٍ عن شفتيه الحادَّتين اللتين تكدِّران محيَّاه. أراد أن يدعوني إلى فنجان قهوة في المقهى. كان يجلّ غويدو آيروتا أيَّما إجلال، ويتذكَّر بييترو جيِّدًا. سلّمني المبلغ الذي دفعه سوكافو إلى ليلا، وأوصاني بالحذر من النشَّالين. وتطرَّق إلى وصف الفوضى التي شهدها عند البوّابة بين الطلبة والنقابيّين والشرطة، وقال إنَّ مفتِّش العمل سجَّل حضوره في ذلك المصنع أيضًا. ومع هذا، لم يبدُ لي راضيًا. وسألني عند العتبة لحظة الوداع فقط:

«هل تعرفين آل سولارا؟»

«إنَّهم من سكَّان الحيِّ الذي نشأتُ فيه».

«هل تعلمين بأنّهم يقفون خلف سوكافو؟»

«أجل».

«ألستِ قلقة؟»

«لم أفهم».

«أردتُ أن أقول: ربَّما لأنّكِ تعرفينهم منذ زمن، ولأنَّكِ درستِ خارج نابولي، ربّما لا يساعدك هذا على رؤية الحالة في صورة أوضح».

«أرى الحالة في منتهى الوضوح».

«توسَّع نفوذ سولارا، في الأعوام الأخيرة، وبات لهم شأنٌ كبير في هذه المدينة».

«وبعد؟»

زمّ شفتيه، ومدّ يده ليصافحني.

«لا شيء، حصلنا على النقود، كلّ شيء على ما يرام. انقلي تحيَّاتي إلى ماريَّاروزا وبييترو. متى الزفاف؟ هل تعجبكِ فلورنسا؟»

٥٣

أعطيتُ ليلا النقودَ، فأحصتْها مرَّتين اثنتين، بشعورٍ بالغ بالرضا، وأرادت في الحال أن توفيني المبلغ الذي استلفته منِّي. وصل إنتسو بعد قليل، وكان عائدًا للتوّ من لقاء خبير الحواسيب. كان يبدو سعيدًا، ضمن حدود جموده بطبيعة الحال، حتى كاد يختنق بمشاعره وكلماته، خلافًا لرغباته نفسها بذلنا أنا وليلا قصارى جهدنا في سحب المعلومات من فمه، وحصلنا في النهاية على مشهدٍ واضح بما فيه الكفاية. كان الخبير على درجة عالية من اللطف. أعاد على مسمعه، في البدء، أنَّ دورة زوريخ كانت مالًا مهدورًا، ثم انتبه إلى جدارة إنتسو، على الرَّغم من عدم جدوى تلك الدورة. وقال له إنّ شركة IBM في طريقها إلى افتتاح مُنشَأة لها في إيطاليا، في ناحية فيرمركاتي، لإنتاج حاسوبٍ حديث جدًّا، وإنّ فرع نابولي في حاجة ماسَّة إلى تقنيِّين في مجال التثقيب والفحص، وإلى عمَّال، ومبرمجين محلِّلين. وأكَّد له أنَّه سيُعْلِمه بالأمر متى باشرت المؤسَّسةُ دورات التأهيل. فسجَّل إنتسو كلّ المعطيات.

«هل بدا لك شخصًا جادًّا؟» سألته ليلا

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

فأشار إنتسو إليّ، ليثبت جدِّيَّة الرجل الذي حاوره:

«يعرف كلّ شيء عن خطيب لينوتشا».

«ماذا تقصد؟»

«وصفه بأنّه ابن رجلٍ مهمّ».

عبّرت ليلا عن انزعاجها كانت تعلم بطبيعة الحال بأنّ الموعد مدبَّرٌ من بييترو، وأنّ لكنية آيروتا فضلًا في إنجاح ذلك اللقاء، لكنَّها بدت لي أنَّها تمانع أن يتفطَّن إنتسو لهذا الأمر ففكَّرتُ في أنّها ربّما تضايقت من احتمال أن يكون إنتسو مَدينًا لي بشيء ما، كما لو كان ذلك الدَّين، الذي ليس له تبعات بيني وبينها، ولا ينجم عنه امتنانٌ مشوبٌ بالذلّ، قد يجرح إنتسو. فسارعتُ إلى القول إنَّ لا شأن لمقام حميّ، وإنَّ خبير الحواسيب اشترط أن يكون إنتسو كفؤًا كي يساعده. فبالغتْ ليلا في التصديق على ذلك، وشدّدت قائلةً:

«إنّه شاطرٌ جدًّا».

«لم أَرَ حاسوبًا في حياتي» قال إنتسو.

«وما الضير في هذا؟ لعلّ الرجل أدرك مهارتك في العمل في أيّ حال».

تمعّن مليًّا، ثم رمى إليها بتقديرٍ أشعرني بالحسد برهةً:

«لقد أدهشته التمارين التي كنتِ ترغمينني عليها».

«حقًّا؟»

«أجل، ولاسيّما جدولة الأشياء، مثل الكيّ وربط العقدة»

وراحا، منذ تلك اللحظة، يتمازحان في ما بينهما، باستحضار مجموعة من الصياغات التي لم أكن أفهمها، فتعزلني عنهما. وشعرتُ فجأة بأنّهما ثنائيٌّ عاشقٌ، وسعيدٌ فعلًا، يتظلّلان بأفياء سرٍّ غامضٍ هما

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

أكثر الناس جهلًا به. رأيتُ فيهما فِناء طفولتنا من جديد. رأيتُ ليلا وإنتسو ثانيةً، وهما يتنافسان في مسابقة الحساب تحت أعين المدير والمعلِّمة أوليڤييرو. رأيتُه من جديد، حين كان يجهش باكيًا لأنَّه آذاها بالحجر، وهو الذي كان عصيّ الدمع. ففكَّرتُ: إنَّ طريقتهما في البقاء معًا آتيةٌ من الجانب البهيّ للحيّ. لعلَّ ليلا محقَّة في رغبتها في العودة إلى الحيِّ.

٥٤

بدأتُ أُعير لافتاتِ «للإيجار» المعلَّقةَ على البوَّابات انتباهًا وصلتني، في تلك الآونة، دعوةٌ إلى حفل زفاف جيليولا سبانيولو وميكيلي سولارا، وصلت إليّ وليس إلى عائلتي. وصلتني، بعد ساعات قليلة، دعوةٌ أخرى محمولةٌ باليد: حفل زفاف ماريزا سارّاتوري وألفونسو كارّاتشي. وكانت كلٌّ من عائلة سولارا وعائلة كارّاتشي تتوجَّه إليَّ بإجلال: «الأستاذة إيلينا غريكو الموقَّرة». وسرعان ما بدت لي الدعوتان خير مناسبةٍ للتحقُّق من إمكان عودة ليلا إلى الحيِّ، وإن كان من الأفضل أن أساعدها على ذلك أم لا خطَّطتُ لزيارة ميكيلي، ألفونسو، جيليولا، ماريزا، بحجَّة تهنئتهم والاعتذار عن عدم حضوري لأنِّي سأكون قد غادرتُ ناپولي قبل الموعد الذي سيتزَّوجون فيه. إلّا أنّي في الحقيقة ما أردتُ سوى التبيّن من أنّ آل سولارا وآل كارّاتشي ما زالوا يُضمرون رغبتهم في تعذيب ليلا وكان ألفونسو يبدو لي أنّه الشخص الوحيد القادر على إخباري، بحياديّة، عمّا إذا كان شقيقه ستيفانو ما زال ساخطًا على زوجته. أمَّا ميكيلي، مع أنِّي كنت أمقته ـ بل ربّما لأنِّي كنت أمقته تحديدًا ـ فكنت أعوِّل

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

على التكلُّم معه بهدوء بخصوص مشاكل ليلا الصحِّيَّة، ولأجعله يُدرك أنّي، على الرَّغم من أنّه يحسب نفسه متنفِّذًا ولا يعبأ بي كما لو كنتُ فتاةً صغيرة، صرتُ أملك ما يكفي من قوَّة لأعقِّد حياته وأعماله إذا استمرّ في تعقُّب ليلا وضعتُ كلتا الدعوتين في حقيبة اليد، لم أشأ أن تراهما أمِّي فتشعر بالإهانة لأنَّ التبجيل كان موجَّهًا إليَّ، وليس إليها أو إلى والدي، وكرَّستُ نهارًا كاملًا لهذه اللقاءات.

لم يكن الطقس يبشِّر بخير. حملتُ معي المظلّة، وبما أنّ مزاجي كان صافيًا، رغبتُ في المشي والتمعُّن وإلقاء ما يشبه نظرات الوداع على الحيّ والمدينة. وبدأتُ، وفقًا لعادتي كتلميذة مجتهدة، باللقاء الأصعب، أي مع ميكيلي سولارا. ذهبتُ إلى المقهى، فلم أجده ولم أجد جيليولا، ولا حتى مارتشيلو، قالوا لي إنّهم قد يكونون في المحلّ الجديد في الشارع العامّ. أطللتُ برأسي، مثل زبون لا شغل له، ينظر حوله بلا عجلة. لقد مُسحَت ذكرى الكهف المظلم والغميق لمستودع الدون كارلو نهائيًّا، حيث كنت أذهب في صغري لشراء الصابون السائل وحاجات منزليّة أخرى. ثمَّة لافتة ضخمة معلَّقة عموديًّا على نوافذ الطابق الثالث ـ «كلّ شيء في متناول الجميع» ـ وتنحدر نحو المدخل الواسع. كان المتجر مليئًا بالأضواء على الرَّغم من ضوء النهار، ويعرض بضائع من كل الأنواع، دلالةً على اتِّساع الوفرة. وجدتُ رينو، شقيق ليلا، وقد بات بدينًا جدًّا. عاملني بفتور، وقال إنَّه مدير المتجر، ولا يعرف شيئًا عن الأخوين سولارا. «إن كنتِ تبحثين عن ميكيلي فاذهبي إلى بيته»، قال بجفاء، وأشاح ظهره كما لو كان مشغولًا بأمر طارئ.

عدتُ إلى السير ثانيةً، وبلغتُ الحيّ الجديد، حيث كنت أعرف أنَّ عائلة سولارا بأكملها قد اشترت بيتًا واسعًا هناك منذ أعوام. فتحت لي الوالدة مانويلا، المرابية، والتي لم أصادفها منذ عرس ليلا

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

شعرتُ بأنَّها تراقبني من عين الباب. واستمرَّت في ذلك طويلًا، حتى حرَّكت المزلاج وظهرت ضمن إطار الباب، من جانبٍ يحجبها ظلام البيت، ومن جانبٍ آخر يغزوها النور الآتي من نافذة السلالم الكبيرة. كان لحمها يبدو متآكلًا، وجلدها كان مشدودًا فوق عظامها الناتئة، وبؤبؤ إحدى عينيها شديد اللمعان والآخر كان ذاوِيًا أو يكاد. لكنّ الذهب يتلألأ في أذنيها وعنقها ولباسها الداكن الذي يتراقص على جانبيها، كأنّها تتحضَّر لحفلة ما عاملتني باحترام، دعتني إلى الدخول وتناول فنجان قهوة. لم يكن ميكيلي هناك، وعرفتُ أنّ لديه بيتًا آخر، في حيِّ بوزيليبو، حيث سينتقل إليه نهائيًّا في إبّان الزواج. وكان بصحبة جيليولا يملأ بيته الجديد أثاثًا

«هل سيتركان الحيّ؟» سألتُ.

«بالتأكيد».

«إلى بوزيليبو؟»

«ستّ غرف يا لينو، ثلاثٌ منها تطلّ على البحر أنا كنت أفضِّل منطقة فوميرو، لكنّ ميكيلي أراد أن يتصرَّف على هواه. في أيِّ حال، لا يمكنكِ أن تتخيَّلي كمِّيَّة الضوء ونقاء الهواء صباحًا هناك».

فوجئتُ بهذا الخبر. لم أكن أصدِّق أنّ آل سولارا قد يبتعدون عن مسرح أعمالهم، عن الجُحر الذي يطمرون فيه غنائمهم. إلّا أنَّ ميكيلي، أكثرَهم دهاءً وطمعًا، ينتقل للسكن في مكان آخر، في الأعالي، فوق بوزيليبو، مطلًّا على البحر وبركان الفيزوف. كان المحامي محقًّا إذن: بات هوس الأخوين سولارا في التوسُّع ملحوظًا فعلًا لكنّي سُررتُ بالخبر للوهلة الأولى، وكنت سعيدة من ابتعاد ميكيلي عن الحيِّ. ووجدتُ أنّ الأمر يصبّ في مصلحة عودة ليلا المحتملة.

٥٥

طلبتُ العنوان من السيِّدة مانويلَّا، وودَّعتها، وقطعتُ المدينة بالمترو أوَّلًا حتى مارجيلينا، ثم سيرًا، ثم بالحافلة، إلى أن وصلتُ أعلى رابية بوزيليبو. كان الفضول يجتاحني. إذ بتُّ أشعر بأنِّي جزءٌ من سلطة مشروعة، تحظى بتقدير على نطاق واسع، ومكلَّلة بهالة من أرفع مستويات الثقافة؛ وأردتُ بالمقابل أن أرى إلى أيٍّ مدًى قد تصل إليه سطوة الأخوين سولارا المزلزلة التي شهدتُ عليها منذ طفولتي، وكيف يتجسَّد ميلهم الهمجيّ نحو البطش، وممارستهما للجريمة التي لا يحاسبهما عليها أحد، واحترامهما الزائف للقوانين التي يلتفَّان عليها بحِيَلٍ غير مشروعةٍ طبعًا، وازدهاؤهما بتبذير الأموال. لكنّ ميكيلي فلت منِّي مرّة أخرى. لم أجد سوى جيليولا عند الطابق الأخير في بناية مشيَّدةٍ حديثًا استقبلتني جيليولا باستغراب واضح ونقمة مكشوفة. وأدركتُ حينها أنِّي كنتُ لبقةً مع عائلتها طالما كنت أستخدم هاتف والدتها في أيِّ وقت، وأنَّ عائلة سبانيولو بأكملها قد خرجت من حياتي، من دون أن أنتبه، حالما أوصلتُ جهاز الهاتف إلى بيت والديّ وتوقَّفتُ عن استخدام هاتفهم. والآن، في منتصف النهار، ومن

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

دون إبلاغٍ مسبق، في يومٍ غائم يتوعَّد بأمطار غزيرة، كنت أظهر أمامها هناك في بوزيليبو. هل كنتُ أحرجها في دخول شقَّتها قبل العرس وهي لا تزال في حالة فوضى عارمة؟ شعرتُ بالحياء، وكنت أتصنَّع الابتهاج كي تعذرني. ظلَّت جيليولا متجهِّمة نوعًا ما، ولعلَّها كانت متوجِّسة أيضًا، ثم اعتلتها موجة الاختيال. كانت تودُّ أن أحسدها، وأرادت أن تشعر بشكل ملموس بأنّي أعتبرها محظوظة أكثر من جميع الإناث في حيِّنا وهكذا، راحت تُطلعني على الغرف واحدةً واحدة، وهي تراقب ردود فعلي، وتنتهز حماستي، ثم أرتني الأثاث باهظ الثمن، والمصابيح الفاخرة، والحمَّامين الكبيرين، وسخَّان المياه الكبير، والثلَّاجة، والغسّالة، وثلاثة هواتف لم تكن موصولة بعد لسوء الحظّ، والتلفاز ذا العدد الهائل من البوصات، والشرفة أخيرًا. لم تكن شرفة فحسب، بل كانت أقرب إلى حديقة معلّقة ملأى بالأزهار التي لم يساعدها سوء الطقس في ذلك النهار على إبراز ألوانها الزاهية.

«انظري، هل سبق أن رأيتِ البحر هكذا؟ ونابولي؟ والفيزوف؟ والسماء؟ هل فوق حيّنا سماءٌ كهذه؟»

إطلاقًا كان البحر رصاصيّ اللون، والخليج يضيق عليه كأنَّه شفير بوتقة. والغيوم السوداء المتلبِّدة تتدحرج نحونا متخبِّطة. وفي العمق، ثمَّة سلسلة طويلة من الفتحات التي تبرز تحت الظلِّ البنفسجيّ لبركان الفيزوف، كجرحٍ ينزف إسبيداجًا ناصع البياض. بقينا ننظر طويلًا، فيما تلهو الرياح بثيابنا كنتُ كأنِّي مخدَّرةٌ من جمال نابولي، التي لم تبدُ لي بهذه الأبّهة حتى من شرفة الأستاذة غالياني، منذ أعوام خلت. كانت المدينة المنبسطة تعرض هذه النقاط الإسمنتيَّة، المطلَّة على مناظر خلَّابة، بأثمان باهظة؛ وقد أحسن ميكيلي في انتقاء زاوية نظرٍ خالدة حقًّا

مكتبة الرمحي أحمد

telegram @ktabpdf

«ألا يعجبكِ؟»

«بل إنّه بديع».

«لا مجال لمقارنته ببيت لينا في الحيِّ الجديد، أليس كذلك؟»

«لا مجال للمقارنة».

«قلتُ لينا، لكنّ آدا من يسكن فيه حاليًّا».

«صحيح».

«هذا منزل أكابر بحقّ».

«صحيح».

«لكنَّكِ أبديتِ انطباعًا سيئًا».

«بل أنا سعيدة لأجلكِ».

«كلّ امرئٍ يحصل على نصيبه. أنتِ درستِ، وتؤلِّفين الكتب، وأنا لديّ هذا البيت».

«صحيح».

«لستِ مقتنعة».

«بل مقتنعةٌ جدًّا»

«في هذه البناية، إن أمعنتِ النظر في اللافتات، لوجدتِ أنَّ ساكنيها كلّهم مهندسون ومحامون وأساتذةٌ كبار. للإطلالة وأسباب الرفاهيّة ثمنٌ. إذا استطعتِ أنتِ وزوجكِ أن توفِّرا قليلًا، أرى أنَّ في إمكانكما أيضًا شراءَ بيت كهذا».

«لا أعتقد».

«ألا يريد الاستقرار في ناپولي؟»

«أستبعد ذلك».

«أنتِ محظوظة، لا يمكن لأحد أن ينفي ذلك: لقد سمعتُ

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

صوت بييترو عدّة مرّات على الهاتف، ورأيتُه من النافذة، من الواضح أنَّه شابٌّ كفؤ. سيفعل ما تريدينه أنتِ. إنّه ليس مثل ميكيلي».

وعند ذلك الحين، سحبتني إلى الداخل، وأرادت أن نأكل شيئًا معًا قشّرت اللحم المقدّد وجبن البروفولون، وقطّعت الخبز ما زلنا نتدبَّر أمرنا هنا، اعتذرتْ، لكنَّكِ ستأتين لزيارتي أنتِ وزوجك حين تجيئان إلى نابولي، سأُريكِ كيف يكون كلّ شيء في مكانه. جحظت عيناها تفاؤلًا ولمعتا، كانت تهتاج في سعيها إلى عدم إفساح المجال للشكوك كي تُفسِد الرخاء الذي تنعم به. إلّا أنّ ذلك المستقبل المستحيل ـ أي أن آتي أنا وبييترو إلى نابولي لنزورها هي وميكيلي ـ لا بدّ من أنّه بدا خدّاعًا بشكل واضح. غلبها الشرود برهةً، جالت خواطر سيِّئة في بالها، وحين استعادت خطاب الزهو فقدت الثقة بما كانت تقول، وغايرت في كلامها حتى أنا كنتُ محظوظةً، كرَّرتْ على مسمعي، لكنَّها تكلَّمت من دون شعور بالرضا، بل بما يشبه الازدراء الذاتيّ. راحت تعدِّد: كارمن انتهى بها المطاف مع العامل في محطَّة الوقود في الشارع العامّ؛ بينوتشا تتعفَّن خلف رينو الوضيع؛ آدا عاهرةٌ لدى ستيفانو. أمَّا أنا، فحظيتُ بميكيلي، هنيئًا لي، فهو وسيم وذكيّ ويحكم الجميع، وقد قرَّر أن يتزوَّجني أخيرًا، وها أنتِ ترين أين يضعني، ولا يمكنكِ أن تتخيَّلي الحفل الذي يُعدّه، عرسنا سيضاهي عرس شاه إيران حين تزوَّج سورايا أجل، لحسن الحظّ أنّي استحوذتُ عليه منذ الصغر، لقد كنتُ أكثركنَّ دهاءً. وتابعت بالكلام هكذا إلى أن انعطفت نحو السخرية من نفسها وبعد أن اعتزَّت برجاحة عقلها، التي ساعدتها على الاستحواذ على ابن سولارا، وأوصلتها إلى تلك الامتيازات، انزلقتْ شيئًا فشيئًا إلى الحديث عن تعاستها بالتحضير للعرس وحيدةً. قالت: ميكيلي غير موجود أبدًا، كما

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

لو كنتُ أتزوّج بمفردي. ثم سألتني فجأةً، كأنَّها تحتاج إلى رأيي حقًّا: هل تعتقدين أنّي موجودة؟ انظري إليّ، هل أنا موجودة، برأيكِ؟ وضربت كفَّها على صدرها الخصيب، كأنَّها تريد أن تُثبت لي أنّ يدها تخترقه، وأنّ جسدها لم يكن موجودًا، وأنّ هذا كلّه بسبب ميكيلي. لقد حصل منها على كلّ ما يبتغي، منذ البداية، حين لم تكن سوى فتاة صغيرة. لقد استهلكها، وأتلفها، وقد اعتاد عليها الآن وهي في سنِّ الخامسة والعشرين، ولم يعد ينظر إليها حتى. إنّه ينكح هنا وهناك كما يطيب له. ويُشعرني بالاشمئزاز حين يجيب عن سؤال أحدهم بشأن عدد الأولاد الذين نريد إنجابهم: اسألوا جيليولا، فأنا لديّ من الأولاد مسبقًا ولا أعرف كم عددهم. هل زوجكِ يقول مثل هذه الأشياء يا لينو؟ هل زوجك يقول: أريد أن أنجب من لينوتشا ثلاثة أولاد، أمّا من الأخريات فلستُ متأكِّدًا؟ يعاملني كأنّي جوربٌ في حذائه. وأنا أعرف السبب. لأنّه لم يحبّني يومًا. ولن يتزوَّجني إلّا لأكون عنده خادمة مطيعة، كلّ الرجال يتزوَّجون لهذا السبب. يقول لي باستمرار: ما الذي أفعله بغبيّة مثلك، لا تعرف شيئًا؛ لستِ ذكيّة؛ ليس لديكِ ذوق؛ خسارةٌ فيكِ هذا البيت الجميل؛ كلّ شيء معكِ يصبح مقرفًا وبدأتْ بالبكاء، وراحت تقول بين شهقاتها:

«اعذريني، إنّي أكلِّمكِ على هذه الأمور لأنّكِ ألَّفتِ تلك الرواية التي أعجبتني، وإنّي متيقّنةٌ من أنَّكِ تفهمين آلامي».

«لماذا تسمحين له بأن يكلِّمكِ على هذا النحو؟»

«لأنّه قد لا يتزوّجني إذا اعترضتُ».

«لكنَّكِ بعد الزواج ستجعلينه يدفع الثمن».

«بأيِّ طريقة؟ إنّه لا يكترث لأمري؛ ها أنا منذ الآن لا أراه أبدًا، فما بالك بعد الزواج».

«لا أفهمكِ إذن»

«لا تفهمينني لأنّكِ لستِ أنا. هل لكِ أن تتزوَّجي رجلًا، تعرفين جيّدًا أنّه يحبّ امرأةً أخرى؟»

نظرتُ إليها بارتباك: «هل لدى ميكيلي عشيقة؟»

«بل الكثير من العشيقات، إنّه ذَكَر، يوغل قضيبه حيثما تسنّى له. لكنّي لا أقصد هذه النقطة».

«ماذا تقصدين؟»

«لينو، عليكِ ألّا تردِّدي ما أخبركِ به على مسمع أحد، وإلّا قتلني ميكيلي».

وعدتُها بالكتمان، وصنتُ وعدي، وما كتبتُ سرَّها هنا، والآن، إلّا لأنّها توفِّيت. قالت:

«إنّه مغرمٌ بلينا ويودّها كما لم يودّني أبدًا، ويعشقها مثلما لن يعشق أحدًا من بعدها».

«هراء»

«لا يمكن لكِ أن تقولي إنَّه هراء يا لينو، وإلّا فمن الأفضل أن تنصرفي. إنّه أمر حقيقي. ميكيلي يحبّ لينا منذ ذلك اليوم الذي كادت فيه تجزّ عنق مارتشيلو. لستُ أنا من يبتدع هذا، بل هو من أطلعني عليه».

قصَّت عليَّ أشياءً هزَّتني في الصميم. قصَّت عليَّ أنَّ ميكيلي، منذ فترة قصيرة، في ذلك البيت تحديدًا، كان قد ثمل كثيرًا ذات مساء، فصارحها بعدد النساء اللواتي اختلى بهنَّ، ذكر الرقم للدقّة: مئة وامرأتين، مدفوعات الأجر وبالمجّانّ على حدٍّ سواء. وأنتِ ضمن هذه اللائحة ـ قال لها مركِّزًا في هذه النقطة ـ وبالتأكيد لستِ من بين

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

اللواتي أمتعنني أكثر من غيرهنّ، بل على العكس. أتعلمين لماذا؟ لأنَّكِ حمقاء، حتى النكاح الناجح يستوجب قليلًا من الذكاء. أنتِ لا تعرفين مصّ القضيب، على سبيل المثال. أنتِ عاجزة، لا تقدرين على ذلك، يتّضح اشمئزازكِ فورًا وتابع على هذا المنوال بعض الوقت، مصعِّدًا من مفرداته المقرفة. فالسوقيّةُ بالنسبة إليه هي القاعدة. ثم أراد أن يبيِّن لها سياق الأمور: سيتزوَّجها احترامًا منه لوالدها، صانع الحلويّات الماهر الذي يكنّ له مودَّة خالصة؛ سيتزوَّجها لأنَّه لا بدَّ من أن يكون لديه زوجة، وأولاد أيضًا، وبيتٌ يتباهى به. لم يشأ أن تسيء فهمه: هي لا تمثِّل شيئًا بالنسبة إليه، لم يمجِّدها يومًا، ولم تكن المرأة التي يخصّها بحبٍّ عظيم. عليها أن تتحاشى تصديع رأسه، أو تظنّ أنّ لها الحقّ في ذلك. كلماتٌ قبيحة. ولا شكّ في أنّ ميكيلي نفسه انتبه لقبح ما يقول، إذ اجتاحه شعورٌ يشبه التعاسة، في لحظة ما. غمغم قائلًا إنّ الإناث بالنسبة إليه مجرَّد دمًى مزوَّدةٍ بعدَّة ثقوب يلهو بها كلّهنّ. كلّهنّ عدا واحدة. لينا هي الأنثى الوحيدة التي يحبّها في العالم بأسره ـ أجل، كان يحبّها، كما في الأفلام ـ ويحترمها أيضًا قال لي ـ أجهشت جيليولا ـ إنَّها قادرة فعلًا على تأثيث هذا البيت. قال لي إنّه يشرِّفه حقًّا أن يعطيها المال لتنفقه كما تشاء. قال لي إنَّه كان سيصبح رجلًا مهمًّا حقًّا في نابولي لو كانت إلى جواره. قال لي: أتذكرين ما الذي استطاعت فعله بصورتها التي تظهر فيها بفستان العرس، أتذكرين كيف حسّنت المحلّ؟ أمّا أنتِ وبينوتشا وكلّ الأخريات، مَن أنتنّ، وما الذي في وسعكنّ فعله؟ قال ميكيلي لجيليولا ما قال، ولم يكتفِ بذلك القدْر. قال لها إنّ ليلا لا تغيب عن باله ليلًا نهارًا، لكنَّه لا يفكِّر فيها بناءً على الشهوة الطبيعيَّة، بل كانت رغبته تجاهها لا تشبه الرغبات التي جُبلت عليها غريزته. «لا

telegram @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

يرغب فيها في الحقيقة». أي إنّه لا يشتهيها مثلما يشتهي بقيَّة الإناث، أن يركبها، ويقلّبها، ويبرمها، ويفتحها، ويهتك بها، ويضع قدميه على رأسها، ثم يفتك بها. لم يكن يريدها كي يأخذها إليه ثم ينساها بل كان يرغب في صفاء رأسها المليء بالأفكار. كان يرغب في قدرتها على الابتكار. كان يرغب فيها من دون أن يخرّبها، إنَّما كي يجعلها تدوم. لم يكن يرغب في نكحها، بل إنّه يغضب من نفسه إذا ما استخدم هذه الكلمة في حقٍّ ليلا كان يريدها ليقبّلها ويحنو عليها. كان يريدها كي تحنو عليه، كي تساعده، كي ترشده، كي تحكمه. كان يريدها كي يرى كيف تتغيَّر مع مرور الوقت، كيف تشيخ. كان يريدها كي يفكِّر معها وكي تساعده على التفكير أتفهمين؟ تكلَّم عليها كما لم يتكلَّم عليَّ أبدًا، وأنا التي أُوشك على الزواج به. أقسم لكِ يا لينو، هذا ما حدث. كان يغمغم: شقيقي مارتشيلو، وستيفانو الأحمق، وإنتسو صاحب الوجه الخرائيّ، ما الذي فهموه من لينا؟ هل انتبهوا إلى ما خسروه، وإلى ما قد يخسرونه؟ لا، لأنَّهم ليسوا أذكياء. أنا وحدي من يعلم ما هي ومن تكون. لقد عرفتُها جيّدًا وإنّي أعاني كلَّما فكَّرتُ في أنَّها تحرق نفسها فرَّغ ما في قلبه بذلك الهذيان. وبقيتُ أصغي إليه من دون أن أردّ بكلمة واحدة، إلى أن غفا كنت أنظر إليه وأقول في سرِّي: هل يُعقل أنَّ ميكيلي قادرٌ على امتلاك هذه العواطف؛ ليس هو من كان يتكلَّم، بل رجلٌ آخر. وقد حقدتُ على ذلك الرجل الآخر، وقلت لنفسي: الآن سأغرس السكِّين فيه وهو نائم كي أستعيد ميكيلي الذي أحببتُ. لستُ حاقدة على ليلا كنت أريد أن أقتلها في الماضي، حين فصلني ميكيلي من المحلّ في ساحة الشهداء وأعادني إلى مصطبة الحلويّات. شعرتُ حينذاك بأنِّي أساوي البراز. لكنّي الآن لم أعد حاقدة عليها، فهي لا ذنب لها بل لطالما أرادت

الانسحاب. ليست حمقاء مثلي، أنا سأتزوَّجه، أمّا هي، فتترفَّع عنه دومًا بل لقد تغيَّرت مشاعري تجاهها، طالما في إمكان ميكيلي الاستيلاء على كلّ شيء إلّا عليها، بتّ أودّها على الأقلّ ثمَّة من يجعله يتغوَّط دماءَه من الخوف.

كنت آذانًا صاغية، وحاولتُ أن أستخفّ ببعض ما قالته كي أهوِّن عليها قلت: إذا تزوَّجكِ فهذا يعني أنَّه متعلِّق بكِ، مهما أفصح عكس ذلك، لا تيأسي. نفت جيليولا بهزَّة عنيفة من رأسها، مسحت خدّيها بأصابعها أنتِ لا تعرفينه، قالت، لا أحد يعرفه مثلي. سألتُها

«هل ترين أنّه قد يفقد صوابه ويؤذي لينا؟»

فعبَّرت بما ينمّ عن تعجُّبها، بين الضحك والصراخ.

«ميكيلي؟ لينا؟ ألم تري كيف تصرَّف خلال كلّ تلك السنوات؟ ميكيلي قد يُلحِق الأذى بي، بكِ، بأيّ أحد، حتى بأمّه وأبيه وأخيه. قد يُلحِق الأذى بكلّ الذين تودُّهم لينا، بابنها، بإنتسو. قد يؤذي بدم بارد، بلا ضمير. لكنَّه لن يؤذيها في شخصها أبدًا».

٥٦

قرّرتُ إتمام نزهتي الاستكشافيّة. نزلتُ سيرًا على قدمَيّ حتى مارجيلينا، ووصلتُ إلى ساحة الشهداء، حين بَدَتِ السماء السوداء منخفضةً حتى كادت تنبطح على الأبنية. هرعتُ إلى محلٍّ الأحذية الفاخر لصاحبيه سولارا، وأنا مقتنعة بأنَّ العاصفة توشك على الهبوب. وجدتُ ألفونسو وقد ازداد وسامةً أكثر ممَّا كان عليه في ذاكرتي. عيناه الوسيعتان ورموشه الطويلة، وشفتاه المرسومتان بإتقان، وجسده الرفيع والقويّ في آنٍ واحد، وإيطاليَّته التي باتت مصطنعة بعض الشيء بسبب دراسته اللاتينيَّة والإغريقيَّة. كان صادقًا في سعادته برؤيتي. فالسنوات الصعبة، التي أمضيناها معًا في الثانويَّة بمرحلتيها، خلقت بيننا رابطًا من المودَّة، قويًّا حتى إنّه بُعِث حالًا على الرَّغم من طول انقطاع. استفضنا في الكلام، باستعادة الذكريات كيفما خطرتْ، عن ماضينا المدرسيّ، عن الأساتذة، عن الكتاب الذي نشرتُه، عن زواجي، وعن زواجه. وكنتُ أنا مَن ذكر ليلا بطبيعة الحال، فارتبك ألفونسو، لم يشأ الحديث عنها بسوء، ولا عن شقيقه أيضًا، ولا عن آدا اكتفى بالقول:

«كان من المتوقَّع أن تنتهي الأمور هكذا».

مكتبة الرمحي أحمد
telegram @ktabpdf

«لماذا؟»

«أتذكرين حين كنت أقول لكِ إنَّ لينا تخيفني؟»

«نعم».

«لم يكن خوفًا، لقد اكتشفتُ حقيقة ذلك الشعور لاحقًا»

«وما هو؟»

«نفورٌ وانجذاب، أثرٌ للقرب والبعاد في آنٍ واحد».

«إلامَ ترمي؟»

«يصعب شرحه: أنا وأنتِ سرعان ما أصبحنا صديقين، وإنّي أَكُنُّ لكِ مودَّة خالصة. لكن هذا لطالما بدا لي مستحيلًا معها. كانت تتّسم بطبع رهيبٍ يجعلني أتمنَّى أن أسجد عند قدميها لأعترف بأكثر أفكاري سرِّيَّةً»

سخرتُ: «رائع، تجربةٌ شبه دينيّة».

حافظ على جدِّيَّته: «لا، إنَّه مجرَّد تسليم بالدونيّة. أمَّا الرائع، فكان حين ساعدتْني على الدراسة، كان ذلك رائعًا حقًّا كانت تقرأ الكتب المدرسيّة، تفهم المقصود على الفور، وتلخِّصه لي بأسلوب يسير مرَّت عليَّ لحظاتٌ، وما زالت تمرّ حتى الآن، أفكِّر فيها لو وُلدتُ أنثى، لأسعدني أن أكون مثلها وفي الواقع، كنّا أنا وهي فردين غريبين عن عائلة كارّاتشي، ولم يكن لأيٍّ منّا أن يستمرّ على تلك الحال. لذا لم أعبأ بعثراتها، بل لطالما شعرتُ بأنّي منحازٌ إلى جانبها».

«هل ما زال ستيفانو مستاءً منها؟»

«لا أدري. يواجه ستيفانو الآن الكثير من المصاعب، ولن يتذكَّر حتى إن كان حاقدًا عليها لينا في هذه الآونة آخِر مَن يشغل باله».

telegram @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

بدا لي صادقًا في كلامه، بل مستندًا إلى الوقائع أيضًا، فوضعتُ مسألة ليلا جانبًا وعدتُ أسأله عن ماريزا، وعن عائلة سارّاتوري، وعن نينو أخيرًا كانت إجابته عن الجميع غامضة، ولاسيّما عن نينو، الذي لم يكن لأحد أن يجازف في دعوته إلى أيٍّ من العرسين المملَّين، إرضاءً لرغبة دوناتو، كما قال ألفونسو.

«ألستَ سعيدًا بأنّك مقبلٌ على الزواج؟»

نظر من خلال الواجهة الزجاجيّة: كانت السماء تبرق وترعد، لكنَّها لم تمطر بعد، وقال:

«كنتُ بخير في السابق»

«وماذا عن ماريزا؟»

«لم تكن ماريزا بخير».

«هل كنتَ تريد لها أن تبقى مخطوبةً مدى الحياة؟»

«لا أعرف».

«لكنّك في النهاية أرضيتَها».

«لأنَّها توجَّهت إلى ميكيلي».

نظرتُ إليه متوجِّسةً.

«ماذا تقصد؟»

أطلق ضحكةً منفعلة.

«طلبت منه أن يقف ضدّي في ذلك».

كنتُ جالسةً على مقام مريح، وكان ألفونسو واقفًا في انعكاس الضوء. كان جسده مشدودًا ومضغوطًا، كمصارعي الثيران في الأفلام.

«لم أفهم. هل ستتزوَّج ماريزا لأنَّها طلبت من ميكيلي أن يقنعك بوجوب فعل ذلك؟»

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

«سأتزوَّج ماريزا كي لا أسبِّب الأسف لميكيلي. فهو الذي عيَّنني هنا، ووثق بمقدراتي، فأنا أودّه».

«أنت مجنون».

«تقولين هذا لأنَّكِ كالجميع لديكِ فكرة خاطئة عن ميكيلي، لا تعرفونه جيِّدًا». كتم صوته، وحاول أن يكبت دموعه عبثًا أضاف:

«ماريزا حامل».

«آه».

هذا هو السبب الحقيقيّ، إذن. أمسكتُ بيده، وحاولتُ أن أطمئنه، على الرَّغم من حيرتي الكبرى. فهدأ أخيرًا، وقال لي:

«الحياة بشعة جدًّا يا لينو».

«ليس صحيحًا، ستكون ماريزا زوجة طيِّبة وأمًّا صالحة».

«لا تهمّني ماريزا».

«لا تبالغ الآن».

ركَّز عينيه فيَّ. شعرتُ بأنَّه يتفحَّصني كما لو أراد أن يفهم منِّي شيئًا كي يطمئنّ. سأل:

«لم تخبر لينا أحدًا بشيء، بمن فيهم أنتِ؟»

«وبم تخبرني؟»

هزّ رأسه في حين باغتته البهجة.

«أرأيتِ أنّي محقّ؟ إنّها شخصيَّة خارجة عن المألوف. بحتُ ذات مرّة لها بسرٍّ. كنتُ فزعًا، وأحتاج إلى من أُطلعه على أسباب ذلك الفزع. أخبرتُها بالسبب، وظلَّت تصغي إليّ بانتباه حتى طاب خاطري. كان من المهمّ أن أتحدَّث إليها بدا لي أنَّها لا تسمع عن طريق الأذنين، بل عن طريق جهازٍ لا يملكه أحد غيرها، يجعل من أيّ كلمة

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

منطقيَّةً ومقبولة. وفي النهاية، لم أطلب منها ما يُطلَب في العادة، مثل: احلفي بأنَّكِ لن تفضحي السرّ، أو أرجوكِ لا تخذليني. لكنِّي الآن متيقِّنٌ من أنَّها ـ إن لم تخبركِ ـ لم تخبر أحدًا، ولا حتى للتشفِّي، ولا حتى في أسوأ الظروف التي مرَّت بها، مُكابِدةً أحقادَ أخي وبطشَه».

لم أقاطعه. وما شعرتُ سوى بالأسف لأنّه صارح ليلا بشيء لم يصارحني به، علمًا بأنّي صديقته القديمة. ولا بدَّ من أنَّه فطن لذلك فقرّر أن يعالج الموقف. عانقني بشدَّة، وهمس في أذني:

«لينو، أنا شاذّ، لا أشتهي الإناث».

وحين كنت على وشك الانصراف، غمغم مرتبكًا إنّي متأكِّدٌ من أنَّكِ كنت تعرفين. وهذا ما صعّد من أسفي، إذ لم يخطر الأمر في ذهني إطلاقًا

مكتبة الرمحي أحمد
telegram @ktabpdf

٥٧

انقضى ذلك النهار الطويل، لم ينهمر فيه المطر، لكنَّ الطقس ظلَّ غائمًا. بدأت مرحلة جديدة منذئذٍ، انقلبتْ فيها الميول بسرعة، من توطيد علاقتي بليلا ظاهريًّا إلى الرغبة في الحسم والعودة إلى الانشغال بحياتي. ولعلّ هذه المرحلة بدأت من قبل، من خلال تفاصيل صغيرة، بالكاد أنتبه إليها حينما أصطدم بها، إلى أن صار لها قيمة حينذاك. على الرَّغم من الفوائد التي أثمرتْ عن نزهتي، فإنني عدتُ إلى البيت مكتئبة. ما نوع الصداقة هذه التي بيني وبين ليلا، إن كانت قد كتمت عنِّي سرّ ألفونسو على مدى أعوام، وهي على دراية بالعلاقة القويّة التي تجمعني به؟ هل يُعقل أنَّها لم تفطن إلى هوس ميكيلي المطلق بها، أم أنَّها حرصت على عدم إطلاعي عليه لأسبابٍ تخصّها؟ من جهةٍ أخرى، أنا، أنا، كم كتمتُ عنها من أشياء؟

قضيتُ بقيَّة النهار، وبالي مشغول بفوضى الأماكن والأزمنة والأشخاص المتعدِّدين: السيِّدة مانويلا الممسوسة؛ رينو الفارغ؛ جيليولا حينما كانت في الابتدائيَّة؛ جيليولا في الثانويَّة، جيليولا

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

المفتونةِ بسطوة الأخَوَين سولارا الرائعة؛ جيليولا المبهورةِ بسيَّارة فيات ألف ومئة، وميكيلي الذي يسحر الإناث مثلما يفعل نينو، لكنَّه يختلف عن الأخير بقدرته على هيام مطلق، وليلا، ليلا التي استطاعت أن تهيِّج ذلك الهيام، أو الاندفاعَ الذي لا يعتمد على السعي إلى الهيمنة فحسب، وما يشملها من تبجُّح أبناء الضواحي وحبّ الانتقام والرغبة السافلة، كما كانت ليلا تفسِّرها، إنّما كان شكلًا من أشكال الهوس بتبجيل الأنثى، من دون تقديس ولا تعبُّد، بل كان حبًّا ذكوريًّا نادرًا، أشبه بعاطفةٍ معقّدةٍ تستخدم الحزم، والقسوة أيضًا، لترفع من مكانة امرأةٍ معيَّنة فوق كلّ النساء الأخريات. شعرتُ بتعاطفي مع جيليولا، وأحسستُ بمرارة المهانة التي تتجرَّعها.

التقيتُ بليلا وإنتسو في المساء. لم أقل شيئًا عن اكتشافاتي، تعاطفًا معها من جهة، ووقايةً للرجل الذي تساكنه من جهة أخرى. إلّا أنّي انتهزتُ اللحظة التي راحت فيها ليلا إلى المطبخ لتُطعم الصغير، كي أُخبر إنتسو بأنّ ليلا تفكِّر في العودة إلى الحيِّ. وقرَّرتُ ألَّا أخفيه موقفي. قلت إنَّ الفكرة لا تبدو لي سديدة، لكنِّي أحرص على تشجيعها في أيِّ شيء قد يساعدها على الاستقرار، أو ما تعتبره بنفسها كذلك، إذ إنَّها استعادت عافيتها، ولم يعد ينقصها سوى إيجاد توازنٍ ما. ثم إنّ الوقت يمضي، وانتقالهما إلى الحيّ ـ على حدّ علمي ـ لن يكون أسوأ من بقائهما في سان جوفاني آتيدوتشو. ظلَّ إنتسو محايدًا

«ليس لديّ أيّ اعتراض. كلّ ما في الأمر أنّي سأستيقظ في ساعةٍ أبكر من الصباح، وسأعود متأخِّرًا قليلًا في المساء».

«رأيتُ أنَّهم يعرضون بيت الدون كارلو للإيجار. أبناؤه رحلوا إلى كازيرتا، والأرملة تودّ اللحاق بهم الآن».

«كم تريد ثمنًا للإيجار؟»

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

أخبرته بالرّقم. كانت الإيجارات في الحيّ أرخص ممّا هي عليه في سان جوفاني آتيدوتشو.

«حسنًا»، وافق إنتسو.

«أنت تعلم أنّكما ستواجهان بعض المشاكل عمومًا».

«لدينا مشاكل هنا أيضًا».

«ستتضاعف المنغّصات، والطلبات أيضًا».

«سنرى الأمر في أوانه».

«هل ستبقى قربها؟»

«ما دامت هي تريد ذلك، أجل».

انضممنا إلى ليلا في المطبخ، وكلّمناها على بيت الدون كارلو كانت قد أنهت شجارها مع جينّارو للتوّ. لقد تشتّت ذهن الطفل لأنّه بات يبقى مع أمّه وقتًا أطول من بقائه عند الجارة. أمست حرّيّته محدودة، فاضطرّ إلى فقدان مجموعة من العادات، وراح يتمرّد ويطالب بأن تطعمه أمّه من يدها، على الرّغم من بلوغه عامه الخامس. وبّخته ليلا، فرمى الطبق على الأرض لينكسر ألفَ قطعة. تلقّى صفعةً منها قبل أن ندخل المطبخ بثوانٍ. وقالت لي بنبرة عدائيّة:

«هل أنتِ مَن أطعمه بالملعقة كما لو كانت طيّارة؟»

«مرّة واحدة فقط».

«لم يكن عليكِ فعلها».

قلت: «لن تتكرّر ثانية»

«طبعًا، لن تتكرّر، لأنّكِ ستذهبين إلى العيش ككاتبة، بينما أظلّ أهدر وقتي بهذا الشكل».

مكتبة الرمحي أحمد telegram @ktabpdf

هدأتْ شيئًا فشيئًا، في حين تطوَّعتُ لتنظيف الأرض. قال لها إنتسو إن لا مشكلة لديه في البحث عن منزلٍ في الحيّ، فكلَّمتُها على شقَّة الدون كارلو، وأنا أحاول أن أكظم غيظي. ظلَّت تصغي إلينا على مضض، وهي ت٢٩٣

ؤاسي طفلها، ثم تصرَّفتْ بطريقةٍ توحي بأنّ إنتسو هو صاحب فكرة الانتقال، وأنّي أنا التي تدفع بهما إلى هذا الخيار. قالت لنا حسنًا، سأفعل ما تريدان.

ذهبنا جميعًا في اليوم التالي لرؤية البيت. كان في حال يُرثى لها، لكنّ ليلا تحمَّست، إذ كان يروق لها أن تعيش عند تخوم الحيّ، خلف النفق تقريبًا، وأن تشرف من النوافذ على محطَّة الوقود حيث يعمل خطيب كارمن. أشار إنتسو إلى الإزعاج الذي سيعانيانه ليلًا من ضجيج الشاحنات التي تمرّ في الشارع العامّ، ومن تفرُّق القطارات كلٌّ في مسار، إلَّا أنَّها اعتبرت الضجيج الذي رافق طفولتنا أمرًا جميلًا وهكذا تفاوضا مع الأرملة على سعر يناسب الجميع. وبدءًا من ذلك اليوم، صار إنتسو يتردَّد إلى الحيِّ، بدلاً من أن يعود إلى سان جوفاني آتيدوتشو، ليباشر في أعمال الترميم التي ستجعل الشقَّة مكانًا صالحًا للسكن.

هذا وقد اقترب شهر مايو، فأوشك موعدُ زفافي، وكنت أجيء وأغدو إلى فلورنسا غير أنّ ليلا، كأنّها لم تُقِم اعتبارًا لذلك الحدث القريب، تواصل زجّي معها في شراء الحاجات لترتِّب البيت ترتيبًا كاملًا اشترينا سريرًا زوجيًا، وسريرًا صغيرًا لجينّارو، وذهبنا معًا لنقدِّم طلب توصيل الهاتف. كان الناس يراقبوننا في الطريق، بعضهم يلقي التحيّة عليّ فقط، وبعضهم يلقونها على كلتينا، وآخرون يتظاهرون بأنَّهم لم يروني ولم يروها كانت ليلا تبدو في أفضل حالاتها عمومًا.

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

التقينا ذات مرَّة آدا، كانت بمفردها، فأومأتْ باحترام، وتجاوزتنا كما لو كانت مستعجلة. وصادفنا ذات مرّة ماريّا، والدة ستيفانو، فسلّمنا عليها أنا وليلا، فأشاحت بنظرها إلى الجهة الأخرى. ورأينا ذات مرَّة، ستيفانو شخصيًّا يقود سيَّارته، فتوقَّف بمبادرةٍ منه، وترجَّل منها، وتحدَّث إليَّ فقط. كان مبتهجًا، سألني عن زواجي، وأشاد بفلورنسا التي زارها مؤخَّرًا مع آدا والطفلة؛ وداعب في النهاية جينّارو، وحيّا ليلا بإيماءة من رأسه وانطلق مجدّدًا ورأينا ذات مرَّة فرناندو، والد ليلا، محدودبَ الظهر، وقد نالت منه الشيخوخة، كان واقفًا قبالة المدرسة الابتدائيَّة، فارتبكت ليلا، وقالت لجينّارو إنَّها تريد أن تعرِّفه إلى جدِّه، حاولتُ أن أمنعها، لكنَّها أرادت ذلك بأيّ ثمن، فتظاهر فرناندو بأنَّ ابنته ليست حاضرة أمامه. نظر إلى حفيده لحظاتٍ، وقال ببطء: «إن رأيتَ أمَّك، فقل لها إنَّها عاهرة»، وانصرف.

بيد أنّ أكثر اللقاءات إرباكًا، على الرَّغم من ظهوره عديمًا للأهمِّيَّة في الوهلة الأولى، حدث قبل بضعة أيَّام من انتقالها نهائيًّا إلى الشقَّة الجديدة. صادفنا ميلينا، بينما كنّا نخرج من البيت تمامًا، كانت تمسك بيد حفيدتها ماريّا، ابنة ستيفانو وآدا لم تتغيَّر هيئتُها الشاردة، لكنَّها كانت أنيقة الهندام، وقد أكسجت شعرها فصار شديد الشُّقرة، وأكثرتْ من مساحيق الزينة على وجهها عرفتني في الحال، ولم تتذكَّر ليلا، أو لعلّها اختارت أن تستهلّ كلامها معي فقط. توجَّهتْ إليّ كما لو كنت لا أزال صاحبة ابنها، أنطونيو. قالت إنَّه سيعود قريبًا من ألمانيا، وإنَّه يسأل عنِّي دومًا في رسائله. امتدحتُ لباسها وشعرها، فبدت لي سعيدة. لكنَّها بدت أكثر سعادة حين أثنيتُ على حفيدتها، التي أحسَّت بالحياء فلاذت بتنُّورة جدَّتها. وهكذا، شعرتْ بواجب امتداح جينّارو، فتوجَّهت إلى ليلا: هل هذا ابنكِ؟ بدا أنَّها تذكَّرتْها

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

حينئذٍ فقط، إذ ظلَّت تنظر إليها حتى تلك اللحظة من دون أن تقول لها شيئًا، ولا بدّ من أنَّها تذكَّرتْ أنَّ ليلا هي المرأة التي خطفتْ ابنتُها منها زوجَها. غارت عيناها في حدقتيها العميقتين، وقالت بجدِّيَّة تامَّة: لينا، لقد أصبحتِ قبيحةً وهزيلة، من الطبيعيّ أن يهجركِ ستيفانو، فالرجال يبتغون لحم المرأة، وإلّا لما عرفوا أين يوغلون أياديهم فانصرفوا عنها ثم توجّهت إلى جينّارو، محرِّكةً رأسها بسرعةٍ فائقة، وصاحت مشيرةً إلى الطفلة: هل تعلم بأنّ هذه هي أختك؟ فلتتبادلا القُبلات، هيّا، تباركت العذراء ما أجملكما! قبَّل جينّارو الطفلة فورًا، ولم تعترض الطفلةُ أبدًا، فهتفت ميلينا حين رأت وجهه إلى جانب وجه حفيدتها: لقد ورث كلاهما عن أبيهما، إنّهما متطابقان. ودفعت حفيدتها برفق، بعد ذلك التأكيد، وانصرفت من دون أن تودِّعنا، كأنَّ لديها أعمالًا طارئة.

ظلَّت ليلا ساكتةً طوال ذلك الوقت، لكنِّي أدركتُ أنَّ شيئًا عنيفًا قد حدث لها، مثلما حين رأت ميلينا تمشي على الرصيف الآخر من الشارع العامّ وهي تقضم قِطع الصابون الطريّ. انتفضتْ فجأة، حالما ابتعدت المرأة والطفلة. عبثتْ بتسريحة شعرها، بحركة عصبيَّة من يديها، وأومضت بجفنيها وقالت: سأصبح هكذا ثم غمغمت، وهي ترتِّب تسريحة شعرها

«هل سمعتِ ما قالته؟»

«ليس صحيحًا أنَّكِ قبيحة وهزيلة».

«وما همَّني إن بتُّ كذلك. أقصد ما قالته عن الشَّبَه».

«أيُّ شَبَه؟»

«الشبه بين الطفلين. ميلينا على صواب، كلاهما يشبه ستيفانو حدّ التطابق».

«إطلاقًا الطفلة تشبه أباها، لكنّ جينّارو مختلف تمامًا».

انفجرتْ ضاحكة، عادت إليها ضحكتُها الشرِّيرة المعتادة بعد غياب طويل. ردّت:

«بل إنّهما متشابهان مثل قطرتين من الماء».

٥٨

كان عليّ أن أُغادر من كلّ بدّ. لقد فعلتُ كلّ ما كان في وسعي فعله من أجلها، إلّا إذا أردتُ أن أخاطر في الخضوع لتأمُّلاتٍ لا معنًى لها، عمَّن يكون والد جينّارو الحقيقيّ، وعن نظرة ميلينا الثاقبة، وعن التحرُّكات السرِّيَّة لرأس ليلا، وعمّا تعرفه أو تجهله أو تتصوَّره ولا تُفصح عنه، أو يطمئنها أن تصدِّقه. تأمُّلات ستغرقني في دوَّامةٍ منهِكة. انتهزنا وجود إنتسو في عمله، وتناقشنا في شأن ذلك اللقاء. استخدمتُ عباراتٍ جاهزة مثل: المرأة تعرف دومًا من يكون والد أبنائها قلت: أنتِ لطالما شعرتِ بأنَّه ابن نينو، بل رغبتِ فيه لأجل ذلك السبب تحديدًا، فهل أنتِ الآن واثقة بأنه ابن ستيفانو لا لشيء سوى لأنَّ ميلينا المجنونة قالت ذلك؟ لكنَّ ليلا كانت تضحك وتقول: يا لي من غبيَّة، كيف لم أتمكَّن من فهم هذا؟ كانت تبدو سعيدة بالاكتشاف، وهذا ما لم أستطع فهمه إطلاقًا فالتزمتُ الصمت في النهاية. إن كان هذا اليقين الجديد يساعدها على الشفاء، فجيِّد جدًّا وإن كان دليلًا آخر على عدم اتِّزانها، فما الذي في وسعي فعله؟ كفى. كتابي كان في طريقه إلى النشر في فرنسا، وفي إسبانيا، وقد يترجمونه إلى الألمانيّة

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

أيضًا. وكنت قد نشرتُ مقالين عن أوضاع النساء في العمل في مصانع مقاطعتنا، وكان المحرِّرون في جريدة «الاتِّحاد» سعداء جدًّا. ودار النشر تُرسل إليّ اقتراحات للشروع في تأليف رواية جديدة. في المحصِّلة، عليَّ أن أفرِّغ نفسي لالتزامات عديدة، وقد كرَّستُ لليلا ما فيه الكفاية، ولم يكن في استطاعتي إضاعة الوقت في متابعة مشاكل حياتها شجَّعتني آديلي، في ميلانو، على شراء تايور سكَّريّ اللون لحفل الزفاف، وكان يليق بي: السترة متناسقة جدًّا، والتنُّورة قصيرة. وبينما كنت أجرِّبه، فكَّرتُ في ليلا، وفستان عرسها المترف، والصورة التي عرضتها الخيّاطة على واجهة محلّها في ريتيفيلو، فأشعرتني المقارنة معها بأنّي مختلفة تمامًا فزواجها وزواجي عالمان متباعدان. كنت قد أخبرتها منذ وقت مضى بأنّي لن أتزوَّج في الكنيسة، وأنّي لن أرتدي فستان فرحٍ تقليديًّا، وأنّ بييترو وافق بشقّ الأنفس على حضور الأقرباء المقرَّبين.

«لماذا؟» سألتني بنبرةٍ تخلو من الاهتمام.

«لماذا ماذا؟»

«لماذا لا تتزوّجان في الكنيسة؟»

«لسنا مؤمنين».

«وماذا عن إصبع الربّ، والروح القدس؟» وأشارت إلى مقالتي التي كتبناها معًا في سنّ المراهقة، لتذكِّرني بها.

«لقد كبرتُ»

«ولكنْ، ألا تحضِّرين حفلةً على الأقلّ، وتدعين إليها الأصدقاء؟»

«هذا لا يطيب لبييترو».

«ألا تَدْعينني أيضًا؟»

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

«هل تأتين؟»

ضحكت وهي تنفي برأسها «لا».

هذا كلّ شيء. ولكن في أوائل مايو، عندما عقدتُ النيَّة لمبادرةٍ أخيرة قبل مغادرة المدينة كلِّيًا، أخذت الأشياء عند ذلك الحدّ، بل ليس عند ذلك الحدّ فقط، منحًى مقيتًا حدث أنّي قرَّرتُ الذهاب إلى غالياني. بحثتُ عن رقمها، واتَّصلتُ بها قلت إنِّي مقبلة على الزواج، وسأرحل إلى فلورنسا، وأرغب في أن أودِّعها فدعتني الأستاذة بلطف، لكن من دون إبداء دهشة أو فرح، إلى بيتها في الخامسة من اليوم التالي. وقبل أن تغلق السمّاعة، قالت: اصطحبي صديقتكِ لينا أيضًا، إن لم يكن لديها مانع.

وافقت ليلا على المجيء بلا نقاش، وتركت جينّارو عند إنتسو. تزيَّنتُ وسرَّحتُ شعري، وارتديتُ بحسب الذوق الذي تعلَّمتُه من آديلي، وساعدتُ ليلا لتبدو في مظهر لائق على الأقلّ، ما دام من الصعب إقناعها بوضع مساحيق التجميل. كانت تريد أن تجلب الحلويات، فقلت لها إنّ المناسبة لا تتطلّب ذلك. لكنِّي اشتريتُ نسخة من كتابي، مع أنِّي كنتُ شبه واثقة بأن غالياني قد قرأته، إنَّما أردتُ أن أقدِّم إليها إهداءً يليق بها

وصلنا في الموعد المحدَّد. قرعنا الجرس، وما من جواب. قرعنا ثانيةً، ففتحت لنا ناديا، مهملة اللباس، مكدَّرة المزاج، ومن دون لطفها المعتاد، كما لو أنَّ وجودنا يبثّ الفوضى، ليس في مظهرها فحسب، بل في حسن تربيتها أيضًا كلَّمتُها بشأن موعدنا مع والدتها «ليست موجودة»، قالت، لكنَّها أدخلتنا الصالون. واختفت.

بقينا في صمتٍ، نتبادل ابتساماتٍ طفيفة تعبِّر عن استيائنا، في ذلك البيت الهادئ. مرَّت خمس دقائق تقريبًا، حين سمعنا خطواتٍ

تتقدَّم في الممرّ أخيرًا ظهر باسكوالي، هائج الشعر بعض الشيء. لم تُظهِر ليلا أدنى تعبيرٍ عن مفاجأة، أمّا أنا فهتفتُ مذهولة: ما الذي تفعله هنا؟ فأجاب بنبرة جادَّة، بلا احترام: بل ما الذي تفعلانه «أنتما» هنا؟ قلبتِ الجملةُ الحالةَ، واضطررتُ إلى أن أشرح أنا له، كما لو كان ذلك البيتُ بيتَه، أنَّ لديَّ موعدًا مع أستاذتي.

«آه»، قال، ثم سأل ليلا باستهزاء: «هل استعدتِ صحّتكِ؟»

«بما فيه الكفاية»

«هذا يُسعدني».

غضبتُ، وأجبتُ نيابةً عنها. قلت إنَّ ليلا تحسَّنت من وقت قصير ليس إلّا، وإنّ سوكافو تلقَّن درسًا قاسيًا، ودخل المفتِّشون مصنعه، وأُرغمت المؤسّسةُ على إيفاء كلّ ما تستحقّه ليلا

«حقًّا؟» قال في اللحظة التي عادت فيها ناديا، وكانت في كامل أناقتها كأنَّها تهيَّأت للخروج. «هل سمعتِ يا ناديا؟ الأستاذة غريكو تقول إنَّها لقَّنت درسًا قاسيًا لسوكافو».

هتفتُ: «لستُ أنا».

«ليست هي. إنّما الربّ الآب من عليائه لقَّن سوكافو الدرسَ».

ابتسمت ناديا بفتور، قطعت الصالة وجلست، بحركة رشيقة، في حضن باسكوالي، على الرَّغم من أنّ الأريكة كانت فارغة. شعرتُ بالانزعاج.

«حاولتُ أن أساعد لينا فقط».

شدّ باسكوالي ذراعه على خصر ناديا، وانحنى نحوي وقال:

«ممتاز. هذا يعني أنَّنا في أيِّ مصنع، في أيِّ ورشة، في أيِّ زاوية من إيطاليا والعالم، ما إن يسبِّب أصحابُ العمل المشاكلَ،

ويتعرَّض العمّالُ لمأزق، ما علينا سوى الاتِّصال بإيلينا غريكو، وهي بدورها تتَّصل بأصدقائها، والمفتِّشين، وقدِّيسيها الذين في السماء، وتحلّ المشكلة».

لم يحدِّثني بهذه اللهجة أبدًا من قبل، ولا حتى عندما كنت صغيرة وكان أكبر منِّي ويتظاهر بأنَّه سياسيٌّ خبير. شعرتُ بالإهانة، وكنت على وشك الردّ، لكنّ ناديا تدخَّلت وأزاحتني خارج النقاش. توجَّهتْ إلى ليلا بصوتها الرقيق والبطيء، كما لو أنَّ الكلام معي لا يستحقّ العناء:

«ليس للمفتِّشين في غرفة العمل أيُّ قيمة يا لينا لقد ذهبوا إلى مصنع سوكافو، سجَّلوا ملاحظاتهم، وماذا بعد؟ المصاعب في المصنع لا تزال كما كانت، بل تورَّط الذين كُشف أمرهم. وحصل مَن آثر الصمت على رشوةٍ بخسة. اعتقلَنا رجالُ الشرطة ووصل الفاشيُّون إلى تحت منزلنا واعتدوا بالضرب على أرماندو».

ولم تكد تُنهي ما عندها حتى انبرى باسكوالي نحوي مجدَّدًا، بقسوة كبرى، رافعًا صوتَه هذه المرّة:

«اشرحي لنا ما الذي ظننتِ أنَّك وجدتِ له حلًّا»، قال بصوتٍ يعكِّره ألمٌ ويأسٌ صادقان. «أتعلمين بأيّ وضعٍ تمرُّ إيطاليا؟ هل لديكِ فكرة عن النضال الطبقيّ؟»

«لا تصرخْ، من فضلك» دعته ناديا إلى التهدئة، ثم توجَّهت مرَّة أخرى إلى ليلا، قالت لها بهمسٍ تقريبًا «الرفاق لا يتخلُّون عن الرفاق».

فأجابتها: «كانت الأمور ستنتهي بسوء في كلّ حال».

«ماذا تقصدين؟»

«في ذلك المصنع، لا يمكن الانتصار بتوزيع المناشير، ولا

بإلحاق الأذى بالفاشيّين».

«وكيف ننتصر إذن؟»

ظلَّت ليلا صامتة، فقال باسكوالي بصوت محروق، متوجِّهًا إليها هذه المرَّة:

«وهل ننتصر على المتحكِّمين في رقابنا باستنفار أصدقائهم الطيِّبين؟ هل ننتصر بكسب بعض النقود وعدم المبالاة بمصائر الآخرين؟»

فواجهتُه حينذاك: «كفَّ عن هذا يا باسكوالي» قلت، ورفعتُ صوتي أنا أيضًا من غير قصد: «ما هذه النبرة؟ الأمور لم تجرِ هكذا».

أردتُ أن أفصِّل أكثر، كي أسكته، على الرَّغم من أنّ الفراغ يسود في رأسي، واحترتُ في أيٍّ موضوع أبدأ، وكنت ألهج بفكرةٍ واحدة، لكنَّها قاسيةٌ وخارج السياق السياسيّ: هل تعاملني بهذه الطريقة لأنَّك تظنّ نفسك قد بلغتَ المجد بمجرَّد وضع يديك على جسد هذه الآنسة المنحدرة من عائلة عريقة؟ فإذا ليلا تعترضني، رافعةً كفَّها بامتعاض، بحركةٍ غير متوقَّعةٍ أربكتني. قالت:

«كفى يا لينو، إنَّهما على حقّ».

شعرتُ بغيظٍ شديد. هما على حقّ؟ أردتُ أن أردّ، وأن أهاجمها أيضًا، ماذا تقصد بهذه الجملة؟ لكنّ غالياني وصلت في تلك اللحظة، وقد سمعنا وقع خطواتها من الممرّ.

٥٩

أملتُ ألَّا تكون الأستاذة قد سمعت صراخي. وانتظرتُ من ناحية أخرى أن تتنحَّى ناديا عن حضن باسكوالي وتهرع إلى الجلوس على الديوان. تمنَّيتُ أن أرى كليهما ذليلين ومضطرَّين إلى التظاهر بعدم وجود الحميميّة بينهما لاحظتُ أنَّ ليلا أيضًا تنظر إليهما بعين ساخرة. لكنّهما حافظا على وضعيَّتهما، بل إنَّ ناديا لفَّت ذراعها حول رقبة باسكوالي، كأنَّها تخشى السقوط، بينما قالت لأمّها التي ظهرت للتوّ على عتبة الصالون: «أعلميني في المرَّة القادمة، بأنّكِ تنتظرين ضيوفًا». لم تجب الأستاذة، وتوجَّهت إلينا بفتور: المعذرة لقد تأخَّرت، فلننتقل إلى مكتبي. تبعناها، بينما أبعد باسكوالي ناديا عنه وهو يغمغم بنبرةٍ بدت لي قد باغتتها الخيبة: هيّا، فلنذهب إلى هناك.

تقدَّمتنا غالياني في الممرّ، وهي تهمهم بانفعال: لا شيء يزعجني حقًّا كالفظاظة. ثم أدخلتنا قاعة يسرح فيها الهواء، مزوَّدة بمنضدة قديمة والكثير من الكتب، إضافة إلى كَراسيّ عتيقة ومحشوَّة. اتَّخذت نبرة لطيفة، بينما كان من الواضح أنَّها تقاوم المزاج المعكّر قالت إنَّها سعيدة برؤيتي، وبرؤية ليلا ثانيةً. ومع هذا شعرتُ بأنَّها حانقة،

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

عند كلِّ كلمة، وبين الكلمة والأخرى، حتى وددتُ أن أنصرف في أسرع وقت. اعتذرتُ إليها لأنِّي لم أعد أتواصل معها، وتكلَّمتُ بلهجة متعَبة بعض الشيء، على الدراسات، والكتابِ، والالتزاماتِ الكثيرة التي شغلتني، والخطوبةِ، والزواجِ الذي بات وشيكًا

«هل ستتزوَّجين في الكنيسة، أم زواجًا مدنيًّا؟»

«زواجًا مدنيًّا فقط».

«أحسنتِ»

التفتت إلى ليلا، كانت تريد إشراكها في المحادثة:

«وحضرتكِ، هل تزوّجتِ في الكنيسة؟»

«أجل؟»

«هل أنتِ متديِّنة؟»

«لا».

«فلماذا تزوَّجتِ في الكنيسة، إذن؟»

«كان جميعهم يفعلون هكذا».

«لا ينبغي لنا أن نفعل الأشياء لمجرَّد أنَّ الجميع يفعلونها».

«نفعل الكثير من هذه الأشياء».

«هل ستذهبين إلى زفاف إيلينا؟»

«لم توجِّه إليَّ دعوة».

انتفضتُ وقلت على الفور «ليس صحيحًا».

أطلقتْ ضحكةً متقطِّعة: «بل هذا صحيح، إنَّها تخجل من حضوري».

كانت نبرتها ساخرة، لكنَّها جرحتني، في أيِّ حال. ما الذي يحدث لها؟ لماذا وقفت ضدِّي قبل قليل مع باسكوالي وناديا، وتُخبر

telegram @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

الآن الأستاذةَ بهذه الأشياء السمجة؟

«ترَّهات»، قلتُ، وأخرجتُ كتابي من حقيبة يدي كي أستعيد هدوئي، وأعطيتُه لغالياني قائلةً: أردتُ أن أقدِّم إليك هذا الكتاب. نظرتْ إليه برهةً من دون أن تراه، لعلَّها كانت تتابع إحدى خواطرها، ثم شكرتني، وقالت إنّ لديها نسخةً منه، وأرجعتْه إليّ وهي تطرح سؤالًا:

«ماذا يعمل زوجكِ؟»

«أستاذٌ في الأدب اللاتينيّ في فلورنسا».

«هل هو أكبر منك بكثير؟»

«عمره سبعة وعشرون عامًا».

«شابٌّ إلى هذه الدرجة، وأستاذٌ في الجامعة؟»

«إنّه شاطر».

«ما اسمه؟»

«بييترو آيروتا».

حدَّقت إليَّ غالياني بعمق، مثلما كانت تفعل في المدرسة حين تستجوبني وأقدِّم إجابةً تعتبرها ناقصة.

«هل هو من أقرباء غويدو آيروتا؟»

«ابنه».

ابتسمتْ بلؤمٍ جليّ: «زواجٌ موفّق».

«نحن نحبّ أحدنا الآخر».

«هل بدأتِ بكتابة رواية أخرى؟»

«أحاول».

«رأيتُ أنّكِ تتعاونين مع جريدة «الاتّحاد»».

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

«بضعة مقالات».

«أنا توقَّفتُ عن الكتابة فيها، إنَّها جريدةٌ يُديرها متحجِّرون».

انتقلتْ إلى ليلا ثانيةً، كأنَّها تريد أن توصل إليها كامل استلطافها بشتّى الطرائق. قالت لها:

«ما فعلتِه في المصنع لافت للنظر».

عبّرت ليلا بتكشيرةٍ منزعجة:

«لم أفعل شيئًا».

«هذا ليس صحيحًا».

نهضت غالياني، نقَّبت بين الأوراق على المنضدة، وأظهرت لها مجموعة من الأوراق كما لو أنّها تحمل برهانًا دامغًا

«ناديا تركت هذا النصّ في إحدى زوايا المنزل، فسمحتُ لنفسي بقراءته. إنّه عملٌ شجاع، وجديد، ومكتوب بدقَّة وعناية. وكنت أتمنّى أن ألتقيك لأخبركِ برأيي».

كانت تحمل بين يديها أوراق ليلا التي استخلصتُ منها مقالتي المنشورة في جريدة «الاتحاد».

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

٦٠

أجل، حان الوقت لألوذ بالفرار خرجتُ من بيت غاليانى مهمومة. جفَّ فمي قبل أن أمتلك الشجاعة لأقول للأستاذة إنَّه لا يحقّ لها أن تعاملني بهذه الطريقة. لم تنطق حرفًا واحدًا عن كتابي، مع أنَّه عندها منذ زمن، وقد قرأته حتمًا، أو تصفَّحته على الأقلّ. لم تطلب منّي إهداءً على النسخة التي حملتُها إليها لهذا القصد تحديدًا؛ وحين بادرتُ قُبيل الانصراف لأكتب لها الإهداء ـ نتيجة ضعف منّي؛ نتيجة حاجتي إلى إغلاق تلك العلاقة بأسلوبٍ ودّيٍّ ـ لم تُجب بنعم أو لا، اكتفت بابتسامة، وتابعت حديثها مع ليلا ولم تقل شيئًا عن مقالاتي على وجه الخصوص، بل لم تنوِّه إليها إلَّا لتشملها في حكمها السلبيّ على جريدة «الاتِّحاد»، ثم أخرجت أوراق ليلا وراحت تتحدَّث معها كما لو أنَّ رأيي في هذا الموضوع ليس له قيمة، كما لو لم أعد موجودة في تلك الغرفة. كم وددتُ أن أصرخ بها: نعم، هذا صحيح، ليلا خارقة الذكاء، ولطالما اعترفتُ بذكائها الحادّ، وأُعجبتُ به، وأثَّر في كلّ خطوةٍ أقدمتُ عليها، لكنِّي حصلتُ على ذكائي بعرق الجبين وأحرزتُ نجاحًا لافتًا، وبات الجميع يُشيد بقلمي في كلّ مكان. لستُ

نكرةً دعيّة مثل ابنتكِ. إلّا أنّي بقيتُ صامتةً أُصغي إليها تناقش ليلا عن العمل والمصنع ومطالب العمّال. وما برحتا تتكلّمان معًا بينهما عند المستراح، إلى أن ودَّعتني غالياني بتحيَّة شاردة، في حين قالت لليلا، متجاوزةً الرسميّات: فلنبقَ على تواصل، وعانقتها شعرتُ بالإهانة، ولاسيَّما أنَّ باسكوالي وناديا لم يظهرا ثانيةً، ولم تتسنَّ لي الفرصة للردِّ عليهما، فسكن غضبي عليهما أيضًا في أعماقي: أيّ ذنبٍ ارتكبتُه إذ ساعدتُ صديقتي؟ لقد كرَّستُ نفسي في سبيلها وكيف يسمحان لنفسيهما بانتقاد ما فعلتُه؟ بقينا بمفردنا أنا وليلا حينذاك، على السلالم، عند البهو، ثم على رصيف شارع فيتوريو إيمانويلي. شعرتُ بأنّي متأهِّبةٌ للصراخ في وجهها هل تعتقدين حقًّا أنِّي أخجل من حضوركِ، ما الذي دهاكِ، لماذا قلتِ إنّ ذينك الاثنين على حقٍّ، أنتِ ناكرةٌ للجميل. لقد بذلتُ ما في وسعي للبقاء إلى جانبكِ، لأكون مفيدةً لكِ، فإذا بكِ تعاملينني هكذا إنّ رأسك مريضٌ فعلًا غير أنّها، حالما خرجنا إلى الهواء الطلق، وقبل أن أفتح فمي (وما الذي كان ستيغيّر لو عاتبتُها؟)، شبكت كتفيّ بذراعها، وأخذت تنتقد غالياني دفاعًا عنّي.

لم أفلح في انتهاز أيّ ثغرةٍ كي أوبِّخها على انحيازها إلى باسكوالي وناديا، واتِّهامها لي افتراءً بأنّي لا أريد دعوتها إلى زفافي. تصرَّفت كما لو أنَّ شخصًا آخر مَن تفوَّه بتلك الأشياء، فبات من غير المجدي أن أطالبها بتوضيح. «يا لهم من أوغاد ـ انبرت في الانتقاد اللاذع بلا هوادة حتى وصلنا إلى محطَّة المترو في ساحة آميديو ـ. هل رأيتِ تلك العجوز كيف عاملتكِ، أرادت أن تنتقم لنفسها، لم تحتمل أنّكِ تكتبين الروايات والمقالات. لم تحتمل أنّكِ مقبلة على زيجة موفَّقة، ولم تحتمل، بصورة خاصّة، أنَّ ناديا، التي أنشأتْها لتجعل منها أفضل الفتيات، وانتظرت منها ما يرفع الرأس، فإذا بها فاشلة لا تفلح

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

في صنع شيء، ارتبطت بعامل البناء، وارتضت أن تكون جارية عنده على مرأى أمّها. طبعًا، لا يمكنها احتمال ذلك كلّه. وأنتِ، في المقابل، تُخطئين إذا تألَّمتِ، لا تُقيمي لهم اعتبارًا، كان عليكِ ألَّا تعطيها كتابكِ، كان عليكِ ألَّا تسأليها إن كانت تريد إهداءً. كان عليكِ ألَّا تفعلي هذا معها تحديدًا فهؤلاء يجب التعامل معهم بالركل على مؤخّراتهم. عيبكِ أنَّك طيّبة القلب أكثر ممَّا ينبغي لك. تنهلين كلّ ما يقوله هؤلاء لأنَّهم درسوا، وكأنّهم الوحيدون الذين يمتلكون دماغًا، لكنَّ الحقيقة ليست كذلك. هوِّني عليكِ. هيّا، تزوَّجي، وامضي في رحلة الزفاف. لقد انشغلتِ كثيرًا من أجلي. اكتبي رواية أخرى، فأنتِ تعلمين بأنّي أتوقَّع منكِ أجمل الأشياء، وأكنَّ لكِ مودّة كبيرة».

أصغيتُ إليها طوال الوقت، مغلوبةً على أمري. لا مجال للسكينة معها أبدًا، كلّ نقطة ثابتة في علاقتنا تظهر على أنّها قاعدةٌ موقَّتة عاجلًا أو آجلًا، وسرعان ما يتخبَّط شيء ما في رأسها فيُفقدها توازنها لتُفقدني توازني. لم أفهم جيِّدًا إن كانت تلتمس منّي العذر عمليًّا من خلال هذه الكلمات، أم أنَّها كانت تُخفي في الكلام مشاعر لا تنوي إطلاعي عليها، أم أنَّها كانت تهدف إلى وداعٍ نهائيٍّ. من المؤكَّد أنَّها كانت باطلة، وناكرة للجميل، وأنّي، على الرَّغم من كلّ التغيُّرات التي أحدثتُها، ما زلتُ تابعة لها. شعرتُ بأنّ خلاصي من التبعيّة لن يحين أبدًا، ما بدا لي أمرًا لا يُحتمل حقًّا. رغبتُ ـ وأخفقتُ في خنق رغبتي هذه ـ في أن يكون طبيب القلب مخطئًا، وأن يكون أرماندو محقًّا رغبتُ في أن تمرض فعلًا وتموت.

لم نلتقِ منذ ذلك اليوم لأعوام طويلة، وبقينا نتواصل عبْر الهاتف خلال تلك الفترة. غدت كلٌّ منّا للأخرى مجرَّدَ شظايا صوت، لا تخضع لفحصٍ من أيِّ نظرة. بيد أنَّ الرغبة في أن تموت ظلَّت عالقةً في زاويةٍ من ذهني، أطردها فلا تبارحني.

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

٦١

جافاني النوم عشيَّة انطلاقي إلى فلورنسا. كان أكثرَ الهواجس المؤلمة قسوةً ذاك المتعلِّقُ بباسكوالي. عذَّبتني انتقاداته. ولئن استطعتُ تجاهلها للوهلة الأولى، فإنَّ الأرق كان يؤرجحني بين اليقين من كوني لا أستحقّ ذلك التجريح، وبين احتمال أن أكون مخطئةً حقًّا ما دامت ليلا رأت أنَّهما على صواب. أقدمتُ، في النهاية، على فعل شيء لم أقم به أبدًا من قبل: نهضتُ من السرير في الرابعة فجرًا، وخرجتُ من البيت بمفردي، قبل أن يبزغ الضوء. كنت في منتهى التعاسة، تمنَّيتُ أن يقع لي مكروه، أو حدثٌ يعاقبني على أفعالي الخاطئة وخواطري الشرِّيرة، وينعكس سلبًا على ليلا أيضًا إلَّا أنَّ شيئًا لم يحدث. مشيتُ في تلك الطرقات المقفرة، والتي أشعرتني بالأمان حينذاك أكثر من لحظة ازدحامها بالبشر. صارت السماء بنفسجيّة. وصلتُ إلى البحر، فبدا صفحةً صفراء تربض تحت سماء صافية بالكاد تتخلَّلها غيومٌ زهريَّةُ الأطراف. وكان الضوء يشطر صخرة كاستل دل أوفو نصفين بالضبط: نصفًا بلون المغرة اللامعة من جانب بركان الفيزوف، ونصفًا بنِّيًا واسعًا من جانب مارجيلينا وبوزيليبو. وكان الشارع المحاذي للساحل

مكتبة الرمحي أحمد telegram @ktabpdf

الصخريّ خاويًا من البشر، والبحر ساكنًا لكنَّه يضوع برائحة ثاقبة. تُرى، أيّ شعور كان سيراودني عن نابولي، وعنّي، لو أنّي استيقظتُ كلّ صباح في إحدى تلك البنايات القريبة من الشاطئ، وليس في حيّنا عمَّ أبحث؟ هل أودّ تغيير ولادتي؟ هل أودّ تغيير نفسي، وأغيّر بذلك الآخرين أيضًا؟ هل أريد أن أملأ هذه المدينة الخاوية الآن، بمواطنين لا يعرفون الشقاء والجشع، ولا يضمرون النقمة ولا يستشيطون غاضبين، ويقدرون على التمتُّع بسحر هذا المنظر، كما فعلت الآلهة حين سكنت فيه ذات مرّة؟ هل أودّ أن أشدّ من أزر شيطاني، وأمنحه حياة مريحة، لأشعر بالسعادة؟ لقد استخدمتُ نفوذ آل آيروتا، وهم يناضلون في سبيل الاشتراكيَّة منذ أجيال، منحازين إلى جانب أناسٍ مثل باسكوالي وليلا، ليس لأنّي عزمتُ على إصلاح كلّ أعطال العالم، بل لأنّي كنتُ في ظرفٍ يسمح لي بمساعدة الشخص الذي أحبّ، وقد بدا لي من الإثم ألّا أفعل ما فعلتُ. هل تصرَّفتُ بطريقة سيِّئة؟ هل كان عليَّ أن أترك ليلا تواجه مصائبها بمفردها؟ لن أحرِّك بعد اليوم إصبعًا لمساعدة أحد، أبدًا، أبدًا سافرتُ، ذهبتُ لأتزوَّج.

٦٢

لا أذكر شيئًا عن زواجي. وبدلاً من أن تساهم الصور الفوتوغرافيّة في تنشيط الذكريات، أحالتها على صور ذهنيَّة جامدة وقليلة: يظهر بييترو بتعبير شارد، وأنا أبدو غاضبة، وامتعاضُ والدتي واضحٌ على الرَّغم من البهت الذي أصاب صورتها. لا لعلّي لا أذكر شيئًا عن مراسم الزفاف، لكنَّ الجدال الطويل الذي خضتُه مع بييترو قبل أيّامٍ من زواجنا لا يغيب عن بالي. قلت له إنّي أنوي استخدام حبوب منع الحمل، إذ كان العمل على تأليف كتاب جديد يبدو لي أمرًا مستعجلًا وكنت على يقين من أنّي سأحصل على موافقته على الفور، فإذا هو يفاجئني باعتراضه. تعلّل أوّلًا بمسألة الشرعيَّة، فتلك الحبوب لم تكن تسري في السوق بشكلٍ قانونيّ، وذكر إشاعةً تقول إنَّها حبوبٌ تضرّ الصحَّة؛ ثم بنى خطابًا معقَّدًا عن الجنس والحبّ والخصوبة، وختم هكذا كلامه، مغمغمًا بأنَّ من ينوي الكتابة فعلًا، في استطاعته أن يكتب بكلِّ الأحوال، حتى لو كان ينتظر مولودًا. أسفتُ لرأيه وغضبتُ، إذ لم تبدُ لي ردّة الفعل هذه متناغمة مع أفكار الشابّ المثقّف الذي أراد زواجًا مدنيًّا فقط، وقلت له ما جال في

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

خاطري، فتشاجرنا ووصلنا إلى يوم الزفاف قبل أن نتصالح، فظلّ صَموتًا وبقيتُ مستاءة.

ثمّة مفاجأة أخرى لم تُمحَ من ذاكرتي: حفل الاستقبال. كنّا قد قرّرنا أن نتزوَّج، نودِّع أهلنا، ثم نمضي إلى بيتنا من دون إحياء حفلة من أيّ نوع. وقد وُلِد هذا الخيار من تلاقح ميول بييترو إلى التقشُّف مع نزعتي إلى إثبات أنّي لم أعد أنتمي إلى عالم والدتي. لكنّ آديلي هدمت مبادئنا على غفلة من أمرنا سحبتنا معها إلى بيت إحدى صديقاتها ـ كي نشرب النخب، على حدّ قولها ـ حتى وجدنا أنفسنا، أنا وبييترو، في قلب حفل كبير، في مقام فلورنسيّ غاية في النبل والعراقة، بين عددٍ ملحوظ من أقرباء آيروتا وشخصيّات بارزة وأخرى جليلة، ظلُّوا ساهرين حتى آخِر المساء. تجهَّم زوجي، بينما تساءلتُ مشتَّتة الذهن: ما دام هذا الحفل حفلَ زفافي «أنا»، فلماذا اقتصرتُ على دعوة والديّ وإخوتي فقط. قلت لبييترو:

«هل كنت تعلم بأنَّ الأمور ستجري على هذا النحو؟»

«لا».

واجهنا الحالة معًا بعض الوقت. لكنّ بييترو سرعان ما انسحب من محاولات أمّه وشقيقته في تقديمه إلى هذا وذاك، وانكفأ في إحدى الزوايا برفقة أفراد عائلتي، وظلّ يحاورهم طوال الوقت. أمّا أنا، فانصعتُ متضايقةً، أوّل الأمر، من دخول الفخّ الذي وقعنا فيه، ثم بدأتُ أستمتع بأنَّ سياسيّين معروفين، ومفكِّرين مرموقين، وشبّانًا ثوريِّين، بل حتى شاعرًا مشهورًا وروائيًّا معتَبرًا، يُبدون اهتمامهم بي وبكتابي، ويهنِّئونني على مقالاتي في «الاتِّحاد». طار الوقت سريعًا، وكلَّما اندمجتُ مع الحاضرين، شعرتُ بأنّي شخصٌ مرحَّب به في عالم آيروتا. حتى إنّ حَمِيّ أراد أن أجلس إلى جواره وراح يسألني بلطفٍ

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

عن إلمامي بقضايا العمّال. وما لبث أن تجمَّع حولنا الحاضرون، وكانوا جميعًا من أولئك الذين يُدلون بآرائهم في الجرائد والمجلّات، ويحلِّلون ظاهرة المطالب العمَّاليّة التي كانت تجتاح البلاد آنذاك. وهآنذا، كنت معهم هناك، وهذه هي حفلتي الحقيقيّة، وكنت محور النقاش.

أشاد والد زوجي، في لحظة ما، بدراسةٍ ظهرت على صفحات فصليّة «موندو أوبرايو/ عالم العمّال»، وكانت على حدّ زعمه تتناول أزمة الديموقراطيّة في إيطاليا بذكاءٍ منقطع النظير اعتمد النصّ على كمِّيَّة هائلة من المعطيات، وأثبت في النتيجة أنّه ما دامت شبكة الإذاعة والتلفزيون الوطنيَّة، وكبريات الصحف، والمدرسة، والجامعة، والقضاء، تعمل ليلًا نهارًا على ترسيخ الأيديولوجيّة المهيمنة، فإنَّ المنافسة الانتخابيّة ستصبح مسرحيّةً مُدَبَّرة، ولن تحصل الأحزاب العمّاليَّة أبدًا على أصوات كافية للوصول إلى سدّة الحكم. عبَّر الحاضرون عن موافقتهم الرأي، وأشار بعضُهم إلى ما يصبُّ في سياق النتيجة ذاته، وأحال آخرون على مقالات ذات صلة. وفي النهاية، ذكر البروفسور آيروتا، بوقاره المعهود، اسم كاتب الدراسة، فعرفتُ قبل أن ينطق اسمه ـ جوفاني سارّاتوري ـ بأنّه نينو. وكنت سعيدة إلى درجة أنّي لم أتمالك نفسي، فقلت لهم إنّي أعرفه، وناديتُ آديلي كي تؤكِّد لزوجها والحاضرين ألمعيّة صديقي النابوليتانيّ.

شارك نينو في زفافي من دون أن يحضر وشعرتُ، في مجرى الحديث عنه، بأنّي مخوَّلةٌ الكلامَ على نفسي أيضًا، وعلى الأسباب التي دفعتني إلى الالتزام بالعمّال ونضالاتهم، وعلى ضرورة تقديم الأدلّة كي تُدرك الأحزابُ اليساريّة وممثّلوها البرلمانيّون مدى تقصيرهم وتأخُّرهم في استيعاب الموسم السياسيّ والاقتصاديّ الراهن، وإلى ما

هنالك من عبارات أخرى تعلَّمتُها مؤخَّرًا واستخدمتُها ببراعة. شعرتُ بأنّي شاطرة. واعتدل مزاجي أكثر فأكثر، وراق لي البقاء في جوار والد زوجي وعقيلته لأتقبَّل التهاني والإشادات من أصدقائهما. في الختام، بعد أن ودّعني أهلي على حياء وهرعوا إلى مكانٍ ما في انتظار أوّل قطارٍ يقلّهم إلى نابولي، لم أعد أرغب في معاملة بييترو بجفاء، الأمر الذي فطن إليه، فتلاشى اضطرابه، ولانت أساليبه.

حالما وصلنا إلى شقّتنا، وأغلقنا الباب من خلفنا، أخذنا نمارس الحبّ. كم تلذَّذتُ في البداية، إلّا أنَّ ذلك اليوم لم يكن لينقضي قبل أن يُدهشني بمفاجأة أخرى. كان أنطونيو، صاحبي الأوَّل، يَدْعَكُ جسده بجسدي بسرعةٍ وشدّة. وكان فرانكو يفعلها باذلًا جهدًا كبيرًا في تمالك نفسه، إلى أن ينفصل عنّي بشهقةٍ ذاوية. وعندما يضع الواقي، كان يتوقّف على حين غرّة أحيانًا، ويصبح أشدّ ثقلًا ممَّا يبدو، ثم يهرسني بجسده الثقيل ويضحك في أذنيّ. أمّا بييترو، فقد بذل جهدًا لوقت طويل لا ينتهي. وكان يوجّه إليّ ضرباتٍ دقيقة وعنيفة، حتى خمد شعوري باللذّة تدريجيًّا وانهزم أمام إلحاحه الرتيب والألم الذي داهم بطني. تَسَيّل عرقًا نتيجة الإرهاق الطويل، أو ربّما بسبب معاناته. وما إن رأيتُ عرقه الرطب يغطِّي وجهه وعنقه، ولمستُ ظهره المبتلّ، حتى تبدَّدت الشهوة عندي من أساسها غير أنَّه لم ينتبه إلى ذلك، واستمرّ في كرّه وفرّه، ثم ولجني بقوَّة وإيقاعيَّة منتظمة، وما عاد يتوقَّف. لم أكن أعرف كيف أتصرَّف. كنت أداعبه، وأهمس في أذنه كلمات مثيرة عن الحبّ، في حين أتمنَّى أن يكفّ عن ذلك. وحين بلغ ذروته، وانفجر زئيرُه، وهوى خائر القوى، شعرتُ بالسعادة، على الرَّغم من ألمي وعدم رضاي.

ظلّ في السرير لوقت قصير جدًّا، ثم نهض واتَّجه إلى الحمَّام.

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

انتظرتُه بضع دقائق، لكنّي كنت منهَكة فغلبني النعاس وغفوتُ. استيقظتُ فَزِعةً بعد ساعة تقريبًا، ورأيتُ أنّه لم يعد إلى السرير وجدتُه في مكتبه، خلف المنضدة.

«ماذا تفعل؟»

ابتسم في وجهي.

«أعمل».

«تعال إلى النوم»

«اذهبي أنتِ، سأتبعكِ لاحقًا».

لا بدّ من أنّي حملتُ في تلك الليلة.

٦٣

داهمني القلق ما إن اكتشفتُ أنّي أنتظر مولودًا، واتَّصلتُ بأمّي. وعلى الرَّغم من أنَّ علاقتنا كانت مبنيَّة على النزاع الدائم، فإنَّ الحاجة إلى سماع صوتها تغلَّبت على كلّ شيء. وكان ذلك خطأً فادحًا أخذتْ تلحّ على الفور. أرادت الانطلاق حالًا والاستقرار عندي، لتساعدني وتوجِّهني، أو أن تأتي لتعود بي إلى الحيّ، فأمكث عندها من جديد، وأستعين بالقابلة العجوز التي أنجبت كلّ أولادها بذلتُ جهدًا في كبح جماحها، وقلتُ لها إنَّ طبيب أمراض نسائيَّة يتابع ملفِّي، وهو صديق حماتي، وأستاذ مرموق، وسأنجب في مستوصفه. خاب أملها وانزعجت. قالت: تفضّلين عليَّ حماتكِ؛ ولم تتصل بعد.

اتَّصلت بي ليلا، بعد بضعة أيّام. كنّا قد تبادلنا بعض المكالمات، بعد مغادرتي ناپولي، لكنَّها مكالمات قصيرة، كي نقتصد في تكاليف الاتِّصال. وكانت هي مبتهجة، وأنا أتحدَّث بنبرة محايدة. هي تسألني ساخرةً عن حياتي كزوجة، وأنا أسألها عن صحَّتها بكلِّ جدِّيَّة. لكنِّي انتبهتُ إلى أنَّ شيئًا ما لم يكن على ما يرام في تلك المكالمة.

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

«هل أنتِ مستاءة منّي؟»

«لا، لماذا أستاء منكِ؟»

«لم تخبريني بشيء. ولم يصلني الخبر إلّا لأنّ أمّكِ تختال أمام الجميع بحملكِ».

«لم أتأكَّد من الموضوع إلَّا منذ فترة قصيرة».

«كنت أظنّ أنّكِ تستخدمين حبوب المنع».

ارتبكتُ:

«أجل، لكنّي قرَّرتُ عدم استخدامها».

«لماذا؟»

«العمر يمضي».

«وماذا عن الكتاب الذي تنوين تأليفه؟»

«سأرى لاحقًا».

«تشجّعي».

«سأفعل الممكن».

«عليكِ أن تفعلي أقصى ما تستطيعين».

«سأحاول».

«أنا أستخدم حبوب المنع».

«هل الأمور بخير مع إنتسو؟»

«بما فيه الكفاية، لكنّي لا أريد الحمل ثانيةً أبدًا».

صمتتْ، فلم أقل شيئًا بدوري. وحين عاودت الكلام، حدَّثتني عن أوّل مرّةٍ عرفتْ فيها أنَّها تنتظر مولودًا، وحدَّثتني عن المرَّة الثانية أيضًا. ووصفت كلتا التجربتين بالشنيعة: في الثانية، قالت، كنت متأكِّدة من أنَّه ابن نينو، وكنت سعيدة بهذا على الرَّغم من الأوجاع.

telegram @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

وبغضّ النظر عن السعادة من عدمها، سترين كيف يتألّم جسدكِ. لم يعد يروقها أن يتشوَّه جسمها ويعاني الأمرَّين. وهكذا راحت تُظهِر المزيد من النقاط السلبيَّة، وكانت كلّها أشياء تخصّها، وقد قصَّتها عليَّ من قبل، إلّا أنَّها لم تكن مهووسة كتلك اللحظة في جرِّي إلى معاناتها كي أشعر أنا أيضًا بمرارتها كانت تبدو كأنَّها تريد أن تهيِّئني لما ينتظرني، وأنَّها قلقة بشأني وبشأن مستقبلي. قالت: إنّها حياة أحد ما، تتركَّز في بطنكِ في البداية، ثم تصبحين أسيرةً لها ما إن تخرج منكِ أخيرًا، وتستعبدكِ، وتحرمكِ الشعور بالحرِّيَّة والاستقلاليّة. وأخذت تستفيض في وصف كلّ مراحل الأمومة التي سأمرّ بها، استنادًا إلى المراحل التي مرَّت هي بها، معبرةً بأسلوبها الفعّال كالعادة «كما لو أنَّكِ تصنعين عذاباتكِ بنفسكِ»، هتفتْ، ولاحظتُ أنَّها لا تستطيع أن تفكِّر في أنَّ هي هي، وأنا أنا كان يبدو لها من غير المعقول أن تختلف تجربتي في الحمل عن تجربتها، وأن يكون لي إحساس خاصٌّ بالأمومة. وكانت متيقِّنة من أنِّي سأواجه المصاعب ذاتها التي واجهتْها، حتى بدت لي قادرةً على اعتبار أيّ بهجةٍ بالأمومة خيانةً.

لم أعد أريد الإصغاء إليها أبعدتُ السمّاعة عن أذني، كان صوتها يفزعني، وتبادلنا وداعًا باهتًا

«إن احتجتِ إليّ»، قالت، «أخبريني».

«حسنًا».

«لقد ساعدتِني، والآن حان دوري لأساعدكِ».

«حسنًا».

لكنّ تلك المكالمة لم تساعدني البتّة، بل تركتني مضطربة. كنت أعيش في مدينة لا أعرف عنها شيئًا، على الرَّغم من أنَّ بييترو عرَّفني إلى كلِّ زاوية فيها، الأمر الذي لم يكن في استطاعتي أن أقوله عن

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

ناپولي. كنت أحبّ التنزُّه على ضفاف نهر أرنو، لكنّ لون المنازل لم يكن يعجبني، بل يكدّر مزاجي أيضًا. وكانت نبرة ساكنيها المتهتِّكة ـ حارسِ البناية، اللحّامِ، الخبّاز، ساعي البريد ـ تدفعني إلى التكلُّم بنبرةٍ تفوقها تهتُّكًا، على نحو خلق لديَّ عداءً مع المكان ليس له أيّ مبرِّر. ثم إنّ أصدقاء آيروتا الكثر، الذين حضروا حفل زفافنا، اختفوا بعد ذلك، كما أنّ بييترو لم يكن لديه نيّة في التواصل معهم. كنتُ أشعر بالوحدة والهشاشة. اشتريتُ عدّة كتب تشرح كيف نصبح أمّهاتٍ نموذجيّات، وحضّرتُ نفسي باجتهادٍ اعتدتُ عليه.

مرّت الأيّام والأسابيع، وفوجئتُ بأنّ الحمل لا يثقل على عاتقي إطلاقًا، بل جعلني أكثر خفّة. قلّما تعرَّضتُ لنوبات غثيان، ولم أعانِ تراخيًا جسديًّا، أو كدرًا في المزاج، أو انعدام الرغبة في فعل الأشياء. كنت في شهري الرابع حين حازت روايتي جائزة مهمَّة، فذاع صيتي أكثر وحصلتُ على بعض النقود. ذهبتُ لأستلم الجائزة على الرَّغم من الجوِّ السياسيّ المحموم إزاء تقدير من هذا النوع، وشعرتُ بأنّي أحظى بحالة من الغفران، والاعتزاز بالنفس، وإحساسٍ بالكمال الجسديّ والفكريّ طهَّرني من الخجل والوجل ومنحني العفويّة والانفتاح. تحدَّثتُ أكثر من اللازم في خطاب الشكر، وقلت إنّي أشعر بالسعادة مثل روّاد الفضاء ما إن تطأ أقدامهم سطح القمر الأبيض. واتَّصلتُ بليلا، بعد يومين، بما أنّي كنتُ أشعر بالقوّة، وكلَّمتُها على الجائزة. كنت أريد أن ألمِّح إليها بأن الأمور لا تجري كما تنبّأت هي، إنَّما تجري بانسياب، يجعلني راضية. كنت أشعر بالكبرياء حتى رغبتُ في أن أقفز فوق الهموم التي نقلتْها إليّ. لكنّ ليلا قرأت في جريدة الـ «ماتينو» ـ جرائد ناپولي وحدها فرّغت بضعة سطور للحديث عن الجائزة ـ جملتي عن روّاد الفضاء، فانتقدتْها بحدَّة من دون أن

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

تعطيني الوقت للحديث. «سطح القمر الأبيض ـ سخرتْ ـ في بعض الأحيان من الأفضل أن يخرس المرء على أن يتفوّه بالترّهات». وأضافت أنَّ القمر عبارة عن حجر بين مليارات الأحجار، لذا، فإنَّ أفضل شيء نفعله، حجرًا حجرًا، هو أن نغرس أقدامنا في بلايا هذه الأرض.

راودتني غصّة في بطني. لماذا تستمرّ في تجريحي؟ ألا تريد أن أكون سعيدة؟ أم أنَّها لم تستعد عافيتها بعد، فأبرزتِ الكآبةُ جوانبَها الشرِّيرة؟ خطر في بالي ردٌّ لئيم، لكنِّي لم أقوَ على لفظه. إذ شرعتْ تحدِّثني عن شؤونها، بلهجةٍ وديِّة جدًّا، كأنَّها لم تنتبه إلى أنَّها جرحتني، أو كأنَّها تعتقد أنَّ هذا من حقِّها الطبيعيّ. تصالحت مع شقيقها، ومع أمّها، بل حتى مع أبيها؛ تشاجرت مع ميكيلي سولارا بشأن المسألة القديمة التي تخصّ علامة الأحذية والنقود التي عليه أن يدفعها إلى رينو؛ تواصلت مع ستيفانو كي تطالبه بأن يؤدِّي دور الأب مع جينّارو أيضًا، وليس مع ماريًّا فقط، من الناحية الاقتصاديّة على الأقلّ. واستخدمت عبارات لاذعة، لا تخلو من الدناءة، مع رينو ومع الأخوين سولارا ومع ستيفانو على حدٍّ سواء. وسألتني في الختام، كما لو أنَّها تنتظر رأيي بفارغ الصبر هل أحسنتُ صنعًا؟ لم أجب. لقد فزت بجائزة مهمَّة، ولم تنتبه إلَّا إلى استعارة روّاد الفضاء. سألتُها، لأهينها ربَّما، إن كانت لا تزال تتعرَّض لتلك الأعراض عن ذوبان رأسها وما شابه. نفت، وكرَّرت مرَّتين أنَّها في صحَّة جيِّدة، وأضافت بضحكة تنمُّ عن سخرية ذاتيَّة: سوى أنّي أحيانًا أرى بطرف العين أُناسًا يخرجون من الأثاث. ثم سألتني: «هل حملُكِ بخير؟» «بخير، ممتاز»، قلت، «لم أشعر بحالٍ أفضل أبدًا من قبل».

سافرتُ كثيرًا خلال تلك الشهور. دُعيتُ إلى هنا وهناك من أجل

telegram @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

كتابي، ومن أجل المقالات التي كتبتُها، والتي أرغمتني بدورها على التنقُّل كي أرى أشكال الإضرابات الجديدة عن كثب، وردَّ أصحاب المصانع عليها لم أفكِّر أبدًا في أنِّي أتعذَّب كي أصبح صحافيَّة مكرَّسة. إنَّما كنت أفعل ذلك لأنَّه يملاني بهجةً. فأشعر بأنِّي متمرِّدة وثائرة وذات سطوة تجعل دماثتي مجرَّد قناع. واستطعتُ بفضل دماثتي، التسلُّلَ إلى جموع المضربين قبالة المصانع، وتحدَّثتُ إلى العمَّال والعاملات والنقابيّين، وانسللتُ بين رجال الشرطة. لم أكن أخشى شيئًا وحين وقع انفجار المصرف الزراعيّ في ميلانو، كنت هناك، في دار النشر، لكنِّي لم أجزع ولم تراودني نُذُر شؤم. كنت أعتبر نفسي منيعةً، وجزءًا من قوّةٍ مندفعة. ولا أحد قادرًا على إلحاق الأذى بي أو بجنيني. كنّا معًا نشكِّل الحقيقة الوحيدة المستمرَّة، أنا مرئيّة وهو (أو هي، علمًا بأنّ بييترو كان يريد ذكرًا) ما زال خفيًّا وباقي ما تبقّى نفخةُ هواء، موجةٌ مجرَّدةٌ من صور وأصداء، وسواء أكانت حميدةً أم خبيثة، فإنها كانت تشكِّل مادَّة لعملي، أحوِّل مدَّها وجزرها إلى كلماتٍ سحريَّة داخل حكاية، أو مقال، أو خطاب عامّ، مركِّزةً ألّا يفلت أيّ شيء منِّي خارج السياق، وأن تلقى كلّ فكرة إعجاب عائلة آيروتا، ودار النشر، ونينو الذي كان يقرأني في مكان ما حتمًا، وباسكوالي أيضًا، لم لا، وناديا، وليلا، لعلَّهم يقولون لأنفسهم أخيرًا: ياه، كم كنّا مجحفين في حقّ لينو، إنَّها تصطفُّ إلى جانبنا، انظر ماذا تكتب.

كانت فترة الحمل مكثَّفة للغاية. فوجئتُ بأنِّي أميل خلاله إلى ممارسة الحبِّ أكثر من أيِّ وقت مضى. وكنت أبادر إلى دغدغة بييترو، وأعانقه، وأقبِّله، على الرَّغم من أنَّه لم يكن يميل إلى تبادل القبلات، ويفضِّل الانتقال إلى الجماع الطويل والمؤلم. ثم ينهض بعد

مكتبة الرمحي أحمد telegram @ktabpdf

ذلك، ويعمل حتى ساعة متأخِّرة. فأنام ساعة أو اثنتين، وأستيقظ فلا أجده في السرير، وأُشعل الضوء، وأقرأ إلى أن أشعر بالتعب. فأذهب إلى مكتبه، وأُرغمه على العودة إلى الفراش. فيطيعني، لكنّه يستيقظ في الصباح الباكر. كأنَّه يخشى النوم. أمَّا أنا، فكنت أنام حتى منتصف النهار.

حدث أمر واحد أمادني بالهمِّ. كان بطني منتفخًا، في شهري السابع، وكنت على مقربة من منطقة نوفو بينيونه الصناعيَّة، حين اندلعت المواجهات، فلذتُ بالفرار. ربَّما تحرَّكتُ بخطوة خاطئة، لا أدري، لكنِّي أحسستُ بوخزة ألم حادَّة في وسط ردفي الأيمن، فإذا بها تمتدُّ على ساقي كالحديد الساخن. عدت إلى البيت وأنا أعرج، استلقيتُ على السرير، فانقضى الألم. لكنَّه عاد إلى الظهور بين الفينة والأخرى، يُصدِر إشعاعًا نحو الفخذ والمغبن. فاعتدتُ على بعض الوضعيَّات التي من شأنها أن تخفِّف الألم، إلى أن تولَّد لديَّ انطباع بأنِّي مقبلة على العرج بشكل دائم، فانتابني الذعر، وهرعتُ إلى البروفسور الذي يتابع حملي. هدَّأ روعي، وقال إنَّ كلّ شيء بخير، سوى أنَّ الثقل الذي أحمله في الرحم يُتعبني محرِّضًا عِرقَ النسا لمَ كلّ هذا القلق، سألني بنبرة ودودة. أنتِ هادئة للغاية. فكذبتُ. قلت إنِّي لا أعرف السبب. لكنِّي في الحقيقة كنت أعرف السبب جيِّدًا، خشيتُ أن تتبعني خطوة أمّي العرجاء، وتستوطن في جسدي، وأن أعرج مثلها إلى الأبد.

هدأ خاطري بعد تطمينات الطبيب، وبقي الألم قليلًا ثم تلاشى. منع عنِّي بييترو القيام بأيِّ حركة طائشة، والذهاب هنا وهناك. فرأيتُه محقًّا، وأمضيتُ الفترة الأخيرة من الحمل في القراءة، ولم أكتب شيئًا تقريبًا. وُلدت ابنتنا في ١٢ فبراير عام ١٩٧٠، عند الخامسة وعشرين

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

دقيقة فجرًا سمّيناها آديلي، على الرَّغم من أنَّ حماتي قالت مرارًا وتكرارًا: يا للطفلة المسكينة، آديلي اسم بشع، أَعطياها أيَّ اسم عدا هذا شعرتُ بآلام شرسة لكنَّها لم تدم طويلًا وحين جاءت الطفلة إلى النور ورأيتُها، شعرُها قاتم السواد، وجسدُها المحمرّ يتبرَّم، وصرخاتُها مفعمة بالحيويّة، انتابني شعورٌ جسديٌّ عاتٍ لا أستطيع حتى هذه اللحظة أن أجد ما يماثله سعادةً. لم نعمِّدها، فهتفت والدتي عبر الهاتف أقبح ما عندها من أوصاف، وأقسمت بأنَّها لن تأتي لرؤيتها ستروق، قلتُ لنفسي بحزن، ثم إنَّها هي الخاسرة إن لم تأتِ.

وحالما وقفتُ على قدمَيّ، اتَّصلتُ بليلا لم أشأ أن تمتعض لأنِّي لم أزفّ إليها الخبر.

«كم كانت تجربة رائعة»، قلت لها

«أيّ تجربة؟»

«الحمل، والولادة. آديلي جميلة جدًّا، وطيِّبة إلى أبعد الحدود».

فأجابتني:

«كلّ امرئٍ يروي حياته بالطريقة التي تريحه».

٦٤

اكتشفتُ، في تلك الفترة، أنِّي عالقة وسط خيوط متشابكة بالغة التعقيد والفوضى، تتراوح بين قديم ومهترئ، وجديد جدًّا. بعضها متَّقد الألوان، وأخرى بلا ألوان. خيوطٌ في منتهى النعومة، لا تراها العين أو تكاد. انطفأت راحةُ البال فجأةً، تمامًا حين بدا لي أنِّي نجوتُ من تنبّؤات ليلا تغيَّرت حال الطفلة نحو الأسوأ، وبدا أنّ تلك التنبُّؤات تظهر في أبشع صورها على حين غرَّة. في البدء، عندما كنّا في المستوصف، أقبلتْ على الثدي بسهولة، ولكن ما إن عدنا إلى البيت حتى اختلّ شيءٌ ما ولم تعد تريدني. كانت ترضع لثوانٍ قصيرة، ثم تزعق مثل حيوان غاضب. اكتشفتُ أنِّي ضعيفة، وعرضة معتقدات قديمة. ما الذي حدث لها؟ هل لأنَّ حلمتَيّ صغيرتان إلى درجة أنَّهما تفلتان من بين شفتيها؟ أم أنَّ حليبي لا يروق لها؟ أم أنَّ سحرًا أصابها من بعيد، فأنزلَ بها لعنةَ النفور منِّي، وأنا أمّها؟

انطلقنا في رحلة آلامٍ، من طبيب إلى آخر، أنا وهي فقط. كان بييترو منشغلًا في الجامعة دومًا باتَ صدري المنتفخ بلا جدوى يؤلمني، كأنّ في الثديين صخرتين ملتهبتين، فتراودني صورٌ شنيعة عن

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

عدوّى تؤدّي إلى عمليَّة بتر. ورحتُ أتعذَّب بمضخَّة الثدي، كي أفرِّغ صدري، فيسكن ألمي، وكي أستخرج ما يكفي من الحليب لتغذية الطفلة بالرضّاعة. وكنت أحفِّزها هامسةً: هيّا، ارضعي، أيّتها الحلوة، أيّتها الرقيقة، ما أجمل فمكِ الصغير، ما أجمل عينيك، ما الذي يضايقكِ. وكان ذلك بلا نتيجة. أُرغمتُ بمرارة، أوّلَ الأمر، على الإرضاع الممزوج، ثم تخلَّيتُ عن هذه الطريقة أيضًا انتقلتُ إلى الحليب الصناعيّ، ما كان يفرض عليّ ساعاتٍ طويلة من التحضير، ليلًا نهارًا، ونظامًا مزعجًا لتعقيم الرضّاعة والحلمة المطّاطيَّة، ومراقبةً دؤوبة للوزن قبل التغذية وبعدها، وشعورًا بالذنب عند كلّ نوبة إسهال تأتيها وفي بعض الأحيان، كانت تخطر سيلڤيا في بالي، وهي في وسط ذلك المناخ المتوتِّر في الاجتماع الطلّابيّ في ميلانو، حيث كانت تُرضع ميركو، ابن نينو، بكلِّ عفويَّة. فلماذا أُخفق أنا في هذا؟ كم بكيتُ في سرِّي.

انتظمت أحوال الطفلة بضعة أيّام، فابتهجتُ، آملةً أن تحين اللحظة التي أُعيد فيها ترتيب حياتي. لكنّ الهدنة لم تدم أكثر من أسبوع. لم تُغمض الطفلة عينًا، طوال عامها الأوّل كلّه، وكان جسدها الرقيق يتلوَّى ويصرخ لساعات بقوّةٍ وممانعةٍ لا شكّ فيهما لا تهدأ إلَّا إذا ضممتُها بين ذراعيّ، وطفتُ بها البيت، وأنا أكلِّمها: الآن ستسكت قرَّةُ عين أمّها، ستتعقَّل، الآن ستستريح، الآن ستنام. لكنّ قرّة العين لا تريد أن تنام، بدا أنَّها تخشى النوم مثل أبيها ما الذي أصابها؟ ألمٌ في البطن، جوعٌ، خوفٌ من الهجران لأنِّي لم أُرضعها من صدري، عينٌ حسود، شيطانٌ تلبَّسها؟ وما الذي أصابني؟ ما السمّ الذي دُسّ في حليبي؟ وماذا عن ساقي؟ هل كان شعورًا عابرًا أم أنَّها عادت تؤلمني حقًّا؟ هل هذا بسبب والدتي؟ هل أرادت أن تقتصَّ منّي لأنِّي حاولتُ

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

طوال حياتي ألّا أشبهها؟ أم أن في الأمر شيئًا آخر؟

قضّ مضجعي، ذاتَ ليلة، صدى صوت جيليولا، حين كانت تروِّج في الحيِّ أنَّ ليلا تختزن سطوةً مريعة، وأنَّها تشعوذ بالنار، وتقضي على الأجنَّة في رحمها شعرتُ بالخزي. حاولتُ أن أردَّ عنِّي هذه الخواطر، وكنت في أمسِّ الحاجة إلى الراحة. جرَّبتُ أن أترك الصغيرة لدى بييترو، إذ كان لا يشعر بالإرهاق كثيرًا منذ أن اعتاد العمل ليلًا كنت أقول له: إنِّي منهكة، نادني بعد ساعتين. فأخلد إلى السرير، والنعاس يعصف بي كأنِّي أفقد الحواسّ. إلَّا أنِّي، استيقظتُ ذات مرَّة، من نُواح الطفلة الخائب، فانتظرتُ لكنَّها لم تكفّ. نهضتُ. فوجدتُ أنَّ بييترو قد سحب مهدها إلى مكتبه، وكان غارقًا في كتبه، غير آبهٍ بنحيب ابنته، يصنِّف الملفَّات كما لو كان أصمّ. فطفح الكيل وفقدتُ حسن السلوك، واستبدلتُه بأسلوب متخلِّف، وشتمتُه بالعامِّيَّة النابوليتانيَّة. أنت لا تعبأ بشيء؛ هل هذه الترّهات أكثر أهمِّيَّة من ابنتك؟ فدعاني زوجي إلى سحب المهد والخروج من المكتب، بكلِّ حياديّة وبرودة أعصاب. عليه أن يكمل مقالًا مهمًّا ليُنشَر في مجلَّة بريطانيّة، وكانت المهلة توشك على نهايتها ولم أعد، منذئذٍ، أطلب منه أيَّ مساعدة، وإن عرض العون أحيانًا، أقُل له: حسنًا، شكرًا، أعرف أنّك مشغول. وكان، بعد العشاء، يدور حولي حائرًا ومضطربًا، إلى أن ينزوي في مكتبه يعمل حتى ساعة متأخِّرة من الليل.

٦٥

شعرتُ بأنَّ الجميع تخلَّى عنِّي، من ناحية، وبأنِّي أستحقُّ هذا التخلِّي من ناحيةٍ أخرى: لم يكن في وسعي توفيرُ السكينة لابنتي. لكنِّي تناسيتُ محنتي ومضيتُ، على الرَّغم من خوفي الدائم. كان جسدي يرفض أداء دور الأمّ. وكلَّما تجاهلتُ ألم الساق بالانشغال بكلِّ شيء، عاودني وازداد ضراوةً. لكنِّي كنت أصرّ على تجاهله، وأؤرِّق نفسي بحمل جميع الأغراض. لم يكن في بنايتنا مصعد، لذا كنت أجرّ عربة الطفلة، صعودًا ونزولًا على السلالم، وأذهب لشراء الحاجات، وأعود محمَّلةً بالأكياس، وأنظِّف البيت، وأطبخ، وأقول لنفسي: إنِّي أصير قبيحة وعجوزًا قبل الأوان، مثل النساء في حيِّنا وبطبيعة الحال، كانت ليلا تتَّصل حين أمرُّ في أسوأ ظروفي النفسيّة.

ما إن أسمع صوتها، حتى تتملَّكني الرغبة في الصراخ عليها: ما الذي فعلتِه بي. كان كلّ شيء يجري على ما يرام، فإذا بكلِّ الأشياء التي أخبرتِني عنها تحدث فجأة: الطفلةُ مريضة، وأنا أعرج. هل يُعقل هذا؟ لم أعد أحتمل. لكنِّي كنت أتمالك نفسي قبل فوات الأوان، فأغمغم: كلّ شيء بخير، سوى أنّ الطفلة تتوعَّك أحيانًا فيتأخَّر نموّها

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

قليلًا، لكنَّها رائعة، وأنا سعيدة. ثم أغيِّر الموضوع بسؤالٍ، مبطَّن باهتمامٍ زائف، عن إنتسو وجينّارو، وعن علاقتها بستيفانو، وشقيقها، والحيّ، وعمّا إذا اعترضتها مشاكلُ أخرى مع برونو سوكافو وميكيلي. وكانت تردّ بعاميَّةٍ قذرةٍ وقبيحةٍ وعدائيَّة، بنبرةٍ هادئة عمومًا سوكافو سيشقى كثيرًا ـ كانت تقول ـ، وميكيلي، إن صادفتُه، فسأبصق في وجهه. أمّا بخصوص جينّارو، فقد باتت تتحدّث عنه علنًا على أنَّه ابن ستيفانو، وتقول: إنَّه مربوع القامة مثل أبيه. ثم تضحك إن قلتُ لها إنَّه طفل لطيف، فترتجل قائلة: خذيه لكِ، بما أنّك أمٌّ طيِّبة إلى هذه الدرجة. كنت أشعر بأنّ عباراتٍ كتلك قائمةٌ على استهزاء العارفين بما يحدث لي بالضبط، بفضل طاقةٍ سرِّيَّة ما؛ فأضمر الحقد، وهذا ما يدفعني إلى الإصرار على إكمال مسرحيَّتي ـ اسمعي ما أُحيلى صوت ديدي، الإقامة بفلورنسا مناسبة جدًّا، إنّي أقرأ كتابًا مهمًّا لباران ـ وهكذا إلى أن ترغمني على إسدال الستار لتحدِّثني عن دورة IBM التي بدأ إنتسو يتردَّد إليها

كانت في حديثها تخصُّه بالاحترام والإسهاب دونًا عن الآخرين، ثم سرعان ما تسألني عن بييترو.

«هل علاقتكِ بزوجكِ جيِّدة؟»

«جيِّدة جدًّا».

«وأنا كذلك مع إنتسو».

كان صوتها، عندما تنتهي المكالمة، يترك خيطًا من الصور والأصوات الآتية من الماضي، لتدوم في رأسي ساعات: الفِناء؛ الألعاب الخطيرة؛ دميتي التي رمتها في كوّة القبو؛ السلالم المظلمة التي صعدنا عليها لنستعيد الدميتين من الدون آخيل؛ زواجها؛ كرمها ولؤمها؛ استحواذها على نينو بتلك الطريقة. لن تغفر لي حظِّي السعيد،

telegram @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

كنت أفكِّر مذعورةً، تريد أن تستولي عليّ ثانيةً، أن تسيطر عليّ، كي أساندها في مشاكلها، وفي معاركها البائسة في الحيّ. ثم أقول لنفسي: يا لي من غبيَّة، بمَ أفادتني الدراسة؟ وأتظاهر بأنَّ الأمور كلّها مستتبَّة. كنت أخبر شقيقتي إيليزا، التي كانت تتصل بي باستمرار، بأنَّ الأمومة أمر رائع للغاية. وأردّ على كارمن بيلوزو، التي تحدِّثني عن زواجها بعامل محطَّة الوقود: آه، خبر سارّ، أتمنّى لك السعادة، أبلغي باسكوالي تحيّاتي، ماذا يفعل في هذه الأيَّام؟ أمّا مع والدتي، فكنت أتظاهر بأنّي في أفضل حال، في أثناء اتّصالاتها النادرة. واستسلمتُ مرَّة واحدة فقط، وسألتُها ما الذي وقع لساقكِ، لماذا تعرجين؟ فأجابت: ما شأنكِ أنتِ؟ التفتي إلى مشاغلكِ.

ناضلتُ طوال شهور، واحترستُ من التوغُّل في أشدّ أعماقي غموضًا فوجئتُ بنفسي غير مرَّة أتوسَّل العذراء، مع أنِّي كنت أعتبر نفسي ملحدة، فأشعر بالخزي. وغالبًا، حين أكون بمفردي في البيت مع الطفلة، كنت أزعق بصرخاتٍ هائجة، لا تحتوي على كلمات، إنَّما على زفير ينبثق من الإحباط. لكن تلك الفترة البشعة لم تكن لتنقضي بسهولة. كانت فترة طويلة وعصيبة. كنت أحمل الطفلة، في الليل، وأنا أعرج، وأمشي بها في الممرّ ذهابًا وإيابًا. لم أعد أهمس إليها تلك الكلمات الخالية من المعنى، بل بتُّ أتجاهلها وأحاول التفكير في نفسي، وثمَّة كتابٌ دومًا بين يديّ، أو مجلّةٌ، على الرَّغم من أنِّي بالكاد أتمكَّن من القراءة. وفي النهار، حين تستسلم آديلي لغفوة وديعة ـ في البدء، كنت أناديها آدي[١]، من دون انتباهٍ إلى الجحيم الذي يتوقَّد من تلك الأحرف الثلاثة، حتى نبَّهني بيترو إلى ذلك، فخجلتُ

(١) آدي Ade، في الإيطاليّة تعني هاديس، ملك العالم السفليّ، والجحيم والأشباح والموتى، في الميثولوجيا الإغريقيّة (المترجم).

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

ورحت أناديها ديدي. أجرِّب أن أكتب مقالة للجريدة. لكنّ الوقت صار ينقصني ـ والدافع أيضًا ـ للطواف هنا وهناك لمصلحة جريدة «الاتِّحاد». وهكذا فقدت كتاباتي ألقها، إذ كنت أسعى لإثبات كفاءتي الرسميَّة فحسب، فانتهى بي الأمر إلى مناوراتٍ جوفاء. ذات مرَّة، كتبتُ مقالًا، ومرَّرتُه إلى بييترو كي يقرأه، قبل أن أرسله إلى الجريدة. قال:

«فارغ».

«ماذا تقصد؟»

«مجرَّد كلمات، لا مضمون لها».

شعرتُ بالإهانة، وأرسلتُه بكلِّ الأحوال. فلم ينشروه. ومنذئذ، صار قسم التحرير المحلِّيّ، والقسم الوطنيّ، يرفضان نشر نصوصي، بما يبدو امتعاضًا، مبرّرين ذلك بمشاكل في إخراج الصفحات. تألّمتُ لهذا، وانتبهتُ إلى أنَّ كلّ ما اعتبرتُه شرطَ حياةٍ وعمل حقَّقتُه بجدارة، يتهافت حولي، بتأثير خضّات مزلزلة ناشئة من أعماق سحيقة. وما كنت أقرأ سوى لأضع عينيّ على كتاب أو مجلّة ما، فأشعر بأنّي أتوقَّف عند الحروف من دون القدرة على استجلاء معانيها. صادفتُ مقالاتٍ لنينو، مرَّتين أو ثلاثًا، لكنِّي لم أحصل على المتعة المعتادة في أن أتخيَّله وأسمع صوته وأتمتَّع بأفكاره بمجرَّد قراءته. لا شكَّ في أنّي كنت سعيدة لأجله: لئن كتب فهذا يعني أنَّ حياته مستقرَّة نوعًا ما، يعيش في مكان ما، ومن يدري مع من. كنت أركِّز نظري في توقيعه، أقرأ بضعة سطور، ثم أُبعدها عنِّي كما لو أنَّ كلّ جملة سوداء على صفحة بيضاء تعقِّد حالتي بما لا يُطاق. لم يعد لديَّ فضول، ولم أستطع أن أعتني حتى بمظهري. ومن أجل مَن أعتني بمظهري، في المحصّلة؟ لم أكن أرى أحدًا، عدا بييترو، الذي كان يعاملني

بإحسان، لكنّي شعرتُ بأنّي لست سوى ظلّ في نظره. كنت أحيانًا أتخيَّل أنّي أفكّر برأسه، فيتولّد لديَّ إحساسٌ بالكآبة. لم يجنِ شيئًا من الزواج بي سوى أنَّ حياته كباحث جامعيّ تعقَّدت، في حين كانت شهرته تتَّسع، في بريطانيا والولايات المتَّحدة بصورة خاصة. كنت معجبة به، على الرَّغم من أنّه كان يضايقني، وأتحدث معه دومًا بمزيج من الغيظ والدونيّة.

كفى، حسمتُ أمري ذات يوم، سأنسى أمر «الاتِّحاد»، ربّما عليّ أن أجد الطريق القويمة لتأليف كتاب جديد فحسب، ومتى اكتمل الكتاب، ترتّبت الأمور الأخرى. ولكن، أيّ كتاب؟ كنت أدَّعي أنّي قطعتُ شوطًا كبيرًا، إذا تكلَّمتُ مع حماتي أو دار النشر، لكنّي كنت أكذب؛ أكذب في أيّ مناسبة، بنبرةٍ لبقة إلى أبعد حدّ. وفي الواقع، لم يكن لديَّ سوى دفاتر مليئة بملاحظات بليدة، لا أكثر. وعندما أفتحها، في الليل أو النهار، بحسب الأوقات التي تفرضها ديدي، كنت أغفو فوق الدفاتر من دون أن أنتبه. ذات مرّة، أواخر عصر يوم ما، عاد بييترو من الجامعة، ووجدني في ظرف أسوأ من الظرف الذي وجدتُه فيه منذ وقت مضى: كنت في المطبخ، أغطّ في النوم، ورأسي مسنود إلى الطاولة؛ وكانت الطفلة في غرفتنا، بعيدًا عنّي، تصيح من الجوع لأنّي نسيتُ أن أُطعمها وجدها أبوها في مهدها، شبه عارية، ومنسيَّة. وحين هدأت ديدي، وهي تنهم من الرضّاعة، قال بييترو مكتئبًا

«هل من المعقول أنَّه ليس عندكِ مَن يساعدكِ؟»

«لا أعرف أحدًا في هذه المدينة، وأنت تعلم هذا جيِّدًا».

«استدعي أمّكِ، أو أختكِ».

«لا أريد».

«فأرسلي في طلب صديقتكِ التي في ناپولي. لقد أفدتِها كثيرًا، ستردّ إليكِ المعروف».

جفلتُ. شعرتُ، بما لا ريب فيه، لجزء من الثانية، بأنَّ جانبًا منّي كان متأكّدًا من رؤية ليلا حاضرة في بيتي فعلًا: استطاعت في الماضي أن تندسّ في وجداني، وها هي الآن تتسلَّل إلى وجدان ابنتي، بتينك العينين الغائرتين والجبين المقطّب. هززتُ رأسي بشدّة: فلتُمحَ هذه الصورة حالًا، فليزلْ هذا الاحتمال، أيّ أفقٍ هذا الذي أشرِف عليه؟

استسلم بييترو واتّصل بوالدته. طلب منها على مضض أن تأتي لتبقى عندنا بعض الوقت.

٦٦

أمدَّني وجود حماتي بالراحة وارتفاع مباشر للمعنويّات، وأثبتت في تلك الحالة أيضًا أنَّها المرأة التي أصبو إلى التشبُّه بها استطاعت في غضون أيَّام قليلة أن تعثر على فتاة بدينة تجاوزت عامها العشرين للتوّ، اسمها كليليا، وتنحدر من ماريما، من ريف فلورنسا أطلعتْها على كلِّ التفاصيل كي تهتمَّ بأمور المنزل، وتشتري الحاجات، وتعتني بالمطبخ. وعندما وجدها بييترو في بيته، من دون حتى استشارته، انتفض مستاءً.

«لا أريد عبيدًا في منزلي».

أجابته آديلي بهدوء:

«ليست عبدة، إنَّها تعمل وتتقاضى أجرها».

ففرّغتُ غيظي، مستقويةً بوجود حماتي:

«فأكون أنا العبدة، في رأيك؟»

«أنتِ أمّ، ولستِ عبدة».

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

«إنّي أغسل ثيابك وأكويها، أنظّف بيتك، وأطبخ لك، وقد أنجبتُ لك طفلة، وأربّيها على الرَّغم من كل الصِّعاب، لم أعد أحتمل».

«ومن يجبركِ على هذا؟ هل طالبتكِ يومًا بشيء؟»

لم أحتمل المهاترة، على عكس آديلي التي هزمت ابنها بسخريةٍ لاذعة، فبقيت كليليا لدينا انتزعت منّي الطفلة، بعد ذلك، ونقلت مهدها إلى الغرفة التي تمكث فيها، واهتمّت بتتابع مواعيد الرضاعة، خلال الليل والنهار، بدقَّة فائقة. وحين انتبهت إلى عرجي، اقتادتني إلى أحد أصدقائها من الأطبَّاء، فوصف لي الأخير عدّة حقنات. وجاءت إليّ بنفسها في كلّ صباح ومساء، تحمل الحقنة وملحقاتها، لتوخز الإبرةَ في العضل بكلّ سرور. وسرعان ما تحسَّن وضعي، واختفى الألم من ساقي، واعتدل مزاجي، واطمئنّ بالي. لكنَّ آديلي ما انفكّت تعتني بي. استخدمتْ لطفها المعهود لتفرض عليَّ الاهتمام بالمظهر مجدّدًا، فأرسلتني إلى الحلّاق، وأرغمتني على العودة إلى طبيب الأسنان. ثم حدَّثتني بغزارةٍ عن المسرح والسينما؛ عن كتابٍ كانت تترجمه، وآخر تراجعه، وعمَّا يكتبه زوجها في إحدى المجلّات، وعن مقالاتٍ لبعض المشاهير الذين كانت تسمِّي كلًّا منهم باسمه الأوَّل، لكونهم أصدقائها أو معارفها وقد سمعتُ منها، للمرَّة الأولى، عن نشراتٍ نسويّةٍ نضاليَّة. كانت ماريّاروزا تعرف القائمات على تلك النشرات، ومولعة بهذا العمل، وتكنّ لهنَّ احترامًا وتقديرًا لكنّ آديلي لم تكن من رأي ابنتها قالت، بلهجتها الساخرة، إنَّهنَّ يهذرن بشأن القضيَّة النسويَّة، إذ من غير الممكن مواجهة هذه المصاعب بتجاهل الصراع الطبقيّ. «اقرئي النشرات، في أيِّ حال»، نصحتْني في الختام؛ وتركت لي زوجًا من تلك الأعداد وهي تلفظ هذه

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

العبارة بنبرةٍ غامضة: «إيّاكِ أن يفوتكِ شيءٌ إن أردتِ أن تكوني كاتبة».
وضعتُ الأعداد جانبًا لم يكن يروق لي أن أهدر الوقت في قراءة نصوصٍ استخفَّت بها آديلي بعظمة لسانها. غير أنَّ انطباعًا خاصًا تولَّد لديّ في تلك المناسبة تحديدًا، وهو أنَّ أيًّا من أحاديث حماتي الثقافيَّة لا ينبع من حاجةٍ حقيقيَّة إلى تبادل الأفكار معي. كانت آديلي تهدف، بأسلوبٍ ممنهج، إلى انتشالي من الظرف المحبط الذي تمرُّ فيه الأمَّهات العاجزات؛ فتسعى إلى قدْح الكلمات بعضها ببعض لتُنتج منها شعلة توقد ذهني ونظراتي من جديد، بعد أن طاولها الجمود. كانت في واقع الأمر تريد إنقاذي أكثر من الإصغاء إليّ.

لم تنقطع ديدي عن البكاء ليلًا، على الرَّغم من كلّ العناية التي حظيت بها كنت أسمع بكاءها فأرتبك، كأنَّها ترسل إليّ شعورًا بالتعاسة يُبطِل مفعول الخطوة الحميدة التي قامت بها حماتي من أجلي. لم أتمكَّن من كتابة أيّ شيء، مع أنّي صرتُ متفرِّغة من ناحية الوقت. وبييترو، الذي كان صَموتًا في العادة، غدا في وجود أمّه سليط اللسان إلى حدِّ الوقاحة. ما مرّ يومٌ عاد فيه إلى المنزل إلَّا وشهدتُ مبارزةً على وقع تلميحاتٍ متهكِّمة بينهما، الأمر الذي كان يضاعف شعوري بالانهيار من حولي. فطنتُ على الفور إلى أنَّ زوجي كان يعتبر آديلي مسؤولة عن كلّ مشاكله في نهاية المطاف. كان يستاء منها بخصوص أيّ شيء، بما فيها المشاكل التي تواجهه في العمل. وكنتُ أعلم القليل عن مناوشاتٍ محدَّدةٍ يخوضها في الجامعة، وإذا سألتُه: «كيف الحال في الجامعة» يجيب عمومًا: «بخير»، ساعيًا إلى تجنيبي الخوض في هذه الأمور. أمَّا مع والدته، فكان يستشيط غيظًا، ويكلِّمها بنبرةٍ اتِّهاميَّة كأنَّه طفلٌ يشعر بالإهمال، فيُغرقها بكلِّ ما كان يخفيه عنِّي. وإن حدث الجدال في حضوري، تصرَّف كما لو أنِّي لست

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

موجودة، وكما لو أنَّ وظيفتي تنحصر في أداء دور الشاهد الصامت، على الرغم من كوني زوجته.

وهكذا، اتَّضحت لي أمورٌ كثيرة. كان زملاؤه، وكلّهم أكبرُ منه سنًّا، يعزون مسيرته الحافلة بالنجاح، والشهرة التي سلَّطت عليه الضوء خارج البلاد أيضًا، إلى الكنية التي يحملها، فخاصموه. كان الطلبة يعتبرونه متشدِّدًا في ثوابته، أكثر من اللازم، وبرجوازيًّا متحذلقًا يزرع بستانه الصغير بمعزلٍ عن متغيِّرات الحاضر، وعدوًّا للطبقة الفقيرة في المحصِّلة. وهو، كالعادة، لم يكن يدافع عن موقفه، ولم يكن يهاجمهم، إنَّما يمضي في طريقه القويمة، مواظبًا على إلقاء دروس نابعة من ذكائه الساطع ـ كنت متأكِّدة من هذه النقطة ـ ومثبتًا جدارته التي لا يُشقّ لها غبار، ما أدّى بالتالي إلى ترسيب الكثير من الطلّاب. «الوضع حرج للغاية»، زعق ذات مساء، متوجِّهًا إلى أمّه ومتذمِّرًا ثم خفض صوته على الفور، وغمغم قائلًا إنّه في حاجةٍ إلى السكينة، وإنّ العمل متعِب جدًّا، وإنّ الكثير من زملائه يحرِّضون الطلبة ضدَّه، وإنَّ مجموعاتٍ من الشبّان غالبًا ما يُحدث أفرادها الجلبة في القاعة التي يدرِّس فيها، فيرغمونه على إيقاف الدرس، وإنّه قرأ عباراتٍ مشينةً بحقِّه على الجدران. حينئذٍ، وقبل أن تلفظ آديلي كلمة واحدة، انفجرتُ غاضبةً. «لو لم تكن رجعيًّا إلى هذا الحدّ ـ قلتُ ـ لما حدثت لك هذه الأشياء». فأجابني، للمرَّة الأولى منذ أن عرفتُه، هامسًا اخرسي أنتِ، ليس لديكِ سوى الجُمل الجاهزة.

ذهبتُ للانزواء في الحمَّام. أدركتُ فجأة أنّي لم أكن أعرفه جيِّدًا ماذا أعرف عنه؟ كان رجلًا مسالمًا، لكنَّه صارمٌ ومفرطٌ في عناده. كان منحازًا إلى جانب الطبقة العاملة، والطلبة، لكنَّه يلقِّن الدروس ويُجري الامتحانات متبعًا أكثر الطرائق تقليديّةً. كان ملحدًا،

telegram @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

لم يشأ الزواج في الكنيسة، وأمرني بعدم تعميد ديدي، لكنَّه كان معجبًا بالمجتمعات المسيحيّة في قلب فلورنسا القديمة، ويتكلَّم على المسائل الدينيّة بطلاقة. كان من عائلة آيروتا، لكنَّه يحتقر الامتيازات التي تأتيه بفضل اسم عائلته. هدّأتُ خاطري، وحاولتُ أن أقترب إليه أكثر، كي أُشعره بمودّتي. إنَّه زوجي، قلت لنفسي، وعلينا أن نتحادث أكثر في هذه الأمور. إلَّا أنَّ وجود آديلي سبَّب مشكلة في كلّ يوم يمضي، على ما بدا كان ثمَّة شيء بينهما، غير معلن، يُرغم بييترو على وضع اللباقة جانبًا، ويُرغم آديلي على التكلُّم معه كما لو أنَّه عاجزٌ لا أمل في إنقاذه.

بتنا نعيش هكذا، في صدامات مستمرَّة: كان بييترو يتشاجر مع والدته، فيتلفَّظ في حقِّها بشيء يُغضبني، فأهاجمه. وهكذا، إلى أن وصلنا إلى تلك اللحظة، على العشاء، حيث سألتْه آديلي، في وجودي، لماذا ينام على الأريكة. فأجابها: من الأفضل أن تغادري في الغد. لم أتدخَّل حينذاك، مع أنِّي كنت أعلم لماذا ينام على الأريكة: كان يفعلها من أجلي، كي لا يزعج نوميَ حين ينتهي من عمله ليأخذ قسطًا من الراحة عند الثالثة فجرًا عادت آديلي إلى جنوا، في اليوم التالي، فشعرتُ بالضياع.

٦٧

مرّت الشهور، خلافًا لذلك الشعور، واستطعتُ أنا والطفلة أن نتجاوز تلك المصاعب. بدأت ديدي بالمشي بمفردها في عيد ميلادها الأوَّل: جلس والدها القرفصاء قبالتها، وراح يشجِّعها، فابتسمت وانفصلت عنِّي واتَّجهت نحوه متردِّدةً، باسطة الذراعين، مفتوحة الفم، كما لو كان والدُها الغاية السعيدة لعامها الذي أمضتْه بالبكاء. غدت لياليها هادئة اعتبارًا من تلك اللحظة، ما انعكس إيجابًا على نومي. وقد قضت الطفلة معظم الوقت مع كليليا، فخمدت التوتُّرات، وكسبتُ حيِّزًا من الوقت لنفسي. لكنِّي اكتشفتُ أنِّي لا أرغب في نشاطاتٍ ملزمة. كنت أتلهَّف إلى الخروج إلى الهواء الطلق، كأنِّي اجتزتُ فترة مرضٍ طويلة، كي أستمتع بالشمس والألوان، وأتمشّى وسط الشوارع المزدحمة، وأستكشف ما تعرضه واجهاتُ المتاجر. وبما أنّي كنتُ قد حصلتُ على مالٍ وفير، اشتريتُ ملابس جديدة، لي وللطفلة ولبييترو أيضًا، وملأتُ البيت بالأثاث والتُّحَف، وبذّرتُ النقود كما لم أفعل من قبل. كنت أشعر بحاجةٍ إلى أن أكون جميلة، وأن أُقابل أناسًا مهمِّين، وأن أُخاطبهم، لكنّي لم أتمكَّن من التواصل مع أحد، كما

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

كان من النادر أن يأتي بييترو بالضيوف إلى البيت.

حاولتُ شيئًا فشيئًا أن أستعيد الحياة البهيجة التي جرَّبتُها قبل عام مضى، وانتبهتُ حينها فقط إلى أنَّ الهاتف بات يرنّ بشكل أقلّ، وأنَّ المكالمات قلَّما تكون لي. أخذتْ ذكرى روايتي تبهت، والفضول بشأن اسمي يتناقص. وما إن عمَّتْ راحةُ البال، حتى دخلتُ في مرحلة التساؤل عمّا ينبغي لي فعله. كنت مضطربة، ومحبَطة في بعض الأحيان. رجعتُ إلى عادتي في قراءة الأدب المعاصر، وكثيرًا ما غلبني العار من روايتي التي غدت تبدو تافهة وتقليديّة، مقارنةً بالإصدارات الحديثة. وضعتُ ملاحظات الرواية الجديدة جانبًا، لأنَّها كانت ستنحو بي إلى إعادة إنتاج الرواية الأولى، وبذلتُ قصارى جهدي في التفكير في حكايةٍ أكثر التزامًا تتضمَّن اضطرابات الزمن الراهن.

عدتُ إلى إجراء اتِّصالاتٍ خجولة بجريدة «الاتِّحاد»، وحاولتُ أن أكتب المقالات ثانيةً، إلَّا أنَّه كان من الجليّ أنَّ نصوصي لم تعد تعجب إدارة التحرير لقد فقدتُ ما حصلتُ عليه، وصارت معلوماتي شحيحة، ولم يكن لديّ الوقت الكافي للذهاب إلى متابعة بعض الأوضاع الخاصَّة وتحليلها كنت أستخدم عباراتٍ رفيعة ومتكلِّفة ومجرَّدة، كي أصرح لستُ أدري لمن، وعلى صفحات تلك الجريدة بالتحديد، عن اهتمامي بالانتقادات شديدة اللهجة بحقّ الحزب الشيوعيّ والنقابات. من الصعب أن أفسِّر اليومَ لماذا كنت مصرَّة على كتابة تلك الأمور، أو بالأصحّ لماذا كنتُ أشعر بالنزوع إلى مواقف متطرِّفة، وأنا التي كنتُ عذبة المسلك، فضلًا عن محدوديَّة مشاركتي في الحياة السياسيّة في المدينة. ربَّما فعلتُ ذلك بدافع عدم الشعور بالاطمئنان، أو ربَّما بسبب خيبتي بأيّ مظهر من مظاهر الوساطة؛ الوساطة بصفتها حيلةً كنت أربطها منذ صغري بأشغال والدي، ودهاء

تحرُّكاته، خلف كواليس بلديَّتنا الفاشلة؛ أو لعلَّ اطِّلاعي المتعمِّق على البؤس والشقاء كان يُكرِهني على عدم تجاهلهما، فكنت أريد الاصطفاف إلى جانب مَن بقي في الأسفل، وما انفكّ يناضل لتغيير كلّ شيء جذريًّا؛ أو ربَّما لم يكن لديّ اهتمام بالغ بالسياسة اليوميّة، ومطالب العمّال التي سبق وواظبتُ على الكتابة عنها؛ بل كنت لا أتمنّى سوى وقوع «حَدَثٍ جلل» ـ غالبًا ما استخدمتُ هذا التعبير ـ كي يتسنّى لي أن أعيش تفاصيله وأكتب عنها وقد يعود السبب إلى أنَّ نموذجي الوحيد ما زال ليلا ـ كنت مكرهة على الاعتراف بذلك ـ وجنونَها وعنادها؛ ليلا التي لا تقبل بأنصاف الحلول، حتى إنِّي، على الرَّغم من ابتعادي عنها بكلّ معنى الكلمة، أردتُ أن أقول وأفعل ما تصوَّرتُ أنّها ستقوله وتفعله لو سنحت لها الفرصة باستخدام أدواتي، ولو لم تسجن نفسها في نطاق الحيّ.

كففتُ عن شراء جريدة «الاتِّحاد»، وبدأتُ أقرأ «لوتّا كونتينوا/ النضال المستمرّ» و«إل مانيفستو/ البيان»، ووجدتُ توقيع نينو مرارًا على صفحات جريدة «البيان». كم كانت نصوصه موثَّقةً بالمعطيات كالعادة؛ وكم كانت مبنيَّة على منطقٍ محكم. تذكَّرتُ كيف كنت أتحادث معه حين كنت مراهقة، وشعرتُ بضرورة الانغلاق على نفسي أنا أيضًا داخل شبكة من القضايا العامَّة، متقنة الصياغة، للحيلولة دون الضياع والانفلات. حسمتُ قرارًا نهائيًا بعدم الانشغال به ثانيةً، لا من حيث الرغبة ولا من حيث الحبّ. بدا لي أنّه أصبح شكلًا للمرارة، وخلاصةً لِما قد لا أصل إليه على الرَّغم من امتلاكي الإمكانيَّاتِ المناسبةَ. كنّا قد وُلدنا في البيئة نفسها، وخرجنا منها بتألُّق. فلماذا أنجرف أنا وحدي نحو الظلمات؟ هل بسبب الزواج؟ هل بسبب الأمومة والانشغال بالطفلة؟ هل لأنِّي أُنثى، ويجدر بي الحرص على شؤون البيت والعائلة، ومسح البراز وتغيير الحفّاظات؟ كان مزاجي يتعكَّر

كلّما صادفتُ مقالًا لنينو يبدو لي مكتوبًا بعناية. وكان بييترو مَن يدفع ثمن ذلك، فهو مُحاوري الوحيد في الواقع. كنت أصبّ عليه امتعاضي، وأتّهمه بأنّه تخلّى عنّي في أبشع مرحلة من حياتي، وأنّه لم يكن يُبالي بشيء عدا نجاح مسيرته المهنيّة. أصبحت علاقتنا تزداد ضعفًا كنت أخشى ذلك وأعترف به مُكرَهة، لكنّها الحقيقة. كنت أعي أنّه مستاءٌ ممّا يلقاه من مشاكل في العمل، لكنَّ هذا التبرير لم يقنعني، بل رحتُ أمعن في انتقاده، وغالبًا ما تبنّيتُ وجهة نظر الطلبة الذين يُثقلون عليه وظيفته. كان يصغي إليّ ممتعضًا، ولا يجادلني إلّا قليلًا وكنت أخشى، في لحظاتٍ كتلك، ألّا تكون كلماته التي صفعني بها «اخرسي، ليس لديكِ سوى الجُمل الجاهزة» وليدةَ مغالاةٍ عابرة، وإنّما مؤشّرٌ على أنّه كان يعتبرني أدنى من أيّ نقاش جادّ بشكلٍ عامّ. وهذا ما كان يستفزّني، ويحبطني، ويؤلّب غيظي، ولاسيّما أنّي كنتُ على درايةٍ بتأرجحي بين مشاعر متناقضة، قد تُلخّص كما يلي، إذا جرّدناها: إنَّ عدم المساواة هو الذي يجعل الدراسة شاقّة في نظر بعضهم (أنا على سبيل المثال)، أو مسلّيةً نوعًا ما في نظر آخرين (بييترو على سبيل المثال). ومن جهة أخرى، فإنَّ الدراسة واجبة، بغضّ النظر عن عدم المساواة، وهذا جيّد، بل جيّدٌ جدًّا: أنا كنت فخورة بمسيرتي، وبالجدارة التي أثبتّها، وكنت أرفض اعتبار مجهودي بلا جدوى، أو متبلّدًا في أماكن معيّنة. لكنّي حين أناقش بييترو، كنت أقتصر على منح شكلٍ للظلم الناتج من عدم المساواة، وذلك لأسباب غامضة. كنت أقول له: تتصرَّف كما لو أنَّ طلّابك على سويّة واحدة، لكنَّ الحقيقة ليست كذلك، ومن الساديّة أن تتوقّع نتائج متساوية من طلّاب لم يحصلوا على فرص متكافئة. انتقدتُه عندما قصّ عليّ جدالًا عنيفًا حدث له مع أحد زملائه، وكان أكبر منه بعشرين عامًا على الأقلّ، وهو أحد معارف شقيقته، إذ كان يأمل أن يجد فيه حليفًا ضدّ

الطرف الأكثر تحفُّظًا في الهيئة التعليميّة. وحدث أن نصحه ذلك الأستاذ، بلهجةٍ ودِّيَّة، بأن يتَّخذ أسلوبًا أخفّ قسوةً مع الطلّاب. فردَّ عليه بييترو، بلهجته اللبقة التي تخلو، في أيِّ حال، من أنصاف المواقف، بأنّه لم يكن قاسيًا البتَّة، إنَّما متطلِّبٌ فقط. «حسنًا ـ قال له الأستاذ ـ كن أخفّ تطلُّبًا إذن، ولاسيّما مع أولئك الذين يَهِبون جزءًا كبيرًا من وقتهم في سبيل تغيير هذه الحظيرة البالية». وساءت الأمور منذ ذلك الحين، ولا أعرف كيف ساءت ولا استنادًا إلى أيّ حجّة. ادّعى بييترو، وهو مُقِلٌّ في سرد ما يحدث له بطبيعة الحال، أنّه دافع عن نفسه في البداية، مكتفيًا بالقول إنَّه معتادٌ على معاملة جميع الطلَّاب بالاحترام الذي يستحقُّونه، ثم أقرَّ بأنَّه اتَّهم زميله باستخدام معايير مختلفة: كان ليِّنًا مع أكثر الطلَّاب عدائيَّةً، وقاسيًا حتى الإذلال مع أكثر الطلَّاب ارتعادًا. امتعض الزميل من هذا الكلام، ووصلت به الحال إلى الصراخ في وجه بييترو قائلًا إنّه احترامًا لشقيقته لن يعيِّره ـ لكنَّه عيَّره عمومًا ـ بأنّه مغفَّلٌ لا يستحقّ المنصَّة التي يشغلها

«ألا يمكنك أن تكون أكثر تفهُّمًا؟»

«إنّي متفهِّمٌ أساسًا».

«لا يبدو لي ذلك».

«حسنًا، عليّ أن أقول ما أفكِّر فيه أيضًا».

«بل ربّما عليك أن تعي مَن هم أصدقاؤك ومَن هم أعداؤك».

«ليس لديّ أعداء».

«ولا حتى أصدقاء».

بالغثُ، بين كلمة وأخرى: «تبعاتُ أسلوبك هذا ـ فححتُ في وجهه ـ هي أنّ لا أحد في هذه المدينة، ولا حتى أصدقاء والديك، يدعوننا إلى عشاءٍ أو حفلةٍ أو نزهةٍ إلى الريف أبدًا»

٦٨

بات واضحًا لديَّ أنَّ الجميع في محيط عمل بييترو، كانوا يعتبرونه رجلًا مملًّا، وبعيدًا كلّ البعد عن نشاطات عائلته وحضورها الواسع، بمعنى أنَّه فردٌ عاطلٌ من أسرة آيروتا وكنت أؤيد هذا الرأي من جهتي، الأمر الذي لم يعد بالنفع على حياتنا المشتركة وعلاقتنا الحميميّة. عاد بييترو ليشاطرني السرير، بعد أن هدأت ديدي كليًّا وانتظم نومها، إلَّا أنِّي كنت أنزعج بمجرَّد أن يضطجع إلى جانبي، كنت أخشى أن أحمل مرَّة ثانية، وأتمنَّى أن يتركني لأنام. وهكذا كنت أصدّه عنِّي بلا كلمات، كان يكفي أن أُولي له ظهري، وإذا ألحَّ وضغط قضيبه على ثوبي الليليّ، كنت أرفس ساقه بكعبي، برفقٍ، كرسالةٍ أُوصلها إليه: ليس لديّ رغبة، أشعر بالنعاس. فيبتعد مكتئبًا، وينهض ويتَّجه إلى مكتبه.

تجادلنا، ذات مساء، للمرَّة المليون عن وضع كليليا. عادةً ما ينشب التوتُّر حين يأتي أوان دفع أجرتها، لكنِّي فهمتُ، في تلك المناسبة، أنَّه كان يستخدم كليليا ذريعةً. غمغم متجهِّمًا: إيلينا، علينا أن نتفحَّص علاقتنا ونتوصَّل إلى توازنٍ ما. فوافقتُ على الفور. قلت

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

له إنِّي كنت أعشق ذكاءه وحسن تربيته، وإنِّي أرى ديدي رائعة جدًّا، لكنِّي لا أريد مزيدًا من الأطفال، فالعزلة التي مُنيتُ بها لا تُطاق. أريد استعادة النشاط في حياتي، فلم أكن قد تعبتُ واجتهدتُ منذ طفولتي لينتهي بي المطاف في أداء دور الزوجة والوالدة. تناقشنا كانت نبرتي قاسية، خلافًا لنبرته اللبقة. أذعن بشأن كليليا في النهاية، ولم يعد يعترض. قرَّر أن يشتري الواقي الذكريّ، وبدأ يدعو أصدقاءه إلى العشاء - أو معارفه بالأحرى، لم يكن لديه أصدقاء - كما لم يحتجّ على ذهابي بعض المرَّات بصحبة ديدي إلى اجتماعاتٍ ومظاهراتٍ على الرَّغم من تزايد سيلان الدماء في الشوارع حينذاك.

لكنّ هذه النقلة الجديدة عقَّدت حياتي بدلاً من أن تحسِّنها كانت ديدي متعلِّقة بكليليا كثيرًا، يجتاحها الضجر إذا أخذتُها إلى الخارج، وتتوتَّر أعصابها، فتشدّ أذنيّ وشعري وأنفي، وتسأل عنها وهي تبكي. فاقتنعتُ بأنَّها تفضِّل البقاء مع الفتاة الريفيّة أكثر من الخروج معي بكثير، ما أعاد إلى ذهني ارتيابًا في أنّي قد أبدو في ذهنها مثل صورةٍ مظلمةٍ، لأنِّي لم أُرضعها حليبي، وأنّي بتُّ بالنسبة إليها امرأةً حاقدة تؤنِّبها عند كلّ كبيرة وصغيرة، وتُسيء معاملة مربِّيتها النهاريَّة جرَّاء الغيرة منها، فتلك رفيقتُها في اللَّعب وساردةُ الأقاصيص. كانت تصدُّني عنها حتى عندما أقوم بحركةٍ تلقائيَّة كأنْ أنظِّف أنفها من المخاط بالمنديل، أو أمسح بقايا الطعام عن فمها فكانت تبكي، وتقول إنِّي أُوجعها.

أمَّا بييترو، فقد أضعف الواقي الذكريّ حساسيَّته الضعيفة أساسًا، وصار يستغرق وقتًا أطول من الضروريّ بشكل عام لبلوغ الرعشة، فيعاني وجعلني أعاني. كنت أجعله بعض المرَّات، يأخذني من الخلف، كان لديَّ انطباع بأنَّ تلك الوضعيّة تخفِّف الألم الذي ينتابني. وبينما كان يرميني بضرباته العنيفة، كنت أمسك يده وأحملها إلى

عانتي، آملةً أن يفهم أنِّي أودّ أن يداعبني. لكنَّه كان عاجزًا عن أداء الحركتين في الآن ذاته، على ما يبدو، وسرعان ما يتناسى أمر الحركة الثانية لأنَّه كان يفضِّل الأولى. وبعد أن يصل مراده، لم يكن يفهم أجيج رغبتي في إمساك أيّ طرفٍ من جسمه كي أخمد به شهوتي أنا أيضًا كان يداعب شعري، بعد أن يحصل على ملذّته، ويغمغم: سأعمل قليلًا ومتى خرج من الغرفة، بدت لي الوحدةُ مواساةً وهديّة.

كنت أحيانًا أراقب الشبَّان الذكور، في المحافل، باهتمام شديد، يُلقون أنفسهم في وجه المخاطر بكلِّ إقدام، مشحونين بعنفوانٍ مبهج، حتى إذا شعروا بأنَّهم مهدَّدون أصبحوا مصدر تهديد. كنت أنجذب إليهم، وأُفتَن بشغفهم وحميَّتهم. لكنِّي كنت أعتبر نفسي بعيدةً كلِّيًّا عن الفتيات البهيَّات اللواتي يَحُمْنَ حولهم، فأنا كنت مثقَّفة جدًّا، وأضع النظَّارة الطبِّيَّة، ومتزوّجة، ووقتي ضيِّقٌ دومًا وهكذا أعود إلى البيت مكتئبة، وأُعامل زوجي بجفاء، وأشعر بأنِّي بلغتُ الشيخوخة قبل الأوان. وحَدَثَ في مرَّتين فقط أنّي حلمتُ في اليقظة بأنَّ أحد أولئك الشبَّان، وكان معروفًا ومحبوبًا جدًّا في فلورنسا، ينتبه إليّ ويأخذني بعيدًا مثلما حين كنت فتاةً تنال منِّي الحيرة فلا أرغب في الرقص، حتى يأتي أنطونيو أو باسكوالي ليسحبني من ذراعي ويجبرني على الرقص معه. لم يتحقَّق الحلم بالطبع. إنَّما واجهتُ تعقيدات بسبب معارف بييترو الذين راح يدعوهم إلى بيتنا كنت أشقى في تحضير وجبات العشاء، وأتصرَّف كالزوجة القادرة على تلطيف الأجواء، بلا تذمُّر، فأنا التي طلبتُ من زوجي أن يدعو بعض الناس. لكنِّي انتبهتُ حالًا، وبامتعاض نوعًا ما، إلى أنَّ ذلك الطقس لم يكن ينتهي عند حدّه: كنت أنجذب إلى أيّ رجلٍ يُبدي القليل من اللطف تجاهي. طويلٌ، قصير، هزيلٌ، بدين، قبيحٌ، وسيم، عجوزٌ، متزوِّج أو أعزب، لا يهمّ. إذا أشاد الضيف بإحدى ملاحظاتي؛ إذا تذكَّر روايتي بمديح

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

الكلام؛ إذا تحمَّس لذكائي، كنت أرنو إليه بإعجاب، وكانت ميولي إليه تبلغه في غضون حوار قصير من كلماتٍ أو نظرات. فيتحوَّل المللُ العامّ للرجل إلى بشاشةٍ عارمة، حتى إنّه يتجاهل بييترو كليًّا، ويضاعف انتباهه لي. كلّ كلمة يلفظها تغدو ملمِّحةً دائمًا، وتصبح الحركاتُ والتصرُّفات، خلال المحادثة، أكثرَ حميميّةً. كان يلمس، بأطراف أصابعه، كتفي أو يدي، ويركِّز عينيه في عينيّ، ويَصوغ عباراتٍ تنمّ عن لهفته، ويصدم ركبتيه بركبتيّ، ورأس حذائه برأس حذائي.

كنت أشعر بخير في لحظاتٍ كتلك، فأنسى وجود بييترو وديدي، وذيلَ الالتزامات المملَّة الذي يجرَّانه خلفهما كنت لا أخشى سوى من اللحظة التي يغادر فيها الضيف، فأقع من جديد في ظلمات البيت: أيّامٌ فارغة، كسلٌ، نقمةٌ مخفيّة بالودّ. لذا، كنت أبالغ: يدفعني الهياج إلى التكلُّم كثيرًا، وبصوت مرتفع. كنت أضع ساقًا فوق ساق، وأحرص على إبرازهما ما أمكنني، وأفكّ زرّ القميص بحركةٍ عفويَّة. وكنت أنا من يبادر إلى تقصير المسافات، كما لو أنَّ جزءًا منّي واثقٌ بأني إذا التحمتُ بذاك الغريب، بطريقةٍ ما، فإنّ بعض الشعور الجميل الذي ينتابني في تلك اللحظة سيبقى في جسدي، وأنّه إذا خرج من البيت، وحيدًا أو برفقة زوجته أو صاحبته، فإنّي سأشعر بإحباطٍ أقلّ، وفراغٍ أقلّ خلف استعراض المشاعر والأفكار، وأقلّ ما يمكن من مرارةً الفشل.

لكنّي أشعر بأنّي غبيَّة، ببساطة، وأحتقر نفسي، في ما بعد، حين أبقى وحيدة في السرير بينما بييترو يعمل. وعلى الرَّغم من الصمود الذي أبديتُه، فإنني لم أتمكَّن من تعديل ما أخطأتُ فيه. فأولئك الرجال كانوا مقتنعين بأنّهم سدّدوا ضربةً موفَّقة، وغالبًا ما يتَّصلون في اليوم التالي، ويخترعون الحجج لرؤيتي مرّة أخرى. وكنت أوافق. لكنّي أفزَع ما إن أصل إلى الموعد. لسببٍ بسيط، وهو أنّهم تحمَّسوا

للقائي على الرَّغم من أنَّهم أكبر منِّي سنًّا بثلاثين عامًا على سبيل المثال، وعلى الرَّغم من أنَّهم متزوِّجون. وهذا كان كافيًا كي يُبطِل صلاحيَّتهم، ويمحو الدور الإنقاذيّ الذي نسبتُه إليهم، ويزيل المتعة ذاتها التي انتابتني في أثناء لعبة الإغواء، فتستحيل خديعةً معيبة. وأتساءل مشتَّتة الذهن: لماذا تصرَّفتُ على ذلك النحو؟ ما الذي يحدث لي؟ فأعود إلى بذل عنايةٍ كبرى بديدي وبييترو.

ثم يعود كلّ شيء إلى حاله عند أوّل مناسبة. كنت أستسلم للوهم، وأرفع صوت الموسيقى التي تجاهلتُها في مراهقتي. لم أكن أقرأ، ولم أكن أكتب، وخصوصًا أنَّ حسرتي كانت تزداد لأنِّي، من شدَّة الانضباط الذي فرضتُه على نفسي حيال أيّ شيء، أضعتُ بهجة الجموح التي لا تتوانى النساء في عمري، من المحيط الذي أعيش فيه، عن إظهار أنَّهنَّ جرَّبن متعتها أو يجرِّبنها. مثلًا، حين كانت ماريَّاروزا تأتي إلى فلورنسا، لأسباب متعلِّقة بالأبحاث تارةً ولاجتماعاتٍ سياسيّة تارةً أخرى، كانت تنام عندنا بصحبة رجلٍ مختلفٍ عن سابقه في كلِّ مرَّة. وكانت تتعاطى المخدَّرات أحيانًا مع صديقاتها، وتُعطيها لرفاقها ولنا وإذا استاء بييترو وذهب لينعزل في غرفته، كنت أبقى معهم مفتونةً بهم، وأرفض تجريب الدخان والمهلوسات ـ كنت أخشى من أضرارها على صحَّتي ـ لكنِّي أبقى للنقاش معها ومع أصدقائها حتى ساعة متأخِّرة.

كنَّا نتحدَّث في كلِّ شيء، وغالبًا ما تتَّسم مداولاتنا بالعنف. كان لديّ انطباعٌ بأنَّ اللغة الرفيعة التي أجهدتُ نفسي للحصول عليها أصبحت خارج الاستعمال، لأنَّها جزلة ورائقة أكثر ممَّا يجب. انظري كيف تغيَّرت لغة ماريَّاروزا ـ كنت أقول لنفسي ـ. لقد حطّمت الجسور مع تربيتها، وأطلقت العنان لجموحها كانت تعابير شقيقة بييترو حينذاك أسوأ من تعابيرنا أنا وليلا في مراهقتنا لم تكن تلفظ كلمةً إلّا

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

وتُلحِقها بـ «خرائيّ»: «أين وضعتُ تلك الولّاعة الخرائيّة. أين سجائري الخرائيّة»؟ لم تكفّ ليلا أبدًا عن التحدُّث بهذه اللهجة، فماذا كان عليَّ أن أفعل؟ أن أصبح مثلها ثانيةً، أن أعود إلى نقطة البداية؟ فلماذا كنتُ قد ابتعدتُ كثيرًا؟

كنت أراقب نسيبتي. يعجبني كيف كانت تُبدي تعاطفها معي وكيف تربك شقيقها والرجال الذين تصطحبهم إلينا قطعتِ المحادثةَ بشراسة ذات مساء، وقالت للشابّ الذي يرافقها كفى، فلنذهب لنتناكح. «نتناكح». في حين أنّ بييترو كان قد ابتكر لغةً خاصّة، تناسب أطفال العائلة الشريفة، للكلمات المتعلّقة بالجنس، وقد تعلّمتُها منه، وكنت أستخدمها بدلًا من المفردات العامِّيَّة الشائنة التي عرفتُها منذ طفولتي المبكّرة. وهل كان المرء حينئذٍ مضطرًّا إلى استعادة كلمات نابية كي يشعر بأنّه يواكب العالم حقًّا، كلمات مثل: أرغب في أن تنكحني؛ أدخل قضيبك هكذا أو هكذا؟ لا يمكن لهذا أن يحدث مع زوجي، ولو بالخيال. إلّا أنَّ الرجال القلائل الذين عاشرتُهم، وكلّهم في أعلى مستويات الثقافة، كانوا يتقنّعون بتقاليد الطبقة السفلى بكلٍّ سرور، ويلهون مع نساء يتظاهرن بأنّهنَّ عاهرات، ويستمتعون في التعامل مع سيِّدة محترمة على أنَّها عاهرة. يظهرون في البدء، برسميَّةٍ ووقار، ويتمالكون أنفسهم؛ على الرَّغم من تلهُّفهم إلى إحياء تلك المناوشات التي تنتقل ممّا لا يُقال إلى ما يُقال، ليبالغوا في ما يُقال، ضمن لعبةٍ من الحرِّيَّة تُعتَبر فيها صعوبةُ المراس عند الأنثى دلالةً على سذاجة ونفاق. السفاهة والمُباشَرة، إذن: هذه كانت مزايا المرأة المتحرِّرة. وكنت أُجهد نفسي لأندمج فيها لكنّي كلَّما اندمجتُ، شعرتُ بأنِّي مفتونة بمن يحاورني. حتى بدا لي، في مناسبتين، أنّي وقعتُ في الغرام.

٦٩

حدث ذلك أوّلًا مع معيدٍ في الأدب الإغريقيّ، كان آتيًا من مقاطعتي نفسها، من مواليد مدينة آستي، هناك حيث تعيش خطيبته التي كان قد ضجر منها على حدِّ قوله. وثانيًا مع زوج إحدى المكلَّفات بتمحيص المخطوطات القديمة. كان لديهما طفلان صغيران، هي من مدينة كاتانيا، وهو من فلورنسا نفسها، وكان مهندسًا ويدرِّس الميكانيك، يُدعى ماريو، ولديه ثقافة سياسيّة واسعة، ونفوذ عامّ، شعره طويل، ويضرب في أوقات فراغه على آلة الدرامز مع فرقة تعزف موسيقى الروك، وكان أكبر منّي بسبع سنوات. تكرَّر السيناريو ذاته مع كليهما: دعاهما بييترو إلى العشاء، ورحتُ أتودَّد إليهما تلت ذلك مكالماتٌ هاتفيَّة، ومشاركاتٌ سعيدة في الاحتجاجات، وحضورُ بعض الأفلام في السينما، ونزهاتٌ عديدة، اصطحبتُ ديدي في بعضها، وأتيتُ بمفردي في بعضها الآخر. تراجعتُ عن هذه العلاقة مع المعيد حالما أصبح صريحًا أمّا ماريو فجرَّني إلى شَركٍ يضيق عليّ أكثر فأكثر، وقبَّلني ذات مساء في سيّارته، قبَّلني طويلًا، وداعب نهديّ من فوق حمّالة الصدر. أبعدتُه عنّي بشقّ الأنفس، وقلت إنّي لم أعد أريد

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

رؤيته. لكنَّه اتَّصل بي، وكرَّر اتِّصالاته، فاشتقتُ إليه وأذعنتُ. وكان واثقًا بأنَّه صاحب حقّ، ما دام قبَّلني وطبطب على جسدي، وسرعان ما استأنف معي من النقطة التي توقَّفنا عندها كان يصرّ عليّ، ويقترح، ويطالب. وحين كنت أهيِّجه من جانب، ثم أصدّه من الآخر، كان يغتاظ منِّي ويسعى إلى إغاظتي.

كنت أتمشّى معه، ذات صباح، وقد اصطحبتُ ديدي التي لم تتجاوز العامين من عمرها حينذاك، على ما أذكر، وكانت مسحورةً بدميتها الغالية على قلبها تاس، ابتكرت هذا الاسم بنفسها للدمية. لم أكن أعيرها انتباهًا في تلك المناسبات، لانشغالي التامّ بألاعيب الغزل، وأحيانًا كنت أنسى وجودها كلِّيًّا ولم يكن ماريو يعطي أيّ اعتبار لحضور الطفلة. كان لا يحرص إلَّا على الانقضاض عليّ بنقاشاتٍ تحطِّم التابوهات، ولم يكن يلتفت إلى ديدي إلَّا ليهمس في أذنها، بأسلوب ممازح، أشياء من هذا القبيل: «أرجوكِ، هلَّا قلتِ لأمّكِ أن تكون طيِّبةً معي؟» طار الوقت وافترقنا وسلكتُ أنا وديدي طريق العودة إلى البيت. وما هي إلَّا بضع خطوات، حتى احتجّت الطفلة بنبرة حادَّة: «تاس قالت لي إنَّها ستخبر بابا سرًّا». تلقَّيتُ صعقةً على قلبي. «تاس؟» «أجل». «وبم ستخبر بابا»؟ «تاس وحدها تعلم». «وهل ستخبره بشيء جميل أم قبيح»؟ «شيء قبيح». هدَّدتُها «قولي لتاس، إذا أخبرتْ بابا بهذا الشيء، فإنَّكِ ستقفلين عليها باب مخزن المهملات، وستبقى في جنح الظلام». انفجرتْ ديدي باكيةً، ما اضطرّني إلى حملها بين ذراعيّ، مع أنَّها كانت تمشي وتتظاهر بعدم التعب كي تُرضيني. كانت ديدي تعي الأمر إذن، أو تشعر على الأقلّ بأنّ أباها لم يكن ليغفر ما يجري بيني وبين ذلك الرجل.

قطعتُ اللقاءات مع ماريو مجدَّدًا مَن هو في النهاية؟ مجرَّد

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

برجوازيّ مهووس بشنائع الزنا لكنَّ اضطرابي لم يتوقَّف عند حدّه، بل ألهب في داخلي الجموحَ نحو خرق المحرَّمات؛ أردتُ أن أطيش مثلما كان العالم كلّه يطيش. وددتُ أن أخرج ولو لمرَّة واحدة من الزواج، أو من كلّ شيء في حياتي، لِمَ لا من كلّ شيء تعلَّمتُه؛ من كلّ شيء كتبتُه؛ من كلّ شيء كنت أحاول كتابته؛ من الطفلة التي أنجبتُها إلى هذه الحياة. آهٍ، حقًّا، الزواج سجن: ليلا، الشجاعة، هربت من هذا السجن، على الرَّغم من الخطر الذي أحاق بحياتها أمّا أنا، فأيّ خطرٍ أواجهه مع بييترو، السارحِ دومًا، والغائب دومًا؟ لا خطر فماذا أنتظر إذن؟ اتّصلتُ بماريو تركتُ ديدي في عهدة كليليا، وذهبتُ للقائه في مكتبه. تبادلنا القُبلات، مصّ حلمتيّ، تلمَّس ما بين فخذيّ كما كان يفعل أنطونيو منذ زمانٍ خلا عند المستنقعات. ولكن، حين أخفض بنطاله، وبات سرواله عند ركبتيه، وأمسك رقبتي، محاولًا أن يحنيني إلى مستوى قضيبه، تبرَّمتُ، ورفضتُ، رتَّبتُ مظهري، وهربتُ.

عدتُ إلى البيت مهتاجةً إلى أبعد الحدود، ملء ضميري ندمٌ وشعورٌ بالذنب. ومارستُ الحبّ مع بييترو بأوسع ما في الهوى من شهوات. لم أكن قد مارستُ بكلّ هذا اللظى من قبل، وكنتُ أنا مَن دعا بييترو إلى عدم وضع الواقي. ممَّ أخاف، قلت في سرّي، إنّي مقبلة على الدورة الشهريّة، لن يحدث شيء. فحدث ما كنت أخشاه. اكتشفتُ، في غضون عدّة أسابيع، أنّي حامل مرّة أخرى.

٧٠

كان النقاش بشأن فكرة الإجهاض، مع بييترو، أمرًا مستحيلًا؛ إذ كان يُسعده كثيرًا بأن أنجب له مولودًا آخر وكنت، من جهتي أيضًا، أخشى تلك التجربة. كانت كلمة الإجهاض بحدّ ذاتها تسبِّب لي ألمًا في البطن. حدثتني حماتي عن الإجهاض، خلال إحدى المكالمات الهاتفية، وسرعان ما تملَّصتُ من الموضوع بسرد عبارات عامَّة مثل: ديدي تحتاج إلى رفيق، من الظلم أن تكبر وحيدةً، ومن الأفضل أن نمنحها شقيقًا أو شقيقة.

«وماذا عن الكتاب؟»

«قطعتُ فيه شوطًا كبيرًا»، كذبتُ.

«هل سترسلينه إليّ حال إنجازه؟»

«بالتأكيد».

«نحن جميعًا في الانتظار».

«أعرف».

كنتُ مرتعدة، فأقدمتُ تلقائيًا على خطوةٍ أذهلت بييترو كثيرًا،

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

وأذهلتني أنا أيضًا اتَّصلتُ بأمّي، وقلت لها إنّي أنتظر مولودًا جديدًا، وطلبتُ منها أن تأتي إلى فلورنسا للبقاء بعض الوقت. غمغمت بأنّها لا تستطيع، وعليها أن تعتني بشؤون والدي وإخوتي. فصرختُ فيها «هذا يعني أنّي بسببكِ لن أعود إلى الكتابة». «وما شأني أنا إن كتبتِ أم لم تكتبي»، أجابت «ألا تكفيكِ حياة الأكابر التي تعيشين فيها»؟ وأغلقتِ السمّاعة. لكنّ إيليزا اتَّصلت بعد خمس دقائق: «سأتكفَّل أنا بشؤون المنزل»، قالت، «أمّي ستأتيكِ غدًا»

ذهب بييترو بالسيّارة لاستقبال والدتي في المحطّة، الأمر الذي أشعرها بالاعتزاز، وأحسَّت بأنَّها محبوبة. وما إن وطأت قدمها المنزل، حتى أمليتُ عليها جملةً من القواعد: لا تغيِّري ترتيب غرفتي أو غرفة بييترو؛ لا تدلِّلي ديدي؛ لا تتدخَّلي قطعًا بيني وبين زوجي؛ راقبي كليليا من دون أن تدخلي في نزاع معها؛ اعتبريني غريبةً لا يجب إزعاجها تحت أيّ مبرِّر؛ ابقي في المطبخ أو في غرفتكِ إن جاءني ضيوف. كنت شبه واثقة بأنّها لن تحترم أيًّا من هذه القواعد، فإذا هي ـ كأنّ خشيتها من أن تكون مستبعَدة غيَّرت طبيعتها ـ تحوَّلت في غضون أيّام إلى خادمةٍ مطيعة تعتني بكلّ ضرورات البيت، وتحلّ أيّ مشكلة بدقَّة وجدارة، من دون أن تسبِّب حرجًا لي أو لبييترو.

كانت تذهب إلى نابولي بين الحين والآخر، فيُشعرني غيابها بأنّي عرضة للفوضى، وكنت أخاف ألّا تعود، لكنَّها كانت تعود دومًا كانت تقصّ عليّ مستجدّات الحيّ (كارمن حبلى؛ ماريزا وضعتْ ذكرًا؛ جيليولا توشك على إنجاب ابنًا ثانيًا لميكيلي سولارا)، وتتحفَّظ عن ذكر ليلا تجنُّبًا للمشاكل. ثم تصبح ما يشبه الروح للمنزل؛ روحًا خفيّة تؤمِّن ملابس نظيفة ومكويَّة للجميع، ووجباتٍ شهيّة تذكِّرني بنكهات الطفولة، وبيتًا دائم اللمعان، وترتيبًا متَّشحًا بهوس الدقَّة لا يسمح لأيٍّ

تغيير طفيف بأن يدوم طويلًا فكَّر بييترو جيّدًا في محاولة التخلُّص من كليليا ثانيةً، وانحازت أمّه إلى جانبه. فغضبتُ، وبدلاً من أن أتراشق مع زوجي، استشاط غيظي على أمّي، وسرعان ما انزوت في غرفتها من دون أن تردّ. أنَّبني بييترو وبذل ما في وسعه كي يصالح بيننا، فتصالحنا على الفور. كان يودّها كثيرًا، ويقول إنَّها امرأة ذكيَّة، ويبقى معها في المطبخ غالبًا، يثرثران بعد العشاء. كانت ديدي تناديها «جدَّتي»، وتعلَّقت بها إلى درجة أنَّها تتضايق كلَّما ظهرت كليليا والآن، قلت لنفسي، كلّ شيء على ما يرام، ليس لديكِ أيّ عذر.

أعدتُ تفحّص الملاحظات. واقتنعتُ جدِّيًا بأنَّه يجدر بي سلوك درب آخر. أردتُ أن أضع خلف ظهري ما سمَّاه فرانكو «قصَّة حبٍّ مبتذلة»، لأكتب شيئًا يتلاءم مع زمن الاحتجاجات في الساحات، والجرائم المروِّعة، والقمع الأمنيّ، والمخاوف من انقلابٍ على الدولة. فلم أتمكَّن من ملء أكثر من عشر صفحات صغيرة وتافهة. ما الذي ينقصني، إذن؟ من الصعب معرفة ذلك. نابولي، ربّما؛ أو الحيّ؛ أو صورة خياليَّة كتلك التي قرأتُها في «الساحرة الزرقاء»؛ أو ولعٌ ما؛ أو صوتٌ أمنحه كلّ الصلاحيَّة كي يرشد طريقي. كنت أبقى خلف المنضدة ساعات بلا جدوى، أقلِّب الروايات، ولا أخرج من غرفتي أبدًا خوفًا من أن تأسرني ديدي. كم كنت تعيسة. كنت أسمع صوت الطفلة في الممرّ، وصوت كليليا، وخطوة والدتي العرجاء. أرفع التنُّورة، وأنظر إلى بطني التي بدأت بالانتفاخ لتنشر في أنحاء الجسد شعورًا بالاسترخاء لا أرغب فيه. كنتُ ممتلئةً للمرّة الثانية، وفارغةً في الآن ذاته.

٧١

وهكذا عدتُ إلى الاتِّصال بليلا، ليس بشكل متفرِّق كما حدث حتى تلك اللحظة، بل كلّ يوم تقريبًا كنت أنفق الكثير من المال على تلك الاتِّصالات الخارجيَّة، لا لشيء سوى لأقبع في ظلِّها، وأتناسى مضيّ فترة الحمل، آملةً أن تطلق العنان لمخيِّلتي، كما اعتدنا منذ زمن بعيد. وكنت أحرص بالطبع على عدم التفوُّه بكلمات نابية أو خاطئة، راجيةً ألَّا أسمع منها أشياء كهذه أيضًا وبتُّ على يقين من أنَّ استثمار صداقتنا كان ممكنًا، شرط أن تصون كلٌّ منّا لسانها فمثلًا، لم يكن في استطاعتي أن أعترف لها بأنّ جزءًا مظلمًا منِّي خشي حقًّا من قدرتها على افتعال لعنةٍ عن بعد، وأنّ ذلك الجزء نفسه كان ولا يزال يتمنَّى أن تمرض بالفعل وتموت. ومثلًا، لم يكن في استطاعتها أن تفصح عن الأسباب الحقيقيَّة الكامنة وراء تلك النبرة الفظَّة، والمهينة في أغلب الأحيان، والتي تستعملها معي. لذا، اقتصرنا على الحديث عن جينّارو، وأنّه كان من بين الأوائل في الابتدائيّة، وعن ديدي، وأنّها تتعلّم القراءة. وكانت كلٌّ منّا تمثِّل دور الأمّ وقواعده الطبيعيّة من افتخار الأمَّهات بأبنائهم؛ أو كنت أُشير خلال حديثي معها إلى

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

محاولات الكتابة، ولكن من دون تهويل للأمور، فأكتفي بالقول: إنّي أعمل، ليس عملًا سهلًا، فالحمل يثقل عليّ بعض الشيء؛ أو أحاول أن أفهم إذا ما زال ميكيلي يحوم حولها، ليحاصرها بطريقة ما ويستحوذ عليها. وكنت أحيانًا أجرِّب أن أسألها عن رأيها في بعض ممثِّلي السينما والتلفزيون، وأحضّها على البوح إن أعجبها رجال آخرون غير إنتسو، وأصارحها بأنّي أنا أيضًا أُعجبت برجال آخرين غير بييترو. لكنّ هذا الموضوع الأخير بدا أنَّه ليس من بين اهتماماتها وكانت تقول عن الممثِّلين في معظم الأحيان: مَن هو، لم أَرَه أبدًا في السينما ولا التلفاز. وما كنت ألفظ اسم إنتسو إلّا وقطعت كلامي لتحدِّثني عن آخر الأخبار عن قصَّة الحواسيب، وتذهلني بمفرداتٍ أجدها عصيّةً على الإدراك.

كانت أحاديثها حماسيّة، وكنت أفترض أنَّها ستستطيع أن تعود إليَّ بأفكار مفيدة في المستقبل، وكنت أسجِّل الملاحظات بينما تتكلَّم. فعلها إنتسو إذن، ووجد عملًا في مصنع صغير للملابس المنزليّة، على بُعد خمسين كيلومترًا من نابولي. استأجرت المؤسّسةُ آلةً من شركة IBM واستلم إنتسو برمجتها «هل تعلمين ما طبيعة عمله؟ إنتسو يسجِّل الصياغات الثابتة للأعمال اليدويَّة ويحوِّلها إلى جداول بيانيّة تحدِّد سير المعلومات. الوحدة المركزيَّة للآلة كبيرة بحجم خزانة بثلاث درفات، وسعة الذاكرة ٨ كيلوبايت. لو تعلمين أيّ سخونة يصدرها الحاسوب يا لينو، ليس في وسعك أن تتخيَّلي، الحاسوب أكثر سخونةً من الموقد. تجريدٌ إلى أبعد الحدود، إضافةً إلى رائحة كريهة وعرق متصبِّب». كانت تحدِّثني عن ذرّات مغناطيسيّات الفريت، بوصفها حلقاتٍ يجتازها سلكٌ إلكترونيّ يدور بفضل توتّره، الصفر أو الواحد، والحلقة تعادل وحدة القياس بت، في نظام العدّ الثنائيّ، ومجموع ثمانية بت معًا يكوّن وحدة البايت، ويُسمّى الرمز. كان إنتسو الشخصيَّة

مكتبة الرمحي أحمد telegram @ktabpdf

الرئيسة في حكاياتها المَهولة؛ يهيمن كالربّ على كلّ تلك الموادّ، ويعالج مسمّياتها ومضامينها داخل قاعة كبيرة مزوَّدة بناظماتِ إشارةٍ عملاقة. كان بطلًا يأمر الآلة بأن تقوم بكلّ ما يفعله البشر «واضح؟» تسألني بين الحين والآخر، فأجيب بـ«نعم»، على مضض، من دون أن أفهم عمّا تتحدّث. وكنت أشعر بأنّها انتبهت إلى أنّي لم أُدرك شيئًا، فخجلتُ من هذا

كانت حماستها تزداد لهيبًا من مكالمة إلى أخرى. صار إنتسو يتقاضى راتبًا بقيمة مئة وثمانية وأربعين ألف ليرة في الشهر، بالضبط. مئة وثمانية وأربعون ألفًا، لأنّه بارع للغاية، أذكى رجل التقته في حياتها كفؤ للغاية، متيقّظ للغاية، حتى بات وجوده أساسيًّا في العمل، وقد وجد طريقة ليوظّفها معه كمساعِدة. ها هو الخبر الجديد إذن: ليلا تعمل مجدَّدًا، والعمل يروق لها هذه المرَّة. «هو المدير، وأنا نائبة المدير. أُودِع جينّارو عند أمّي ـ وأحيانًا عند ستيفانو ـ وأذهب إلى المصنع كلّ صباح. أنا وإنتسو ندرس تفاصيل المؤسَّسة نقطةً نقطةً. نفعل ما يفعله الموظَّفون، وذلك كي نفهم جيِّدًا ما الذي علينا تخزينه في الحاسوب. نرصد التحرُّكات الاقتصاديَّة والماليَّة للمؤسَّسة، مثلًا، ونُلصِق شعارها على الفواتير، ونتحقَّق من كُتَيِّبات المتمرِّنين وملفَّات الدوام، ثم نحوِّل كلّ شيء إلى جداول بيانيّة وثقوبٍ في الشرائح. أجل، أجل، أعمل في مجال التثقيب أيضًا، إضافةً إلى ثلاث نساء، وأتقاضى عن كلّ هذه الأتعاب ثمانين ألف ليرة. مئة وثمانية وأربعون ألفًا زائدًا ثمانين ألفًا، يساوي مئتين وثمانية وعشرين ألفًا، يا لينو. أنا وإنتسو ثريّان، وستتحسَّن أوضاعنا خلال عدّة شهور، لأنّ صاحب المؤسَّسة فطن إلى جدارتي ورغب في أن يُدخلني دورةً تعليميّة. أترين ما أجمل حياتي، هل أنتِ سعيدة من أجلي؟»

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

٧٢

بادرت ليلا إلى الاتِّصال، ذات مساء. قالت إنَّ خبرًا سيِّئًا وردها للتوّ: لقد قُتِل داريو، التلميذ الذي حدَّثتني عنه في ما مضى؛ الفتى الموفَد من الهيئة لتوزيع المناشير قُبالة مصنع سوكافو. قُتِل ضربًا بالهراوة، في أثناء خروجه من المدرسة تمامًا، في ساحة يسوع.

بدت لي مضطربة جدًّا راحت تحدِّثني عن الجوّ المتأزِّم الذي يهيمن بظلاله السوداء على الحيّ والمدينة بأسرها عُدوانٌ يليه عُدوان. قالت إنَّ خلف الكثير من تلك المشاجرات، يقف الفاشيُّون أصحاب جينو، وخلف جينو يقف ميكيلي سولارا وفي لفظها هذين الاسمين، شُحِن صوتها بنقمة قديمة ممزوجة بغضبٍ حديث، كما لو أنَّها تُخفي في كلامها ما هو أفظع. ففكَّرتُ: ما الذي يجعلها واثقة بمسؤوليَّتيهما عن الجريمة؟ لعلَّها حافظت على صِلاتها بالهيئة في شارع المحاكم، وربَّما لا تمضي كامل وقتها في حواسيب إنتسو فقط. أصغيتُ إليها من دون أن أقاطعها، وهي تقصّ عليَّ بأسلوبها المشوِّق كالعادة. روت لي، بكثير من التفاصيل، عن الحملات التي يشنُّها الرفاق الفاشيُّون، الموفَدون من فرع مدينة ميسينا، قبالة المدرسة الابتدائيّة، وكيف

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

يتمدَّدون حتى شارع ريتيفيلو، وساحة البلديَّة، صعودًا إلى رابية فوميرو. كانوا يهاجمون الشيوعيّين بالبلطات والسكاكين. حتى إنَّهم اعتدوا على باسكوالي مرَّتين، وحطَّموا أسنانه الأماميّة. وإنتسو، ذات مساء، وصلت به المشاحنةُ مع جينو شخصيًّا إلى حدّ القتال بالأيدي، عند بوَّابة البناية.

ثم توقَّفتْ عن سردها بغتةً، وغيَّرتْ نبرتها سألتني: أتذكرين أجواء طفولتنا؟ الأجواء أسوأ الآن، أو مشابهة على الأقلّ. ذكرتْ حماها، الدون آخيل كارّاتشي، المرابي الفاشيّ، وبيلوزو النجَّار الشيوعيّ، والحرب التي وقعت على مرأى أعيننا تمامًا رحنا، أنا وهي، ننزلق شيئًا فشيئًا في تلك الأزمان، فإذا ذكرتُ تفصيلًا، ذكرتْ ليلا تفصيلًا آخر، إلى أن زادت في وتيرة موهبتها التخيّليّة وباشرت في الحديث عن مصرع الدون آخيل كما كانت تفعل في صغرها، بتفاصيل واقعيّة وأخرى متخيَّلة: طعنة السكِّين على عنقه، نزفٌ بطيءٌ للدماء التي لطَّخت قِدْر النحاس. استبعدتْ، كما هي الحال دومًا، أن يكون النجَّار قاتلَه. قالت، باقتناع ناضج: لطالما ارتضت العدالةُ، في تلك الآونة، وفي أيَّامنا هذه أيضًا، بأكثر الدروب بديهيَّةً، الدرب الذي يُفضي إلى الشيوعيّ. ثم هتفت: ولكن من يؤكِّد ضلوع والد باسكوالي وكارمن في هذه الجريمة؟ ومن قال إنَّ المجرم رجل وليس امرأة؟ كنتُ أتبعها خطوةً خطوة، كما كنّا في الطفولة نلعب لعبة وتكمِّل فيها الواحدةُ الأخرى، فأرفع هياج صوتي فوق صوتها؛ حتى تولَّد لديَّ انطباع بأنَّنا معًا ـ نحن المراهقتين في الماضي والناضجتين حينذاك ـ نتوصَّل إلى حقيقةٍ ظلّ مُعتَّمًا عليها طوال عقدين من الزمن. «فكِّري في هذا الاحتمال قليلًا»، قالت لي، «مَن المستفيد الحقيقيّ من تلك الجريمة؟ سُوق الربا، التي كان الدون آخيل مهيمنًا عليها، آلت

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

لمصلحة مَن؟» حقًّا، مَن؟ وجدنا الإجابة في اللحظة ذاتها: إنَّها المرأة صاحبة الكتاب الأحمر، مانويلا سولارا، والدة مارتشيلو وميكيلي. هي التي قتلت الدون آخيل، هتفنا بالتزامن؛ ثم خفضنا صوتينا، أنا أوَّلًا، وغمغمنا بنبرة تعيسة: ما هذا الهراء الذي نتفوَّه به، كفى، نحن ما زلنا طفلتين، لن نكبر أبدًا.

٧٣

بدت لي اللحظة رائعة أخيرًا، فقد استعدنا الانسجام القديم بعد فترة انقطاع طويلة. إلا أنَّ الانسجام هذه المرَّة كان محدودًا بتواصل الأنفاس المذبذبة على خطوط الهاتف. لم نكن قد التقينا منذ زمن. لم ترَ شكلي بعد حَملين، ومن جهتي، لم أكن أعرف إذا ظلّت شاحبة الوجه، نحيلة العود، أم أنَّها تغيَّرت. كنت أتحدَّث منذ بضع سنوات مع صورةٍ ذهنيَّةٍ يُزيل عنها الصوتُ غبارَ النسيان بوهنٍ شديد. وربّما لأجل هذا السبب، بدا لي مقتل الدون آخيل، فجأة، عبارةً عن خيال، أو لبّ حكايةٍ ممكنة. فما إن أغلقتُ السمّاعة حتى جرَّبتُ أن أرتِّب ما جاء في مكالمتنا، وذلك بإعادة تركيب المقاطع التي ساقتني ليلا على أساسها، بخلط الماضي بالحاضر، من مصرع داريو المسكين إلى مقتل ذاك المرابي، وصولًا إلى مانويلا سولارا لم أَنَمْ إلَّا بشقِّ الأنفس، وأنا ألهج بتلك الفكرة طويلًا وشعرتُ طوال الوقت بأنَّ تلك المادَّة صالحة لتكون ضفَّةً أنطلق منها كي أمسك بتلابيب قصَّةٍ ما ومزجتُ فلورنسا پناپولي في الأيَّام اللاحقة، وهواجس الحاضر بالأصداء البعيدة، والبحبوحةَ التي كنتُ فيها بالكدّ الذي انتهجتُه كي ألوذ بجلدي

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

من أصولي، والقلقَ الدائم بخسارة كلّ شيء وسحر العودة إلى تلك الأيَّام الصعبة. ومن فرط التمعُّن في القصَّة، اقتنعتُ بأنَّ في استطاعتي تحويلها إلى كتاب، فملأتُ دفترًا كاملًا، بمشقَّة، في إثر تحليلات مستمرَّة ومضنية، وذلك ببناء حبكةٍ من أحداث عنيفة تجمع بين الأعوام العشرين الأخيرة. وكانت ليلا تتصل بعض الأحيان، وتسأل:

«ما الذي جرى ومنعكِ من الاتِّصال بي مثل السابق، هل أنتِ بخير؟»

«في أحسن حال، إنّي أكتب».

«وعندما تكتبين، أختفي من حياتكِ؟»

«بل أنتِ موجودة، سوى أنّي لا أريد الانشغال عمّا أفعل».

«وإن تعرَّضتُ لشيء ما واحتجتُ إليكِ؟»

«تتَّصلين بي».

«وإن لم أتَّصل، فهل تبقين أنتِ منكبّة على روايتكِ؟»

«أجل».

«كم أحسدكِ، هنيئًا لكِ».

كان العملُ يرافقه قلق متصاعد من احتمال عدم إنجاز الرواية قبل موعد الولادة، وخشيتُ أن أموت من كثرة التعب، فيبقى الكتاب غير مكتمل. كان عملًا قاسيًا، لا يشبه حالة الهذيان التي رافقت روايتي الأولى إطلاقًا وما إن كتبتُ القصَّة على المسوّدة، حتى انكببتُ على منح النصّ مسلكًا تأمُّليًّا أردتُ كتابةً هائجة، حديثة، فوضويّة بشكل مدروس، ولم أدّخر لهذا جهدًا ثم عملتُ على تحريرٍ ثانٍ أكثر إتقانًا وعدتُ إلى العمل على كلّ سطر مرارًا، بفضل الآلة الكاتبة «ليتيرا ٣٢» التي اشتريتُها في فترة الحمل بديدي. وحوّلت، بفضل ورق الكربون،

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

الدفاترَ إلى مخطوط منضّد دسم بثلاث نسخ، يتكون من مئتي صفحة تقريبًا، تخلو من أيّ خطأ مطبعيّ.

كان الفصل صيفًا والطقسُ حارًّا جدًّا، وبات بطني ضخمًا. وقد عاد ألم عضلات الإلية إلى الظهور مجدّدًا منذ مدّة، يروح ويغدو، بينما تضرب خطوات أمّي العرجاء أعصابي كلّما مشت في الممرّ. حدّقتُ إلى الأوراق، فاكتشفتُ أنّي أخاف منها. ولم أتمكّن من اتّخاذ القرار لأيّام، وكنت أتوتّر كلّما فكّرتُ في إعطاء النصّ لبييترو. فكّرتُ في أنّه قد ينبغي لي إرساله إلى آديلي مباشرةً، فهو ليس بخير ناصحٍ لحكاية من ذاك النوع. ثم إنّه، بالعناد الذي تميّز به، ما زال يجعل حياته أكثر صعوبة في الكلّيّة، ويعود إلى البيت منهَكَ الأعصاب، ولا يلتفت إليّ إلّا ليلقي خطبةً مجرّدة عن المشروعيّة. في المحصّلة، لم يكن في مزاجٍ يسمح له بقراءة رواية تغصُّ بالعمّال وأرباب العمل والكفاح والدماء ورجالات المافيا والمرابين. فضلًا عن أنّها «روايتي» على وجه الخصوص. كان يضعني في منأًى عن الفوضى التي يعيش فيها، ولم يهتمّ يومًا بما كنتُه وما أصبحتُ عليه، فما معنى أن أعطيه الكتاب؟ قد يكتفي بالنقاش في بعض الخيارات اللفظيّة، وعلامات الترقيم أيضًا، وإن ألححتُ عليه ليعطي رأيًا فسيقول أشياءً عامّة. أرسلتُ نسخة عن المخطوط إلى آديلي، واتّصلتُ بها

«لقد انتهيت».

«كم أنا سعيدة. هل تسمحين لي بقراءته؟»

«لقد أرسلتُه إليكِ هذا الصباح».

«أحسنتِ. كم أنا متلهّفة إلى قراءته».

٧٤

سلَّمتُ نفسي للانتظار؛ انتظارٍ غدا أشدّ قلقًا من انتظار ذلك الجنين الذي يركل بطني من الداخل. مرَّت خمسة أيّام، يومًا في إثر يوم، ولمّا تتَّصلْ بي آديلي. في اليوم السادس، عند العشاء، وبينما كانت ديدي تتعنّى في تناول الطعام بمفردها كي لا تؤسفني، وكانت جدَّتها ترمقها متلهِّفةً إلى مساعدتها، سألني بييترو:

«هل أنهيتِ كتابكِ؟»

«أجل».

«ولماذا أعطيتِه لأمّي كي تقرأه، وليس لي؟»

«لأنَّك مشغول، ولم أشأ إزعاجك. ولكن، إن أردتَ قراءته، ثمّة نسخة منه على منضدتي».

انتظرتُ ردًّا منه، ولم يصل. فسألته:

«هل أخبرتك آديلي بأنّي أرسلتُه إليها؟»

«ومن تتوقَّعين أنَّه أخبرني؟»

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

«وهل انتهت من قراءته؟»

«أجل».

«وما رأيها؟»

«ستخبركِ بنفسها، هذا الأمر يخصّكما».

انزعج ممّا فعلتُ. نقلتُ المخطوط بعد العشاء، من منضدتي إلى منضدته، ونوّمتُ ديدي، وشاهدتُ التلفاز بلا تركيز، ثم خلدتُ إلى النوم. لم تغمض لي عين: لماذا تحدَّثت آديلي بشأن الكتاب مع بييترو، ولم تتصل بي بعد؟ في اليوم التالي ـ ٣٠ يوليو ١٩٧٣ ـ ذهبتُ لأرى إذا كان زوجي قد بدأ القراءة؛ فوجدتُ المخطوط وقد تراكمت عليه الكتب التي عمل عليها طوال جزء كبير من الليل، ومن البديهيّ أنّه لم يكلِّف نفسه بتصفُّحه. ثارت أعصابي، صرختُ على كليليا بأن تهتمَّ بديدي، وألّا تظلّ مكتوفة اليدين لتترك العبء كلّه على كاهل والدتي. كنت قاسية معها، فتلقَّفت أمّي ذلك دلالةً على المودَّة. لمستْ بطني كأنّها تهدِّئ روعي، وسألتني:

«إن جاءتك بنتٌ أخرى، فماذا تسمِّينها؟»

كان رأسي يلهج بشيء آخر، وساقي عادت تؤلمني، فأجبتُ دونما تفكير

«إيلسا».

تجهَّم وجهها، ففهمتُ أنَّها كانت تتوقَّع أن أُجيبها: أطلقنا على البنت الأولى اسم والدة بييترو، وإن جاءتنا بنتٌ أخرى فسنعطيها اسمك. حاولتُ أن أبرِّر موقفي، بلهجة باهتة: أُمَّاه، حاولي أن تفهميني، اسمكِ إيمّاكولاتا، وليس في إمكاني أن أعطي ابنتي اسمًا كهذا، لا يعجبني. غمغمتْ: ولماذا؟ هل إيلسا أجمل؟ أجبتُها: إيلسا

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

قريبٌ من إيليزا، سأعطي ابنتي اسمًا شبيهًا باسم أختي، عليكِ أن تكوني مسرورة. لم تعد توجِّه إليَّ الكلام. آهٍ، كم كنتُ مَلولةً من كلّ شيء. كانت حرارة الطقس تزداد سعيرًا، وأنا أتصبَّب عرقًا، ولم أكن أحتمل بطني الثقيل. لم أكن أحتمل أنّي أعرج. لم أكن أحتمل شيئًا، أبدًا، أبدًا.

اتَّصلت آديلي، أخيرًا، قُبيل ساعة الغداء. كان صوتها يفتقد رنينه الساحر المعتاد. كلَّمتني ببطء وتمهُّل، شعرتُ بأنَّ كلّ كلمة تلفظها تكلِّفها جهدًا، قالت ـ بمناورةٍ طويلة من كلامها المهذَّب ـ إنّ الكتاب لم يكن جيّدًا. وما إن حاولتُ أن أدافع عن النصّ، حتى كفّت عن البحث عن عبارات لا تجرحني، وصارحتني. بطلة الرواية غليظة القلب. والشخصيّات هزيلة جدًّا المشاهد مطروقة والحوارات كذلك. ولئن بدا أسلوب الكتابة يصبو إلى الحداثة، فإنّه كان عشوائيًّا ليس إلّا كلّ ذلك الحقد يبدو مقيتًا. النهاية فظّة، تبدو كأفلام الوسترن على الطريقة الإيطاليّة، وقد يؤثِّر سلبًا في سمعة ذكائي وثقافتي وموهبتي. استسلمتُ للصمت، وأصغيتُ إلى انتقاداتها حتى النهاية. وختمت قائلةً: الرواية السابقة كانت حيويّة، وحديثةً جدًّا، أمّا هذه فمضمونها قديم، ومكتوبةٌ بطريقةٍ فيها من الادِّعاء ما يجعل كلّ الكلمات تبدو فارغة. فقلتُ ببطء: ربَّما دار النشر ستكون أكثر تعاطفًا. اغتاظتْ وردَّتْ: إن أردتِ، أرسليها إليهم، لكنّي أكاد أجزم بأنَّهم سيرونها غير صالحة للنشر لم أجد ما أقوله فغمغمتُ: حسنًا، سأفكِّر في الأمر، وداعًا. لكنَّها لم تتركني أغلق الخطّ، وسرعان ما غيَّرت الموضوع، وراحت تتكلَّم بنبرة ودودة على ديدي، وأمِّي، وحَمْلي، وماريّاروزا التي تُغضبها كثيرًا. ثم سألتني:

«لماذا لم تعطي الرواية لبييترو؟»

مكتبة الرمحي أحمد telegram @ktabpdf

«لا أدري».

«كان في وسعه أن ينصحك».

«أشكّ في ذلك»

«ألا تعتبرين رأيه محلَّ ثقة؟»

«لا».

أغلقتُ على نفسي باب غرفتي بعد ذلك، وشعرتُ بالإحباط. كم كانت مكالمة مُهينة، لم أتمكَّن من أن أغفر لها. أكلتُ القليل من الطعام، وغفوتُ والنافذة مغلقة على الرَّغم من الحرارة المرتفعة. شعرتُ بأوَّل آلام المخاض، في الرابعة عصرًا أخفيتُ الأمر عن أمِّي، أخذتُ الحقيبة التي حزمتُها منذ مدَّة، ركبتُ السيَّارة وقدتُها حتى المستوصف، آملة أن أموت في الطريق، أنا والمولود. لكنَّ كلّ شيء جرى على ما يرام. كادت الأوجاع تمزِّقني، وضعتُ أنثى أخرى خلال ساعات قصيرة. وراح بييترو، منذ صباح اليوم التالي، يحاجّ كي نسمِّي البنت على اسم أمِّي. كان يبدو له تكريمًا لا بدّ منه. كان مزاجي كدرًا، فكرَّرتُ على مسمعه أنِّي سئمتُ من اتِّباع التقاليد، وشدّدتُ على أن نسمِّيها إيلسا اتَّصلتُ بليلا حالما عدتُ إلى البيت. لم أقل لها إنّي وضعتُ للتوّ، سألتُها إن كان في وسعي أن أرسل الرواية إليها.

سمعتُ زفيرها الخفيف بضع ثوانٍ، ثمّ غمغمت:

«سأقرأها حين تصدر».

«أنا في حاجةٍ إلى رأيكِ فورًا».

«لكنّي لا أفتح كتابًا من زمن بعيد يا لينو، لم أعد أعرف القراءة، لستُ بقادرة».

«أطلب ذلك منكِ، أرجوك».

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

«لقد نشرتِ الرواية الأولى من دون أن تسألي أحدًا، فلمَ لا مع هذه؟»

«لأنَّ الرواية الأولى لم تكن تبدو لي كتابًا حتى».

«سأخبركِ إن أعجبتني أم لا، هذا كلّ ما أستطيع».

«حسنًا، هذا كافٍ».

٧٥

ريثما كنت أنتظر أن تنتهي ليلا من قراءة الرواية، علمنا بأنّ وباء الكوليرا تفشّى في ناپولي. انفعلت والدتي أكثر ممَّا يجب، ثمّ باتت سارحة الذهن، حتى كسرت وعاء الحساء المفضّل لديّ، وأعلنت عن رغبتها الملحّة في العودة إلى منزلها أدركتُ في الحال أنّها لم تتناس رفضي تسميةَ ابنتي الجديدة على اسمها، مع أنّ لخبر الكوليرا الدافع الأكبر في قرارها ذاك. حاولتُ أن أمنعها لكنَّها تركتني، قبل أن أستعيد قواي بعد الإنجاب، وقبل أن أُشفى من أوجاع ساقي. لم تعد تحتمل أنَّها تضحِّي بعمرها، شهرًا تلو شهر، لابنتها التي لا تكنّ لها أيّ احترام أو امتنان. فضَّلتِ الهرب لعلّها تموت إلى جانب أبنائها الأرضياء. وعلى الرَّغم من هذا، فإنها تغاضت عن الفتور الذي عاملتُها به، حتى عند عتبة الباب: لم تشتكِ، لم تهمهم، لم تعاملني بالمثل. وافقت على أن يوصلها بييترو بالسيّارة إلى المحطّة بكلِّ سرور. كانت تشعر بأنّ صهرها يكنّ لها مودّة فائقة، حتى إنّي فكَّرتُ في أنَّها قد ضبطتْ أعصابها ليس لإسعادي، بل كي لا تبدو في مظهرٍ غير لائق أمامه. لم تتهيّج مشاعرها إلَّا حين فارقت ديدي. سألتْ

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

حفيدتها، عند المستراح، بإيطاليّتها المهجّنة: هل يؤسفكِ رحيلُ جدّتكِ؟ أجابت ديدي، ناقمةً على ذلك الرحيل الذي كانت ترى فيه خيانة: كلّا

غضبتُ من نفسي، أكثر من غضبي من ابنتي. وسرعان ما امتلأ ذهني بعصبيَّة مدمِّرة، وفصلتُ كليليا من عملها بعد ساعات قليلة. انصعق بييترو وتوجّس. فقلت له بنبرة حانقة إنّي سئمتُ من مكافحة تأثيرات لهجة كليليا الماريميّة من جهة، ولهجة أمّي النابوليتانيّة من جهة أخرى، على لسان ديدي. كنت أرغب في استعادة زمام الأمور في بيتي وعائلتي. لكنّي في الحقيقة كنت أشعر بالذنب، وبحاجةٍ ماسّة إلى إنزال العقاب بنفسي. واستسلمتُ، بخيبةٍ مبتهجة، لانهزامي أمام ضرورات البنتين والمشاغل المنزليّة وساقي المتألّمة.

لم أكن أشكّ في أنّ إيلسا ستفرض عليّ عامًا لا يقلّ ضراوة عمّا عانيتُه خلال عام ديدي الأوّل. إلّا أنَّ الطفلة خالفت شكوكي، وتشبَّثت بصدري بلا مشاكل، وراحت ترضع طويلًا وتنام لساعات، ربّما لأنّي بتّ أكثر خبرة بالتعامل مع حديثي الولادة، وربّما لأنّي أذعنتُ لكوني أمًّا فاشلة ولم أعد أهجس بالإتقان. كانت النتيجة أنّي نمتُ طويلًا أنا أيضًا، في تلك الأيّام الأولى، وفوجئتُ ببيترو يكرِّس من وقته للحفاظ على نظافة المنزل، وشراء الأغراض، والطبخ، وتحميم إيلسا، وملاعبة ديدي التي كانت مشوَّشةً من وصول أختها الصغيرة تزامنًا مع مغادرة جدّتها زال عنّي ألمُ الساق فجأة. كنت أنعم بقيلولة هانئة، أواخر عصر يومٍ ما، حين أيقظني زوجي قائلًا: صديقتكِ التي من نابولي تريدكِ على الهاتف. فهرعتُ لأتكلّم معها.

تحدّثت ليلا مع بييترو مطوّلًا، قالت إنّها متلهّفة إلى لقائه شخصيًّا أصغيتُ إليها على مضض ـ إذ إنّ بييترو لطالما كان ودودًا

مع كلّ مَن لا ينتمي إلى عالم أبويه ـ وبما أنّها راحت تستفيض بنبرةٍ مَرِحَةٍ بدت لي عصابيّة، كدت أصرخ في أذنها لقد أعطيتكِ الإمكانيّة لتُلحِقي بي ما تستطيعين من أذًى، فهلّا تعجّلتِ، تكلّمي، ظلّ الكتاب عندكِ ثلاثة عشر يومًا، أخبريني رأيكِ فيه. لكنّي اقتصرتُ على قطع كلامها بطريقة فظّة:

«هل قرأتِ، أم لا؟»

غدت جادَّة في الكلام: «قرأتُ».

«فما رأيكِ إذن؟»

«جيّدة».

«جيّدة، بأيّ معنى؟ هل أثارت اهتمامكِ، هل أمتعتكِ، هل أشعرتكِ بالضجر؟»

«أثارت اهتمامي».

«كم؟ قليلًا، كثيرًا؟»

«كثيرًا».

«من أيّ ناحية؟»

«من حيث القصّة، تثير الرغبة في قراءتها».

«وماذا بعد؟»

«ماذا؟»

تصلّبتْ نبرتي وقلت:

«ليلا، عليكِ أن تخبريني رأيكِ فيما كتبتُ حتمًا، ليس لي أحدٌ سواكِ يصارحني بذلك».

«ها قد أخبرتكِ رأيي».

«لا، ليس صحيحًا، أنتِ تحتالين عليّ. لم تكلّميني يومًا على أيّ شيء بهذه السطحيّة».

ساد صمت طويل. تصوّرتُ أنّها جالسة، تضع ساقًا فوق ساق، إلى جانب طاولة بالية يقبع فوقها الهاتفُ. لعلّها وإنتسو عادا للتوّ من العمل، وربّما كان جينّارو يلعب بالقرب منها. قالت:

«سبق وقلت لكِ إنّي لم أعد أعرف القراءة».

«ليست هذه هي المشكلة: أنا في حاجةٍ إليكِ وأنتِ لا تبالين».

صمتٌ آخر. ثمّ غمغمتْ بشي لم أفهمه، قد يكون شتيمة ما قالت بقسوة وانفعال: أنا لديّ عمل، وأنتِ لديكِ عمل آخر، فما الذي تأملينه منّي. أنتِ التي درستْ، أنتِ التي تعرف كيف تكون الكتب. ثمّ انقطع صوتها وانتقلت إلى الصياح: لا ينبغي لك أن تكتبي هذه الأشياء يا لينو، أنتِ لستِ كذلك، لا شيء ممّا قرأتُه يشبهكِ. هذه رواية سيّئة، سيّئة، سيّئة، والرواية السابقة سيّئة أيضًا

هكذا جُمَلٌ سريعة، بنبرةٍ مشرّخة؛ كما لو أنّ زفيرها الناعم استحال صلبًا على حين غرّة، ولم يعد قادرًا على التحرّك في حلقها انتابني ألمٌ في معدتي، ألمٌ صاعقٌ عند رأس البطن، ألمٌ يتصاعد، ليس ممّا قالته، بل من «الطريقة» التي استخدمتْها هل كانت تجهش بالبكاء؟ هتفتُ بقلق: «ما بكِ يا ليلا، اهدئي، هيّا، خذي أنفاسًا عميقة». لكنها لم تهدأ كانت تجهش بالفعل، وصلتْ شهقاتها إلى أذني مشحونةً بمعاناةٍ نسيتُ في إثرها ضراوة تلك الجملة: «هذه رواية سيِّئة، سيِّئة، سيِّئة». لم أغضب لأنَّها اعتبرت روايتي الأولى فاشلة؛ الرواية التي حقَّقتْ مبيعات كبيرة؛ الرواية التي كلَّلتني بالنجاح؛ الرواية التي لم تعطِني رأيها فيها أبدًا إلَّا أنِّي تألَّمتُ من بكائها لم أكن قد هيَّأتُ نفسي لذلك، لم أكن أتوقَّع حصوله. بل كنت أفضِّل ليلا الشرِّيرة، ونبرتها اللئيمة. لكنَّها كانت تجهش باكيةً، ولم تعد تكفّ عن ذرف الدموع.

تشتَّت ذهني. لا بأس ـ قلت لنفسي ـ لقد كتبتُ روايتين سيّئتين، لا يهمّني هذا بقدْر ما يزعجني نحيبها. غمغمتُ: «ليلا، ما الذي يُبكيكِ، أنا مَن عليها أن تبكي، توقّفي عن البكاء، هيّا» فإذا بها تصيح: «لماذا أردتِ منّي أن أقرأها، لماذا أرغمتِني على الإفصاح عمّا أفكّر فيه، كان ينبغي لي أن أحتفظ برأيي» فقلتُ: «لا، بل إنّي سعيدة لأنّكِ بحتِ لي بما تفكّرين فيه، أقسم لكِ على ذلك». كنت أسعى إلى طمأنتها، لكنّ روعها لم يهدأ، وما لبثت تمطرني بعبارات عشوائيّة: «إيّاكِ أن ترسلي إليّ شيئًا لأقرأه بعد الآن، لستُ صالحةً لهذا، إنّي أتوقّع منكِ الأفضل دومًا، وإنّي واثقة بقدرتكِ على تقديم الأفضل، بل أريد منكِ أن تُحْسني بما تصنعين، هذا أشدّ ما أتمنّاه، فماذا أكون أنا إن فشلتِ أنتِ، ماذا أكون؟» همستُ لها: «لا تقلقي، وأخبريني دومًا بما تفكّرين، فهكذا فقط تساعدينني. لقد ساعدتِني منذ أن كنّا صغيرتين، وأنا لولاكِ عاجزة عن القيام بأيّ شيء». فخمدتْ شهقاتها أخيرًا، وغمغمتْ وهي تسحب مخاط أنفها: لماذا كنتُ أبكي، يا لي من حمقاء. ضحكتْ: لم أشأ إزعاجكِ، كنتُ قد حضّرتُ نفسي لنقاشٍ إيجابيّ، تصوَّري أنّي كتبتُه أيضًا، أردتُ أن أظهر بما يليق. حثثتُها على أن ترسله إليّ، وقلت: قد تعلمين أكثر منّي ما الذي عليّ كتابته. وهكذا، طوينا صفحة الكتاب، وأخبرتُها بولادة إيلسا، وتحدّثنا عن فلورنسا ونابولي والكوليرا أيّ كوليرا ـ سخرتْ ـ لا وجود لأيّ كوليرا، لا وجود إلّا للفوضى العارمة المعهودة والخوف من الموت وسط هذا الخراء. خوفٌ أكثر من الأحداث، لا أحداث، ها نحن نتناول الكثير من الليمون، ولم يعد أحدٌ قادرًا حتى على التغوّط.

باتت تتكلّم بانسيابٍ ورنينٍ أقرب إلى الابتهاج، بعد أن أزاحت عبئًا عن صدرها، ما جعلني أفطن إلى كمِّيَّة العوائق التي تعترض

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

سبيلي ـ ابنتين صغيرتين، زوج غائب بشكل عامّ، كارثة الكتابة ـ ومع هذا لم يراودني أيُّ توتّر، بل شعرتُ بالخفّة، وكنت أنا من أعاد النقاش بشأن فشلي. كان ذهني يتخبّط بعباراتٍ من هذا القبيل: لقد انقطع الحبّ؛ لقد نفد سحركِ المتدفّق من مخيّلتي بعدما أثّر فيّ إيجابًا، وها أنا الآن وحيدة بالفعل. لكنّي لم أتفوَّه بأيٍّ منها اعترفتُ، بسخريةٍ ذاتيّة، بأنّ العمل على هذا الكتاب كان مردّه تصفية الحسابات مع الحيّ، إضافةً إلى التغيّرات الكبرى التي طرأت على حياتي وبدت لي تستحقّ الكتابة عنها اعترفتُ بأنّ حكاية الدون آخيل ووالدة الأخوين سولارا هي ما دفعني وشجّعني على تأليف هذه الرواية، بشكل أو بآخر. فانفجرتْ ليلا ضاحكةً. وقالت إنَّ عرض وجه الأشياء المقرف لا يكفي لكتابة رواية. فلولا المُخَيّلة لما بدا هذا الوجه حقيقيًّا، وإنّما مجرّد قناع.

٧٦

لا أعلم ما الذي حدث لي بالضبط بعد ذلك. حتى هذه الساعة، وأنا أرتِّب وأستعيد ما جاء في مكالمتنا تلك. يبدو لي من الصعب الحديثُ عن تأثير بكاء ليلا فيَّ. إن تجرَّدتُ من ذاتي، تولَّد لديَّ انطباعٌ بأنِّي أرى على وجه الخصوص ما يشبه المسرَّة المتناقضة؛ كما لو أنّ بكاءها، في حين أثبتَ لي مودَّتَها تجاهي وإيمانها بقدراتي، انتهى به المطاف إلى محو حكمها السلبيّ على كلا الكتابين. ولم أفهم إلَّا بعد مُضيّ وقتٍ طويل أنَّ البكاء سمح لها بأن تقضي على عملي قضاءً مبرمًا، وأن تفلت من نقمتي عليها، وأن تفرض عليّ هدفًا ساميًا - «ألَّا أخيِّب آمالها» - إلى درجة أنَّه يشلّ أيّ محاولةٍ أخرى في الكتابة. ولكن، أكرِّر: بسبب هذا أو ذاك، سواء أكانت اللحظة تشهد على ذروة صداقتنا أم لا، فإنَّها من أسوأ اللحظات على الإطلاق. من المؤكَّد أنّ ليلا رسّخت أداء دورها كمرآةٍ لاضمحلال قدراتي. من المؤكَّد أنّي شعرتُ بنفسي طيّعةً للرضوخ للفشل، كما لو كان رأي ليلا محلّ ثقة، وأكثر إقناعًا ورقةً من رأي حماتي، بما لا يقبل الشكّ فيه.

وبالفعل، اتَّصلتُ بآديلي بعد عدَّة أيّامٍ وقلت لها شكرًا على

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

صراحتكِ، لقد أدركتُ أنّكِ محقَّة، ولديّ انطباعٌ الآنَ بأنّ روايتي الأولى أيضًا كانت مليئة بالعيوب. ربَّما عليّ أن أتمعَّن جيِّدًا ربَّما لستُ بارعة في الكتابة، أو ربّما أحتاج إلى مزيدٍ من الوقت ببساطة. فأغرقتني حماتي بالمديح على الفور، وأشادت بقدرتي على النقد الذاتيّ، وذكّرتني بأنَّ لديَّ جمهورًا ينتظرني بفارغ الصبر فغمغمتُ: أجل، بالتأكيد. وبعد ذلك مباشرةً، أغلقتُ على النسخة الأخيرة من الرواية في أحد الأدراج، ووضعتُ الدفاتر المليئة بالملاحظات جانبًا، وسلّمتُ نفسي للانغماس في المشاغل اليوميَّة. لقد تمدَّد الانزعاج من ذلك الجهد الشاقّ، والذي ضاع سُدًى، على كتابي الأوَّل أيضًا، وربَّما على الاستخدام الأدبيّ للكتابة نفسه أيضًا وإن عبرتْ في ذهني صورةٌ مغرية، أو عبارةٌ عميقة، مجرّدَ عبور، شعرتُ بالكرب، وشغلتُ نفسي بشيء آخر.

انكببتُ على شؤون البيت والبنتين، وبييترو. ولم أفكِّر لمرَّة واحدة في أن أُعيد كليليا إلى عملها، أو أن أستبدلها بخادمة أخرى. عدتُ إلى استلام جميع المهمات، وما فعلتُ ذلك إلّا لأتناسى ما حدث. لكنِّي فعلتُها بلا مشقَّة، وبلا أسف، بل كأنِّي اكتشفتُ فجأةً أنّ هذه هي الطريقة السليمة لعيش الحياة، وكأنّ جزءًا منِّي يهامسني: كفاكِ التفاتًا إلى وساوس الرأس. كرَّستُ نفسي للأعمال المنزليَّة بتنظيم صارم، واعتنيتُ بإيلسا وديدي بفرحٍ مفاجئ، كما لو أنّي استرحتُ من عبءٍ ثقيل ـ إضافةً إلى أوجاع الحمل، والأسف من مخطوط تلك الرواية ـ؛ عبءٍ أكثر غموضًا، لم أكن قادرةً على تعريفه. أثبتت إيلسا أنَّها مولودةٌ في منتهى السكينة ـ كانت تنصاع للحمّامات الطويلة والهادئة، ترضع وتنام، وتضحك حتى في منامها ـ، لكنّ ديدي كلَّفتني كثيرًا من الانتباه، لأنَّها كانت تكره شقيقتها. كانت تستيقظ في الصباح

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

شبهَ مصدومة، وتقصّ بأنَّها أنقذت أختها من النيران تارةً، ومن المياه تارةً، ومن الذئب تارةً أخرى. ثم إنّها أخذت تتظاهر بأنّها حديثة الولادة هي أيضًا، وتطلب منّي أن تمصّ من حلمتَيّ، وتقلّد صراخ الرضيعة، ولم تكن تتقبّل ما أصبحتْ عليه في الواقع، طفلةً ذات أربعة أعوام تقريبًا، تتكلّم بلغةٍ متطوِّرة جدًّا، وتقوم بحاجاتها الضروريَّة بنفسها على أكمل وجه. حرصتُ على منحها مزيدًا من الحنان، وامتداح ذكائها وجدارتها، وإقناعها بأنِّي أحتاج إلى مساعدتها في كلّ شيء: في شراء الأغراض؛ في الطبخ؛ في منع شقيقتها من إحداث ضررٍ ما

بدأتُ في تلك الأثناء، باستعمال حبوب المنع، خشيةً من الحمل ثانيةً. فسمنتُ، وشعرتُ بأنّي منتفخة، ولم أجرؤ مع هذا على التوقُّف عن استعمالها فمجرّد التفكير في الحمل مرَّةً أخرى يُصيبني بالرهاب والذعر حقًّا، أكثر من أيِّ شيء آخر. ثم لم أعد أهتمّ بجسدي كما في الماضي. وكان يبدو لي أنَّ البنتين اقتنعتا بأنِّي لم أعد شابَّة، وأنّ ظهور ملامح التعب ـ تحمّمينهما، تلبّسينهما، تنزعين الملابس عنهما، تجرّين العربة، تشترين الحاجات، تطبخين، تحملين إحداهما بذراعٍ وتمسكين الأخرى بيد، وأحيانًا تكون كلتاهما بين ذراعيكِ، تمسحين مخاط إحداهما، تنظِّفين فم الأخرى، إلى آخره من مصاعب الحياة اليوميّة ـ يؤكِّد وصولي إلى مستوى النضج النسائيّ، وأنّي إذا غدوتُ مثل الأمَّهات في الحيّ، فليس هذا بالأمر الخطير، إنّما من طبيعة الأشياء وتتابُعِها. لا بأس في هذا، كنت أقول لنفسي.

كان بييترو، وقد رضخ لحبوب المنع بعد مقاومةٍ طويلة، يراقبني بحذرٍ وقلق. «إنّكِ تتكوَّرين. ما هذه البقع على جلدكِ؟» كان يخشى أن نصاب بالعدوى جميعًا، أنا وهو ومعنا الطفلتان، لكنّه كان يكره

telegram @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

الأطبّاء. وكنت أحاول أن أطمئنه. لقد هَزُل جسمه كثيرًا في الآونة الأخيرة، واكتسى جوف عينيه بالزرقة دومًا، وغزت بعضُ خيوط الشيب شعرَه؛ ولم يكن يرغب في زيارة الطبيب، على الرَّغم من شعوره بالأوجاع في ركبته تارةً، وفي جانبه الأيمن تارةً، وفي إحدى كتفيه تارةً أخرى. أجبرتُه ذات مرَّة، ورافقتُه بنفسي، مع الطفلتين، وكانت النتيجة أنّه يتمتَّع بعافيةٍ ممتازة، شرط أن يلتزم بتناول الحبوب المهدِّئة. وهذا ما ملأه بالبهجة لعدَّة ساعات، وزالت عنه كلّ تلك الأعراض. لكنَّه عاد يشعر بالألم، في خلال وقت قصير، على الرَّغم من المهدِّئات. وذات مرَّة، كانت ديدي لا تدعه يشاهد الأخبار المتلفزة ـ حدث ذلك بعد الانقلاب العسكريّ في تشيلي بقليل ـ فضربها على مؤخِّرتها بقسوةٍ مفرطة. وما إن بدأتُ أستعمل حبوب المنع، حتى اكتسحتْه رغبةٌ عارمة في ممارسة الحبّ أكثر من قبل بكثير، في الصباح أو بعد الظهر فقط، إذ كان ينسب إلى النشوة المسائيّة السبب في عدم قدرته على النوم، ما يرغمه على الدراسة حتى ساعة متأخِّرة من الليل، الأمر الذي كان يسبِّب له أرقًا وإرهاقًا مزمنين يسبّبان له تلك الأوجاع.

كنّا نتناقش بلا جدوى، لطالما اعتبر الدراسة ليلًا عادةً وضرورة. ومع هذا، كنتُ أقول: لن نمارس في المساء بعد. كان يناسبني أيّ شيء، على الرَّغم من شعوري بالاستفزاز في بعض الأحيان. إذ كان من الصعب أن أحصل منه حتى على أشياء صغيرة ومفيدة: أن يذهب لشراء الحاجات إذا كان متفرِّغًا؛ أن يغسل الأطباق بعد العشاء. انفجرتُ غاضبة، ذات مساء. لم أقل له كلامًا قاسيًا، إنّما رفعتُ صوتي ببساطة. فتوصّلتُ إلى اكتشافٍ مهمّ: يكفي أن أزعق كي ينهار عنادُه بسرعة وينصاع لي. وبات من الممكن، إذا واجهتُه ببعضٍ من

الصرامة، أن تزول عنه آلامه المتذبذة، بل حتى رغبته العصابيّة في نكحي بلا هوادة. لكنّي لم أكن أفضّل فعل هذا. كنت أشفق عليه عندما أعامله على ذلك النحو، ويبدو لي أنّي أسبّب له رجفةً مؤلمة في دماغه. وعمومًا، لم تكن النتائج تدوم طويلًا كان يستسلم، ويتكيَّف مع الوضع، ويتكفَّل ببعض الالتزامات بأمانة، ثم يباغته التعب حقًّا، فينسى العهود، ويعود إلى الالتفات إلى نفسه فقط. وكنت في النهاية أتناسى الأمر، وأحاول أن أُضحكه، وأقبّله. فما الذي أجنيه من طبقٍ لم يُغسَل بعناية، سوى جفاء طويل، وشرود من جانبه كأنّه يقول لي: إنّي أضيّع وقتي هنا في حين لديّ عملٌ والتزامات في انتظاري. من الأفضل أن أدعه هادئًا، وكنت سعيدةً إذا نجحتُ في تجنُّب التوتُّرات.

وكي لا أُثير أعصابه، تعلَّمتُ ألَّا أقول رأيي أيضًا لم يكن ينتظر رأيي في المحصّلة. إذا ناقش اعتبارات الحكومة في ما يخصّ الأزمة النفطيّة، مثلًا، أو إذا أشاد بالتقارب بين الحزب الشيوعيّ والحزب الديموقراطيّ المسيحيّ، كان يفضّل أن أؤدّي دور المستمعة الراضية. وعندما أبديتُ عدم الموافقة على رأيه، تظاهر بالشرود، أو قال بنبرةٍ لا شكّ في أنَّه كان يستخدمها مع طلّابه: لقد نشأتِ على أسسٍ سيِّئة، لا تعرفين قيمة الديموقراطيّة، والدولة، والقوانين، والمصالح المكتسبة، والتوازنات الدوليّة، ولا يطيب لكِ إلَّا أن تقوم القيامة. لقد كنتُ زوجتَه، زوجةً مثقَّفة، لذا كان ينتظر منّي أن أعيره جلّ انتباهي إذا حدّثني عن السياسة، وعن دراساته، وكتابه الجديد الذي كان يعمل عليه بقلقٍ متصاعدٍ يستنزف قواه. وحبّذا أن يكون الانتباه وديًّا فحسب، لم يكن يريد آراءً، ولاسيّما إذا كانت تعزِّز شكوكه. كان كمن يتمعَّن بصوتٍ عالٍ، ليتداول الأفكار بينه وبين نفسه فقط، مع أنّ والدته امرأةٌ من نوع مختلف تمامًا، وشقيقته كذلك. لكنّه لا يريد منّي أن أكون

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

مثلهما طبعًا. استخلصتُ من كلامه، في مرحلة الهوان تلك، أنَّه قد امتعض ليس من النجاح الذي حقَّقه كتابي الأوَّل فحسب، بل من نشره أيضًا أمَّا عن الثاني، فلم يسألني عن مآل المخطوط أبدًا، وعمّا إذا كان في نيَّتي مشاريع أخطِّط لها مستقبلًا بدا لي أنّه انتشى من توقُّفي عن التلميح إلى الكتابة.

إن كان بييترو يظهر، يومًا بعد يوم، أسوأ ممّا كنت أتوقَّع، فإنَّ هذا لم يدفعني إلى البحث مجدَّدًا عن رجال آخرين. كنت أصادف ماريو، المهندس، في بعض الأحيان، لكنِّي سرعان ما اكتشفتُ زوال الرغبة لديّ في الإغواء أو في الانقياد خلف إغواء أحدهم، حتى إنّي بتُّ أرى اهتياجي السابق، مرحلةً من حياتي، مضحكةً نوعًا ما، ولحسن الحظِّ أنَّها انقضت. خمد الولعُ في الخروج من المنزل أيضًا، والمشاركة في الحياة العامّة في المدينة. وإن قرَّرتُ حضور ندوة أو مظاهرة ما، كنت أصطحب الطفلتين معي دومًا، وأشعر بأنّي فخورة بحقائبي المحتشدة بضرورات العناية بهما، ويُسعدني سماع انتقاداتٍ خجولة ممَن يقول: لا تزالان صغيرتين، إنّكِ تغامرين بهما

بيد أنِّي كنت أخرج كلّ يوم، أيًا يكن الطقس، كي أسمح لابنتَيّ بالتمتُّع بالشمس والهواء. ولم أكن أخرج أبدًا من دون كتابٍ مرافق. واظبتُ على القراءة تحت أيّ ظرف، اتِّباعًا لعادةٍ لم أتمكَّن من التوقُّف عنها، على الرَّغم من انحسار تطلُّعاتي إلى تشكيل عالمٍ خاصٍّ بي. كنت أتنزّه قليلًا، ثم أجلس على أحد المقاعد، غير بعيدٍ عن المنزل. وأتصفَّح دراساتٍ معقّدةً، وأقرأ الجرائد، وأصيح: «ديدي، لا تبتعدي كثيرًا، ابقي قرب ماما». هذه أنا، وعليّ أن أتقبَّل وضعي. أمّا ليلا، فمهما انعطفتْ دروبُ حياتها، تظلّ شيئًا مختلفًا عنّي. مكتبة الرمحي أحمد

٧٧

حدث، في تلك الفترة، أنّ ماريّاروزا جاءت إلى فلورنسا لتقدِّم كتاب زميلتها في الجامعة عن لوحة «نِفاس العذراء». أقسم بييترو بأنّه لن يتغيَّب، لكنَّه تذرَّع بحجّةٍ عند اللحظة الأخيرة واختفى في مكان ما وصلت شقيقة زوجي بالسيّارة، بمفردها تلك المرّة. كانت متعبة بعض الشيء، لكنّها ودودة كالعادة، محمَّلةً بالهدايا من أجل ديدي وإيلسا. لم تُشر بأيّ كلمة إلى روايتي التي أجهضتُها، على الرَّغم من يقيني من أنّ آديلي قد أخبرتها بكلِّ شيء. تكلَّمتْ باسترسالٍ على الرحلات التي قامت بها، وعلى الكتب، بحماستها المعتادة. وكانت تتابع كلّ مستجدَّات كوكب الأرض بعنفوان وتألُّق. كانت تؤكِّد فكرةً ما، ثم تملّ منها، وتنتقل إلى فكرة أخرى قد نفتها للتوّ، إمّا عن شرود وإمَّا لمجرّد العبث. وما إن تحدَّثت عن كتاب زميلتها، حتى حازت اهتمام قسمٍ من الجمهور، مكوّنٍ من الخبراء بتاريخ الفنّ. وكان للأمسية أن تجري، على أكمل وجه، على المسارات الأكاديميّة التقليديّة، لولا أنّها لم تَحِد عن السكَّة بفظاظة، في لحظةٍ معيّنة، لتتفوّه بعباراتٍ تتخلَّلها السفاهة أحيانًا، من هذا النوع: ينبغي لنا ألّا نمنح أولادًا لأيّ

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

أب، حتى لو كان الأب الربّ بعينه، بل علينا أن نمنح الأولاد لأنفسهم؛ لقد حان أوان الدراسة من وجهة نظر الأنثى، وليس الذَّكَر؛ خلف أيّ عِلْم يوجد القضيب الذكريّ، وحين يشعر القضيب بعجزه يلتجئ إلى الهراوة، والشرطة، والسجون، والجيش، ومراكز التجميع؛ وإن لم تنحني، بل إن بقيتْ فوضاكِ على حالها، تحدث المجزرة.
سادت الهمهمات المتشائمة والراضية، وأحاطت بها في الختام مجموعةٌ غفيرة من النساء. دعتني إلى جانبها، بحركةٍ فرحة من يدها، وقدّمت ديدي وإيلسا بكلّ فخر إلى صديقاتها الفلورنسيّات، وتحدّثت عنّي كثيرًا. ذكرت إحداهُنّ كتابي، لكنّي تهرّبتُ من الحديث عنه كما لو لم أكن أنا التي ألّفته. كانت سهرة جميلة، تمخّضتْ عن اتفاقٍ على دعوةٍ أسبوعيّة، من جانب مجموعة صغيرة ومتنوّعة من الفتيات والنساء الناضجات، إلى بيت إحداهنّ، كي نتحدّث عن شؤوننا، على حدّ قولهنّ لي.

دفعتني عباراتُ ماريّاروزا التحريضيّة، ودعوة صديقاتها، إلى استخراج النشرتين، اللتين أهدتني إيّاهما آديلي منذ وقت مضى، من تحت كومةٍ من الكتب. رحتُ أحملهما معي في حقيبة اليد كلّما خرجتُ للتنزُّه، وقرأتهما في الهواء الطلق، تحت سماءٍ رماديّةٍ من أواخر الشتاء. قرأتُ إحدى النشرتين قبل الأخرى، إذ أثار عنوانُها فضولي: «فلنبصق على هيغل». قرأتها بينما كانت إيلسا نائمةً في العربة، وديدي، بشالها ومعطفها الصوفيّ، تحاور دميتها بصوت منخفض. أبهرتني كلّ جملةٍ وكلّ كلمة في ذلك النصّ، ولاسيّما حرِّيَّة التفكير وجسارة التعبير. خطّطتُ تحت الكثير من العبارات، ورسمتُ كثيرًا من إشارات التعجُّب، والكثير من الخطوط العموديّة. فلنبصق على هيغل. فلنبصق على ثقافة الرجال؛ فلنبصق على ماركس؛ على

مكتبة الرمحي أحمد
telegram @ktabpdf

إنجلز؛ على لينين؛ على المادّيّة التاريخيّة؛ على فرويد؛ على التحليل النفسيّ وعلى عقدة إليكترا؛ فلنبصق على الزواج؛ على العائلة؛ وعلى النازيّة، والستالينيّة، والإرهاب؛ فلنبصق على الحرب؛ على صراع الطبقات؛ على دكتاتوريّة البروليتاريا؛ على الاشتراكيّة، وعلى الشيوعيّة، وعلى خديعة المساواة، وعلى «كلّ» مَظاهر الثقافة البطريركيّة، وعلى «كلّ» أشكالها التنظيميّة؛ فلنكن بالمرصاد لمن ينبذ الذكاء النسائيّ؛ فلنسعَ إلى اجتثاث هويّتنا الثقافيّة؛ فلنستأصلْ قيمنا الثقافيّة بدءًا من الأمومة؛ فلنكفَّ عن منح الأولاد لأيّ أحد؛ فلنتبرّأ من جدليّة السيّد والعبد؛ فلنقتلع جذور الدونيّة من أدمغتنا؛ فلنُعِدْ ذواتِنا إلى ذواتنا؛ فلنتخلّص من الازدواجيّة؛ فلنتحرّك نحو مجالٍ آخر باسم حقّ الاختلاف. الجامعة لا تحرِّر النساء، إنّما تُكمِل اضطهادهنّ. فلنقف ضدّ الحكمة. الذكور يعملون على مشاريع فضائيّة، في حين أنّ حياة النساء في هذا الكوكب لم تبدأ بعد. المرأة هي الوجه الآخر لهذه الأرض. المرأة هي «الفاعل المباغت». فلنتحرَّر من الرضوخ، هنا، الآن، في هذا الحاضر. كاتبة هذه الصفحات تُدعى كارلا لونتسي. قلت لنفسي: هل من المعقول أن توجد امرأةٌ قادرة على التفكير بهذا الشكل؟ لقد دأبتُ على الكتب كثيرًا، لكنّي عانيتُ بسببها، ولم أَفِدْ باستعمالها أبدًا، ولم أرمِ بعضها على بعض أبدًا هكذا يكون التفكير بحقّ. هكذا يكون التفكير المضادّ. أمّا أنا، وبعد كلّ ذلك الشقاء، لا أعرف التفكير حتى ماريّاروزا لا تعرف. لا شكّ في أنّها قرأت الكثير من الصفحات، وأنّها تحسن الإفادة منها بألمعيةٍ واستعراضٍ لافتين للنظر. هذا كلّ ما في وسعها فعله. أمّا ليلا، فهي التي تعرف كيف تفكِّر. هذا من طبيعتها ولو أنّها أكملت دراستها، لاستطاعت التفكير على ذلك النحو.

أصبحت تلك الفكرة ملحّة. وباتت كلّ قراءاتي في تلك الفترة تجعل ليلا مركزًا لها، بطريقة أو بأخرى. لقد صادفتُ أنموذجًا فكريًّا نسائيًّا أخذ يثير فيّ الانبهارَ ذاته، والتبعيّةَ ذاتها، اللذين كنت أشعر بهما حيال ليلا، بمعزل عن الفوارق بينهما وليس هذا فحسب: كنت أقرأ وأنا أفكِّر فيها، وفي بعض تفاصيل حياتها، وفي الجمل التي كانت ستوافقها الرأي عليها، وفي تلك التي كانت ستخالفها فيها ودفعتني تلك القراءة بالتالي، إلى الانضمام غالبًا إلى مجموعة صديقات ماريّاروزا، ولم يكن الأمر سهلًا، إذ إنّ ديدي كانت تسائلني باستمرار: متى ننصرف. وتُصدِر إيلسا صيحات مبتهجة فجأة. لكنّ المصاعب لم تكن من جانب طفلتيّ فقط. ففي الحقيقة، ما وجدتُ هناك سوى نسوة يشبهنني، ولذا لم يكن في إمكانهنّ مساعدتي. كان يصيبني الملل حين يغدو النقاش مجرّد تلخيصٍ سيّئ التركيب لما كنتُ أعرفه مسبقًا وكان يبدو لي أنّي أعرف، بما فيه الكفاية، ما الذي يعنيه أن نأتي إلى هذه الحياة إناثًا، لذا لم تكن عذابات الضمير تغريني. ولم يكن في نيّتي التكلُّم على الملأ على علاقتي ببييترو، وبالرجال عمومًا، كي أقدِّم شهادتي بكينونة الذكور، أيًّا تكن طبقتهم وسنّهم. لا أحد يعرف أفضل منِّي ما الذي يعنيه أن تفكِّر المرأة بعقليَّة ذكوريّة كي يكون مرحَّبًا بها وسط ثقافة الرجال. لقد فعلتُها سابقًا وكنت أفعلها حينذاك. كما كنت أظلّ معزولةً عزلةً تامَّةً عن التوتّرات، وانفجارات الغيرة، والنبرات الشموليّة، والهمسات الراضخة، وهَرَميّات المثقَّفين، والنضالات من أجل التقدير داخل الجماعة، والتي غالبًا ما تصبح دموعًا خائبة. لكنّ ثمّة أمرًا جديدًا، يقودني إلى ليلا مرّة أخرى بطبيعة الحال. لقد سحرني أسلوبها، الصريح حدَّ الوقاحة، في الكلام والمواجهة. لم تعجبني ميولها إلى تمريغ لسانها ببذيء

telegram @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

الكلام كثيرًا، إذ كنت قادرة عليه بما فيه الكفاية منذ الطفولة، بل لقد أغرتني بضرورة الأصالة التي لم أشعر بها يومًا، والتي ربّما لم تكن من طبيعتي. لم ألفظ أيّ كلمة، في ذلك الوسط، من شأنها أن تتجانس مع تلك الضرورة. لكنّي شعرتُ بضرورة فعل شيء من هذا القبيل مع ليلا نفسها، كي نمتحن نفسينا داخل عقدتنا التي حافظت على صلابتها، وأن نتبادل حتى العمق كلّ ما تخفيه إحدانا عن الأخرى، وحبّذا لو بدأنا من بكائها المفاجئ على كتابي الخاطئ.

كانت تلك الضرورة عاجلةً، إلى درجة أنّي فكَّرتُ في الذهاب إلى نابولي، مع ابنتَيّ، لقضاء بعض الوقت هناك، أو أطلب من ليلا المجيء إليّ مع جينّارو، أو أن نتراسل. حدّثتها بهذا ذات مرّة، عبْر الهاتف، لكنَّه كان خطأً فادحًا إذ رويتُ لها عن كتب النساء التي كنت أقرأها، وعن المجموعة التي أتردَّد إليها ظلّت تصغي إليّ، ثم قهقهت ساخرةً من عناوين مثل: «المرأة البظريّة» و«المرأة المهبليّة»، وفعلتْ ما في وسعها لتبدو سُوقيّة: «أيّ خراء تتفوَّهين به يا لينو، المتعة، الفَرْج، لدينا ما يكفي من المشاكل أساسًا، هل جُننتِ؟» كانت تريد أن تثبت لي أنّها تفتقر إلى الأدوات كي تشاركني في الحديث في مواضيع تهمّني. وتكلّمت، في النهاية، باستعلاء: «اعملي، افعلي الأشياء الجميلة التي عليكِ أن تفعليها، لا تضيّعي وقتكِ». لا بدّ من أنّها غضبتْ. فرأيتُ أنّ اللحظة ليست بالمناسبة، سأجرّب في وقت لاحق. إلّا أنّي لم أجد الوقت أو الشجاعة للتجريب ثانيةً أبدًا واستخلصتُ أنّه ينبغي لي فهم ما الذي كنت عليه حقًّا. الاستقصاء عن طبيعتي الأنثويّة. كنتُ قد بالغتُ كثيرًا، وبذلتُ كلّ جهدي لأحصل على إمكانيّات ذكوريّة. كنت أظنّ أنّه ينبغي لي معرفة كلّ شيء، والقيام بكلّ شيء. فما شأني أنا بالسياسة، والنضال؟ كان كلّ همّي أن

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

أبدو في مظهر لائق أمام الرجال، وأن أكون في المستوى. في مستوى ماذا بالتحديد؟ في مستوى عقلهم، عقلهم المبنيّ على انعدام العقلانيّة أصلًا كابدتُ لحفظ مصطلحاتهم الشائعة عن ظهر قلب، وضاع الجهد سُدًى. لقد أثّرتْ فيّ الدراسةُ، وحدّدت شكل رأسي وطبقة صوتي. ما هي العهود السرِّيّة التي وافقتُ عليها شرط أن أتفوَّق؟ والآن، بعد كلّ هذا العناء في التعلُّم، ما الذي يجب عليّ إلغاؤه ممّا تعلّمتُ؟ والأنكى من هذا أنّي أُرغِمتُ على التقرُّب جدًّا من ليلا كي أتصوَّر ما لم أكن عليه. كنتُ قد جمعتُ نفسي إليها، فشعرتُ بأنّي بُتِرتُ حالما طرحتُ نفسي عنها لا فكرة بلا ليلا لا خاطرة أثق بها، من دون دعم خواطرها لا صورة. كان عليّ أن أتقبَّل نفسي في معزلٍ عنها هذه هي النقطة الجوهريّة. أن أجرِّب الكتابة مرَّة أخرى. لعلّي كنت بلا رغبةٍ تحرِّضني، فأكتفي بإكمال الوظيفة. عليّ أن أتوقَّف عن الكتابة إذن، وأن أجد أيّ عملٍ آخر؛ أو أن أعيش حياة السيِّدات، كما تقول والدتي، وأن أغلق على نفسي داخل العائلة؛ أو أن أرمي كلّ شيء أدراج الرياح: البيت، الأولاد، الزوج.

٧٨

وطّدتُ علاقتي بماريّاروزا أكثرتُ من الاتّصال بها، ولكن ما إن أحسّ بييترو بذلك، حتى أخذ يتكلّم على شقيقته بازدراء: نزقة، فارغة، تشكِّل خطرًا على نفسها وعلى الآخرين. كانت تعذّبه بقسوة في الطفولة والمراهقة، وأكثر من يشغل بال والديهما خرج من غرفته، ذات مساء، هائجَ الشعر، مرهق الوجه، بينما كنت أتكلّم معها على الهاتف. جال في المطبخ، أكل شيئًا ما، ولاعَبَ ديدي، وهو يتنصّت إلى حديثنا ثم زعق فجأة: ألا تعرف هذه الحمقاء أنّ ساعة العشاء قد حانت؟ اعتذرتُ من ماريّاروزا وأغلقتُ السمّاعة. كلّ شيء جاهز، قلت، سنأكل حالًا، لا داعي للصراخ. غمغم قائلًا إنّه يرى من الغباء إسراف النقود في مكالمات خارجيّة لسماع أحاديث أخته المجنونة. لم أجب، رحتُ أحضّر المائدة، فانتبه إلى أنّي غاضبة، وقال مرتبكًا مشكلتي ليست معكِ، بل مع ماريّاروزا. لكنّه، بدءًا من ذلك المساء، أخذ يتصفّح الكتب التي أقرأها، ويتهكّم على الجُمل التي أخطّط تحتها. ويقول: لا يخدعنّكِ هذا الكلام الفارغ! كان يحاول أن يُظهر لي الخلل في منطق البيانات والنشرات النسويّة.

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

تشاجرنا، في مساء آخر، بشأن هذا الموضوع تحديدًا؛ ولعلّي بالغتُ من سيرة إلى أخرى، حتى طفح الكيل وقلت له: «أنت تعتبر نفسك رجلًا عظيمًا، لكنّ نجاحاتك لم تكن لولا أبوك وأمُّك، شأنك في هذا شأن ماريّاروزا تمامًا». وردّ بطريقةٍ غير متوقَّعة إطلاقًا صفعني على وجهي، في حضور ديدي.

تمالكتُ نفسي أفضل منه، فلطالما تلقَّيتُ الصفعات في حياتي، أمّا بييترو فلم يصفع أحدًا في حياته، ولا شكّ في أنّه لم يتلقَّ أيَّ صفعة أيضًا. رأيتُ في وجهه احتقاره على ما ارتكبتْ يداه. حدّق إلى ابنته برهةً، وخرج من المنزل. خمد الغيظ في صدري. لم أخلد إلى النوم، انتظرتُ، وانشغل بالي إذ لم يعد، واحترتُ فيما ينبغي فعله. هل كان منهَك الأعصاب، هل عليه بمزيدٍ من الراحة؟ أم إنّ هذه هي طبيعته الحقيقيّة، مدفونة تحت آلاف الكتب والتربية الصالحة؟ أدركتُ مرَّة أخرى أنّي لا أعرفه حقّ المعرفة، وأنّي لستُ فالحةً في تنبّؤ أفعاله: ربَّما رمى بنفسه في نهر أرنو، أو كان يتسكَّع ثملًا في مكان ما، بل ربّما انطلق إلى جنوا طلبًا للمؤاساة والحنان في حضن أمّه. هذا يكفي، إنّي مذعورة. انتبهتُ إلى أنّي كنت أترك ما أقرأ وما أعرف على ضفاف حياتي الخاصّة. كان لديّ طفلتان، ولم أشأ التسرُّع في التوصُّل إلى نتيجة نهائيّة.

عاد بييترو عند الخامسة صباحًا تقريبًا، وكنتُ سعيدةً برؤيته يعود سالمًا وغانمًا، إلى درجة أنّي عانقتُه وقبّلتُه. فغمغم: أنتِ لا تحبّينني، لم تحبّيني يومًا. ثم أضاف: لكنّي لا أستحقّكِ.

٧٩

لم يكن بييترو قادرًا على تقبّل الفوضى العارمة التي اجتاحت كلّ ميادين الحياة. كان يصبو إلى حياة منتظمة، تسري فيها قوانين منزّهة عن أيّ نقاش: أن يدرس، ويعلّم، ويلاعب الطفلتين، ويمارس الجنس، ويساهم في كلّ يوم، بحسب استطاعته، في حلّ العقدة السياسيّة الإيطاليّة، شديدة التأزُّم، بناءً على رأيه في الديموقراطيّة. غير أنّ النزاعات في الجامعة أنهكت قواه، وكان زملاؤه يحطّون من قدْر عمله الذي ازداد الاهتمام به في جامعات الخارج. كان يشعر بأنّه مهدَّدٌ ومُهانٌ دومًا، ولديه انطباع بأنّ عائلتنا نفسها باتت معرَّضة للمخاطر، وذلك بسبب اضطرابي (وهذا ليس صحيحًا، فأنا كنت امرأة عاديّة). كانت إيلسا تلعب بمفردها، في عصر أحد الأيّام، وأنا أفرض بعض تمارين القراءة على ديدي، وبييترو كان منعزلًا في غرفته، والبيت في سكون. كنت أفكِّر، بانفعال، في أنّ بييترو يتطلّع إلى تشييد حصن منيع، يعمل فيه بهدوء، حيث يُكتَب عليّ وحدي الانشغالُ باقتصاد المنزل، وتكبر الطفلتان بوئام. حتى إذا انهمرت صعقةُ الجرس الكهربائيّة، هببتُ لأفتح الباب، ففوجئتُ بدخول باسكوالي وناديا بيتي.

كانا يحملان معهما حقيبتين عسكريّتين كبيرتين. هو يضع على رأسه قبّعة رثّة، فوق شعره المجعّد والكثيف، الموصول بلحيةٍ أشدّ كثافة وتجعيدًا هي تبدو نحيفة ومرهقة، بعينين جاحظتين، كطفلةٍ مذعورة تدَّعي أنّها لا تخاف. حصلا على العنوان من كارمن، التي حصلت عليه بدورها من والدتي. كان كلاهما ودودين، وكنت ودودة معهما، كما لو أنّه لم تحدث بيننا أيّ توتُّرات أو خلافات. احتلّا المنزل ونشرا أغراضهما في كلّ مكان. كان باسكوالي لا يكفّ عن الكلام، بصوت مرتفع، وبالعامِّيّة أغلب الوقت. في البداية، بدا لي كلاهما كانقلابٍ محبَّبٍ في رتابة حياتي اليوميّة. وسرعان ما انتبهتُ إلى أنّ بييترو لم يستلطفهما انزعج من أنّهما لم يتَّصلا من قبلُ لإعلامنا بقدومهما، ومن أنّهما يتصرَّفان بعفويّة مفرطة. نزعت ناديا حذاءها، وتمدّدت على الأريكة. وترك باسكوالي القبعة الرثَّة على رأسه، وراح يتلمَّس الأشياء، ويتصفَّح الكتب، بل أخرج من الثلّاجة زجاجة بيرة له وأخرى لناديا، من دون استئذان، ازدردها مبقبقًا، ثمّ أصدر جشأةً أضحكت ديدي. قالا إنّهما قرّرا الانطلاق في جولة غير محدّدة. استخدما كلمة «جولة». متى غادرا ناپولي؟ إجابة غامضة. متى سيعودان؟ إجابة أشدّ غموضًا ماذا عن العمل؟ سألتُ باسكوالي. فضحك: كفى، لقد عملتُ كثيرًا، سأستريح الآن. أظهر يديه لبييترو، وطلب منه أن يُظهر يديه. حكّ كفّه بكفّ بييترو قائلًا: ألا تشعر بالفرق؟ ثم أمسك بمجلّة «نضال مستمرّ» ومرّر يمناه على الصفحة الأولى، فخورًا بقشط الورق على ملمس جلده الخشن، ومبتهجًا كأنّه ابتكر لعبة جديدة. ثم أضاف بنبرة أقرب إلى الوعيد: لولا هاتان اليدان الخشنتان يا أستاذ، لما وُجِد كرسيٌّ، أو بناية، أو سيّارة، ولا أيّ شيء. حتى أنت ما كان لك وجود. إن توقّفنا نحن العمّال عن العمل، تعطّل كلّ شيء، وهوت السماءُ على الأرض،

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

وانقلبت الأرضُ على السماء، واستعادت النباتاتُ زحفها نحو المدن، وفاض نهرُ أرنو على منازلكم الجميلة. وحده الذي كدّ وشقي سيعرف كيف ينجو. أمّا أنتما الاثنان، إضافةً إلى كتبكما كلّها، فستنهشكما الكلابُ الضارية.

كان الخطاب على طريقة باسكوالي المعهودة، خطابًا مؤثّرًا وصريحًا، أصغى إليه بييترو من دون أن يردّ. وظلّت ناديا أيضًا، من جهتها، ساكتةً حين تكلّم الرفيق، مستلقية على الأريكة، تحملق في السقف، بملامح جادّة. نادرًا ما تدخّلت في المحاورة بين الرجلين، حتى أنا لم أقل شيئًا وعندما ذهبتُ لأُعدّ القهوة، تبعتني إلى المطبخ. لاحظتْ أنَّ إيلسا مقرَّبةٌ منِّي دومًا، فقالت بنبرة جادّة:

«إنّها تودُّكِ كثيرًا».

«لا تزال صغيرة».

«هل تقصدين أنها عندما تكبر ستودّكِ بشكل أقلّ؟»

«لا، أتمنّى أن تحافظ على ودّها لي حين تصبح كبيرة أيضًا».

«كانت أمّي لا تنفكّ تحدِّثني عنكِ. لم تكوني مجرّد تلميذة عندها، بل يبدو أنَّها تعتبركِ ابنةً لها أكثر منّي».

«حقًّا؟»

«لطالما كرهتكِ لهذا السبب، ولأنّكِ خطفتِ نينو منّي أيضًا».

«لم يتخلَّ عنكِ لأجلي»

«من عاد يكترث لهذا؟ أنا الآن لا أذكر حتى تقاسيم وجهه».

«حين كنتُ مراهقةً، كنت أتمنَّى أن أكون مثلكِ».

«ولماذا؟ هل تظنِّين أنَّ من الجميل أنْ يولد المرءُ ويجدَ كلّ شيء متوفِّرًا لديه؟»

مكتبة الرمحي أحمد telegram @ktabpdf

«حسنًا، لا شكّ في أنّكِ لا تعملين كثيرًا»

«تخطئين، يبدو كلّ شيء في الحقيقة جاهزًا، وليس لديكِ أيُّ دافع منطقيّ إلى العمل. ولا تشعرين سوى بالذنب ممّا أنتِ فيه، وبأنّكِ لا تستحقّين ما أنتِ عليه».

«هذا أفضل من الشعور بالذنب من الفشل»

«هل هذا ما تقوله لكِ صديقتكِ لينا؟»

«لا، إطلاقًا».

هزّت ناديا رأسها بحركةٍ عدائيّة، وارتسم على وجهها تعبيرٌ شرّير، لم أظنّ يومًا أنّها قادرةٌ على إبدائه. قالت:

«إنّي أفضّل صديقتَكِ عليكِ. أنتما شخصان خرائيّان، ليس لأيّ قوّةٍ أن تغيّر طباعكما الدنيئة هذه؛ نسختان من حثالة البروليتاريا الرثّة. لكنّكِ تتظاهرين باللطف، أمّا لينا فلا».

تركتني في المطبخ مذهولةً. سمعتُها تصرخ في وجه باسكوالي: سأستحمّ، وقد تحسن صنعًا إذا استحممت أنت أيضًا أغلقا عليهما باب الحمّام. سمعناهما يتضاحكان، وكانت ناديا تطلِق صيحاتٍ طفيفةً، رأيتُ أنّها تُقلِق ديدي كثيرًا وحين خرجا من الحمّام، كانا شبه عاريين. شعرهما مبلّل، والبهجة تغمرهما وظلّا يتمازحان في ما بينهما كأنّنا لسنا موجودين. حاول بييترو أن يشارك في طرح أسئلة كالتالي: «منذ متى وأنتما مرتبطان؟» ردّت ناديا بحدّة: «لسنا مرتبطين، «أنت وزوجتك» مرتبطان إن أردتَ». ثم سألها، بنبرةٍ ملحّة، لطالما استخدمها مع أولئك الذين يَبدون له أناسًا سطحيّين إلى درجة خطيرة: «ماذا تعنين بذلك؟» «لا يمكنك أن تفهم الأمر»، أجابت ناديا فاعترض زوجي: «إذا كان ثمّة مَن لا يفهم الأمر، فقد يحاول الآخرون أن يشرحوه له.» تدخّل باسكوالي ضاحكًا حينذاك: «ما من

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

داعٍ إلى شرح شيء يا بروفسور، عليك أن تتصوّر أنّك ميّت من دون أن تدري؛ كلّ شيء ميّت. ميّتةٌ هي طريقتكم في الحياة؛ ميّتةٌ هي أحاديثكم؛ ميّتةٌ هي قناعتكم بأنّ ذكاءكم لا يُشَقّ له غبار، وبأنّكم ديموقراطيُّون ويساريُّون. كيف نوضِّح الأمر لِمَن هو ميّت؟»

كانت هنالك لحظات توتُّر عليا؛ لم أنبس خلالها ببنت شفة، ولم أستطع تناسي إهانات ناديا، هكذا، من لا شيء، وفي بيتي. رحلا أخيرًا، من دون تنويه مسبق، مثلما جاءا حملا حقائبهما واختفيا إلّا أنّ باسكوالي، قال وهو عند عتبة الباب، بنبرةٍ باغتها الحزنُ:

«وداعًا، يا سيّدة آيروتا».

سيّدة آيروتا حتى صديقي في الحيّ يحكم عليّ سلبًا؟ هل يقصد أنّي بالنسبة إليه لم أعد لينو، إيلينا، إيلينا غريكو؟ بالنسبة إليه فقط، أم هناك آخرون يرونني كذلك؟ وهل أنا من بينهم؟ ألم أستخدم أنا نفسي كنيةَ زوجي في أغلب الأحيان، حين فقدتْ كنيتي تلك الهالةَ الضئيلة التي حصلتْ عليها؟ رتّبتُ المنزل ثانيةً، والحمّام بصورة خاصّة، بعد أن عاثا فيه فسادًا قال بييترو: لا أريد أن أرى هذين في بيتي أبدًا بعد اليوم؛ مَن يعيّر العمل الفكريّ على ذلك النحو فاشيٌّ لا محالة، حتى لو لم يكن يعرف ذلك. أمّا تلك، فإنّها من النوع الذي خبرتُه جيِّدًا: رأسُها فارغٌ كلِّيًّا

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

٨٠

كأنّ الفوضى رأت بييترو محقًّا في توصيفه، فتحوَّلت إلى فوضًى ملموسة لتطيح أُناسًا كانوا مقرَّبين إليَّ. علمتُ من ماريّاروزا بأنّ الفاشيِّين اعتدوا على فرانكو في ميلانو، وكان في حالةٍ يُرثى لها، إذ فَقَدَ إحدى عينيه. فانطلقتُ على جناح السرعة، مصطحبةً معي ديدي والصغيرة إيلسا سافرتُ بالقطار، وأنا أُطعِم الطفلتين وألاعبهما، لكنِّي كنت حزينةً على نفسي الأخرى ـ تلك الفتاة المسكينة وغير المثقَّفة والتي كانت مرتبطة بفرانكو ماري، الطالب الميسور والمسيَّس فوق العادة: كم مِن أنا بات عندي؟ ـ تلك التي تاهت في مكان ما وعادت إلى الظهور حينئذ.

وجدتُ شقيقة زوجي في المحطَّة. كانت شاحبة الوجه ومتوجِّسة. أخذتنا إلى بيتها، وكان البيت تلك المرَّة خاليًا من الضيوف، والفوضى تعبث فيه أكثر من المرة الماضية التي استقبلتني فيها بعد الاجتماع في الجامعة. زوَّدتني بتفاصيل ما حدَّثتني به على الهاتف، بينما كانت ديدي تلعب وإيلسا نائمة. وقعت المصيبة قبل خمسة أيّام. ألقى فرانكو كلمة في مظاهرة لـ «الطليعة العمّاليَّة»، داخل مسرح صغير يغصُّ

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

بالحشود. وانصرف بعده سيرًا على قدميه مع سيلفيا، التي كانت تساكن محرِّرًا في صحيفة «جورنو/اليوم»، في بيت جميل على مقربة من المسرح. كان فرانكو سينام هناك، لينطلق في الصباح إلى بياتشنسا وصلا إلى بوّابة البناية تقريبًا أخرجت سيليفا المفتاح من حقيبتها للتوّ، فإذا بعربة بضائع صغيرة بيضاء تقترب، ليثب منها الفاشيُّون. اعتدوا عليه اعتداءً مبرِّحًا، بينما تعرَّضت سيلفيا للضرب والاغتصاب.

شربنا الكثير من النبيذ. أخرجت ماريّاروزا المخدّر؛ كانت تسمِّيها هكذا، وتستخدم في بعض الأحيان صيغة الجمع. قرَّرتُ هذه المرَّة أن أجرِّبه، لا لشيء سوى لأنِّي لم أجد ما أتشبَّث به، على الرَّغم من وجود النبيذ. صمتت ماريّاروزا، بعد أن قالت الكثير بنبرةٍ يتصاعد فيها الغضب، ثم انفجرت باكيةً. لم أجد ولو كلمة واحدة لأهدِّئ روعها. كنت «أشعر» بدموعها، وبدا لي أنَّ دموعها تُحدث ضجيجًا وهي تنزلق من عينيها إلى خدَّيها وفجأة لم أعد أراها، ولم أعد أرى الغرفة أيضًا، غطَّى السواد كلّ شيء أمامي. أُغمي عليّ.

برَّرتُ بخجلٍ شديد أنِّي مرهقة، حين استفقتُ. نمتُ قليلًا في الليل: كان جسدي يثقل عليّ من هول الإفراط بالقواعد، بينما تتساقط مفرداتُ الكتب والمجلّات باكتئابٍ شديد كما لو أنَّ أشكال الحروف الأبجديَّة فقدت قابليَّتها على التلاؤم فجأة. قرَّبتُ الطفلتين منِّي، كما لو قُدِّر عليهما أن تمنحا أمّهما الطمأنينة والرعاية.

تركتُ ديدي وإيلسا عند عمّتهما في اليوم التالي، وذهبتُ إلى المستشفى. وجدتُ فرانكو في عنبرٍ قاتم، تفوح فيه روائح ثقيلة من الزفير والبول والأدوية. كان جسده منتفخًا ومتلوِّيًا. لا تزال صورته في ذهني إلى الآن، لشدَّة بياض الكمّادات، وقد تخلَّل اللون الغامق جزءًا

من وجهه وعنقه. لم يُحسن استقبالي. بدا لي أنّه يخجل من الظهور أمامي في تلك الحالة المزرية. تحدَّثتُ أنا رويتُ له عن ابنتَيّ. فغمغم بعد بضع دقائق: اخرجي هيّا، لا أريدكِ هنا ولأنّي ألححتُ على البقاء، همس منزعجًا: هذا لستُ أنا، ارحلي من هنا كان وضعه سيّئًا. عرفتُ من مجموعة صغيرة من رفاقه أنَّ الأطبّاء قد يجرون له عمليّة أخرى. وحين عدت من المستشفى، انتبهت ماريّاروزا إلى أنّي كنت مصدومة بالفعل. ساعدتني في شؤون الطفلتين، وما إن غفت ديدي حتى أرسلتني للنوم أنا أيضًا لكنَّها أرادت في اليوم التالي أن أرافقها إلى سيلڤيا. حاولتُ الاعتذار عن الذهاب، إذ إنّي لم أحتمل لقاء فرانكو، وشعرتُ بأنّي لست عاجزة عن مساعدته فحسب، بل كنت أزيد في تردّي حالته. وقلت إنّي أفضِّل أن أذكرها كما رأيتها في أثناء الاجتماع في جامعة ستاتالي. «لا»، ألحّت ماريّاروزا هي تريد أن نراها كما تبدو الآن، إنّها تُصرّ على ذلك، فذهبنا

فتحت لنا الباب سيِّدة في أتمِّ العناية بنفسها، شعرها شديد الشقرة ينساب أمواجًا على كتفيها. إنَّها والدة سيلڤيا، ومعها ميركو، أشقر هو أيضًا، وقد بات طفلًا أكمل ربيعه الخامس أو السادس، وسرعان ما فرضت عليه ديدي، بأسلوبها المتراوح بين السلطويّ والمزاجيّ، اللعب مع تاس، دميتها القديمة التي ترافقها أينما ذهبت. كانت سيلڤيا نائمة، لكنَّها أوصت بإيقاظها حال وصولنا انتظرنا ظهورها طويلًا كانت قد أكثرتْ من تبرُّجها، وخرجت علينا بفستان أخضر طويل وجميل جدًّا لم تصدمني الرضوض والخدوش والخطوة المرتبكة كثيرًا ـ لقد رأيتُ ليلا في حال أشدّ سوءًا من هذه، في إبّان عودتها من رحلة الزفاف ـ إنّما أربكتني نظرتها الخالية من أيّ تعبير كانت عيناها فارغتين، وغير متجانستين إطلاقًا مع همسها العصابيّ، والذي تخلَّلته

ضحكات متقطّعة، وقد توجّهت بالحديث إليَّ، إليَّ فقط، عمَّا لم أكن أعرفه حتى تلك الساعة ممَّا فعله الفاشيُّون بها. كانت كما لو أنَّها تروي قصَّة أطفال عنيفة، تراكم هول الفظاعة في قاع بنيانها لفرط ما كرَّرتْها مرارًا على كلٍّ من جاء لزيارتها. حاولت والدتها غير مرَّة أن تقاطعها، لكنَّها صدَّتها دومًا بحركة يد غاضبة، أو برفع النبرة، أو بإطلاق الشتائم، أو بالتنبّؤ بغدٍ قريب، قريبٍ جدًّا، يبشّر ناظره بانتقامٍ يشفي الغليل. وعندما انفجرتُ باكيةً، كفَّت عن الكلام على مضض. إلَّا أنَّ زوّارًا آخرين وصلوا، من أصدقاء العائلة ومن رفيقاتها، فأعادت سيلڤيا الكرَّة، بينما انعزلتُ بسرعةٍ في زاوية ما، وأنا أضمّ إيلسا وأقبّل خدَّيها برقَّة. وعادت إلى ذهني، في هذه الأثناء، تفاصيلُ ما فعل ستيفانو بليلا، والتفاصيل التي تخيَّلتُها بينما كانت سيلڤيا تروي حكايتها، وبدا لي أنَّ كلماتِ كليهما صرخاتٌ حيوانيّة فَزِعَة.

ذهبت، في لحظةٍ ما، لأتفقَّد ديدي. وجدتُها في الممرّ مع ميركو والدمية. كانا يلعبان على أنَّهما أبٌ وأمٌّ وطفلهما بينهما، لكنَّها لم تكن لعبةً هانئة، بل كانا يؤدِّيان مشهدًا عنيفًا توقَّفتُ. كانت ديدي تعلّم ميركو: «عليك أن تصفعني على وجهي، هل فهمت؟». كان اللحم الحيّ الجديد يقلّد اللحم القديم عن طريق اللَّعب. لسنا سوى سلسلة من ظلالٍ تظهر في المشهد دومًا مشحونةً بالقَدْر ذاته من الحبّ والحقد والرغبات وأساليب العنف. راقبتُ ديدي عن كثب. بدا لي أنَّها تشبه بييترو. أمّا ميركو فكان نسخةً عن نينو

٨١

راودتني أحداث تلك الحرب مجدَّدًا، بعد مدّةٍ قصيرة، وقد كانت خفيّةً من قبل، تظهر مثل ومضات مباغتة على صفحات الجرائد وشاشة التلفاز: محاولاتُ انقلابات عسكريَّة؛ القمعُ الذي انتهجته قوى الأمن؛ ظهورُ الجماعات المسلَّحة، اعتداءاتٌ واغتيالات، قنابلُ مفخَّخة ومجازر في المدن الكبرى كما في تلك الصغرى. اتَّصلت بي كارمن، وكانت في حالة اضطراب شديد. لم تعد تصلها أيُّ أخبارٍ عن باسكوالي منذ أسابيع.

«هل صدف وجاء إليكِ؟»

«أجل، ولكن منذ شهرين على الأقلّ».

«آه، كان قد طلب منِّي رقم هاتفكِ وعنوانكِ. كان يريد أن يطلب منكِ نصيحة، هل فعلها؟»

«نصيحةٌ، بخصوص ماذا تحديدًا؟»

«لا أدري».

«لم يطلب منِّي أيّ نصيحة»

مكتبة الرمحي أحمد
telegram @ktabpdf

«فماذا قال؟»

«لا شيء، كان في حال جيّدة، وفي منتهى السعادة».

سألتُ عنه كارمن في كلِّ مكان. سألتُ ليلا أيضًا، وإنتسو، وحتى أولئك المنتسبين إلى الهيئة في شارع المحاكم. واتَّصلت في النهاية ببيت ناديا، لكنّ الوالدة لم تكن لبقة، وأرماندو لم يقل لها سوى أنّ شقيقته انتقلت من دون أن تترك أيّ عنوان.

«لعلّهما ذهبا للعيش معًا».

«باسكوالي يعيش مع تلك؟ من دون أن يترك عنوانًا أو رقم هاتف؟»

تناقشنا في الأمر مليًّا قلت لها لعلّ ناديا قطعت صلاتها بعائلتها بسبب علاقتها بباسكوالي، ومن يدري، ربّما غادرا للعيش في ألمانيا، في بريطانيا، في فرنسا لكنّ كارمن لم تقتنع. باسكوالي أخٌ حنون، قالت، لم يكن ليختفي بهذه الطريقة إطلاقًا كان هاجسٌ سيّئ جدًّا يؤرّقها باتت الصدامات في الحيّ يوميّة، وكلّ من كان «رفيقًا» عليه أن يتوخَّى الحذر. وقد هدَّد الفاشيُّون كارمن نفسها، وزوجَها أيضًا. واتّهموا باسكوالي بأنّه وراء الحريق الذي شبَّ في مقرِّ الشعبة اليمينيّة، ومتجر سولارا الهائل أيضًا لم أكن قد علمتُ بأيٍّ من تلك الأحداث، فصُدمتُ بها: هل حدث هذا كلُّه في حيِّنا؟ والفاشيُّون يتَّهمون باسكوالي بذلك؟ أجل، كان في قمَّة اللائحة، واعتبروا التخلُّص منه أمرًا ضروريًّا ربّما جينو ـ قالت كارمن ـ قتل شقيقي.

«هل اتَّجهتِ إلى الشرطة؟»

«أجل».

«وماذا قالوا لكِ؟»

«كادوا يعتقلونني، رجال الشرطة أكثر فاشيَّةً من الفاشيِّين أنفسهم»

اتَّصلتُ بغالياني. قالت لي ساخرةً: ما الذي حدث، لم أعد أراك في المكتبات، ولا في الجرائد، هل أُحلتِ على التقاعد باكرًا؟ أجبتُ بأنّي أعتني بطفلتين، وليس لديّ ما يشغلني سواهما الآن، ثم سألتُها عن ناديا، فتحدّثت بلهجةٍ مستعلية: ناديا كبيرة، لقد ذهبتْ للعيش بمفردها «أين»، سألتُها «هذه شؤونها»، أجابت، وأنهت المكالمة من دون أن تودِّعني، في حين كنت أطلب منها أن تعطيني رقم هاتف ابنها.

استغرقتُ كثيرًا من الوقت لتحصيل هاتف أرماندو، وتعبتُ أكثر في العثور عليه في المنزل. وعندما أجابني أخيرًا، بدا سعيدًا لسماع صوتي، وميَّالًا إلى المحادثة أكثر ممّا يجب. كان يعمل في المستشفى كثيرًا، وقد فشل زواجه. رحلتْ عنه زوجته حاملةً معها الطفلَ، فظلّ وحيدًا ومعذّبًا تحفظ في كلامه عن شقيقته. قال بهدوء: لم يعد أيّ شيء يجمعني بها. خلافات سياسيّة، وخلافات في كلّ شيء: فقدتْ صوابها منذ أن صاحبت باسكوالي. سألتُه: هل غادرا للعيش معًا؟ فاختصر فلنَقُلْ ذلك. ثم تملَّص من الموضوع، كما لو أنَّه يراه موضوعًا تافهًا، وانتقل لينتقد الوضع السياسيّ بأشدّ الانتقادات. تكلّم على مجزرة بريشا، وعلى الحيتان المتحكِّمين في الأحزاب، والذين حالما تسوء أوضاعهم ينكبُّون على تمويل الفاشيّين.

عدتُ إلى الاتِّصال بكارمن كي أطمئنها. قلت لها إنّ ناديا قطعت علاقتها بعائلتها كي تبقى مع باسكوالي، وإنّ باسكوالي لحق بها كالجرو.

«أهذا رأيك؟» سألتني كارمن.

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

«لا مجال للشكّ، هكذا هو الحبّ».

أبدت شكوكها، فألححتُ، ورويتُ لها عن أدقّ تفاصيل زيارتهما بيتي في ذلك العصر، وعظّمتُ من شأن المودّة بينهما. تودَّعنا. لكنَّ كارمن اتَّصلت بي محبَطةً في أواسط شهر يونيو مرَّة أخرى. قُتِلَ جينو في وضح النهار قرب الصيدليّة، إذ أطلقوا الرصاص على وجهه. خُيِّل إليَّ، في تلك اللحظة، أنّها تنقل إليّ هذا الخبر لأنَّ ابن الصيدلانيّ كان يشكِّل جزءًا من أوائل مراهقتنا، ولا شكّ في أنّ هذا الحدث سيصدمني، بغضّ النظر عن كونه فاشيًّا أم لا لكنّ السبب لم يكن مردّه أن تقاسمني مرارة تلك الميتة الفظيعة. جاء رجال الشرطة إليها، وأخذوا يفتِّشون كلّ شبرٍ في شقَّتها، بل حتى محطَّة الوقود. كانوا يبحثون عن بعض الأدلّة التي تقودهم إلى باسكوالي، فعاشت لحظاتٍ سيِّئة أشدَّ وطأة من لمّا جاؤوا لاعتقال والدها عند مقتل الدون آخيل.

٨٢

هوت كارمن في لجّة القلق. كانت تبكي لسبب ما شبَّهتْه بعودةٍ جديدةٍ للظلم. أمّا أنا، فلم أستطع أن أمحو من ذهني صورة الساحة الخالية التي تشرف عليها الصيدليّة. كان المحلّ من الداخل لا يزال ماثلًا أمام عينيّ، إذ لطالما أعجبتني روائح السكاكر والأدوية، والأثاث الخشبيّ الغامق الذي تصطفّ عليه الأوعية الملوَّنة، ولاسيّما وجود والدَي جينو. كانا في منتهى اللطف، محدودبين خلف المصطبة التي يطلّان منها كأنّهما جالسان على شرفةٍ عالية، ولا بدّ من أنّهما كانا هناك عندما انطلق دويّ الرصاص فأرعبهما، وربّما كانا جالسين هناك تحديدًا وشاهدا فلذة كبدهما، بأعينٍ شاخصة، يسقط على عتبة الصيدليّة، مضرَّجًا بدمائه. أردتُ التحدّث إلى ليلا لكنَّها بدت لي غير مبالية بما وقع إطلاقًا، وختمت الحديث عن الجريمة كأنَّها حدثٌ اعتياديّ، واكتفت بالقول: تصوَّري ألَّا يصبّ رجال الشرطة غضبهم على باسكوالي. استطاع صوتها أن يطمئنني على الفور، ويقنعني، إذ شدّدتْ على أنّها ستنحاز إلى جانب باسكوالي عمومًا، حتى لو افترضنا أنَّه هو الذي قتل جينو، مع أنَّها تستبعد ذلك. كان رجال الشرطة

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

سيُحسنون صنعًا لو أنَّهم ركَّزوا في كلّ ما ارتكبه القتيلُ من أفعالٍ قذرة، بدلًا من أن يتعقَّبوا أثر صديقنا الشيوعيّ عامل البناء. طلبت منّي، بعد ذلك، بنبرة من ينتقل إلى الحديث عن أمر أكثر أهمِّيَّة، أن تترك جينّارو عندي ريثما تفتح المدرسة أبوابها جينّارو؟ وكيف تتسنّى لي رعايته، وأنا أذوق العذاب أساسًا من ديدي وإيلسا؟ غمغمتُ:

«لماذا؟»

«عليّ أن أعمل»

«سأذهب إلى البحر مع الطفلتين عمّا قريب».

«اصطحبيه معكِ أيضًا».

«سأذهب إلى فياريجو، وسأبقى هناك حتى نهاية أغسطس. طفلكِ ليس معتادًا عليّ، يريدكِ أنتِ. إن أتيتِ أنتِ أيضًا فهذا أفضل، أمّا بمفردي فلستُ متأكِّدةً من قدرتي على الاهتمام به».

«لقد أقسمتِ لي في السابق أن تتكفّلي به».

«أجل، ولكنّكِ كنتِ في وضع سيِّئ».

«وما أدراكِ أنّي لستُ في وضع سيِّئ الآن؟»

«هل أنتِ في وضع سيِّئ الآن؟»

«لا».

«أليس في إمكانكِ أن تتركيه عند والدتكِ أو عند ستيفانو؟»

صمتت بضع ثوانٍ، ووضعت التهذيب جانبًا:

«هلّا أسديتِ إليّ هذا المعروف، نعم أم لا؟»

رضختُ على الفور.

«حسنًا، آتيني به».

«سيأتيكِ به إنتسو»

وصل إنتسو مساء يوم السبت، بسيّارة «فيات ألف وخمسمئة» ناصعة البياض، حصل عليها منذ وقت قصير وبمجرَّد رؤيته من النافذة، وسماعه يتكلّم بالعامِّيّة ليقول شيئًا للطفل الذي ما زال داخل السيّارة ـ كان هو بعينه، لم يتغيّر أبدًا، بوقاره المعتاد، وجسمه المتصلّب نفسه ـ شعرتُ بأنَّ نابولي والحيّ يستعيدان متانتهما المادِّيَّة.

فتحتُ الباب، وديدي تتشبَّث بثيابي، واكتفيتُ بنظرة واحدة إلى جينّارو لأُدرك أنَّ ميلينا المجنونة كانت على صواب في رأيها منذ خمسة أعوام: الطفل، وقد أتمّ عامه العاشر، لا شيء يجمعه بنينو، بشكلٍ لا لَبْس فيه، ولا حتى بليلا، بل كان تكريرًا متقنًا لستيفانو بالتحديد.

وحين تفحّصتُه، راودني شعورٌ غامض، مزيجٌ من الغبطة والإحباط. ظننتُ أنّي، والحال هذه، سأكون سعيدة إذ توجَّب عليَّ التكفُّل بابن نينو في بيتي لوقت طويل إلى جانب ابنتَيّ. وعلى الرَّغم من هذا، فإنني تيقَّنتُ، بكلِّ سرور، من أنَّ نينو لم يترك أيّ أثرٍ له في رحم ليلا

٨٣

كان إنتسو يريد أن يعود على الفور، لكنّ بييترو رحَّب به باحترام كبير، وأجبره على المبيت تلك الليلة. حاولتُ أن أدفع جينّارو إلى اللَّعب مع ديدي، مع أنّه كان أكبر منها بستّ سنوات تقريبًا. وبينما بدت ميّالة إليه، تمنّع بهزّةٍ أبيّةٍ من رأسه. تأثَّرتُ بالعناية التي كرَّسها إنتسو لذلك الولد الذي ليس بابنه، وقد أظهر إلمامه بعادات الصغير، وأذواقه، واحتياجاته. وكان يُرغمه بالحسنى على التبوُّل وتنظيف الأسنان قبل النوم، على الرَّغم من اعتراض الطفل الذي أعياه النعاس. وما إن هوى منهَكًا، حتى أخذ إنتسو ينزع عنه ملابسه ويُلبسه ثياب النوم برفق.

جالس بييترو الضيفَ، إلى الطاولة في المطبخ، بينما انشغلتُ بالترتيب وغسل الأطباق. لم يكن بينهما أيُّ شيء مشترك. حاول كلاهما التحدُّث في السياسة، وسرعان ما عزفا عن هذا النقاش، خشية الانزلاق في جدلٍ محتدم، ما إن نوَّه زوجي عن مباركته التقاربَ التدريجيّ بين الشيوعيّين والديموقراطيّين المسيحيّين، واعترض إنتسو على هذه الإستراتيجيّة، قائلًا إنّها إذا نجحتْ فستجعل برلينغوير يقدِّم

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

أفضل خدمةٍ إلى ألدّ أعداء الطبقة العاملة. انتقل بييترو حينذاك ليسأله بودِّيَّة عن عمله، فبدا هذا الفضول صادقًا لإنتسو، لأنّه كان أقلّ تحفُّظًا من المعتاد، وراح يقصّ حكايةً انسيابيّة، وربّما موغلة في مفرداتها التقنيّة أيضًا. كانت شركة IBM قد قرَّرت للتوّ أن تُرسله، هو وليلا، إلى مؤسَّسة أكبر من تلك؛ إلى مصنعٍ في ضواحي نولا، فيه ثلاثمئة عامل ونحو أربعين موظفًا وقد حبس العرضُ الماديّ أنفاسهما ثلاثمئة وخمسون ألف ليرة شهريًّا له لأنّه مدير المركز التقنيّ، ومئة ألف ليرة لها لأنّها مساعدته. فوافقا بطبيعة الحال، إلّا أنّ ذلك الأجر يتطلّب كدًّا حقيقيًّا، والعمل المتوقّع كان شاقًّا بالفعل. نحن مسؤولان ـ فسّر لنا مستخدمًا «نحن» حصرًا منذئذ ـ عن نظام ٣ طراز ١٠، ويوجد تحت تصرّفنا عاملان وخمس مثقّبات يعملن في التدقيق والتحقيق أيضًا يتوجّب علينا جمعُ كمِّيَّة هائلة من المعلومات وتخزينُها في داخل النظام؛ معلوماتٍ ضروريّة كي نبرمج الآلة على القيام بمهمات متعدِّدة، مثل المحاسبة والرواتب وتنظيم الفواتير والمستودع وإدارة البائعات والطلبيّات للموزّعين والإنتاج والشحن. وفي سبيل هذا الهدف، نستخدم قِطعًا كرتونيّة صغيرة، أي الشرائح التي يجب ثقبها الثقوب هي كلّ شيء، وعملنا كلّه ينصبّ عليها سأضرب لكما مثلًا عن العمل المطلوب لبرمجة عمليَّة بسيطة مثل إصدار الفواتير نبدأ من السجلّات الورقيَّة المتكدِّسة، التي يستخدمها أمين المستودع للإشارة إلى المنتجات والزبون الذي سيستلمها على حدٍّ سواء. للزبون شيفرة خاصّة به، ولبياناته الشخصيَّة شيفرة خاصَّة، وللمنتجات شيفرة خاصَّة أيضًا تجلس المثقّبات إلى الآلات، ويضغطن على مفتاح إطلاق الشرائح، ويضربن على المفاتيح ويُنتجن «رقم السجلّ»، «شيفرة الزبون»، «شيفرة بياناته الشخصيَّة»، «شيفرة المنتج وكمِّيَّته»، على هيئة

مكتبة الرمحي أحمد telegram @ktabpdf

ثقوب كثيرة على الشرائح. سأزيدكما فهمًا ألف سجلّ في عشرة منتجات يساوي مئة ألف قطعة كرتونيّة مثقَّبةً بثقوب صغيرة كثقوب الدبّوس؛ هل هذا واضح، هل تُمعنان في ما أقول؟

أمضينا السهرة هكذا. كان بييترو يومئ برأسه بين الحين والآخر، ليُظهِر تركيزه في الموضوع، وقد حاول غير مرَّة أن يطرح بعض الأسئلة (الثقوب مهمّة، ولكن هل الأجزاء غير المثقوبة مهمَّة أيضًا؟). أمّا أنا، فاكتفيتُ بشبه ابتسامة بينما كنتُ أنظِّف وألمِّع. كان إنتسو يبدو مسرورًا من قدرته على شرح بعض الأمور لبروفسور جامعيّ، يُصغي إليه كتلميذٍ نجيب، ولصديقة قديمة حصلت على شهادة جامعيّة وألّفت كتابًا وكانت ترتِّب المطبخ حينها أمورٌ يجهلانها بالمطلق. لكنِّي، في الحقيقة، شردتُ بسرعة. يأخذ عاملٌ عشرة آلاف قطعة كرتونيّة ويُدخِلها في جهازٍ يُسمّى «الفارز». يرتِّب الجهاز الشرائح وفقًا لشيفرة المنتَج. ثم تمرّ عبْر قارئين، ليس قارئًا بشريًّا، بل آلة مبرمجة لقراءة الثقوب وغير الثقوب على تلك الشرائح. وبعد؟ فقدتُ التركيز عندئذ. تهتُ بين الشيفرات والطرود الضخمة التي تحوي الشرائح والثقوب الموضوعة في مقابل ثقوب، والتي تفرز الثقوب، وتقرأ الثقوب، وتقوم بالعمليّات الحسابيّة الأربع، وتطبع الأسماء والعناوين والنواتج. تهتُ خلف كلمة لم أسمعها من قبل، File، غالبًا ما استخدمها إنتسو، وكان يلفظها بصيغة جمع المؤنَّث في اللغة الإيطاليّة، لكنَّه لا يقول فايلات، بل الفيلي. يا له من مذكّر غامض، هذا الفايل، وذاك الفايل، وهكذا دواليك. تهتُ خلف ليلا، التي كانت تعرف كلّ شيء عن تلك المصطلحات، وتلك الأجهزة، وذلك العمل، الذي كانت تؤدِّيه حينذاك في مؤسَّسة ضخمة في نولا، مع أنَّها كانت قادرة على العيش كسيِّدة أكثر عزَّة منِّي بالراتب الذي يتقاضاه صاحبُها فقط. تهتُ خلف

إنتسو الذي لم يجد ضيرًا في أن يصرِّح بكلّ افتخار: لولاها لما استطعتُ فعل شيء. كان يعبِّر أمامنا عن حبّه الذي يشعّ وفاءً وإخلاصًا ومن الجليّ أنّه يودّ أن يذكِّر نفسه والآخرين بعبقريَّة امرأته وألمعيَّتها، في حين كان زوجي لا يمتدحني أبدًا، بل لقد أودى بي إلى مجرَّد أمٍّ لأولاده، وأراد أن أخفق في امتلاك فكرٍ مستقلّ على الرَّغم من أنّي درستُ، وكان يحتقرني إذ يستخفّ بقراءاتي واهتماماتي وكلامي، وبدا أنَّه لا يبالي بحبّه لي إلّا إذا أظهر عجزي وفراغي على الدوام.

جلستُ معهما إلى الطاولة أخيرًا، وكنتُ مثل طيفٍ خفيٍّ لا أحد منهما تكلّف وقال لي: هل نساعدكِ في إعداد المائدة، في تنظيفها، وغسل الأطباق، ومسح الأرض. «الفاتورة ـ كان إنتسو يقول ـ وثيقة بسيطة، ما الذي يكلِّفني إن أعددتُها يدويًّا؟ لا شيء إن توجّب عليّ إعداد عشر منها في اليوم. ولكن ماذا لو كان عليّ إعداد ألف فاتورة؟ يقرأ القارئ مئتي بطاقة في الدقيقة الواحدة، أي ألفي بطاقة خلال عشر دقائق، وعشرة آلاف في خمسين دقيقة. سرعة الآلة ميزة عظيمة، وخصوصًا إذا بُرمِجت للقيام بعمليّات حسابيّة معقّدة، تتطلّب كثيرًا من الوقت. هذا هو عملي وعمل ليلا تجهيز النظام للقيام بعمليّات حسابيّة معقّدة. مراحل تطوّر البرامج هي في غاية الروعة حقًّا المراحل العمليّة أقلّ روعةً بقليل، فالشرائحُ تتعطّل داخل الفارز في كثير من الأحيان. وغالبًا ما تقع حاويات الشرائح الواصلة للتوّ من بين يديك، وتتناثر القطع الكرتونيّة على الأرض. لكنّه عملٌ رائع، رائع بكلّ ما فيه من صعوبات.

قاطعتُه مرّة واحدة، كي أشعر بوجودي. قلت:

«هل هو يخطئ؟»

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

«هو، مَن؟»

«الحاسوب».

«لا وجود لـ «هو» يا لينو. هو أنا إن أخطأ، أو ارتكب كارثة، فهذا يعني أنّي أنا الذي أخطأ وارتكب كارثة».

«آه» قلت، وغمغمتُ: «إنّي متعَبة».

أومأ بييترو بـ«نعم» وبدا مستعدًّا لإنهاء السهرة. لكنّه توجّه إلى إنتسو:

«لا شكّ في أنّه عملٌ محفّز فعلًا، ولكن إذا حلّت هذه الآلات مكان الإنسان كما تقول أنت، فإنّ الكثير من الاختصاصات ستندثر. تتولّى الروبوتات الآن مهمّة اللِّحام الكهربائيّ في مصانع الفيات، ما يؤدّي إلى خسارة الكثير من فرص العمل»

أشار إنتسو إلى موافقته في البداية، ثم بدا أنّه يتمعّن في الأمر، حتى لجأ إلى الشخص الوحيد الذي يستمدّ منه الصلاحيّات:

«تقول لينا إنّ في هذا خيرًا كبيرًا لا بدّ للأعمال الحقيرة، وتلك الساذجة، من أن تندثر».

لينا، لينا، لينا سألتُه باستخفاف: وإذا كانت ليلا شاطرة إلى هذا الحدّ، فلماذا يعطونك ثلاثمئة وخمسين ألف ليرة ويعطونها مئة ألف فقط، لماذا أنت المدير وهي المساعِدة؟ تردّد إنتسو مرّة أخرى، كأنّه يوشك على التفوّه بأمرٍ خطير، ثم فضَّل الكتمان عليه. غمغم: ما الذي في وسعي فعله، يجب إلغاء الملكيّة الخاصّة على وسائل الإنتاج. ساد طنينُ الثلّاجة في المطبخ بضعَ ثوانٍ. نهض بييترو وقال: فلنذهب إلى النوم.

٨٤

كان إنتسو ينوي المغادرة عند السادسة تقريبًا، لكنّي سمعتُه يتحرَّك في غرفته في إبّان الرابعة فجرًا، فنهضتُ كي أعدّ له القهوة. اختفت لغةُ الحواسيب، والإيطاليّة التي فرضتْها مكانة بييترو، ورحنا نتحدَّث بالعامِّيَّة، وجهًا لوجه، في سكون البيت. سألتُه عن علاقته بليلا قال إنّها تسير على ما يرام، مع أنّ ليلا لم تكن تستريح أبدًا تهرع تارةً خلف مشاكل العمل، وتتشاجر تارةً أخرى مع أمّها، وأبيها وأخيها، وتساعد تارةً جينّارو في إتمام واجباته، وهكذا تضطر إلى مساعدة أبناء رينو أيضًا، وجميع الأطفال الذين يصادف وجودُهم في المنزل. لم تكن تلتفت إلى نفسها، لذا كانت منهَكة للغاية، وتبدو على وشك الانهيار كما حدث لها في السابق. كانت متعبة. فأدركتُ حالًا أنَّ عملهما جنبًا إلى جنب، برواتب عالية ومباركة، يبيّن أنّ الانسجام بينهما يقع في سلسلة في منتهى التعقيد. فارتجلتُ:

«ربّما ينبغي لكما أن ترتِّبا الوضع قليلًا: لا يمكن للينا أن تبالغ في العمل».

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

«أكرِّر هذا على مسمعها مرارًا».

«ثم هنالك الانفصال، والطلاق: لا معنًى من بقائها زوجةً لستيفانو»

«لا تكترث لهذا الأمر».

«وماذا عن ستيفانو؟»

«لا يعلم حتى بأنّ الطلاق بات مشروعًا»

«وآدا؟»

«آدا لديها مشاكل اقتصاديّة. العجلة تدور، ومَن كان في الأمس فوق صار اليومَ تحتُ. آل كارّاتشي يوشكون على الإفلاس، ولا يملكون سوى ديونهم لآل سولارا وآدا تحرص على استلاب ما يمكن استلابه قبل فوات الأوان».

«وماذا عنك أنت؟ ألا تريد أن تتزوَّج؟»

فهمتُ أنّه كان سيتزوَّج بكلِّ سرور، إلّا أنّ ليلا تعارض الفكرة. لم تكن تتجنَّب إضاعة الوقت في الطلاق فحسب ـ من يعير اهتمامًا لكوني زوجة ذاك الرجل، أنا معك، أنام معك، هذا هو المهمّ ـ بل كانت تسخر جدًّا بفكرة الزواج مرّة أخرى، في حدّ ذاتها. وتقول: أنا وأنت؟ أنا وأنت نتزوّج؟ ما هذا الهراء، نحن في أحسن حال هكذا، وحالما نختلف يمضي كلٌّ في طريق. لم تكن ليلا مهتمّة بإمكانيَّة زواجٍ جديد، كان ثمّة شأن آخر يشغل بالها

«وما هو؟»

«انسي الأمر»

«أخبرني».

«ألم تحدّثكِ عنه أبدًا؟»

«عمّ؟»

«عن ميكيلي سولارا»

قصَّ عليّ، في جُمَلٍ موجزة، ومضطربة، أنّ ميكيلي لم يكفّ أبدًا، طوال تلك الأعوام، عن الطلب من ليلا العمل لمصلحته. اقترح عليها أن تُدير محلًّا جديدًا في ڤوميرو، أو في المحاسبة والضرائب، أو سكرتيرة لدى صديقه السياسيّ المهمّ في الحزب الديموقراطيّ المسيحيّ. وقد وصل به الأمر إلى أن يعرض عليها مئتي ألف ليرة شهريًّا، لا لشيء سوى كي تبتكر بعض الأشياء، وتجود بأفكار مجنونة، وأيّ شيء يجول في رأسها كان لا يزال يتّخذ من بيت أمّه وأبيه مقرًّا لأعماله في الحيّ، على الرَّغم من أنّه يسكن في بوزيليبو فكان لزامًا على ليلا أن تصادفه باستمرار: في الشارع، في السوق، في المحالّ. كان يوقفها، بطريقة ودِّيَّة دومًا، يمازح جينّارو، ويعطيه هدايا صغيرة. ثم يتحوّل إلى قمَّة الجدِّيَّة، ويعرض عليها الأعمال، ويتصرَّف بصبرٍ كبير حتى عندما ترفض مقترحاته. يحيّيها مشدّدًا بسخريَّته المعتادة: أنا لا أستسلم، سأنتظركِ إلى الأبد. اتّصلي بي متى أردتِ، تجديني متأهّبًا وظلّ هكذا إلى أن عرف أنَّها تعمل لدى IBM. أغضبه هذا الخبر، حتى أوعز إلى بعض معارفه كي يطردوا إنتسو من مجال الاستشاريّين، وليلا في المحصِّلة. فلم يحصل على أيّ نتيجة، إذ كانت مؤسَّسة IBM في حاجةٍ ماسّة إلى التقنيّين، وقلّما وجدوا تقنيّين بارعين من مستوى إنتسو وليلا لكنّ الأجواء تبدّلت. أرسل جينو رجاله الفاشيّين ليعتدوا على إنتسو تحت بيته، ولم ينجُ الأخيرُ بجلده إلّا لسرعته في إغلاق بوَّابة البناية خلف ظهره. وبعد مدّة قصيرة، وقع لجينّارو أمرٌ مريب. ذهبت والدة ليلا لتأخذه من المدرسة كالعادة. خرج جميع التلاميذ، ولم تجد أثرًا للصغير. قالت المعلِّمة:

كان هنا منذ دقيقة. وقال رفاقه: كان هنا ثم اختفى. تملّك الذعرُ نونتسيا، فاتّصلت بابنتها في العمل، فجاءت ليلا على جناح السرعة، وراحت تبحث عن جينّارو. عثرتْ عليه جالسًا على أحد المقاعد في الحديقة الصغرى. كان الطفل هناك مطمئنًا، بمئزره وربطة عنقه وحقيبته. وحينما سألوه: أين ذهبتَ، وما الذي فعلتَ؟ أجاب بضحكةٍ وعينين فارغتين. أرادت ليلا الذهاب فورًا إلى ميكيلي لتقتله، سواء لمحاولة الاعتداء على إنتسو أو بسبب اختطاف ابنها، لكنّ إنتسو منعها من ذلك. فالفاشيُّون كانوا يعتدون على أيّ يساريّ، ولا شيء يثبت تورُّط ميكيلي في تدبير الكمين. وبالنسبة إلى جينّارو، فقد اعترف بعظمة لسانه بأنَّ اختفاءه القصير كان مجرَّد عصيان. في أيّ حال، بعد أن هدأت ليلا، قرَّر إنتسو من نفسه أن يذهب للتحدّث إلى ميكيلي. دخل مقهى سولارا، وظلّ ميكيلي يصغي إليه من دون أن يرفّ له رمش. ثم قال له ما معناه: لا أفهم هذا الهراء الذي تتلفّظ به يا إنتسو؛ إنّي أكنّ ودًّا كبيرًا لجينّارو، وإن مسّه أحدٌ بسوء قتلتُه؛ لكنّ الشيء الوحيد الذي يحتمل الحقيقة، من بين كلّ الترّهات التي نطقتَ بها، هو أنّ ليلا عبقريّة، ومن المؤسف أنّها تبدّد ذكاءها. لقد طلبتُ منها العمل معي على مدى أعوام. ثم تابع أهذا يضايقك؟ وما همّني! لكنّك تخطئ؛ وإن كنت تريد بها خيرًا، فعليك أن تشجّعها على توظيف قدراتها العظيمة. تعالَ إلى هنا اجلس، اشرب فنجان قهوة وتحلَّ بقطعة من المعجّنات، وحدّثني عن فائدة هذه الحواسيب التي تعملان عليها ولم تنتهِ هناك. التقاه مرّتين أو ثلاثًا، بالصدفة، وأظهر ميكيلي اهتمامًا متزايدًا بالنظام ٣. وذات يوم، جاء يقول له، مستهزئًا، إنّه سأل أحد العاملين في IBM عمّن بينهما أكثر جدارة، هو أم ليلا، فأجابه الرجل بأنّه ما من شكّ في براعة إنتسو، لكنّ ليلا هي الأفضل

مكتبة الرمحي أحمد telegram @ktabpdf

في الميدان. وأوقفها في الطريق، بعدئذٍ، في مناسبة أخرى، واقترح عليها عرضًا مهمًّا. كان ينوي استئجار النظام ٣ واستخدامه في شتّى نشاطاته التجاريّة. والنتيجة: أراد أن تكون هي المديرة، بأجرٍ لا يقلّ عن أربعمئة ألف ليرة شهريًّا

«ألم تخبركِ بهذه أيضًا؟» سألني إنتسو بحذر.

«لا».

«من الواضح أنّها لا تريد إزعاجكِ، فأنتِ لديكِ حياتكِ. لكنّكِ تفهمين أنّ هذه نقلة نوعيّة بالنسبة إليها شخصيًّا، وكنزٌ وفيرٌ بالنسبة إلى كلينا معًا قد يصل ما نتقاضاه إلى سبعمئة وخمسين ألف ليرة في الشهر؛ لا أعلم إن كان كلامي واضحًا».

«وماذا عنها؟»

«عليها أن تعطي جوابًا في سپتمبر».

«وماذا ستقرِّر؟»

«لا أدري. هل حدث واستطعتِ أن تفهمي سلفًا ما الذي يدور في رأسها؟»

«لا ولكن، ماذا تفكِّر أنت في أنَّها ستفعل؟»

«أنا أفكِّر في ما تفكِّر فيه هي».

«حتى لو لم تكن موافقًا؟»

«أجل».

رافقتُه إلى السيّارة. وخطر في بالي عند السلالم، أنّي ملزمة بإطلاعه على ما لم يكن يعلمه بالتأكيد، وهو أنّ ميكيلي يكنّ لليلا حبًّا خطيرًا كشباك العنكبوت؛ حبًّا خطيرًا ليس له صلة بشغف الاستحواذ الجسديّ، ولا حتى بالدونيّة المطلقة. وكدتُ أفعلها، لأنّي كنت أشفق

عليه، ويعزّ عليّ أن يتوهَّم أنّه يناوش رجلًا مافيويًّا، يخطِّط منذ زمن لشراء ذكاء صاحبته. قلت له، عندما جلس خلف الدفّة:

«وماذا لو أراد ميكيلي أن يسلب ليلا منك؟»

ظلّ صارمًا

«أقتله. لكنّه لا يرغب فيها في أيّ حال، لديه عشيقة أصلًا، والجميع على علم بذلك».

«من هي؟»

«ماريزا لقد حبلت منه مرّة أخرى».

ظننتُ أنّي لم أفهم ما قال للوهلة الأولى:

«ماريزا سارّاتوري؟»

«ماريزا زوجة ألفونسو».

تذكّرتُ تلك المحادثة مع رفيقي على مقاعد الدراسة. كان يحاول أن يلمّح إليّ كم كانت حياته معقّدة، لكنّي انصرفتُ، وقد صُدِمتُ بمظهرِ ما كاشفني به، فلم ألتفت إلى جوهرِ بوحه. وبدا لي اكتئابه مشوّشًا، في تلك المناسبة أيضًا ـ كان يجدر بي أن أتحدّث إليه مرّة أخرى كي أتبيَّن الحقيقة، وربّما لم أكن سأفهمها في الحالتين ـ، ومع ذلك، شعرتُ بأنّ اكتئابه يجتاحني بألمٍ مقيت. سألتُ:

«وماذا عن ألفونسو».

«لا يبالي بالأمر، يُقال عنه إنّه شاذّ»

«من يقول ذلك؟»

«الجميع».

«الجميع، هذا تعميم مفرط يا إنتسو. وماذا يقول «الجميع» غير ذلك؟»

نظر إليّ بهبةٍ سخريةٍ متواطئة:

«كثير من الأشياء، الثرثرة والشائعات في الحيّ دوّامةٌ لا تنتهي».

«ماذا تقصد؟»

«عادت القصص القديمة إلى السطح. يقولون إنّ والدة الأخوين سولارا هي التي قتلت الدون آخيل»

غادر، وتمنّيتُ أن يحمل كلماته معه بعيدًا لكنّ ما أخبرني به ظلّ عالقًا في ذهني طويلًا، وجعلني أضطرب وأغضب. جلستُ إلى الهاتف، واتّصلتُ بليلا كي أتخلّص من ذلك الشعور. مزجتُ أسباب قلقي بالعتاب: «لماذا لم تطلعيني البتّة عن عروض العمل التي اقترحها عليكِ ميكيلي، العرض الأخير بصورة خاصّة؟ لماذا فضحتِ سرّ ألفونسو؟ ولِمَ أشعتِ تلك القصّة عن والدة الأخوين سولارا؟ ألم تكن هذه مزحة بيننا؟ لماذا أرسلتِ إليّ جينّارو، وإن كنتِ تخشين عليه، فلماذا لم توضّحي لي الأمر، أليس من حقّي معرفة ذلك؟ ولم لا تخبريني أبدًا بما يجول في رأسكِ حقًّا؟» فرّغتُ ما كان جاثمًا في صدري، وكنت في باطني آمل، بين جملةٍ وأخرى، ألّا نتوقّف عند ذلك الحدّ، بل أن تتكرَّر عادتنا القديمة ـ ولو عبْر الهاتف فقط ـ بامتحان شامل لعلاقتنا، ووضعها على المحكّ، كي نخرج بها على بيّنةٍ جليّةٍ ووعيٍ عميق». تمنّيتُ أن أستفزّها وأزجّ بها في دوّامة أسئلة أخرى أشدّ خصوصيّة. لكنّ ليلا انزعجت، وعاملتني بفتور نوعًا ما، إذ لم تكن صافية المزاج. أجابت بأنّي رحلتُ منذ سنوات، وباتت لديّ حياةٌ لا يشكّل فيها الأخوان سولارا، وستيفانو، وماريزا، وألفونسو، أيَّ شيء؛ وقيمتهم فيها أقلّ من الصفر. «اذهبي إلى الاصطياف،» قالت بإيجاز، «اكتبي، تصرّفي كمفكِّرة، فنحن هنا ما زلنا على الأرض بالنسبة إليكِ. ابقي بعيدة عنّا، وأوصيكِ بتعريض جينّارو لأشعّة

telegram @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

الشمس، وإلّا غدا قبيح البنية مثل أبيه».

ما كان من صوتها الساخر، ونبرتها المستخِفَّة، إلى حدّ الاشمئزاز، إلّا أن فرّغا أحاديث إنتسو من مضمونها، وقوّضا أيّ إمكانيّةٍ لجذبها نحو الكتب التي كنت أقرأها، والكلمات التي تعلّمتُها من ماريّاروزا ومجموعة النساء الفلورنسيّات، والقضايا التي أحاول طرحها والتي كانت بلا شكّ قادرة على تحليلها أفضل منّا جميعًا، لو تسنّت لي الفرصة لأحيطها علمًا بالمفاهيم الأساسيّة. هذا صحيح ـ فكّرتُ ـ التفتي إلى شؤونكِ وسألتفت أنا إلى شؤوني؛ لا تنضجي، إن كان هذا يعجبكِ، تابعي اللعب في الفِناء أيضًا الآن وقد ناهزتِ الثلاثين عامًا؛ كفى، سأمضي إلى البحر وهكذا فعلتُ.

٨٥

أوصلنا بييترو بالسيّارة، أنا والأطفال الثلاثة، إلى بيت قبيح في فياريجو، كنّا قد استأجرناه، ثم عاد إلى فلورنسا كي يكمل العمل على كتابه، فقلت لنفسي: هآنذا الآن، سيِّدة ميسورة الحال، تنعم بالاصطياف، مع ثلاثة أطفال والكثير من اللُّعَب. مظلّتي الكبيرة في الصفِّ الأوَّل، وما تحتها من مناشف ناعمة، ووجبات كافية، وخمس قطع بيكيني متعدِّدة الألوان، وسجائر بنكهة النعناع، والشمس التي تسمّر بشرتي وتجعل شعري أكثر شُقرةً. كنت أتّصل كلّ يوم ببييترو وليلا كان بييترو ينقل إليّ أسماء مَن بحثوا عنِّي، بقايا فصلٍ فائت من حياتي. كما كلَّمني نادرًا عن بعض الأفكار عن عمله التي قد خطرت في ذهنه للتوّ. وكنت أعطي السمّاعة لجينّارو كي يتكلَّم مع ليلا، ويروي لها على مضض أهمّ مجريات نهاره من وجهة نظره، ثم يتمنَّى لها ليلة سعيدة. وكان صوتها يبدو لي كأنَّه استوى نهائيًّا على نبرة واحدة.

لكنّي أدركتُ، بعد وقت قصير، أنَّ الأمر لم يكن كذلك حقًّا،

فقد أسكنت جزءًا من لحمها وعظمها في جينّارو. ما من شكّ في أنّ الولد كان نسخة طبق الأصل عن ستيفانو، وليس فيه أيّ شبهٍ بليلا قطعًا وعلى الرَّغم من هذا، فإن كلّ ما فيه من حركات، وطريقة كلام، وبعض المفردات، واللكنة، وبعضٍ من العدوانيّة، كانت تذكّر بليلا في صغرها وحين كنت أشرد في بعض الأحيان، يقشعرّ بدني من سماع صوته، أو أُسْحَر وأنا أتمعَّن فيه وهو يلوِّح بيديه ليعلِّم ديدي لعبةً ما

لكنّ جينّارو، خلافًا لأمّه، كان مكّارًا. إذ إنّ لؤم ليلا في صغرها كان واضحًا للعيان، ولم تزجرها أيُّ عقوبة لإخفائه. بيد أنّ جينّارو كان يؤدِّي دور الطفل المهذَّب، والخجول أيضًا، ثم يزعج ديدي ما إن أُوليهما ظهري. فإمّا يُخفي دميتها العزيزة، وإما يضربها وإذا توعّدتُه بعقوبة عدم الاتِّصال بأمّه قبل النوم، اتَّشح وجهه بتعبير عن الندم. لكنَّ تلك العقوبة في الحقيقة لم تكن تشغل باله إطلاقًا. كنت أنا من ابتكر طقس المكالمة المسائيّة، وكان في وسعه الاستغناء عنه بلا مشاكل. لكنّه كان يخشى كثيرًا التوعُّد بالحرمان من المثلّجات. فإذا هو يجهش بالبكاء، ويقول بين شهقاته إنَّه يريد العودة إلى نابولي، فيجعلني أرضخ له حالًا لكنّ رضوخي لم يكن يُطمئنه، فينتقم منّي بالاعتداء خلسةً على ديدي.

كنت مقتنعةً بأنّ ابنتي تهاب جانبه، حتى بدا لي العكس. ضعفتْ ردّات أفعالها من سوء معاملته، مع مرور الوقت، وأُغرمتْ به. كانت تناديه رينو أو رينوتشو لأنّه قال إنّ رفاقه كانوا ينادونه كذلك؛ وظلّت تتبعه غير آبهة بنداءاتي، بل كانت هي التي تدفعه إلى الابتعاد عن المظلّة. حتى بات نهاري زعيقًا في زعيق: أين تذهبين يا ديدي؛ تعالَ إلى هنا يا جينّارو؛ ماذا تفعلين يا إيلسا؛ لا تضعي الرمل في فمكِ؛

كفَّ عن هذا يا جينّارو؛ إن لم تتوقّفي عمّا تفعلين يا ديدي أتيتُ إليكِ وأريتُكِ. كدرٌ بلا جدوى: تأكل إيلسا من الرمل بانتظام، وبينما أغسل فمها بماء البحر، يختفي جينّارو وديدي بانتظام أيضًا

كانا يلتجئان إلى حقل قصب في الجوار. ذهبتُ مع إيلسا ذات مرّة، لأرى ماذا يفعلان، فاكتشفتُ أنّهما نزعا لباس السباحة، وكانت ديدي، تتلمّس بفضول شديد، عصفور جينّارو المتصلّب. توقّفتُ على بعد أمتار قليلة، واحترتُ في ما يجب فعله. كنت أعرف أنّ ديدي ـ وقد رأيتُها ـ غالبًا ما تحكّ عانتها وهي مستلقية على بطنها لكنّي قد قرأتُ الكثير عن الشؤون الجنسيّة عند الأطفال ـ وقد اشتريتُ لابنتي كتيّبًا مليئًا بالرسوم الملوَّنة التي تفسِّر ما يحدث بين الذكر والأنثى، بجُملٍ مقتضبة، وقد قرأتُ بعضًا منها على مسمعها بلامبالاة ـ، وعلى الرَّغم من أنّي كنت أشعر بالانزعاج ممّا تفعله، فإنّي لم أتأهّب لإيقافها عند حدِّها أبدًا، ولم أوبِّخها البتَّة، بل كنت أحرص على ألّا يفاجئها والدها، إذ كنت متأكِّدة من أنَّ هذا سيُغضبه.

فماذا أفعل الآن؟ هل عليّ أن أتركهما يلعبان كما يشاءان؟ هل عليّ أن أعود القهقرى وألوذ بالفرار؟ أم عليّ أن أقترب من دون أن أعطي المسألة حجمها، وأتجاهل ما يحدث بالكلام على شيء آخر؟ وذلك الولد المتين والعنيف، والذي يكبرها بأعوام، ماذا لو أرغمها على شيء ما، وآذاها؟ أليس فارق العمر خطيرًا؟ انقلب الوضع بسبب أمرين: إيلسا رأت شقيقتها، فصاحت مبتهجةً ونادتها؛ وسمعتُ في الوقت نفسه كلماتٍ عامّيّةً يوجِّهها جينّارو إلى ديدي؛ كلماتٍ فظّة؛ الكلمات السوقيّة نفسها التي تعلّمتُها أنا أيضًا في الفِناء في أثناء الطفولة. لم أتمكّن من ضبط نفسي، وضاع سُدًى كلُّ ما قرأتُه عن المتع وأطوار الكمون والعصابيّات، والانحراف متعدّد الأشكال عند الأطفال والنساء، فوبّختُ كليهما بقسوة، ولاسيّما جينّارو، وأمسكتُ

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

بذراعه وجررتُه بعيدًا انفجر باكيًا، فقالت لي ديدي بجمودٍ وإقدام: أنتِ شرِّيرة جدًّا

اشتريتُ المثلَّجات لكليهما، وبدأتُ أُكثِر من رقابتي عليهما، بغية عدم تكرار المشهد ثانيةً؛ إضافةً إلى استنفاري لمراقبة لغة ديدي التي نفذتْ إليها مفرداتٌ شنيعة من العامِّيَّة النابوليتانيّة. وفي المساء، حين ينام الأطفال، اعتدتُ على عصر ذاكرتي: هل أنا أيضًا قمت بتلك الألعاب مع أقراني في الحيّ؟ وهل تعرَّضت ليلا لتجربة من ذاك القبيل؟ لم نكن قد تحدَّثنا في الأمر إطلاقًا. كنّا في تلك السنّ نتلفّظ بالكلمات النابية، هذا صحيح، لكنَّها كانت شتائم مفيدة، من جانبٍ ما، كي نصدّ عنّا أيادي اليافعين الطويلة، فنشتمهم ونحن نهرب منهم. وماذا عن البقيّة؟ بذلتُ جهدًا في التوصُّل إلى طرح هذا التساؤل على نفسي: هل تلامسنا أنا وليلا؟ هل اشتهيتُ أن أفعلها، حين كنت طفلة، أو فتاةً، أو مراهقةً، أو شابّةً؟ وماذا عنها؟ بقيتُ طويلًا على شفير تلك التساؤلات. وأجبتُ نفسي بهدوء: لا أعرف، ولا أريد أن أعرف. ثم اعترفتُ بما يشبه الإعجاب بجسمها، ربّما هذا صحيح، كان له وجود، لكنِّي استبعدتُ حصول شيء بيننا إطلاقًا كان الخوف سائدًا، لو فاجأونا في وضعٍ مماثل، لأشبعونا ضربًا حتى نموت.

تجنّبتُ أن آخذ جينّارو إلى الهاتف العموميّ، في أي حال، خلال الأيّام التي واجهتُ فيها تلك المشكلة. كنت أخشى أن يقول لأمّه إنّه ليس مسرورًا، أو أن يقصّ عليها ما حدث دفعةً واحدة. أزعجتني تلك الخشية: لماذا أقلق؟ تركتُ الأمور على عواهنها وخفّفتُ رقابتي أيضًا على الطفلين تدريجيًا. لم يكن في وسعي الاستمرار في ذلك. تفرّغتُ لإيلسا، وتركتُهما وشأنهما ولم أكن أصرخ عليهما بعصبيّة إلّا إذا تمنّعا عن الخروج من الماء، على الرَّغم

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

من امتقاع شفاههما وتشنّج أطرافهما، فأقف عند الشطّ، حاملةً معي منشفةَ هذا ومنشفةَ تلك.

مرّت أيّام أغسطس بسرعة. بيت، تسوّق، تحضير الحقائب الممتلئة، شاطئ، عودة إلى البيت، مثلّجات، هاتف. كنت أثرثر مع أمّهاتٍ أخريات، كلُّهنَّ أكبر منّي سنًّا، ويُسعدني إذا امتدحن «أبنائي»، وصبري عليهم. كنّ يحدِّثنني عن أزواجهنّ، وأعمالهم. وكنت أحدّثهنّ عن زوجي قائلةً: إنَّه بروفسور اللاتينيّة في الجامعة. وكان بييترو يأتي في نهاية الأسبوع، تمامًا كما كان يأتي ستيفانو ورينو إلى إيسكيا، منذ أعوام مضت. فترمق النسوة زوجي بنظرات تبجيل، ويَبدين أنّهنَّ يحترمن حتى شعره المنفوش، بفضل منصبه في الجامعة. كان يسبح مع الأطفال، ويتصنَّع لهم ألعابًا فيها من المجازفة ما يسلِّي أربعتهم كثيرًا، ثم يجلس تحت المظلّة ليدرس، متذمِّرًا من الأرق بين الحين والحين، إذ كان غالبًا ما ينسى المهدِّئات. وعندما يكون الأطفال نائمين، كان يلجني واقفًا على قدميه في المطبخ، تجنُّبًا لجعجعة السرير. وبات الزواج يبدو لي منظومةً ـ خلافًا لما يُظَنّ عنه ـ تُعرّي الجماعَ من أيّ مضمونٍ إنسانيّ.

٨٦

كان بييترو، ذات يوم سبت، مَن انتبه إلى خبر موجز ـ بين حشد العناوين التي اهتمّتْ لوقتٍ طويل بعمليَّة تفجير قطار إيتالكوس بقنبلةٍ فاشيّة ـ في «كوربيري ديلا سيرا»، يشير إلى مصنع صغير في ضاحية ناپولي.

«ألم يكن سوكافو اسم المصنع الذي عملت فيه صديقتكِ؟» سألني.

«ما الذي حدث؟»

أعطاني الجريدة. فرقةٌ مكوَّنةٌ من رجلين وامرأة داهمت مصنعًا للُّحوم المجفَّفة في ضاحية ناپولي. أطلق الثلاثة النار أوّلًا على ساقَيِ الحارس، فيليبو كارا، فدخل في وضع حرج للغاية؛ ثم صعدوا إلى مكتب صاحب المصنع، برونو سوكافو، وهو متعهِّدٌ ناپوليتانيّ شابّ، وقتلوه بأربع رصاصات، استقرّت منها ثلاث في صدره وواحدةٌ في رأسه. رأيتُ، فيما كنتُ أقرأ، وجه برونو يتحلّل ويتحطّم بأسنانه ناصعة البياض. «آه، يا إلٰهي، يا إلٰهي». انقطعتْ أنفاسي. تركتُ الأطفال في عهدة بييترو، وهرعتُ إلى الاتِّصال بليلا، فرنّ الهاتف

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

طويلًا من دون ردّ. حاولتُ في المساء، بلا جدوى. وعثرتُ عليها في اليوم التالي، فسألتني متوجِّسةً: ماذا هناك، هل حدث شيء لجينّارو؟ فطمأنتُها وأخبرتُها عن برونو. لم تكن تعلم بأيّ شيء عن الموضوع، تركتني أتحدَّث، وفي النهاية غمغمتْ بفتور: لقد أسمعتِني خبرًا سيِّئًا ولم تُضف شيئًا فحثثتُها اتَّصلي بأحد ما، واستعلمي جيِّدًا، اسألي كيف يمكن لي أن أرسل برقيّة تعزية. قالت إنَّه لم يعد لديها تواصل مع أيِّ عامل في ذلك المصنع. «ثم أيُّ برقيّة؟» ـ غمغمت ـ «انسي الأمر».

نسيتُ الأمر. لكنِّي وجدتُ في اليوم التالي، مقالًا في جريدة «البيان»، موقّعًا من جوفانّي سارّاتوري، نينو؛ يستعرض فيه معلومات كثيرة عن المصانع الصغرى في المقاطعة، ومشدِّدًا على التوتُّرات السياسيّة الراهنة في ذلك الواقع المتخلِّف، وأشار متأثِّرًا إلى برونو ونهايته المأساويّة. ورحت، منذ تلك اللحظة، أتابع تطوُّرات ذلك الخبر لعدّة أيّام، ولكن عبثًا، سرعان ما اختفى من الجرائد. كما أنّ ليلا لم تعد تشاء التحدُّث في الموضوع. كنت في المساء أتّصل بها برفقة الأطفال، وكانت تختصر المكالمة قائلةً: دعيني أتكلَّم مع جينّارو. وحين أشرتُ إلى نينو، اتّخذتْ نبرة ضجرة إلى حدٍّ كبير «العادة السيِّئة نفسها»، غمغمتْ، «يريد أن يدلي بدلوه في كلّ شيء؛ ما شأن السياسة، لعلّه قُتِلَ بسبب مسائل أخرى. هنا يموت الناس قتلى لألف سبب: خيانة زوجيّة، أعمال قذرة، بل حتى لمجرّد نظرة متوعِّدة». وهكذا مضت الأيّام، ولم يبق لبرونو عندي سوى طيفٍ ذهنيٍّ فقط: لم يكن طيف صاحب المصنع الذي هدّدتُه بالهاتف، مستقويةً بمكانة آيروتا، بل طيف ذلك الشابّ الذي حاول أن يقبِّلني، فصددتُه بأسوأ الطرائق.

٨٧

بدأت الأفكار المشؤومة تراودني منذ أن كنت على الشاطئ. قلت لنفسي: لا تجد ليلا حرجًا في الانسلاخ عن مشاعرها وعواطفها وكلَّما بحثتُ عن وسائل للسعي لفهم الحقائق، كانت ليلا، على عكسي، تتوارى. وكلّما حاولتُ جرّها إلى المكشوف، وإقحامها في نيَّتي للتوضيح، لاذت في الظلّ. كانت تبدو كالبدر الكامل حين يختبئ خلف الغاب وتشوِّه أغصانُ الشجر وجهَه.

عدتُ إلى فلورنسا في أوائل سبتمبر، وتفاقمت الأفكارُ المشؤومة بدلاً من أن تتلاشى. من غير المجدي أن أُطلِع بييترو على هواجسي. كان مكتئبًا جدًّا من عودتي مع الأطفال. لا يزال متأخِّرًا في العمل على كتابه، وضَجِرًا من أنّ العام الدراسيّ سيبدأ بعد فترة وجيزة. كنّا إلى المائدة، ذات مساء، ديدي تتشاجر مع جينّارو بسبب شيء ما، فانتفض بييترو غاضبًا وخرج من المطبخ، وهو يصفق الباب بعنفٍ أدّى إلى تهشيم زجاجه المصقول. فاتّصلتُ بليلا، وقلت لها بلا مقدّمات إنَّ عليها استعادة الطفل، الذي ظلَّ عندي شهرًا ونصف شهر تقريبًا.

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

«ألا يمكنكِ إبقاؤه عندكِ حتى آخر الشهر؟»

«لا».

«الوضع سيئ هنا».

«وسيِّئٌ هنا أيضًا».

انطلق إنتسو في قلب الليل، ووصل في الصباح، حين كان بييترو في عمله. كنت قد وضّبتُ حقيبة جينّارو. أحطتُه علمًا بأنّ المشاحنات بين الأطفال بلغتْ حدًّا لا يُطاق، وكنت متأسِّفةً لعدم قدرتي على الاعتناء بثلاثة صغار، لم أعد أستطيع. فقال إنّه يتفهّم الأمر، وشكرني على كلّ ما فعلتُ. سوى أنّه غمغم، بما يشبه التبرير «تعرفين طباع لينا». لم أردّ، لأنّ ديدي كانت تصيح خائبةً من رحيل جينّارو، ولأنّي لو فعلتُها لتفوّهتُ بأشياء ـ انطلاقًا من طباع ليلا تحديدًا ـ كنت سأندم عليها.

كان رأسي يلهج بخواطر لم أشأ صياغتها كلامًا، ولا حتى لنفسي. كنت أخشى أن تتطابق الأحداث مع الأقوال بسحر ساحر لكنّي لم أتمكّن من محو تلك العبارات، إذ شعرتُ بتوثّبها في ذهني، وكان ذلك يخيفني، ويصدمني، ويُرعبني، ويُغويني. انصعتُ لمقدرتي على إيجاد الطريقة للربط بين نقاط متباعدة. ربطتُ مقتل جينو بمقتل برونو سوكافو (فيليبو، حارس المصنع، قد نجا). ووصلتْ بي شطحات الخيال إلى أنّ كلا الحدثين يُفضي إلى باسكوالي، وربَّما إلى ناديا أيضًا أحاط بي قلقٌ شديدٌ بمجرّد التوصُّل إلى هذه الفرضيّة. فكّرتُ في أن أتّصل بكارمن، وأسألها عن أخبار شقيقها، ثم غيَّرتُ الفكرة، وقد خشيتُ أن يكون هاتفها تحت المراقبة. وعندما جاء إنتسو ليأخذ جينّارو، قلت لنفسي: سأتحدَّث الآن معه في الأمر، لنرى كيف يتصرَّف. لكنّي التزمتُ الصمت حيال هذه الإمكانيّة أيضًا، خوفًا من

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

قول ما لا ينبغي لي قوله، وخوفًا من لفظ اسم الطيف المتخفّي وراء باسكوالي وناديا ليلا، أي ليلا كما عهدتُها؛ ليلا التي لا تقول الأشياء، بل تفعلها؛ ليلا التي تشرّبتْ ثقافة الحيّ ولا تُقيم أيَّ اعتبار لرجال الشرطة، والقوانين، والدولة، إنّما تؤمن بمقدرة السكِّين وحدها على معالجة بعض المشاكل؛ ليلا التي وجدت في النظريَّة الثوريَّة وتطبيقاتها ـ منذ فترة تردُّدها إلى الهيئة في شارع المحاكم ـ وسيلةً ناجعة لتوظيف رأسها المتّقد نشاطًا؛ ليلا التي حوَّلت أحقادها القديمة وغلَّها الحديث إلى أهداف سياسيّة؛ ليلا التي تحرِّك الناس كما لو كانوا شخصيّات حكايةٍ ما؛ ليلا التي ربطتْ، وما زالت، اعتيادنا الشخصيّ على الشقاء والظلم بالكفاح المسلَّح ضدَّ الفاشيّين، وضدَّ أرباب العمل، وضدَّ رأس المال. أعترف، هنا للمرَّة الأولى، بوضوح: شككتُ، في تلك الأيّام من سبتمبر، في أن ليس باسكوالي بمفرده ـ باسكوالي الذي تدفعه قصّته الشخصيّة نحو ضرورة حمل السلاح ـ وليس ناديا بمفردها، بل ليلا أيضًا شاركت في إراقة تلك الدماء. وكنت أراها، على مدار وقت طويل، بينما أطبخ، وبينما أنشغل بابنتَيّ، بصحبة ذينك الاثنين تطلق النار على جينّو، وعلى فيليبو، وعلى برونو سوكافو. ولئن كنت أستصعب تخيُّل باسكوالي وناديا في كلّ التفاصيل ـ كنت أعتبره شابًّا طيّبًا، دعيًّا نوعًا ما، وقادرًا على التنازع باليدين، لكنَّه ليس مستعدًّا للقتل إطلاقًا؛ وكانت هي تبدو لي فتاةً حسنة التربية، لا تستطيع الإيذاء إلّا بالمهاترات الكلاميّة ـ، لم يكن لديّ أدنى شكّ حيال ليلا: كانت قادرةً بالفعل على وضع أكثر الخطط فاعليّةً، والتخفيف من المخاطر إلى حدودها الدنيا. تتقن السيطرة على مسبِّبات خوفها، كما كان في مقدروها صبغ النيّات الإجراميّة بلون الصَّفاء المجرَّد، وتُحسن اقتلاعَ الجوهر الإنسانيّ من

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

الأجساد والدماء. ولم يكن لوساوس الضمير أن تؤنِّبها، ولا هي تتهيّب عذابات الندم. كان في استطاعتها أن تقتل، وأن تشعر بأنّها في جانب الحقّ.

ها هي ذاك، بكامل إشراقها، مع ظلّ باسكوالي ونادیا وآخرين ربّما يعبرون الساحة الصغيرة بالسيّارة، يُبطئون سرعتهم مقابل الصيدليّة ويُطلقون نيرانهم على جينّو؛ على جسده الشبيه بحامل الصولجان، من خلف مئزره الأبيض؛ أو ها هم يصلون إلى مصنع سوكافو، بعد عبور الدرب المغبّر، والفضلات من كلّ نوعٍ تتكدَّس على جانبيه. يجتاز باسكوالي البوّابة، ويطلق النار على ساقَيْ فيليبو، فتنزف دماؤه في ركن الحراسة، يصيح، والهلع يزعزع عينيه. ليلا، التي كانت تعرف الطريق جيّدًا، تعبر الباحة، تدخل المصنع، تصعد السلالم، تداهم مكتب برونو. وبينما هو يرحِّب بها فَرِحًا (أهلًا بكِ، ماذا جئتِ تفعلين في هذه الأرجاء)، تفجِّر ثلاث رصاصات في صدره وواحدةً في رأسه.

طبعًا، نضالٌ مسلّحٌ ضدّ الفاشيّة، مقاومةٌ جديدة، عدالة البروليتاريا ومفاهيم أخرى كانت ليلا بلا ريب قادرةً على منحها أهمِّيَّةً كبيرة، وهي التي تعرف، بفطرتها، كيف تتجنَّب اجترار المبتذل. تخيَّلتُ أنَّ هذه الأفعال لازمةٌ للانضمام إلى صفوف «الألوية الحمراء» مثلًا، أو «كتيبة الخطّ الأوّل»، أو «النواة البروليتاريّة المسلَّحة». كانت ليلا ستختفي من الحيِّ تمامًا كما فعل باسكوالي. ولعلَّها حاولت، لهذا السبب، أن تُبقي جينّارو لديّ مدّة شهر كما زعمتْ، لكنّها في الحقيقة تنوي أن تعطيني إيّاه إلى الأبد. لم نكن لنراها ثانية، أو ربَّما تمّ اعتقالها مثلما حدث لزعيمي الألوية الحمراء، كورتشو وفرانشسكيني. ومن الوارد أنّها أفلتت من كلّ شرطيٍّ وسجن، كما

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

اعتادت المجازفة تلبيةً لأهوائها ومتى أنجزت «المشروع العظيم»، ظهرت من جديد، ظافرةً، راضيةً عمّا فعلتْ، ترتدي بزّة القائد الثوريّ، لتقول لي: كنتِ تريدين كتابة الروايات، أمّا أنا فألّفتُ الرواية في الحقيقة، باستخدام أشخاصٍ حقيقيّين، بإراقة دماء حقيقيّة.

كانت خيالاتي، في الليل، تبدو لي أمرًا قد حدث فعلًا، أو في طريقه إلى الحدوث؛ وكنت أخشى عليها، وأراهم يطاردونها، وهي جريحةٌ، كالكثيرين والكثيرات في فوضى هذه الحياة. وكنت أشفق عليها، وأحسدها في الوقت ذاته. تعاظم يقيني الطفوليّ بأنّ مصيرَها المشاركةُ في عمليّاتٍ رهيبة؛ فأتحسّر لكوني هربتُ من ناپولي وابتعدتُ عنها، وعادت إليّ الحاجة إلى البقاء إلى جانبها أكثر إلحاحًا لكنّي كنت حانقةً لأنّها اتّخذت لنفسها تلك الطريق من دون أن تستشيرني، كما لو أنّها تعتبرني أدنى من ذلك المستوى؛ مع أنّي كنت أعرف الكثير عن رأس المال والاستغلال والنضال الطبقيّ وحتميّة الثورة البروليتاريّة. كان في إمكاني أن أشارك، وأكون مفيدة أيضًا. ألمّ بي الحزنُ. كنت أذوي في السرير، مستاءةً من وضعي كربّة أسرة، وامرأة متزوّجة، بينما يذبل المستقبلُ في تكرار الطقوس المنزليّة في المطبخ وسرير الزوجيّة حتى الموت.

كنت أشعر بنفسي أكثر جلاءً، خلال النهار، يغالبني الرعب. وأتخيَّل ليلا صاحبة النزوات تؤلّب أحقادًا مصطنعة، لينتهي بها المطاف إلى الضلوع في عمليّات أخرى أشدّ وطأةً وضراوة. كانت، بالتأكيد، شجاعةً بما يكفي للاندفاع أكثر، وأخذ زمام المبادرة بتصميم لامع وقسوةٍ سخيّة، كأنّها مثل الذين تحرّكهم أسبابٌ وجيهة. ولكنْ، بأيّ أفق؟ نشوب حربٍ أهليّة؟ تحويل الحيّ، وناپولي، وإيطاليا، إلى ساحة معركة؟ استنساخ حرب ڤيتنام في قلب المتوسّط؟ توريطنا جميعًا في

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

نزاعٍ مؤلم لا ينتهي، رابضٍ بين المعسكر الشرقيّ والمعسكر الغربيّ؟ العمل على نقل شرارته إلى أوروبا، والعالم بأسره؟ حتى النصر، دومًا؟ أيّ نصر؟ مدنٌ مدمَّرة، نيران، قتلى في الشوارع، تناحرٌ مشين، وصدامات دامية ليس ضدّ أعداء الطبقة العاملة فحسب، بل داخل الجبهة نفسها أيضًا، بين الجماعات الثوريّة من كلّ منطقٍ ومنطقة، وكلُّها تنادي باسم الطبقة البروليتاريّة ودكتاتوريّتها. وربّما نصل إلى حربٍ نوويّة أيضًا

كنت أغمض عينَيّ مذعورةً، على الطفلتين، والمستقبل، وأستنجد بعبارات مثل: «الفاعل المباغت»، منطق البطريركيّة الهدّام، قيمة الصمود الأنثويّ، الرأفة. عليّ أن أتكلَّم مع ليلا، أقول لنفسي. عليها أن تخبرني بكلِّ ما تفعله، وما تخطِّط له، كي يتسنَّى لي اتّخاذ القرار في التواطؤ معها أم لا

لكنِّي لم أتّصل بها أبدًا، ولا هي اتّصلتْ. اقتنعتُ بأنَّ الخطّ الصوتيّ الطويل، والذي كان وسيلة اتّصالنا الوحيدة لسنوات، لن ينفعنا. كنّا نحافظ على الرابط بين قصّتينا، ولكن بصيغة الطرح. صارت إحدانا للأخرى كينونةً مجرّدة، حتى إنّه كان في وسعي حينذاك أن أبتكرها على هوايَ، خبيرةً بالحواسيب تارةً، ومحاربةً مدنيَّة عنيدة ومغوارة تارةً أخرى، بينما كان من الوارد جدًّا أنَّها تراني على الصورة النمطيّة للمفكِّرة الناجحة، أو السيِّدة المثقَّفة ميسورة الحال، المشغولة بالأولاد والكتب والمحادثات رفيعة المستوى مع زوجها الجامعيّ. كان لدى كلتينا حاجةٌ إلى صلابة جديدة، وجسدٍ كنّا قد ابتعدنا عنه ولم يعد في إمكاننا الحصول عليه.

٨٨

مرّ شهر سبتمبر كلّه هكذا، ثم تلاه على النحو ذاته أكتوبر لم أكن أتحدَّث مع أحد، حتى مع آديلي التي كان لديها الكثير من العمل، وحتى مع ماريّاروزا التي جاءت بفرانكو إلى بيتها ـ فرانكو العليل، المحتاج إلى الرعاية، وقد غيَّر الاكتئاب طباعه ـ وكانت تتلّقى مكالماتي بكلِّ سرور، وتعدني بإبلاغه تحيّاتي، لكنَّها تضطرّ إلى توديعي لكثرة ما لديها من التزاماتٍ ضاغطة. هذا إذا استثنينا خرس بييترو. كانت الحياة خارج الكتب تثقل عليه أكثر فأكثر. يذهب من دون رغبة إلى الفوضى التي استتبَّت في الجامعة، وغالبًا ما كان يتعلَّل بالمرض. كان يقول إنّه يفعل ذلك كي يتفرَّغ للبحث، لكنَّه لا يتمكَّن أبدًا من استئناف العمل على كتابه، وقلّما انكفأ في مكتبه للدراسة، بل راح يهتمّ بإيلسا، ويطبخ ويمسح ويغسل ويكوي، لكأنّه يقدِّم عذره ويطلب المغفرة. وقد توجَّب عليَّ أن أعامله بسوء كي أدفعه إلى العودة إلى الكلِّيَّة، ثم سرعان ما ندمتُ على ذلك. بتُّ أخشى عليه، منذ أن دهس العنفُ أشخاصًا أعرفهم. وعلى الرَّغم من وقوعه في مواقف خطيرة، فإنه لم يكن يتوانى أبدًا عن معارضته المعلنة ما كان يفضِّل

مكتبة الرمحي أحمد
telegram @ktabpdf

وصفه بـ «مزبلة الأغبياء» التي يتكوَّم فيها طلبته وكثيرٌ من زملائه. ولم أكن أراه صائبًا في موقفه، على الرَّغم من قلقي عليه، بل ربّما بسبب قلقي عليه تحديدًا كنت آمل أنّ انتقادي له قد يدفعه إلى تلافي أخطائه، والإقلاع عن مبادئه الإصلاحيّة الرجعيّة (كنت أستخدم هذا المصطلح)، واتّباع أسلوبٍ سهل المأخذ. لكنّ انتقاداتي، في رأيه، كانت تسوقني مرّة أخرى إلى الانحياز إلى جانب الطلبة الذين ينصبون له العداء، والأساتذة الذين يَحوكون له الدسائس.

لم يكن الأمر كذلك، بل كان أشدّ تعقيدًا كنت أسعى إلى الدفاع عنه بشكل مشوَّش، من جانب، وأشعر بأنّي أناصر ليلا وأذود عن الخيارات التي أنسبها إليها في سرِّي، من جانب آخر حتى إنّي كنت أفكِّر في الاتِّصال بها بين الحين والحين، لأحدِّثها عن بييترو أوَّلًا، وعن نزاعاتنا، لعلَّها تُسعفني برأيها، وقد أخرجها من وكرها، من سيرَة إلى أخرى. لم أفعلها بطبيعة الحال، كان من السخف استجداء الصدق بشأن مواضيع كتلك من خلال الهاتف. لكنَّها، ذات مساء، بادرت بنفسها بالاتِّصال بي، وكانت في منتهى السعادة.

«عليّ أن أزفّ إليك نبأً سارًّا».

«ماذا حدث؟»

«أصبحتُ مديرة».

«ماذا تقصدين؟»

«مديرة مركز إحصاءٍ آليّ، استأجره ميكيلي من شركة IBM».

بدا لي الأمر لا يُصدَّق. طلبتُ منها أن تُعيده على مسمعي، وأن تزيدني شرحًا. هل قبلتْ عرض سولارا؟ هل عادت تتبع له، بعد مقاومة كبيرة، كما في عهد المحلّ في ساحة الشهداء؟ أجابت بنعم، ملتهبة الحماسة، وازداد تفاؤلها، وغدت أكثر وضوحًا: كان ميكيلي قد

أوكل إليها النظام ٣ الذي استأجره، ونصبه في مستودع للأحذية في آشيرّا؛ وثمّة عمّالٌ ومثقّباتٌ رهن إشارتها؛ لتتقاضى راتبًا يبلغ أربعمئة وخمسة وعشرين ألف ليرة في الشهر.

ساءني الخبر. لم تتبدّد صورة المحاربة من ذهني في ظرف ثانية واحدة فحسب، بل تداعى كلّ ما كان يبدو لي أنّي أعرفه عن ليلا قلت:

«هذا آخر ما كنت أتوقّعه منكِ».

«وماذا كان عليّ أن أفعل؟»

«ترفضين».

«لماذا؟»

«نعلم جيّدًا من هما الأَخَوان سولارا».

«وهذا العرض؟ لقد عملتُ عند ميكيلي من قبل، وكنت في حال أفضل من حالي عند سوكافو القمِيء».

«افعلي ما يحلو لكِ».

سمعتُ زفيرها قالت:

«لا تعجبني هذه النبرة يا لينو. سأتقاضى أجرًا أعلى من أجر إنتسو، علمًا بأنّه ذَكَر فما السيِّئ في الأمر؟»

«لا شيء».

«الثورة، العمّال، العالم الجديد وباقي ما تبقّى من ترّهات؟»

«توقّفي عن هذا حين تقرِّرين فجأةً فتح نقاش حقيقيّ، فأنا موجودة؛ وإلّا فلننس الأمر».

«هلّا سمحتِ لي بملاحظة؟ تستخدمين دومًا كلمات مثل «حقيقيّ» و«حقًّا»، سواء عندما تتكلّمين أو عندما تكتبين. وتكرّرين «فجأةً»

أيضًا منذ متى تحدّث الناس «بشكل حقيقيّ»، ومنذ متى حدثت الأشياء «فجأة»؟ تعلمين أكثرَ منّي بأنَّ الغموض والتعقيد يكتنفان كلّ شيء، وأنّ الأحداث تتسلسل متتاليةً بعضها خلف بعض. أنا لم أعد أفعل أيّ شيء «حقيقيّ» يا لينو؛ وقد تعلّمتُ أن أتوخَّى الحذر إزاء أيّ شيء. ووحدهم الحمقى يظنُّون أنّ الأشياء تحدث «فجأة»».

«أحسنتِ. ما الذي تريدين إقناعي به؟ أنّ كلّ شيء تحت سيطرتكِ، وأنّكِ أنتِ التي تتحكّمين في ميكيلي، لا العكس؟ فلننس الأمر، هيّا، وداعًا».

«بل تكلّمي. قولي ما يجب قوله».

«ليس عندي ما أقول».

«تكلَّمي، وإلّا تكلَّمتُ».

«تكلَّمي إذن، أسمِعيني ما عندكِ».

«أنتِ تنتقدينني، بينما لا تقولين شيئًا لأختكِ؟»

هويتُ من بين الغيوم:

«ما شأن شقيقتي الآن؟»

«لا تعلمين أيّ شيء عن إيليزا؟»

«ماذا عليّ أن أعلم عنها؟»

ضحكتْ بلؤم.

«اسألي أمّكِ، أباكِ، وإخوتكِ»

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

٨٩

لم تشأ أن تفصح لي بأكثر من ذلك، أنهتِ المكالمة بغضب ساخط. فاتّصلتُ ببيت أهلي، مضطربةً، وردّت أمّي على الهاتف.

«تتذكّرين أنّنا موجودون من حين إلى حين»، قالت.

«ما الذي حدث لإيليزا يا أمّاه؟»

«ما يحدث للإناث في هذه الأيّام جميعًا».

«ماذا تقصدين؟»

«ارتبطت بشابّ»

«هل خُطِبتْ؟»

«فلنَقُل ذلك».

«بمن ارتبطت؟»

اخترق الجواب قلبي.

«بمارتشيلّو سولارا».

هذا ما أرادت ليلا منّي أن أعرفه، إذن. مارتشيلّو، مارتشيلّو الوسيم الذي حلمنا به في أوائل مراهقتنا، خطيبها العنيد وخائب

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

الأمل؛ الشابّ الذي أهانته ليلا بزواجها من ستيفانو كارّاتشي، استحوذ على قلب شقيقتي إيليزا، آخر العنقود في العائلة، شقيقتي الطيِّبة، المرأة التي كنت أشعر بأنَّها لا تزال طفلةً سحريَّة. وإيليزا لم تمانع. ووالداي وأخواي لم يحرِّكوا إصبعًا للحيلولة دون ذلك. سينتهي المطاف بجميع أفراد أسرتنا، بشكل أو آخر، في مصاهرة آل سولارا

«منذ متى؟» سألتُ.

«ما أدراني. منذ نحو العام».

«وهل باركتم الخطوة؟»

«وهل طلبتِ منّا المباركة؟ فعلتِ ما راق لكِ. وها هي أيضًا تفعل الشيء ذاته».

«بييترو ليس مارتشيلّو سولارا».

«معكِ حقّ؛ مارتشيلّو لن يرضى بأن تعامله إيليزا مثلما يرضى بييترو بأن تعامليه»

ساد الصمت.

«كان في وسعكم إعلامي، كان في وسعكم استشارتي».

«ولماذا؟ أنتِ رحلتِ عنّا «سأفكِّر أنا في شأنكم، لا تقلقوا» أيُّ هراءٍ هذا؟ لم تفكِّري إلّا في شؤونكِ، ولم تكترثي لوضعنا إطلاقًا».

قرّرتُ الانطلاق إلى نابولي مع الطفلتين في الحال. أردتُ السفر بالقطار، لكنّ بييترو عرض أن يأخذنا بالسيّارة، متذرِّعًا بحجّة ضجره من العمل. وما إن اجتزنا دوغانيلا، عند تخوم المدينة، وعلقنا في زحمة السير الغوغائيّة، التي تمتاز بها نابولي، حتى شعرتُ بأنّ المدينة تطبق عليّ خناقها من جديد، وتسيّرني قوانينُها غير المكتوبة. لم تطأها

قدماي منذ أن غادرتُها للزواج. بدت لي الضوضاءُ لا تُطاق، وثارت أعصابي من صياح السائقين الشرس، ومن شتائمهم التي وجّهوها إلى بييترو، كلّما تردَّد أو أبطأ سرعته، نظرًا إلى عدم معرفته الطريق. أرغمته على التوقُّف، قبل ساحة شارل الثالث بقليل، جلستُ خلف الدفّة وقدتُ السيّارة بعدائيّة حتى شارع فلورنسا، حتى الفندق نفسه الذي نزل فيه منذ عدَّة أعوام. وضعنا الحقائب. وتفرَّغت لعنايةٍ مفرطة بمظهري ومظهر ابنتَيّ. ثم ذهبنا إلى الحيِّ، إلى بيت أهلي. ما الذي ظننتُ أنِّي قادرة على فعله، أن أفرض على إيليزا سلطة الأخت الكبرى، المتخرِّجة من الجامعة، صاحبة الزيجة الموفَّقة؟ أن أدفعها إلى فسخ الخطوبة؟ أن أقول لها: إنّي أعرف مارتشيلّو منذ أن أمسك بمعصمي وحاول أن يزجّني في سيّارته قسرًا، فحطّم سوار أمّي الفضِّيّ، لذا ثقي به، إنَّه رجلٌ عنيف ودنيء؟ أجل. كنت أشعر بالتصميم على إنجاز مهمّتي؛ أن أنقِذ إيليزا من تلك الورطة.

استقبلت أمّي بييترو بحفاوة كبيرة، وأعطت ابنتَيّ كثيرًا من الهدايا الصغيرة، واحدةً تلو الأخرى، ـ هذه لديدي حبيبة جدّتها، وهذه لإيلسا ـ فابتهجت بها الطفلتان، كلٌّ على طريقتها. تأثَّر صوت والدي من شدَّة العاطفة، وبدا لي هزيلًا، وأكثرَ رضوخًا من قبل. انتظرتُ ظهور أخوَيّ، لكنِّي اكتشفتُ أنَّهما لم يكونا في المنزل.

«إنَّهما يعملان دومًا»، قال والدي على مضض.

«ماذا يعملان؟»

«يشقيان»، تدخّلت والدتي.

«أين؟»

«رتّب لهما مارتشيلّو عملًا ما»

تذكّرتُ كيف «رتَّب» الأخوان سولارا عملًا لأنطونيو، وكيف

telegram @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

تدهورت أوضاعه بعدئذ.

«ما طبيعة عملهما بالتحديد؟»

ردّت والدتي ساخطة:

«يأتيان بالنقود إلى البيت، وهذا يكفي. ليست إيليزا مثلكِ يا لينو؛ إيليزا تفكِّر فينا جميعًا».

تظاهرتُ بأنّي لم أسمعها

«هل أخبرتموها بأنّي سأصل اليوم؟ أين هي؟»

طأطأ والدي رأسه، وقالت والدتي بجلافة:

«في بيتها؟»

«لم تعد تسكن هنا؟»

«لا».

«منذ متى؟»

«منذ قرابة الشهرين. تسكن مع مارتشيلّو في شقّة جميلة في الحيّ الجديد»، قالت والدتي بنبرة جامدة.

٩٠

تعدّت مرحلة الخطوبة إذن. أردتُ الذهاب إلى بيت إيليزا في الحال، على الرَّغم من تكرار والدتي: «ماذا تفعلين، شقيقتك تحضِّر لكِ مفاجأة، ابقي هنا، سنذهب جميعًا إليها لاحقًا». لم أكترث لأوامرها اتّصلتُ بإيليزا، فأجابت بسعادةٍ وارتباكٍ معًا. قلت: «انتظريني، سآتي إليكِ على الفور». تركتُ بييترو والطفلتين برفقة أبوَيّ، وتحرَّكتُ سيرًا على قدمَيّ.

بدا لي الحيّ في وضع أكثر تدهورًا المباني كالحة، وأرضيّة الطرقات ملأى بالحفر والقاذورات. نعوات الوفيّات تكتسح الجدران ـ لم أرَ منها بهذا القدْر أبدًا من قبل ـ وعلمتُ من إحداها بأنّ العجوز أوغو سولارا، جدّ مارتشيلّو وميكيلي، قد أسلم الروح. توفّي منذ فترةٍ ليست بقصيرة، كما يشير التاريخ، منذ شهرين تقريبًا، وكان الشحوب والامتقاع يعتليان عبارات الرثاء الجهيرة، ووجوه العذراء المتألِّمة، واسم الفقيد نفسه. وعلى الرَّغم من ذلك، فإن نعوات الوفيّات كانت تقاوم في الشوارع، كما لو أنَّ الموتى الآخرين قرَّروا، أن يختفوا بكلِّ رزانةٍ عن هذا العالم على غفلةٍ من الجميع. رأيتُ الكثير من النعوات،

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

حتى حول مدخل ملحمة ستيفانو. كانت أبوابها مفتوحة، لكنّها بدت لي مجرَّد ثغرة في الجدار، مظلمةً، ومقفرةً؛ وقد ظهر كارّاتشي في عمقها، بمئزره الأبيض، ثم اختفى كالشبح.

صعدتُ نحو السكك الحديديّة. مررتُ مقابل ما كنّا نسمِّيه في الماضي الملحمة الجديدة. كان الصدأ يغزو ستارها المعدنيّ المُسدَل، وقد حاد جزئيًّا عن سكّته، بينما تلطِّخُها الكتاباتُ والرسومُ المشينة. وبدا أنّ كلّ ذلك الجزء من الحيّ مهجورٌ، إذ فقد نصاعة بياضه وغدا رماديًّا، حتى إنّ الملاط في بعض النقاط تراخى ليكشف عن حجارة البناء. مررتُ إلى جانب البناية التي كانت ليلا قد سكنت فيها لم يصمد سوى القليل من تلك الشجيرات المنهَكة. وثمّة شريطٌ لاصق يشدّ على الفجوة في زجاج بوّابة المدخل. كانت إيليزا تعيش على مسافة أبعد، في منطقةٍ أكثر أبّهةً، حافظت على رونقها بشكل أفضل. أطلّ حارس البناية. كان رجلًا ضامر البنية، أصلع الرأس، ناعم الشاربين، واعترض طريقي، وسألني بحدَّةٍ عمّن كنت أبحث. تردَّدتُ في ما أجيب، فغمغمتُ: سولارا اتّخذ وجهه تعبيرًا مُجِلًّا، وسمح لي بالمرور.

ما إن دخلت المصعد، حتى أحسستُ بأنّي عدتُ إلى الخلف أعوامًا. فما قد يبدو لي مقبولًا في ميلانو أو فلورنسا ـ حرِّيَّة المرأة في التعامل مع جسدها ورغباتها، مشروعيّة المساكنة من دون زواج ـ بدا لي في الحيِّ أمرًا شديد الغرابة. فمستقبل شقيقتي كان مهدَّدًا، ولم أتمكَّن من تهدئة أعصابي. هل كانت إيليزا تبني بيتها مع شخص خطير مثل مارتشيلّو؟ وأمّي كانت سعيدةً بذلك؟ أمّي التي أقامت الدنيا ولم تقعدها لأنّي تزوَّجتُ زواجًا مدنيًّا وليس وفق الطقوس الدينيّة، وهي التي كانت تعتبر ليلا عاهرةً لأنّها تساكن إنتسو، وآدا قحبةً كبرى لأنّها

telegram @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

أصبحت عشيقة ستيفانو، هي نفسها وافقت على أن تنام ابنتُها الصغيرة مع مارتشيلّو سولارا ـ رجل سيئ الخُلُق ـ من دون زواج؟ كانت أفكارٌ من هذا النوع تجول في خاطري، بينما كنت أصعد إلى إيليزا، فضلًا عن غضبٍ كنت أعتبره صائبًا لكنّ رأسي المنضبط كان يشعر بالضياع، واحترتُ إلى أيّ أسبابٍ منطقيّة أستند: تلك التي كانت والدتي ستستخدمها منذ أعوام مضت لو أنّي اتَّبعتُ خيارًا من ذلك النوع؟ هل سأنحدر إلى مستوًى كانت أمِّي نفسها قد ترفَّعتْ عنه؟ هل كنت سأقول: اذهبي وعيشي مع من تشائين، إلّا مارتشيلّو سولارا؟ هل سأقول هكذا؟ ولكن، هل لي أن أُرغم فتاةً ما، اليومَ، في فلورنسا، أو ميلانو، على هجر الرجل الذي تحبّ، أيًّا تكن شخصيّته؟

فتحت لي إيليزا الباب، فضممتُها بقوّة حتى غمغمتْ ضاحكةً: إنَّكِ تؤلمينني بعناقكِ. شعرتُ بارتيابها وهي تسوقني إلى الصالة ـ صالة بهيّة تغصّ بالدواوين والأرائك المتّشحة برسوم الأزهار والمساند المذهّبة ـ وبدأت تحدِّثني بانسياب، ولكن في موضوع مختلف: كم أنتِ جميلة، ما أحلى قرطيك، ما أروع طوقكِ، كم أنتِ أنيقة الهندام. وكانت متلهِّفةً إلى التعرُّف إلى ديدي وإيلسا، فوصفتُهما لها بحماسة، ونزعتُ عنِّي القرطين، وجعلتُها تجرّبهما أمام المرآة، وأهديتُهما لها رأيتُ أنّها تزداد إشراقًا، ضحكتْ وغمغمتْ:

«لقد خشيتُ أنّكِ أتيتِ لتوبِّخيني، لتقولي إنّكِ تعارضين علاقتي بمارتشيلّو».

حدَّقتُ إليها لحظةً طويلة، وقلت:

«إيليزا، أنا أعارض هذه العلاقة. وقد قمتُ بكلِّ تلك الرحلة كي أقول ذلك لكِ ولأمِّي وأبي وأخوَيّ».

تغيَّر تعبير وجهها، واغرورقت عيناها بالدموع.

«أنتِ الآن تحزنينني. لماذا تعارضين؟»

«آل سولارا أناسٌ سيِّئون».

«مارتشيلّو مختلفٌ عنهم».

وراحت تحدِّثني عنه. قالت إنَّ كلّ شيء بدأ حين كنتُ حبلى بإيلسا جاءت أمّنا للبقاء عندي، فوجدتْ نفسها مسؤولة عن حاجات الأسرة كلّها. ذات مرّة، ذهبت لشراء الأغراض من متجر سولارا، فقال لها رينو، شقيق ليلا، إنّه سيأمر أحدًا بتوصيل الأغراض إلى البيت، إذا تركتْ لديه لائحة المشتريات. وبينما كان رينو يتكلّم، انتبهتْ إلى أنَّ مارتشيلّو يومئ إليها بتحيّةٍ من بعيد، ملمِّحًا بأنّه هو الذي أمر بتلك الخدمة. وأخذ يحوم حولها، منذ ذلك الحين، ويُغدق عليها لطفه. فقالت إيليزا لنفسها: إنّه متقدِّمٌ في السنِّ، لا يعجبني. لكنَّه أكثر من حضوره في حياتها، بأخلاقٍ حسنة، ولم تخرج منه أيّ حركة أو كلمة تدلّ على دناءة آل سولارا. كان مارتشيلّو رجلًا مهذَّبًا حقًّا، يُشعرها بالأمان، لما له من مهابةٍ وحظوةٍ يبدو بفضلهما طويلًا عشرة أمتار. وليس هذا فحسب. تغيَّرت حياة إيليزا منذ أن بات اهتمامه بها واضحًا أخذ الجميع، في الحيّ والخارج على حدٍّ سواء، يعاملونها كأنّها ملكة، ويمنحونها أهمِّيَّةً قصوى. كم كان ذاك الإحساس رائعًا، لم تَعْتَدْ عليه من قبل. قالت لي: «في السابق تكونين لا أحد، ثم سرعان ما تصيرين معروفةً حتى لدى فئران المجاري. بالتأكيد، أنتِ ألّفتِ كتابًا، وبتِّ مشهورة، وقد اعتدتِ على ذلك، أمّا أنا فصُدمِتُ بذلك كثيرًا». لقد تهيّجتْ عواطفها حين عرفت أنّ بالها سيستريح، فمارتشيلّو يهتمّ بكلِّ شيء، وكلّ ما تطلبه منه محقَّقٌ. وهكذا ازدادت عشقًا له، مع مرور الوقت. حتى صارت تسهر الليل كلّه باكيةً، إذا مرّ يومٌ لم تره فيه أو تسمع صوته.

مكتبة الرمحي أحمد telegram @ktabpdf

لاحظتُ أنّ إيليزا مقتنعة بأنّها محظوظةٌ بما يفوق الخيال، وأدركتُ أنّي عاجزة عن إفساد سعادتها ثم إنّها لم تترك لي حجَّة: مارتشيلّو قادر، مارتشيلّو مسؤول، مارتشيلّو وسيم، مارتشيلّو كامل الأوصاف. وكانت تحرص، في كلّ كلمة تقولها، على تمييزه عن عائلة سولارا، وعلى الحديث باستلطافٍ حذرٍ عن أمّه تارةً، وتارةً عن أبيه الذي كانت معدته تؤلمه جدًّا وقلَّما خرج من البيت، وعن جدّه المرحوم تارةً، وحتى عن ميكيلي الذي كلّما عاشرتْه بدا لها مختلفًا هو الآخر عمَّا يُشيع عنه الناس، وملءُ قلبه الرأفةُ. «لذا، صدّقيني» ـ قالت لي ـ «لم أشعر بهذه السعادة منذ أن وُلدتُ، حتى أمّي، وأنتِ تعرفين طباعها جيّدًا، تقف إلى جانبي، وأبي، وجانّي وبيبّي، اللذان كانا عاطلين عن العمل طوال النهار في ما مضى، وظَّفهما مارتشيلّو لديه بأجر طائل».

«لماذا لا تتزوَّجان، إن كانت الأمور هكذا؟» سألت.

«سنفعلها لكنّ هذه الآونة ليست خير توقيت. مارتشيلّو يقول إنّه ملتزم بتنظيم الكثير من المشاريع المعقّدة. ثم ما زال الحداد على الجدّ قائمًا، مسكين، كان قد فَقَدَ صوابه، ولم يعد يتذكَّر كيف يمشي وكيف يتكلَّم، فاستعاد الربّ أمانته وأراحه. لكنَّنا سنتزوَّج متى تعدَّلت الأمور، اطمئنّي. ثم من الأفضل أن نتحقّق من قابليّتنا للعيش معًا، قبل الوصول إلى الزواج؛ أليس كذلك؟»

أخذت تتفوّه بكلماتٍ ليست بكلماتها، كلمات فتاة حداثيّة تعلّمتْها من الجرائد الهابطة التي كانت تقرأها قارنتُ كلماتها بتلك التي كان من الممكن أن أتلفَّظ بها عن المواضيع ذاتها، وتبيَّن لي أنّه لم يكن بينهما فارقٌ كبير، سوى أنَّ لكلمات إيليزا رنينًا بدائيًّا نوعًا ما. بم أردّ؟ احترتُ في الردّ عند بداية ذلك اللقاء، وما زلت حينذاك في حيرةٍ

من أمري. كان في وسعي أن أقول: لا داعي للتحقُّق يا إيليزا، الأشياء في منتهى الوضوح: مارتشيلّو سيستهلكك؛ سيقضي حاجته من جسمكِ ثم يرميكِ. لكنّ هذا الخطاب بدا لي قد عفا عليه الزمن، لم يكن لأمِّي نفسها أن تجازف في قوله لها لذا استسلمتُ. أنا هربتُ، وإيليزا بقيتْ. ما الذي كان سيحلّ بي لو بقيتُ أنا أيضًا؟ أيّ خيارات كنت سأتّبعها؟ ألم أكن معجبة أنا أيضًا بالأخَوَين سولارا في صِغَري؟ وفي المحصّلة، ما الذي كسبتُه من هروبي؟ لم أكسب حتى القدرة على إيجاد كلماتٍ عاقلة أقنع بها شقيقتي بتجنُّب الهلاك. كان لإيليزا وجهٌ جميل، ناعم جدًّا، وصوتٌ حنون، وجسدٌ يخلو من أيّ شطط. وكنت أذكر أنّ مارتشيلّو وسيمٌ وطويل القامة، ووجهُه المربوع يصدح بألوان العافية، مفتولُ العضلات، ذو مشاعر عاطفيَّة مكثَّفة: لقد أثبت ذلك عندما أحبّ ليلا، ولا يبدو أنَّه هام بقصص عشق أخرى منذ ذلك الحين. فماذا أقول، إذن؟ أمسينا، وقد ذهبت إيليزا لتحضِر علبةً ما، وأرتني كلّ المجوهرات التي أهداها إياها مارتشيلّو، فبدا القرطان اللذان أهديتُهما لها بلا قيمة مقارنةً مع تلك الأعطيات.

«توخّي الحذر»، قلت لها، «لا تتيهي. وإن احتجتِ إليّ، اتّصلي بي».

أخذتُ بالنهوض، فإذا هي تمنعني ضاحكةً.

«إلى أين تذهبين؟ ألم تخبركِ أمّي؟ سيأتي الجميع للعشاء هنا لقد أعددتُ الكثير من الطعام»

أبديتُ احتجاجي.

«مَن تقصدين بالجميع؟»

«الجميع: إنّها مفاجأة».

٩١

وصل، في البدء أبي وأمّي، والطفلتان وبييترو. حازت ديدي وإيلسا على هدايا جديدة من إيليزا التي احتفت بهما كثيرًا (ديدي، أيّتها الحلوة، أعطيني قبلة كبيرة؛ إيلسا، كم أنتِ جميلة وسليمة، اقتربي من عمّتكِ، أتعلمين بأنني وأنتِ نحمل الاسم ذاته؟). اختفت والدتي في المطبخ بسرعة، مطأطئة الرأس، من دون أن تنظر إليّ. حاول بييترو أن يأخذني على انفراد ليُخبرني بأمر خطير يسعى إلى تبرئة نفسه منه، لكنَّه لم ينجح، إذ جرَّه والدي إلى الجلوس على الأريكة قبالة التلفاز، أضاءه وأبقى الصوت مرتفعًا للغاية.

ظهرت، بعد قليل، جيليولا وابناها، ذكران مشاكسان سرعان ما تآلفا مع ديدي، بينما كانت إيلسا مرتبكةً، تلوذ في حضني. بدت جيليولا خارجةً للتوّ من عند الحلّاق، تخطو بحذائها عالي الكعب، ويبرق الذهبُ على أذنيها وعنقها وساعديها. كانت ترتدي فستانًا أخضر متألِّقًا، يضيق على جسمها البدين؛ فستانًا مكشوف الجوانب إلى حدٍّ كبير، وقد أفرطتْ في وضع مساحيق التجميل، وكانت تفرك وجهها مرارًا. توجَّهت إليَّ بازدراء، وبلا مقدِّمات:

مكتبة الرمحي أحمد
telegram @ktabpdf

«ها نحن ذا، جئنا احترامًا لكما خصّيصًا أيّها الأساتذة. كلّ شيء على ما يرام يا لينو؟ ذاك هو العبقريّ الجامعيّ؟ تبًّا، ما أجمل شعر زوجكِ».

تخلَّص بييترو من والدي الذي كان يشبك كتفيه بذراعه، ووثب واقفًا بابتسامة خجولة ولم يتمالك نفسه. ركّز نظراته غريزيًّا في صدر جيليولا المنفوخ كموجة عاتية. فانتبهتْ إلى ذلك، وأسعدها الأمر

«استرحْ، استرحْ»، قالت له، «وإلّا أخجلتَني. فهنا لم نرَ الرجال ينهضون للسلام على السيِّدات أبدًا»

شدَّ والدي زوجي إليه، خشية أن يسرقوه منه، وشرع يحدِّثه عن شيء ما على الرَّغم من ارتفاع صوت التلفاز. سألتُ جيليولا عن أحوالها، ملمّحةً بنظرتي ونبرة صوتي إلى أنّي لم أنس بوحها وتعاطفي معها. ولا بدّ من أنّ ذلك لم يَرُقْ لها، قالت:

«اسمعي يا حلوة، أنا بخير، أنتِ بخير، وجميعنا بخير. ولكن لو لم يأمرني زوجي بالمجيء إلى هنا لأصدِّع رأسي، لبقيتُ في بيتي هنيئة البال. وجب التوضيح».

لم أتمكَّن من الردّ عليها، إذ قرع أحدهم جرس الباب. تحرَّكت شقيقتي برشاقة، بدت كأنّها تتزلّج على خيطٍ من الريح، وهرعتْ لتفتح. سمعتُها تهتف: كم أنا سعيدة، تفضَّلي بالدخول يا أمّاه. عادت إلينا وهي تمسك بيد حماتها مستقبلًا، مانويلا سولارا، التي ارتدت فستان سهرة، ووضعت زهرة مصطنعة في شعرها ذي الصبغة الضاربة إلى الحُمرة. كانت عيناها تتَّشحان بطيف ألم، مرصَّعتين كلّ في جوفها العميق. وكانت أكثر هزلًا من آخر مرّة رأيتُها فيها، وقد باتت جلدًا على عظم أو تكاد. أطلّ ميكيلي برأسه من خلفها، أنيق الثياب، حليق الذقن، بقوّته الصارمة في نظراته وتلويحات يديه الهادئة. وبعد برهة،

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

ظهر رجلٌ كلّ ما فيه ضخم: طويلُ القامة، كبيرُ القدمين، عريضُ الساقين، منفوخُ الخصر والجذع والكتفين بمادّةٍ ثقيلة وشديدة الضغط، كبيرُ الرأس، واسعُ الجبين، طويلُ الشعرِ فاتحِ اللون مسرَّحًا إلى الخلف، ولحيتُه برّاقة كفحم الأنتراسيت. إنّه مارتشيلّو. حصلتُ على التأكيد من إيليزا التي توسَّلتْ بشفتيها إليه كما لو كان إلٰهًا يستوجب العرفان والإجلال. انحنى ليلثم ثغرها بشفتيه، بينما كان والدي ينهض، وبييترو يقف مرتبكًا، ووالدتي تتعجَّل بالمجيء من المطبخ بخطوتها العرجاء. أدركتُ أنَّ حضور السيّدة سولارا كان بمثابة حدثٍ استثنائيٍّ، ومدعاةٍ إلى المفخرة. همست إليّ إيليزا متأثِّرةً: بلغت حماتي عامها الستِّين اليوم. آه، قلت وأنا مذهولة من أنّ مارتشيلو بمجرّد دخوله، توجَّه مباشرةً إلى زوجي كما لو أنَّهما متعارفان منذ زمن بعيد. جاء إليه بابتسامة نقيَّة أكثر ممَّا يجب، وصاح: «كلّ شيء على ما يرام يا بروفسور». «ماذا تقصد بكلِّ شيء؟» أجابه بييترو بابتسامة مضطربة، ثم نظر إليّ وهو يهزّ رأسه متأسِّفًا، كما لو أنَّه يقول لي: لقد فعلتُ أقصى ما أستطيع. وددتُ لو أنّه يشرح لي الأمر، لكنّ مارتشيلّو كان يعرِّفه إلى مانويلا: «تعالي يا أمّي، هذا هو البروفسور زوج لينوتشا، اجلسي هنا إلى جواره» توجَّه إليها بييترو بشبه انحناءة، واضطررتُ أنا أيضًا إلى إلقاء التحيّة على السيِّدة سولارا، إذ قالت: «كم أنتِ جميلة يا لينو، جميلة مثل شقيقتكِ»؛ ثم سألتني بما يشبه الفزع: الطقس حارٌّ هنا في الداخل، ألا تشعرين بالحرارة؟ لم أُجبها، كانت ديدي تتباكى وتناديني، وجيليولا ـ الوحيدة التي أظهرت عدم اهتمامها بحضور مانويلا ـ تصرخ بالعامّيّة متوعِّدةً ابنيها اللذين أذيا ابنتي. لاحظتُ أنّ ميكيلي كان يمعن فيّ أنظاره صامتًا، من دون حتى أن يقول لي مرحبًا فرحَّبتُ به بنفسي، بصوتٍ مرتفع، ثم حاولتُ أن

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

أهدِّئ روع ديدي وإيلسا التي شاهدت أوجاع شقيقتها، فأوشكت على البكاء بدورها قال لي مارتشيلّو كم أنا سعيد باستضافتكم في منزلي، إنّه شرف عظيم بالنسبة إليّ، صدِّقيني. والتفتَ إلى إيليزا، كما لو أنّ الحديث معي مباشرةً يفوق طاقته: قولي لها كم أنا سعيد، فأختكِ تُشعرني بالدونيّة. غمغمتُ بشيء ما كي أطمئنه، لكنّ أحدهم قرع الباب مجدّدًا في تلك اللحظة.

هبّ ميكيلي ليفتح، وعاد بعد هنيهة معبّرًا عن سروره. تبعه رجل عجوز يجرّ بعض الحقائب، «حقائبي»، التي تركناها في الفندق. أشار ميكيلي إليّ، فوضع الرجل الحقائب أمامي كأنّه يؤدّي إحدى ألعاب الخفّة كي أتسلّى. «كلّا، كلّا»، هتفتُ، «سأغضب منكم». فإذا إيليزا تعانقني وتقبِّلني قائلةً: المكان متوفِّر هنا، عزّ علينا أن تنزلوا في الفندق، لدينا غرف كثيرة وحمّامان. في أيّ حال، نوّه مارتشيلّو، لقد طلبتُ الإذن من زوجكِ مسبقًا، لم أكن لأغامر بمبادرة كهذه؛ ها يا بروفيسور، تكلَّمْ مع زوجتك، أرجوك، دافع عنِّي. لوّحتُ بيديّ غاضبةً، لكنّي كنت أبتسم: يا إلٰهي، أيّ بلبلةٍ هذه، شكرًا يا مارتشيلّو على لطفك، لكنّنا لا نستطيع قبول الدعوة حقًّا حاولتُ أن أُعيد الحقائب إلى الفندق. إلّا أنّ ديدي كانت تبكي، فتوجّب عليّ الانشغال بها، قلت لها أريني ماذا فعل بكِ ذانك الولدان، لا شيء، ستُشفى بقبلة واحدة، اذهبي للَّعب، خذي معكِ إيلسا أيضًا. ناديتُ على بييترو، الذي كان محبوسًا في دوائر مانويلا سولارا أرجوك يا بييترو، تعال إلى هنا، ماذا قلت لمارتشيلّو، لا يمكننا النوم هنا ولاحظتُ أنَّ لكنتي العامِّيَّة تزداد وضوحًا، بفعل العصبيَّة، وأنّي لفظتُ بعض الكلمات تلقائيًّا بناپوليّة أهلّ الحيّ، وأنَّ الحيّ ـ من الفِناء، إلى الشارع العامّ، فالنفق ـ كان يفرض عليّ لهجته، وأسلوبه في الفعل

وردّ الفعل، ويفرض عليّ أشكاله، تلك التي بدت لي في فلورنسا صورًا متهالكة، بينما كانت تتجسَّد، حينئذ، هناك، بلحمها وعظمها.

قُرِع الجرس مرّة أخرى. ذهبت إيليزا لتفتح الباب. من سيأتي أيضًا؟ مرّت بضع ثوانٍ حتى تدحرج جينّارو إلى الصالة، رأى ديدي، رأته ديدي غير مصدِّقة، فكفّت عن البكاء فورًا. عاين أحدهما الآخر متأثّرين بذلك اللقاء المفاجئ. بعد ذلك بقليل، ظهر إنتسو، الأشقر الوحيد بين سُمرٍ كثر، شعره متوقِّد اللون، لكنَّه متجهِّم الوجه. وفي النهاية، دخلت ليلا

٩٢

مرّ وقت طويل، كانت الكلمات في أثنائه جلبةً بلا شكل محدَّد، كأنَّها تتَّحد في صوتٍ واحد تتقاذفه أمواج بحر إلكترونيّ، ينفجر على حين غرّة. كانت ليلا ترتدي فستانًا أزرق قصيرًا يكشف عن ركبتيها كانت نحيفة، ومشدودة الأعصاب، على نحو جعلها تبدو أطول من المعتاد على الرَّغم من كعب حذائها الواطئ. وقد شابت بعضُ التجاعيد الملحوظة فمَها وعينيها، أمّا بشرة وجهها، ناصعة البياض، فكانت منحوتةً عند جبينها وعظام وجنتيها ومن بين ثنايا شعرها، المسرّح كذيل الحصان، ظهرتْ خيوطٌ من الشيب فوق أذنيها اللتين بالكاد تُرى شحمتاها. ابتسمتْ حالما رأتني، وزمَّت عينيها لم أبادلها الابتسامة، ولم أقل شيئًا بخصوص المفاجأة، ولم أرحِّب بها أيضًا وعلى الرَّغم من بلوغ كلتينا الثلاثين عامًا، بدت لي أكثر تقدُّمًا في السنّ، ولديها من التجاعيد أكثر ممّا كنتُ أتخيّله على نفسي. صاحت جيليولا: وأخيرًا وصلت الملكة الأخرى، الأولاد جائعون، لم أعد أستطيع السيطرة عليهم.

تناولنا العشاء. شعرتُ بأنّي أسيرة مشكلة عويصة ومقيتة. لا

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

يمكنني مضغ الطعام جيّدًا بسببها. كنت أفكّر غاضبةً بشأن الحقائب، التي فتحتُها ما إن وصلتُ إلى الفندق، وقد وضّبها أحدهم، اعتباطًا، وكيفما اتّفق؛ مسّ أحد الغرباء أغراضي وأغراض زوجي وطفلتيّ. ولم أتمكّن من تقبُّل البديهيّ، أي أنّي سأنام في بيت مارتشيلّو، إسعادًا لبال شقيقتي التي تشاركه في السرير. كنت أراقب إيليزا ووالدتي، بقساوةٍ تحزنني: الأولى، وقد جرفتْها سعادةٌ مؤثّرة، كانت تتكلَّم بلا انقطاع، لتؤدِّي دور صاحبة المنزل؛ والثانية، وقد بدت سعيدةً إلى درجة أنَّها ملأت طبق ليلا باحترام وتهذيب. كنت أتلصَّص النظر إلى إنتسو، الذي كان يأكل مطأطئ الرأس، منزعجًا من أنّ جيليولا تضغط على ذراعه بصدرها الكبير، وتكلِّمه بصوتٍ جهير ونبرة مشعوذة. كنت أرنو إلى بييترو، بامتعاض، لأنّه، على الرَّغم من إلحاح والدي ومارتشيلّو والسيِّدة سولارا عليه، ما انفكّ يفسح المجال لليلا على وجه الخصوص. كانت تجلس قبالته، مندمجة معه، ومتجاهلةً الجميع، وأنا أيضًا، بل ربّما تخصّني بتجاهلها ثم كان الأولاد يثيرون أعصابي: خمسُ حيوات حديثة تفرَّقت جبهتين: جينّارو وديدي، مهذَّبان وماكران، ضدّ ابنَي جيليولا، اللذين كانا ينتهزان شرود والدتهما ويشربان النبيذ من كأسها، فيصبحان أكثر سماجة بما لا يُحتمَل، وها هي إيلسا تُعجَب بهما وتنضمّ إليهما على الرَّغم من أنّهما لم يأخذاها بعين الاعتبار.

مَن أخرج تلك المسرحيّة؟ مَن مزج طباع أشخاصٍ مختلفة لإحياء حفلة؟ إيليزا بلا شكّ، ولكن من أوعز إليها بذلك؟ لعلّه مارتشيلّو. ولا بدّ من أنّ مارتشيلّو تلقّى توجيهاتٍ من ميكيلي، الذي كان يجلس إلى جانبي، ويأكل ويشرب بهناء، مثبتًا بذلك تجاهله التامّ لتصرُّفات زوجته وابنيه، ويركِّز في الوقت ذاته أنظاره الساخرة في زوجي الذي بدا

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

مفتونًا بليلا ما الذي أراد أن يبرهنه؟ إنَّ هذا المجال ملكٌ لسولارا؟ إنّي لو هربتُ منه فما زلتُ أنتمي إلى ذلك المكان، وبالتالي إليهم؟ إنّ في وسعهم أن يفرضوا عليَّ كلَّ شيء، باستنهاض العواطف، وتعبئة المفردات، واستنفار الطقوس، بل حتى بخلط الأمور بعضها ببعض، ليصبح من المناسب أن يغدو الجميل قبيحًا، ويصير العكس صحيحًا؟ التفت إليّ للمرَّة الأولى منذ وصوله. «هل رأيتِ أمّي» ـ قال لي ـ «تصوّري أنَّها أتمَّت الستّين عامًا، ولكن من يصدِّق ذلك، انظري ما أجملها، لا يتَّضح عليها تقدُّم السنِّ، أليس كذلك؟» رفع صوته عنوةً، ليس ليسمع الجميع سؤاله بقدر ما باتوا ينتظرون إجابتي التي أرغِمتُ على قولها كان عليّ أن أمتدح أمّه. ها هي ذاك، جالسة إلى جانب بييترو، امرأة عجوز مشوّشة نوعًا ما، لطيفة، مسالمة في الظاهر، وجهها طويل وهزيل، وأنفها غليظ، ناهيك بتلك الزهرة المجنونة على شعرها متفاوت الطول. بالطبع، هي المرابية التي شيّدتْ ثراء العائلة؛ المشرفة والمسؤولة عن «الكتاب الأحمر» الذي يحتوي على أسماء كثير من سكَّان الحيّ، والمدينة وضواحيها؛ امرأة الجريمة بلا عقاب؛ المرأة عديمة الرحمة وشديدة الخطورة، وفقًا لما ورد في شطحات الخيال الهاتفيّة التي سرحتُ فيها مع ليلا، ووفقًا لما جاء في عدّة صفحات من روايتي التي أجهضتُها أيضًا الأمّ التي قتلت الدون آخيل لتحلّ بدلًا عنه في احتكار الربا؛ الأمّ التي أنشأت ولديها للاستيلاء على كلّ شيء رغم أنف الجميع. وكان لزامًا عليّ حينئذ أن أقول لميكيلي: أجل، هذا صحيح، أمّك جميلة للغاية، لا يتّضح عليها التقدُّم في السنّ أبدًا، تهانينا وكنت أنظر شزرًا إلى ليلا التي كفَّت عن الحديث مع بييترو ولم تكن تنتظر شيئًا آخر، راحت تلتفت إليّ، وشفتاها الممتلئتان مواربتان، وعيناها كثقبين غائرين، مقطّبة الجبين.

قرأتُ الاحتقار في وجهها، وخطر في ذهني أنّها هي التي أوصت ميكيلي كي يوقعني في ذلك الشرك: أتمَّت أمِّي عامها الستِّين للتوّ يا لينو، وهي أمّ صهركِ، وحماة شقيقتكِ، فلنرَ ماذا تقولين الآن، فلنرَ إن كان في وسعك الاستمرار في أداء دور المعلِّمة الفهيمة. أجبتُ، متوجِّهةً إلى مانويلا ألف مبروك؛ لا شيء سوى ذلك. فتدخّل مارتشيلّو بسرعة كأنّه أراد مؤازرتي، وهتف متأثّرًا: «شكرًا، شكرًا يا لينو». ثم توجَّه إلى أمِّه، التي امتلأ وجهها المعذَّب بالعرق، وعنقها الضامر بالبقع الحمراء: «لينوتشا تبارك لكِ يا أمّاه». وقال بييترو على الفور للمرأة التي تجلس إلى جواره: «ألف مبروك من جانبي أيضًا يا سيّدتي». ثم توجّه الجميع بالمباركة إلى السيِّدة مانويلا ـ جميعهم عدا جيليولا وليلا ـ بمن فيهم الأطفال الذين راحوا ينشدون جماعيًّا سنة حلوة يا مانويلا، سنة حلوة يا جدّة. فما كان منها إلّا أن تحيَّرت وغمغمت: «إنّي عجوز». وأخرجتْ من حقيبتها مروحة يدويَّة زرقاء، مرسومًا عليها خليج نابولي وبركان الفيزوف النافث، وأخذت تلوّح بها ببطء في البدء، ثم بسرعة متزايدة.

وعلى الرَّغم من أنّ ميكيلي توجَّه إليَّ بالحديث، فإنه بدا كأنَّه يُعطي أهمِّيَّة أكبر لتهاني زوجي. تكلَّم إليه بلباقة: «ما ألطفك يا بروفسور، أنتم لستم من هنا ولا تعرفون فضائل والدتنا». اتّخذ نبرة بوّاحة: «نحن أناسٌ نشيطون؛ جدِّي المغفور له، تغمَّده الربّ برحمته، بدأ مشواره بمقهى صغير على زاوية الطريق. بدأ من العدم، ثم وسَّع والدي المقهى، وألحق به فرنًا لصناعة الحلويّات، بات عَلمًا في أرجاء نابولي، وذلك ببراعة سبانيولو، والد زوجتي، وهو حِرَفيٌّ لا يُشَقّ له غبار، صحيح يا جيليو؟ لكنّ الفضل كلّه يعود إلى أمِّي، بل أمّنا جميعًا روّج الحسَّادُ والأفَّاقون شائعاتٍ حاقدةً بحقّها في الآونة

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

الأخيرة. لكنّنا طيّبون، متسامحون، ولطالما اعتدنا التركيز في التجارة والتحلّي بالصبر ثم إنّ الحقيقة تسطع دومًا والحقيقة هي أنَّ هذه المرأة خارقة الذكاء، قويّة الشخصيّة، لم تفكِّر ولو لحظة واحدة في حياتها في أنَّها لم تعد راغبة في فعل شيء. لقد عملتْ باستمرار، دائمًا، وفعلتْ ذلك من أجل العائلة، مضحّيةً بأيّ متعة. وكلّ ما لدينا الآن هو ما شيَّدتْه لنا، نحن أبناءَها، وكلّ ما نفعله الآن ليس سوى امتداد لما باشرتْ فيه».

لوّحت مانويلا بالمروحة على مهل، وقالت لبييترو بصوت مرتفع: «ميكيلي ابنٌ من ذهب، كان في صغره، في أثناء أعياد الميلاد، يصعد على الطاولة ويلقي الشعر بطلاقة. لكنّ عيبه الوحيد أنّه يحبّ الكلام، وكلَّما تكلَّم بالغ في ما قال». وتدخَّل مارتشيلّو «لا يا أمّاه، أيّ مبالغة، كلّ ما قاله صحيح». وتابع ميكيلي بامتداح مانويلا، «ما أجملها، ما أكرمها»، من دون توقُّف. إلى أن التفت إليّ فجأة، وقال بجدِّيَّة، بل بإجلال: «ثمَّة امرأة أخرى تكاد تكون مثل أمّنا». امرأةٌ أخرى؟ امرأةٌ تكاد تُقارَن بمانويلا سولارا؟ نظرتُ إليه بارتباك. كانت الجملة خارج السياق، على الرَّغم من مفردة «تكاد»، إلى درجة أنْ عمَّ الصمت في ذلك العشاء الصاخب. نظرت جيليولا إلى زوجها بعينين غاضبتين، جاحظتين من فرط النبيذ والألم. أمِّي أيضًا، اعتراها تعبيرٌ مترقّب ومليّ: لعلّها تمنَّت أن تكون إيليزا هي تلك المرأة، وأن يكون ميكيلي يبايع ابنتها على ما يشبه حقَّها في خلافة مانويلا على أرفع عرش في عرين آل سولارا توقَّفت مانويلا عن التلويح بالمروحة برهةً، جفَّفتْ شفتها من العرق بسبّابتها، وتوقَّعتْ أن يحوّل ابنها كلماته إلى نكتة هازئة.

إلّا أنّه، بوقاحته التي لطالما تميَّز بها، وبعدم اكتراثه لزوجته

ولإنتسو ولوالدته أيضًا، حدَّق إلى ليلا بينما كان وجهه يغرق في لونٍ مخضوضرٍ، وحركات يده تغدو أكثر عصبيَّة، وكلماته تستحيل رسنًا يختطف به ليلا من اهتمامها المتزايد ببييترو. «هذا المساء» ـ قال ـ «نجتمع هنا، في بيت أخي، أوّلًا للترحيب الذي يستحقّه هذان البروفسوران الموقّران وطفلتاهما الجميلتان؛ ثانيًا للاحتفاء بوالدتي، المرأة القدِّيسة؛ وثالثًا لإبلاغ إيليزا أطيب أمنياتنا بسعادة مديدة وزفاف موفَّق في القريب العاجل؛ ورابعًا، لو سمحتم لي، لشرب نخب الاتِّفاق الذي كنتُ أخشى عدم التوصُّل إليه إطلاقًا: لينا، تعالي إلى هنا، من فضلكِ».

لينا ليلا

بحثتُ عن نظرتها، فإذا هي تبادلني، لجزء من الثانية، نظرةً تقول: هل فهمتِ اللعبة الآن، هل تذكّرتِ قواعدها؟ ثم صُعِقتُ بها تنهض من مكانها، بينما إنتسو سارح النظرات إلى مفرش المائدة في نقطة لا على التعيين، نهضتْ طيّعةً لتبلغ ميكيلي.

لم يمسّها لم يمسّ يدها، أو ذراعها، أبدًا، كما لو أنّ بينهما نصلًا قد يجرحه. أسند إصبعه على كتفي قليلًا وتوجَّه إليَّ بالكلام مرَّة أخرى: «لا ينبغي لكِ أن تمتعضي يا لينو، فأنتِ شاطرة، وقد قطعتِ أشواطًا من طريقكِ، ظهرتِ على صفحات الجرائد، أنتِ مفخرةٌ لنا جميعًا نحن الذين نعرفكِ منذ أن كنتِ صغيرة. لكنّ لينا ـ وأنا واثق بأنّك تشاطرينني الرأي، ويسعدكِ أن أقوله، لأنّكِ تكنِّين لها المودّة ـ لينا، لديها شيءٌ حيٌّ في رأسها لا يمتلكه أحد؛ شيءٌ قويّ، يرفرف بين هنا وهناك، وليس في وسع أيّ شيء أن يوقفه؛ شيءٌ لا يستطيع الأطبَّاء أنفسهم أن يروه، وأنا أعتقد أنّ لينا نفسها تجهل وجوده فيها مع أنَّه رافقها منذ ولادتها ـ لا تعرفه ولا تريد الاعتراف بامتلاكه،

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

انظروا أيّ وجهٍ شرّيرٍ ترتدي في هذه اللحظة ـ شيءٌ قد يسبِّب الكثير من المشاكل، إذا تكدَّر مزاجها، وقد يُذهل الجميع إذا راق مزاجها حسنًا، لقد أردتُ شراء هذه الميزة منذ زمن بعيد. شراء، أجل، لا ضير في هذا، فشراء الدرر والماس مشروع. لكنّ الحظّ لم يحالفني حتى الساعة. لقد قمنا بخطوة صغيرة نحو الأمام، وإنّي أريد أن نحتفل هذا المساء بهذه الخطوة الصغيرة: لقد وظَّفتُ السيِّدة شيرولّو في مركز الإحصاء الآليّ الذي نصبتُه في آشيرّا، وهو شيءٌ في منتهى الحداثة، وإن كنتِ تودِّين رؤيته يا لينو، وحضرة الأستاذ أيضًا، لاصطحبتكما إليه بكلِّ سرور صباح الغد، أو قبل مغادرتكما عمومًا ما رأيكِ، يا لينا؟»

عبَّرتْ ليلا عن نفورها. هزَّت رأسها متضايقةً وقالت، وهي تركِّز ناظريها في السيِّدة سولارا: «ميكيلي لا يفقه شيئًا في الحواسيب، يظنّ أنّي أقوم بعملٍ جبّار، لكنّ هذا هراء محض، تكفي دورةٌ عبر المراسلات، حتى أنا تعلَّمتُ منها مع أنّي لم أتجاوز الخامس الابتدائيّ». لم تُضف شيئًا آخر لم تهزأ بميكيلي، كما توقّعتُ أن تفعل، على تلك الصورة الفظيعة التي كوّنها عنها، ذلك الشيء الحيّ الذي يجول في رأسها لم تهزأ به عن تشبيهها بالدُّرَر والماسّ. وأكثر ما فاجأني أنّها لم تتهرَّب من التهاني. بل تركتنا نشرب نخب توظيفها كما لو أنَّها عُيِّنتْ في السماء. سمحت لميكيلي بأن يتابع امتداحها مبرِّرًا الراتب الذي يدفعه لها وكلّ هذا بينما كان بييترو يقول، من دون أن يستشيرني، إنه متلهّف إلى زيارة المركز في آشيرّا كان يتكلَّم بكلِّ ما أوتي من قدرة على المكوث في أفضل حال بين الناس الذين يعتبرهم دونًا عنه، ثم طلب من ليلا أن تحدِّثه عن عملها بالتفصيل ما إن عادت إلى الجلوس. ظننتُ لوهلة أنَّها كانت ستنتزع زوجي منّي، لو

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

أعطيتُها مزيدًا من الوقت، مثلما انتزعت منّي نينو سابقًا لكنّي لم أشعر بالغيرة: فما كان هذا ليحدث إلّا رغبةً في حفر خندق جديد بيننا، وكنت أستبعد أن يعجبها بييترو، وأن يستطيع هو أن يخونني ولهًا بامرأة أخرى.

إلّا أنّي خُنِقتُ بإحساس آخر، أشدَّ إرباكًا كنتُ في المكان الذي وُلدتُ فيه، حيث لطالما اعتبرني الجميع صاحبةَ النجاح الأفضل، وكنت على قناعة بأنّ هذا الأمر غير قابل للنقاش، في ذلك الوسط على الأقلّ. لكنّ ميكيلي نسف مكانتي، كما لو أنّه تعمَّد ذلك، في الحيِّ وعلى مرأى عائلتي بصورة خاصّة، بطريقةٍ جعلت ليلا تهمِّشني، بل بموافقةٍ منّي على تدهور مكانتي، وذلك باعترافي على الملأ بتفوُّق صديقتي التي لا مثيل لإمكانيَّاتها. وقد أبدت ليلا كامل موافقتها على حدوث ذلك، بل ربّما شاركت بنفسها في هذه النتيجة، وخطّطت لها ونظَّمتها ولو تعرَّضتُ لهذا الأمر قبل عدّة أعوام، عندما حصدت كتاباتي نجاحًا، لما جُرِحتُ، بل لعلّي سأكون سعيدة. أمّا الآن، وقد بدا لي نجاحي ذابلًا، فقد شعرتُ بأنّي أتألَّم. تبادلتُ نظرة مع والدتي. كانت عابسة، مثلما كانت تتمالك نفسها قبل أن تصفعني. أرادت منّي عدم اللجوء إلى سلميَّتي المعروفة، أرادت أن أردّ، أن أُظهِر ما كنت أعرفه، أن يرى الجميع امتيازاتي ذاتَ الصنف الأوّل، الأعلى شأنًا من سخافات آشيرّا كانت تقول لي ذلك بعينيها، كأنّها تُصدِر أمرًا أخرس. لكنّي التزمتُ الصمت. هتفت مانويلا سولارا فجأةً، وهي تقذف نظراتها المتألّمة ما حولها: أشعر بالحرّ، ألا تشعرون بالحرّ أنتم أيضًا؟

٩٣

إيليزا، مثل أمّي، لم يَرُقْ لها أن أخسر حظوتي. وفي حين ظلَّت والدتي صامتة، توجَّهت إليّ شقيقتي بمحبّةٍ وحماسة، لتلمِّح إليَّ بأنّي ما أزال أختها الكبرى العظيمة، والتي ستفتخر بها دومًا. «عليّ أن أعطيكِ شيئًا»، قالت، وأضافت بطريقتها في القفز من موضوع إلى آخر بكلِّ بهجة: «هل ركبتِ الطائرة يومًا؟» أجبتُ بـ«لا» «هل هذا معقول؟» «معقول». ورشح أنَّ بييترو كان الوحيد الذي حلَّق من بين الحاضرين، وأكثر من مرَّة، لكنَّه تحدَّث بالأمر كأنّه أمر عاديّ. أمّا إيليزا، فكانت تلك تجربتها الأولى مع الطيران، ومارتشيلّو أيضًا كانا قد سافرا إلى ألمانيا، في رحلة طويلة من أجل العمل والسياحة. تخوَّفت إيليزا في أوّل الرحلة ممَّا صادفتْه من مطبَّات وتقلُّبات، وشعرتْ برياح جامدة تجلد رأسها تمامًا، كأنَّها تسعى إلى ثقبه. ثم رأت من النافذة الصغيرة غيومًا في منتهى البياض أسفل الطائرة، وسماءً في منتهى الزرقة من الأعلى. وهكذا اكتشفت أنّ الجوّ فوق الغيوم صافٍ على الدوام، وأنّ الأرض من علٍ تبدو كلّها خضراء وبنفسجيّة وزرقاء، وثمة ثلج برّاق تكتسي به قممُ الجبال. سألتني:

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

«خمّني من التقينا في دوسلدورف»

غمغمتُ مستاءةً من كلّ شيء:

«وما أدراني يا إيليزا. قولي أنتِ».

«أنطونيو».

«آه».

«لقد أوصانا بأن نبلغكِ تحيّاته».

«كيف حاله؟»

«في أفضل حال. وقد أعطاني هديّةً لكِ».

كان هذا هو الشيء الذي أرادت أن تعطيني إيّاه، إذن؛ هديّة من أنطونيو نهضت، وهبَّت لتأتي بها نظر إليّ مارتشيلّو مبتهجًا. سألني بييترو:

«من هو أنطونيو؟»

«أحد عمّالنا»، قال مارتشيلّو.

«بل هو خطيب زوجتك»، قال ميكيلي ضاحكًا. «لقد تغيَّر الزمان أيُّها البروفسور، وصار للنسوة اليومَ عددٌ كبير من الأصحاب، ويفتخرن بذلك أسوأَ من الرجال. كم صاحبة كان لديك؟»

قال بييترو جادًّا

«ولا واحدة، لقد أحببتُ زوجتي فقط».

«كاذب»، هتف ميكيلي مرحًا، «هل لي أن أهمس إليك بعدد العشيقات اللواتي صاحبتهنّ؟»

نهض متّجهًا خلف كتفي زوجي، تتبعه أنظار جيليولا الممتعضة، وهمس في أذنه.

«لا أصدّق»، صاح بييترو، بسخرية حذرة، ثم ضحكا معًا

telegram @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

عادت إيليزا في تلك الأثناء، حاملةً معها طردًا مغلّفًا بورق الشحن.

«افتحيه».

«هل تعرفين ما يوجد في الداخل؟» سألتُها بارتباك.

«كلانا يعرف ما فيه»، قال مارتشيلّو، «ونأمل أن يفاجئك».

مزَّقتُ اللاصق. ولاحظتُ أنَّ عيون الجميع شاخصة نحو الطرد. ولاسيّما أنّ ليلا كانت تنظر بطرف عينها بفضول، كأنَّها تنتظر أن تقفز منه أفعًى. وحين رأوا أنّ أنطونيو، ابن ميلينا المجنونة، العامل شبه الأمّيّ والشرس عند سولارا، خطيبي أيّام المراهقة، لم يُهدني شيئًا جميلًا البتّة، ولا يبعث على الإثارة، ولا يرمي إلى الزمان الخليّ، وإنَّما مجرّد كتاب، غلب الإحباطُ جميعَهم. ثم رأوا أنّي أبتهج خلافًا عنهم، ويتغيَّر لون وجهي. كنت أنظر إلى غلاف الكتاب بفرحةٍ لم أستطع تمالكها. لم يكن أيّ كتاب. بل كان ذلك الكتاب كتابي. الترجمة الألمانيّة لروايتي، بعد ستّة أعوام من إصداره في إيطاليا وكانت تلك أوّل مرّةٍ أشاهد فيها عرضًا ـ أجل، إنّه بمثابة عرض ـ لكلماتي وهي تتراقص تحت عينَيّ بلغةٍ أجنبيّة.

«ألا تعلمين بشأن هذا؟» سألتني إيليزا مسرورةً.

«لا».

«وهل أنتِ سعيدة؟»

«جدًّا، جدًّا».

صرّحت شقيقتي على الملأ بافتخار:

«إنَّها الرواية التي ألّفتها لينوتشا، مترجَمةً إلى الألمانيّة».

فإذا بأمّي، يحمرّ وجهها انتقامًا، وقالت:

«أرأيتم كم أن ابنتي مشهورة؟»

أخذت جيليولا منّي الكتاب، تصفّحتْه، وغمغمت بإعجاب: الشيء الوحيد المفهوم هو إيلينا غريكو فمدَّت ليلا يدها كأنّها تُصدِر أمرًا، وأومأت إليها بتمرير الكتاب. رأيتُ الفضول في عينيها، والرغبةَ في لمسه والنظر إليه وقراءة لغة مجهولة تحتويني وتحملني إلى البعيد البعيد. رأيتُ إلحاحَها إلى رؤيَة ذلك الغرض؛ إلحاحًا عرفتُه عنها منذ الصغر، فَرَقّ قلبي. لكنَّ جيليولا صدَّتها بغضب، وأبعدت الكتاب كي لا تمسّه ليلا، وقالت:

«انتظري، إنَّه بين يدَيّ الآن. ماذا، هل تتقنين الألمانيّة أيضًا؟». فأرجعتْ ليلا يدها، وأومأتْ برأسها نافيةً، فهتفتْ جيليولا «لا تصدِّعي رأسي، إذن، اتركيني أرَ. أريد أن أرى إنجازات لينوتشا». ثم أدارت الكتاب بين يديها راضيةً، وسط صمتٍ عامّ. قلّبتْه صفحة خلف صفحة، ببطء، كأنّها تقرأ خمسة سطور من هنا، وأربعة من هناك. إلى أن قالت لي، بصوتٍ ميّعه النبيذ، وهي تُرجِع الكتاب إليّ: «أحسنتِ يا لينو، أهنّئكِ على كلّ شيء، على الكتاب، والزوج، والطفلتين. نحسب أنَّكِ معروفة عندنا فقط، فإذا بكِ مشهورة لدى الألمان أيضًا لقد حصلتِ على ما حصلتِ عليه بجدارة واستحقاق. حصلتِ عليه بعرق الجبين، من دون إيذاء أحد، ومن دون عربدة مع أزواج الأخريات. شكرًا، يتوجَّب عليّ الانصراف الآن، ليلة سعيدة».

نهضت بمشقّة، وهي تلتقط أنفاسها. لقد جعلها الخمر أكثر تثاقلًا صاحت نحو ابنيها: هيّا تعجّلا، فاعترضا، وصرخ أكبرهما بكلام بذيء بالعامِّيَّة، فصفعتْه وجرَّته نحو المدخل. هزَّ ميكيلي رأسه بابتسامة على وجهه، وغمغم: كم تحمّلتُ من البلايا مع هذه القميئة، تسعى دومًا إلى إفساد يومي. ثم قال بهدوء: انتظري يا جيليو، أين

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

تفرّين، علينا أن نتناول حلويّات والدكِ أوّلًا، ثم ننصرف. فانعطف الولدان بسرعة خاطفة، استقواءً بكلام أبيهما، وعادا إلى الطاولة. أمّا جيليولا فتابعت سيرها نحو المدخل بخطوات متثاقلة، وهي تقول ساخطة: سأذهب بمفردي، إذن، لا أشعر بأنّي بخير. وزعق ميكيلي عند ذلك الحدّ، بأعلى صوته المشحون بالعنف: عودي واجلسي حالًا فتجمّدتْ كأنّ تلك الكلمات شلّتْ ساقيها وثبت إيليزا وهي تغمغم: تعالي معي، ساعديني على إحضار الحلوى. أمسكتْ بذراعها، وسحبتْها إلى المطبخ. طمأنتُ ديدي بنظرةٍ منّي، إذ ارتعدت من زعيق ميكيلي. ثم مددتُ الكتاب نحو ليلا، وقلت لها أتريدين رؤيته؟ فأومأت برفضٍ مصحوبٍ بتكشيرةٍ تنمّ عن عدم اهتمام.

٩٤

«أين انتهينا؟» سألني بييترو متأرجحًا بين الحياء والفرح حين أغلقنا باب الغرفة التي أتاحتها لنا إيليزا، بعد أن نامت الطفلتان. أراد أن يمازحني بشأن أكثر لحظات السهرة غموضًا، لكنّي هاجمتُه وتشاجرنا بصوت منخفض. كنت غاضبة منه، ومن الجميع، ومن نفسي أيضًا عادت الرغبة في أن تمرض ليلا وتموت، إلى الظهور من بين مشاعر الاضطراب التي اجتاحتني. ليس حقدًا، كنت أريد بها خيرًا في أيّ حال، ولم أكن أستطيع أن أضمر لها الحقد أبدًا لكنّي لم أحتمل فراغ ابتعادها عنّي. «كيف خطر في ذهنك ـ قلت لبييترو ـ أن توافق على أن يأخذوا حقائبنا، ويحملوها إلى هنا، وأن ينقلونا رغمًا عنّا إلى هذا البيت؟» أجاب: «لم أكن أعلم طبيعتهم» «كلّا»، فححتُ في وجهه، «بل لأنّك لا تصغي إليّ إطلاقًا، لقد حدّثتُك مرارًا عن البيئة التي أنحدر منها».

تناقشنا طويلًا، وحاول أن يهدّئني، فأفصحتُ له عن كلّ شيء. قلت له إنّه كان خجولًا أكثر ممّا يجب، وإنّه أذعن لكلامهم، ولا يعرف التعامل إلّا مع الناس المهذّبين من بيئته، وإنّي لم أعد أثق به،

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

ولم أعد أثق بأمّه أيضًا، «هل يُعقل أن تصدر روايتي في ألمانيا منذ عامين، ودارُ النشر لا تحيطني علمًا بهذا؟ في أيٍّ من البلدان الأخرى أصدروها من دون علمٍ منّي؟» كنت أودّ الغوص في هذا الموضوع حتى العمق. إلخ، إلخ. قال إنّه يوافقني الرأي، كي يطيّب خاطري، بل نصحني بالاتّصال بوالدته ودار النشر في صباح اليوم التالي حالًا ثم أشاد، باستلطاف كبير، بما سمّاه البيئة الشعبيّة التي وُلدتُ ونشأتُ فيها. وهمس بأنّ والدتي امرأة سخيّة وحادّة الذكاء، وأَبرز إعجابه بأبي، وإيليزا، وجيليولا، وإنتسو. لكنّ نبرته خشنتْ حين مرّ على ذكر الأخَوَين سولارا: وصفهما بالمخادعَين والسافلَين، وبالمنحرفَين الماكرَين. وعرّج، في النهاية، إلى ليلا قال بصوت خفيض: «كانت أكثر من أثار ريبتي». هذا واضح، قلت على مضض «تحدّثتَ معها طوال السهرة» لكنّ بييترو هزّ رأسه مخالفًا بشدّة، وفاجأني بتحديده أنّ ليلا بدت له أسوأ شخص بين الحضور. قال إنّها لا يمكن أن تكون صديقتي، وإنّها تكرهني، وإنّها جذّابة وحادة الذكاء، لا شكّ في ذلك، لكنّ ذكاءها ليس لغايات طيّبة ـ بل كان خبثًا يبذِر الشقاق ويكره الحياة ـ، كما لا يجوز التساهل مع جاذبيّتها، فإنّها من النوع الذي يستعبد المرء ويودي به إلى التهلكة. هكذا تمامًا.

كنت أصغي إليه في البداية، وأتظاهر بعدم اتّفاقي معه، لكنّي في الحقيقة كنت سعيدة. لقد خُدِعتُ إذن، لم تتمكّن ليلا من اختراقه. كان بييترو رجلًا ضليعًا في قراءة ما بين السطور، فاكتشف خصالها السيّئة بسهولة. ثم سرعان ما بدا لي أنّه يبالغ. قال: لا أستوعب كيف كُتِبَ لعلاقتكما أن تدوم طويلًا، لا بدّ من أنّكما تنجحان في التغاضي عمّا يمكنه قطع العلاقة بينكما. وأضاف: إمّا أنّي لم أفهم شيئًا منها ـ وهذا وارد، فأنا لا أعرفها ـ وإمّا لم أفهم شيئًا منكِ، وهذا أكثر ما

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

يثير قلقي. وفي النهاية، تلفَّظ بأسوأ ما قال: هي وميكيلي يكمل بعضهما بعضًا، وإن لم يكونا عاشقين فسيصبحان كذلك. انتفضتُ عندئذ. فححتُ في وجهه بأنّي لا أطيق نبرته كبرجوازيٍّ متحذلق يدّعي الثقافة، وأنّه يُحسن صنعًا لو توقَّف عن الكلام عن صديقتي بهذا الأسلوب، وأنَّه لم يفهم شيئًا إطلاقًا وبينما كنت أتكلَّم، شعرتُ بأنّي ألاحظ شيئًا لم يكن بيترو يعرفه في تلك اللحظة: لقد تمكَّنت ليلا من اختراقه، وكيف لا؛ لقد أغوت بيترو باستثنائيّتها حتى ذُعر منها وشعر بالحاجة إلى الاستخفاف بها حينذاك. أعتقد أنَّه لم يكن يخشى على نفسه، بل عليّ، وعلى علاقتنا كان يخشى أن تختطفني منه، على الرَّغم من اتِّساع المسافة، وتقضي علينا فتعمَّد أن يبالغ في التشهير بها كي يصونني؛ مستخدمًا طريقةً عبثيّة ليجعلني أنفر منها من تلقاء نفسي، وأطردها من حياتي. همستُ إليه: ليلة سعيدة، واستدرتُ إلى الجانب الآخر.

٩٥

نهضتُ باكرًا في الصباح. حزمتُ الأمتعة، وأردتُ العودة إلى فلورنسا حالًا، لكنِّي لم أنجح في ذلك. قال مارتشيلّو إنّه وعد أخاه باصطحابنا إلى آشيرّا؛ وما دام بييترو أبدى موافقته على ذلك، على الرَّغم من أنّي أفهمتُه رغبتي في المغادرة بكلِّ الطرق، أودعنا الطفلتين لدى إيليزا، ورضينا أن يقتادنا ذلك الرجل العملاق بالسيّارة إلى مبنًى منخفض ومستطيل أصفر اللون، حيث مستودع الأحذية الضخم. بقيتُ ساكتة طوال الرحلة، بينما لم يكفّ بييترو عن طرح أسئلته عن مشاريع سولارا في ألمانيا، وكان مارتشيلّو يتملّص بإجاباتٍ غير مترابطة، مثل: إيطاليا، ألمانيا، العالم بأسره. يا بروفسور، إنّي أكثر شيوعيّةً من الشيوعيّين، وأكثر ثوريّةً من الثوريّين، ولو عاد الأمر إليّ في هدم كلّ شيء لإعادة إعماره من جديد، لوجدتَني أوّل المتطوّعين. في أيِّ حال ـ أضاف وهو يرمقني في المرآة العاكسة ـ يبقى الحبّ عندي فوق أيّ اعتبار.

وما إن وصلنا إلى وجهتنا، حتى أخذ بنا إلى غرفة خفيضة

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

السقف، تُنيرها أضواء النيون. اجتاحتني رائحة ثاقبة للحبر والغبار والعوازل الساخنة، ممزوجةً بروائح جلود الأحذية وأدوات تلميعها ها هو ذاك، قال مارتشيلّو، ها هو الغرض الذي استأجره ميكيلي. نظرتُ حولي، ما من أحد يعمل على الآلة. كان النظام ٣ لا يوحي بشيء إطلاقًا، كقطعة أثاث لا تلفت الأنظار مسنودة إلى جدار: لوحاتُ تحكُّم معدنيّة؛ مقابضُ يدويّة، قاطعٌ نور أحمرُ، رفٌّ خشبيٌّ، لوحاتُ مفاتيحَ. «لا أفقه فيه شيئًا»، قال مارتشيلّو، «هذا من اختصاص لينا، لكنَّها لا تلتزم بمواعيد محدَّدة، تجيء وتغدو متى أرادت» تفحَّص بييترو لوحات التحكُّم والمقابض وكلّ شيء بعناية، بينما كان من الواضح أنَّ الحداثة تخيِّب ظنّه، حتى إنّ مارتشيلّو كان يُجيب عن أسئلته قائلًا هذه الأشياء تخصّ شقيقي، لديّ أمور أخرى تشغل بالي.

ظهرت ليلا حين كنّا على وشك الانصراف. كانت برفقة امرأتين شابّتين تحملان حاوياتٍ معدنيّة. كانت تبدو ساخطة، لا بدّ من أنَّها تديرهما بالعصا غيَّرت نبرتها حالما انتبهت لوجودنا، وأصبحت لطيفة، ولكن رغمًا عنها، لكأنّ جزءًا من دماغها يتلوّى ثائرًا في سعيه للانكفاء نحو شؤون العمل الملحّة. تجاهلتْ مارتشيلّو، وتوجَّهتْ إلى بييترو وإليّ نوعًا ما «ما الذي يهمّكما في هذه الأشياء»، قالت ساخرةً، «فلنقم بمبادلة إن كنتما مهتمَّين للغاية: أنتما تعملان هنا، وأنا أنشغل بشؤونكما، بالكتب واللوحات والعصور القديمة». عاودني الشعور بأنّها تقدَّمتْ عليّ في السنِّ: ليس في المظهر فحسب، بل في حركاتها وصوتها وانتقائها مفرداتٍ باهتةً، ونبرةً ملولةً بشكل عامّ، أخذتْ من خلالها تفسِّر لنا طريقة عمل النظام والآلات المتعدِّدة، بل حتى الشرائح الممغنطة، والشرائط، والأقراص ذات البوصات

مكتبة الرمحي أحمد
telegram @ktabpdf

الخمس، وأشياء حديثة أخرى ستصل قريبًا، كالحاسوب المكتبيّ الذي في وسع المرء اقتناؤه في المنزل لاستخدامات شخصيّة. لم تعد هي ذاتها ليلا التي كانت تكلّمني عبر الهاتف عن عملها الجديد بمرحٍ صبيانيّ، بل كانت تبدو بعيدة كلّ البعد عن تحمُّس إنتسو. كانت تتصرَّف على أنّها موظَّفة خارقة الكفاءات، فأوكل إليها ربّ العمل كثيرًا من الوظائف العسيرة، كإرشادنا في جولتنا السياحيّة تلك. لم تستخدم نبرة وِدِّيَّة معي، ولم تمازح بييترو أبدًا وأمرت الشابَّتين في النهاية، بأن تُظهِرا لزوجي كيفيَّة عمل المثقّبات، ودفعتْ بي حينذاك إلى الممرّ، وقالت:

«والآن؟ هل تصالحتِ مع إيليزا؟ هل النوم هنيءٌ في بيت مارتشيلّو؟ هل أنتِ مسرورة ببلوغ تلك الساحرة الشمطاء عامها الستّين؟»

أجبتُ بانفعال:

«إن كانت شقيقتي تشاء ذلك، فما الذي أستطيع فعله، هل أهشّم رأسها؟»

«أرأيتِ؟ في الحكايات، نفعل ما نشاء. أمّا في الواقع، فنفعل ما نستطيع».

«ليس صحيحًا مَن الذي أجبركِ على أن يتحكَّم فيك ميكيلي؟»

«أنا التي تتحكَّم فيه، وليس هو».

«أنتِ واهمة».

«انتظري لتَرَي».

«ماذا تريدين أن أرى يا ليلا، انسي الأمر».

«أكرِّر على مسمعكِ: لا تعجبينني حين تتصرَّفين هكذا أنتِ ما

عدتِ تعلمين شيئًا عنّا، لذا من الأفضل أن تصمتي».

«هل تقصدين أنّه لا يحقّ لي انتقادكِ إلّا إذا كنت أعيش في ناپولي».

«ناپولي، فلورنسا، لا فرق؛ فأنتِ لا تقومين بأيّ شيء في أيّ مكان يا لينو».

«ومن قال ذلك؟»

«الوقائع».

«إنّي أدرى منكِ بوقائعي».

انتبهتْ إلى أنّي كنت مشدودة الأعصاب. فأومأت بتعبير مسالم.

«تجعلينني أغضب، فأقول أشياءً لا أفكّر فيها. لقد أحسنتِ صنعًا في رحيلكِ عن ناپولي؛ خير ما فعلتِ. ولكن هل تعلمين من الذي عاد؟»

«من؟»

«نينو».

أحرق النبأ صدري.

«وكيف عرفتِ؟»

«أخبرتني ماريزا بذلك. لقد سلّموه كرسيًّا في الجامعة».

«ألم يكن بخير في ميلانو؟»

زمّتْ ليلا عينيها.

«لقد تزوّج بفتاةٍ من حيّ تاسّو، لها قرابة مع نصف موظّفي مصرف ناپولي. ولديهما طفل، عمره عام واحد».

لا أعلم إن كنت أتألّم، لكنّي استصعبتُ تصديق ذلك بالتأكيد.

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

«هل تزوّج حقًّا؟»

«أجل».

نظرتُ إليها كي أفهم ما الذي يدور في خلدها

«هل لديكِ نيّة في لقائه ثانيةً؟»

«لا ولكن، إن حدث ذلك، فسأخبره بأنّ جينّارو ليس ابنه».

٩٦

قالت لي ذلك وأشياء أخرى متقطّعة. «مبارك، زوجكِ وسيم وذكيّ، يتكلّم كما لو كان متديّنًا على الرَّغم من أنّه غير مؤمن، وله معرفةٌ بكلِّ الأحداث القديمة والحديثة، ولا سيَّما أنّه واسع الاطّلاع عن ناپولي. لقد شعرتُ بالخزي، فأنا لا أعلم شيئًا عن ناپولي مع أنّي ناپوليتانيّة. جينّارو يكبر، وأترك أمر الرعاية به لأمّي، وهو شاطرٌ في المدرسة. والعلاقة مع إنتسو على قدم وساق، نعمل كثيرًا، ونلتقي قليلًا. أمّا ستيفانو فقد دمَّر نفسه بيديه: وجد رجالُ الشرطة في مستودعه أغراضًا مسروقة، لا أعلم ما هي، واعتقلوه. أُفرِج عنه الآن، ولكنْ عليه توخّي الحذر، لم يعد يملك شيئًا، وأنا التي بتّ أعطيه النقود، وليس العكس. أرأيتِ كيف تتغيَّر الأشياء: لو كنت لا أزال السيِّدة كارّاتشي لقُضِيَ عليّ، ومُرِّغ أنفي بالتراب كبقيّة آل كارّاتشي؛ لكنّي رافايلّا شيرولّو، وأعمل مديرةً لدى ميكيلي سولارا، وأتقاضى أربعمئة وعشرين ألف ليرة في الشهر. الحصيلة هي أنّ والدتي تعاملني كأنّي ملكة، ووالدي غفر لي كلّ شيء، وأخي يمصّ منّي المال. وبينوتشا تقول إنّها تودّني كثيرًا، وأبناؤها ينادونني عمّتاه. لكنّ هذا

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

العمل مملّ، خلافًا لما بدا عليه في البداية: لا يزال بطيء الوتيرة جدًّا، ويجعلنا نضيّع كثيرًا من الوقت، نأمل أن تصل الآلات الحديثة عاجلًا لأنّها ستكون أكثر سرعة بكثير. كلّا السرعة تلتهم كلّ شيء، كما حين تظهر الصور الفوتوغرافيّة مهزوزة. هذا التشبيه، استخدمه ألفونسو، استخدمه ممازحًا، قال إنّه وُلِد مهزوزًا، هوامش أطرافه تفتقد الدقّة والوضوح. حدّثني عن الصداقة، في الآونة الأخيرة، باستمرار يريد أن يصبح صديقًا مقرّبًا منّي، يتمنّى أن ينسخني بالورق الناسخ، ويُقسِم بأنّه يطيب له أن يكون أنثى مثلي. أيّ أنثى يا ألفونسو، قلت له، أنت ذَكَرٌ، وليس لديك أيّ فكرة عن طباعي، ولن تستطيع أن تعرف ذلك حتى لو كنّا صديقين، حتى لو درستَني وتجسَّستَ عليّ ونسختَني. فماذا أفعل إذن ـ قال لاهيًا ـ إنّي أتألّم ممّا أنا عليه اعترف لي بأنّه يعشق ميكيلي منذ زمن بعيد ـ ميكيلي سولارا، أجل ـ ويتطلّع إلى أن يُعجَب به مثلما أُعجبه أنا أتفهمين ما الذي يحدث للأشخاص يا لينو: في بواطننا كثيرٌ من الأشياء، وهذا ما ينفخنا ويحطّمنا حسنًا، قلت له، سنصبح صديقين، ولكن انزعْ من رأسك الرغبة في أن تصير أنثى مثلي، فكلّ ما ستستطيع فعله في هذا الخصوص أن تصير أنثى وفقًا لرأيكم أنتم الذكور. في إمكانك أن تفهمني، وأن ترسم ملامحي بدقّة كما يفعل الرسّامون، لكنّ برازي سيبقى برازي، وبرازك سيبقى برازك. آهٍ، يا لينو، ما الذي يحدث لنا جميعًا، نحن مثل الأنابيب عندما تتجمّد المياه، ما أسوأ أن يكون الرأس مغمومًا! أتذكرين ماذا فعلنا بصورة الزفاف الخاصّة بي؟ أريد أن أستمرّ في تلك الطريق. سيأتي يومٌ أحوّل فيه كلّ شبرٍ منّي إلى جداول بيانيّة، وأصير شريطًا مثقّبًا، فلا تعثرين لي على أثر».

ضحكنا؛ لا شيء أكثر أثبتت لي تلك الثرثرات في الممرّ أنّ

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

علاقتنا فقدت حميميّتها وأصبحت مجرَّد أنباءٍ موجزة، وتفاصيل عديمة القيمة، ونكات لئيمة، وكلمات حرَّة، وليس هناك بوحٌ لأحداث وأفكار إلّا من جانبي. باتت حياة ليلا لها وحدها، وبدت أنّها لا تريد أن تشارك فيها أحدًا فمن غير المجدي أن ألحّ عليها بأسئلة مثل: ماذا تعلمين عن باسكوالي؟ أين اختفى؟ ما دوركِ في مقتل سوكافو، وشلل فيليبو؟ ما الذي ساقكِ إلى قبول عرض ميكيلي؟ ماذا ستفعلين بإدمانه عليكِ؟ لقد انعزلت ليلا في ما لا يمكن الاعتراف به، ولم يعد يمكن لفضولي بشأن أيّ نقطة أن يصبح نقاشًا ربّما كانت ستجيبني: ما الذي دهاكِ، هل جننتِ؟ ميكيلي، إدمان، سوكافو، ماذا تقولين؟ حتى الآن، وأنا أكتب، ألاحظ عدم امتلاكي عناصر كافية تساعدني على الانتقال إلى: ليلا ذهبت؛ ليلا فعلت؛ ليلا التقت؛ ليلا خطّطت. وعلى الرَّغم من ذلك، وبينما كنّا عائدين إلى فلورنسا، تولَّد لديَّ انطباعٌ بأنَّ لها حظوة أكثر منّي في الحيّ، المتأرجح بين التخلُّف والحداثة. كم أضعتُ من أشياء في هجران الحيّ، في حين كنت أظنّ أنّي أتَّجه إلى حياة أعظم بكثير. أمَّا ليلا، التي بقيت هناك، فقد كان لديها عمل حديث جدًّا، وتتقاضى مبلغًا طائلًا، وتتصرَّف بحرِّيَّةٍ مطلقة استنادًا إلى خططٍ يصعب فكّ شيفرتها كانت متعلِّقة بابنها كثيرًا، وفرّغت نفسها من أجله كلِّيًّا في سنواته الأولى؛ لكنَّها بدت قادرة على الانعتاق منه كيفما تشاء ووقتما تشاء. لم يكن ابنها يوتّرها بقدْر ما كانت طفلتاي تفعلان بي. قطعتْ صلاتها بأهلها، وعلى الرَّغم من هذا كانت تتحمَّل مسؤوليّتهم على عاتقها كلَّما استطاعت. اهتمَّت بأمر ستيفانو الذي وقع في كارثة، من دون أن تتصالح معه. كانت تمقت الأخوين سولارا، لكنّها انضمّت إليهما. كانت تتهكَّم على ألفونسو، وهي صديقة مقرَّبة إليه. كانت تقول إنّها لا تريد أن ترى نينو ثانية،

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

لكنّي كنت أعلم بأنَّ هذا غير صحيح، وأنَّها كانت ستلتقيه ثانية. كانت حياتها حياةً متحرِّكة، أمّا حياتي فساكنة. فكَّرتُ فيها كثيرًا، بينما كان بييترو يقود السيّارة صامتًا، والطفلتان تتصايحان؛ فكَّرتُ فيها وبنينو، وفي ما قد يقع بينهما ستحصل ليلا عليه من جديد، افترضتُ، وستفعل ما في وسعها لتلتقيه. ستفرض عليه شروطها، فهي بارعةٌ في ذلك، ستُبعده عن زوجته وابنه. ستستعمله في حربها التي لم أعد أعرف ضدّ من تخوضها. ستدفعه إلى الطلاق، وستتملّص من قبضة ميكيلي بعد أن تسحب منه أموالًا كثيرة، ستهجر إنتسو، وستقرِّر في الختام الطلاق من ستيفانو، وقد تتزوَّج نينو، وربّما لا، لكنّهما سيوحّدان ذكاءَ كلٍّ منهما بكلّ تأكيد، ومن يدري ماذا سيصيران.

الصيرورة. لطالما شكَّل هذا الفعل هاجسًا لديّ، لكنّي لم أنتبه إليه للمرَّة الأولى إلّا في ذلك الظرف.

كنت أريد أن أصير، مع أنّي لم أعرف ماذا أصير بالضبط.

وكنت قد صرتُ، هذا مؤكّد، ولكن دونما طموحٍ، دونما شغف حقيقيّ، دونما غاية محدّدة. كنت أريد أن أصير شيئًا ما ـ وهنا تكمن النقطة الجوهريّة ـ لمجرّد أنّي كنت أخشى أن تصير ليلا شخصًا مهمًّا، وأنا أظلّ خلفها

كانت الصيرورة بالنسبة إليّ هي أن أصير ضمن كينونتها

يجدر بي أن أصير من جديد إذن، ولكن أن أصير لأجلي، بنضجٍ، خارج شخصها

٩٧

اتّصلتُ بآديلي حالما وصلتُ إلى البيت، كي أستفسر عن الترجمة الألمانيّة التي أرسلها إليّ أنطونيو. فاستغربتْ كثيرًا، لم تكن تعلم شيئًا عن ذلك الأمر، واتّصلت بدار النشر اتّصلت بي بعد قليل، لتخبرني بأنّ الكتاب قد صدر ليس في ألمانيا فحسب، بل في فرنسا وإسبانيا أيضًا. «والآن ـ سألتها ـ ماذا عليّ أن أفعل؟» فأجابتني مشوّشةً: «لا شيء، عليكِ أن تكوني سعيدة. «طبعًا»، غمغمتُ، «إنّي سعيدة جدًّا، ولكن من الناحية العمليّة، هل عليّ أن أسافر مثلًا، وأروِّج الكتاب في الخارج؟» فأجابتني برأفة: «لا ينبغي لك أن تفعلي شيئًا يا إيلينا، فالكتاب لسوء الحظّ لم يُبَع في أيّ مكان».

تكدّر مزاجي. اتّصلتُ بدار النشر. وألححتُ على طلب معلومات دقيقة عن الترجمات، وغضبتُ لأنَّ أحدًا منهم لم يجد ضرورةً لإحاطتي بالأمر، حتى إنّي قلت لموظَّفة ناعسة: لم أعلم بشأن الطبعة الألمانيّة من جانبكم، بل من صديقٍ شبه أمّيّ، هل في إمكانكم القيام بعملكم، نعم أم لا؟ ثم اعتذرتُ. شعرتُ بأنّي غبيَّة. وصلتني النسخ، واحدة تلو الأخرى، النسخة الفرنسيّة، النسخة الإسپانيّة، ونسخة

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

ألمانيّة لم تفقد رونقها كتلك المرسلة من أنطونيو. كانت الطبعات قبيحة: على الغلاف، ثمَّة نسوةٌ يرتدين ثيابًا سوداء، ورجالٌ ذوو شوارب مسدلة تغطّي شفاههم وقبّعات الكوبولا على رؤوسهم، وغسيلٌ منشور على الحبال. تصفّحتُها، وأريتُها لبييترو، ثم رتّبتُها على أحد الرفوف بين روايات أخرى. ورقٌ أبكم، لا جدوى منه.

ثم بدأت فترةٌ مرهقة للأعصاب، وشديدة الكرب. كنت أتّصل كلّ يوم بإيليزا لأسألها إن ظلّ مارتشيلّو على لطفه، وإن قرّرا الزواج. وكانت تردّ على أسئلتي المضجرة والعاطفيّة بضحكات مرحة وحكايات عن حياة سعيدة، ورحلات بالسيّارة والطائرة، ورفاهية متنامية لأخوينا، ورخاء لأبينا وأمّنا كدتُ أحسدها آنذاك. كنت منهَكة وحادّة الطباع. لأنّ إيلسا كانت تمرض دومًا، وديدي تتطلّب الانتباه، وبييترو يترنّح من دون أن ينجز كتابه. كان غضبي يثور من لا شيء. وكنت أصيح على الطفلتين، وأتشاجر مع زوجي. والنتيجة هي أنّهم باتوا ثلاثتهم يخشونني. كانت الطفلتان، بمجرّد أن أمرَّ بغرفتهما، تتوقّفان عن اللعب، وتنظران إليَّ بارتياب. وراح بييترو يفضّل العمل في مكتبة الجامعة بدلًا من البيت. كان يخرج في الصباح الباكر، ويعود في المساء وآثار النزاعات بادية عليه؛ تلك النزاعات التي كنت أصادفها على صفحات الجرائد فقط، بعد انقطاعي عن أيّ نشاط اجتماعيّ: الفاشيُّون يطعنون هذا ويقتلون ذاك؛ الرفاق ليسوا بأقلّ منهم؛ رجال الشرطة يتلقُّون أوامر قانونيَّة وصلاحيَّة واسعة بإطلاق النار، وقد نفَّذوها في فلورنسا أيضًا. إلى أن حدث ما توقَّعتُه منذ مدّة: وجد بييترو نفسه في خضمّ حادثة قبيحة، تحدَّثت بشأنها الصحف طويلًا رسَّب طالبًا ذا كنية مهمَّة، وكان الطالب منغمسًا في النضالات. أهانه الشابُّ أمام الجميع، وصوّب المسدَّس إلى وجهه. أنهى بييترو تسجيل

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

الرسوب بهدوء، وذلك وفق روايةٍ لم أحصل عليها منه، بل من إحدى معارفنا ـ والتي حصلت عليها من أحدهم بدورها، لأنّها لم تكن حاضرة ـ وأعطى الفتى كتيّب العلامات، وقال له بما معناه: إمّا أطلقتَ النار جدِّيًا، وإمّا تخلَّصتَ من هذا السلاح حالًا، لأنِّي سأخرج بعد دقيقة من هنا وسأُقيم عليك دعوًى. ظلَّ الشابّ مصوِّبًا المسدَّس في وجهه لحظاتٍ طويلة، ثم أرجعه إلى جيبه، أخذ الكتيّب وفرّ بجلده. وبعد دقائق قصيرة، ذهب بييترو إلى المخفر، وتمّ اعتقال الطالب. لكنّها لم تنتهِ عند ذلك الحدّ. لم تتوجّه عائلة الشابّ إليه، بل إلى أبيه كي يقنعه بإسقاط الدعوى. حاول البروفسور غويدو آيروتا أن يقنع ابنه، وجرت بينهما مكالمات طويلة، ذُهلتُ نوعًا ما من خلالها بسماع العجوز يرفع صوته، نافد الصبر لكنّ بييترو لم يتراجع. فواجهتُه بانفعال شديد، وسألتُه:

«ألا تلاحظ تصرّفاتك؟»

«وماذا عليّ أن أفعل؟»

«أخفِض التوتّر».

«لا أفهمكِ»

«بل أنت لا تريد أن تفهمني. أنت نسخة طبق الأصل عن أساتذتنا في بيزا، أولئك الذين لا يُطاقون»

«لا يبدو لي ذلك».

«بل إنّه كذلك. هل نسيت كم أُرهِقنا بلا جدوى في متابعة دروس تافهة، وفي اجتياز امتحانات أشدّ تفاهة؟»

«دروسي ليست تافهة».

«يجدر بك أن تسأل طلبتك».

«يُطلَب الرأيُ ممَّن لديه الكفاءة على إبدائه».

«وهل كنتَ ستطلب رأيي لو كنتُ طالبة عندك؟»

«علاقتي ممتازة بأولئك الذين يدرسون».

«تقصد أنّك تفضِّل من يهزّ بذيله؟»

«وهل تفضّلين الأدعياء، كصديقتكِ التي في ناپولي؟»

«أجل».

«ولماذا كنتِ الأكثر إذعانًا، إذن؟»

تشوّشتُ:

«لأنّي كنت فقيرة، وكان يبدو لي الوصولُ إلى ما وصلتُ إليه معجزةً».

«حسنًا، ليس بينكِ وبين ذلك الفتى أيُّ قاسم مشترك».

«ولا وجود لأيّ قاسم مشترك بيني وبينك أيضًا».

«ماذا تقصدين؟»

لم أردّ، آثرتُ الصمت احتراسًا ثم ساد الغضب مجدّدًا، وعدتُ أنتقد عناده، قلت له: «ما دمت قد رسّبته، فما لزوم إقامة الدعوى عليه؟» غمغم: «لقد ارتكب جريمة». قلت: «كان يلهو بإخافتك، إنَّه مجرَّد فتًى». أجاب بفتور: «المسدَّس سلاح، وليس لعبة، وقد كان مسروقًا مع أسلحة أخرى منذ سبعة أعوام، من ثكنة للشرطة في روفيتسانو». قلت: «الشابّ لم يطلق النار». فردّ ساخطًا: «السلاح كان مجهَّزًا، ماذا لو فعلها؟» «لم يفعلها»، صحتُ. فرفع صوته أيضًا «هل كان عليّ أن أنتظر أن يُطلق النار عليّ كي أبلِّغ عنه؟» زعقتُ: «لا تصرخْ، أعصابك مفتّتة». أجابني: «فكِّري بأعصابكِ». وكان من غير المجدي أن أشرح له، وأنا في ذاك التوتّر، أنّ ذلك الوضع في الحقيقة

يبدو لي خطيرًا، بغضّ النظر عن كلامي ونبرتي الجدليّة. كنت مضطربة حقًّا «أخشى عليك»، قلت له، «أخشى على الطفلتين، وعلى نفسي». لكنَّه لم يواسِني. انعزل في غرفته وحاول أن يعمل على كتابه. ولم يخبرني إلّا بعد مرور أسابيع بأنّ رجلين من الاستخبارات جاءا يبحثان عنه، وطلبا منه معلومات عن بعض الطلّاب، وأظهرا له صورًا معيّنة. رحَّب بهما في المرّة الأولى بلطف، ودعاهما بتهذيب إلى الخروج من دون إعطائهما أيَّ معلومة. وسألهما في المرّة الثانية:

«هل اقترف هؤلاء الشبّان جُنحةً ما؟»

«لا، حتى الساعة لا».

«فماذا تريدان منّي إذن؟»

ورافقهما إلى الباب بكلِّ الاحترام المُهين الذي كان قادرًا على إبدائه.

٩٨

لم تتّصل ليلا أبدًا، طوال شهور. كان لديها الكثير من الانشغالات. ولم أبحث عنها من جهتي أيضًا، على الرَّغم من حاجتي إليها وما لبث شعوري بالفراغ يلازمني، حتى حاولتُ محوه بتمتين الصلة مع ماريّاروزا، إلّا أنّ العوائق كانت كثيرة. ففرانكو استقرّ في بيت نسيبتي، وبييترو لم يكن مرتاحًا إلى تقرُّبي من شقيقته، ولقائي خطيبي السابق. كان مزاجه يتكدَّر إذا مكثتُ يومًا إضافيًّا في ميلانو، فتعصف به الهواجسُ وتتضاعف أوهامُه بالاعتلال، وتزداد التوتُّرات. من جهة أخرى، لم يكن حضوري يروق لفرانكو نفسه، الذي كان نادرًا ما يخرج من المنزل إلاّ لمتابعة العلاج الذي ما زال مضطرًّا إليه؛ وكان يُبدي ضجره من صياح ابنتَيّ، ثم يختفي من المنزل أحيانًا، على نحو يثير قلقي وقلق ماريّاروزا عليه. كما أنّ نسيبتي كانت منغمسة في ألف التزام، ولاسيّما أنّها محاطة دومًا بالكثير من النساء. حتى غدا بيتها أشبه بمنتدًى يضمُّ أيّ أحد: مفكِّرين، سيِّداتٍ راقيات، عاملات هاربات من رفاق عنيفين، فتياتٍ منعزلات، ما جعل وقتها لاستضافتي ضيِّقًا، ثم إنَّها كانت تتصرَّف على أنَّها صديقة لكلّ الإناث، الأمر

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

الذي لم يُشعرني بالثقة الزائدة بعلاقتنا وعلى الرَّغم من هذا، حين كنت أنزل في بيتها، كانت رغبتي في العودة إلى الدراسة، والكتابة أحيانًا، تنتعش ثانيةً. أو فلنقل: كان يبدو لي أنّي ما زلت قادرة على ذلك.

كنّا نتناقش كثيرًا وعلى الرَّغم من أنّنا كنّا نساءً جميعًا ـ فرانكو كان يهرب من المنزل، أو ينزوي في غرفته ـ فقد كنّا نستصعب فهم ماهيَّة المرأة. كانت كلّ حركاتنا، وأفكارنا، وكلماتنا، وأحلامنا، تبدو كأنَّها ليست لنا ما إن نحلِّلها بعمق. وهذا التوغُّل في العمق يُغضِب أكثرنا هشاشةً؛ اللواتي لا يحتملن الغلوّ في التأمُّل الذاتيّ، ويعتقدن أنّه يكفي إزاحة الذكور ببساطة لولوج درب الحرِّيَّة. كنّا نمرُّ في حقبة متأزِّمة، ومنعطفات متقلِّبة. ومعظمنا يخشين العودة إلى فترة الهدوء المتبلِّد، ويلتجئن إلى القمَّة بالانغلاق في مفاهيم متشدِّدة وينظرن إلى الهاوية بغضب ورعب. وعندما وردنا أنَّ حفظ النظام في كتيبة «النضال المستمرّ» هاجم موكبًا لناشطاتٍ نَسَويَّات يَدعين إلى الفصل بين الجنسين، اشتعلت النفوسُ حتى إذا اكتشفتْ إحدى المتشدِّدات أنّ ماريّاروزا تستضيف رجلًا في بيتها ـ الأمر الذي لم تكن تصرِّح عنه كما لم تكن تخفيه ـ غدا الجدالُ محتدمًا، والقطيعةُ مأساويّةً.

كنت أكره تلك اللحظات؛ إذ كنت أبحث عن محفِّزات، لا عن نزاعات، وأتطلَّع إلى فرضيَّاتٍ لإجراء بحوث واسعة، لا إلى عقائد؛ أو هذا ما كنت أحاول أن أُقنع به نفسي على الأقلّ، وأحيانًا أبوح به لماريّاروزا أيضًا، وكانت تصغي إليّ. وفي إحدى تلك المناسبات، تمكّنتُ من التحدُّث إليها عن علاقتي بفرانكو أيّام الجامعة، وعمّا كان يعنيه لي آنذاك. إنّي ممتنّة له، قلت، لقد تعلّمتُ منه الكثير، ويؤسفني أنّه اليوم يعاملني وابنتَيّ بفتور. تمعّنتُ قليلًا، ثم تابعتُ: ربّما ثمّة

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

خللٌ في رغبة الرجال في تعليمنا؛ كنت فتاة صغيرة حينها، ولم أنتبه إلى أنّ رغبته في تغييري كان فيها ما يثبت عدم إعجابه بما كنتُ عليه، فأراد أن يجعل منّي امرأة أخرى، أو بالأحرى، لم يكن يريد لي أن أصير امرأة فحسب، بل أيضًا امرأة على غرار تصوُّراته عن نفسه لو كان أنثًى. أمّا فرانكو، فكنتُ، في نظره، مجرَّد فرصةٍ تُتيح له تمدُّد كينونته في المجال الأنثويّ، كي يستولي عليه. كنتُ أقدِّم برهانًا على جبروته، وإثباتًا لمقدرته ليس على أن يكون رجلًا بالشكل المناسب فحسب، بل أن يكون أنثًى أيضًا أمّا الآن، إذ لم يعد يراني جزءًا منه، فقد بات يشعر بالخيانة.

عبّرتُ عمّا يختلج في صدري بهذا الأسلوب تمامًا ظلّت ماريّاروزا تصغي إليّ باهتمام أصيل، ليس كاهتمامها المصطنع بأحاديث بقيّة النساء. «اكتبي شيئًا عن هذا الموضوع»، حرّضتْني. تأثّرت مشاعرها، وغمغمت بأنَّ الوقت لم يحالفها للتعرُّف إلى شخصيَّة فرانكو كما وصفتُها بكلامي. ثم أضافت: ولعلَّ في هذا خيرًا، لم أكن لأُغرم به أبدًا، فأنا أكره الرجال مفرطي الذكاء؛ والذين يُمْلون عليكِ ما ينبغي لك أن تكونيه. أفضِّل هذا الرجل المتألِّم والغارق في تأمُّلاته، والذي أستضيفه في بيتي وأعتني به. ثم ألحَّت: انقلي هذه الأفكار التي قلتِها على الورق، اكتبيها.

أومأتُ بنعم، وبشكلٍ يشوبه الحزن. على الرَّغم من سعادتي بإشادتها، فقد قلتُ بارتباك شيئًا ما عن علاقتي ببييترو، عن محاولته أن يفرض عليّ منطقه ورؤاه، فانفجرت ماريّاروزا ضاحكةً هذه المرّة، وتغيَّرت نبرة حديثنا الرفيعة. «فرانكو بالقياس مع بييترو؟ لا شكّ في أنّكِ تمزحين»، قالت. «يستطيع بييترو، أو يكاد، الحفاظ على رجولته، تخيّلي أن تتسنّى له القدرة على أن يفرض عليكِ مشاعره تجاه

الأنثى. هل أُخبِركِ بشيء؟ كدتُ أُقسم بأنّكِ لن تتزوّجيه. كدتُ أُقسم بأنّكِ، إن فعلتِها، فستهجرينه بعد أقلّ من عام. كدتُ أُقسم بأنّكِ ستحتاطين جيّدًا من إنجاب الأولاد. بقاؤكما مرتبطين حتى هذه اللحظة يبدو لي معجزة. أنتِ امرأة شاطرة بالفعل، كم أشفق عليكِ!»

٩٩

كنّا قد وصلنا إلى ذلك الحدّ إذن: شقيقة زوجي تعتبر زواجي خاطئًا، وتخبرني بذلك بكلِّ صراحة. احترتُ: هل أضحك أم أبكي. بدا لي إقرارًا حاسمًا ومحايدًا بعُسر الزواج. ولكن، ما العمل؟ كنت أقول لنفسي إنّ النضج يتمثَّل في تقبُّل الانعطافة التي سلكتْها الحياة من دون توجُّس أو قلق؛ هو حفر خندق بين اليوميّ العمليّ والمكتسبات النظريَّة؛ اعتيادٌ على رؤية الذات، والتعرُّف إلى الذات في ترقُّب تحوُّلات عظيمة. هدأ خاطري يومًا بعد يوم. كانت ابنتي ديدي تذهب إلى الصفِّ الأوّل الابتدائيّ قبل الأوان، لأنّها تعرف القراءة والكتابة مسبقًا؛ وابنتي إيلسا سعيدة بالبقاء وحدها معي طوال الصباح في سكون المنزل؛ وزوجي، مع أنّه أكثر زملائه الجامعيّين سوداويّةً، كان يبدو مشرفًا على إنجاز كتابه الثاني، متطلّعًا إلى أن يكون أشدّ أهمِّيَّةَ من الأوَّل؛ وأنا كنت السيِّدة آيروتا، إيلينا آيروتا، امرأة أذبلها الهمود، لكنَّها ـ وقد حثَّتها نسيبتها، فضلًا عن عزمها، على قهر الإحباط ـ قرَّرت سرًّا أن تبحث في عمليَّة خلق المرأة من قِبَلِ الرجل، مازجة العالم القديم بالحديث. كنت أقوم بذلك دونما غاية، إنّما لأقول

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

لماريّاروزا، ولحماتي، ولأحد المعارف: هآنذا أعمل.

وهكذا كان، إذ شرعتُ، ضمن تصوُّراتي الغريبة، في قراءة قصَّة التكوين التوراتيّة الأولى والثانية، «السيِّدة فلاندرز» لمؤلِّفها دانييل ديڤو، وَ«بوڤاري» لفلوبير، و«آنّا كارينينا» لتولستوي، ومجلّة «لادرنيير مود» لمالارميه، وشخصيّة «روز سيلافي» التي شكّلها الرسّام دوشام، واطَّلعتُ على المزيد بكشفٍ مهتاج. وشعرتُ بأنّي سعيدة شيئًا فشيئًا كنت أستكشف في كلّ مكان نماذج آليّة عن نساء قد صنعها الذكور. لم يكن في تلك النماذج أيُّ شيء منّا، وما كان الشحيح منها يبرز إلّا ويصبح مادّةً تخدم تصنيعهم. عندما كان بييترو في العمل، وديدي في المدرسة، وإيلسا تلعب على بعد أمتار من منضدتي، وأنا أشعر بالحيويّة أخيرًا بسبر تلك الكلمات وما بينها، كان ينتهي بي المطاف لأتخيَّل ما الذي ستكون عليه حياتي وحياة ليلا لو أنّنا أجرينا امتحان القبول للثانويّة، ثم امتحان الكفاءة، ثم كلّ الدراسات الجامعيّة حتى التخرُّج، جنبًا إلى جنب، بتآلفٍ، تكمل إحدانا الأخرى، وتندمج قوانا الفكريّةُ، وتتواءم متعتُنا بالفهم والتخيُّل. كنّا سنكتب معًا، ونوقّع معًا، وتُعاون إحدانا الأخرى، وتحمي كلٌّ منَّا ظهر صديقتها، بحيث يبقى ما هو لنا مُلكَنا ولا يجرؤ أحدٌ على تقليده. ما أتعس العزلة التي تعيشها المرأة في رأسها، كنت أقول في سرِّي، إنَّه لمن الإجحاف أن تُعزَل إحدانا عن الأخرى، بلا مواثيق أو شروط. كنت أشعر، في لحظاتٍ كتلك، بأنّ أفكاري مبتورةٌ نصفين، جذّابةٌ لكنّها منقوصة، تحتاج إلى تمحيص فوريّ، إلى تطوير، ولكن من دون اقتناعٍ بها، ومن دون ثقة بالنفس. فتعاودني الرغبة في الاتّصال بها، لأقول لها: اسمعي ما أبحث فيه الآن، فلنتحاور في شأنه، أرجوكِ، أعطيني رأيكِ، أتذكرين ما حدّثِتِني به عن ألفونسو؟ غير أنَّ الفرصة قد ضاعت إلى الأبد، منذ

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

سنتين. كان يجدر بي الشروع في الاعتماد على نفسي.

ولكن، ذات يوم، بينما كنت أعمل على تلك الضرورة تمامًا، سمعتُ المفتاح يدور في قفل الباب. عاد بييترو، لتناول الغداء بعد أن مرّ كالعادة ليأخذ ديدي من المدرسة. أغلقتُ الكتاب والدفاتر بينما كانت الطفلة تشاكس في الغرفة، وقد رحّبت بها إيلسا بحماسة. كانت تتضوَّر جوعًا، وكنت أعلم بأنَّها ستصيح: ماما، ماذا سنأكل؟ فإذا هي تهتف، قبل أن تلقي حقيبتها أرضًا هناك صديق بابا جاء لتناول الغداء معنا أذكر التاريخ بدقّة: ٩ مايو ١٩٧٦ نهضتُ في مزاج سيِّئ، أمسكتْ ديدي بيدي وجرَّتني إلى الممرِّ، بينما كانت إيلسا تتخفَّى بتنُّورتي، حياءً من وجود أحد الغرباء في المنزل. قال بييترو مَرِحًا انظري إلى من أتيتُكِ به.

١٠٠

لم تكن لحية نينو كثيفةً كما رأيتُها منذ أعوام في المكتبة، لكنّ شعره ما زال طويلًا ومنفوشًا وفي المحصِّلة، كان قد ظلّ الشابّ الذي عهدتُه في الماضي، طويل القامة، نحيل البدن، برّاق العينين، مُهمَل الهيئة. عانقني، وجثم على ركبتيه ليلاطف الصغيرتين، ونهض معتذرًا على التطفُّل. غمغمتُ ببضع كلمات مجتزَأة: تعالَ، تفضَّلْ، ما الذي جاء بك إلى فلورنسا كنت أشعر كما لو أنَّ نبيذًا ساخنًا يفيض في دماغي. لم أتمكَّن من إعطاء ما يجري حجمَه: هو، هو بالضبط، في بيتي. وكان يبدو لي أنَّ شيئًا ما تعطَّل في تنظيم الداخل والخارج. ما الذي أتخيَّله، وما الذي يحدث بالفعل؟ مَن الظلُّ ومَن الجسد الحقيقيّ؟ شرح لي بييترو في الأثناء: التقينا في الجامعة، فدعوتُه إلى الغداء. كنتُ أتبسَّم، وأقول: «نعم نعم، الغداء جاهز، المكان الذي يأكل فيه أربعة أشخاص يتسع لخمسة، رافِقاني بينما أعِدّ الطاولة». كنت في أقصى حالات التوتُّر، على الرَّغم من أنّي بدوتُ هادئة؛ ووجهي يؤلمني من كثرة الابتسامات المصطنَعة. لماذا نينو هنا؟ ثم ما هو هذا الـ «هنا»؟ ماذا «يكون»؟ «هل فاجأتُكِ؟» سألني بييترو متخوّفًا

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

بعضَ الشيء، كما حين يصيبه الذعر إذا اقترف خطأً ما فقال نينو ضاحكًا: لقد قلت له مئة مرّة أن نتّصل بكِ، أُقسم بذلك، لكنّه أبى ثم أضاف أنَّ زوج والدي هو الذي أوصاه بزيارتنا إذ التقى البروفسور آيروتا في روما، خلال اجتماع للحزب الاشتراكيّ، وهناك، من سيرة إلى أخرى، قال له إنَّ لديه بعض الالتزامات في فلورنسا، فنوّه البروفسور بابنه، والكتاب الجديد الذي يعمل عليه، وتحدَّث عن مجلّدٍ كان قد أمّنه له وعليه أن يرسله إليه في أقرب وقت. فاقترح نينو أن يحمل الكتاب إليه شخصيًّا، وها هو ذاك على الغداء، تتنافس الطفلتان في كسب انتباهه، وكان ضَحوكًا مع كلتيهما، ومتجاوبًا مع بييترو، وجادًّا ومقلًّا في الكلام معي.

«تصوَّري»، قال لي، «لقد أتيتُ إلى هذه المدينة مرَّات كثيرة للعمل، لكنِّي لم أكن أعلم بأنّكِ تعيشين هنا، وأنَّ لديكما آنستين حسناوين. من حسن الحظّ أن حصلتْ هذه الفرصة».

«هل ما زلت تدرِّس في ميلانو؟» سألتُه، وأنا أعلم جيِّدًا بأنّه لم يعد يسكن في ميلانو.

«لا، أدرِّس الآن في ناپولي».

«ماذا تدرِّس؟»

كشَّر باستياء:

«جغرافيا».

«بأيّ معنى؟»

«جغرافيا سكّانيّة».

«وما الذي دفعك إلى العودة؟»

«أمّي ليست بخير».

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

«يؤسفني ذلك. ما بها؟»

«القلب».

«وإخوتك؟»

«بخير».

«ووالدك؟»

«على عادته. لكنّ الوقت يمرّ، ونحن نكبر، وقد تراضينا في الآونة الأخيرة. إنَّه مثل الآخرين، لديه عيوبه ومزاياه». ثم التفت إلى بييترو: «كم من المشاكل واجهتْنا مع آبائنا وعائلاتنا أمّا الآن، وقد حان دورنا، فكيف سنتدبَّر أمرنا؟»

«أنا في وضع جيِّد»، قال زوجي بشيءٍ من السخرية.

«ليس لديَّ شكّ. لقد تزوَّجتَ امرأة رائعة، وهاتان الأميرتان لا يعلى عليهما، مهذَّبتان، وأنيقتان. ما أُحَيْلى فستانكِ يا ديدي، كم يليق بكِ. وملقط الشعر ذو النجوم الصغيرة، من أهداه إلى إيلسا؟»

«ماما»، قالت إيلسا

هدأتُ تدريجيًّا استعادت الثواني انسيابَها المتتالي، وأخذتُ أدرك ما يجري. كان نينو جالسًا إلى المائدة إلى جانبي، يأكل المعكرونة التي أعددتُها، ويقسِّم شريحة اللحم لإيلسا بعناية، ثم ينتقل إلى طبقه بشهيَّة طيِّبة، ينوِّه مستاءً بفضيحة الفساد التي طاولت شركة لوكهيد الأميركيّة للصناعات العسكريّة، والرِّشى التي دفعوها إلى ماريو تاناسِّي ولويجي غوي، ثم يمتدح طبخي، ويناقش بييترو عن البدائل الاشتراكيّة، ويقشِّر تفَّاحة بحركةٍ لولبيّةٍ أبهرتْ ديدي. وفي أثناء ذلك، كان الصفاء يتدفَّق منبسطًا في أرجاء البيت، لم أكن قد شعرتُ به منذ زمن. كم كان جميلًا أن يوافق الرجلُ الآخر في الرؤى، ويتآلفا

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

رحت أنظِّف الطاولة بصمت. فوثب نينو، وعرض نفسه لغسل الأطباق شرط أن تساعده الطفلتان. ابقي جالسةً، قال لي فجلستُ بينما كان يُحمِّس ديدي وإيلسا، ويسألني بين الفينة والأخرى أين يضع هذا الغرض وذاك، ويتابع نقاشه مع بييترو.

كان هو فعلًا، بعد وقت طويل، وكان هناك حقًّا كنت أنظر لاإراديًا إلى خاتم الزواج الذي يطوّق بنصره. لم ينوّه بزواجه إطلاقًا، فكّرتُ. تحدَّث عن أمّه، عن أبيه، لكنَّه لم يذكر زوجته وابنه. ربَّما لم يكن زواجًا متأتّيًا عن حبّ، لعلّه تزوَّجها للمنفعة، أو ربّما أُرغِم على الزواج. ثم تهافتت هذه الفرضيّة المتذبذبة. أخذ نينو فجأة يحدِّث الصغيرتين عن ابنه، ألبرتينو، بطريقة سردٍ تجعل الطفل شخصيّةً في حكاية ما، بنبرة مضحكة تارةً ورقيقة تارة أخرى. وفي النهاية، جفَّف يديه، وأخرج من محفظته صورةً، أظهرها أوّلًا لإيلسا، ثم لديدي، ثم لبييترو الذي مرَّرها إليّ. كان ألبرتينو وسيمًا للغاية. عمره عامان، جالسًا في أحضان والدته متجهِّمًا نظرتُ إلى الصغير ثوانيَ قصيرة، ثم انتقلتُ بسرعة لتفحُّصها بدت لي مشرقة، واسعة العينين، طويلة الشعر أسودِ اللون، لا بدّ من أنَّها تخطَّت العشرين بقليل. كانت تبتسم، أسنانها كطوقٍ مشعٍّ لا تشوبه شائبة، ونظراتها تبدو مغرمة. أعدتُ إليه الصورة وقلت: سأحضِّر القهوة. بقيتُ وحيدة في المطبخ، وانتقل الأربعة إلى الصالة.

كان لدى نينو موعد عمل، اعتذر إلينا كثيرًا، وفرّ حالًا بعد قهوة وسيجارة. سأسافر غدًا، قال، لكنّي سأعود قريبًا، في الأسبوع القادم. طلب منه بييترو أن يتَّصل، فوعدنا بفعلها ودَّع الطفلتين بدفء كبير، صافح بييترو، وأومأ إليّ بتحيّة واختفى. وما إن أغلق الباب خلفه، حتى اجتاحتني كآبة البيت. انتظرتُ أن يعدّد بييترو، على الرَّغم من

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

استلطافه نينو، صفاتِ الضيف القميئةَ، إذ لطالما فعل ذلك. إلّا أنَّه قال مسرورًا: وأخيرًا ثمَّة شخص يستحقّ إضاعة الوقت معه. آلمتني تلك الجملة كثيرًا، لا أدري لماذا أضأتُ التلفاز، وبقيتُ أشاهده طوال العصر بصحبة الطفلتين.

١٠١

أملتُ، منذ اليوم التالي، أن يبادر نينو إلى الاتِّصال سريعًا كنت أجفل كلّما رنَّ الهاتف. لكنَّ أسبوعًا بحاله مرّ من دون أن تردني أخبارٌ منه. شعرتُ كما لو أنّي أُصبتُ بزكام شديد. استبدّ بي الامتعاض، وكففتُ عن قراءاتي وتدوين ملاحظاتي، وغضبتُ من نفسي على ذلك الانتظار الذي لا معنى له، إلى أن عاد بييترو، في ظهيرة يوم ما، مبتهجًا إلى درجة تدعو إلى الانتباه. قال إنّ نينو مرّ عليه في الكلِّيَّة، وأمضيا بعض الوقت معًا، وأخفق في إقناعه بالمجيء للعشاء عندنا دعانا هو إلى العشاء في الخارج مساء الغد، قال، مع الطفلتين أيضًا، لا يريد أن يكلّفكِ عناء التحضير.

سارت الدماء في عروقي بسرعة كبيرة، وانتابني حنانٌ منهَكٌ تجاه بييترو. فعانقتُه وقبّلتُه، حالما هجعت الطفلتان إلى غرفتهما، وهمستُ في أذنيه أعذب كلمات الغرام. ولم أنم في الليل إلّا قليلًا، أو بالأحرى نمتُ وأنا أشعر بأنّي مستيقظة. وفي اليوم التالي، ما إن عادت ديدي من المدرسة، حتى أنزلتُها هي وإيلسا في حوض الحمَّام ومشّطتُ شعريهما جيّدًا جدًّا، ثم انتقلتُ إلى الاهتمام بنفسي. وأخذتُ

telegram @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

كلّ وقتي في استحمام هانئ، ونتفتُ الزغب، وغسلتُ شعري وجفّفتُه بعناية. وجرَّبتُ كلّ الفساتين التي أملكها، واجتاحتني عصبيَّةٌ متزايدة لأنَّ مظهري لم يَرُق لي، وانتابني الحزن سريعًا لما ظهر عليه شعري. وكانت ديدي وإيلسا تشاكسان حولي وتقلّدانني. تستعرضان وضعيَّاتٍ أمام المرآة، وتُبديان استياءهما من الثياب وتسريحة الشعر، وتنتعلان أحذيتي وتتبختران بها رضختُ لما كنتُ عليه. وبَّختُ إيلسا بعصبيَّة مفرطة لأنَّها وسَّخت فستانها في اللحظة الأخيرة، ثم ركبتُ خلف مقود السيارة، وانطلقنا لنأخذ بييترو ونينو اللذين كانا سيلتقيان في الجامعة. كنت قلقة في أثناء الرحلة، وأزجر الطفلتين اللتين ما انفكتّا تؤلِّفان أغنياتٍ من بنات أفكارهما موضوعها التبوُّل والتغوُّط. وكلّما اقتربتُ من مكان الموعد، تمنَّيتُ أنَّ عائقًا غير متوقَّع منع نينو من المجيء. إلَّا أنَّ الرجلين تراءيا لي حالًا، يثرثران معًا. وكان نينو يلوِّح بيديه بطريقة لافتة، كأنَّه يدعو مُحاوره إلى الدخول في مجالٍ رسمه خصِّيصًا من أجله. وبدا بييترو بليدًا كعادته، مضرَّج الوجه، يضحك بمفرده وبشكلٍ مستكين. لم يُبدِ أيٌّ منهما اهتمامًا خاصًّا بوصولي.

جلس زوجي على المقعد الخلفيّ مع الصغيرتين، وركب نينو إلى جانبي ليرشدني إلى مطعم يقدِّم أطيب الوجبات و ـ قال ملتفتًا إلى ديدي وإيلسا ـ أشهى الحلويّات المقليّة. وراح يصف تلك الحلويَّات على مسامعهما، محرِّضًا شهيَّتهما منذ زمن بعيد، فكَّرتُ وأنا أراقبه خلسةً بطرف العين، تمشَّينا يدًا بيد وقبَّلني مرَّتين. ما أجمل أصابعه. لكنَّه الآن لم يقل لي سوى: اتَّجهي إلى اليمين، ثم إلى اليمين أيضًا، ثم إلى الشمال عند التقاطع. لم يخصّني بنظرة إعجاب أو كلمة مجاملة.

رحَّبوا بنا بحفاوة وتقدير في المطعم. كان نينو يعرف صاحبه

والنُّدُل. جلستُ إلى رأس الطاولة بين ابنتَيّ، بينما جلس الرجلان كلٌّ في وجه الآخر، وبدأ زوجي يتحدَّث عن الحياة الصعبة في الجامعات. بقيتُ ساكتة طوال الوقت تقريبًا، أُلبّي طلبات ديدي وإيلسا، اللتين كانتا مهذَّبتين إلى المائدة بشكل عام، لكنّهما لم تتوقَّفا عن إثارة الضجيج في تلك المناسبة، للفت انتباه نينو. كنت أفكِّر بانزعاج: يُكثر بييترو من الكلام، لا يفسح مجالًا لنينو، يكاد يصيبه بالضجر وفكَّرتُ: مع أنّنا نعيش في هذه المدينة منذ سبع سنوات، ليس لدينا مكانٌ يخصّنا حيث نصطحب نينو لردّ الدعوة. لا نعرف مطعمًا يقدِّم وجبات جيِّدة مثل هذا، حيث يعرفنا أصحابه ويرحِّبون بنا عند دخولنا أُعجبتُ بلطف صاحب المطعم الذي غالبًا ما جاء إلى طاولتنا، حتى إنَّه قال لنينو لا أنصحك بهذه الوجبة هذا المساء، ليست مناسِبة لحضرتك ولا لضيوفك. ونصحه بوجبات أخرى. وحين وصلت الحلويّات الشهيرة، انتشت الطفلتان، وبييترو أيضًا، وأشبعوا شهوتهم منها. ولم يتوجَّه إليَّ نينو إلّا حينذاك:

«لماذا لم نعد نرى إصدارًا لكِ؟» سأل باهتمامٍ بدا حقيقيًّا، بعيدًا عن الأحاديث المبتذلة على المائدة.

شعرتُ بالحياء، وقلتُ مشيرةً إلى الطفلتين:

«لديّ شيء آخر يشغلني».

«ذاك الكتاب كان ممتازًا».

«شكرًا».

«لا أجاملكِ، فلطالما أبدعتِ في الكتابة. أتذكرين المقال القصير عن أستاذ التربية الدينيّة؟»

«أصدقاؤك لم ينشروه».

«لقد حدث سوء فهم».

«فقدتُ الثقة».

«يؤسفني هذا وهل تكتبين شيئًا الآن؟»

«في بعض الوقت».

«رواية؟»

«لا أدري كيف أعرِّفها».

«ولكن، ما الموضوع؟»

«عن الرجال الذين يصنِّعون الإناث».

«جميل».

«سوف نرى».

«تقدَّمي في العمل. أريد قراءة كتاباتكِ قريبًا».

وفوجئتُ به يبدي إلمامه الواسع بتلك النصوص التي تتناول النساء، والتي كنت أعمل عليها، بعد أن كنت متيقِّنة من أنَّ الذكور لا يقرأونها ليس هذا فحسب، بل ذكر لي أيضًا كتابًا لستاروبنسكي قرأه مؤخَّرًا، وقال إنَّ فيه ما يمكن أن يكون مفيدًا لي. كم كان مطّلعًا، وقد كان كذلك منذ صباه، لديه فضول تجاه كلّ شيء. قاطعته، عندما ذكر روسو وبرنارد شو، فأصغى إليّ باهتمام. وعندما أثارت الطفلتان أعصابي، بطلب المزيد من الحلويَّات المقليّة، أشار إلى صاحب المطعم ليحضر لنا منها مرَّة أخرى. ثم التفت إلى بييترو وقال له:

«عليك أن تترك لزوجتك وقتًا أكبر».

«لديها كلّ الوقت خلال النهار».

«لا أمزح. إن لم تفعل ذلك، فأنت مُدانٌ ليس من الجانب الإنسانيّ فقط، بل من الجانب السياسيّ أيضًا».

«وماذا عساه الجرم؟»

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

«تبذير الذكاء. إنّ المجتمع الذي لا يجد حَرجًا في حصر ذكاء النساء في الاعتناء بالبيت والأولاد، هو عدوٌّ لنفسه من دون أن يفطن إلى ذلك».

انتظرتُ صامتةً ردَّ بييترو، فأجاب زوجي بسخرية:

«إيلينا قادرة على استخدام ذكائها متى وكيفما شاءت، المهمّ هو ألّا تضيّع وقتي أنا».

«وقت مَن تضيِّع إذن، إن لم يكن وقتك؟»

عبس بييترو:

«إذا كان الواجب الذي نأخذه على عاتقنا متعلِّقًا بشغفنا، فلا وجود لأيّ عائق يمنعنا من إنجازه».

شعرتُ بأنّي جُرحِتُ، فغمغمتُ بشبه ابتسامة مصطنعة:

«زوجي يقصد أنَّه ليس لديَّ اهتمام حقيقيّ بما أقوم به».

ساد الصمت. سألني نينو

«وهل الأمر كذلك؟»

فأجبتُه فجأة بأنّي لا أعرف. لا أعرف شيئًا ولكنّي لاحظتُ أنّ عينيّ تمتلآن دموعًا، بينما كنت أتكلّم، بسخط وارتباك. فأخفضتُ ناظريَّ. «كفاكما مقليّات»، قلت للطفلتين بصوتٍ لم أستطع التحكُّم في نبرته، فآزرني نينو وهتف: «أنا سآكل منها حبّة أخرى فقط، وماما أيضًا، وبابا أيضًا، ولكلٍّ واحدة منكما حبّة، ثم كفى». نادى صاحب المطعم، وقال له بوقار: سأعود إلى هنا مع هاتين الآنستين بعد ثلاثين يومًا بالتمام، وستحضِّر لنا جبلًا من هذه المقليّات الشهيّة، هل هذا يناسبكما؟

سألتْ إيلسا: «متى يكون الشهر، متى تكون الثلاثون يومًا؟»

فقلتُ، بعد أن نجحتُ في لجم الدموع، محدّقةً إلى نينو

«فعلًا، متى يكون الشهر، متى تكون الثلاثون يومًا؟»

ومزحنا ـ ديدي أكثر منّا نحن الكبار ـ على رأي إيلسا الغامض في الزمن. ثم حاول بييترو أن يدفع الحساب، لكنّه اكتشف أنّ نينو قد دفعه مسبقًا فاعترض، وجلس خلف المقود، بينما ركبتُ في المعقد الخلفيّ مع الطفلتين شبه الغافيتين. أوصلنا نينو إلى الفندق، وأصغيتُ إلى حديثهما المتألّق طوال كلّ الرحلة من دون أن أتفوّه بكلمة واحدة. وما إن وصلنا إلى هناك، حتى قال بييترو ببهجة كبيرة:

«لا معنى لهدر النقود هكذا، لدينا غرفة للضيوف، في وسعك أن تبات عندنا في المرّة القادمة، لا تعتذر!»

ضحك نينو:

«قبل أقلّ من ساعة، قلنا إنّ إيلينا في حاجة إلى الوقت، والآن تريد أن تحمّلها عبء إقامتي أيضًا؟»

فتدخّلتُ بنبرة متعبة:

«هذا يُسعدني، ويُسعد ديدي وإيلسا أيضًا».

لكنّي قلت لزوجي ما إن صرنا وحدنا:

«قبل أن توجّه الدعوات، في إمكانك أن تستشيرني على الأقلّ».

شغّل المحرّك، وبحث عنّي في المرآة العاكسة، وغمغم:

«ظننتُ أنّ الأمر يُسعدكِ».

١٠٢

وكيف لا، بالطبع يُسعدني، بل يسعدني جدًّا لكنِّي كنت أشعر كما لو أنَّ جسدي بات كقشرة البيضة، تكفي ضغطةٌ طفيفة على الذراع، أو الجبين، أو البطن، كي تتحطَّم وتتدفَّق منه جميع أسراري، ولاسيّما تلك التي كانت خفيّةً عليّ أيضًا تجنَّبتُ أن أعدّ الأيّام. ركّزتُ في النصوص التي كنت أدرسها، حيث اعتبرتُ نينو متعهِّد أعمالي، الذي قد يطالبني بنتائج نوعيّة عند عودته. كنت أريد أن أقول له: لقد اتّبعتُ نصيحتك، وتقدَّمتُ في العمل، وإليك هذه المسوّدة، أخبرني رأيك فيها

كان الحدس في محلِّه تمامًا طارت الثلاثون يومًا من الانتظار بسرعة قصوى. نسيتُ أمر إيليزا، ولم أفكِّر في ليلا أبدًا، ولم أتّصل بماريّاروزا، ولم أقرأ الجرائد، ولم أشاهد التلفاز، وأغفلتُ شؤون البيت والطفلتين. ولم تردني سوى أصداء عن الاعتقالات والصدامات والجرائم والحروب من حلبة الصراع المستمرّ في إيطاليا والكوكب بأسره؛ بل بالكاد عرفتُ اقتراب الدورة الانتخابيّة المشحونة بالاضطرابات. لم أقم بشيء سوى الكتابة، بالتزامٍ مهيب. تعمّقتُ في

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

الكثير من القضايا القديمة، بحيث خُيِّل إليَّ بأنّي توصَّلتُ إلى ترتيبٍ نهائيّ، في الكتابة على الأقلّ. وأحيانًا كان يراودني الاستنجاد بزوجي، فهو كان أشطر منّي، وكان سيوفِّر عليَّ كتابة أشياء متسرِّعة أو سمجة أو غبيَّة. لكنِّي لم أفعلها، إذ كنت أمقت اللحظات التي تُشعرني فيها معرفتُه الموسوعيّة بالدونيّة. أذكر أنِّي عملتُ كثيرًا، وخصوصًا على قصَّتي التكوين التوراتيتين الأولى والثانية. وضعتُهما على التوالي، واعتبرتُ الأولى بمثابة موجز عن الفعل التكوينيّ الإلٰهيّ، والثانية بمثابة حكاية أكثر استفاضةً. الربّ ـ كتبتُ بما معناه ـ خلق الإنسان، «إيش»، على صورته. وصنع منه نسخةً ذَكَريّة وأخرى أنثويّة. كيف؟ في البدء، أعطى شكلًا لإيش من غبار الأرض، ثم نفخ في منخاريه نَفَسًا حيًّا بعد ذلك، استخرج «إيشا»، المرأة، من المادّة الذَّكَريّة التي سبق أن شكَّلها، إذ لم تعد تلك المادَّة خامًا، بل أصبحتْ مادّة حيَّة، استأصلها من ضلع إيش ثم خاط اللحم سريعًا. النتيجة هي أنّ إيش في وسعه أن يقول: هذا الشيء ليس شيئًا آخر عنِّي، مثل الأشياء الكثيرة التي تمَّ خلقها، إنّما هي لحم من لحمي *أنا*، وعظام من عظامي *أنا* كوَّنها الربّ مني. وقد أخصبني بالنَّفَس الحيّ، واستخلصها من جسدي *أنا* أنا إيش، وهي إيشا ففي الكلمة تحديدًا، في اسمها، تنحدر منِّي *أنا* الذي خُلِقتُ على شاكلة الروح الإلٰهيّ، و*أنا* الذي أحمل كلمته في باطني. وهي مجرَّد لاحقةٍ تابعةٍ لجذوري الكَلِمِيَّة *أنا*، ولا تستطيع أن تعبِّر عن نفسها إلّا داخل كلمتي *أنا*

وتقدَّمتُ على هذا المنوال، وعشتُ أيّامًا وأيّامًا في حالة نشوة فكريّة لا تُضاهى. كانت غايتي الوحيدة والملحَّة هي أن يكون بين يديّ نصٌّ قابل للقراءة قبل فوات الأوان. وكنت أتعجَّب من نفسي بين

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

الحين والحين: تولّد لديَّ انطباعٌ بأنَّ توقي إلى استحسان نينو يسهِّل عليَّ الكتابة، ويطلق لي العنان.

إلّا أنَّ الشهر قد مرّ، ولمّا يظهرْ نينو. ساعدني هذا الأمر في البداية، أتاح لي مزيدًا من الوقت وتمكّنتُ من إنجاز العمل. ثم توجّستُ، وسألتُ بييترو، فاكتشفتُ أنَّهما تهاتفا في المكتب غالبًا، لكنّ أخباره انقطعت منذ بضعة أيّام.

«هل تواصلتما عبر الهاتف غالبًا؟» امتعضت.

«أجل».

«ولماذا لم تخبرني؟»

«بمَ؟»

«بأنّكما تواصلتما غالبًا».

«كانت المكالمات تخصّ العمل».

«حسنًا، ما دمتما أصبحتما صديقين إلى هذه الدرجة، فاتّصل به وانظر إذا كان يتشرَّف علينا بإخبارنا بموعد مجيئه».

«وما لزوم هذا؟»

«لا شيء بالنسبة إليك، لأنَّ الشقاء سيقع عليّ وحدي: أنا التي عليها أن تتّخذ كلّ الإجراءات، فحبّذا لو أُبلِغتُ مسبقًا».

لم يتّصل به، فسلّمتُ أمري قائلة لنفسي: حسنًا، فلننتظرْ، نينو وعد الطفلتين بأنّه سيعود، ولا أظنّ أنَّه سيخذلهما وكان كذلك. اتَّصل متأخِّرًا بأسبوع، في المساء. أجبتُ بنفسي على اتّصاله، وبدا لي مرتبكًا ارتجل كلامًا عامًّا ثم سألني: هل بييترو موجود؟ فارتبكتُ بدوري، ومرَّرتُه إليه. تكلَّما طويلًا، سمعتُ باستياءٍ متصاعدٍ أنّ زوجي يتحدَّث بنبرة غير معهودة: يرفع صوته عاليًا، يستخدم عبارات تعجُّبيَّة،

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

ويقهقه. ففهمتُ حينذاك أنَّ علاقته بنينو تطمئنه، وتُشعره بأنَّه أقلّ عزلةً، فكان يتجاهل الأوجاع ويعمل بسرور. أغلقتُ على نفسي باب غرفتي، حيث كانت ديدي تقرأ وإيلسا تلعب، وتنتظران العشاء. لكنّ صوته غير المألوف وصلني إلى هناك أيضًا، كان يبدو ثملًا ثم صمت، سمعتُ خطواته تطوف في البيت. أطلّ برأسه، وقال مبتهجًا للصغيرتين:

«أيّتها الطفلتان، مساء الغد سنذهب لتناول الحلويَّات المقليّة مع العمّ نينو».

صدحت ديدي وإيلسا بفرح وحماسة، فسألتُه:

«ماذا سيفعل، هل يأتي لينام عندنا؟»

«لا» أجابني، «إنّه بصحبة زوجته وطفله، في الفندق».

١٠٣

استغرق منّي الأمر وقتًا طويلًا لاستيعاب معنى كلامه. اندفعتُ:

«كان في إمكانه إبلاغنا».

«لقد قرّرا في اللحظة الأخيرة».

«إنّه غليظ».

«ما المشكلة، يا إيلينا؟»

جاء مع زوجته إذن. اجتاحني الذعر من المقارنة. كنت أعرف خصال جسدي، وأعرف مادّته الخام، لكنّي لم أعبأ به كثيرًا خلال مدّة طويلة من حياتي. كنت قد نشأتُ وفي حوزتي حذاءٌ واحد، أغيّره كلّما اهترأ، وثيابٌ رثّة من حياكة والدتي، ولا أستخدم مساحيق التجميل إلّا في المناسبات. وفي الأعوام الأخيرة، بدأتُ أنشغل بالصرعات، وأنمّي ذوقي تحت إشراف آديلي، حتى بات حُسن الظهور يثير اهتمامي. ولكن، في بعض الأحيان، ولاسيّما عندما كنت أعتني بنفسي ليس للظهور في مظهر لائق بشكل عامّ، بل لأنال إعجاب رجل ما، كانت التحضيرات (تمامًا، كتحضير المائدة) تبدو لي سخيفة. إذ

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

من الأفضل لو خسرتُ ذلك الوقت وبذلتُ ذلك الجهد في أشياء أخرى. فهذا اللون يناسبني، وذاك لا يناسبني. وهذا الطراز يجعلني أبدو رشيقة، وذاك يُبرز بدانتي. وهذه القطعة تضفي عليّ الوقار، وتلك تنزعه عنّي. تحضيرٌ طويل ومكلف. كأنّي أعرض نفسي على مائدة مرتّبة لأحفّز شهيّة الرجل وشهوته؛ كأنّي طعامٌ مطبوخ بعناية كي يسيل لعاب الرجل. ثم هناك الجزع من عدم التمكّن من الظهور جميلةً، والإخفاق في إخفاء فظاظة اللحم ببراعة، فضلًا عن سوائله وروائحه وقبحه. لكنّي كنت أفعل ذلك في أيّ حال. وقد فعلتُها من أجل نينو أيضًا، مؤخّرًا أردتُ أن أثبت له أنّي صرت امرأة أخرى، وأنّي اكتسبتُ رونقًا خاصًا، وأنّي لم أعد تلك الفتاة التي رآها في عرس ليلا، والتلميذةَ في حفلة ابنَي الأستاذة غاليياني، ولا حتى الكاتبةَ المغفَّلة ذات الكتاب الوحيد في ميلانو. ولكن هذا يكفي. لقد جاء بزوجته وكنت غاضبة، بدت لي تلك الخطوة خبيثة. كنت أكره التنافس في الجمال مع امرأة أخرى، تحت ناظري رجل ما أيضًا، وأتألّم إذا فكّرتُ في أنّي سأكون في المكان نفسه مع الفتاة الحسناء التي رأيتُ صورتها، وتؤلمني معدتي. كانت ستعاينني، وتدرس كلّ تفاصيلي بكبرياء أيّ آنسةٍ آتيةٍ من حيّ تاسّو، ترعرعتْ على الاعتناء بالجسد منذ الولادة؛ وستنتقدني بأقسى ما عندها في نهاية السهرة، حين تختلي بزوجها

تردّدتُ لساعات، ثم قرّرتُ في النهاية أن أخترع عذرًا كي لا أذهب إلى العشاء. سيذهب بييترو والطفلتان فقط. لكنّي في اليوم التالي لم أقاوم. لبستُ، نزعتُ ثيابي، سرّحتُ شعري، غيّرتُ التسريحة، صدّعتُ رأس بييترو. كنت أذهب إلى غرفته باستمرار، بفستان ما تارةً، وبفستان مختلف تارة أخرى، بتسريحة تارةً، وبتسريحة

مختلفة تارة أخرى، وأسأله، باضطراب شديد: كيف أبدو لك؟ فيُلقي نظرة شاردة عليّ ويقول: تبدين أنيقة. فأردّ: وماذا لو ارتديتُ الفستان الأزرق؟ فيومئ موافقًا لكنِّي كنت أخشى من ذلك الفستان الأزرق، لم يكن يعجبني، كان ضيِّقًا عند الخصر فأعود إليه وأقول له: إنَّه ضيِّق. فيردّ بييترو نافد الصبر أجل، ذاك الأخضر بالأزهار الصغيرة يبدو عليكِ أجمل. لكنِّي لم أكن أودّ أن أبدو بالفستان الأخضر أجمل ببساطة، بل كنت أريد أن أبدو به جميلة جدًّا، وأن يليق بي القرطان أيضًا، والتسريحة، والحذاء. كان بييترو عاجزًا عن إمدادي بالثقة في المحصِّلة. كان ينظر إليّ من دون أن يراني. وكان شعوري بنفسي يزداد سوءًا: صدري منتفخ، مؤخِّرتي مفلطحة، خصري عريض، شعري باهت الشقرة، وأنفي ضخم. كان لي جسد والدتي، جسدٌ منكود، لم يكن ينقصني حينذاك إلّا أن تعاودني آلامُ أسفل الظهر والخطوةُ العرجاء. أمّا زوجة نينو فكانت في ريعان شبابها، جميلة وثريّة، ولا بدَّ من أنَّها خبرت الظهور على مسرح الحياة، بقدر ما أخفقتُ دومًا في تعلُّم ذلك. وهكذا عدتُ ألفَ مرَّة إلى القرار الأوّل لن أذهب، سأرسل بييترو مع الطفلتين، سأدّعي أنِّي لا أشعر بخير لكنِّي ذهبتُ. ارتديتُ قميصًا أبيض فوق تنُّورة بهيجة منقوشة بالأزهار، ولم أتزيَّن إلَّا بسوار أمِّي القديم، ووضعتُ النصّ الذي كتبتُه في حقيبة اليد. وقلت لنفسي: ما همَّني برأيها، برأيه، برأي الجميع.

١٠٤

وصلنا إلى المطعم متأخّرين، بسبب تحيُّري. كانت عائلة سارّاتوري جالسة إلى الطاولة منذ مدّة. قدَّم نينو إلينا زوجته، إليونورا، فاعتدل مزاجي. بالطبع، كان وجهها جميلًا وشعرها الأسود جميلًا جدًّا، مثلما ظهرت في الصورة تمامًا لكنّها كانت أقصر قامة منّي، على الرَّغم من أنّي لست طويلة. لم يكن لديها صدر بارز مع أنّها ممتلئة الجانبين نوعًا ما وكانت ترتدي فستانًا أحمر فاقعًا لا يليق بها قطعًا، ومحمَّلةً بالمجوهرات. وما إن نطقت أوّل جملة، حتى كشفت عن صوتها الزاعق، ولكنةٍ لفتاةٍ ناپوليتانيّةٍ نشأتْ عند لاعبي الورق في داخل بيتٍ تطلّ شرفتُه الزجاجيّة على الخليج. والأهمّ من ذلك كلّه أنّها أثبتت، خلال السهرة، أنّها غير مثقَّفة على الإطلاق مع أنّها كانت تدرس الحقوق، وبانت غرائزها الجانحة إلى انتقاد كلّ شيء وأيّ شخص بلهجة مَن يحسب نفسه عكس التيّار ويفتخر بذلك. في المحصِّلة، كانت ثريَّة، عدائيَّة، وسُوقيَّة. حتى ملامحها البهيَّة قد تشوَّهتْ بفعل تكشيرها المستمرّ وامتعاضها المتبوع بقهقهةٍ عصابيّةٍ، هيهيهي، تُشرذم حديثَها، بل جُمَلَها القصيرة أيضًا انزعجتْ من

مكتبة الرمحي أحمد telegram @ktabpdf

فلورنسا ـ ما الذي فيها ما يفوق ناپولي؟ ـ. انزعجت من المطعم ـ سيِّئ للغاية ـ؛ من صاحب المطعم ـ غير مهذَّب ـ؛ من كلّ ما قاله بييترو ـ يا للغباء ـ؛ من الطفلتين ـ يا أمّنا العذراء، كم تثرثران، رجاءً، اتركانا ننعمْ بالهدوء قليلًا ـ، ومنِّي بطبيعة الحال ـ درستِ في بيزا؟ ولماذا؟ كلِّيَّة الآداب في ناپولي أفضل بكثير، لم أسمع بروايتكِ من قبل. متى صدرت؟ منذ ثماني سنوات كان عمري أربعة عشر عامًا ـ. ولم تكن رقيقة إلّا مع ابنها ونينو. كان ألبرتينو طفلًا وسيمًا، بدينًا، ذا طلّة سعيدة، فما انفكّت إليونورا عن امتداحه. وفعلت الأمر ذاته لزوجها: ما من أحد أفضل منه. توافقه في أيِّ كلمة يقولها، ثم تداعبه، تعانقه، تقبِّله. ما الذي قد يجمع بين هذه الفتاة وليلا، بل حتى سيلڤيا؟ لا شيء. فلماذا تزوَّجها نينو إذن؟

تلصَّصتُ عليه طوال السهرة. كان لطيفًا معها، يدعها تعانقه وتلثمه بسرور، ويبتسم لها بإشفاق إذا ما تفوَّهت بترّهات مشينة، ثم يلاعب ابنه بشرود. لكنَّه لم يغيِّر من سلوكه مع ابنتَيّ، اللتين خصَّهما باهتمام بالغ، وظلّ يناقش بييترو وقد وجَّه إليَّ بضع كلمات أيضًا زوجته ـ فكَّرتُ ـ لا تمتصّه. إليونورا كانت إحدى محطَّات حياته الهائجة، فلم يكن ليخضع لتأثيراتها البتَّة، كان يمضي قُدُمًا في طريقه مستخفًّا بها لذا شعرتُ بأنّي على ما يرام، وخصوصًا عندما أمسك معصمي عدّة ثوانٍ، لامسه بالكاد، وتذكَّر سواري، وخصوصًا حينما سخر بزوجي إذ سأله عمّا إذا كان قد ترك لي الوقت لألتفت إلى شؤوني، وخصوصًا حينما سألني، بعد ذلك فورًا، إن كنتُ قد تقدّمتُ في عملي.

«أنهيتُ المراجعة الأولى».

التفت نينو إلى بييترو جادًّا:

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

«هل قرأته أنت؟»

«إيلينا لا تُقْرِئني شيئًا».

«بل أنت الذي لا تريد»، أجبتُ من غير نقمة، كما لو كنّا نتمازح معًا.

فتدخّلت إليونورا حينذاك. لم تشأ أن تكون خارج النقاش:

«ما هو هذا؟» سألتْ. ولكن، حينما كنت أتهيّأ لأجيبها، حملها رأسها السارح بعيدًا وانتقلتْ لتسألني بابتهاج: «هلّا رافقتِني غدًا لنرى المحالّ، بينما يعمل نينو؟»

ابتسمتُ لها برسميّةٍ متكلّفة. وقلت إنّي تحت تصرُّفها، فأخذت تعدِّد كلّ الأشياء التي تنوي شراءها بالتفصيل المملّ. ولم أتمكَّن من محاذاة نينو إلّا عندما خرجنا من المطعم، غمغمتُ:

«هل في إمكانك أن تلقي نظرة على النصّ؟»

نظر إليّ بتعجُّبٍ صادق:

«أحقًّا تريدين منّي أن أقرأه؟»

«أجل، إن كان لا يسبِّب لك الضجر»

مرَّرتُ إليه الأوراق خلسةً، وقلبي يخفق، كأنِّي أردتُ ألّا ترانا أعين بييترو، وإليورنورا، والطفلتين.

١٠٥

لم يغمض لي جفن. وفي الصباح، رضختُ لموعد إليونورا، تمام العاشرة عند باب الفندق. أوصيتُ نفسي: إيّاكِ أن تكوني غبيّة وتسأليها إن شرع زوجها في قراءة عملكِ؛ نينو مشغول، سيستغرق منه الأمر قليلًا من الوقت؛ لا تهجسي كثيرًا؛ سيمرّ أسبوع كامل على الأقلّ.

إلّا أنَّ الهاتف رنّ في تمام التاسعة، بينما كنت أتهيَّأ للخروج؛ وكان هو المتّصل.

«اعذريني» قال، «سأدخل المكتبة في الحال، ولن يتسنَّى لي الاتّصال بكِ حتى المساء. أحقًّا لستُ أزعجكِ؟»

«إطلاقًا».

«لقد قرأتُ النصّ».

«بهذه السرعة؟»

«أجل. إنّه عملٌ ممتاز. لديكِ كفاءة عالية في البحث، ودقّة متناهية، وابتكار مدهش. لكنّ أكثر ما أغبطكِ عليه هو تمكُّنكِ من

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

حِرفة السرد. لقد كتبتِ نصًّا يصعب تعريفه، لست أدري إن كان دراسة نقديّة أم حكاية. لكنّه خارق»

«وهل هذا معيب؟»

«ماذا؟»

«كونه غير قابل للتصنيف».

«بل على العكس، هذه إحدى مزاياه».

«هل عليَّ أن أنشره كما هو، في رأيك؟»

«أجل، بالطبع».

«شكرًا»

«شكرًا لكِ. عليّ أن أذهب الآن. كوني صبورة مع إليونورا، تبدو عدائيّة لكنَّها ليست سوى خجولة. صباح الغد سنعود إلى ناپولي، لكنِّي سأعود إلى هنا بعد الانتخابات، ونتناقش إن أردتِ»

«هذا يُسعدني كثيرًا هل ستأتي للمبيت عندنا؟»

«أحقًّا لا أثقِل عليكم؟»

«إطلاقًا».

«حسنًا».

لم يغلق السمّاعة، سمعتُ أنفاسه.

«إيلينا».

«نعم».

«لينا أعمت بصر كلٍّ منّا، حين كنّا شابَّين».

شعرتُ بانزعاج كبير

«إلامَ ترمي؟»

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

«لقد كنتِ تنسبين إليها مقدراتٍ، هي ليست سوى مقدراتكِ أنتِ».

«وأنتَ؟»

«أنا فعلتُ الأسوأ ما رأيتُه فيكِ بدا لي، عن غباء، أنّي وجدتُه فيها».

بقيتُ ساكتة بضع ثوانٍ. ما الضرورة التي شعر بها حتى يأتي على ذكر ليلا، هكذا، عبْر الهاتف؟ وما الذي كان يقوله لي بالتحديد؟ هل كانت مجرَّد مجاملات؟ أم كان يلمِّح إلى أنَّه رغب فيَّ في الماضي، لكنَّه، في إيسكيا، نَسَب إلى إحدانا ما كان للأخرى؟

«عُدْ قريبًا» قلتُ.

١٠٦

ذهبتُ أنا وإليونورا والأطفال الثلاثة نتمشّى في حالةٍ قصوى من الرفاهيَّة، ولو أنَّها طعنتني بسكّين لغفرتُ لها ذلك. فقد تخلَّت زوجة نينو عن جفائها، إزاء غمري إياها بكلِّ ما أوتيتُ من لطف، فراحت تمتدح ديدي وإيلسا على تهذيبهما، واعترفتْ بأنَّها تقدِّرني كثيرًا. كان زوجها قد حدَّثها عن كلّ شيء يتعلَّق بي: عن الدراسات التي أجريتُها، والنجاح الذي حصدتُه في الكتابة. «لكنِّي غيورة نوعًا ما»، أقرَّت، «ليس لأنَّكِ شاطرة، بل لأنَّكِ تعرفين نينو منذ زمن بعيد، وأنا لا.» كان يُسعدها لو أنَّها التقته في الطفولة هي أيضًا، لتعرف شكله في سنّ العاشرة، وكيف تغيَّر في الرابعة عشرة، وصوته قبل أن يبلغ، وضحكته الصبيانيّة. «لحسن الحظّ أنَّ ألبرتينو نسخةً عن أبيه»، قالت.

نظرتُ إلى الطفل مليًّا، فلم يبدُ لي أن رأيتُ فيه ملامح نينو، لعلَّها ستظهر عليه لاحقًا. «أنا أشبه بابا»، هتفتْ ديدي في الحال باعتزاز، وأضافت إيلسا «أمّا أنا، فأشبه ماما أكثر». عاد إلى ذهني ميركو، ابن سيلفيا، الذي بدا لي مطابقًا لنينو. كم من المتعة اعترتني عندما ضممتُه بين ذراعيّ، وهدّأتُ روعه في بيت ماريّاروزا ما الذي

مكتبة الرمحي أحمد telegram @ktabpdf

كنت أبحث عنه آنئذ، حينما كنت بعيدةً عن تجربة الأمومة، في ذلك الطفل؟ ما الذي بحثتُ عنه في جينّارو، قبل أن أعرف أنّه ابن ستيفانو؟ ما الذي كنت أبحث عنه في ألبرتينو، وقد كنتُ أمًّا لديدي وإيلسا؟ وما الذي يدفعني إلى معاينته بكلّ اهتمام؟ استبعدتُ أن يتذكَّر نينو ابنه ميركو بين الحين والآخر إذ لم يبدُ لي أنّه أظهر ميولًا نحو جينّارو. يا لسعي الذكور السارح إلى الإبذار؟ كم تشوّش الشهوةُ أذهانهم. يخصّبوننا في حين تغلبهم هزّة الجماع. يطلُّون من بواطننا ويخرجون منّا ليتركوا لنا، في خفايا لحومنا، طيفًا منهم كأنّه غرضٌ ضائع. هل كان ألبرتينو ابن الإرادة والقصد؟ أم هو أيضًا في أحضان هذه المرأة ـ الأمّ ولا يبالي نينو بأيّ مسؤوليّة تجاهه؟ عدتُ إلى رشدي. قلت لإليونورا إنّ ابنها نسخة طبق الأصل عن أبيه، وكنتُ سعيدة بهذه الكذبة. ثم قصصتُ لها بدقَّة، وودّ، عن نينو أيّامَ الابتدائيّة، وأيّام مسابقات الجدارة التي كانت تنظِّمها أوليڤييرو ومدير المدرسة، وأيّام الثانويّة. رويتُ لها عن غالياني والإجازة في إيسكيا التي أمضيناها بصحبة أصدقاء آخرين. وتوقَّفتُ عند ذلك الحدّ، مع أنّها كالطفلة ما لبثت تسائلني مرارًا: وبعد؟

باتت تستلطفني أكثر، ثرثرةً خلف ثرثرة، فتعلّقت بي. وإذا دخلنا محلاً ما، وأعجبتني قطعة ما، وجرَّبتُها ثم تركتُها، اكتشفتُ عند الخروج أنّ إليونورا اشترتها هديّةً لي. وأرادت شراء بعض الثياب لديدي وإيلسا أيضًا. وفي المطعم، دفعتِ الحساب. ودفعت إلى سائق الأجرة الذي أقلّني مع الطفلتين إلى البيت، ليوصلها بعد ذلك إلى الفندق محمّلةً بالأكياس. تودّعنا، وبقيتُ مع ابنتَيّ نلوّح بأيدينا خلف السيّارة حتى انعطفت عند الزاوية. لحظةٌ أخرى من مدينتي، فكّرتُ، بعيدة كلّ البعد عن تجربتي. كانت تستخدم النقود مستخفّةً بقيمتها

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

واستبعدتُ أن تكون نقود نينو. كان والدها محاميًا، وجدّها أيضًا، وأمّها تنتمي إلى سلالة أصحاب مصارف. فتساءلتُ ما الفرق بين ثراء البرجوازيّين وثراء آل سولارا كم دورةً خفيّةً تدور الأموال قبل أن تصبح رواتب عالية وأتعابًا باهظة. تذكَّرتُ فتيان الحيّ الذين كانوا يتقاضون قُوت يومهم بتفريغ صناديق التهريب، وقَطع أشجار الحدائق، والعمل في ورشات البناء. تذكَّرتُ أنطونيو، وباسكوالي، وإنتسو، وشقاءهم في سبيل نقود زهيدة منذ أن كانوا فتيةً ليبقوا في قيد الحياة. أمّا المهندسون، المعماريُّون، المحامون، المصارف، فهم شيء مختلف، لكنَّ أموالهم آتية من الأعمال الرديئة نفسها، حتى لو تنقّتْ في ألف غربال؛ من المهلكة نفسها، وقد تحوَّل بعض الفُتات إلى بقشيش لوالدي أيضًا فساهم في تدريسي. فما هي العتبة التي تصبح بعدها الأموالُ القذرةُ نظيفةً، والعكس؟ كم عدد النقود النظيفة التي أنفقتها إليونورا في قيظ نهار فلورنسيّ بلا اكتراث؟ والشيكات التي اشترت بها الهدايا التي كنت أحملها إلى البيت، كم كانت مختلفة عن تلك التي يدفع بها ميكيلي أجر ليلا؟ بقينا، أنا وطفلتايَ، نتبختر كالطواويس أمام المرآة، طوال الظهيرة، ونجرّب ما وهبتنا من ثياب. كانت بضاعة فاخرة، حيويّة، بهيجة. كان هناك فستان قرمزيّ، من صرعة الأربعينيّات، لاق بي على نحو كبير، تمنَّيتُ لو رآني فيه نينو.

عادت عائلة سارّاتوري كلّها إلى نابولي من دون أن نحظى بفرصة لقاء آخر. لكنّ الوقت لم يتجمَّد، خلافًا لكلِّ التوقُّعات، بل راح يركض بخفّة. سيعود نينو، كان هذا مؤكّدًا. وقد يناقشني في النصّ الذي كتبتُه. وضعتُ نسخة منه على منضدة بييترو، تجنُّبًا لمماحكات لا معنًى لها ثم اتّصلتُ بمارِيّاروزا بيقينٍ مريح بأنّي عملتُ جيِّدًا، وقلت لها إنّي استطعتُ أن أرتِّب تلك الفوضى التي حدَّثتُها عنها، فأرادت أن

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

أرسله إليها فورًا واتّصلت بي متحمِّسة بعد عدَّة أيَّام، وطلبت الإذن في أن تترجمه شخصيًّا إلى الفرنسيّة وتبعثه إلى إحدى صديقاتها في نانتير، التي كانت تدير دار نشر صغيرة. فوافقتُ بحماسة. ولم ينته الأمر عند ذلك. مرَّت ساعات قصيرة، فإذا حماتي تتّصل بي بنبرة تصنّع الاستياء.

«كيف بتِّ ترسلين الأشياء التي تكتبينها إلى مارِيَّاروزا لتقرأها، وليس إليّ؟»

«خشيتُ ألّا ينال اهتمامكِ. ثم إنّها نحو سبعين صفحة، وليست رواية، ولا أعرف أنا نفسي كيف أعرِّفها».

«عندما لا تعرفين ماذا كتبتِ فهذا يعني أنّكِ عملتِ جيّدًا في أيّ حال، دعيني أقرّر بنفسي إذا كان ينال اهتمامي أم لا».

فأرسلتُ إليها نسخة أيضًا، وقد فعلتُها بلا تعويل كبير. فعلتُها تحديدًا في الصباح الذي فاجأني فيه نينو، قرابة منتصف النهار، بالاتّصال من المحطّة، وقد وصل للتوّ إلى فلورنسا

«سأكون عندكِ بعد نصف ساعة، أترك الحقيبة ثم أذهب إلى المكتبة».

«ألا تأكل شيئًا ما؟» سألتُه بكلّ طبيعيّة. بدا لي من الطبيعيّ ـ بعد رحلة طويلة ـ أن يأتي لينام في بيتي، وأن أعدّ له ما يأكله بينما يستحمّ في حمّامي، ونتغدَّى معًا، أنا وهو والصغيرتان، بينما يُجري بييترو الامتحانات في الجامعة.

١٠٧

مكث نينو عشرة أيّام بأكملها لم يقع في خلالها أيّ شيء ممّا وقع في أثناء تلك الفترة التي خبرتُ فيها هوس الإغواء، قبل عدَّة أعوام. لم أمازحه؛ لم أتغنَّج أمامه بصوتي؛ لم ألحّ عليه بأيٍّ شكل من أشكال المجاملة؛ لم أجرِّب طريقة التلميحات الماكرة؛ لم أبحث بهيام قلبي عن نظراته؛ لم أقم بأيّ محاولة للجلوس إلى جانبه إلى الطاولة، وعلى الأريكة، وقبالة التلفاز؛ لم أظهر في البيت بثيابٍ مكشوفة؛ لم أدفع به على انفراد؛ لم ألمس مرفقه بمرفقي، أو ذراعه بذراعي أو صدري، أو ساقه بساقي. بل كنت خجولة، ورصينة، ومُقِلَّة في الكلام، وحريصة على أن يتناول طعامه جيِّدًا، وألّا تزعجه الطفلتان، وأن يشعر بأنَّه على ما يرام. ولم يكن هذا خيارًا، إذ لم يكن في إمكاني أن أتصرَّف بطريقة أخرى. كان نينو يمزح مع بييترو، مع ديدي، مع إيلسا، لكنّه يتكلَّم بجدِّيَّة ما إن يرنو إليّ. بدا أنَّه يقيس كلّ كلماته معي، كما لو لم تكن بيننا صداقة قديمة. وهذا ما جعلني أتصرَّف معه بالمثل. كنت في قمَّة السعادة لاستضافته في بيتي، لكنِّي لم أرَ أيّ ضرورةٍ لنبرة واثقة وحركة مرحِّبة، بل صار يعجبني أن أظلّ

telegram @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

على الهامش للحيلولة دون أيّ تواصل بيننا. كنت أشعر بأنّي كقطرة مطر تسقط على شبكة عنكبوت، فأتوخّى الحذر من الانزلاق إلى الأسفل.

جرت بيننا محادثة وحيدة وطويلة، ركّزتْ في نصّي فقط. كلَّمني بشأنه على الفور، عند وصوله، بدقّة وفطنة. أدهشته حكاية إيش وإيشا، فاستجوبني: بالنسبة إليكِ، المرأة في الحكاية التوراتيّة، ليست شيئًا بمعزل عن الرجل، هل هي الرجل ذاته؟ «أجل»، قلت، «حوّاء لا تستطيع، ولا تعلم، وليس لديها مادّة لتكون حوّاء بمعزل عن آدم. فخيرها وشرّها هما الخير والشرّ بالنسبة إلى آدم. حوّاء هي آدم على هيئة امرأة. والفعل الإلٰهيّ ناجحٌ إلى درجة أنّ حوّاء نفسها، في ذاتها، لا تعلم ماهيّتها خصائصها ليِّنة، ولا تمتلك لغةً خاصّة بها، ولا روحًا خاصَّة بها، ولا منطقًا خاصًّا بها يتغيّر شكلها كأنَّه لا شيء». «يا له من وضع رهيب»، علَّق نينو، فاسترقتُ النظر إليه بعصبيّة، لأرى إن كان يسخر منِّي. لا، لم يكن يسخر منِّي. بل امتدحني كثيرًا من دون أدنى ازدراء، وأشار إلى بعض الكتب التي لم أكن أعرفها، وتتطرَّق إلى مواضيع موازية، وردّ بأنّه يعتبر النصّ جاهزًا للنشر أصغيتُ إليه من دون إبداء الرضا، وفي النهاية لم أقل سوى: النصّ أعجب ماريّاروزا أيضًا حينذاك، استعلم عن نسيبتي، وأشاد بأهمِّيَّة بحوثها، وبالتفاني التي أظهرتْه لفرانكو، ثم خرج للذهاب إلى المكتبة.

كان يخرج في الصباح، في بقيّة الأيّام، مع بييترو، ويعود في المساء بعده. ولم نخرج جميعًا إلّا في مناسبات نادرة. على سبيل المثال، ذات مرَّة، أراد أن يأخذنا لمشاهدة فيلم مسلٍّ، اختاره للطفلتين بصورة خاصّةً. جلس نينو إلى جانب بييترو، وأنا بين ابنتيّ. وحين انتبهتُ إلى أنّي أضحك بقوّة متى ضحك هو، توقّفتُ عن

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

الضحك كلّيًّا عاتبتُه عندما استغلّ الاستراحة ليذهب ويشتري المثلّجات لديدي وإيلسا، ولنا نحن الكبار بالطبع. «أنا لا أريد»، قلت، «شكرًا». فمازحني قليلًا، وقال إنّ تلك المثلّجات لذيذة، ولا أعلم ما الذي أخسره إن لم أتذوّقها، فأعطاني إيّاها وتذوّقتُها. أشياء صغيرة في المحصِّلة. ذات عصر، تمشّيتُ أنا وهو بصحبة ديدي وإيلسا بالكاد تكلّمنا كان يحادث الطفلتين بصورة خاصة. لكنَّ المشوار ظلَّ عالقًا في ذاكرتي. بإمكاني أن أذكر كلّ الطرقات التي مشيناها، والأماكن التي توقّفنا فيها، والزوايا التي انعطفنا عندها كان الطقس حارًّا، والمدينة مزدحمة. وكان يُلقي التحيّة باستمرار. ناداه أحدهم بكنيته أيضًا، وقدّمني إلى هذا وذاك، مبالغًا في امتداحي. صُدمِتُ بشهرته. أحدهم، وكان باحثًا معروفًا في التاريخ، تغزّل بالطفلتين على أنّهما طفلتانا لم يقع أيُّ شيء آخر، سوى تبدُّل مباغت ومبهم لعلاقته ببييترو.

مكتبة الرمحي أحمد telegram @ktabpdf

١٠٨

بدأ كلّ شيء ذات مساء على العشاء. كلَّمه بييترو بإعجاب عن أستاذ جامعيّ من ناپولي، وكان يحظى بتقدير واسع آنئذ، فقال نينو كدتُ أراهن على أنّ ذاك الأحمق يعجبك. بدا زوجي مشتَّت الذهن، افتعل ابتسامة حائرة، لكنّ نينو زوّد الجرعة واستسخفه لأنّه يُخدَع بالمظاهر بسهولة. تلا ذلك حادثٌ صغير، في الصباح التالي مباشرة. لا أذكر ما المناسبة، عاد نينو إلى الإشارة إلى صدامي القديم مع أستاذ التربية الدينيَّة عن الروح القدس. رغب بييترو في معرفة تفاصيل الموقف، لأنه لم يكن على دراية بها، فما كان من نينو إلّا أن اتَّجه بكلامه إلى الطفلتين، متجاهلًا بيترو، وراح يروي عليهما الأمر بتهويل ما أقدمت عليه أمّهما من فعل عظيم في صغرها

امتدحني زوجي قائلًا: لقد كنتِ شجاعة جدًّا. لكنَّه راح يشرح لديدي ـ بالنبرة ذاتها التي يستخدمها حين يذيع التلفازُ ترّهاتٍ يجد نفسه مضطرًّا إلى توضيح حقيقتها ـ عمّا حدث للرسل الاثني عشر في صباح العنصرة: «ضوضاءٌ كما الريح، لهبٌ كالحريق، نعمة أن يفهمنا أيٌّ كان، في أيّ لغة». ثم التفت إليّ وإلى نينو، ليحدِّثنا بإبهارٍ عن

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

الفضيلة التي تغلغلت في الرسل، مستشهدًا بالنبيّ يوئيل: «سأنثر روحي فوق كلّ جسد». وقال إنَّ الروح القدس هو بمثابة رمز لا غنًى عنه للتمعُّن في طريقة البشر في إيجاد الوسيلة للتقابل والتنظُّم في المجتمع. تركه نينو يسترسل، لكنّه اتّشح بتعبير يزداد تهكُّمًا واستخفافًا هتف في النهاية: كدتُ أراهن على أنّك تخفي راهبًا في باطنك. وقال لي متظارفًا هل أنت زوجته أم جاريته؟ تضرَّج وجه بييترو، وتشوَّش. كان مولعًا بتلك المواضيع دومًا، فأحسستُ بأنّه كان يكتئب. غمغم: اعذراني، إنّي أضيِّع وقتكما، فلنذهب إلى العمل.

تضاعفت المواقف المشابهة، والتي لم يكن لها سبب واضح. فبينما ظلَّت العلاقة بيني وبين نينو على حالها، محافظة على شكلها، في التلاطف وإبقاء المسافة، انهارت الحواجزُ بينه وبين بييترو. على الفطور مثلما على العشاء، أخذ الضيف يتوجَّه إلى صاحب البيت بعبارات تتصاعد حدَّة سخريتها، تكاد تصل إلى حدّ الإهانة، من تلك العبارات التي تُشعرك بالذلِّ، ولكن بأسلوب ودِّيٍّ كما بين الأصدقاء، بابتسامة لا تبارح الشفتين، حتى إنّك تجد نفسك عاجزًا عن الردّ بمثلها خشية أن يظنوك غضوبًا من أتفه الأمور. كنت أعرف تلك التموُّجات حقَّ المعرفة، في الحيِّ كان الحَذِقُ غالبًا ما يستخدمها ليهزم المغفّلَ ويجرِّده من الكلام آخذًا بناصيته إلى قلب المعمعة. بدا بييترو مشتَّت الذهن على وجه الخصوص: كان بخير مع نينو، كان يحترمه، لذا لم يردّ، بل يكتفي بإيماءة من رأسه تدلّ على اللهو، وأحيانًا يبدو أنَّه يتساءل أين أخطأ في حقِّه، ويظلّ في انتظار عودة النبرة الودودة إلى سابق عهدها إلّا أنَّ نينو كان يتقدَّم بلا هوادة. يلتفت إليّ، وإلى الطفلتين، يزوِّد جرعة التجريح ليحظى باستحساننا. وكانت الطفلتان تتسلّيان، وأنا بعض الشيء أيضًا وفي الآن ذاته، أتساءل: لماذا يفعل

telegram @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

هكذا، ستنقطع العلاقة إذا استاء بييترو. لكنّ بييترو لم يكن يستاء، كان ببساطة لا يعي ما يحدث، فتُحرَق أعصابُه يومًا بعد يوم. عاد الإنهاك يطغى على وجهه، وعاد بلاء تلك الأعوام يظهر في عينيه المتوجّستين وجبينه العابس. عليّ أن أفعل شيئًا ما، أقول لنفسي، وفي أقصى سرعة. لكنِّي لم أكن أقوم بشيء لتدارك الموقف، إنّما بذلتُ جهدًا في عدم التظاهر بالإعجاب ـ ليس الإعجاب؛ إنّما النشوة، أجل، ربّما كانت نشوة ـ الذي يعتريني وأنا أشاهد سليل آيروتا، المثقَّف والعلّامة، يتكبّد الخسائر، ويتزعزع مضطربًا، ويردّ بنكاتٍ هشَّة ومبتذلة على الضربات الخاطفة والذكيّة والفتّاكة لنينو سارّاتوري، رفيقي في المدرسة، وصديقي، ومن مواليد الحيّ الذي وُلدتُ فيه.

١٠٩

وقع أمران مؤسفان للغاية، قبل بضعة أيَّام من عودته إلى ناپولي. في ظهيرة أحد الأيّام، اتَّصلت بي آديلي، وكانت سعيدة بالنصّ هي أيضًا قالت لي أن أرسله إلى دار النشر حالًا، من الممكن أن يُنشَر على هيئة كتيّب، يتزامن إصداره مع صدوره في فرنسا أو بعدها بقليل، إذا تعذّر الوقت. فتحدّثتُ بهذا الشأن على العشاء بنبرة محايدة، وهنّأني نينو كثيرًا، وقال للطفلتين:

«أمّكما فريدة من نوعها»، ثم التفت إلى بييترو: «هل قرأته أنت؟»

«لم يتسنّ لي الوقت».

«من الأفضل ألّا تقرأه».

«لماذا؟»

«لا يناسبك».

«ماذا تقصد؟»

«إنّه نصّ في قمّة الذكاء».

«إلامَ تلمّح؟»

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

«ألمّح إلى أنّ إيلينا أذكى منك».

وضحك. لم يقل بييترو شيئًا، فألحّ عليه نينو:

«هل أزعجك كلامي؟»

أراد منه أن يردّ كي يمعن في إهانته. لكنّ بييترو نهض عن الطاولة وقال:

«المعذرة، لديّ ما أعمل عليه»

غمغمتُ:

«أَنْهِ طعامك!»

لم يردّ. كنّا نتعشّى في الصالة، كانت غرفةً واسعة. وللوهلة الأولى، بدا أنّه يريد عبورها كي ينكفئ إلى مكتبه حقًّا لكنّه طاف نصف دورة، ثم جلس على الأريكة وأضاء التلفاز ورفع الصوت إلى حدّه الأقصى. كان الجوّ محمومًا تعقّد كلّ شيء في غضون أيّام قصيرة. شعرتُ بأنّي في غاية التعاسة.

«هلّا أخفضتَ الصوت قليلًا؟» سألتُه.

فأجاب ببساطة:

«لا».

أصدر نينو ضحكة ساخرة، أنهى طعامه، وساعدني في تفريغ المائدة. وقلت له في المطبخ:

«اعذره، بييترو يعمل كثيرًا وينام قليلًا».

فردّ بغضبةٍ مهتاجة:

«كيف تستطيعين أن تتحمّليه؟»

نظرتُ إلى الباب متوجّسةً، لحسن الحظّ أنّ صوت التلفاز ما زال عاليًا

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

«إنّي أودّه» أجبتُ. وحين أصرّ على مساعدتي في غسل الأطباق، أضفتُ: «اذهب من هنا، أرجوك، فأنت تعيق حركتي»

كان الحدث الثاني أسوأ بكثير، على الرغم من كونه حاسمًا. لم أكن أعلم ما الذي أريده حقًّا بتُّ أتمنَّى أن تنتهي هذه الفترة بسرعة، كي أستعيد عاداتي العائليّة، وأراجع النصّ. وفي الوقت ذاته، كنت أحبّ أن أدخل غرفة نينو صباحًا، لأرتِّب الفوضى التي يخلِّفها وراءه، وأرتِّب سريره، ثم أطبخ وأنا أفكِّر في أنَّه سيتعشَّى معنا. وأشعر بالضِّيق كلَّما تذكَّرتُ أنَّ كلّ شيء مقبلٌ على نهايته. حتى استبدّ بي إحساسٌ بأنّي جُننتُ، في بعض ساعات الظهيرة. تولّد لديَّ انطباعٌ بأنّ المنزل خاوٍ على الرَّغم من وجود الطفلتين، أنا نفسي شعرتُ بالخواء، لم أختبر أيّ ميولٍ واهتمام نحو ما كتبتُ، لا بل رأيتُ أنّه سطحيّ، وفقدتُ الثقة بحماسة ماريًّاروزا وآديلي ودار النشر الفرنسيّة وتلك الإيطاليّة. وفكّرتُ: ما إن يغادر نينو، حتى يفقد كلّ شيء معناه.

كنت في تلك الحال ـ الحياة تهرب من بين يديّ بشعورٍ بالفقدان لا يُطاق ـ حين عاد بييترو من الجامعة مكفهرّ الوجه. كنّا ننتظره على العشاء. كان نينو قد عاد قبل نصف ساعة وسرعان ما احتجزته الصغيرتان للعب. سألتُه بلطف:

«هل وقع شيء ما؟»

انفجر قائلًا

«إيّاكِ أن تأتي بأحدٍ من منطقتكِ إلى بيتي ثانيةً!»

تجمّدتُ. ظننتُ أنّه يلمّح إلى نينو. ولا بدّ من أنّ نينو أيضًا ظنّ كذلك. أطلّ برأسه مصحوبًا مع ديدي وإيلسا، ونظر إليه بابتسامة مستفزّة، كما لو كان ينتظر العراك بفارغ الصبر لكنّ شيئًا آخر كان يجول في ذهن بييترو. قال بنبرته المهينة؛ النبرة التي يبرع في

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

استخدامها إذا تيقّن من وجود خطرٍ يهدّد مبادئه الأساسيّة فتأهّب للدفاع عنها:

«اليوم جاءني رجال المباحث مرّة أخرى، وسألوني عن بعض الأسماء، وأروني بعض الصور».

تنفّستُ الصعداء. كنت أعلم بأنّه يمتعض من زيارات رجال الشرطة المتكرِّرة، إذ باتوا يرونه مخبرًا، بعد إسقاط الدعوى على الطالب الذي شهر المسدَّس في وجهه. وكان يكره رجال الشرطة أكثر ممَّا يحتقر بأضعاف الطلبة المناضلين وعددًا لا بأس به من الأساتذة. فرأيتُ أنّه كان متجهِّمًا لهذا السبب، وقاطعتُه بحدَّة:

«الذنب ذنبك. ما كان ينبغي لك أن تتصرَّف بتلك الطريقة، وقد أخبرتُك بذلك. والآن، لم يعد في إمكانك أن تتملَّص منهم».

تدخّل نينو، متّجهًا بالسؤال إلى بييترو، بكلّ ازدراء:

«عمّن أبلغتَ؟»

لم يلتفت إليه بييترو. كان ناقمًا عليّ، كان يريد أن يتشاجر معي أنا قال لي:

«لقد فعلتُ الضروريّ حينئذ، وكان ينبغي لي أن أفعل الضروريّ اليوم أيضًا. لكنّي التزمتُ الصمت لأنّ لك شأنًا في الموضوع».

أدركتُ حينها أنّ المشكلة لم تكن رجال المباحث، بل ما عرفه عن طريقهم. فغمغمتُ:

«ما شأني أنا؟»

رفع صوته بسخط أكبر

«أليس باسكوالي ونادِيا صديقيك؟»

رددتُ ببلادة:

«باسكوالي ونادبا؟»

«أراني رجال المباحث عددًا من صور لإرهابيّين، وكانا من بينهم».

لم أردّ. أفقدتني الصدمةُ الكلامَ. ما كنت أتخيَّله كان واقعًا إذن، وها هو بييترو يؤكِّد لي ذلك بالفعل. عادت إلى ذهني تلك الصور التي تخيَّلتُها عن باسكوالي وهو يفرِّغ مسدّسه على جينو، ويشلّ فيليبو، بينما ناديا ـ ناديا، وليس ليلا ـ تصعد السلالم، تطرق باب برونو، تدخل وتطلق النار على وجهه. يا للهول. لكنّ نبرة بييترو آنذاك بدت لي خارج السياق، كما لو أنّه يستخدم النبأ ليضعني في موقف حرج على مرأى نينو، ليحيي جدلًا ما كنتُ راغبة في خوضه. وفعلًا، سرعان ما عاود نينو تدخّله، مستقصدًا إهانة بييترو:

«أنت مخبر عند المباحث، إذن؟ أهذا ما تفعله؟ تشي بالرفاق؟ هل والدك على علم بذلك؟ ووالدتك؟ وشقيقتك؟»

غمغمتُ بصوت هشّ: فلنتناول العشاء. لكنِّي أضفتُ قائلة لنينو، مستخفَّةً بلباقة، كي لا يستمرّ في استفزاز بييترو بإثارة الكلام على أهله: ليس مخبرًا، كفّ عن ذلك! ثم أشرتُ بحيرةٍ إلى أنّنا منذ وقت مضى فوجئنا بزيارة باسكوالي بيلوزو، ومن يدري إن كان ما زال يذكره، فهو أحد شبّان الحيّ، طيِّب القلب، ومن مفارقات الحياة أنه ارتبط بناديا، ولا شكّ في أنّه يذكرها، ابنة غالياني، هي ذاتها فتوقَّفتُ عن الكلام لأنّ نينو أخذ يضحك. هتف: ناديا، يا إلٰهي، ناديا! والتفت إلى بييترو مجدّدًا، ليمطره بالمزيد من الاحتقار: وحدك أنت، وعميلان أحمقان من المباحث، تظنُّون أنَّ ناديا غالياني انضمَّت إلى صفوف الكفاح المسلّح، يا للجنون! ناديا، التي لم أعرف أحدًا في مثل طيبتها ولطفها، إلى أيّ قاعٍ وصلنا في إيطاليا؟! فلنذهب

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

للطعام، هيّا، فقوى الأمن وحفظ النظام في وسعها الاستغناء عن خدماتك حتى اللحظة. واتّجه إلى الطاولة مناديًا على ديدي وإيلسا، وبدأتُ بتقديم الطعام متيقّنةً من أنّ بييترو سينضمّ إلينا

لكنّه لم يظهر. ظننتُ أنّه ذهب ليغسل يديه، وأنّه يتقصّد التأخّر ريثما تهدأ أعصابه، فجلستُ في مكاني. كنت مضطربة، وكنت أودّ سهرة هادئة ونهاية هانئة لتلك المساكنة. لكنّ بييترو لم يأت، والطفلتان همّتا بالطعام. وبدا أنّ نينو مرتبك أيضًا

«تناولْ طعامك» قلت له، «قبل أن يفتر».

«لا آكل إلّا إذا أكلتِ أنتِ أيضًا»

تردّدتُ. ربّما كان ينبغي لي أن أذهب لأرى ما الذي حلّ بزوجي، ماذا كان يفعل، آملة أنه هدأ لكنّي لم أكن راغبة في ذلك. لقد أزعجني سلوكه جدًّا. لماذا لم يتحفّظ عن قصّة المباحث ويؤجّلها، لطالما فعل ذلك حيال ما يجري له، لم يكن يروي عليّ شيئًا. لماذا كلّمني بتلك الطريقة في وجود نينو «إيّاكِ أن تأتي بأحدٍ من منطقتكِ إلى بيتي ثانيةً». ما الداعي للجهر بتلك المسألة. كان في وسعه أن ينتظر؛ في إمكانه أن يفرّغ غلّه لاحقًا، ما إن ندخل غرفة النوم. كان ناقمًا عليّ، هذا هو الجوهريّ. أراد أن يفسد عليّ السهرة، لم يكن يراعي ما أريد ولا يبالي بما أفعل.

بدأتُ بتناول الطعام. أكلنا نحن الأربعة، الطبق الأوّل، والثاني، والحلويّات التي أعددتُها أيضًا، ولمّا يظهر بييترو. أصابني الغضب عندئذ. بييترو لا يريد أن يأكل؟ حسنًا، فليَنَمْ من دون عشاء، من البديهيّ أنّه ليس جائعًا. يريد أن ينزوي لشؤونه الخاصّة؟ ممتاز، فالبيت واسع، وفي غيابه تختفي التوتُّرات. بات واضحًا الآن أنّ المشكلة ليست في مجيء شخصين إلى بيتنا مرّةً واحدة فقط ليرشح بعد

ذلك أنّهما من بين المشكوك فيهم في الانتساب إلى عصابة مسلّحة. المشكلة هي أنّه ليس متيقِّظ الذكاء بما فيه الكفاية، لم يكن قادرًا على الصمود في المناوشات بين الذكور، فيتألّم منها ليشفي غليله فيّ. وما همّني أنا بك وبهشاشتك. سأنظِّف الطاولة لاحقًا، قلت بصوت مرتفع كأنِّي أصدر أمرًا على نفسي وعلى تشوُّشي. أضأتُ التلفاز وهيّأتُ جلوسي على الأريكة إلى جانب نينو والطفلتين.

مرّ وقت طويل ومربك للأعصاب. شعرتُ بأنّ نينو كان منزعجًا ومسرورًا في الوقت نفسه. سأذهب لأنادي بابا، قالت ديدي التي استفقدت والدها بعد أن ملأت بطنها «اذهبي»، قلت لها. فعادت تمشي على رؤوس أصابعها، وهمست في أذني: إنّه نائم في السرير. سمعها نينو على كلّ حال، وقال:

«سأغادر في الغد».

«هل أنهيتَ عملك؟»

«لا»

«فابقَ مزيدًا من الوقت».

«لا أستطيع».

«بييترو رجل طيّب».

«أتدافعين عنه؟»

كيف أدافع عنه، وممّن؟ لم أفهم، وقد أوشكتُ على أن أغضب منه أيضًا

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

١١٠

غفت الطفلتان قبالة التلفاز، فحملتُهما إلى السرير وحين عدت لم أجد نينو، كان قد هجع إلى غرفته. نظّفتُ الطاولة وغسلتُ الأطباق، محبطةً بشدّة. كم كان من الغبيّ أن أطلب منه البقاء مزيدًا من الوقت. من الأفضل أن يغادر. ومن جهة أخرى، كيف لي أن أحتمل اليأس من دونه. ليته يغادر بعد أن يعدني بالعودة عاجلًا أم آجلًا كنت أتمنّى لو ينام في بيتي ثانيةً، وأن نتناول الفطور في الصباح، والعشاء في المساء، معًا، إلى الطاولة نفسها، وأن يهذر بنبرته المتهكّمة، وأن يصغي إليّ إذا أردتُ صياغة فكرة ما، وأن يحترم كلّ ما أقوله جملةً جملة، وألّا يهزأ أو يستخفّ بي أبدًا ولكن، كان عليّ أن أُقرّ بأنّ الوضع قد تفاقم سوءًا بسرعة، على نحو يجعل استمرار المعايشة أمرًا مستحيلًا، واللوم في ذلك يقع عليه. كان بييترو متعلّقًا به، ومسرورًا من رؤيته قربه، ومعوّلًا على الصداقة التي نشأت بينهما لماذا شعر نينو بالاضطرار إلى إيذائه، وإهانته، وتجريده من سلطته؟ مسحتُ مساحيق التجميل عن وجهي. اغتسلتُ، ولبستُ ثوب النوم، وأغلقتُ باب البيت بالقفل والمزلاج، وأطفأتُ الغاز، وأسدلتُ

مكتبة الرمحي أحمد telegram @ktabpdf

كلّ دفّات النوافذ، وأطفأتُ الأضواء. مررتُ لأتفقّد الطفلتين. وأملتُ أن يكون بييترو نائمًا بالفعل، وألّا يكون في انتظاري لمعاودة الشجار. نظرتُ إلى دُرجه، كان قد تناول المهدّئات، وخرّ غافيًا. رقّ قلبي عليه، قبّلتُ خدّه. يا له من غريب الأطوار: غبيٌّ وحادّ الذكاء؛ حسّاسٌ وبليد؛ شجاعٌ وجبان؛ مثقّفٌ وجاهل؛ مهذَّبٌ وفظّ. لا يوحي بأنّه سليل آيروتا؛ كأنّه تعطّل في وسط الرحلة. هل كان نينو، الحازم والواثق بنفسه، ليساعده على السير من جديد، هل كان ليُعينه في تحسين أدائه؟ عدتُ أتساءل عمّا حدث لتلك الصداقة الوليدة فحوّلها إلى عداء لا رجعة فيه. وبدا لي أنّي فهمتُ السبب تلك المرّة. أراد نينو أن يساعدني على رؤية زوجي على حقيقته. كان متيقّنًا من أنّي كوّنتُ عنه صورةً مثاليّة وأخضعتُ نفسي لأمرها، سواء من الجانب العاطفيّ أو من الجانب الفكريّ. أراد أن يكشف على عينيّ مدى الرخاوة المتخفّية وراء ذلك الشابّ الحاصل على منصب جامعيّ، وصاحب أطروحة تخرُّج صارت كتابًا معتبرًا؛ الباحث الذي كان يعمل بدأب على إصدار كتاب جديد يعزّز مكانته. كان كما لو أنّه في الأيّام الأخيرة لم يفعل شيئًا سوى الصراخ عليّ: أنتِ تعيشين مع رجلٍ تافه؛ وأنجبتِ طفلتين من عدم. كان مشروعه يرتكز على تحريري، وذلك بتعرية زوجي والحطّ من شأنه، وإطاحته كي يُعيدني إلى ذاتي. ولكن، ألم ينتبه إلى أنّه، في فعلته تلك، يطرح نفسه عليّ، شاء أم أبى، أنموذجًا رجوليًّا بديلًا؟

ساقني ذلك السؤال إلى الغضب. لقد تهوّر نينو. لقد ألهب الاضطراب في وضعٍ كان يشكّل لي التوازن الوحيد الممكن. لماذا يُذِبّ الفوضى من دون حتى أن يستشيرني؟ مَن طلب منه أن يفتح عينيّ، وأن ينقذني؟ ممّ استنتج أنّي أحتاج إلى ذلك؟ هل يظنّ أنّه

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

مخوّلٌ فعل ما يطيب له في حياتي الزوجيّة، والعبث في مسؤوليّاتي الأموميّة؟ وما الغاية من ذلك؟ أين كان يظنّ أنّه ذاهب؟ قلت لنفسي: يجب أن تتوضَّح عنده الصورة. ألا تهمّه صداقتنا؟ الإجازة تقترب. سأنطلق إلى فياريجو، وقد قال إنّه سيذهب إلى كابري لينزل في بيت حميه. أكان لزامًا أن ننتظر نهاية الإجازة كي نلتقي؟ ولماذا؟ فالآن، خلال هذا الصيف، من الممكن أن نقوّي العلاقة بين العائلتين. في وسعي الاتّصال بإليونورا، وأدعوها إلى المجيء برفقة زوجها وابنها لقضاء بعض الوقت معنا في فياريجو ثم سيُسعدني إذا دعتني بدورها إلى كابري، حيث لم أزرها من قبل، مع ديدي وإيلسا وبييترو. وإذا استثنينا حدوث ذلك، فلماذا لا نتراسل، ونتبادل الأفكار، وعناوين الكتب، ونتكلّم في مشاريعنا العمليّة؟

لم أتمكّن من الاطمئنان. أخطأ نينو إن كان يهمّه أمري حقًّا، فلا بدَّ من أن يعود بكلِّ شيء إلى نقطة الصفر لا بدَّ من أن يستعيد استلطاف بييترو له، ويرمِّم الصداقة معه، فزوجي لا يطلب أكثر من ذلك. أحقًّا يظنّ أنه يُسدي إليّ معروفًا بإثارة المشاكل والتوتُّرات؟ كلَّا، كلَّا، ينبغي لي أن أتكلّم معه، وأن أخبره بأنَّ من الغباء معاملةَ بييترو على ذلك النحو. نهضتُ عن السرير بحذر، وخرجتُ من الغرفة. قطعتُ الممرّ حافية القدمين، طرقتُ باب نينو انتظرتُ برهةً، دخلتُ. كانت الغرفة مظلمة.

«هل قرَّرتِ؟» سمعتُه يقول.

جفلتُ، ولم أتساءل قرَّرتُ بشأن ماذا لكنِّي أدركتُ فقط أنَّه على صواب، أجل لقد قرَّرتُ. نزعتُ ثوب النوم على عجل، واستلقيتُ إلى جانبه على الرَّغم من الحر الشديد.

١١١

عدت إلى السرير نحو الرابعة فجرًا استفاق زوجي، وغمغم في منامه: ما الذي يحدث؟ فقلت له بنبرة حاسمة: نمْ. فاستراح. شعرتُ بأنِّي مشوَّشة. كنتُ سعيدة بما وقع، لكنِّي لم أتمكَّن من إدراك ما وقع «داخل» وضعي؛ «داخل» مكانتي في ذلك المنزل، في فلورنسا لم أتمكّن، على الرَّغم من بذل جهدٍ كبير بل بدا لي أنّ كلّ ما حدث بيني وبين نينو قد حدث في الحيّ، بينما ينتقل أهله إلى سكن جديد، وميلينا تقذف الأغراض من النافذة وتصيح ممزَّقةً من الألم؛ أو في إيسكيا، عندما كنّا نتمشّى يدًا بيد؛ أو في ميلانو مساءً، بعد لقائنا في المكتبة، عندما دافع عنِّي في وجه الناقد الشرس. لقد أمدَّني هذا الشعور بإحساسٍ بالاستهتار، وربّما بالبراءة أيضًا، كما لو أنَّ صديقة ليلا، وزوجة بييترو، ووالدة ديدي وإيلسا، ليس لهنّ ما يربطهنّ بالطفلة ـ الشابّة ـ المرأة التي كانت مغرمةً بنينو وحصلتْ عليه في النهاية. كنت أشعر بآثار يديه وقبلاته على كلّ شبر من جسدي. وما انفكّ هوس اللذَّة يضطرم في أعماقي، ويملي عليّ أفكارًا مثل: الصباح بعيد، ما الذي أفعله هنا، سأعود إليه، مرَّة أخرى.

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

ثم غفوتُ. فتحتُ عينيّ فزعةً، لم يكن في الغرفة نور. ما الذي ارتكبتُه؟ وأين، هنا بالضبط، في بيتي، يا للغباء. سيستيقظ بييترو الآن. ستستيقظ الطفلتان الآن. عليّ أن أجهِّز الفطور. نينو سيودِّعنا، ويعود إلى ناپولي عند زوجته وابنه. وأنا سأصير ما كنتُ عليه من جديد.

نهضتُ، تحمَّمتُ طويلًا، جفَّفتُ شعري، تزيَّنتُ بعناية، ارتديتُ ثوبًا بهيجًا يصلح للخروج. آه، بالتأكيد، أنا ونينو أقسمنا في قلب الليل ألّا نفترق ثانيةً، وأن نجد الوسيلة لإبقاء المحبّة. ولكن، كيف؟ ومتى؟ لماذا كان لزامًا عليه أن يبحث عنّي ثانيةً؟ لقد وقع بيننا كلّ ما كان من الممكن أن يقع، والبقيّة مجرَّد تعقيدات. كفى. أعددتُ الفطور كما يجب. أردتُ أن أترك صورةً جميلة عن إقامته عندنا، عن بيتنا، عن الأشياء المعتادة، عنّي.

ظهر بييترو مشتَّت الطلّة، في ثياب النوم.

«إلى أين تذهبين؟»

«لن أذهب إلى أيّ مكان».

نظر إليّ محتارًا لم يحدث أبدًا أنّي بدوتُ بهيّة الطلعة ساعة استيقاظي:

«تبدين في مظهر لائق».

«ليس بفضلك».

اتّجه إلى النافذة، نظر إلى الخارج، ثم غمغم قائلًا

«كم كنت متعَبًا، مساء البارحة».

«وقليل الأدب جدًّا أيضًا»

«سأطلب منه المعذرة».

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

«بل عليك أن تعتذر إليّ أوّلًا».

«المعذرة».

«سيغادر اليوم».

أطلَّت ديدي برأسها، حافية. ذهبتُ لآتي بخفّيها، وأيقظتُ إيلسا التي غمرتني بالقبلات كعادتها قبل أن تفتح عينيها. يا لرائحتها الزكيّة، يا لطراوة لحمها أجل، قلت لنفسي، لقد حدث ما حدث. وهذا من حسن الحظّ، فكان من الممكن ألّا يحدث إطلاقًا ولكن، عليّ أن أعود إلى انضباطي الآن. سأتّصل بماريّاروزا لأسألها عن فرنسا؛ سأتكلَّم مع آديلي؛ سأذهب شخصيًّا إلى دار النشر كي أفهم ما الذي ينوي القيِّمون عليها فعله بكتيّبي، وإن كانوا مقتنعين به جدّيًّا أم أرادوا إسعاد حماتي لا غير فإذا بي أسمع جلبة في الممرّ إنَّه نينو، صدمتني دلالات وجوده، لا يزال هناك، سيبقى قليلًا من الوقت. ابتعدتُ عن عناق الطفلة، وقلت: عفوًا يا إيلسا، ماما ستعود حالًا وهربتُ.

كان نينو يخرج ناعسًا من غرفته، فدفعتُ به إلى الحمّام، وأغلقتُ الباب. تلائمنا، وفقدتُ إدراكي للمكان والزمان مرّة أخرى. تعجّبتُ أنا نفسي من رغبتي فيه، كم كنت بارعة في إخفاء العواطف. تعانقنا في ظلّ هيجانٍ لم أعرفه من قبل، كما لو أنّ الجسدين يحتكّان كي يتحطّما هذه هي المتعة إذن: التطاحن، الانصهار، عدم التمييز بين ما لي وما له. وحتى لو ظهر بييترو، أو أطلّت الصغيرتان، ما كان لهم أن يعرفونا همستُ في فمه:

«ابقَ مزيدًا»

«لا أستطيع».

«فعُدْ إذن؛ أقسِمْ بأنّك ستعود!»

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

«أجل».

«واتّصلْ بي».

«أجل».

«قل لي إنّك لن تنساني؛ قل لي إنّك لن تتخلّى عنّي؛ قل لي إنّك تحبّني».

«أحبّكِ».

«أَعِدْها!»

«أحبّكِ».

«أقسِمْ بأنّك لا تكذب!»

«أُقسِم».

١١٢

رحل بعد ساعة، على الرَّغم من بكاء ديدي وإلحاح بييترو عليه بالبقاء، بنبرةٍ يعتريها الغيظ نوعًا ما ذهب زوجي ليستحمّ، ثم عاد بعد قليل متهيِّئًا للخروج. قال لي، خافضًا ناظريه: لم أخبر المباحث بأنَّ باسكوالي وناديا كانا في بيتنا؛ ولم أفعلها لأحميكِ، بل لأنّ حقّ الاختلاف في الرأي بات يُخلَط بالجريمة. لم أفهم في الحين عمّا كان يتحدّث. باسكوالي ونادیا خرجا من رأسي كليًّا، وكان من الصعب أن يدخلاه ثانيةً. انتظر بييترو بضع لحظات صامتًا ربّما كان يريد منِّي أن أوافق على اعتباراته تلك. كان يرغب في مواجهة القيظ والامتحانات بعد تيقُّنه من أنّنا تصالحنا، وأنَّ رؤيتنا متطابقة لمرّة واحدة على الأقلّ. لكنِّي اكتفيتُ بإيماءة شاردة. ما الذي عاد يعنيني بآرائه السياسيّة، وباسكوالي ونادیا، ووفاة أورليك ماينهوف، وولادة الجمهوريّة الاشتراكيّة في ڤيتنام، وتقدُّم الحزب الشيوعيّ في الانتخابات؟ كان العالم بأسره يتضاءل في نظري. كنت أشعر بأنّي غارقة في نفسي، في لحمي، وبدا لي أنَّ جسدي ليس الحجرة الوحيدة الممكنة فحسب، بل أيضًا المادّة الوحيدة التي تستحقّ عناء الانغماس والتعمُّق. انتابني

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

الانشراح ما إن أغلق شاهدُ النظام والفوضى الباب خلف ظهره. لم أعد أحتمل البقاء تحت ناظريه، وكنت أخشى أن تظهر للعيان فجأة شفتاي الملتهبتان من شدّة القُبلات، وأرق الليل، والحساسيّة المفرطة لجسدي المكتوي.

وحين بتُّ وحيدة، عاد إليّ اليقين بأنّي لن أرى نينو ثانية أو أسمع صوته. وانضمّ إلى ذاك اليقين يقينٌ آخر لم أعد أحتمل العيش مع بييترو؛ لم أعد أطيق الاستمرار في النوم معه على السرير ذاته. ما العمل إذن؟ سأتركه، فكّرتُ. سأرحل مع الطفلتين بعيدًا ولكن، ما الإجراءات اللازم اتّباعها بعدئذ؟ أن أرحل فقط؟ لم أكن أعلم شيئًا عن حالات الانفصال والطلاق: ما الآليَّة، وكم يستغرق الأمر كي تستردّ النساء حرِّيَّتهنّ؟ لم أكن أعرف أيًّا من الأزواج ساروا في ذلك الدرب. ما الذي سيحدث للأولاد؟ كيف يتمّ التوصُّل إلى اتّفاق بشأن رعايتهم؟ هل في وسعي أن آخذ الطفلتين إلى مدينة أخرى، إلى نابولي مثلًا؟ ولماذا نابولي، لم ليست ميلانو؟ إن هجرتُ بييترو، قلت لنفسي، فسأضطرّ إلى البحث عن عمل عاجلًا أم آجلًا الوضع الراهن سيِّئ، والاقتصاد في تدهور، وميلانو ستكون المكان المناسب بالنسبة إليّ، حيث توجد دار النشر. ولكن ماذا عن ديدي وإيلسا؟ وعلاقتهما بوالدهما؟ هل عليّ البقاء في فلورنسا إذن؟ كلّا، ثم كلّا أفضّل ميلانو. في وسع بييترو المجيء لزيارتهما متى أراد واستطاع. أجل. لكنّ رأسي كان يحملني إلى نابولي. ليس إلى الحيّ، لن أعود إليه إطلاقًا. تصوّرتُ أنّي أنتقل إلى السكن في نابولي الباهرة حيث لم أعش فيها أبدًا، على بعد أمتار من بيت نينو، في حيّ تاسّو. فأراه من النافذة كلّما ذهب إلى الجامعة أو عاد منها، ألتقيه في الطريق، أتحدّث إليه كلّ يوم. لن أزعجه طبعًا لن أسبِّب له مشاكل مع أسرته، بل

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

سأمتّن رابط الصداقة مع إليونورا. كنت سأكتفي بالبقاء قريبة منه. إلى ناپولي إذن، وليس إلى ميلانو. ثم إنّ ميلانو لن ترحِّب بي كما في السابق، إذا ما انفصلتَ عن بييترو. قد تفتر علاقتي بماريّاروزا، وعلاقتي بآديلي أيضًا لن تنقطع، لا، إنّهم أُناس متحضِّرون، لكنّهما تبقيان أمّ بييترو وشقيقته، على الرَّغم من أنّهما لا يقدِّرانه كثيرًا. هذا إذا استثنيا غويدو، والده. كلّا، من المؤكَّد أنّه لن يكون في إمكاني التعويل على آل آيروتا، أو دار النشر أيضًا، كما في الماضي. لن يكون لأحد أن يساعدني سوى نينو. لديه صداقات جيِّدة في كلّ مكان، ولا شكّ في أنّه سيعثر على طريقة لإعانتي، إلّا في حالة لم يسبب اقترابي إليه استياءَ زوجته، واستياءه. فأنا بالنسبة إليه امرأة متزوِّجة تعيش في فلورنسا مع عائلتها بعيدة عن ناپولي، ولست حرّة. فكيف عساه يراني أقضي على زواجي في لحظة طيش، لألهث وراءه، وأسكن بالقرب من بيته؟ سيتصوَّر أنّي جُننتُ لا محالة، وقد أبدو امرأة ذليلة فاقدةً رشدَها؛ المرأةَ النمطيّة الخانعة للذَّكَر والتي تُثير اشمئزاز صديقات ماريّاروزا، ولاسيّما أنّ امرأة بهذه الصفات لا تناسبه. فهو كان يحبّ نساء أخريات، وينتقل من سرير إلى آخر، ويبذر الأجنّة في الأرحام باستهتار كبير، ويعتبر الزواج صيغة ميثاق ضروريّة لكنّها لا تحتجز الرغبات. كنت سأبدو مضحكة. لقد استغنيتُ عن كثير من الأشياء خلال حياتي. وفي إمكاني الاستغناء عن نينو أيضًا. كنت سأمضي في طريقي مع ابنتَيّ.

وإذا الهاتف يرنّ. هرعتُ لأجيب. كان هو، وفي الخلفيّة ثمّة مكبِّر صوت وضوضاء وفرقعة، سمعتُ صوته بالكاد. كان قد وصل إلى ناپولي للتوّ، واتّصل من المحطّة. «لأسلِّم عليكِ فقط»، قال، «أردتُ أن أطمئنّ على حالكِ». «بخير»، أجبتُ. «ماذا تفعلين»؟

«سآكل مع الطفلتين بعد قليل» «هل بييترو موجود؟» «لا». «هل أعجبتكِ ممارسة الحبّ معي؟» «أجل». «جدًّا؟». «جدًّا، جدًّا». «ليس لديّ المزيد من النقود». «لا بأس، وداعًا، وشكرًا على الاتّصال.» «سنتهاتف لاحقًا». «متى أردتَ». كنتُ مسرورة من نفسي، لأنّي سيطرتُ على مشاعري. أبقيتُه عند حدّه، قلت في سرِّي، أجبتُ بلطف على مكالمة لطيفة. لكنّه عاود الاتّصال بعد ثلاث ساعات، من هاتف عموميّ مرّة أخرى. كان منزعجًا «لماذا أنتِ جامدة هكذا؟» «لستُ جامدة». «طلبتِ في الصباح منّي أن أصرّح لكِ بحبّي، وصرّحتُ، مع أنّي لا أقولها لأحد من حيث المبدأ، حتى لزوجتي» «إنِّي سعيدة». «وهل أنتِ تحبّينني»؟ «أجل». «هل ستنامين الليلة معه؟» «ومع مَن تريدني أن أنام؟» «إنِّي لا أحتمله». «ألن تنام مع زوجتك؟» «ليس الأمر ذاته» «لماذا»؟ «لأنَّ إليونورا لا تهمّني بشيء». «عد إلى هنا إذن.» «كيف»؟ «اتركْها»! «وبعد»؟ راح يتّصل بشكل هَوَسيّ. كنت أعشق رنّات الهاتف تلك، وخصوصًا حين نتودّع كأنّنا لن نتواصل إلّا بعد مرور وقت طويل، فإذا به يتّصل بعد نصف ساعة، وأحيانًا بعد عشر دقائق فقط، ليعاود حرقته وشوقه. كان يسألني إذا مارستُ الحبّ مع بييترو بعد أن مارسناه معًا، فأجيب بلا، فيحلِّفني، فأحلف. فأسأله إذا مارس الحبّ مع زوجته، فيصرخ بلا، فأطالبه أنا أيضًا بالحلفان. حلفانٌ يليه حلفان، والكثير من الوعود، ولاسيّما ذاك الوعد السامي بأن أبقى في البيت، قريبةً من الهاتف. كان يريد أن أنتظر اتّصالاته، وإن حدث وخرجتُ ـ ينبغي لي أن أشتري بعض الأغراض عمومًا ـ يرنّ الهاتف ويرنّ بلا جدوى، ويبقى هو منتظرًا حتى أعود فأترك الطفلتين والأكياس، وأنسى إغلاق باب السلالم، وأركض للردّ، فأجده محبطًا من الجانب الآخر «ظننتُ أنّكِ لن تردّي عليّ أبدًا». ثم

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

يضيف منفرج الأسارير «لكنِّي كنت سأتّصل إلى الأبد، ففي غيابكِ كدتُ أعشق رنين الهاتف، هذا الرنين الفارغ، حتى بدا الشيء الوحيد الذي بقي لي». ثم يستحضر كلّ تفاصيل ليلتنا ـ أتذكرين هذا، أتذكرين ذاك ـ ويمعن في استحضاره. وكان يعدِّد كلّ ما يرغب في فعله معي، ليس الجنس فحسب: نزهة، رحلة، الذهاب إلى السينما، إلى المطعم، النقاش في عملٍ يقوم به، ومتابعة مستجدّات كتيّبي. فأفقد السيطرة حينذاك، وأغمغم: «أجل، أجل، أجل، كلّ شيء، كلّ ما ترغب فيه»، ثم أهتف، كأنِّي أتكلَّم عن عمليَّة ترحيل: «سأذهب للاصطياف قريبًا، سأكون على البحر بعد أسبوع، مع بييترو والطفلتين». فيردّ: «إليونورا ستذهب إلى كابري بعد ثلاثة أيّام، وحالما تغادر سآتي إلى فلورنسا، حتى لو لقضاء ساعة واحدة». كانت إيلسا تنظر إليّ خلال ذلك، وتسألني: مع من تتكلّمين باستمرار يا ماما، تعالي والعبي معي. وذات يوم، قالت لها ديدي: دعيها وشأنها، تتكلَّم مع خطيبها

١١٣

سافر نينو ليلًا، ووصل إلى فلورنسا عند التاسعة صباحًا اتّصل، فردَّ عليه بييترو، فأغلق الخطّ. اتَّصل ثانيةً، فهرعتُ للردّ بنفسي. كان قد ركن سيَّارته تحت منزلي. «انزلي». «لا أستطيع». «انزلي حالًا، وإلّا صعدتُ إليكِ». كانت ثلاثة أيّام تفصلنا عن انطلاقنا إلى فياريجو، وإجازة بييترو كانت قد بدأت. تركتُ عنده الطفلتين، وقلت إنّي سأذهب لشراء بعض الأغراض الضروريّة للبحر، وركضتُ إلى نينو

كان لقاؤنا ذاك فكرة سيِّئة، إذ اكتشفنا أنَّ الرغبة، بدلاً من أن تخمد، راحت تستعر وتُغْني التطلُّعات بفجور طارئ. وإن كنّا عبر الهاتف، عن بعد، نستعين بالكلمات كي نطلق العنان لمخيّلتينا في بناء رؤًى مثيرة من جهة، وفي الرضوخ لنظام ما من جهة أخرى، وفي طمأنة كلٍّ منّا للآخر من جانب، وفي تبادل الذعر من جانب آخر، فإنّ لقاءنا ذاك، داخل مجالٍ ضيّقٍ في السيّارة، من دون مراعاة لشراسة القيظ، منح هذياننا شكلًا ملموسًا، وصبغه بصفة المحتَّم، وصنع منه حلقةً في موسم التقلُّبات العظيمة آنذاك، وجعله متجانسًا مع أشكال الواقعيّة الدارجة في تلك الفترة؛ واقعيّة تسعى لبلوغ المستحيل.

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

«لا تعودي إلى البيت!»

«وماذا عن الطفلتين، وبييترو؟»

«وماذا عنّا نحن؟»

قبل أن يعود إلى ناپولي، قال إنّه غير متأكّد من قدرته على اللقاء بي خلال أغسطس كلّه. تودَّعنا محبَطين. لم يكن لديّ هاتف في البيت الذي استأجرناه في فياريجو، فأعطاني رقم البيت في كابري. وطلب منّي أن أعده بالاتّصال كلّ يوم.

«وإذا أجابت زوجتُك؟»

«تغلقين الخطّ».

«وإذا كنتَ ذاهبًا إلى البحر؟»

«لديّ الكثير من العمل، وربّما لن أذهب إلى البحر أبدًا».

سيكون للاتّصال، في افتراضاتنا، دورٌ في تحديد موعد، قبل عطلة منتصف أغسطس أو بعدها، وإيجاد طريقة لنلتقي مرَّة واحدة على الأقلّ. ضغط نينو عليّ كي أبتكر حجّةً ما وأعود إلى فلورنسا. وكان سيفعل الشيء ذاته مع إليونورا، ويلحق بي. كنّا سنلتقي في بيتي إذن، سنتعشّى معًا، وننام معًا لحظة جنون أخرى. قبّلتُه، وداعبتُه، وعضضتُه، وابتعدتُ عنه في حالةٍ من سعادةٍ حزينة. وهرعتُ لشراء ما صادفتُه من مناشف وثياب سباحة لبييترو، وابتعتُ دلوًا ومجرفة لإيلسا، وثوب سباحة أزرق صغيرًا لديدي. كانت تعشق اللون الأزرق في تلك الفترة.

١١٤

انطلقنا إلى الاصطياف. لم أحرص كثيرًا على الطفلتين، تركتُهما أغلب الوقت عند أبيهما كنت ألهث باستمرار في البحث عن هاتف، لا لشيء سوى لأقول لنينو إنّي أحبّه. ردّت عليَّ زوجته مرّتين فقط، فأغلقتُ الخطّ. لكنَّ صوتها كان كافيًا لإثارة غيظي، إذ رأيتُ من الظلم أن تكون هي إلى جانبه ليلًا نهارًا ما شأنها به، ما شأنها بنا. وساهم ذلك الغيظُ في قهر الخوف، وصرت أعتبر لقاءنا في فلورنسا قابلًا للتحقُّق. قلت لبييترو، وكان ذلك صحيحًا، إنَّ كُتَيِّبي كان سيصدر في فرنسا أواخر أكتوبر، بينما لم تتمكَّن دار النشر الإيطاليّة من إصداره قبل يناير بكلّ نيّاتها الحميدة. كان عليّ إذن أن أبدِّد بعض الشكوك الملحَّة، يلزمني كتابان للاطّلاع، وكنت في حاجة إلى العودة إلى البيت.

«سأذهب لآتيكِ بالكتابين بنفسي»، عرض خدماته.

«ابقَ مع الصغيرتين قليلًا، فأنت غائب عنهما طوال الوقت تقريبًا».

«أنتِ لا تحبّين قيادة السيّارة مثلي».

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

«هلّا تركتني بسلام بعض الوقت؟ هل لي بيوم من الحرِّيَّة؟ إذا كانت الخادمات ينعمن بيوم استراحة، فلماذا لا يحقّ لي أنا أيضًا؟»

غادرتُ في الصباح الباكر بالسيَّارة. كانت السماء محزَّزةً باللون الأبيض، والنسمات العذبة تسرح من خلال النافذة آتيةً بعبق الصيف. دخلتُ البيت الموحش، بقلبٍ خافق. نزعتُ ثيابي، تحمَّمتُ، نظرتُ إلى نفسي في المرآة، تأفَّفتُ من البقع البيضاء على بطني وصدري. لبستُ الثياب، نزعتُها، لبستُ مرّة أخرى، وهكذا إلى أن بدوتُ جميلة.

وصل نينو عند الثالثة ظهرًا، لا أدري أيّ كذبة قصّها على زوجته. مارسنا الحبّ حتى المساء. وكان للمرّة الأولى يشعر بالسرور، إذ كرَّس نفسه لجسدي بإخلاص ووَلَع، لم أكن قد هيّأتُ نفسي لهما حاولتُ أن أكون بالكفاءة نفسها، وأردتُ بأيِّ ثمنٍ أن أبدو أمامه بارعة في الحب. لكنّ شيئًا ما تشوَّش في رأسي فجأة، حين رأيتُه سعيدًا وخائر القوى. هذه تجربة فريدة بالنسبة إليّ؛ أمّا بالنسبة إليه فهي ليست سوى تكرار. كان وَلِهًا بالإناث، ويعبد أجسادهنّ كأنّها أصنام. لم أفكِّر في نسائه الأخريات اللواتي عرفتُهنّ، ناديا، سيلفيا، ماريّاروزا، أو زوجته إليونورا لم أفكِّر سوى في ما أعرف عنه جيّدًا، وأعرف المجون الذي طاوله في عشق ليلا، والهيام الذي ساقه إلى شفير الانسحاق الذاتيّ. تذكَّرتُ كيف وثقتْ ليلا بغرامه وتعلَّقتْ به؛ تذكَّرتُ الكتب المعقَّدة التي كانت تقرأها؛ تذكَّرتُ أفكارها وطموحاتها، في سبيل إنعاش نفسها تيمُّنًا بإمكانيَّة التغيير؛ تذكَّرتُ كيف انهارت حين هجرها نينو هل كان لديه طرائق أخرى للمَحبّة غير تلك الطريقة الفتّاكة؟ هل كان حبّنا المجنون مجرّد إعادة إنتاجٍ لقصص حبّه المجنونة؟ وهل كان ولعه بي من دون تهيُّبٍ قائمًا

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

على النموذج الأصليّ: الطريقة التي أَحَبّ ليلا من خلالها؟ بل حتى اللحاق بي إلى بيت بيترو وبيتي، ألا يشبه حينما أخذتْه ليلا إلى بيت ستيفانو وبيتها؟ هل كنّا نفعل، أم نكرِّر الفعل؟

تبرَّمتُ، فسألني: ما بكِ؟ لا شيء، لم أكن أعرف ماذا أقول له، لم تكن تلك الخواطر تُقال. انجذبتُ إليه، قبّلتُه وحاولتُ أن أنزع من صدري شعوري بحبّه لليلا لكنَّ نينو أصرَّ، وفي النهاية لم أتمكَّن من تجاهله، فاستعدتُ صدًى حديثًا نسبيًّا ـ ربّما في إمكاني أن أقول له هذا ـ فسألته بنبرة تصطنع اللهو.

«هل أعاني خللاً في ممارسة الجنس مثل ليلا؟»

تبدَّلت تعابيره. برز شخص آخر في عينيه ووجهه؛ شخص غريب أفزعني. وقبل أن يجيب، سارعتُ إلى الهمس في أذنه:

«أمزح، إن كنت لا تريد الإجابة فانس الأمر».

«لم أفهم ما قلتِه».

«لم أفعل شيئًا سوى اقتباس كلماتك».

«لم أتلفّظ بجملة من هذا النوع إطلاقًا»

«كاذب، لقد قلتَها في ميلانو، ونحن خارجان من المطعم»

«ليس صحيحًا. وفي أي حال لا أودّ الحديث عن لينا»

«لماذا؟»

لم يردّ. امتعضتُ واستدرتُ إلى الجانب الآخر وحين لامس ظهري بأصابعه، فححتُ: «دعني وشأني». بقينا هكذا متسمِّرين، من دون أن نقول شيئًا. ثم عاد يداعبني، وقبَّل كتفي بخفَّة، فرضختُ. أجل، اعترفتُ في قرارة نفسي، بأنّه محقّ، لا ينبغي لي استجوابه عن ليلا

وفي المساء، رنّ الهاتف، كان بيترو بالتأكيد، بصحبة الطفلتين. أومأتُ إلى نينو بأن يقطع أنفاسه، تركتُ السرير وهرعتُ لأردّ. حضّرتُ نبرةً حنونة، نبرة مطمئنة، لكنّي أبقيتُ صوتي خفيضًا بشكل لاإراديّ، فاستحال إلى همهمة غير طبيعيّة، فلم أكن أودّ أن يسمعني نينو، ثم يهزأ بي أو يغضب منّي دفعة واحدة.

«لماذا تهمسين هكذا؟» سألني بيترو. «هل أنتِ بخير؟»

وسرعان ما رفعتُ صوتي، حتى بات جهيرًا أكثر من اللازم. بحثتُ عن كلماتٍ لطيفة، واحتفيتُ بإيلسا، وأوصيتُ ديدي بألّا تعقّد حياة والدها وأن تنظِّف أسنانها قبل النوم. وعندما عدت إلى السرير، قال نينو:

«يا لكِ من زوجةٍ صالحة، وأمٍّ رؤوف».

أجبتُه:

«وأنت لست أقلّ شأنًا منّي».

انتظرتُ أن يخمد التوتُّر، وأن يتلاشى صدى زوجي وابنتيّ. تحمَّمنا معًا، ببهجة عارمة. تجربة جديدة، أعجبني أن أغسله ويغسلني. ثم تهيَّأتُ للخروج. وآثرتُ أن أبدو جميلة من أجله، لكنّي فعلتُ ذلك تحت عينيه تلك المرّة، ودونما قلق. ظلّ ينظر إليّ مسحورًا وأنا أجرِّب الفساتين بحثًا عن أفضلها، وأنا أضع مساحيق التجميل، وكان يأتيني من الخلف من حين إلى آخر ـ على الرَّغم من أنّي قلت له ممازحة: إيّاك أن تدغدغني، فهكذا أُفسِد التجميل وأبدأ من الصفر، حذارِ أن تشقّ فستاني، دعني وشأني ـ ويقبِّل عنقي ويدسّ يديه تحت الفستان ومن بين فتحاته.

أرغمته على الخروج من المنزل بمفرده. قلت له أن ينتظرني في السيّارة. ومع أنّ البناية كانت شبه مقفرة لأنَّ الجميع في الإجازة، فقد

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

خشيتُ، في أيّ حال، أن يرانا أحد ونحن معًا. ذهبنا إلى العشاء، وأكلنا كثيرًا، وتحدّثنا كثيرًا، وبالغنا في الشرب. وحالما عدنا استلقينا على السرير من جديد لكنّنا لم نَنَمْ. قال لي:

«في شهر أكتوبر سأكون في مونبيلييه لخمسة أيّام، لحضور مؤتمر هناك».

«استمتع إذن. هل ستذهب مع زوجتك؟»

«أريد أن أذهب معكِ إلى هناك».

«مستحيل».

«لماذا؟»

«ديدي عمرها ستّ سنوات، وإيلسا ثلاث سنوات. عليّ أن أعتني بهما».

أخذنا نتناقش في وضعنا، وللمرَّة الأولى لفظنا كلماتٍ مثل (متزوَّجين، أولاد). وانتقلنا من اليأس إلى الجنس، ومن الجنس إلى اليأس. همستُ إليه أخيرًا:

«علينا ألّا نلتقي أبدًا بعد الآن».

«إن كان هذا ممكنًا بالنسبة إليكِ، فإنّه ليس كذلك بالنسبة إليّ».

«هراء. أنتِ تعرفني منذ سنين، ومع ذلك عشت حياتك بالطول والعرض من دوني. سوف تنساني خلال وقت قصير».

«عديني بأنّكِ ستّصلين بي كلّ يوم»

«لا، لن أتّصل بك بعد الآن»

«قد يصيبني الجنون إن لم تتّصلي بي».

«بل أنا من سيصيبها الجنون إن بقيتُ أفكّر فيك».

ورحنا بما يشبه المتعة المازوشيّة، نستكشف الدرب المظلم الذي

telegram @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

كنّا نشعر بأنّنا فيه؛ حتى أُنهِكنا من تعداد العوائق، وتشاجرنا انطلق غاضبًا جدًّا، في السادسة صباحًا رتّبتُ البيت، تباكيتُ قليلًا، وقدتُ السيّارة وأنا آمل خلال الرحلة ألّا أصل إلى فياريجو أبدًا وفي منتصف الطريق، انتبهتُ إلى أنّي لم أحمل معي أيّ كتابٍ يبرِّر سفري ذاك. فقلت لنفسي: هكذا أفضل.

١١٥

سُرَّت إيلسا بعودتي كثيرًا، وقالت باستياء: بابا لا يعرف اللَّعب جيِّدًا. ودافعت ديدي عن بييترو، وهتفت بأنَّ شقيقتها ما زالت صغيرة وغبيّة وتُفسد أيّ لعبة. أمّا بييترو. فراقبني عن كثب، مكدّر المزاج:

«لم تنامي».

«لم أَنَمْ جيّدًا».

«هل وجدتِ الكتب؟»

«أجل».

«وأين هي؟»

«أين تظنّ أنّها تكون؟ في البيت. دقّقتُ ما يلزم تدقيقه وكفى».

«لماذا تغضبين؟»

«لأنّك تُغضبني».

«اتّصلنا بكِ ثانيةً، مساء أمس. أرادت إيلسا أن تتمنّى لكِ ليلةً سعيدة، لكنّنا لم نجدكِ».

«كان الطقس حارًّا، فخرجتُ لأتنزّه قليلًا».

«بمفردكِ؟»

«مع من إذن؟»

«تقول ديدي إنّ لديكِ خطيبًا».

«لديدي علاقة قويّة بك، وتتلهّف كثيرًا لتحلّ مكاني».

«أو أنّها ترى وتسمع أشياءً لا أراها ولا أسمعها».

«ماذا تقصد؟»

«ما قلتُ».

«بييترو، فلنحاولْ أن نكون واضحَين: هل تريد إضافة الغيرة إلى أمراضك الأخرى الكثيرة؟»

«لستُ غيورًا»

«آمل ذلك. وإلّا أخبرتُك على الفور: الغيرة زائدة، ولا أحتملها».

تضاعفت المناوشات من هذا النوع بيننا في الأيّام اللاحقة. كنت أتجنَّبه، ثم أوبِّخه، ثم أحتقر نفسي. لكنّي كنت أغضب أيضًا: ما الذي يريده منّي، ماذا عليّ فعله من أجله؟ أحبّ نينو، أحبّه منذ زمن بعيد. كيف لي أن أنتزع حبّه من صدري، ومن رأسي، ومن بطني، الآن وقد أحبّني هو أيضًا؟ لقد دأبتُ منذ الصغر على اضطهادٍ ذاتيّ متقنٍ وفعّال. لم تهيمن عليّ أيُّ رغبة حقيقيّة من رغباتي؛ وقد نجحتُ على الدوام في سدّ ثغرات الهوس والمجون. هذا يكفي، قلت لنفسي، فليذهبْ كلُّ شيء أدراج الرياح، وأوّلهم أنا.

بيد أنّي كنت أتأرجح. لم أتّصل بنينو لأيّام، تنفيذًا لما أعلنتُه بكامل إدراكي على مسمعه في فلورنسا، فإذا بي أندفع فجأة إلى الاتّصال به، ثلاث مرّات أو أربعًا في اليوم، بلا أيّ تعقُّل. لم أكن

telegram @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

أهتمّ حتى بديدي، الواقفة على بعد خطوات من كابينة الهاتف. كنت أناقشه داخل حرارة ذلك القفص المستعرة، وأنا أتصبَّب عرقًا، وكنت أحيانًا لا أطيق نظرات ابنتي المتجسِّسة، فأصفق الباب الزجاجيَّ وأصرخ بها «ماذا تفعلين هناك متحجِّرةً، قلت لكِ أنْ تحرصي على شقيقتكِ». كان مؤتمر مونبيلييه يتمحور في وسط أفكاري. وكان نينو يلحّ عليّ، وأخذ يعتبره بمثابة دليل قاطع على صحّة مشاعري، لهذا كنّا ننتقل من شجار عنيف إلى اعترافٍ بنفاد الصبر من الشوق، ومن مكالمات مكلفة، ومطوَّلة وساخطة، إلى ضرورة أن نقذف رغبتنا في تيّار نهرٍ من كلماتٍ متأجِّجة. خارت قواي، في عصر أحد الأيّام، وأرهقني تذمُّر ديدي وإيلسا من الخارج: «استعجلي يا أمّاه، نشعر بالملل». قلت له:

«ثمّة طريقة واحدة لأرافقك إلى مونبيلييه».

«ما هي؟»

«أن أخبر بييترو بكلّ شيء».

ساد صمت طويل.

«هل أنتِ مستعدّة لذلك حقًّا؟»

«أجل، لكن بشرط: أن تخبر إليونورا بكلّ شيء».

ساد الصمت الطويل مرّة أخرى.

«أتريدين منّي أن أؤذي إليونورا والصغير؟»

«أجل. ألن أؤذي بييترو وابنتَيّ أيضًا؟ اتّخاذ القرار يعني إلحاق الأذى».

«ألبرتينو ما زال طفلًا صغيرًا».

«وإيلسا ما زالت كذلك أيضًا. ثم إنّ ديدي لن تحتمل الأمر».

«سنفعل ذلك بعد مونبلييه».

«نينو، لا تتلاعبْ بي!»

«لا أتلاعب بكِ».

«إن كنت لا تتلاعب فعلًا، فلنفعل الآتي: أنت تتكلّم مع زوجتك وأنا أتكلَّم مع زوجي. الآن. هذا المساء».

«أعطيني بعض الوقت، الأمر ليس سهلًا».

«وهل هو سهل بالنسبة إليّ؟»

عاندني، وحاول أن يقنعني. قال إنّ إليونورا امرأة رقيقة جدًّا، وإنّها نظّمتْ شؤون حياتها معه ومع الطفل، وإنّها حاولت الانتحار مرَّتين في صباها ولم يتوقَّف عند ذلك الحدّ، بل شعرتُ بأنّه يجنح إلى الصدق والشفافيّة المطلقة. ووصل به المطاف من سيرة إلى أخرى، وبصفاء ذهنه المعهود، إلى الإقرار بأنّ فسخ زواجه لا يعني إلحاق الأذى بزوجته وابنه فحسب، بل التخلّي عن كثير من المزايا ـ *الرفاهيّة والبحبوحة وحدهما ما يجعل الحياة في نابولي مقبولة* ـ والاستغناء عن شبكة من المعارف والعلاقات التي كانت تسمح له بفعل ما يشاء في الجامعة. وبعد أن جرفه خيارُه بعدم إخفاء أيّ شيء، ختم قائلًا: تذكَّري أنّ والد زوجك يكنّ لي احترامًا كبيرًا، وأنّ الإفصاح عن علاقتنا سيؤدّي إلى قطيعةٍ نهائيّةٍ مع آل آيروتا، لي ولكِ على وجهٍ سواء. لم أتألَّم من شيء ممّا قاله بقدْر ما آلمتني ملاحظته الأخيرة، ولست أدري لماذا

«حسنًا»، قلت، «فلنقفْ عند هذا الحدّ إذن».

«انتظري».

«لقد انتظرتُ أكثر ممّا يجب، كان ينبغي لي أن أقرِّر من قبل».

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

«ماذا تقصدين؟»

«سآخذ في الاعتبار أنّ زواجي لم يعد له معنًى، وأمضي في طريقي».

«أواثقةٌ بما تقولين؟»

«أجل».

«هل ستأتين إلى مونبيلييه، إذن؟»

«قلتُ: سأمضي في طريقي، وليس في طريقك. انتهى كلّ شيء بيني وبينك».

١١٦

أغلقتُ السمّاعة بدمع حرّاق، وخرجتُ من الكابينة. سألتني إيلسا: هل تأذّيتِ يا أمّي؟ فأجبتُ: أنا بخير، إنّما جدّتكِ ليست على ما يرام. وبقيتُ أجهش على مرأى من عينيها وعينَي ديدي.

وفي الفصل الأخير من الاصطياف، ما برحتُ أبكي. كنت أقول إنّي متعبة، وإنَّ الطقس حارّ للغاية، وإنَّ صداعًا يباغت رأسي، وأترك بييترو يصطحب الطفلتين إلى البحر وأبقى في السرير، أبلّل الوسادة بالدموع. كنت أكره ذلك الوهن المفرط، لم أكن قد اختبرتُه حتى في طفولتي. إذ كنّا، أنا وليلا، مدرَّبتين على عدم ذرف الدموع إطلاقًا، ولم يحدث أن بكينا إلّا في حالات استثنائيَّة، ولوقت قصير، لأنّنا كنَّا نهاب الشعور بالعار، ونكتم عبراتنا أمَّا حينذاك، وكأنَّ نافورة مياه تنفتح في رأسي، كما في رواية أورلاندو، وتتدفَّق نحو العينين بلا انقطاع. وكان يبدو لي أنّ تلك النافورة ـ حتى عندما يوشك بييترو على العودة مع الطفلتين، وأبذل جهدًا في لجم دموعي، وأهرع إلى غسل وجهي تحت الصنبور ـ لا تزال تقطر وتتحيّن اللحظة المناسبة للسيلان نحو العينين. لم يكن نينو يرغب فيّ حقًّا. كان يتصنَّع كثيرًا

telegram @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

ويحبّ قليلًا كان يريد أن ينكحني فقط ـ أجل، أن ينكحني، مثلما فعل مع عددٍ لا يسعني إحصاؤه من النساء ـ لكنّه لم يكن يريد أن يتملَّكني ويقطع ارتباطه بزوجته إلى الأبد. لا، لم يكن هذا بين مخطَّطاته. ومن المحتمل أنّه لا يزال مغرمًا بليلا من المحتمل أنَّه لم يعشق أحدًا سواها خلال حياته، مثل كثيرٍ من الذكور الذين عرفوها وبفضل هذا، قد يبقى مع إليونورا إلى الأبد. كان حبّه لليلا يضمن ألَّا تتجرّأ أيُّ امرأة ـ نظرًا إلى ولعه بها على طريقته المتهوِّرة ـ على تأزيم زواجه الهشّ، وأنا أقلّهنَّ مقدرةً. هكذا كانت الأمور، إذن. كنت أحيانًا أترك الغداء أو العشاء وأركض للبكاء في الحمّام.

كان بييترو يعاملني بحذر، لحدسه بأنّي قد أنفجر بين لحظة وأخرى. فكَّرتُ في البدء، بعد سويعات من قطيعتي مع نينو، في أن أقصّ عليه كلّ شيء، كما لو أنَّه ليس زوجًا فحسب، بل كاهن اعتراف أيضًا كنت أشعر بحاجة ملحّة إلى ذلك، ولاسيّما حين كان يتقرَّب إليَّ في السرير، فأصدُّه هامسةً: لا، وإلّا استيقظت الصغيرتان. كدتُ أوشك على أن أُخبره بكلّ التفاصيل. لكنّي تمكّنتُ دومًا من التوقُّف قبل الأوان. لم يكن من الضروريّ أن أحدِّثه عن نينو. الآن، ولم أعد أتّصل بالرجل الذي أحبّ، الآن وقد شعرتُ بأنّي خسرتُه نهائيًّا، بدا لي من غير المجدي أن أقسو على بييترو. من الأفضل أن أغلق الملفّ بكلمات موجزة وواضحة: لم أعد أستطيع العيش معك. لكنّي عجزتُ عن البوح بهذا أيضًا إذ كنت أشفق عليه، في اللحظة التي أتهيّأ فيها للإقدام على تلك الخطوة، في عتمة غرفة النوم. وكنت أخشى على مستقبل الطفلتين، فأداعب إحدى كتفيه، وأحد خدّيه، وأغمغم له: نَمْ.

تغيّرت الأحوال في آخر يوم من الإجازة. كنّا في منتصف الليل

تقريبًا، وديدي وإيلسا نائمتان، ولم أتّصل بنينو منذ نحو عشرة أيّام. كنت قد وضّبتُ الحقائب، وجلستُ مع بييترو في شرفة المنزل، وأنا منهارة من التعاسة والتعب والحرّ، كلٌّ على أريكته، كنا صامتَين. وكان هنالك رطوبة خانقة، تُبلِّل الشعر والثياب، وتحمل روائح البحر وصمغ الشجر قال بييترو فجأة:

«كيف حال والدتكِ؟»

«والدتي؟»

«أجل».

«بخير».

«قالت ديدي إنّها لم تكن بخير».

«استعادت عافيتها».

«اتّصلتُ بها عصر اليوم. أمّكِ كانت دومًا في صحّة جيّدة».

لم أقل شيئًا كم كان رجلًا منغّصًا ها هي دموعي تصعد إلى عينَيّ. آه، يا إلٰهي، لقد ضجرتُ، ضجرتُ. سمعتُه يقول بكلّ هدوء:

«أنتِ تظنّين أنّي أعمى وأطرش. تعتقدين أنّي لم ألحظ كيف كنتِ تتودَّدين إلى أولئك الحمقى الذين تردَّدوا إلى بيتنا قبل ولادة إيلسا».

«لا أعلم عمّا تتحدّث».

«بل تعلمين جيّدًا»

«لا، لا أعلم. عمّ تتحدّث؟ عن أُناس جاؤوا بضع مرّات إلى العشاء منذ أعوام مضت؟ وأنا كنت أتودَّد إليهم؟ هل جننتَ؟»

هزّ بييترو رأسه، مبتسمًا في سرّه. انتظر عدَّة لحظات، ثم سألني وهو يحدِّق إلى السياج الحديديّ:

«ألم تتودَّدي إلى ذاك الذي يضرب على الدرامز أيضًا؟»

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

اجتاحني ارتياب شديد. لم يكن يتراجع، لم يكن يستسلم. تأفَّفتُ.

«ماريو؟»

«أترين كيف تتذكَّرينه؟»

«أتذكّره بالتأكيد، لماذا لا يجدر بي أن أتذكّره؟ إنّه أحد أولئك الأشخاص المثيرين للاهتمام ممّن دعوتَهم إلى البيت خلال سبعة أعوام من الزواج».

«أكنتِ تجدينه مثيرًا للاهتمام؟»

«أجل، وما الضَّير في ذلك؟ ما الذي دهاك هذا المساء؟»

«أريد أن أعرف. ألا يمكن لي أن أعرف؟»

«ماذا تريد أن تعرف؟ ما أعرفه أنا، تعرفه أنت. لقد مضت أربعة أعوام على الأقلّ منذ آخر مرّةٍ قابلنا فيها ذلك الرجل، وأنت تخرج عليّ الآن بهذه الترّهات؟»

كَفَّ عن التحديق إلى السياج، والتفتَ إليّ، بنظرة جادّة:

«فلنتحدّثْ عن وقائع حديثة، إذن. ما الذي بينكِ وبين نينو؟»

١١٧

كانت ضربةً عنيفةً بقدْر ما كانت مباغتة. أراد أن يعرف ما الذي بيني وبين نينو. كان السؤال، مقرونًا بذلك الاسم، كافيًا لتعاود النافورةُ في رأسي تدفُّقَها. شعرتُ بأنّي عميتُ من الدموع، فصرختُ في وجهه فاقدةً الرشد، متجاهلةً أنّنا كنَّا في الهواء الطلق، وأنَّ الناس نيامٌ منهَكون بعد أن أمضوا طوال النهار تحت الشمس عند البحر: لماذا طرحتَ هذا السؤال، كان عليك أن تحتفظ به لنفسك. أمّا الآن، فقد دمّرتَ كلّ شيء ولم يعد في الإمكان فعلُ شيء. كان يكفي أن تظلّ ساكتًا، لكنّك لم تطق ذرعًا، والآن عليّ الرحيل، الآن عليّ الرحيل رغمًا عنّي.

لا أدري ما الذي جرى له. لعلّه اقتنع بأنّه اقترف خطأً فادحًا، من شأنه أن يقضي على علاقتنا نهائيًّا حينذاك لأسباب مبهمة، أو ربَّما فوجئ برؤيتي جسدًا فظًّا يمزِّق خيط النقاش الرقيق ويُظهِر طباعه الخارجة عن المألوف والمنطق؛ امرأةً في أعتى تعابيرها رعبًا وفظاعةً. من المؤكَّد أنّي بدوتُ له في مشهد لا يُحتمَل، فإذا به ينتفض واقفًا ويدخل البيت، فما كان منِّي إلّا أن لحقتُ به وما زلت أصرخ في

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

وجهه وأبوح بكلِّ شيء: أُحبّ نينو منذ أن كنت صغيرة؛ هو الذي أطلعني على إمكانيَّات جديدة للحياة؛ كما أشعرني بطاقاتي الكامنة التي لم أكن أستخدمها؛ وبالتعاسة التي أغرقتَني فيها لسنوات؛ وبالمسؤوليّات التي أثقلتْ كاهلي فمنعتْني من عيش الحياة بملئها

انطويتُ في إحدى الزوايا عندما خارت قواي، ووجدتُه قبالتي مضمر الخدَّين، غائرَ العينين المطوَّقتين بحدقتين بنفسجيّتين، مُبيضّ الشفتين، واسمرار بشرته استحال قشرةً من طين. ففهمتُ حينذاك أنِّي صدمتُه. كانت أسئلته لا تحتمل إجاباتٍ تأكيديّة ولو على سبيل الافتراض، مثل: أجل، لقد تودَّدتُ إلى عازف الدرامز وفعلنا أكثر من ذلك أيضًا؛ أجل، أنا ونينو عاشقان. ما كان بييترو ليصوغ تلك الأسئلة إلّا ليسمع منِّي نفيَها، ليبدِّد الشكوك التي راودته، وينام في سريره قرير العين. إلَّا أنِّي زججتُ به في كابوسٍ لم يعد يعرف منه خروجًا. فسألني بما يشبه الهمس، في بحثه عن طوق نجاة:

«هل مارستما الحبّ؟»

أشفقتُ عليه من جديد. ولو أنّي أجبتُ بنعم، لعدتُ إلى الصراخ ثانيةً، لقلتُ له: أجل، أوَّل مرَّة بينما كنتَ نائمًا، والمرَّة الثانية في سيَّارته، والثالثة في سريرنا في فلورنسا وكنتُ سألفظ تلك الجمل بحجم الشهوة التي هيّجها ذلك النسق، لكنِّي أومأتُ بالنفي.

١١٨

عدنا إلى فلورنسا خفَّضنا التواصل بيننا إلى الضروريّ، مع الحفاظ على نبرة ودِّيَّة أمام الطفلتين. ذهب بييترو لينام في مكتبه كما في تلك الأيّام حين كانت ديدي لا تُغمض عينًا، وأنا نمت في السرير الزوجيّ. رحتُ أتخيَّل ما الذي يجب فعله. لم تكن الطريقة التي انتهى بها زواج ستيفانو وليلا نموذجيّةً بالنسبة إليّ، فتلك كانت واقعة في زمان آخر، ولم تخضع للقانون. كنت أروم إلى طريقة حضاريّة، يديرها القانون، تتلاءم مع زماننا وظرفنا لكنّي في الحقيقة بقيتُ في حيرةٍ، جعلتْني لا أقدم على فعل شيء. حتى إنّي كنت عائدة للتوّ من الإجازة، وما لبثت ماريّاروزا تتّصل بي لتخبرني بأنّ الكتيِّب بالفرنسيّة قطع شوطًا كبيرًا، وكانت سترسل إليّ بعض المسوّدات، في حين أثار المحرِّر الجادّ والمجتهد في دار النشر الإيطاليّة مسائل عن بعض الفقرات في النصّ. كنت سعيدة أوّل الأمر، وأحاول أن أعود بشغفٍ إلى عملي. لكنّي أخفقتُ، وبدت لي المشاكل أخطرَ من مقطعٍ يُساء تأويله، وفقرةٍ عرجاء.

ثم رنّ الهاتف ذات صباح، وردّ بييترو. قال: ألو، ألو، وأغلق

telegram @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

الخطّ. أخذ قلبي يخفق بجنون، هيّأتُ نفسي للركض إلى جهاز الهاتف كي أسبق زوجي. لم يعد يرنّ. مرَّت ساعات حاولتُ فيها أن أشرد في مراجعة النصّ. وكانت فكرة سيِّئة للغاية، إذ بدا لي النصّ ركامًا لأفكارٍ غبيّة، سبَّب لي إعياءً فنمتُ على المنضدة. ثم رنّ الهاتف مرّة أخرى، وردّ بييترو أيضًا صاحَ، مخيفًا ديدي: ألو؛ وخبط السمَّاعة كأنّه يريد تحطيم الهاتف.

إنَّه نينو، وكلانا، أنا وزوجي، يعلم ذلك. فموعد المؤتمر يقترب، ولا شكّ في أنّه يريد الإلحاح على أن أرافقه. كان ينوي جرّي إلى مادِّيَّة الرغبات مجدَّدًا. أراد أن يثبت لي أنَّ إمكانيَّتنا الوحيدة هي في علاقة غير شرعيّة نعيش فيها حتى تنتهي، بين مُتَع وأفعال قذرة. الحياة هي الخيانة، واختلاق الأكاذيب، والرحيل معًا. كنت سأركب الطائرة للمرَّة الأولى، وكنت سأتشبَّث بساعده لحظة الإقلاع، كما في الأفلام. ولِمَ لا؟ بعد مونبيلييه، في إمكاننا الذهاب إلى نانتير، إلى صديقة ماريّاروزا، كنت سأكلِّمها عن كتابي، وأتداول معها المبادرات، وأقدِّم إليها نينو. آه، أجل، ما أجمل أن يرافقني الرجل الذي أحببتُه لأستظلّ بفيء قوّته التي لا يكسرها أحد. راحت مشاعر القسوة تلين؛ والفكرة تغويني.

مكتبة الرمحي أحمد

ذهب بييترو في اليوم التالي، إلى الجامعة وانتظرتُ اتّصال نينو. لم يحدث. فاتّصلتُ به أنا، باندفاعةٍ متهوِّرة. انتظرتُ بضع ثوانٍ، وكنت في قمَّة التوتُّر، لا تشغل ذهني سوى الحاجة إلى سماع صوته. وبعد ذلك؟ لا أعرف. ربّما كنت سأعاتبه، وأبدأ بالبكاء. أو ربّما سأصرخ: حسنًا، سآتي معك، سأكون عشيقتك، سأكون كذلك حتى تملّ منّي وتضجر. لكنّي في تلك اللحظة، لم أكن آمل سوى أن يردّ.

أجابت إليونورا. سيطرتُ على صوتي قبل أن يتكلَّم إلى طيف

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

نينو، لائذةً بانقطاع الأنفاس عبْر خطّ الهاتف بكلماتٍ مجازفة لا أدري ما تكون؛ وجعلتُه يبدو في نبرة بهيجة: مرحبًا، أنا إيلينا غريكو، كيف حالكِ، كيف كانت إجازتكِ، وكيف ألبرتينو؟ تركتني أتكلّم وهي صامتة، ثم صاحت: أنتِ إيلينا غريكو إذن، أنتِ العاهرة، العاهرة المنافقة. دعي زوجي وشأنه وإيّاكِ أن تتّصلي ثانيةً، لأنّي أعرف أين تسكنين، وقسمًا بالربّ، أتيتُ إلى حيث أنتِ وهشّمتُ وجهكِ. وأنهت المكالمة.

١١٩

بقيتُ إلى جوار الهاتف لوقت طويل. كنت مشحونة بالحقد، ورأسي يلهج بعبارات من هذا القبيل: أجل، تعالي، تعالي فورًا، أيّتها اللعينة، لا أنتظر سوى مجيئكِ، من أيّ مكانٍ قميء أنتِ، من حيّ تاسّو، من شارع فيلانجييري، من شارع كريسبي، من سانتاريلا، وتريدين أن تتعاركي معي، أيّتها القذرة، أيّتها الفسوة، لا تعلمين مع من وقعتِ، أيّتها الرخيصة. كان هنالك شخصيّة أخرى تسعى إلى النهوض من أعماقي، هناك حيث دُفِنت تحت قناع الدماثة، وكانت تناقشني في صدري، مازجةً الإيطاليّة الفصحى بعامِّيَّة الطفولة وألفاظها؛ فيتأجَّج الغليان في باطني. إن تجرّأت إليونورا على المجيء إلى بابي كنت سأبصق في وجهها، وأرميها من على السلالم، وأجرّها من شعرها إلى الطريق، وأفتق رأسها المليء بالخراء على الرصيف. كان صدري يؤلمني، وصدغاي ينبضان. وقد بدأت بعض أعمال الترميم تحت البيت، فدخل القيظ وغبار الحفريّات المنفوح من النافذة، فضلًا عن ضجيج الآليّات المزعج. وكانت ديدي تتشاجر مع إيلسا في الغرفة الأخرى: لا ينبغي لكِ أن تقلّديني في كلٍّ ما أفعله، يا

مكتبة الرمحي أحمد telegram @ktabpdf

لك من قردة، القِرَدة فقط تفعل ذلك. أدركتُ شيئًا فشيئًا: لقد قرَّر نينو أن يتكلَّم مع زوجته، ولهذا السبب هاجمتني. فانتقلتُ من الغضب إلى فرحةٍ لا يُكبَح لها جماح. كان نينو يريدني، إلى درجة أنّه أطلع زوجته على كلّ قصّتنا لقد خرّب زواجه، وتخلَّى عن مزايا الرخاء الناجمة عنه، في كامل وعيه، وأخلّ باتّزان حياته وأنقذني من الشقاء ليجعله من نصيب إليونورا وألبرتينو. إنّه يحبّني إذن، هذا صحيح. تنفّستُ الصعداء سرورًا رنَّ الهاتف مرَّة أخرى، فسارعتُ إلى الردّ.

كان نينو حينئذ، هذا صوته. بدا لي هادئًا قال إنَّ زواجه بات منتهيًا، وإنّه الآن حرٌّ وسألني:

«هل تكلّمتِ مع بييترو؟»

«لقد بدأتُ».

«ألم تخبريه بالأمر بعد؟»

«نعم، ولا».

«هل تفكّرين في الرجوع عن قرارِكِ؟»

«لا».

«تعجّلي إذن، علينا أن نغادر».

كان قد وضع في الحسبان أنّي ذاهبة معه. سنلتقي في روما، كان قد جهَّز كلَّ شيء: الفندق وتذكَرَتَي الطائرة.

«لديّ مشكلة الطفلتين» قلت بهدوء، ولكن من دون اقتناع.

«أرسليهما إلى والدتكِ».

«لا أفكِّر في هذا الحلِّ إطلاقًا».

«اصطحبيهما معك، إذن».

«هل تتكلَّم جدِّيًا؟»

«أجل».

«هـل سـتـأخـذنـي مـعـك، فـي أيّ حـال، حـتـى لـو اصـطـحـبـتُ الطفلتين؟»

«بالتأكيد».

«أنت تحبّني حقًّا»، غمغمتُ.

«أجل».

١٢٠

اكتشفتُ أنِّي منيعةٌ وقاهرة، على حين غرّة، كما في أحد الفصول المنقضية من حياتي، حين بدا لي أنّ كلّ شيء مسموح. لقد وُلدتُ محظوظة. وحتى عندما بدا القدر معاديًا، كان في الحقيقة يعمل لمصلحتي. بالتأكيد، هذه إحدى ميزاتي. لقد كنتُ مرتَّبة، قويَّة الذاكرة، وأجتهد بدأبٍ عظيم، وقد تعلَّمتُ استخدام الأدوات التي ابتكرها الذكور، وكنت أتقن الربط المنطقيّ لأيّ خليط من الأفكار المتشرذمة، وأعرف الإغواء. لكن للحظّ وزنًا أكثر من أيّ شيء آخر، وكنت فخورة بأنّه يحالفني دومًا كصديقٍ صدوق. وقد اطمأنّ خاطري من عودة الحظّ إلى جانبي. لقد تزوَّجتُ رجلًا فاضلًا، وليس دنيئًا مثل ستيفانو كارّاتشي، أو الأسوأ منه ميكيلي سولارا. وربّما أشتبك معه، وقد يعاني، لكنّنا سنصل إلى اتّفاق في النهاية. لا شكّ في أنّ رمي الزواج والعائلة أدراجَ الرياح سيكون أمرًا محزنًا. وبما أنّه لا رغبة لكلينا في إطلاع أهلنا على الأمر، كلٌّ لأسبابه المختلفة، فإنّنا لا يمكننا حتى أن نعتمد على عائلة بييترو، مباشرةً، إذ لطالما عرفت هذه العائلة كيف تتصرّف إزاء أيّ مشكلة، وإلى من تتّجه لمواجهة ظروف

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

معقّدة. لكنّي كنت أشعر بالاطمئنان أخيرًا كنّا راشدَين متعقّلَين، وفي إمكاننا تداول المسألة، والنقاش بشأنها، والخروج بتفسير واضح. ولم يبق في فوضى تلك الساعات سوى أمر واحد لا يجب رفضه: الذهاب إلى مونبيلييه.

تكلّمتُ مع زوجي في مساء اليوم نفسه، واعترفتُ له بأنّ نينو عشيقي. فعل كلّ ما في وسعه كي لا يصدِّق. وحين أقنعته بأنّها الحقيقة، راح يبكي، ويتوسّل إليّ، ويغضب. رفع سطح الطاولة الزجاجيّ وضرب به الحائط على مرأى الطفلتين المذعورتين، واللتين استيقظتا من شدّة صياحنا، وكانتا مشدوهتين عند عتبة الصالة. صدمني ذلك العنف، لكنّي لم أتهاون. أرجعتُ ديدي وإيلسا إلى سريريهما، وطمأنتُهما، وانتظرتُ حتى تناما ثم عدت لمواجهة زوجي، وصارت كلّ دقيقة تمضي جرحًا أليمًا في المقابل، بدأت إليونورا تُمطرنا بمكالماتها، ليلًا نهارًا، وتشتمني، وتشتم بييترو لأنّه ناقص الرجولة، وتتوعّدنا بأنّ أهلها سيبذلون ما في وسعهم لفقء عينَيّ، وعيون زوجي وابنتَيّ، فلا نستطيع حتى البكاء على حالنا

لكنّي لم أُعر إهاناتها اهتمامًا كنت في نشوةٍ تمنعني من الشعور بأنّي على باطل. بل لقد بدا لي أنّ الآلام التي أسبّبها، والمَذلَّةَ والتجريح اللذين أتلقّاهما، تعمل كلّها من أجلي. لم تكن تلك التجربة المضنية تساهم في أن أصير شيئًا ما أفتخر به فحسب، وإنّما ستكون مفيدة، بطريقة غامضة، لمن يتألّم أيضًا ستُدرك إليونورا أنّ الحبّ لن يجدي نفعًا، إذ لا معنى لأن تقول لشخصٍ ينوي الرحيل: كلّا، عليك أن تبقى هنا. وبييترو، الذي لا بدّ من أنّه يعرف هذا المبدأ نظريًّا، لن يكون محتاجًا إلّا إلى الوقت لاستيعابه، وتحويله إلى حكمة، وتطبيقه بالتسامح.

telegram @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

أمّا بالنسبة إلى الطفلتين، فكانت الأمور صعبة للغاية. أصرّ زوجي على أن نخبرهما بأسباب شجارنا وأنا كنت أعارض: لا تزالان صغيرتين، كنت أقول، كيف لهما أن تفهما؟ لكنّه صرخ في وجهي، في لحظة ما إذا كنتِ قد قرّرتِ الرحيل، فعليكِ أن توضّحي الأمر لابنتيكِ. وإذا كنتِ تفتقدين الشجاعة فابقي إذن، هذا يعني أنّكِ أنتِ بنفسكِ لا تؤمنين كثيرًا بما ستُقْدمين عليه. غمغمتُ: فلنتحدّث مع محامٍ. أجاب: ما زال هناك الوقت للمحامين. استدعى ديدي وإيلسا، بصوتٍ جهير، وبشكلٍ لاإراديّ، وما إن سمعتنا الطفلتان نصيح حتى عادتا إلى الانزواء في غرفتهما، متلاصقتين.

«أمّكما تريد أن تخبركما بأمر ما» صرّح بييترو، «تعالا واجلسا واسمعا».

جلست الطفلتان بكلّ جدّيّة على الأريكة وانتظرتا. قلت:

«أنا ووالدكما يحبّ أحدنا الآخر، لكنّنا لم نعد على وفاق، وقرّرنا أن ننفصل».

«ليس صحيحًا»، قاطعني بييترو بهدوء، «أمّكما هي التي قرَّرت أن تمضي وشأنها كما ليس صحيحًا أنّنا يحبّ أحدنا الآخر، بل هي لم تعد تحبّني»

انفعلتُ:

«أيّتها الصغيرتان، الموضوع ليس بهذه البساطة. في إمكاننا أن نحافظ على المحبّة من دون أن نعيش تحت سقف واحد».

قاطعني ثانيةً.

«وهذا خاطئ أيضًا إمّا أن يحبّ أحدنا الآخر، فنعيشَ معًا في ظلّ أسرة واحدة؛ وإمّا أنّنا لم يعد يحبّ أحدنا الآخر، فننفصل حينئذٍ، ولا نكون أسرة واحدة. كيف لهما أن تستوعبا الأمر إن كنتِ تصرّين

على قصّ الأكاذيب؟ رجاءً، اشرحي لهما سبب الانفصال بحقٍّ ووضوح».

قلت:

«أنا لن أترككما، فأنتما أعزّ ما أملك، لا أستطيع العيش من دونكما، سوى أنَّ لديَّ بعضَ المشاكل مع والدكما».

«ما هي؟» ألحَّ عليّ. «أوضحي ما هي هذه المشاكل».

تنهّدتُ، وغمغمتُ:

«أنا أعشق رجلًا آخر وأرغب في أن أعيش معه».

استرقت إيلسا النظر إلى ديدي لتعرف كيف عليها أن تتصرَّف حيال ذلك النبأ وبما أنّ ديدي ظلَّت صامتة، حافظت إيلسا على صمتها بدورها لكنَّ زوجي صاح نافد الصبر

«اسمه؛ قولي لهما اسم هذا الرجل الآخر أم أنّكِ لا تريدين؟ أتشعرين بالعار؟ سأقوله نيابةً عنكِ: أنتما تعرفان هذا الرجل الآخر، إنّه نينو؛ هل تتذكّرانه؟ أمّكما تريد أن تذهب لتعيش معه».

ثم راح يبكي من شدّة الإحباط، بينما توجَّست إيلسا وغمغمت: هلّا أخذتِني معكِ يا ماما؟ لكنَّها لم تنتظر إجابتي. وعندما نهضت أختها وتركت الصالة راكضة، تبعتها على الفور.

صرخت ديدي في منامها، في تلك الليلة، فاستيقظتُ مذعورةً، وهرعتُ إليها كانت نائمة، لكنّها بلّلت السرير. فاستوجب عليّ إيقاظها، وتغيير لباسها والأغطية. وحين أعدتُها إلى السرير، غمغمتْ بأنّها تريد النوم في سريري. فوافقتُ، وأبقيتُها إلى جانبي. وكانت تجفل بين الفينة والأخرى، لتتأكَّد من أنّي ما زلت موجودة.

١٢١

كان موعد الرحيل يقترب، ولم تتحسَّن الأمور مع بييترو. وبدا من المستحيل التوصُّل إلى أيّ اتّفاق، حتى لو كان من أجل الرحلة إلى مونبيليه فقط. إن ذهبتِ ـ كان يقول ـ فلن أدعكِ ترين الصغيرتين بعدها؛ أو: إن أخذتِ معكِ الطفلتين، فسأقتل نفسي؛ أو: سأرفع ضدّكِ شكوى لخروجك عن الطاعة الزوجيّة؛ أو: فلنقم برحلة نحن الأربعة، فلنذهب إلى ڤيينا؛ أو: أيّتها الطفلتان، أمّكما تفضّل السيّد نينو سارّاتوري عليكما.

بدأتُ لا أحتمل هذا العبء. تذكَّرتُ ممانعة أنطونيو حين تركتُه. لكنّ أنطونيو كان فتًى، وقد ورث لوثة عقله من ميلينا، ولم يخضع لتلك التربية التي خضع لها بييترو. فالأخير لم يعتد في نعومة أظفاره على تحديد القواعد ضمن الفوضى. ففكَّرتُ في أنِّي ربَّما أعطيتُ الاستخدام المتثقِّف للمنطق قيمةً أكثر ممَّا يستحقّ، ناهيك بالقراءات الرفيعة، واللغة شديدة الإحكام، والانتماء السياسيّ. ربَّما نحن جميعًا متشابهون في مواجهة الهجران؛ ربَّما صاحب العقل الناضج أيضًا لا يستطيع الصمود إذا اكتشف أنّه غير محبوب. لم يكن في اليد حيلة:

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

زوجي متيقِّنٌ من أنَّه يجب عليه أن يحميني بأيِّ ثمنٍ من عضَّة رغباتي السامَّة؛ وهكذا كان مستعدًّا للّجوء إلى أيِّ طريقة، حتى لو كانت خسيسة، في سبيل أن أبقى زوجةً له. هو الذي صمَّم على فكرة الزواج المدنيّ، هو الذي كان لا يعارض فكرة الطلاق أبدًا، راح يتطلَّع إلى أن يدوم الرباط بيننا إلى الأبد، بعد أن اختلَّ شيءٌ ما في داخله، كما لو كنّا متزوَّجين أمام الربّ. وإزاء عزيمتي على وضع نهاية لقصّتنا، سلك في البدء شتَّى طرق الإقناع، ثم أخذ يحطِّم الأغراض، ويلطم على وجهه، ويشرع في الغناء على حين غرّة.

كان يُغضبني حين يبالغ في تلك الطريقة، فأصرخ في وجهه بالشتائم. فكان يتبدَّل على الفور، كالعادة، ويصبح مثل حيوان أليف فجأة، ويجلس قربي ويعتذر منِّي، ويقول إنَّه ليس ساخطًا عليَّ، لكنَّ رأسه لم يعد يعمل جيِّدًا باح لي ذات ليلة وهو يبكي بأنّ آديلي لطالما خانت أباه، وقد اكتشف الأمر منذ أن كان صغيرًا عندما كان عمره ستّة أعوام، رآها تقبِّل رجلًا ضخمًا، ثيابه زرقاء، في صالة الجلوس الكبيرة التي تشرف على البحر، في بيتهم في جنوا كان يتذكَّر التفاصيل: للرجل شاربان كبيران كأنَّهما نصل سكِّينٍ غامقة اللون؛ وعلى بنطاله ثمّة بقعة لامعة تبدو مثل عملة حديديّة من فئة المئة ليرة؛ وأمّه، قبالة ذلك الرجل، كانت تبدو مثل قوس مشدود قد ينقطع في أيِّ لحظة. أصغيتُ إليه صامتةً، وحاولتُ أن أواسيه: اهدأ، إنَّها ذكريات مزيَّفة، وأنت تعلم هذا جيّدًا، وليس عليّ أنا أن أُخبرك بهذا. لكنّه عاد إلى إصراره: آديلي كانت بمايوه زهريّ مكشوف، انزلقت إحدى كتّافتيها عن كتفها المسمرّ؛ أظفارها الطويلة بدت من زجاج؛ وشعرها ضفيرة سوداء تتمايل على رقبتها كحيّة صغيرة. وقال في النهاية، منتقلًا من التألُّم إلى الغضب: هل فهمتِ أيّ أذًى تسبِّبينه لي؟

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

هل عرفتِ في أيّ رعب رميتِني؟ ففكَّرتُ: ديدي أيضًا ستذكر، ديدي أيضًا ستصرخ بشيء مماثل حين تكبر لكنّي تجاهلتُ الأمر في ما بعد، متيقِّنةً من أنّ بييترو يحدِّثني عن أمِّه آنذاك، بعد أعوام طويلة، لا لشيء سوى ليدفعني إلى فكرة كتلك، ليجرحني، ويُبقي عليّ.

استمررنا كذلك ليلًا نهارًا، على الرَّغم من الإرهاق، ولم نعد ننام. وإن كان زوجي يعذِّبني، فإنَّ نينو يعذِّبني على طريقته أيضًا عندما كنت أشعر بالألم من فرط التوتُّر والاضطراب، كان ينفعل بدلًا من أن يواسيني، ويقول: تظنِّين أنّ الأمر سهلٌ بالنسبة إليّ، لكنّي أعيش في جحيم ها هنا لا يقلّ عمّا تعيشينه أنتِ. أنا خائف من أجل إليونورا، خائف ممّا قد تفعله بنفسها، لذا لا تحسبي أنّي لا أعاني بقدر ما تعانين، وربّما تكون معاناتي أشدّ وطأة ممّا تمرِّين فيه. وكان يهتف: لكنّنا أنا وأنتِ معًا سنكون أقوى من الجميع. ارتباطنا ضرورة لا بدّ منها، هل هذا واضح، قولي، أريد سماعه منكِ، هل هذا واضح؟ أجبته: واضح. لكنّ كلماته لم تساعدني كثيرًا. وكنت أستجمع قواي وأنا أتخيَّل اللحظة التي سنلتقي فيها أخيرًا ونستقلّ الطائرة إلى فرنسا عليّ أن أصمد حتى تلك اللحظة ـ كنت أقول في سرِّي ـ ثم نرى ما بعدها حتى ذلك الحين، كنت لا أطمح إلّا إلى تأجيل العذاب، لم أعد أطيق صبرًا قلت لبييترو، في ذروة إحدى مشاجراتنا المحتدمة، على مرأى ديدي وإيلسا:

«هذا يكفي. سأسافر خمسة أيّام فقط، ثم أعود لنرى ما يمكن فعله. هل هذا يناسبك؟»

التفت إلى الطفلتين:

«أمّكما تقول إنّها ستغيب خمسة أيّام، ولكنْ هل تصدّقانها؟»

أومأت ديدي برأسها نافية، وإيلسا أيضًا.

مكتبة الرمحي أحمد
telegram @ktabpdf

«حتى هما لا تصدِّقانكِ» قال بييترو، «يعلم جميعنا بأنّكِ ستتركيننا ولن تعودي أبدًا».

سجدت ديدي وإيلسا أمامي، في هذه الأثناء، كأنّهما تتلقّيان إيعازًا محدّدًا، وعانقتا ساقَيّ، وتوسَّلتا إليّ عدم الرحيل، والبقاء معهم. فلم أقاوم. جثوتُ على ركبتيّ وضممتُهما إلى حضني، وقلت: حسنًا، لن أغادر، أنتما طفلتاي، سأبقى معكما فهدّأت هذه الكلماتُ روعهما، واستعاد بييترو سَكينته شيئًا فشيئًا، وانصرفتُ إلى غرفتي.

آهٍ، يا إلٰهي، كم كان كلّ شيء مضنيًا هم، وأنا، والعالم بأسره؛ لم تكن الهدنة ممكنة إلّا من خلال الكذب. تبقّى على الانطلاق يومان فقط. كتبتُ رسالة طويلة إلى بييترو، وأخرى موجزة إلى ديدي مع التوصية بأن تقرأها على مسمع إيلسا وضّبتُ حقيبة وأخفيتُها تحت السرير في غرفة الضيوف. اشتريتُ كلّ ما يلزمهم، وملأتُ الثلّاجة. حضّرتُ وجباتٍ للغداء والعشاء، من تلك التي يعشقها بييترو، وتناولها بامتنان. وعادت الطفلتان، بمعنويّات عالية، تتنازعان على أيّ شيء.

مكتبة الرمحي أحمد telegram @ktabpdf

١٢٢

كلّما اقترب موعد الرحلة، اختفى نينو وكفّ عن الاتّصال. حاولتُ أن أتّصل به، آملة ألّا تردّ عليّ إليونورا. أجابت الخادمة، وحينذاك شعرتُ بالسرور، سألتُها عن البروفسور سارّاتوري. فكانت الإجابة واضحة وقاسية: تفضّلي بالتكلّم إلى السيّدة. فأغلقتُ الخطّ، وانتظرتُ. كنت آمل أن تسبّب المكالمة فرصةً للصدام بين الزوجين، فيعلم نينو بأنّي كنت أبحث عنه. رنّ الهاتف بعد عشر دقائق. هرعتُ إلى الردّ، وكنتُ على يقين بأنّه هو. فإذا هي ليلا

لم نكن قد تهاتفنا منذ زمن، ولم يكن لديّ رغبة في الحديث معها. أزعجني صوتها في تلك الآونة، كان اسمها وحده، إذا ما اجتاز ذهني كثعبان الماء، يشوّشني ويثبط عزيمتي. ثم إنّ اللحظة لم تكن مناسِبةً للثرثرة: ماذا لو اتّصل نينو ووجد الخطّ مشغولًا، في حين كانت الاتّصالات عسيرة أصلًا؟

«هل يمكن أن أتّصل بكِ بعد قليل؟» سألتُها.

«هل أنتِ مشغولة؟»

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

«نوعًا ما».

تجاهلت طلبي. كانت تعتقد كالعادة أنّ في وسعها دخولَ حياتي والخروج منها من دون أدنى اكتراث، كما لو كنّا شيئًا واحدًا ولا داعي للسؤال. «كيف حالكِ»، «بخير»، «هل أزعجكِ». قالت بنبرة متعَبة إنّها تلقّت للتوّ نبأً سيّئًا والدة الأخوين سولارا قُتِلَتْ. تحدّثتْ ببطء، حريصةً على كلّ كلمة تقولها، وأصغيتُ إليها من دون أن أقاطعها أعادت كلماتُها إلى ذهني تدريجيًّا صورة المرابية بفستانها البهيج حينما كانت جالسة إلى طاولة العروسين في زفاف ليلا وستيفانو؛ والمرأة الممسوسة التي فتحت لي الباب عندما كنت أبحث عن ميكيلي؛ وطيف الأنثى التي هجسنا بها في طفولتنا وهي تطعن الدون آخيل؛ والسيّدة العجوز التي كانت تضع زهرة مصطنعة بين ضفائر شعرها، وتلوّح بمروحة اليد الزرقاء وهي تقول مشدوهةً: أشعر بالحرّ، وأنتم أيضًا؟ لكنّ عواطفي لم تتأثّر البتّة، ولا حتى عندما أشارت ليلا إلى الشائعات التي وصلتها وعدّدتْها لي بأسلوبها الناجع. قتلوا مانويلا ذبحًا بالسكّين؛ أو أطلقوا عليها خمس طلقات ناريّة، أربعًا في الصدر وواحدة في العنق؛ أو أجهزوا عليها لكمًا ورفسًا وسحلوها في كلّ أنحاء الشقّة؛ أو أنّ القتلة ـ هكذا سمَّتهم ـ لم يدخلوا البيت أساسًا، بل رموها بالنار ما إن فتحت لهم الباب، فسقطت مانويلا على وجهها عند المستراح، بينما لم ينتبه زوجها، الذي كان يشاهد التلفاز، إلى أيّ شيء. ما هو مؤكَّد ـ قالت ليلا ـ أنّ الأخوين سولارا تلبّسهما الجنون، وثارت ثائرتهما، وراحا ينافسان الشرطة في البحث عن الضالعين في الجريمة، وقد طلبا مؤازرة من رجال نابولي وغيرها، وتوقّفت كلّ أنشطتهما أنا مثلًا لن أعمل اليوم، وبات الفزع يشوب الحياة هنا، ليس في الإمكان التنفّس حتى.

مكتبة الرمحي أحمد telegram @ktabpdf

كم كانت بارعة في إضفاء الأهمِّيَّة والعمق إلى ما كان يحدث لها وما حولها: المرابية المقتولة، نجلاها المصدومان، بلطجيَّتهما الحاضرون لإراقة المزيد من الدماء، وشخصيّتها المحترسة وسط خضمّ تلك الأحداث. وصلت في النهاية إلى غاية المكالمة:

«سأرسل إليكِ جينّارو غدًا أعلم بأنّي أثقل عليكِ، لديك ابنتاكِ، وشؤونكِ، لكنّي هنا، وسط هذه الأجواء، لا أستطيع أن أبقيه إلى جانبي، ولا أريد. سيتغيّب قليلًا عن المدرسة، لا بأس. إنّه متعلّق بكِ، وسيكون في أحسن حال عندكِ، وأنتِ الشخص الوحيد الذي أثق به».

تمعّنتُ بضع ثوان في تلك الجملة الأخيرة: أنتِ الشخص الوحيد الذي أثق به. فخطر لي أن أضحك، لم تكن تعلم بعد بأنّي أصبحتُ عديمة الثقة. لذا لم أتردّد في رفض هذا الطلب، الذي لا يشكّ في جمود حياتي داخل أصفى معاني العقلانيّة، والذي يرى وجودي كحبّةٍ حمراء على غصن نبتة السفندر. قلت لها

«إنّي على وشك المغادرة، سأترك زوجي».

«لم أفهم».

«زواجي بحكم المنتهي يا ليلا التقيتُ نينو ثانيةً واكتشفنا أنَّنا لطالما أحبّ أحدنا الآخر، منذ أن كنَّا صغارًا، ومن دون أن ننتبه لذلك. لذا سأرحل، وسأبدأ حياة جديدة».

ساد صمت طويل، ثم سألتني:

«هل أنتِ تمزحين؟»

«لا».

بدا لها من المستحيل أن أُنشِب الفوضى في حياتي، وفي رأسي المرتَّب بعناية، وأخذت تلحّ عليّ بالإشارة إلى زوجي تلقائيًا قالت إنّ

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

بييترو رجل فريد من نوعه، وطيِّب القلب، وخارق الذكاء. لا بدّ من أنّكِ جُننتِ لتتخلّي عنه، فكِّري في الأذى الذي ستلحقينه بابنتيكِ. لم تنوِّه إلى نينو في كلِّ كلامها، كما لو أنَّ ذلك الاسم توقَّف عند صيوان أذنيها ولم ينفذ إلى دماغها حتى توجَّب عليّ أن أكرِّر لفظه حين قلتُ: لا يا ليلا، لم أعد أستطيع الاستمرار مع بييترو، لأنِّي لم أعد أستطيع الاستغناء عن نينو، سأرحل معه مهما حدث. وألقيتُ جملًا أخرى من هذا القبيل تشبه المديح والتعظيم. فإذا بها تهمّ بالصياح:

«هل تضيِّعين كلّ ما وصلتِ إليه سُدًى من أجل نينو؟ هل تخرّبين بيتكِ وعائلتكِ من أجل ذاك؟ أتعلمين ما الذي سيحدث لكِ؟ سيستعملكِ، سيمتصّ دمكِ، سيقتلع منكِ الرغبة في الحياة، ثم يهجركِ. لماذا درستِ كثيرًا؟ ما الذي جنيتُه من التيمُّن بأنَّكِ ستنعمين بحياة رائعة من أجلي أيضًا؟ لقد أخطأتُ، أنتِ حمقاء».

١٢٣

رميتُ السمَّاعة كما لو كانت حارقة. إنَّها غيورة، قلت لنفسي، وحسودة، وتكرهني. أجل، هذه هي الحقيقة. ثم مرَّت ثوانٍ متسلسلة وطويلة، لم تعد إلى ذهني والدةُ سولارا، تلاشى جسدها المحكوم بالموت. لكنِّي تساءلتُ بتوتُّر لماذا لم يتَّصل نينو، هل من الممكن أن يرجع عن قراره، الآن وقد رويتُ على ليلا كلّ شيء، فيجعل منِّي مدعاة للسخرية؟ رأيتُ نفسي برهةً وأنا ألجأ إليها بكلّ ما في شخصيَّتي من هشاشة ممكنة بعد أن قضيتُ على نفسي في سبيل وهم. ثم عاد الهاتف إلى الرنين. بقيتُ جالسة أحدِّق فيه، خلال رنَّتين أو ثلاث. وعندما أمسكتُ السمَّاعة، كان على رأس لساني كلامٌ جاهز لليلا: لا تُهَيمني عليّ بعد اليوم؛ ليس لديكِ أيّ سلطة على نينو؛ دعيني أخطئ كما يحلو لي. لكنَّها لم تكن على الجانب الآخر؛ بل كان نينو. غمرتُه بعبارات متلهِّفة، من سعادتي لسماعه. قلت له كيف جرت الأمور مع بييترو والطفلتين، وأخبرته بأنَّ من المستحيل التوصُّل إلى اتِّفاق بتعقُّلٍ وسكينةٍ، وأنِّي وضَّبتُ الحقيبة وكنت متشوِّقة إلى معانقته. فروى عليّ ما حدث من شجار عنيف مع زوجته، وكانت الساعات الأخيرة لا

مكتبة الرمحي أحمد
telegram @ktabpdf

تُطاق. غمغم: مع أنّي خائف للغاية، لا أستطيع أن أرى حياتي من دونكِ.

طلبتُ من جارتنا، في اليوم التالي، بينما كان بييترو في الجامعة، أن ترعى ديدي وإيلسا لساعات قليلة. تركتُ الرسالتين على الطاولة في المطبخ، وانصرفتُ. فكَّرتُ: إنِّي على وشك القيام بأمر عظيم سيلغي كلّ طريقة العيش القديمة، وإنِّي جزء من هذا الإلغاء. بلغتُ نينو في روما، التقينا في فندق على مقربة من المحطَّة. وكنت إذ أعانقه أقول لنفسي: لن أعتاد أبدًا على هذا الجسد المنفعل، إنَّه بمثابة مفاجأة لا تنتهي. عظامٌ طويلة، جلدٌ ذو رائحة مثيرة، كتلةٌ، قوّةٌ، غليانٌ، بعيدٌ كلّ البعد عمّا كان عليه بييترو، وعن العادات التي رسخت بيننا

صعدتُ على متن الطائرة، في الصباح التالي، ولأوَّل مرَّة في حياتي. لم أكن أعرف كيف أربط الحزام، فساعدني نينو. كم كان مهيِّجًا للمشاعر أن أشبك يده بقوَّة بينما دوّي المحرِّكات يعلو، يعلو، يعلو، والطائرة تبدأ بالتحرُّك. كم كان باعثًا على الدهشة أن ننفصل عن الأرض بخضَّة قويَّة، ونرى المنازل تصبح متساوية السطوح، والشوارع تتحوَّل إلى خطوطٍ ضيِّقة، والريف يغدو بقعةً خضراء، والبحر يميل مثل صفيحة متماسكة، والغيوم تتهاوى إلى الأسفل في ما بدا تدحرجًا لصخورٍ رخوة، والقلق، والألم، والسعادة نفسها من كونها تصبح جزءًا من حركة واحدة، منيرة وساطعة. خطر في ذهني أنَّ التحليق يُخضِع كلّ شيء لعمليَّة تبسيط. تنهَّدتُ، وحاولتُ أن أسترخي. وسألتُ نينو أحيانًا: هل أنت سعيد؟ كان يومئ بنعم، ويقبِّلني. وكنت أشعر، بين الفينة والفينة، بأنَّ الأرضيَّة تحت قدميّ ـ السطح الوحيد الذي يُعتمَد عليه ـ كانت ترتجّ.

إيطاليا في الستّينيّات والسبعينيّات من القرن الماضي. التوتُّرات السياسيّة بين الشيوعيين والفاشستيين في أوجها. ترحل لينا الراوية من أزقّة نابولي الفقيرة إلى حياة مترفة مع زوجها البروفيسور "بييترو" وعائلته المرموقة.
فيما ليلا تترك زوجها وتنضمّ إلى صفوف الطبقة العاملة.
قذف الجزء الثالث من "صديقتي المذهلة" الروائيّة إيلينا فرّانتي إلى العالميّة لتصبح أهمّ من كتب عن علاقات الصداقة القويّة والملتبسة، وعن أسرار الانتماء والحبّ.
نظرتُها ثاقبة، سردُها جارف، وصفُها متجدِّدٌ لحياتنا اليوميّة؛ لحياةٍ نحتاج أن ترويَها لنا امرأةٌ بهذه الطريقة البديعة.

The New York Times Book Review

ربّما هي أفضلُ كاتبةٍ عرفتْها الروايةُ الحديثة. أدبُها شفّافٌ كالبلُّور، حكاياتُها غرائزيّة وعميقة في آن واحد.

The Economist

هي، قبل كلّ شيء، ماهرة في صناعة الحبكات والمكائد.

The Independent

ليس ثمّة مَنْ كتب عن إيطاليا وأحاسيسها وأحيائها ومذاقاتها وعواطفها العنيفة مثلما فعلتْ فيرّانتي.

IL Manifesto

تُحْفَةٌ بكلِّ ما في الكلمة من معنى... قرأت كلّ الكتب وأنا في حالٍ من الانغماس؛ ووقعتُ في سحرها. لم أرغب إلّا في ملاحقة حياة ليلا وإيلينا حتى النهاية.

Jhumpa Lahiri (Pulitzer Prize Winner)

ISBN: 978-9953-89-560-4
9 789953 895604

دار الآداب
بيروت - لبنان
هاتف: 795135-+9611861633

تصميم الغلاف: نجاح طاهر